الأدب في العصر الأيوبي

الدكتور محمد زغلول سلام
أستاذ اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٩٠

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزى وشركاه



بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

أقدم للقارئ العربي بين دفتي هذا الكتاب خلاصة لدراسة عصر من عصور الإفاقة العربية الإسلامية بدأه صلاح الدين الأيوبي فأرسى قواعده . ووضع أساس النضال العربي المجيد ضد الصليبيين . وخلد في التاريخ أمجاداً بطولية في الكفاح ضد الغاصبين . كفاحاً سجله التاريخ والأدب وسجلته المآثر الشعبية في صور من القصص . وبقيت آثار هذا الكفاح تتردد في جنبات الشرق العربي ومصر خاصة ، وتتناقل الأجيال أنباءه في اعتزاز .

وكان خلفاء صلاح الدين ممن تابعوا رسالته حريصين على السير في الطريق الذي خطه لهم . واستمرت دولتهم ما يقرب من قرن من الزمان لم تخمد به جذوة النضال . وكان آخر ملوكهم في مصر تورانشاه قائداً مناضلاً ضد الصليبيين الذين هاجموا مصر عن طريق دمياط في صورة حملة هوجاء قادها لويس التاسع ملك فرنسا . فخاب وخابت وانتهى به الأمر إلى دار ابن لقمان بالمنصورة وبجند فرنسا إلى القتل أو الغرق أو الأسر . وكانت نهاية بالغة الدلالة على ما ينال الباغين على الشعوب . الطامعين في السيطرة عليها واستغلالها بحجة حماية قبر المسيح .

ولئن تشابه ذاك العصر ، وهو من النصف الثاني للمائة السادسة إلى النصف الأول من المائة السابعة ، بعصرنا هذا الذي نعيشه ، فإننا حين نسترجع التاريخ والأدب الذي عاشه أسلافنا وخلدوه إنما نتخذ من الماضي مدداً للمستقبل ، ومن الحاضر خطوة نحو الغد القوي .

ولئن امتاز عصر صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين بأنه كان عصر إفاقة من القهر والضعف الذي فرضته عليهم ظروف التخلف الاجتماعي والسياسي . وكان صحوة ونبضة عارمة وتصميماً على درء الخطر . فإننا كذلك الآن أشد إحساساً بالقوى التي تترصدنا ، لإزالة الكيان العربي الإسلامي وإذابته في موجات من التغرب بطريق الاستعمار الذي يستخدم قوى مادية هائلة ، وقوى معنوية أشد هولاً .

وإذا كان أجدادنا قد استطاعوا وقف موجات التغلغل الصليبي فتكسرت على صخور صفهم الموحد ونضالهم المستميت ، فحافظوا بذلك على الكيان العربي الإسلامي وصانوه من الضياع ، فما أجدرنا اليوم بأن نراجع أنفسنا ونستعيد أمرنا ونصل بين الماضي والحاضر ، ونقف وقفة الآباء ، مصرين إصرارهم ، واعين لما يحدق بنا وعيهم ، متمسكين في الوقت نفسه بأصول تراثنا ومقوماته الروحية والإنسانية والفكرية ، حتى لا نضيع في زحمة التيارات الغربية كما ضاعت كثير من الأمم وفقدت شخصياتها .

وقد كان لمصر دور قيادي في التصدي لموجات الزحف الصليبي أيام الأيوبيين كما كان لها دور قيادي في الحفاظ على تراث العرب والمسلمين في العقيدة وفي الفكر والأدب . ونحاول في هذه الصفحات أن نبرز هذا الدور ، وأن نقف المواطن على تراث أمتنا وصورة من صور كفاحنا الثقافي حتى لا تضيع عبْر السنين وحتى يمكن كما أشرت أن نصل حاضرنا بماضينا ومستقبلنا . وحتى نستطيع أن نرسم أمام أبنائنا الطريق فيتخذون من الدرس الأدبي نبراساً يكشف لهم عن حقائق الماضي فنساعدهم على توجيه خطواتهم في المستقبل . وحتى يمكن أن نتلمس من مقوماتنا التي نحرص عليها ما يدعم حياتنا الحاضرة ويؤمن زحفنا ، ويحصن أبناءنا ضد تيارات فكرية غريبة ومتباينة قد تعصف بمن لا يثبتون أقدامهم على قواعد متينة من الإيمان بأمجادهم ، وتبلبل قلوب من تزعزع إيمانهم بحضارتهم تحت ضغط الحضارة الغربية وإلحاحها الدائم ، وضعف سبل التعريف بحضارتنا وتراثها الداثر .

وكان رائدي في هذا الكتاب أن أتعرض لجوانب الضعف والقوة في مجتمعنا العربي الإسلامي في القرنين السادس والسابع ، في عصر بدا للناس أن مجد الأمة العربية الإسلامية إلى زوال ، وأن مغرب الحضارة الزاهرة قد آذن ، وشمسها مالت لمغيب ، فتعرضت للمشكلات السياسية التي واجهت الأمة العربية الإسلامية ، وضمَّت إلى البلاد العربية شقيقاتها الإسلامية ، لأن الثقافة العربية الإسلامية كانت تمتد من الهند إلى الأندلس ، وتبادل العلم والعلماء قائم بين هذه الدول جميعاً وإن تباعدت أصقاعها ، واختلفت ألوانها السياسية أو تعادى ملوكها وحكامها . فإن الثقافة العربية الإسلامية حينئذ لم تعترف بالحدود

الإقليمية ولا السلطان والفوارق السياسية أو العنصرية . فيخرج العلماء من شتى بلاد المشرق أو المغرب ويجوبون هذا العالم العربى الإسلامى من حدود الهند وأذربيجان إلى أقصى حدود المغرب والأندلس .

وكان حماس الملوك والحكام للثقافة العربية والإسلامية كبيراً ، لا يضنون عليها بغال ، وربما كان « نظام الملك » الوزير السلجوقى مثالاً طيباً لهذا ، فقد بنى عدداً من المدارس فى حواضر العالم الإسلامى سميت باسمه ، وكان من أبعدها صيتاً وأضخمها « نظامية » بغداد التى قامت بدور هام فى نشر الثقافة العربية الإسلامية طوال القرنين السادس والسابع . وقد علّم بها وتخرج جماعة من مشهورى هذين القرنين فى الفقه واللغة والحديث والأدب وعلوم الدين . كان بها الإمام الغزالى ، وابن الجوزى ، وعماد الدين الأصفهانى وغيرهم كالتبريزى وابن الخشاب ممن سنعرض لهم بعد قليل .

وكانت غيرة العلماء على العلم والحفاظ عليه من مميزات هذا العصر ، كان تعبهم فى تحصيله وازدياد المعرفة أمراً ملحوظاً ، فكنت ترى العلماء يقطعون آلاف الأميال ، ويلاقون مشاق السفر وجهد الفاقة للتزود من المختصين المتبحرين أينما كانوا .

ويمثل عصر الأيوبيين من الناحية الفكرية ثورة الفكر السُّنّى ، وإحياء للتراث العربى الإسلامى ، وحرصاً على الذود عنهما ضد تيارات الفكر الفارسي واليونانى أو الهلّلينى ، كما يمثل استماتة فى الدفاع عن ذخائره ضد عوامل الضياع والانحلال والضعف ، والتى بدت فى صورة جمع للذخائر فى موسوعات كبيرة سواء فى الفقه أو اللغة أو الأدب .

ويحاول هذا الكتاب أن يبرز هذا الدور لنرى كيف كان علماء مصر والشام خاصة فى عصر الأيوبيين يبذلون الجهود . وما هى ثمرات تلك الجهود من الرسائل والكتب التى خلفها لنا أولئك العلماء والأدباء ، وماذا كانت آراؤهم وعواطفهم . وجدير بنا أن نعرف كل ذلك . وقد عرضنا له تفصيلاً فى الحديث عن البيئات والمراكز الثقافية ، وعن الأدباء والشعراء .

ويمثل هذا الكتاب محاولة للربط بين البيئات الثقافية فى العالم العربى

الإسلامى فى هذا العصر ، ولعلها – كما يبدو لى – أول محاولة من هذا النوع فى هذا العصر على الأقل تجمع فى صعيد واحد أحوال الثقافة فى المشرق والمغرب رابطة بينهما جميعاً ، كما كان العلماء والأدباء أنفسهم يربطون بينهما فى جولاتهم الطويلة . وانصب الاهتمام على الشام ومصر وبيئاتهما الثقافية ، وعلمائهما وأدبائهما وشعرائهما .

وتبرز هذه المحاولة كيف أن تيار الثقافة الإسلامية أخذ فى التحول التاريخى من المشرق والمغرب ليصب فى مصر والشام ، فى القاهرة والإسكندرية وقوص ، ودمشق وحلب ، وكان العلماء الأجلاء المبرزون يفدون من أصبهان ، أو همذان أو مرو ، أو خوارزم فى أقصى المشرق ، أو من الأندلس وبلاد المغرب فيحلون دمشق وحلب والإسكندرية والقاهرة وقوص وأسيوط . ويطمئنون إلى حياتهم بها تحت رعاية الحكام ، وأمن البلاد ، وإقبال الناس ، فينتجون ما شاءوا ويحفظون من التراث ما علقته أذهانهم . وقد أخذت هذه الحركة تزداد تحت ضغط التتار والمغول فى المشرق ، والمسيحيين فى إسبانيا ، فأصبح العلماء يهاجرون جماعات إلى مصر والشام ، وكأن الله قد اختارهما فى سرة العالم العربى الإسلامى للحفاظ على التراث الخالد ، فلم تتطاول إليه أيدى الخراب ، كما تطاولت إلى بلاد المشرق والأندلس بل ظلت كنوزه مختزنة إلى أن أراد الله الكشف عنها لتمد حركة البعث الجديدة للأمة العربية فى القرن العشرين .

وقد أغفلت دراسة هذه الفترة فى التاريخ الأدبى ، ولم توجه إليها العناية اللازمة الجديرة بها ، إنما كانت دراسة تاريخ الأدب عندنا منصبة على العصر الأموى والعصر العباسى فى مراحله المختلفة ، منصبة على جماعة من الأدباء والشعراء تتردد أسماؤهم وتتكرر ، وأغفلنا هذا العصر ، ومن عاش فيه . مع أن كثيراً من الذخائر العلمية والأدبية قد خرجت منه أو من العصور التالية ، أى طوال أربعمائة سنة كاملة من القرن الخامس إلى العاشر الهجرى ، وتستطيع أن تقف على بعضها فى هذا الكتاب ، وعلى ما يجد من محاولات للعصور التالية إن شاء الله .

بقى أن نشير إلى أن الألوان الأدبية التى تعرضنا لها هنا ، قد لا تروق لكثير

من القارئين لكثرة ما أغرقت فيه من ضروب المحسنات والبديع ، ولكن استساغتها أو عدمها لا يتدخلان فى درس هذا الأدب ، فهو على ما كان يثقله من حُلى تخفى معالمه لا يعدم الجوانب الإنسانية التى نبحث عنها ونفتش ، ولا يعدم أيضاً أن ينقل لنا صوراً للعصر طريفة مشوقة ، كما يعكس لنا عواطف أولئك الناس وخبايا نفوسهم ، ونظراتهم للحياة ، والقيم التى بها يؤمنون . وهذا كله شيء ينبغى أن لا نهمله بحجة أن ذاك الأدب أدب صنعة أو تصنع أو أدب ضعف وتحلل .

فهذه محاولة منصفة لإبراز بعض معالم الأدب المجهول المنسى ، وإلقاء الأضواء عليه لنقف على جوانب ضعفه ، كما وقفنا على جوانب القوة فى أدب الأمويين والعباسيين .

وبعد ، فعلى أن أكون قد قدمت للقارئ العربى الإسلامى بعض ما يستطيع أن يتذكر به ماضيه ، ويقف على تراثه العريق فى طريقنا إلى بناء أمتنا الفتية الناهضة ..

القاهرة فى يونيو ١٩٦٧ **محمد زغلول سلام**

مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

أقدم هذه الطبعة الجديدة المزيدة من كتاب الأدب فى العصر الأيوبى ، وقد زدت فى مادتها ما يقربُ من ثلث الكتاب بعد أن تجمعت لدىّ بعد مضىّ أكثر من عشرين عاماً على ظهور الطبعة الأولى منه مادة غزيرة رأيت أن لا يخلو منها الكتاب حتى تعم فائدته ، ويواكب ما صدر من كتب عن تلك المرحلة العزيزة الظافرة المضيئة فى تاريخ الإسلام والعروبة أعنى فترة الجهاد فى عصر الحروب الصليبية .

ولمّا كان عصر الأيوبيين امتداداً للعصر الفاطمى فى كثير من العلوم والفنون وإن اختلفا من حيث المذهب الديني والعقيدة ، فإن كثيراً من جوانب النشاط الثقافى والأدبى عامة كانت امتداداً كذلك للنشاط الأدبى فى العصر الفاطمي بل إن كثيراً من أدباء الفترة المتأخرة من عصر الفاطميين عاصروا بدء عصر الأيوبيين ، وكانت لهم آثارهم الواضحة فى هذا العصر الجديد . ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر أسامه بن منقذ ، والقاضى الفاضل ، وعمارة اليمنى ، وابنى الزبير وغيرهم كثيرين ، وقد أفردت مؤلفاً خاصاً بالأدب فى العصر الفاطمى يسبق هذا الكتاب .

وكانت الطبعة الأولى من الكتاب قد خلت من ذكر بعض الأدباء والشعراء لقلة ما حصل لدىّ من معلومات عنهم وعن كتاباتهم وأشعارهم ، وحدث أن توفر لدىّ فى سنوات ما بعد الطبعتين الأولى والثانية مادة غزيرة عن كثير من الشعراء ، فعثرت على كتب ، ودواوين لم تكن معروفة ، ولا ظهرت إلى الوجود فأخذت منها فى إعداد دراسات عن هؤلاء فى هذه الطبعة الجديدة أذكر منهم على سبيل المثال : على بن ظافر الأزدى ، وسيف الدين المشد ، وكمال الدين بن النبيه ، فتوفرت على دراستهم والاستزادة من التعرف على نتاجهم الأدبى والشعرى ، كما أفدت من كتاب ظهر حديثاً للتيفاشى هو « سرور النفس » أخرجه الدكتور إحسان عباس ، وكتاب « النجوم الزاهرة » فى حلى

حضرة القاهرة أخرجه الدكتور حسين نصار لابن سعيد المغربى فى إلقاء كثير من الضوء على هذه المرحلة الهامة فى تاريخ الأدب العربى .

وبعد فلعلى أكون قد وفقت فيما هدفت إليه من تزويد المكتبة العربية بما جد ويجد وما دام فى العمر بقية ، والله اسأل دوام التوفيق والسداد ، فهو نعم المولى ونعم المعين .

القاهرة فى ٢٠ أغسطس ١٩٨٩

الباب الأول

الوطن الجغرافى والجو السياسى لدولة الأيوبيين


www.dorat-ghawas.com

الوطن الجغرافى والجو السياسى لدولة الأيوبيين

امتدت دولة الأيوبيين حتى سيطرت على منطقة من أخطر المناطق وأكثرها حيوية فى التاريخ ، وهى ما تسمى فى اصطلاح العصر « منطقة الشرق الأوسط » . وتمتد حول شرق البحر المتوسط أو بحر الروم كما كان يسمى حينذاك ، وتشمل هذه المنطقة مصر والشام والعراق وجزءاً من بلاد آسيا الصغرى أو « هضبة الأناضول » والجزيرة العربية .

وتجد لهذه المنطقة معالمها الجغرافية الواضحة ، إذ يجرى فيها ثلاثة من أشهر أنهار العالم ومهد أقدم حضاراته ، فنهر النيل ثانى أنهار العالم طولاً ، وعلى ضفافه ظهرت أعرق حضارة وأطولها عمراً . وواديه فى مصر أكثر وديان الأنهار استقراراً وأبعدها عن الكوارث ، لأن النيل وديع فى جريانه منتظم فى فيضانه حدوب على رعيته ، ومن ثم فقد كان أهله من أقدم الناس استقراراً وأماناً من جانبه ، مما مهد لهم سبل العمل والإبداع حتى خلقوا الحضارة المصرية القديمة التى عاشت على ضفافه أكثر من خمسة آلاف سنة .

وفيها يجرى نهرا دجلة والفرات ، وعلى ضفافهما قامت حضارات عريقة تنافس حضارة وادى النيل فى القدم وما قدمته للإنسانية من أفضال . وقد اتصلت هذه الحضارات منذ قديم الأزل اتصالات بدأت آثارها فى كل منها ، ونهرا دجلة والفرات إن كانا أقل استقراراً وانتظاماً من نهر النيل ، وأشد ثورة – وخاصة الفرات – فإن ثورة الفرات نفسها قد خلقت فى آداب تلك الأمم القديمة التى عاشت على الرافدين آثاراً خالدة لدى السومريين والبابليين والآشوريين .

وإذا ما تركنا وديان الأنهار إلى شاطىء البحر المتوسط ، لاحظنا أن هذا البحر قد ضم على شواطئه الشرقية حضارات أخرى ليست أقل عراقة هى حضارة الفينيقيين والأثينيين والرومان ثم حضارة البيزنطيين والعرب والمسلمين وقد ربط البحر بينها جميعاً ، وكان عاملاً من عوامل نهضتها وانتشارها وتسلسلها وتوارث بعضها بعضاً . فقد اتصل المصريون القدماء بالفينيقيين على

مياهه وعبره اليونان والرومان إلى الشرق والجنوب فنشروا حضاراتهم فى الشام ومصر . كذلك شهدت أمواجه الصراع بين العرب وبيزنطة . وبين العرب والصليبيين طوال أكثر من سبعة قرون .

وتمتد فى هذه المنطقة صحراوات كبرى تكاد تميزها عن غيرها من مناطق العالم الأخرى ، ففيها الصحراء الكبرى غربى وادى النيل ، وكان لها دورها فى تاريخ المنطقة وفى حضارتها ، إذ كانت حاجزاً طبيعياً لمصر من الغرب صدت غزوات الليبيين والبربر من سكان الصحراء زمناً طويلاً ، وكانت ملاذاً لأبناء مصر بعد الموت يدفن بها ملوكها أجسادهم ويبنون لأنفسهم المقابر الخالدة لتحفظ أجسادهم وأرواحهم من البلى ويدفنون معها كنوزهم التى حفظتها الرمال فى باطنها حتى تكشفت عنها فبهرت الأنظار .

وامتدت فى شرق البحر الأحمر صحراء العرب ، وقد لعبت هى الأخرى أدواراً فى تاريخ المنطقة ، فآوت القبائل العربية وأعانتها على أن تحصن نفسها ضد عادية الأمم القوية التى تتربص بها من فرس فى الشرق أو يونان ورومان فى الشمال أو أحباش فى الجنوب ، وخلعت هذه الصحراء من طبيعتها عليهم فأكسبتهم من وعورتها شدة عود وقوة مراس ، وقدرة على الاحتمال ، وعلمتهم فى أوقات جودها الجود والبذل ، لأنهم عرفوا فى أوقات شدتها الضيق والحرمان .

وجابها من قديم الأنبياء والرسل والصديقون ، وعرفوا الله فى وحشتها وسكونها ، وطالعوا فى مظاهرها آيات بينات لا تخفيها دور أو ظلال ، فتغلغل فى قلوبهم الإيمان وأيقنوا بقدرة الخالق وأحسوها بين أيديهم وتحت أبصارهم . وعلمتهم طبيعة حياتهم أن القوة فى التعاون والتجمع وضم الصف ، وأن الفرد ريشة فى مهب الحياة وأنوائها فعرفوا قوة الجماعة وقدسوها ، ومقتوا الفردية وطاردوها .

وعرفوا فى اتساعها وبسطتها معنى الحرية ، إذ كل ما عليها من حيوان طليق ، يجوب أرجاءها لا يحتجزه مانع ولا يحبسه متسلط ، فعشقوا الحرية ولم يذعنوا لمستبد فكان أمرهم شورى .

وكان موقعها وصلة بين عالمين ، ومعبراً بين حضارتين إحداهما شرقية تستمد حياتها من الشرق القديم بعاداته ومعتقداته ، وتستقر أصولها فى الهند والصين وبلاد الفرس ، والأخرى غربية تمتد جذورها إلى المصريين والإغريق ، والرومان ، وما قبل الإغريق والرومان .

فكانت أرضها طريقاً للتجارة ، وللغزاة ، عبرتها تجارة الفرس والروم والهند والحبش واليمن ، وجاءتها جحافل الاسكندر ، وجيوش كسرى وقيصر وانبثقت منها موجات الثورة الكبرى فى عصر الإسلام فتدافع جند الله يصولون ويجولون ، ويفتحون البلاد للدين الجديد .

وقامت فى ربوعها حضارات ، ففى الجنوب كانت حضارة اليمن ، وعاشت مملكة سبأ ودولة حمير بآثارهما وقصورهما ، ودياناتهما ، وتقاليدهما وبجناتهما وزروعهما .

وفى الشمال قامت سلاسل من الجبال تحدرت منها أنهار دجلة والفرات وفروعهما ، وحاذت شاطىء البحر الأبيض من الشرق سلسلة جبال تكلل قممها الثلوج وتعلوها الأشجار الخضراء ، التى تجود بأصناف الفاكهة وتهتز سفوحها بأنواع العيش الوفير ، وقامت دولة البيزنطيين فى إقليم آسيا الصغرى .

وعرفت المنطقة كلها بالشام ، وقامت جنوبها مملكة أورشليم ، وحظيت بمقدسات أديان ثلاثة ، فلليهود هناك هيكلهم ، وللمسيحيين كنيسة القيامة ، وللمسلمين المسجد الأقصى ، واليهود يعتبرونها أرض ميعادهم التى لبثت عليها دولتهم وعاشت زمناً ، ثم تفرقوا ، وما زالت تهفو إليها قلوبهم ويتطلعون إليها بآمالهم ، والنصارى يقدسونها لأنها مبعث المسيح ؛ فيها ولد وقام يبشر الناس ، ويعتقدون أنه صلب بها ودفن .

وفى المسجد الأقصى الذى أسرى إليه الله بعبده ليلاً الصخرة التى يعتقد المسلمون أن النبى ﷺ أم الأنبياء فيها وصعد منها إلى السماء ليلة المعراج ، ثم هى قبلتهم الأولى قبل الكعبة ولها فى نفوسهم مكان التقديس والإجلال .

وفى الشرق وادى الرافدين ، العراق ، وقد تحدرا من الشمال إلى الجنوب مترافقين حتى إذا ما قاربا الخليج الفارسى اتحدا وصبا فيه معاً ، وقد كان واديهما مسرحاً لملوك الفرس ، بنوا إيوانهم على الجانب الشرقى من دجلة ومدوا سلطانهم على البلاد شرقاً وغرباً وجنوباً ، وتفردوا فى حضارتهم بضروب من الحياة والديانة والعقائد ، فكانت لهم السنن والقوانين ، والشرائع ، وكانت لهم الديانات والآداب والتقاليد ، وكانت لهم الفنون والعلوم ، وضروب الزخرف فى القصور ، واللباس والشراب والطعام ، وكانت لهم الجيوش يدفعونها فيرهبون بها الأعداء ويقاومون الهاجمين ، ويبسطون سلطانهم على ما جاورهم من أطراف الصحراء .

وكانت بينهم وبين العرب وقائع وأيام ، ومعاهدات ومحالفات ، كما كانت بينهم وبين الروم حروب ونضال ، فيوماً تكون لهم الغلبة ، ويوماً تكون عليهم .

تلك حال هذه المنطقة قبل فتوح الإسلام ، وسيطرة الدولة الإسلامية ، فلما جاء الإسلام كانت الحكومة المركزية أولاً فى المدينة ، وسيطرت عليها جميعاً وامتدت إلى ما وراءها ثم انتقلت الحكومة إلى دمشق ووسعت أملاكها شرقاً وغرباً ، ثم انتقلت بعد إلى بغداد وهناك بلغت مداها .

وقد وحدت العروبة والإسلام بين أجزائها ، ولاءمت بين متنافرها ، وتلون الإسلام والعروبة فى كل منطقة منها باللون الإقليمي ، وانطبع بعناصر البيئة المختلفة ولكن ساد مع ذلك بينها جميعاً الإسلام وشعائره ، ونطقت ألسنة أهلها بالعربية .

ففى مصر ورث الإسلام علوم المصريين القدماء والإغريق والرومان ، وعرف العرب الزراعة كما عرفها المصريون ، وتأثروا بتقاليدهم وعاداتهم .

وفى الشام خالط العرب الروم ، وعرفوا بعض ما ورثوه من علوم وقوانين وأخذوا ما نقل عنهم النبط والسريان ، ولاءموا بين ما ورث أصحاب الديانات المسيحية واليهودية ممن يعيشون هناك من قصص وعقائد ، وبين ما جاء به القرآن .

وفى العراق وفارس اطلع العرب على علوم الفرس ، وأخذوا عنهم أساليب السياسة والحكم ، وطرق العيش ، وتأثروا بلباسهم وطعامهم وشرابهم ونهلوا كما نهلوا من علوم اليونان والهند ، فعرفوا الحساب والفلك والفلسفة .

وخرج من هذا كله مزاج عربى إسلامى ، له أصوله العامة المشتركة التى تطبع مظاهر الحضارة العربية الإسلامية جميعاً بطابعها المميز ، فى العقيدة ومذاهب الفقه والشريعة ، وفى الفلسفة وطرق التفكير . وفى نظم الدولة والحكم ، وفى العادات والتقاليد والسلوك ، وفى الآداب والفنون .

الجو السياسى :

خرج صلاح الدين إلى أفق العالم الإسلامى والعربى فى القرن السادس ، وكان هذا القرن قرن الحوادث العظام التى غيرت ملامح الدولة الإسلامية . فهو مقترن بالحروب الصليبية ، وغارات التتار ، وزوال الدولة الفاطمية واضمحلال دولة المسلمين بالأندلس ، وقيام دولة الأيوبيين فى مصر والشام .

الجزر الإسلامى العربى والمد الصليبى :

ولهذا نستطيع أن نقول إن هذا القرن وأواخر القرن السابق له كان عصر الجزر الإسلامى العربى ، والمد الصليبى فى منطقة الشرق الأوسط فى مصر والشام والعراق ، ويرجع هذا الجزر إلى عدة عوامل كلها تمثل الضعف والتفكك والخلاف فى الصف الإسلامى . ونستطيع أن نستعرض ذلك استعراضاً عاجلاً .

فقد كانت تسيطر على العالم الإسلامى والعربى عدة قوى : الدولة العباسية فى شيخوختها وضعفها ، والسلاجقة مع قوتهم إلا أن خلافهم قد بدد تلك القوة ، والدولة الخوارزمية ، والدولة الغزنوية فى الشرق ، ودولة الخطا المناوئة لهما ، وقبائل التتار ، والقبائل التركية الأخرى التى أخذت فى الغارة على العالم الإسلامى واقتطاع أجزاء منه فى أقصى الشرق والشمال الشرق ، وفى الغرب دولة الموحدين من بنى عبد المؤمن وفى مصر والشام الدولة الفاطمية .

أما الدولة العباسية فقد كان خلفاؤها ضعافاً لا يملكون سلطاناً . إنما كانوا رمزاً للسلطة الدينية وكان السلطان الفعلى للسلاجقة ، وكان هذا السلطان لا يتعدى بغداد والبلاد القريبة من الشام ، وقد حاول خلفاء العباسيين فى بغداد أن يستغلوا نزاع السلاجقة فيما بينهم لاستعادة سلطانهم . فقد قاتل الخليفة المكتفى بالله (٥٣٠ – ٥٥٥ هـ) السلطانين السلجوقيين محمد وأرسلان شاه ، وتمكن الخليفة من التغلب على السلطان محمد عند حصاره بغداد بمساعدة البغداديين والوزير عون الدين هبيرة[١] .

واستغل الخلفاء نفوذهم الدينى فى جمع الأعوان حولهم ، ولم يترك السلاجقة وسيلة لإضعاف العباسيين ودحرهم إلا اتبعوها ، اتبعوا ضدهم القوة المسلحة ، والمؤامرات فسلطوا عليهم الإسماعيلية لقتل الخلفاء ، وقتل الراشد العباسى على أيديهم بفعل السلاجقة سنة ٥٣٢ هـ[٢] .

ومع أن السلاجقة كانوا يعادون العباسيين ويقاتلونهم ويدسون لهم إلا أنهم لم يستطيعوا مقاومة نفوذهم الدينى ، فيروى أن السلطان محمود السلجوقى طلب أن يحمل فى مرضه إلى قصر الخليفة – عدوه السياسى – للدعاء له بالشفاء[٣] .

أما السلاجقة فكانت دولتهم تنقسم إلى ثلاثة أقسام يسيطر على كل قسم منها سلطان . فسلاجقة المشرق ، يسيطرون على خراسان وبعض بلاد المشرق ، وسلاجقة العراق يسيطرون على العراق والجزيرة الفراتية وبعض أجزاء من الشام اقتطعوها من الدولة الفاطمية . ثم سلاجقة الروم ، وكانوا يسيطرون على الجزء الغربى من الجزيرة الفراتية وشمال الشام ثم شبه جزيرة آسيا الصغرى .

وكان سلاجقة المشرق فى صراع مع الدولة الخوارزمية ، وانتهز هؤلاء

---

(١) أخبار الدولة السلجوقية ص ١٤٠ .

(٢) أخبار الدولة السلجوقية ص ١٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٩٨ .

النزاع بين سلاطين السلاجقة والخلافة فى بغداد وحاولوا القضاء على السلاجقة والحلول محلهم فى الدولة العباسية وأملاكها ، وشجعهم على ذلك استنجاد الخليفة بهم سنة ٥٢٠ هـ ، وقد هزموا طغرل بك السلجوقى سنة ٥٩٠ ، ولكنهم لم يستطيعوا الوصول للعراق وبسط نفوذهم به .

وقد بدأ ملك السلاجقة ينهار بعد موت ملكشاه آخر سلاطينهم العظام ، ومقتل وزيره العظيم نظام الملك ، فقد قامت بينهم عدة حروب ومنازعات فى سبيل السلطة ، كذلك قامت بينهم وبين الإمارات والقرى الملاصقة لهم عدة حروب وكان منها حروبهم فى المشرق مع الخوارزميين ، وفى الغرب مع الروم والصليبيين والفاطميين ، وكانت الشام خاضعة لثلاث قوى ، السلاجقة فى دمشق وحلب وبعض المدن الأخرى ، والصليبيين فى الولايات الأربع التى بالشام ، والفاطميين فى جنوبى الشام والجزء الساحلى الذى يضم عسقلان وغزة .

والدولة الفاطمية كانت فى مصر تلفظ أنفاسها ، قد دب فيها الضعف ، وعملت فيها عوامل الفساد ، فكان خلفاؤها يتولون الخلافة صغار السن لا يملكون من أمرهم شيئاً ، فكان المتصرف فى دولتهم الوزراء ، والقواد ، وسيدات القصر ، والخدم . كذلك اضطربت الأحوال الاقتصادية والمعيشية نتيجة للإسراف البالغ والبذخ الذى كان فيه الخلفاء ورجال الدولة ، فأثر هذا فى قوة مصر وجيشها ولم يتمكن بطبيعة الحال من الصمود أمام هجمات الصليبيين ، وإن كانت مصر لم تتخل عن الكفاح رغم قوة الصليبيين وذلك الضعف المحيط بها من كل جانب ، ويسجل التاريخ فضلاً لبعض رجالها أمثال الوزير اليازورى ، وابن زريك الوزير الشاعر ، فقد أديا دوراً إيجابياً فى صَدّ التوسع الصليبى وصد الفرنج الغزاة عن حدود مصر .

ولعب الأسطول المصرى أدواراً تاريخية فى ذلك الوقت ، فقد فرض سيطرته على سواحل الشام ، كما حمى السواحل المصرية وخاض مع الفرنج معارك بحرية مريرة ، ولكن الضغط المتواصل وخيانة بعض العناصر فى الداخل مكنت الصليبيين من اقتحام بيت المقدس ، ومحاولة السيطرة على مصر

نفسها ، وإن التاريخ ليذكر فى صفحاته السود أيام عباس وشاور وضرغام ونزاعهم المتواصل وتآمرهم على مصر ومصيرها .

وفى المغرب والأندلس كان الفرنج لا يزالون يزحفون من الشمال ، ويقطعون من أوصال الدولة الإسلامية فى شبه الجزيرة الأندلسية ، كذلك كانت دولة الموحدين بنى عبد المؤمن قد بدأت تظهر فى المغرب فتعيد إلى نفوس المسلمين بعض الأمل الذى أخذ يتضاءل لضعف حكامهم ، وكان لقوة هذه الدولة أثرها فى وقف الفرنج فى المغرب ، كما كان لدولة نور الدين وصلاح الدين نفس الدور فى الشرق .

أثر الغزو الصليبى فى نفوس العرب والمسلمين :

بدأت الحروب الصليبية فى أواخر القرن الخامس الهجرى وتمكنت حملتهم الأولى بقيادة بلدوين من هزيمة السلاجقة والاستيلاء على مدينة الرها وتكوين إمارتهم الأولى بها ، وتولى عرشها بلدوين نفسه وكان ذلك سنة ١١٩٨ م . وكان أكثر سكانها من الأرمن والنصارى وتوغلت جماعة منهم جنوباً بقيادة بوهمند فاستولت على أنطاكية وأسست بها الإمارة الثانية وتولاها بوهمند . وقاد ريموند ده تولوز الفرنسى حملة على بعض مدن الشام وواصل عشرون ألفاً منهم التقدم نحو بيت المقدس فاستولوا عليه وأعملوا فى سكانه السيف ، وارتكبوا كثيراً من الفظائع مما كان له أعمق الأثر فى نفوس المسلمين والعرب . ونظراً لأهمية سقوط بيت المقدس فى تحول مجرى الحوادث ، وفى يقظة الروح القومية عند المسلمين والعرب سنستطرد فى وصف تلك الموقعة .

كانت المدينة فى أيدى الفاطميين ، وحاصرها الصليبيون ، وقاوم حماتها شهراً كاملاً ، وضغط المحاصرون بشدة ، وهدموا الأسوار ، فاضطر المدافعون إلى التسليم تحت ضغط الحصار وانقطاع المدد ، واندفع الغزاة يهيج رءوسهم الغيظ وتضطرب نفوسهم بالحقد ، وتلعب بعقولهم نشوة الانتصار فذبحوا كل من لقوه من المسلمين نساءً وأطفالاً وشيوخاً ، فضلاً عن المحاربين .

قال ابن الأثير : وركب الناس السيف ، ولبث الفرنج فى البلدة أسبوعاً

يقتلون فيه المسلمين ، وأضحى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام ، فبذل لهم الفرنج الأمان فسلموه إليهم ، وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً ، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف ، وورد المستنفرون من الشام فى رمضان إلى بغداد صحبة القاضى أبى سعد الهروى ، فأوردوا فى الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب ، وقاموا بالجامع يوم الجمعة ، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا ، وذكروا مادهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال وسلب الحريم والأولاد والأموال[1] .

وذكر أنه شوهدت أكوام الرءوس والأيدى والأرجل فى شوارع المدينة وطرقاتها[2] . وقد أنشد الأبيورى قصيدة يبكى فيها بيت المقدس وأهلها ، وتقطر أسى ولوعة[3] قال :

مزجنا دماءً بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراحم

وشرُّ سلاح المرء دمعٌ يُفيضه ... إذا الحرب شُبَّتْ نارُها بالصوارم

فإيهًا بنى الإسلام إن وراءَكمْ ... وقائع يلحقْنَ الذرى بالمناسِم

أتهويمةً فى ظل أمْنٍ وغبطةٍ ... وعيشٌ كنوَّار الخميلة ناعم

وكيف تنام العين ملءَ جفونِها ... على هفوات أيقظت كل نائِم

وأخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكى أو بطون القشاعم

تسومهم الروم الهوانَ وأنتم ... تجرُّون ذيل الخفض فعل المسالم

وكم من دماءٍ قد أُبيحت ومن دُمىً ... تُوارى حياءً حسنها بالمعاصم

بحيث السيوف البيض محمرة الظبا ... وسمر العوالى داميات اللهاذِم

وبين اختلاس الطعن والضرب وقفةٌ ... تظلُّ لها الولدان شيب القوادم

وتلك حروب من يغبْ عن غمارها ... ليسلَم يقرع بعدها سنَّ نادم -

(1) الكامل لابن كثير ١٠/١٩٣ .

(2) تاريخ العرب مطول لفيليب حتى ٣/٧٥٦ .

(3) الكامل ١٠/١٩٣ .

سللن بأيدى المشركين قواضباً ... ستغمد منهم فى الطُّلا والجماجم
يكاد لهن المستجنُّ بطيبةٍ ... ينادى بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتى لا يشرعون إلى العدى ... رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى ... ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... ويغضى على ذل كماة الأعاجم

ومنها :

فليتهم إذ لم يذودوا حميةً ... عن الدين ضنُّوا غيرةً بالمحارم
وإن زهدوا فى الأجر إذ حمُس الوغى ... فهلاً أتوه رغبة فى الغنائم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى ... فلا عطست إلا بأجدع راغم
دعوناكم والحربُ تدعو ملحةً ... إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربيةً ... تطيل عليها الروم عض الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه ... رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

وتوالت انكسارات المسلمين أمام جيوش الصليبيين ؛ فبعد معركة بيت المقدس دارت معارك أخرى على الشواطئ الشامية ، واستولى الغزاة على مدن الساحل ولم يبق لمصر غير عسقلان وغزة فى الجنوب ، وكان ذلك بفضل الأسطول المصرى وبعض الوزراء المصريين الأقوياء كالجمالى ، واليازورى وابن زريّك .

وكانت إمارة بيت المقدس أقوى الإمارات اللاتينية بالشام ، وكانت الإمارات الثلاث الأخرى تخضع لأميرها . وقد امتدت هذه الإمارة فأصبحت حدودها من العقبة على البحر الأحمر إلى بيروت ومن البحر المتوسط إلى نهر الأردن .

وأمن بلدوين حدود الإمارة ، وبنى القلاع القوية مثل الشوبك فى المنطقة الواقعة جنوب البحر الميت فسيطرت على طريق الصحراء الذى يربط دمشق بالحجاز ومصر .

وهكذا سيطر الصليبيون على الشام ، وخاصة الجزء الساحلى من آسيا الصغرى إلى خليج العقبة ، وبذلك تحكموا فى منافذ العالم الإسلامى إلى

المغرب ، ومن هذا يتضح الغرض الأصيل الذى كان يدفع جحافل الصليبيين نحو الشرق الإسلامى ، وهو التجارة ومحاولة إيجاد مواطن للرزق والكسب ، وكانت تصلهم أخبار الثراء والترف عن المشرق فأغرتهم تلك الأخبار ، وحركت أطماعهم ، وخاصة أن أوربا فى ذلك الوقت كانت فى حال من الفوضى والفقر ، كما أن مدن إيطاليا التجارية وجدت فى الحركة الصليبية تحقيقاً لأغراضها التجارية فى السيطرة على الأسواق الشرقية ، فعاونت أساطيل الصليبيين خير معاونة .

ولم يستطع الصليبيون التوغل فيما وراء الإمارات التى استولوا عليها ، بل لم يبذلوا محاولات جدية لذلك التوغل ، وكان جل همهم موجهاً إلى تأمين حدودهم الشرقية ، بسلسلة من الغارات للإرهاب ، أو بعقد معاهدات مع حكام المدن القويه مثل دمشق ، أو بتدبير المؤامرات واستعمال الجواسيس والأعوان ، أو شراء الحشاشين والعلويين لإحداث الاضطراب ، والدعوة للهزيمة بين صفوف المسلمين

المرحلة الثانية (التجمع ورد الفعل الإسلامى)

بدأت هذه المرحلة بشعور المسلمين بالحسرة على تفلت أجزاء من العالم الإسلامى من أيديهم ، وبتلك الهزائم المتلاحقة التى نزلت بهم ، وتلك المجازر الدامية التى كانت تطيح برءوس المسلمين ، وبأولئك الشراذم الوافدين من كل بلد يستبيحون الأقوات والحرمات بلا رادع أو وازع ، ويستهينون بالمقدسات الدينية ويحولون المساجد إلى كنائس وصوامع .

وقد دفعتهم الحسرة ، والغيظ ، والشعور بالآلام إلى محاولة المقاومة والدفاع ورد المغتصبين ، وقامت دعوات للجهاد فى عواصم المسلمين كان عمادها الفقهاء والعلماء الذين أحسوا بخطر الصليبيين على العالم الإسلامى والقيم الإسلامية ، وكانت دعوتهم إلى التجمع ، ونسيان الخلافات والأطماع الدنيوية ، والنزاع الذى كان سبب الفرقة والضعف . وبلغ الحماس الدينى بالعامة مبلغه ، وكان الأمراء والقواد غير مستجيبين ، أول الأمر لذلك الحماس الدينى فكانوا يسيرون الجيوش لقتال الصليبيين ، فبينما هم فى حر المعركة إذا

بجماعات الخونة والمرتشين ، وإذا بالخلافات الشخصية تنشب ، فيتفرق الجمع وتفتح الثغرات ، ويدخل الأعداء ويستولون على الحصون والقلاع .

حدث هذا فى معركة أنطاكية حيث دفع السلطان السلجوقى بقائده كربوقا صاحب الموصل ومعه جيوش حاشدة حاصرت الصليبيين داخل البلد ، وكادوا يقضون عليهم لولا أن دب بينهم الخلاف فولوا مخذولين .

قال ابن الأثير : لما سمع قوام الدولة كربوقا بحال الفرنج وملكهم أنطاكية جمع العساكر وسار إلى الشام وأقام بمرج دابق واجتمعت معه عساكر الشام تركها وعربها .. فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم ، وسار المسلمون فنازلوهم عند أنطاكية ، وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين وأغضب الأمراء وتكبر عليهم ظنًّا منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال فأغضبهم وأضمروا له فى أنفسهم الغدر[1] .

وهكذا كان سوء سيرة كربوقا سبباً فى هزيمة المسلمين أمام أنطاكية ، كما كان تفرق الكلمة وعدم الوحدة ومحاولة الانقسام دون مراعاة لظروف الحرب والأعداء من أسباب الوهن .

فالعالم الإسلامى إذاً كان فى حاجة إلى تغيير حال ، وإلى زعامة رشيدة واعية مدركة لما ينبغى أن تحمله من رسالة ، مخلصة تسعى إلى الهدف بروح وصبر ومثابرة ، وقد هيأ الله للمسلمين جماعة هبوا لنصرة الإسلام ، ومجاهدة العدو الغاصب . وساعد العلماء والفقهاء فى الدعوة لأولئك الزعماء ، والتمهيد لهم بين العامة ، وهكذا بدأت حركة رد الفعل فى إظهار آثارها ، وكان من أبرزها غزوات عماد الدين زنكى للصليبيين التى كللت باستعادة مستعمرة الرها أولى المستعمرات الصليبية فى شمال الشام ، ثم توالت الانتصارات بعد ذلك على يدى خليفة زنكى نور الدين محمود ثم صلاح الدين الأيوبى وخلفائه .

---

(١) الكامل ١٠/١٨٩ .

وقد بدأ الصراع بين الموصل والرها منذ بداية القرن السادس الهجرى ، حتى انتهى ذلك الصراع بظهور عماد الدين زنكى واستيلائه على الموصل ثم اندفاعه فى قوة نحو الغرب .

وبدأ ظهور زنكى على مسرح الحوادث فى سنة ٥٢١ هـ حين تولى شحنكية بغداد للسلطان محمود السلجوقى عقب قيامه بدور هام فى البصرة وواسط ، ثم تولى الموصل بعد وفاة واليها ، وجرد جنده ليوسع إمارته وليحمى حدودها ، وقد غرب متجهاً إلى حلب فامتلكها ، ثم استولى على حماة .

وكانت إمارة الرها الصليبية تسيطر على الخطوط الرئيسية بين العراق وشواطئ البحر المتوسط . كما كانت الحاجز الذى يحمى المستعمرات اللاتينية الأخرى فى الشام من هجمات المسلمين من الشرق .

وتوجه إليها عماد الدين زنكى ، وحاصرها أربعة أسابيع ثم انتزعها من جوسلين الثانى سنة ٥٣٩ هـ - ١١٤٤ م فكانت أولى المستعمرات الصليبية تأسيساً وسقوطاً .

وكان سقوط الرها ضربة عنيفة للصليبيين ، ونذيراً باضمحلال نفوذهم وتقلص ظلهم ، كما كانت من ناحية أخرى حافزاً للمسلمين ، ومشجعاً لهم على كفاحهم أعداءهم وطردهم من أراضيهم .

وقد استن المسلمون منذ البداية سنة تختلف عما استنه الصليبيون فكانوا كلما فتحوا بلداً أمنوا أهله ، ولم يسبوا نساءه ولم يقتلوا أطفاله ؛ فعرفوا بالتسامح وحسن المعاملة للمنهزمين ، وعلموا أولئك الغربيين دروس الإنسانية فى القتال .

ذكر ابن واصل : « أنه عندما فتحت الرها رآها عماد الدين فأعجبته ، ورأى أنه لا يجوز فى السياسة تخريب مثلها ، فنودى فى العسكر برد ما أخذ من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم ، وإعادة ما اغتنموا من أثاثهم وأمتعتهم ، فردوا الجميع عن آخره ، ولم يفقد إلا النادر وعاد البلد إلى حاله »[١] .

---

(١) مفرج الكروب ٩٤/١ .

التى طمع فيها الصليبيون ولم يستحوذوا عليها ، وكان ذلك دون قتال بمساعدة نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ، كما أسر جوسلين الثانى أمير الرها . وفتح أقساماً من أمارة أنطاكية وقبض على صاحبها بوهمند الثالث ، وعلى خليفة ريموند الثالث صاحب طرابلس وأطلقهما بعد فدية كبيرة .

ولم يبق أمام نور الدين سوى مملكة بيت المقدس وصاحبها بلدوين الثالث وقد خاض نور الدين عدة معارك ضدها ، وكان أهمها معارك مصر التى جهز لها ثلاث حملات بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وانتهت بجلاء الصليبيين نهائياً عن مصر ، وتمكّن شيركوه ثم صلاح الدين ، وبذلك دخلت مصر المعركة بكل قوتها ضد الصليبيين وعندئذ بدأت المرحلة الحاسمة فى تاريخ تلك الحروب ، وكان صلاح الدين بطلها السياسى والحربى الذى تمكن بشخصيته الفذة أن يجمع حوله العالم الإسلامى ، وأن يحول الهزيمة والضعف إلى انتصار وقوة . والحقيقة أن شخصية صلاح الدين متممة لشخصية نور الدين ، كما أن الدولة الأيوبية أكملت رسالة الدولة الأتابكية وبلغت غايتها .

صلاح الدين
مؤسس الدولة الأيوبية

نشأة صلاح الدين :

نشأ صلاح الدين من أصل كردى ، قال ابن الأثير : إنه من الأكراد الروادية بينما ينسبه بعض المؤرخين إلى أصل عربى يرجع للأمويين أبناء عمومة الرسول ، وقد ذكر أن بعض بنى أيوب قال : إنما نحن عرب نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم[١] . وقيل إن ذلك النسب - إلى الأمويين - أحضر إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى ، ابن الملك العادل وأسمعه ولده[٢] .

ومهما قيل فى ذلك النسب فإن والد صلاح الدين خرج وسط الأكراد شمالى العراق فى مدينة دوين - بلدة من بلاد العجم قرب أخلاط - ثم انتقل مع أخيه أسد الدين شيركوه إلى العراق حيث نزلا على الأمير مجاهد الدين بهروز أمير الشرطة فى بغداد من قبل سلاطين السلاجقة . وقد تقدما عند مجاهد الدين ، ووثق فيهما فولى نجم الدين والد صلاح الدين قلعة تكريت ، فأقاما بها مدة ، وولد صلاح الدين فى هذه الأثناء[٣] .

وكان نجم الدين وأخوه شيركوه يسعيان ليبلغا منزلة رفيعة لدى الأمراء والسلاطين فى عصرهما . وكانت لهما من نفسهما خصائص تمكنهما من الفوز بما يطمحان إليه ، ففيهما الشجاعة والإقدام ، ولا ينقصهما الدهاء والسياسة ، كما لا ينقصهما الإخلاص والمثابرة ، وهكذا تقدما فى خدمة الملوك ، وحظيا بمكانة عظيمة عند أتابك زنكى وابنه نور الدين محمود خاصة .

وأول لقاء نجم الدين زنكى فى الوقعة التى حدثت بينه وبين الخليفة العباسى المسترشد بالله سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وكسر الخليفة عماد الدين ،

---

(١) مفرج الكروب ١/٣ .

(٢) نفس المصدر ١/٥ .

(٣) النوادر السلطانية ص ٣ ط سنة ١٩٠٣ .

فأعان نجم الدين فى فراره ، بأن أقام له السفن حتى عبر دجلة وأتبعه أصحابه وحفظ عماد الدين تلك اليد .

وبقى نجم الدين بقلعة تكريت مع أخيه بعد ذلك زمناً حتى إذا ما ضاقت به الحياة فيها غادرها إلى الموصل ، ويقال إن من أسباب ضيقهما بتكريت غضب مجاهد الدين عليهما لقتل شيركوه أحد الرعية ظلماً ، أو لأن نجم الدين نفسه رمى مملوكاً من مماليك مولاه بسهم فقتله فكان أن ثار عليه وعزله .

وارتحل الأخوان إلى الموصل حيث عماد الدين زنكى الأمير القوى ، فأحسن استقبالهما وأنزلهما منزلة تليق وما أدياه له من سابق جميل ، قال ابن واصل : « فأحسن إليهما وقربهما ورعى لهما خدمتهما له ، وبالغ فى إكرامهما ، وأقطعهما إقطاعات جليلة ، وحسنت أحوالهما عنده » .

وسارا فى موكب الفتح الذى قاده زنكى عبر الجزيرة إلى الغرب ، وبعد احتلاله بعلبك ولى نجم الدين عليها ، وكان صلاح الدين إذ ذاك صبياً يافعاً فى الثامنة أو التاسعة من عمره ، ولم يلبث نجم الدين على بعلبك طويلاً إذ أن زنكى قتل وهو يحاصر قلعة جعبر ، فآذنت دولته بتصرم ، وحدث خلاف بين أبنائه لولا أن تداركه نور الدين بحكمته فحسمه ، وفى أثناء ذلك الخلاف اشتد الأمر بنجم الدين فى بعلبك ، وتحرج موقفه لتربص أعدائه من حوله فخشى أن يلحقه سوء ، وكان قد استنجد فلم ينجده أحد فلم يجد بداً من مفاوضة أقوى الأمراء الذين يهددونه وهو أمير دمشق ، فسلم البلد إليه ، ورعى الأمير ذلك لنجم الدين فأقطعه إقطاعاً حسناً ، وعاش نجم الدين أيامه بعد ذلك فى دمشق إلى أن التأمت دولة نور الدين .

وبعد أن أمسك نور الدين زمام الأمور بيده وبدأ يعيد نظام ملك أبيه رأى أن دمشق تعترض طريقه وتقف دون تحقيق آماله فى اكتساح الصليبيين بالشام . وعرف أن صاحب والده نجم الدين فى دمشق ، وأن أخاه أسد الدين شيركوه على رأس جنده ، فأراد أن ينتفع من الأخوين ، وهكذا بعث أسد الدين ليحمل نجم الدين على المعاونة فى تسليم دمشق ، وتم الأمر كما أراد ، ولعب نجم الدين دوره بدهاء وحنكة ، وأصبح نور الدين سيد دمشق بلا

حرب ولا قتال وتقدم نجم الدين فى صحبة نور الدين ، وحظى بمكانة لم يحظ بها أحد قبله عنده حتى قيل إنه لم يجلس عند أمير من غير أمره له بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، وأما ما عداه كأسد الدين شيركوه ، ومجد الدين ابن الداية وغيرهما فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقومون إلى أن يأمرهم بالقعود[1] .

وقدم نجم الدين ابنه صلاح الدين لنور الدين ، فرأى هذا فى الصبى ملامح ذكاء فقربه إليه وخصصه[2] .

وبدأ نجم صلاح الدين يظهر ، واتضحت معالم النبوغ عليه منذ الصغر مما دعا الأمير نور الدين إلى إيثاره وتقريبه ، وإلى انتدابه للسفر إلى مصر مع عمه أسد الدين شيركوه فى حملته الثانية .

وكانت الأحوال بمصر قد بلغت درجة من الاضطراب والفوضى اختل لها ميزان الحكم ، وصارت المنازعات المتتابعة بين وزيريها شاور وضرغام من أسباب سوء الحال واقتراب دولة الفاطميين من نهايتها . وكانت مصر فى تلك المرحلة الحرجة التى تمر بها مطمع دولة بيت المقدس الصليبية وصاحبها إمرى ، وحاول إمرى أن يستفيد من تلك الأوضاع الداخلية لحسابه ، فاتصل بالمتنازعين .

واتصل شاور بنور الدين ، وكان ذلك سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، إذ وصل إلى دمشق . « وشرط شاور لنور الدين أنه إن سير معه العسكر ليقوى بهم على خصمه ضرغام وينتزع الوزارة منه أن يكون لنور الدين حصة من البلاد ، ويكون شاور متصرفاً تحت أمره ونهيه واختياره ، فتردد نور الدين – رحمه الله – فى إجابته فتارة يقوى عزمه على ذلك طلباً للزيادة فى الملك وليقوى على عدو الدين ، وتارة يثنى عزمه خوفاً على العساكر من خطر الطريق بسبب توسط الفرنج بينه وبين الديار المصرية »[3] .

---

(١) الدر الثمين فى سيرة نور الدين – مخطوط .

(٢) النوادر السلطانية ص ٤ .

(٣) مفرج الكروب ١/١٢٨ .

ولكن حرص نور الدين على تطويق أعدائه الصليبيين ، وخوفه من سبقهم إلى مصر واحتلالها دونه ، وتمكنهم بذلك وتقويتهم ، جعله يسارع إلى إعداد العدة على الرغم مما كان يدركه من مخاطرة فى تلك المغامرة الجريئة .

وأعد الأمير الشجاع الداهية للأمر عدته ، واختار لقيادة عسكره رجلاً حديدياً يمتاز بالقوة والجرأة وسرعة التحرك والتنفيذ ، ذلك هو القائد أسد الدين شيركوه ، واختار لصحبته جماعة من الأمراء والقواد الممتازين ، والجند المدربين .

كانت القوة التى يقودها أسد الدين غير كبيرة ، ولكنها تمتاز بخصائص وميزات هامة هى السرعة والقدرة على الضرب والانقضاض ثم الانسحاب إذا لزم الأمر والمعاودة .

وتحركت الحملة من دمشق جنوباً ، مارة بمخافر الصليبيين ، وشرقى الكرك والشوبك القلعتين الحصينتين لهم ، وتخطى الحدود المصرية دون اشتباك مع الفرنج لعدم علمهم بأنباء الحملة ، أو لعدم استعدادهم للتعرض لها وهم فى حالة تجمع ولم شعث بعد ضربات نور الدين بحصن حارم وغيرها من قلاعهم بالشام .

ووصل عسكر نور الدين إلى القاهرة ، واشتبكوا مع ضرغام ، فهزم وقتل ، وتولى شاور الوزارة ، وكان عليه بعد ذلك أن يفى بما عاهد نور الدين عليه ، ولكنه ماطل ، وطلب إليه أسد الدين أن يفى بالعهود ، فأبى ، فرابط أسد الدين بالجند فى بلبيس ، ولم يذهب عن مصر إلى الشام كما أراد منه شاور ليخلو له الجو ، وتحكم على الشرقية فغاظ ذلك شاور ، وأراد أن يضرب نور الدين بأعدائه ، فأرسل يستنجد بأمرى .

قال صاحب مفرج الكروب : « فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ، ويخوفهم من نور الدين إن ملك الديار المصرية ما يطيب لهم معه مقام ، وكان الفرنج لما سمعوا بتوجه عساكر نور الدين إلى الديار المصرية قد خافوا خوفاً شديداً ، وأيقنوا بالهلاك ، وأن بلادهم تستأصل ، فلما وصلتهم رسل شاور

يدعوهيم إلى مساعدتهم سروا بذلك وبادروا إليه»[1] .

وبدأ النزاع المسلح على مصر ، وأرسل إمرى حملة جهزها لأخذ مصر من أيدى شيركوه وكان قد اتفق مع شاور على أن يدفع الأخير إليه مالاً كثيراً يحمله إلى الصليبيين بعد طرد شيركوه .

واتفق على عسكر نور الدين بمصر شاور وبعض من عاونه من جند المصريين ، وجند الصليبيين الآتين من الشمال ، وجمع جندهم فرق فرسان ومشاة من حجاج بيت المقدس ومن غيرهم ممن تطوعوا للجهاد ، وممن تدافعوا للشرق لتخليص أرض المسيح على زعمهم

ووصل الصليبيون إلى حيث ينزل شيركوه وعسكره بمدينة بلبيس فحاصروه من الشمال

وزحف رجال شاور فحاصروه من الجنوب ، وأحس نور الدين بخطر إمرى وزحاله على شيركوه وجنده ، فتحرك ليناوش مخافر بيت المقدس المتطرفة حتى تخف وطأة أمرى على قائده

وصمد شيركوه ومن معه ببلبيس ثلاثة أشهر ، مع أن سورها كان من الطين ولم يكن لها خندق كغيرها من المدن الحصينة يحميها . وبينما كان الإفرنج فى حصارهم دائبين إذ وافتهم الأنباء بحركات نور الدين فى بلادهم « فعظم ذلك عليهم ، وخافوا على البلاد فراسلوا أسد الدين فى الصلح وتسليم ما أخذه من البلاد إلى المصريين »

دفع مركز شيركوه الحرج إلى قبول شروطهم للصلح ، ومغادرة البلاد وخرج من بلبيس .

ولم تنجح الجولة الأولى لنور الدين فى مصر ، فخرج شيركوه ، وخرج الصليبيون ، ولكنه كان عازماً على أن يعيد الكرة ، بعد أن يستعد للأمر ، ويجهز حملة يمكنها الصمود والتوغل ، بعد أن أدركته خيانة شاور ، ولم يعد فى إمكانه الاعتماد على جند المصريين .

---

(١) مفرج الكروب ١٣٩/١ .

وفى سنة اثنتين وستين وخمسمائة – أى بعد الحملة الأولى بأربع سنين – سير نور الدين حملته الثانية بقيادة شيركوه ، وجهز معه من الفرسان ألفى فارس والتحق صلاح الدين بهذه الحملة مع عمه ، وعمره إذ ذاك عشرون ربيعاً ، ووصلت الحملة إلى مصر وتوغل جنوباً وعبر النيل من الشرق للغرب عند إطفيح[1] جنوبى القاهرة وسار فى أرض الصعيد جنوباً « وتصرف فى البلاد ، وأقام بها نيفاً وخمسين يوماً »[2] .

ولم يترك شاور وحلفاؤه من الفرنج أسد الدين فى الصعيد يمكن لنفسه بل جمعوا حشودهم وساروا إليه ، والتقت جنود الفريقين عند قرية البابين جنوب مدينة المنيا فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة .

وكان جند المصريين والفرنج مجتمعين يفوقون جند شيركوه ، فأدخل ذلك الخوف فى نفوس بعضهم ، ولكن بعض قوادهم الشجعان ، وقوة شخصية شيركوه وجرأته تغلبت على ما ساور تلك النفوس من ضعف . وكان صلاح الدين من بين من حبذوا لقاء الفرنج والمصريين وقتالهم فى شدة وعنف .

ولم يشأ شيركوه أن يبدأ بالهجوم ، بل أعد خطته بحيث يبقى فى مكانه ، ينتظرهم وقسم جيشه إلى قلب وجناحين ، وجعل ابن أخيه صلاح الدين على القلب وترك به أثقال الجيش وعتاده ، ووصاهم أنهم سيكونون هدف هجوم الفرنج والمصريين ، وأنهم سيلقون الصدمة الأولى فى المعركة فعليهم الثبات ولكن إلى حين ثم التظاهر بالتراجع حتى إذا تمادى الفرنج فى تعقبهم كروا عليهم .

واختار هو جماعة من الفرسان الشجعان فرقة ضاربة تكمن فى الميمنة ، وتنقض فى الوقت المناسب لتطوق المهاجمين .

والتقى الجمعان ، وهاجم الفرنج وشاور القلب ، « فقاتلهم من به قتالاً يسيراً ثم تظاهروا بالهزيمة غير متفرقين وتبعهم الفرنج ، وحينئذ حمل أسد الدين

---

(١) قرية من قرى مركز الصف بمديرية الجيزة .

(٢) مفرج الكروب ١٤٩/١ .

بمن معه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج – الفارس والراجل – فهزمهم ووضع السيف فيهم وأثخن وأكثر من القتل والأسر »[1] .

وبعد هزيمة شاور وأنصاره من الفرنج اتجه شيركوه وجنوده شمالاً فاستولى على الإسكندرية ، « وسلمها أهلها إليه لميلهم إلى مذهب السنة وكراهتهم لرأى المصريين »[2] وترك بالمدينة حامية على رأسها ابن أخيه صلاح الدين ، وفصل هو وبقية الجند متجهاً للصعيد مرة أخرى .

وقد ظهرت براعة صلاح الدين السياسية والحربية لأول مرة بالإسكندرية فقد أحبه أهلها ، ونصروه ، وعندما جاء إليه الفرنج ليحصروه ، قاوموا معه وتحملوا ضيق الحصار ، وقلة الطعام إلى أن تم الصلح وخرج شيركوه وابن أخيه ومن معهما من جيوش نور الدين مرة ثانية من مصر ، وخرج الفرنج ولكنهم تركوا حامية صغيرة وبعض فرسانهم بالقاهرة ليحرسوا أبوابها وليكونوا عيوناً على المصريين وأداة نفوذ لملك بيت المقدس ، وليجبوا الأموال التى فرضوها على شاور للخروج .

ولم تستقر الأمور بعد ذلك الصلح المؤقت ، لأن كل فريق كان يتحين الفرص ويتربص بالآخر ، واشتد ضغط الفرنج على المصريين ، وساروا فى القاهرة سيرة جور وعنت ، كما أنهم بيتوا الاستيلاء على البلد استيلاءً كاملاً ، وأحس نور الدين بذلك فحدثته نفسه بإعادة الكرة مرة ثالثة .

وكانت أنباء محاولات الفرنج وفرض سيطرتهم على مصر قد وصلت إليه عن طريق رسل بعث بهم شاور إلى نور الدين مستصرخاً ، وفى رسائله ذوائب نساء أهل القصر مجزوزة ، إمعاناً فى طلب العون والنجدة ، وكان يقول له : « إن لم تبادر ذهبت البلاد » وأرسل الخليفة الفاطمى إليه كذلك بنفس المعنى مستغيثاً عارضاً عليه ثلث البلاد ، وأن يكون أسد الدين مقيماً عنده فى عسكر ، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذى لنور الدين .

وأرسل – نور الدين وهو مقيم إذ ذاك فى حلب – إلى أسد الدين شيركوه

---

(١) مفرج الكروب ١/١٥٢ .

(٢) نفس المصدر ١/١٥١ .

يستدعيه فلقيته الرسل فى الطريق قاصداً حلب من حمص إقطاعه . وأمره نور الدين بتجهيز الحملة وإعدادها الإعداد اللائق ، والإسراع للسير إلى مصر ، وأعطاه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة ، واختار من العسكر ألفى فارس ، ومن الترك ستة آلاف فارس فكان مجموع فرسانه ثمانية آلاف عدا المشاة والتابعين .

وبعث نور الدين إلى صلاح الدين يطلب إليه التجهيز للمضى مع عمه شيركوه ، وكره صلاح الدين السير أول الأمر ، وذلك لما لاقوه فى الحملة الثانية من مصاعب وأهوال وخاصة بالإسكندرية عند حصار الفرنج وشاور لها . روى عنه ابن شداد صاحب سيرته أنه قال : « كنت أكره الناس فى الخروج فى هذه الوقعة ، وما خرجت مع عمى باختيارى » .

وقال عز الدين بن الأثير : « أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير ، وفيه سعادته وملكه » .

ونزل صلاح الدين فى النهاية على طلب نور الدين ، وصحب عمه ، وسار الجيش إلى مصر ، وكانت بها بعض فصائل من الإفرنج فلما سمعوا باقتراب أسد الدين غادروها ، وكان نزول عسكر شيركوه بمصر سنة أربع وستين وخمسمائة وفرح به أهل مصر ، لأنه كان المنقذ لهم من الفرنج وعبثهم وقسوتهم ، وأعمال السلب والنهب التى كانوا يرتكبونها دون رادع يمنعهم أو يحد من غلوائهم .

واتصل شيركوه بالقصر فقربه الخليفة وأنعم عليه وأغدق فى إكرامه له ، وكان قد سئم تصرفات وزيره شاور ، ومؤامراته ضد مصر والقصر ، ليفوز هو من ورائها بمطامعه على حسابهما جميعاً ، وعلى حساب أقوات المصريين وسلامتهم وسلامة الشرق الإسلامى جميعاً ، فليس يخفى ضرر التجائه لصاحب بيت المقدس فهو مفتاح سيطرة الصليبيين على مصر ، ومن ثم تحكمهم فى هذه المنطقة الحيوية ، مما يكون خطراً داهماً يهدد البلاد الإسلامية ويخنق تجارتها ومواصلاتها ويتحكم فى منافذها . وقد أحس المسلمون بهذا كله . وجزعوا منه ، ولهذا قام نور الدين بمغامراته الثلاث ، فى حملاته الفدائية بقيادة شيركوه

عبر بلاد الفرنج ، ولهذا أيضاً قال نور الدين لصلاح الدين حين دعاه لمرافقة عمه يستحثه : « إن تأخرت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضى أن أسير أنا بنفسى إليها . فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ، ولا يبقى معهم مقام بالشام ولا غيره »[1] .

واعتبر المسلمون حماية مصر من الفرنج أجل الفتوح وأعظمها « إذ لو استولى العدو على الديار المصرية لاستولى على سائر الخطة الاسلامية »[2] .

ولهذا كله كان شاور محل سخط الخليفة ، ونور الدين ، وشيركوه ، وكان فى نفس كل واحد منهم أن يتخلص منه ، لأنه كان مثال الخداع والكيد والتضليل والتآمر ، حتى بعد استقرار الأمر لشيركوه فى مصر ، قال ابن واصل : « وأقام شاور يتردد إلى أسد الدين شيركوه ، وكان قد وعده بمال فى مقابلة ما خسره من النفقة فلم يوصل إليه شيئاً ، وقيل إنه ماطل فى تقرير ما بذل له من المال والإقطاع للعساكر وإفراد ثلث البلاد لنور الدين » .

« وذكر أن شاور كان قد عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم » .

قال ابن واصل : « واجتمع أسد الدين وأصحابه على الفتك بشاور ، لأنهم علموا أن الفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد ، وأن ترددهم إليها فى كل وقت لا يفيد ، وأن شاور يلعب بنا تارة وبالفرنج تارة أخرى ، وأنهم إن قتلوه ، واستولوا على البلاد حفظوها من عدو الدين » .

وانتدب صلاح الدين نفسه للخلاص من عدو الدين ، واتفق هو وبعض القواد على التخلص من شاور ، فقتلوه ، وبذلك استراحوا من شره .

وجرت الأيام بالسعد لصلاح الدين ، وشاء القدر أن يدفع به لتسلم لواء القيادة فى معركة التحرير الإسلامى ضد قوى الغزو الصليبى والزحف الفرنجى البربرى على الشرق المتحضر .

---

(١) مفرج الكروب ١٥٩/١ .

(٢) نفس المصدر ١٦٠/١ .

وقد بهرتهم خيراته ومدنيته ، فراحوا يمنون نفوسهم بالأسلاب والغنائم ، وراح دعاتهم وأولوا الأطماع يتدافعون ويدفعون بالأغرار باسم الصليب ليحاربوا وليكسبوا أرضاً . وليوطدوا أقدامهم فى قواعد يستغلونها لأغراضهم .

ولكن صلاح الدين أمكنه أن يكسر موجة الطغيان ، وأن يرد عادية الصليبيين ويحطم آمالهم وأحلامهم بغنائم الشرق الإسلامى وأسلابه .

ولد صلاح الدين من أصل كردى أو عربى ، وكل منهما يمتاز بميزات خاصة ، فالأكراد رجال بأس وحرب ، وشجاعة وكفاح ، والعرب كذلك رجال إباء ومروءة وعزة . وكان أبوه رجلاً مقداماً ، نبيلاً ، قائداً ذكياً ، داهية ، سياسياً يعرف كيف يسوس ويقتنص الفرصة المناسبة ليعمل ، وولد ابنه يوسف صلاح الدين كذلك ، وظهرت بوادر صفاته الممتازة مبكرة ، فقد دفعته الأحداث ليعمل شاباً صغيراً ، إذ صحب عمه وعمره لا يتجاوز عشرين عاماً فى حملته الثانية على مصر ، وأجبرته الظروف على أن يتحمل حصاراً مروعاً بالإسكندرية ، وأن يتصرف وأن يصمد ، فصمد ، وخرج من المأزق ، وأحبه أهل الإسكندرية وقدروه لما لمسوه فيه من أخلاق كريمة وما لحظوه فى قيادته من حسن سياسة وبلاء

وامتاز صلاح الدين بالحسم وسرعة العمل ، وتنفيذ ما يقتنع بصوابه وجدواه ، فهو الذى تقدم لقتل شاور ليحسم الأمر ويتخلص من مراوغ عنيد ، وهو الذى تحمل تبعة الوزارة ، وتصرف فى منصبه تصرف القادر على حداثة سنه ، وعلى وجود من يكبرونه ويزيدون عليه فى المكانة ، والقيادة .

وأخذ صلاح الدين إثر تملكه الوزارة بعد وفاة عمه يتصرف ليبسط يديه على مصر ويمكن لنفسه ويضع لبنات دولته ليصل إلى غرضه الأسمى الذى وقف له حياته وجهده وهو طرد الفرنج من ديار الإسلام والانتقام من الغاصبين والثأر لقتلى بيت المقدس ، والدماء الزكية التى سالت على أرضه وأرض الشام ومصر بأيدى الأفاقين المغتصبين .

وكان صلاح الدين يسير فى سياسته على نهج يتلخص فى الحزم من غير

عنف وحسن السيرة فى غير ضعف ، كما أنه كان يسعى إلى توحيد الجهود نحو الهدف ، ولم يسمح لذلك بالفرقة فى أية صورة من الصور ، وحارب دعاة الهزيمة وتشتيت الجهود داخل البلاد حرباً لا هوادة فيها ولا تهاون حتى يحفظ للجبهة الداخلية تماسكها لتواجه الأعداء صفاً مرصوصاً متماسكاً لا منفذ فيه ولا ثغرة لمغرض أو مغامر أفاق ، ولا فرجة يستطيع الأعداء التسلل خلالها للطعن من الخلف .

وواجهته فى مبدأ حكمه مشكلة الفرقة فى قوى المسلمين ، فالدولة التى يتبعها ، والتى جاء فى عسكرها سنية ، والدولة التى يتولى الحكم فيها صاحب الأمر فيها علوى يضمر لأهل السنة الحقد ، وبينهما ثارات من قديم الزمان ، ويعرف أن الظروف إن كانت قد أرغمت صاحب مصر الفاطمى على المهادنة والخضوع ومسايرة الزمن . فإنه لا يأمن أن يتغلب عليه متى سنحت فرصة ملائمة ، أو بدرت بادرة تمكنه من عرضه ، لهذا كان يبيّت فى نفسه التخلص من صاحب الأمر فى مصر ، من الخليفة الفاطمى ومن أتباعه إذا لزم الأمر ليخلو له الجو ، وبدأ يدبر ويعد عدته ، ويتحين الوقت المناسب .

واستمال صلاح الدين قلوب المصريين بحسن سيرته ، والتصدق بالأموال ، فبذل منها ما كان قد جمعه عمه شيركوه ، وطلب من العاضد الخليفة الفاطمى أن يخرج من ماله جزءاً لإنفاقه فقبل ، وركز جهده حول القصر ، وأحب أن يتتبع الأعوان فيقضى عليهم واحداً واحداً ليعزل الخليفة فيسهل بعد ذلك إقصاؤه ، وبدأ بعبيد القصر من السودان ، وقد أخذ عليهم محاولتهم الاتصال بالفرنج ، فأوقع بهم وتخلص منهم – قال ابن واصل : « ولما وقعت هذه الواقعة تلاشى أمر العاضد خليفة مصر »[1] .

وأرسل صلاح الدين فى طلب والده وإخوته لينصروه ، وليعتز بهم ويدعم حكمه ، فطلب إلى نور الدين أن يسمح لوالده نجم الدين بالحضور إليه ، ففعل نور الدين ، وجاء نجم الدين وسلم إليه ابنه الخزائن بأسرها[2] .

---

(١) مفرج الكروب ١/١٧٨ .

(٢) نفس المصدر ١/١٨٦ .

وأخذ فى التدعيم لأهل السنة فى مصر ، فأنشأ المدارس للشافعية ، وفوض القضاء بمصر للشافعى ، فاشتهر مذهب الشافعية واندرس مذهب الإسماعيلية بالكلية وانمحى أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به[1] .

وضيق صلاح الدين الخناق على الفاطميين ، فأعلن الخطبة للعباسيين ، وقطع الخطبة للعاضد الفاطمى ، وتوفى العاضد بعد ذلك ، فخلا الجو لصلاح الدين ، وأصبح صاحب الأمر قولاً وفعلاً .

وتولى صلاح الدين الأمر بمصر سنة ٥٦٩ هـ ، وبدأ تمهيد قاعدته فيها وتطهيرها من عناصر الفساد التى كانت تتمتع أيام الفاطميين بحرية العمل والتخريب ، وكانت سن صلاح الدين عند توليه الأمر سبعة وثلاثين عاماً ، وقد كان له من شبابه عون على اقتحام الصعاب ، وخوض العقبات إلى آماله مستهيناً بكل ما يلقى فى سبيل ما يصبو إليه .

وبما أن ظروف الحكم والحكام فى تلك العصور توحى بالاستبداد والتفرد بالحكم إلا أن ذلك لم يكن من دأب صلاح الدين ، فقد ألف الشورى ، وكان له من مجلس أعوانه الأمراء والقواد والوزراء كالقاضى الفاضل ، والفقهاء والقضاة مجلس شورى يستأنس به فى الملمات ويرجع إليه كلما استشكل أمر أو أحب الاستفسار عن شىء .

وكان يتحلى بالإيمان المستقر فى قلبه ، وكان يعرف الله حق المعرفة ويراقبه فى غدوه ورواحه ، ويرجع إليه كلما أدلهم كرب ، أو ضاقت به السبل فيجد من خالقه معيناً ونصيراً ، ويجد فى الابتهال إليه قوة دافعة تميط له الحجب ، وتدفع به إلى الصراط السوى ، قال ابن شداد : « وحسن ظنه بالله واعتماده عليه فى عظم الأمور »[2] ، وقال : « كان رحمة الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم »[3] . ويذكر مثالاً لذلك الإيمان الذى يتفجر من قلبه ما حدث فى

---

(١) مفرج الكروب ١/١٩٨ .

(٢) النوادر السلطانية ص ٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٤ .

حصار الفرنج لبيت المقدس قال : « حدث فى حصار الإفرنج بقيادة قلب الأسد لبيت المقدس أن أشتد الأمر على المسلمين ، فصلى صلاح الدين الفجر ، وخر ساجداً لله يدعوه وعيناه تقطران الدموع على شيبته ثم على سجادته »[1] .

وقد لاقى صلاح الدين صعاباً كثيرة فى الداخل من أولها ثورة السودان من عبيد القصر الفاطمى وحراسه ، ثم هجوم أهل النوبة والسودان على الصعيد ، ثم ثورة الكنز أمير الصعيد وبعض من أيدوه من الأعراب ، ثم مؤامرة الانقلاب الذى أراد بعض أنصار الفاطميين تدبيره للتخلص من صلاح الدين وملكه .

ولكن صلاح الدين خرج من هذه الصعاب والأزمات المتتالية منصوراً ظافراً بفضل يقظته ، وحسن تدبيره وإخلاص بعض أعوانه ، ومناصرة إخوته وعشيرته ، ثم بعد هذا كله إخلاص المصريين له بعد أن رأوا فيه الرجل الذى يمكن أن يخلصهم من فوضى الحكام والذى رأوا فيه القوة والشباب الذى كان ينشده الشرق الإسلامى فى زعيم ينقذه من الصليبيين .

ولم يقنع صلاح الدين باستتباب الأمن وقهر روح التفكك والهزيمة داخل البلاد بل قام بحملات لتأمين الحدود المصرية ، وأهمها حملات أخيه شمس الدين توران شاه إلى بلاد النوبة واليمن ، والتى انتهت بتطهير تلك البلاد ، وضمان تأييدها ونصرتها لمصر وصلاح الدين ، كما كانت حملته لليمن سبباً فى تطهير البلاد المقدسة ، وتأمين الطريق إلى مكة والمدينة ليحج المسلمون آمنين من العابثين من اللصوص وقطاع الطرق ، أو من المتلصصين من شراذم الصليبيين الذين انوا يحاولون قطع الطريق إلى الحجاز ، فى البر أو البحر على ظهور سفن قراصنتهم التى كانت تقوم من ميناء إيلات جنوبى فلسطين على خليج العقبة ، وتجوب البحر الأحمر عابثة مرتكبة صنوفاً من النهب والسلب والقتل والاستيلاء على السفن التجارية الآمنة أو التى تحمل الحجيج من عيذاب متجهة للشمال .

وتم الأمر لصلاح الدين بمصر ، وأمّن داخل البلاد ، والحدود ، وأرسل

---

(١) النوادر السلطانية ص ٨ .

ليكسب أنصاراً من البلاد الإسلامية والعربية المجاورة ، وكانت خطوته التالية هى كسب الشام إلى جانبه وتوحيدها مع مصر للضغط بالثقل الإسلامى والعربى كله على الصليبيين ، ولم يكن من الميسور عمل هذا فى حياة نور الدين ، فكلا الرجلين نور الدين وصلاح الدين صاحب طموح ، وإقدام ، وعلى الرغم من أن صلاح الدين كان تابعاً لنور الدين ، إلا أنه أحب أن يفصم عرى تلك التبعية ، ويستقل بنفسه ، ولكنه عالج الأمر بمهارة ، حتى لا يكتسب الصليبيون مما قد ينشب بين الزعيمين من خلاف فرصة لإضعاف المسلمين والوثوب عليهم ، فاضطر صلاح الدين أن يغضى بعض الشىء وأن يسالم عندما واجهه نور الدين بالرغبة فى الزحف إليه لاسترجاع مصر من بين يديه ، فأظهر له الإخلاص والود ، وسارع إلى إرسال الهدايا والمال إليه ، ثم سارع إلى معاونته ضد الفرنج ، فغزا الكرك والشوبك من قلاعهم القريبة من مصر .

وشاء الله ألا تطول حياة نور الدين ، ليسلم اللواء إلى صلاح الدين وينفرد وحده بجهاد الفرنج . فتوفى نور الدين سنة ٥٦٩ هـ ، وخلا الجو لصلاح الدين ، فنهض من فوره إلى الشام ، وتوجه إلى دمشق حاضرة الدولة النورية ثم إلى حلب حيث استولى على زمام الأمر ، ولم يترك فرصة لأخوى نور الدين أو قواده ، وهكذا تم له بناء دولته وتوحيد المنطقة العربية الإسلامية التى تحيط بإمارات الفرنج على سواحل البحر المتوسط ليجند كل مواردها للوثوب وطرد الغاصبين .

ولم تكن عيون الفرنج غافلة عن نشاط صلاح الدين ، واستعداداته ، فشنوا عليه سلسلة من الهجمات فى مصر والشام لمضايقته وتعطيله ، وبدأت تلك الهجمات بحملة ملك بيت المقدس ومساعدة أسطول قوى من إمبراطور بيزنطة بحصار دمياط واحتلالها . ولكن مقاومة المصريين من أهل دمياط حالت دون تحقيق أغراض الحملة ، فباءت بالفشل ، وعادوا من حيث جاءوا .

وشن الصقليون هجوماً بحرياً جريئاً على الإسكندرية ، وحالت حامية المدينة واستماتة أهليها فى الدفاع دون نزولهم ، وباءوا بهزيمة نكراء ، وكروا على أعقابهم خاسرين .

صلاح الدين يبدأ حركة الانقضاض

بعد أن تخلص صلاح الدين من الصعوبات التى قامت فى وجهه فى مصر ، وقضى على المعارضة الداخلية ، وطهر البلاد من فتن الأعداء وحاسديه من الفاطميين وغيرهم ، وتخلص كذلك مما كان يحاك له من مؤامرات اتخذت أساليب الهجوم المسلح على ثغور مصر من ملوك أوربا وأعوانهم فى بيزنطة وصقلية وغيرهما من البلاد المجاورة لمصر — بعد أن تخلص من هذا كله ، وحطم موجات الهجوم ، بدأ مرحلة جديدة ، مرحلة إيجابية ، هى مرحلة الانقضاض .

وقد بدأ صلاح الدين مرحلة الانقضاض بأن ألقى بناظره إلى خارج مصر ، إلى حدودها الشمالية الشرقية حيث بلاد الشام ، وهى قسمان قسم يملكه الصليبيون ، ويحكمونه بقوة السلاح ، وقسم يملكه العرب والمسلمون ، وعلى رأسهم نور الدين محمود بن زنكى ، وكان التناسق فى العمل بين صلاح الدين ونور الدين تاماً ، فى سبيل غاية واحدة هى القضاء على الصليبيين واستعادة الأرض التى سلبوها من العرب واقتلاع جذورهم من الوطن الإسلامى العربى .

لذلك كان الصليبيون يعملون بشتى السبل على تحطيم كلا القائدين ، وتمكن صلاح الدين من مقاومتهم والصمود أمامهم فى مصر وفى حدود مصر ، وكذلك فعل نور الدين ، ولكن حم القضاء ، فانتقل نور الدين إلى جوار بارئه ، وترك القيادة الشمالية خالية ، وكان لابد لصلاح الدين أن يملأ الفراغ الذى خلفه صاحبه لأنه لم تكن بعد نور الدين شخصية قوية تستطيع أن تصمد إلا صلاح الدين فى الجنوب ، فى مصر .

وتهيأ صلاح الدين للخروج إلى الشام لتوحيد شمل العسكر العربى فى القطرين تحت راية واحدة ، وزعامة واحدة ، لتحقيق غاية واحدة .

وسار صلاح الدين فى خمسمائة فارس إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ — ١١٧٥ م ، وكان غرضه الظاهر هو حماية ابن نور الدين الأمير الذى ولى بعده

باسم الملك الصالح ، وكان مستقراً فى حلب ، وحاول قواد نور الدين أن يقفوا فى وجه صلاح الدين ، لأنهم كانوا يحسون فى أنفسهم قوته ، كذلك دفع الحسد والخوف على الملك عم الأمير الصغير صاحب الموصل إلى التحرك لإنقاذ ملك أخيه وأبيه زنكى .

واجتمعت كلمة بيت زنكى ، وقواد نور الدين على مهاجمة صلاح الدين وتفويت الفرصة عليه . وقد يبدو غريباً أن يلتقى المسلمون فى معركة دامية فى وقت ينبغى فيه الوحدة ، والتجمع ، والالتئام لا التفرق والتناحر والتقاتل

ولكن الفريقين كانا مسيرين بدواع قوية تعتبر مسألة حياة أو موت بالنسبة لكل منهما ، فصلاح الدين يعتبر الأمر جداً ، وليست هناك أية فرصة للتردد أو التهاون فى جمع الشمل ، بل ليست هناك فرصة لترك الميدان للعدو الخارجى الصليبيين وهم يتربصون بالمسلمين والعرب الدوائر ، ويتمنون وجود ثغرة فى صفوفهم لينفذوا من خلالها إلى أغراضهم وهى القضاء على هذه القوة الجديدة التى بدأت تفيق ، لتقلق مضاجعهم وتهدد مصالحهم وإماراتهم

وكان الهدف البعيد ، أو الأسمى أمام صلاح الدين أهم من الهدف القريب ، الهدف البعيد والأسمى هو جمع الصف واقتلاع الغريب وتخليص أرض العرب والمسلمين للعرب والمسلمين ، أما الهدف القريب هو الإبقاء على الصداقة ، وعلى الولاء وعلى الرابطة بين المسلمين .

والتقى الجيشان ، جيش صلاح الدين وجيش آل زنكى بقرون حماة[1] سنة ١١٧٥ م وتمكن صلاح الدين من هزيمتهم ، وامتلاك ناصية الأمر وبذلك أصبح سلطان مصر والشام الملك الناصر لدين الله .

واستقر الوضع له ، واعترف الخليفة العباسى ببغداد به سلطاناً على مصر والشام ، وأرسل إليه الخلعة الرسمية[2] .

واستقر فى حلب فترة من الزمن ، أعد فيها الأمور فى الشمال ورتب الجند ، وعاد إلى مصر .

---

(١) راجع ابن الأثير فى الكامل جـ ١٠ ، Lane poole: Saladin 143 .

(٢) ابن الأثير فى الكامل جـ ١٠ .

عاد صلاح الدين إلى مصر هذه المرة بعد أن أعد جبهته الشمالية ، وكانت عودته للاستجمام والتجمع للوثوب ، ولبدء الحملات الحقيقية ضد الصليبيين فى فلسطين والشام ، حملات الجلاء والطرد .

وقد دبر فى مصر الأمر لإعداد المؤونة للجيوش المقاتلة ، والسلاح ، والرجال وكانت القلعة المعروفة باسمه : قلعة صلاح الدين فى أعلى المقطم ، مركزاً للنشاط والإعداد ، والحركة الدائبة ليل نهار .

وبعد أن تم الأمر ، وأعد القائد قوة ضاربة تستطيع أن تقتحم وتهاجم حصون الفرنجة ، سار على رأسها سنة ١١٧٧ م ، وفى الرحلة بأرض فلسطين التقى بجيوش الصليبية وكانت وقعة شديدة ، لم يوفق فيها القائد الطموح فعاد بجيشه ، إلى مصر ، وبدأ من جديد يعد ويستعد ، ثم عاود حملاته فى سنة ١١٧٩ م ، وانتصر هذه المرة فى عدة معارك لعل أهمها معركة مرج عيون سنة ١١٧٩ م .

وكانت قوة الصليبيين لا تزال صلبة ، فرأى صلاح الدين أن من الحكمة مهادنتهم إلى حين ، فوقع صلحاً بينه وبينهم سنة ١١٨٠ م لمدة سنتين ، وأزمع فيهما أن يدبر أمراً ، وهو أن يجمع حوله القوى العربية والإسلامية لتعاضده ، وتنطلق هذه القوى جميعاً فتلقى بثقلها على الصليبيين ، وحينئذ يستطيعون أن يفلوا قواهم وأن يخترقوا حصونهم ، وأسوارهم .

وكتب إلى أمراء الجزيرة ، والموصل وأربل ، وكيفا ، وماردين وهى كلها مقاطعات فى الشمال ، شمال العراق وسورية ، كما كتب أيضاً إلى سلطان قونية السلجوق ، وإلى ملك أرمينيا ، كتب إلى كل هؤلاء بالصلح ، واجتمع منهم مؤتمر كبير قرب سميساط ، اتفقوا فيه على أن يسود السلام بينهم وألا يعادى أحدهم الآخر ، وأن يكونوا صفاً على العدو . وحضر صلاح الدين مؤتمر سميساط ، وبعد أن تم الصلح عاد إلى مصر سنة ١١٨١ م (٥٨٧ ه) وأناب ابن أخيه فرخشاه على دمشق ، ولم يبق فيها طويلاً ، فقد كان كثير التردد بينها وبين الشام ، وعاد فى العام التالى إلى الشام ، وودعته مصر هذه المرة وداعاً حافلاً ، وخرج الناس فى وفود زاخرة إلى معسكره يودعونه وقد غلبهم التأثر

والحماس ، واستمع فى سرادقه إلى الخطباء والشعراء يهنئونه بالنصر ويتمنون له الخير ، وقد جاء على لسان أحدهم فى هذه المناسبة :

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

فتطير الناس منه ، ويقول المؤرخون إنه لم يعد بعد هذه السنة إلى مصر ، بل ظل يحارب الصليبيين إلى أن تم له النصر الكبير فى معركة حطين الفاصلة ، ثم فتح بيت المقدس ، وتمت الهدنة بينه وبين الفرنج ، وعاد إلى دمشق ليستريح . وكان قد نوى الحج ليختم به جهاده الرائع ، ولكن القدر لم يمهله فلقى الله سنة ٥٨٩ هـ بدمشق ، وودعه العالم العربى والإسلامى وداعاً رائعاً ، ورثاه الشعراء والأدباء مراثى باكية .

وقد مات ولم يبلغ الستين من عمره فتياً فى قلبه وهمته ، ولم يدع له موته السريع الفرصة للتمكين لدولته ووضع النظم لها ولحكمها وإدارتها وإن كان قد وضع على الولايات الهامة أبناءه وإخوته فتولى ابنه العزيز عثمان نائباً عنه فى مصر والظاهر غازى على حلب ، وأخاه الملك العادل على الولايات الشرقية .

الأيوبيون بعد صلاح الدين :

وبعد وفاة صلاح الدين اضطرب الأمر بين أبنائه ، وخاصة بعد تولى الملك الأفضل دمشق ، فقد ثارت بينه وبين أخيه العزيز عثمان أحداث جليلة تدخل فيها الملك العادل أبو بكر بن أيوب وجاء من المشرق لينصر العزيز عثمان على أخيه الأفضل ، وانحاز الظاهر صاحب حلب إلى أخيه الأفضل فترة من الزمن ولكن تمكن العادل والعزيز من إقصاء الأفضل عن دمشق وتوليته بعض الولايات الشمالية . وتولى العادل أبو بكر أمر الشام سنة ٥٩٢ هـ .

واستقر الأمر للعزيز عثمان على مصر وكانت مدة حكمه سنتين إلا شهراً (توفى سنة ٥٩٥ ه) .

وذكر المؤرخون أنه كان عادلاً كريماً حسن الطوية والأخلاق والعقيدة شديد الخوف من الله تعالى ، محباً للعلم والعلماء كثير الاستماع للحديث ، سمعه بمصر والإسكندرية وخالط الفقهاء ، وأغدق عليهم ، وسار فى الرعية أحسن سيرة .

والتف حوله جماعة من أمراء أبيه ورجال دولته الكبار ، وإن كان شغب عليه بعض جنده فى أول حكمه عند توجهه إلى الشام .

وضم بلاطه كثيراً من أدباء مصر وشعرائها من جماعة القاضى الفاضل أمثال ابن سناء الملك ، وقد مدحه بكثير من القصائد .

ويذكر أنه كان قد طلب إلى القاضى الفاضل أن يعينه ببعض ماله لينفق على القتال ، فقال له القاضى الفاضل : « وجميع ما أنا فيه من نعمتكم ، ونحن نقدم الرأى والحيلة ، ومتى احتيج إلى المال فهو بين يديك »[1] .

وقد شارك العزيز عمه فى بعض وقائع بالشام ضد الصليبيين سنة ٥٩٤ هـ .

وتولى بعد العزيز ابنه الملك المنصور ، وكان طفلاً ، فراسل بعض رجال دولته الملك الأفضل فى صرخد بالشمال ، وحاول الأفضل العودة إلى مصر فجاءها متخفياً ، ولكن عمه العادل سمع بالخبر فجاء إلى مصر من الشام وهرب الأفضل ووزيره ضياء الدين مرة ثانية .

وجاء العادل إلى مصر بعد هزيمة الأفضل والملك الظاهر . وتعقبه الأفضل إلى القاهرة .

وتولى العادل أمر مصر سنة ٥٩٦ هـ إلى جانب الشام التى كان تولاها سنة ٥٩٢ هـ وأرسل إلى ابنه الملك الكامل يستدعيه ، وولاه نائباً عنه بالديار المصرية ، ولم يزل الملك الكامل ينوب عن أبيه إلى أن توفى ، وكانت مدة نيابته عن أبيه عشرين سنة ، ثم تولى الملك من بعده سنة ٦١٥ هـ وظل سلطاناً عشرين سنة أخرى ، فكان حكمه لمصر أطول حكم الأيوبيين جميعاً إذ استمر قريباً من أربعين سنة بين النيابة والسلطنة .

وكان عارفاً ديناً مهاباً شجاعاً ، وحدثت أثناء توليه نيابة مصر أحداث بين فريقين من جند الأيوبيين : بين الصلاحية والأسدية ، كما حدثت أحداث أخرى بين العادل وأبنائه وأبناء صلاح الدين وإخوته فى الشام ، كان من بينها

---

(١) مفرج الكروب ١٥٢/٣ .

منازلة الملك الأفضل وأخيه الملك الظاهر صاحب حلب لدمشق للمرة الثانية ، وكان عليها الملك المعظم عيسى بن العادل ، ولكن العادل نهض من مصر لنجدة ابنه فى دمشق . واختلف الأخوان الأفضل والظاهر على من يملك دمشق واستطاع العادل مرة أخرى أن يفرق شملهما فرحلا عنها وعادا إلى ولاياتهما ، واستقر العادل بعض الوقت بالشام يدعم ملكه ويعين أبناءه على استقرار أمورهم فى الولايات التى يتولونها نيابة عنه ، فقد كان فى الشرق ابنه الأشرف موسى وفى دمشق المعظم عيسى وفى مصر الكامل .

وقامت أحداث بين العادل وأبنائه من جهة والفرنج من جهة أخرى فى بعض ثغور الشام ، كذلك خرج عليه ابن أخيه الملك الأفضل على بن صلاح الدين وسلم سميساط للسلطان السلجوقى صاحب بلاد الروم وانتمى إليه[1] . وجرت وقائع أخرى بين الأشرف موسى وبعض خلفاء زنكى على الموصل ، وهزم نور صاحب الموصل سنة ٦٠٠ هـ .

وهكذا استمرت مدة حكم العادل أبى بكر لمصر والشام فترة مضطربة عامرة بالأحداث الجسام والدسائس والمؤامرات والوقائع الحربية والخيانات بين أبناء البيت الأيوبى من ناحية فيما بينهم وبين بيت زنكى الذين كانوا يلون الموصل وأربل وسنجار فى المشرق من ناحية أخرى ، أو بينهم وبين الفرنج الذين كانوا يقيمون فى بعض الثغور والجيوب فى بلاد الشام وينتهزون الفرص للانقضاض كلما أحسوا بالضعف أو بانشغال الأيوبيين فيما بينهم بالنزاع على السلطة .

واستقرت الأمور ردحاً من الزمن بين العادل والظاهر صاحب حلب بعد أن تزوج الظاهر ابنة عمه ، وأنجب منها ولداً ، وتعاون الاثنان وهدأت بينهما الأحوال وعاد السلام .

واستقرت الأمور نسبياً بعد ذلك على الحدود الشرقية فى السنوات الأخيرة من حكم العادل . ولكن ذلك لم يدم طويلاً إذ انقض الإفرنج فى آخر سنوات

---

(١) مفرج الكروب ٢٥٨/٣ .

عمره سنة ٦١٥ هـ على مرج عكا بالشام ودمياط بمصر ، وكان تجمعهم بعكا بقصد الهجوم على مصر بحراً من دمياط . قال ابن واصل :

« ولما طالت مدة اجتماع الفرنج بمرج عكا اجتمعوا للمشورة فى ماذا يبدءون بقصده ، فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولاً ، وقالوا إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها ، فالمصلحة أن نقصد أولاً مصر ونملكها ، وحينئذ لا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد »[1] ، فصمموا عزمهم على ذلك وركبوا البحر ، وقصدوا بجموعهم الديار المصرية ، ونزلوا على بر دمياط وبينهم وبين ثغرها بحر النيل ، ولقيهم الكامل وحاربهم أربعة أشهر إلى أن أنجده أبوه العادل ، وتمكنوا من ردهم .

وفى هذه السنة الأخيرة من حياته كذلك هزم ابنه الاشرف موسى سلطان الروم السلجوقى .

وكان العادل أبو بكر دون شك أقوى شخصية فى البيت الأيوبى بعد صلاح الدين ؛ وإن لم تكن بطولته فى ميدان القتال أو انتصاراته شيئاً إلى جانب بطولات أخيه ، لكنه اشتهر بالدهاء والسياسة ، قال المؤرخون : « وكان متيقظاً غزير العقل سديد الآراء ذا مكر شديد وخديعة ، صبوراً حليماً ، ذا أناة وتؤدة ، يسمع ما يكره ويغض عنه كأنه لم يسمعه » .

وقد كان له من أولاده سند فأعانوه . ورأى تمكن سلطانهم قبل وفاته ، وكانوا على قدر كبير من النجابة والشهامة والكفاية والفضيلة ، فقد تولى ابنه الأشرف موسى المشرق وابنه المعظم عيسى دمشق ، وابنه الكامل مصر ، وكان يتنقل هو بينهم وإن كانت له سلطنة مصر ، وتولى أبناؤه الآخرون ولايات صغيرة أخرى فى بلاد الشام والجزيرة . وقد وصفهم ابن عنين الشاعر فقال :

وله الملوكُ بكل أرض منهم ... ملكٌ يجرُّ إلى الأعادى عسكرا
من كل وضاح الجبين تخاله ... بدراً فإن شهد الورى فغضنفرا

---

(١) مفرج الكروب ٣/٢٥٨ .

يسمو إلى نار الوغى شغفاً بها ويجلُّ أن يسمو إلى نار القِرى
متقدم حتى إذا النقع انجلى بالبيد عن سبى الحريم تأخرا
وتعاف خيلهم الورود بمنهل مالم يكن يدم الأعادى مسجرا

وكانت الشام أثناء تولى العادل مقسمة إلى ولايتين كبيرتين هما دمشق وحلب وبعض الولايات الصغيرة مثل حمص وحماة وقد تولاها بعض أفراد البيت الأيوبى .

وظل المعظم عيسى على الشام إلى سنة ٦١٥ هـ ، وتولى الظاهر على حلب إلى سنة ٦١٤ هـ وخلفه ابنه . وتوالى الملوك والأمراء من الأيوبيين على ولايات مصر والشام بعد أبناء العادل وأبناء صلاح الدين يتوارثون الملك ، وكان من أبرزهم فى الشام الناصر صلاح الدين داود ، ثم العادل ابن الكامل فالملك الصالح نجم الدين وآخرهم فى مصر تورانشاه سنة ٦٤٧ هـ .

وفى السنوات التى تلت وفاة العادل سنة ٦١٥ هـ حتى مقتل تورانشاه سنة ٦٤٧ هـ وانتهاء الدولة الأيوبية فى مصر والشام حدثت أحداث جليلة متعددة بين أبناء العادل وأحفاده وإخوته وأبناء إخوته ، وكان أبرزها ما حدث بين الملك العادل الثانى ابن الكامل أيوب وبين الصالح نجم الدين أيوب من أحداث ووقائع للاستيلاء على ملك مصر انتهت بتآمر الصالح نجم الدين على ابن أخيه العادل والإيعاز بخنقه سراً والاستيلاء على سرير الملك بالديار المصرية . ثم ما حدث من تآمر على ابنه تورانشاه بين شجرة الدر ومماليك أبيه حتى قتل بعد انتصاره فى معركة المنصورة .

وقد تعرضت الدولة الأيوبية لهزات كبيرة من الداخل والخارج أدت إلى ضعفها وزوالها كقوة سياسية لعبت دوراً عظيماً فى تاريخ العالم العربى والإسلامى فى مرحلة حاسمة من مراحل تطوره وصراعه مع القوى الخارجية الزاحفة من الغرب المسيحى ، وكانت الهزات التى تعرضت لها دولتهم من الداخل ناجمة عن استمرار النزاع بين أفراد بيت أيوب بعد موت مؤسس الدولة صلاح الدين ، وتآمر إخوته على أبنائه ثم تآمر الإخوة والأبناء على الآباء .. والآباء على الأبناء وهكذا .

وقد هز هذا النزاع كيان الدولة هزاً شديداً ، وساعده وفت فى عضدها انقسام الجند فئات ، وصراع تلك الفئات فى الانتصار لواحد على الآخر وخيانة هذا لنصرة ذاك ، وكذلك بدأت الأحداث بين الأسدية والصلاحية وانتهت بين الخوارزمية والسلطان نجم الدين ، وكان المماليك الذين أسرف سلاطين الأيوبيين فى اجتلابهم ثالثة الأثافى فى أسباب هدم الدولة من الداخل .

أما من الخارج فقد تألبت عليها جحافل الصليبيين عبر البحر ، وأعوانهم الذين كانت جيوشهم لا تزال تحتل بعض ثغور الشام وكانوا يتربصون بهم الفرص ومنعتهم خلافاتهم الداخلية من طردهم ، كذلك كان خلاف الأيوبيين مع حكام الموصل من آل زنكى .

الحالة الاجتماعية

كان الناس يخضعون فى القرنين السادس والسابع الهجريين لنظم اجتماعية لم يسبق لهم مشاهدتها فى العالم الإسلامى ، كانت نظماً طارئة أساسها الإقطاع الذى ساد العصور الوسطى فى أوربا والشرق .

وقد بدأ هذا النظام فى الشرق الإسلامى أيام السلاجقة ، وعلى التحديد أيام السلطان ملكشاه ووزيره العظيم نظام الملك ، فقد أشار نظام الملك على السلطان بأن يقطع كل أمير وقائد جند فى جيشه إقطاعاً فى ملكه الواسع العريض بحيث يتكفل كل أمير وقائد بكل ما يتصل بإقطاعه من النواحى الإدارية والمالية والعسكرية ، على أن يخضع للسلطان مباشرة ، ويقوم بأداء ما عليه من المال ، ويكون هو وجنده تحت إمرته كلما دعا الداعى أو كلما أمره السلطان بذلك .

والواقع أن نظام الإقطاع بتلك الصورة التى أوجدها ملكشاه ونظام الملك وزيره أدى إلى قيام تنظيم عسكرى قوى دقيق ، تخرج فيه فرسان ومقاتلون ممتازون أمكنهم أن يصمدوا أمام فرسان أوربا ونظمها العسكرية طوال الحروب الصليبية .

ولكن كانت لهذا النظام مساوئه إلى جانب هذه الميزات العسكرية ، ذلك أنه قد أدى إلى تقسيم الناس إلى طبقتين متناقضتين ، إحداهما طبقة الأمراء وأصحاب الإقطاع ويلحق بهم التجار الكبار ، وأصحاب الثراء من المقربين من الأمراء والسلاطين ، ثم الطبقة الثانية ، وهى الطبقة الدنيا طبقة الشعب الفقير ، وهى طبقة لا تملك شيئاً لأن الطبقة الأولى تملك كل شىء ، وهؤلاء يعيشون عالة عليها ، أجراء فى الأرض أو كادحين فى خدمة القصور وعمل السلاح ولإعداد آلة الحرب .

وقد كانت الأرض وما عليها ملكاً لصاحب الإقطاع ، لهذا كان يتصرف فى إقطاعه من أرض وبشر وحيوان ونبات كما يشاء ، ليس عليه رقيب ولا يحده قانون ، اللهم إلا السلطان وطبقة العلماء والقضاة ، وهؤلاء يتبعون فى أكثر الأحيان السلطان فى عدله وجوره . وكانوا يحكمون الشريعة الإسلامية وقد كان لأهل الحل والعقد أن يحوروها بحيث تلائم الرغبات السلطانية . اللهم إلا ما ندر من هؤلاء الرجال ممن كانوا يقفون أمام تلك الرغبات فيلاقون الاضطهاد كابن تيمية والعز إبن عبد السلام .

وكان طبيعياً والحال كذلك ألا يكون توزيع الثروة معتدلاً بين هاتين الطبقتين ، كما كان طبيعياً أيضاً أن يتعرض سواد الشعب لنوبات وهزات اقتصادية عنيفة فى صورة مجاعات مخيفة متتالية تجتاح الناس فتكتسح منهم الآلاف اكتساحاً .

وكان طبيعياً أن ينتج عن هذا الاضطراب وعدم التوازن فى الدخول التجاء بعض الناس إلى كثير من ألوان الكسب غير المشروع ، وغير الطبيعى الذى لا يأتى عن طريق زراعة الأرض وفلاحتها ، ولا عن طريق التجارة ، ولا الأعمال المهنية المختلفة ، ولا عن الصناعة ، إنما يأتى عن طريق ملتوية قد يكون أساسها السعى لاجتذاب الرزق من السلاطين والأمراء والطبقة الغنية عن طريق الاستجداء والتملق فى صور مختلفة متعددة .

وقد يبدو السلطان أو الأمير فى صورة المتفضل ، أو الجواد . الخير ، المتصدق فيجود على الناس بالأعطيات ، والهبات المالية ، والهدايا العينية بالكساء ، أو الغذاء فى المواسم والأعياد ، فتعتبر هذه مكرمة ومأثرة له .

وهكذا كانت المقاييس فى اعتبار هذه العصور مستمدة من واقع العصر لا تقرن بعصرنا الذى نعيش فيه ، فمفهومنا لمثل هذه الأمور يختلف عن مفهوم أولئك الناس ، لأننا نعيش فى قيم ومفاهيم غير تلك القيم والمفاهيم التى عاشوا فيها .

فمجتمعنا فى القرن العشرين لا يعترف مثلاً بأن يمتلك إنسان – أى إنسان – الأرض بمن عليها ، من مال وحيوان ونبات وإنسان ، لا يعترف بأن الجهد الإنسانى لا يعود على صاحبه وإنما يعود على آخر هو صاحب الأرض ، وهو كذلك لا يعترف بالكسب الذى يأتى عن طريق الهبة والأعطية ، وإنما يعترف بالحق والمشاركة .

وكان الأدب – وسيلة من وسائل الرزق – وكانت موضوعات التملق تغلب على المواطنين من الشعراء ، وكان الأمير أو السلطان أو القائد أو الرجل العظيم يأوى جماعة من هؤلاء سواء عن طريق الدولة بتعيينهم فى وظائف متعلقة بديوان الرسائل أو الدواوين الأخرى أو عن طريق شخصى كأن يكفل لهم الرزق عن طريق راتب معلوم .

كذلك اتخذ الدين والصلاح والتقوى وسيلة من وسائل الرزق . وقد ظهرت جماعات لم يكن لها عمل فى الحياة إلا أنهم متدينون صالحون ، وكان الأمير أو السلطان يتقرب للناس بتقريب هؤلاء وإيوائهم ، وهكذا ظهرت بدعة التكايا ، ورباطات الصوفية ، وكانت تضم جماعات وأشتاتاً من الناس من مختلف بلدان العالم الإسلامى ، يأكلون ويشربون ويدعون للأسياد بالخير والبركة إذا ما استمر المدد ، أو يدعون عليهم بالويل والثبور والنكال إذا انقطعت الرواتب أو أسيئت معاملاتهم .

وكانت بدعة أن يوجد فى كل مدينة كبيرة من مدن العالم الإسلامى رباط للصوفية إلى جانب المسجد الجامع أو منفرداً فى مكان البلد ، وكانت هذه الربط بمنزلة نُزل بها هؤلاء الصوفية الصالحون الذين يطوفون أطراف العالم الإسلامى شرقاً وغرباً . ويقضون حياتهم هكذا فى التنقل والعيش الرخى المادى الهانىء .

وكان لهذه الطبقة أثر كبير على الناس إذ أشاعت فيهم روح التوكل والاستجداء وأصبحت السلبية طابع تلك العصور عند الشعوب أو المحكومين ، ولم تقم بينهم دعوات للتحرر ، لأنها كانت تكتب لأول ظهورها . كما كان الحكام يعملون دائماً على أن يصرفوا عامة الشعب عن المشاركة الجادة فى حوادث العصر ، فكان الجيش مثلاً مجتلباً ، وكان جيشاً محترفاً ، يعمل بالأجر لا بعوامل الوطنية والدفاع عن الأرض والمصالح .

وربما كانت الحروب الصليبية التى هددت كيان الشرق الإسلامى أول هزة عنيفة أعقبت عصر الإقطاع الذى أوجده نظام الملك . وهزتهم وأثارت فيهم النخوة والحمية ، وجعلتهم يعيشون مع الأحداث ويعتبرون ما يجرى على أرضهم شيئاً يتعلق بهم وبكيانهم ومستقبلهم .

وكان لشخصية صلاح الدين وشخصية نور الدين من قبله أثر واضح فى إيقاظ الوعى الشعبى ، فتحرك الشعب فى مصر وفى سوريا ، واشترك مع الجند المقاتلين ، اشترك الشعب فى الإسكندرية فى مقاومة الغزاة من القبارصة ومن ساعدهم من ملوك أوربا . واشترك الشعب فى معارك عكا وغيرها من المدن فأبلى وصبر وثابر . ولم تكن مشاركة الشعب متمثلة فى القتال ، بل كانت كذلك متمثلة فى الحفاظ على كيان الدولة ، وعلى قائدها البطل ، فكان كل فرد يفديه ويعمل على إفشاء ما قد يدبر من مؤامرات ضده على الأعداء ، واشتهر صلاح الدين بأنه يملك شبكة من المخابرات قوية واعية ، استطاعت أن تكشف كثيراً من تحركات الصليبيين فى الشام ، وتفسد خططهم بما يقابلها به صلاح الدين من رد فعل .

ولم تكن مخابرات صلاح الدين تعتمد إلا على أفراد الشعب فى الشام وفلسطين ومصر ، على الفلاحين الذين يفلحون الأرض ، والبدو الذين يضربون فى الصحراء والملاحين الذين يجوبون البحار .

وكان المجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت يتكون من خليط أمشاج من عناصر وجنسيات متعددة متباينة فى طبائعها ، وأخلاقها ، من العرب والترك والفرس ، والروم والأرمن ، ومن سلالات أوربية استوطنت وتأقلمت ،

ولكل جماعة من هؤلاء تراثها الفكرى والاجتماعى والدينى . ولاشك أن اختلاط هذه العناصر جميعاً أنبت أشياء كثيرة جديدة ، فى نظم المجتمع ، وفى العادات ، والتقاليد ، وفى الأدب ، وفى الفكر ، وفى الدين :

وكان العنصر البارز فى هذه الجماعات هو العنصر التركى ، ثم الكردى وقد بدأ العنصر التركى يظهر عاملاً فعالاً فى العالم الإسلامى منذ أيام المعتصم الخليفة العباسى ، وكان الأتراك يجلبون غلماناً من أسواق النخاسة التى كانت منتشرة على أطراف الدولة الإسلامية ، يخطفون من القبائل المخيمة شمال وشمالى شرق بلاد فارس ، وكان هؤلاء الأتراك يمتازون بجمال الصورة وحسن البنيان ، والاستعداد الحربى الممتاز ؛ مما شجع الخلفاء وكبار رجال الدولة على الإكثار منهم لاستعمالهم خدماً ، أو حرساً خاصاً ، أو نواة لفرق قوية فى الجيش . وقد أثبت كثير منهم فعلاً مقدرة فائقة فى الأمور الإدارية والعسكرية .

وازداد الأتراك زيادة فعالة منذ أن سيطر السلاجقة على الحكم ثم من بعدهم الخوارزميون ، فأصبح الأمر لهاتين الدولتين فى العالم الإسلامى فى الشرق ، وسبب تزايدهم اضطراباً فى المجتمع الإسلامى لصعوبة خضوعهم للقوانين والتقاليد[1] ، ولم تكن لترضيتهم أو تقنعهم تلك الأملاك التى يقطعها إياهم الأمراء والسلاطين بل كانوا كثيراً ما يلجأون إلى النهب والسلب .

وقد تسبب أولئك الأتراك ، وهم قوم عرفوا بالغلظة والشراسة ، فى كثير من المآسى المؤلمة التى حلت من حين لآخر بجماعات الناس فى المدن والقرى فى البلاد الإسلامية ، لأنهم لم يقفوا عند حد السلب والسطو ، بل كانوا دائماً يعمدون إلى القتل والتخريب وهتك الأعراض .

أما العنصر العربى فكان قد فقد سيطرته نهائياً فى كثير من البقاع التى كان يغلب عليها ، وإن ظلت آثاره باقية فى الشام والجزيرة وديار بكر وبعض أماكن أخرى متفرقة فى العراق ومصر . وقد صارت القبائل العربية تحيا حياة تساير

---

(١) الدولة الخوارزمية ص ٣٦ .

فيها الظروف بقدر الإمكان ، وتحاول أن تلائم بينها وبين البيئة التى تعيش فيها ، فتتراوح وتستقر ، وتأخذ عادات السكان وتقاليدهم ، وإن كان بعضها يحتفظ ببعض التقاليد العربية الموروثة ، والعادات القبلية القديمة . وكانت بعض تلك القبائل تحتفظ بكيانها ولا تندمج فى سكان الأقاليم التى تحل بها ، وكانت تحارب لمصالحها أحياناً ، وكان بعض الأمراء والحكام يستغلها لمصالحة فتثور وتحارب بقيادة قواد أقوياء وكانت تصطدم فى معارك حامية مع الأتراك ، وكثيراً ما كانت تنتهى بهزيمتهم .

وأهم القبائل القوية فى هذه العصور قبائل العقيليين فى ديار بكر والجزيرة وقبائل بنى أسد وبعض قبائل كنانة فى أجزاء من الشام وأطراف العراق ، كما وجدت قبائل قوية أيضاً فى الصعيد المصرى كانت لها ثورات متعددة فى عصر الفاطميين وفى عصر صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين .

ولم يكن هذا العنصر فعالاً فى مجرى الحوادث الكبرى فى هذا العصر اللهم إلا تلك الحركة التى قام بها أحد أمراء العرب ويدعى دبيس بن صدقة سنة ٥١٥ هـ فقد حاول اغتصاب السلطة من خليفة بغداد زمناً ، ولكنه فشل فى التغلب عليها وفتح المدينة بعد أن وردت نجدات قوية من الشمال والشرق من السلاجقة وولاتهم لمعاونة الخليفة المحصور .

وقل دور العنصر العربى فى الأدب والثقافة بصفة عامة ، فلم ينبغ منهم علماء مشهورون ولم يظهر شعراء مبرزون ، وإن كان بعض الشعراء كالأبيوردى قد افتخر بنسبه العربى الأموى العبد شمسى وتغنى به وبعنصره العربى طوال حياته فى قصائده التى كانت تبدو عربية الطابع ، وبدوية الصياغة والمعانى .

والعناصر الأخرى التى كان يتكون منها المجتمع الإسلامى عاشت إلى جانب هذين العنصرين ، تندمج فيهما أحياناً ، أو تنفرد بأقاليم معينة تغلب عليها ، فالفرس مثلاً ، كانوا قد بدءوا يكونون قومية فارسية ، ويعيدون أمجادهم القديمة ولغتهم ، كما ظلوا يحتفظون بتقاليدهم ونشاطهم السياسى والعلمى والأدبى طوال هذا العصر ، أعنى القرن السادس الهجرى .

وقد نبغ منهم قبل ذلك جماعة من المشهورين فى السياسة وتدبير الملك « كنظام الملك » والذى أشرنا إليه . كما ظهر من رجال الفكر أمثال الجوينى والزمخشرى والفخر الرازى وعمر الخيام وغيرهم .

والحقيقة أن أهم ما ميز هذا العصر عن غيره هو كثرة علماء الفرس ، وكثرة رحلاتهم من المشرق إلى المغرب والعكس ، والطواف بكثير من المدن الإسلامية لطلب العلم أو لتدريسه لطلابه من المسلمين ، فيستفيدون ويفيدون ، وخير مثال نستطيع أن نضربه هو الحافظ السلفى الذى وفد من بلاده فى فارس إلى الشام ثم مصر واستقر بالإسكندرية حيث كانت له مدرسة مشهورة عرفت بالحديث ، واجتمع إليه كذلك جماعة من الشعراء والأدباء المشهورين ، وكان صلاح الدين كثيراً ما يحب أن يستمع إلى الحديث من الحافظ السلفى ، وكان كلما جاء إلى الإسكندرية زاره أو استدعاه ليسمع منه .

وعاش الأقباط فى مصر فى سلام مع العرب منذ الفتح العربى ، وامتزجوا بهم وتعلموا اللغة وبرعوا فيها ، وصار منهم شعراء مبرزون كالأسعد بن مماتى القبطى الأصل من أسيوط ، وقد عاش فى أواخر عصر صلاح الدين ، واتصل بالقاضى الفاضل وألف كثيراً من الكتب أشهرها « قوانين الدواوين » . وقد احتفظ الأقباط مع ذلك ببعض عاداتهم وتقاليدهم كما حاولوا أن يحتفظوا لأنفسهم بدور خاص فى المجتمع ، فعملوا فى الدواوين والإدارة والخراج ، وهى أشياء حذقوها وتوارثوها ، حتى إن ولاة مصر وأمراءها وخلفاءها منذ الفتح العربى حتى آخر العصر الأيوبى لم يستطيعوا الاستغناء عن خدماتهم القيمة فى الدواوين والإدارة . يقول ستانلى لانبول : « كان القبط الذين ولدوا ليصبحوا كتاباً وصيارفة يقومون بإدارة الدواوين جميعاً ، وظلت الكتب الحكومية ، والوثائق العامة تدون باللغة القبطية نصف قرن »[1] ونبغ من القبط

(١) سيرة القاهرة ترجمة حسن إبراهيم وغيره ص ٧١ .

جماعة عرفوا بالحكمة والدراية التامة ، وكثيراً ما بلغ منهم جماعة مرتبة الوزارة فى عهد الفاطميين والأيوبيين أنفسهم على ما عرفوا به من حماس دينى فقد تولى لهم ولبعض خلفائهم جماعة منهم المهذب بن مماتى وأسعد بن مماتى (توفى سنة ٦٠٦ هـ بحلب) .

وقد تكون الصورة السابقة للمجتمع الإسلامى فى هذا العصر مصبوغة بلون قاتم ، إلا أننا لا ينبغى أن نغفل عن بعض جوانبها المشرقة ، فإنه على الرغم مما كان يسود المجتمع من العيوب والمفاسد ، قامت كثير من الأعمال الإنشائية والعمرانية على أيدى بعض الشخصيات القوية الممتازة ، الذين يتمتعون بروح بناءة خلاقة ، وكان من هؤلاء نظام الملك ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين .

وقد استطاع نظام الملك – إلى جانب مشروعاته السياسية واهتمامه بأمور الحرب والتوسع الاقليمى على حساب الدول المجاورة كالبيزنطيين وغيرهم – أن يحقق كثيراً من المشروعات العمرانية النافعة ، فبنى كثيراً من المساجد فى بغداد وغيرها من المدن الإسلامية التى كانت تخضع له ، وبنى كثيراً من المدارس التى ألحقها بالمساجد ، أو بناها مستقلة ، وكان بناء المدارس أهم عمل له ، وقد شغف بهذا أشد الشغف ، وهو مؤسس أول جامعة إسلامية كبرى ، وهى المدرسة النظامية فى بغداد ؛ وقد خرّجت كثيراً من العلماء فى القرنين السادس والسابع الهجريين . وبنى على أمثالها مدارس أخرى سميت بالنظامية نسبة إليه ، وكانت كل واحدة تعرف باسم البلد الذى أنشئت فيه .

واهتم ملكشاه ونظام الملك – إلى جانب الدين والعلم من بناء مساجد ومدارس – بالزراعة ، فأمر بحفر القنوات ، وإقامة القناطر ، كما أصلحوا المدن وشيدوا حولها الأسوار والقلاع .

وأما نور الدين فإنه لم يقل فى أعماله العمرانية عن ملكشاه ، ونظام الملك على قدر إمكانيات إمارته فى الشام ، والتى اتخذ حلب قاعدة لها ، وقد أنشأ نور الدين كثيراً من المنشآت النافعة فى مدن الشام وفى حلب ودمشق خاصة ، منها قلعة حلب العظيمة ، وبعض المدارس ، وكذلك البيمارستان وربط

الصوفية والخانقاه فى دمشق . وكان لصلاح الدين نصيب وافر فى التعمير والإصلاح فى أنحاء متفرقة وبلاد كثيرة فى مصر والشام ، وأهم منشآته بمصر القلعة المعروفة باسمه على المقطم ، ثم بناء سور القاهرة الكبير ، وبناء المدارس الكثيرة بها ، وأهمها المدرسة التى بجوار الإمام الشافعى ، كما جدد كثيراً من مساجدها الكبرى ، وأقام المارستان .

وقد فعل فى دمشق مثل ما فعل فى القاهرة .

وقام خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين بمثل ما قام به من ضروب الإصلاح الاجتماعى فأقاموا المدارس ودور الحديث والبيمارستانات . ففى عهد العزيز عثمان خفف كثيراً من أعباء الضرائب والمكوس على الناس ، وعمر الملك الكامل دار الحديث « الكاملية » فى بين القصرين بالقاهرة ، وعمرت والدته قبة الشافعى ، وأجرت ماء النيل من بركة الحبش إليها .

وبالرغم من أن كثرة الحروب قد أثقلت كاهل الناس وأرهقتهم إلا أن بنى أيوب لم يحرموا أنفسهم ، ولا أمراء أجنادهم من النعيم . وقد حقق كثيرون منهم ثروة عظيمة وعاشوا فى بحبوحة .

ويذكر المؤرخون أنه عند زواج الملك الظاهر غازى لابنة عمه حنيفة خاتون جهزها والدها العادل أتم تجهيز فوصلت إلى حلب فى تجمل عظيم وقدم معها من القماش والآلات وأنواع المصوغات ما يحمله خمسون بغلاً وثلثمائة جمل ومائة بختى ، ومن الجوارى والوصائف والإماء والحرائر ما يحملهن مائة جمل . وذكر أنه كان فى خدمتها مائة جارية ، كلهن مطربات يلعبن بأنواع الملاهى ، ومائة جارية كلهن يعملن أنواع الصناعات البديعة .

« وقدم لها الملك الظاهر خمسة عقود جوهر قيمتها مائة ألف وخمسون ألف درهم ، وعصابة مجوهرة لا نظير لها ، وعشر قلائد من العنبر المذهب ، وخمساً غير مذهبة ، ومائة وسبعين قطعة من الذهب والفضة ، وعشرين تختاً من الثياب المختلفة الألوان ، وعشرين جارية وعشر خدم »[1] .

---

(١) مفرج الكروب ٢١٤/٣ .

ويذكرون كذلك أنه عند ولادة ابن الظاهر من ابنة عمه هذه عمل احتفال عظيم بمدينة حلب ، وزينت المدينة ، وأمر الظاهر بإحضار شيء كثير من الفضة والذهب وأمر الصياغ ألا يتركوا شكلاً ولا صورة مَن سائر الصور إلا ويصوغون مثلها فصاغوا من ذلك ماوزن بالقناطير ، وصاغوا عشرة مهود من الذهب والفضة سوى ما عمل من الأبنوس ، ونسج للمولود ثلاث فرجيات من اللؤلؤ فى كل واحدة منها أربعون حبة من الياقوت والزمرد ، ودرعان وخوذتان من اللؤلؤ وثلاثة سروج مجوهرة فى كل واحد منها عدة من الياقوت والزمرد ، وثلاثة سيوف غلفها وقبضاتها ذهب مرصع بأنواع الجوهر ، ورماح ذهب أسنتها جوهر منظوم[1] .

وأكثر ملوك الأيوبيين من اقتناء المماليك حتى إنهم كانوا يجلبونهم من أصقاع آسيا من الترك ، وزادوا زيادة كبيرة ، وكان للملك الصالح نجم الدين ألف مملوك منهم بالروضة ؛ فكانوا يسبون الحريم ويأخذون الأموال ، وقد عاث هؤلاء فى البلاد فساداً ، وكانوا من أسباب اضطراب الأمن لكثرة شغبهم واعتدائهم على الناس وممتلكاتهم .

الحالة الاقتصادية

وقد نشطت حركة التجارة بصفة عامة فى هذا العصر على الرغم مما كان يسوده من اضطراب نتيجة للحروب المستمرة بين الشرق والغرب ، أو بين أمراء الشرق أنفسهم . فكانت التجارة تنتقل من أقصى الشرق ؛ من الهند والصين وبلاد فارس عبر العراق والجزيرة والشام فثغورها على البحر المتوسط ثم تحملها السفن بعد ذلك إلى مدن أوروبا الوسطى والشمالية والغربية مثل جنوة والبندقية . أو كانت تنقل عن طريق البحر الأحمر فالنيل إلى القاهرة ثم إلى الاسكندرية أو دمياط وتنيس منها إلى أوربا .

(١) المصدر نفسه ٢٦١/٣ .

وكان لهذه التجارة أثر كبير فى حياة الناس ، وفى أحوال معيشتهم ، وفى ميزانيات الحكومات ومشروعاتها .

وقد اشتغل كثير من سكان مصر والشام بالتجارة وأثروا من ورائها ، كما أنها أوجدت أعمالاً وصناعات لم تكن معروفة من قبل ، ونشطت صناعات أخرى محلية ، كصناعة الأقمشة الحريرية فى تنيس والإسكندرية ودمياط ، وكان يصدر منها إلى بلاد الشرق وأوروبا .

كذلك حصلت الحكومات المكوس الكثيرة على التجارة العابرة مما زاد مواردها وحسن حالتها المالية بصفة عامة .

وقد ذكر الشعراء المكوس وتحصيلها ، وإلحاح المحصلين ، قال ابن التعاويذى فى محصل مكوسٍ :

ملكت رقى وأبو خالد	فى واسط بعد على الجسر
فى فم سريا ينفذ الحكم فى	بضائع التجار والسفر
يأخذ منها الربع والمكس لا	يزيد فى الدنيا على العشر
محتكراً للملح والذر والحنـ	ـطة والشعير والتمـر
وكل ما يصلح للقوت أو	تطلق فيه لفظة البر
يبيعها بالعقيق والحلى	والثياب والفضة والتبر
حتى رماه الناس من سوء ما	أتاه بالإلحاد والكفر

وتجاوبت أصداء الشكوى من هؤلاء فى كل مكان ، وخاصة فى الثغور ، وقد ضج ابن جبير من محصلى المكوس عند لقائهم له ومضايقتهم إياه بالإسكندرية .

غير أن بعض الحكام العادلين لاحظوا ما يقاسيه الناس ، ويعانيه التجار من فداحة المكوس ، أو ماقد ينتج عنها من وقف نشاط التجارة ، أو ركودها ، أو ما قد تسببه من مضايقات لحجاج بيت الله الحرام فرفعوا بعض أنواعها وخفضوا البعض الآخر .

وكان ممن استن هذه السنة الحميدة من حكام الشام نور الدين محمود إذ

وضع عنهم المكوس ، كما أمر صلاح الدين بتخفيضها كثيراً فى مصر سنة ٥٦٧ هـ[١] .

وكانت مصر والشام بموقعهما الممتاز وسط العالم الإسلامى ، وفى سرة العالم القديم النافذة المطلة على البحر المتوسط مركزاً هاماً للتجارة من الشرق والغرب فى أوروبا فى هذه العصور ، وقد تلاقت فيها تجارة أوروبا ومصنوعاتها من البندقية وبيزا وجنوة بتجارة الصين والهند وأواسط آسيا[٢] .

ولم تكن التجارة فى مصر والشام وبعض البلاد العربية فى المنطقة حرة ، بل كانت تحكمها قيود واحتكارات ، فقد كان بعض الأمراء والوزراء وكبار التجار يحتكرون لأنفسهم أصنافاً خاصة ، كما فعل مثلاً الوزير الصالح بن رزيك أيام العاضد الفاطمى فقد احتكر لنفسه الغلات ، وكانت هذه سيرة مذمومة كما ذكر ابن خلكان[٣] .

وكانت مصر مسلكاً لتجار اليهود الذين يتكلمون العربية والفارسية والرومية والفرنجية والأندلسية وغيرها ، وكانوا يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق ، يجلبون من الغرب الخدم والجوارى والغلمان والفراء والسيوف[٤] .

وازدهرت الحالة الاقتصادية بوجه عام فى عصر الناصر صلاح الدين وخلفائه لعوامل عدة ، منها أنه حدّ فى مصر من النظام الإقطاعى الذى ساد طريقة امتلاك الأرض طوال العهد الفاطمى ، وبذلك حطم استغلال أمراء الإقطاع وكان لهذا أكبر الأثر فى نشاط الزراعة ، ومن ثم نشاط الحالة الاقتصادية فى البلاد عامة[٥] .

وقد اهتم الأيوبيون بصفة خاصة بالزراعة ، مما يختلف عن غيرهم ممن

---

(١) ديوان ابن التعاويذى ص ١٩٥ .

(٢) كتاب الروضتين ١/٢٠٥ .

(٣) وفيات الأعيان ٢/٢٩٤ .

(٤) مصر فى العصور الوسطى ص ٤٣٣ .

(٥) مصر فى العصور الوسطى ص ٤٤٩ .

يتبعهم كالمماليك الذين وجهوا عنايتهم للتجارة ، كما لم يقصروا فى تشجيع التجارة ، فتسامحوا مع تجار الإفرنج لدخول البلاد الإسلامية وتبادل التجارة مع أهلها وتجارها كما أن الإفرنج كذلك سمحوا لتجار العرب والمسلمين بدخول البلاد التى تحت حكمهم فى فلسطين والشام وغيرهما فى بلادهم[1] . وقد وقع العادل معاهدة تجارية مع البندقية[2] ، كما سمح لبعض تجار أوروبا ببناء فنادق لهم بالإسكندرية .

ومثال ذلك التسامح ما أمر به صلاح الدين من عمل التسهيلات للتجار فى القاهرة ومصر فى منشور قال فيه : « وخرج أمرنا بكتب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين إليها وإلى ساحل القسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويستمر ويغيب عن ماله ويحضر ، ويقارض ويتجر براً وبحراً راكباً وظهراً ، سراً وجهراً لا يحل ماشده ولا يحاول ما عنده ، ولا يكشف ما ستره ، ولا يسأل عما أورده وأصدره .. الخ[3] .

وعلى الرغم من هذا ، كانت تحدث هزات اقتصادية عنيفة قد تودى بالكثيرين وتودى إلى المجاعات وانتشار الكساد ، ثم الأوبئة ، ومرجع ذلك إلى أسباب عدة . منها انخفاض النيل فى مصر ، وعدم سيطرة الحكومة على تصريفه لانعدام الوسائل والمعرفة العلمية بأصول الرى فى بلد جل اعتماده على الزراعة ، وانصراف الفلاح عن فلاحة أرضه والعناية بها لأنه يرى أن ثمرة كده تذهب لغيره ، كما أن بعض الحكام الظالمين كانوا يقومون بأعمال تعسفية كمصادرة الأموال بالجملة والاستيلاء على الأمتعة والأملاك والأرض عدواناً وزوراً .

وكذلك كان الحال فى الشام والبلاد المجاورة ، ولعل أهم ما حدث فى مصر والجزيرة والموصل والشام من غلاء ومجاعات ما كان سنة ٥٧٤ هـ قال ابن الأثير : « وفى سنة ٥٧٤ هـ اشتد الغلاء ، وعم أكثر بلاد العراق ومصر وديار

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٤٩ وراجع ابن جبير ص ٢٨٨ ط جب .

(٢) كتاب الروضتين ١/٢٥٠ .

(٣) المصدر نفسه .

بكر وديار الجزيرة والشام وغير ذلك من البلاد ودامت إلى أن انقضت السنة »[1] .

وكانت أشد المجاعات فتكاً فى مصر فى عهد العادل ابن أيوب فقد استمرت المجاعة من سنة ٥٩٦ هـ إلى ٥٩٩ ، وكان أشدها سنة ٥٩٧ هـ[2] وكان سببها انخفاض النيل فانتشر القحط وهرب الناس من مصر إلى الشام ، وانعدمت الحبوب واشتد البلاء ، وكتب العماد الأصفهانى يصف ذلك كله فيقول : « وفى سنة ٥٩٧ هـ اشتد الغلاء ، وامتد البلاء ، وتحققت المجاعة وتفرقت الجماعة ، وهلك القوى ، فكيف الضعيف ، ونحيف السمين ، فكيف العجيف ، وخرج الناس خوف الموت من الديار ، وتفرق فريق مصر فى الأمصار ، ولقد رأيت الأرامل على الرمال ، والجمال باركة تحت الأحمال ، ومراكب الفرنج واقفة على ساحل البحر كالرّخم تسترق الجياع باللقم »[3] .

ومما زاد الحالة سوءاً كثرة الحروب واتصالها ، مما تطلب كثيراً من الأموال والقوت ، وكانت النتيجة زيادة الضرائب وإرهاق الناس فلاحهم وتاجرهم .

ولاشك أن هذه الهزات الاقتصادية العنيفة قد أثرت كثيراً فى نفوس سكان هذه الإقليم (مصر والشام والعراق) وفى حالة المجتمع الاسلامى فى هذه البلاد .

العادات والأخلاق :

وكان للعناصر التى تكون منها المجتمع الإسلامى التى أشرنا إليها أثر فى ظهور بعض العادات والتقاليد الغريبة عن الإسلام والعرب ، كما أن الحالة السياسية التى كان يحكم بها الناس أظهرت بعض المفاسد والمظالم الاجتماعية . وقد صورها ياقوت الحموى فى كتابه « معجم الأدباء » بقوله عن أحد من ترجم لهم :

---

(١) راجع الكامل جـ ٤ فى تلك السنة .

(٢) إرشاد الاريب ٤٣/٧ .

(٣) مرآة الزمان ٤٧٧/٨ .

« وعلى الحملة فعاش فى زمن سوء وخليفة غشوم جائر كان إذا تنفس خاف أن يكون على نفسه رقيب يؤدى به إلى العطب » .

وبرزت أخلاق الملق والرياء ، وطغت على غيرها بين العامة والخاصة ، وكثر الدس ، وانتشرت الخيانة والوقيعة . قال صاحب مرآة الزمان عن الحالة فى بغداد فى ذلك العصر :

« كانت السعايات قد كثرت ففسدت الأمور ، فنادى الخليفة : من سعى بأحد أبيح ماله » .

وقال ابن التعاويذى الشاعر يصف ذلك الحال :

لحى الله بغداد من موطن ... به من كل مكرمة تفقدُ
الدار لا ظلٌّ عيش بها ... ظليلٌ ولا زمنى أرغدُ
نسيم الهوى بها باردٌ ... وسوق القَريض بها أبردُ
وأخلاق سُكانها كالزُلال ... ولكنّ أيديهم جَلمدُ
يُرى كل يوم بها سفلةٌ ... تسود ولم يمسها سؤددُ
يناضل من دونه وفرة ... ويخذله الأصل والمحتدُ
ويعجبه طيب أثوابه ... وقد جنت الأهل والمولدُ
ويعنى بمبيضٌ أثوابه ... ووجهُ الزمان به أسودُ
يبارى الملوك وأفعالهُ ... بخسّةِ آبائهِ تشهد
فبينا نراهُ على حالةٍ ... يَرِقُّ لرقّتِها الحُسّدُ
إلى أن تراهُ وقدّامهُ الدّ ... واةُ ومِنْ خلفهِ المسندُ
ظَلَلتُ بها كارهاً لا أحُلُّ ... إذا الناس حلوا ولا أقعد

فكثر فى هذا العصر الأدعياء ، والساعون إلى السلطة ، والراغبون فى الثراء واقتناء الأموال والجوارى والغلمان ورقيق الأرض . فغلبت روح الوصولية على الأخلاق الكريمة . وأصبح دين الكثرة عبادة الدرهم والدينار والمنصب والجاه .

وعاش الأغنياء بين الأموال عيش الهناءة والنعيم ، فى قصور عامرة بأفخر الرياش ، سامقة عالية البناء ، مبنية على شواطىء أنهار دجلة والنيل وبردى ،

ومحاطة بالحدائق الناضرة التى تجمع أنواع الثمار والأزهار ، إلى جانب كل ما يمكن أن يسر النفس ويمتع الجسد من زينة ورونق . وقد حدثنا التاريخ عن قصور العباسيين أيام الرشيد والمأمون والمنصور والمتوكل ببغداد ، كما حدثنا فى مصر عن قصور الفاطميين ، وكانت مضرب الأمثال ، فكان منها قصر اللؤلؤة مثلاً ، « وكان من أجملها ، ويمتاز بحسن موقعه إذ كان يشرف من الشرق على البستان الكافورى ، ويطل من الغرب على الخليج الذى كان يوجد فى غربه حدائق غناء وبركة جميلة تسر الناظرين وكان الجالس فى هذا يتمتع بمنظر خلاب ؛ إذ كان يرى خلف هذه الحدائق مياه النيل تجرى . ولهذا اعتبر من أحسن منتزهات العالم »[1] .

وكان سكان المدن يشاركون الملوك والأمراء بعض ما يتمتعون به من مفاتن المدن الكبرى ومنتزهاتها ، فكانوا يخرجون إلى الحدائق والمنتزهات ، وكان الأثرياء القادرون منهم يبنون لأنفسهم القصور وينشئون البساتين ، ويقلدون الملوك فى المسكن والمأكل والشراب والمتعة . وقد أكسب هذا النعيم والترف عامة سكان المدن وخاصة العواصم الكبرى مثل أهل بغداد ودمشق والقاهرة – الرقة وحسن الآداب ، ودماثة الخلق ، ولين الطباع ، وكانوا يمتازون بجمال الملبس ونظافته ، والميل إلى الأناقة ، والظرف وحب اللهو والطرب ، وقد وصف ابن جبير أحوال من رأى من أهل بغداد ودمشق فقال :

« ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير بجميع هذه الجهات كلها أنهم يمشون وأيديهم إلى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركنون للسلام على تلك الحال المشبهة بأحوال الفتاة مهانة واستكانة ، كأنهم قد سيموا تعنيفاً وأوثقوا تكتيفاً . وهم يعتقدون تلك الهيئة تمييزاً لهم فى ذوى الخصوصية وتشريفاً[2] » . ولم يعجب ابن جبير هذا السلوك الذى يعتبره أهله من الأدب الجم ، فيتمادى فى السخرية بتلك العادات ويقول : « فترى الأعناق تتلاعب بين رفع وخفض ، وبسط وقبض ، وربما طالت بهم الحال فى ذلك ، فواحد

---

(١) مصر فى العصور الوسطى للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ٤١٨ .

(٢) رحلة ابن جبير طبعة أوربا ص ٢٩٦ .

ينحط وآخر يقوم ، وعمائمهم تهوى بينهم هوياً ، وهذه الحال من الانعطاف الركوعى فى السلام كنا عهدناها فى قينات النساء وعند استعراض رقيق الإماء . فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بنسيمات ربات الحجال !! »[1] . ويصف لباسهم فيقول : « والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الأرض شبراً » ، وكانوا يختلسون أوقات اللهو فى أماكن النزهة على شواطىء الأنهار فى الحدائق والبساتين ، أو فى الأديرة ، وكانت تعمر فى ذلك الوقت بالكروم والبساتين الزاهرة ويحبس بها الرهبان الخمر ويتاجرون فيها ، وكانوا يستمعون إلى الموسيقى والغناء بين تلك الرياض ، ويحتسون الخمر ويمر بها السقاة من الجوارى والغلمان حتى الصباح .

وقد كان بالعواصم العربية كثير من الأماكن المشهورة باللهو ، ومنها بالقاهرة بركة الفيل ، وبدمشق خان العقيقة بظاهر البلد ، يقول عنه ابن خلكان : « قد جمع أسباب الملاذ ويجرى فيه الفسق والفجور بما لا يحدو ولا يوصف »[2] .

وقد أثرت كل هذه المظاهر الاجتماعية فى الأدب والفكر فى هذا العصر ، فكانت لها فى الأدب شعراً ونثراً ما ملأ الكتب والدواوين الكثيرة ، وسنتعرض له بالتفصيل عما قليل .

وهناك جانب آخر من حياة المجتمع فى هذا العصر ، لم نفصل فيه وإن كنا قد أشرنا إليه إشارات عابرة هنا وهناك ، هذا الجانب هو حياة الرقيق من الجوارى والغلمان ، والأكرة عبيد الأرض .

وكانت تجارة الرقيق رائجة يقوم عليها جماعة من تجار الرقيق من أهل جنوة والبندقية[1] . ويتفننون فى تسويقه ، وكان أثرياء الناس يتهافتون على اقتناء الجوارى والغلمان ليكونوا زينة لقصورهم وتتمة لأبهتها ورونقها .

وقد أثر الرقيق فى حياة المجتمع الإسلامى والعربى فى ذلك الوقت ، وزاد منه

(١) نفس المصدر .

(٢) وفيات الأعيان ٤١٧/٤ .

(٣) وفيات الأعيان ١٤٧/٤ .

كثرة سبى الحروب الصليبية الذى أضاف إلى الفئات المجتلبة من البلاد والأصقاع البعيدة أجناساً أخرى من الأرمن والأوربيين واليونان وغيرهم . وقد فتن المسلمون بهذه الألوان الجديدة . وتنافسوا فى اقتناء النساء منها خاصة ، وكان طبيعياً فى هذا العصر أن يجمع الرجل فى داره مجموعة من ألوان ومشارب مختلفة ولم يتورع عن ذلك أكثر الناس تقوى ؛ فإنا نجد بعض الفقهاء يقتنى عدداً كبيراً من الجوارى والإماء الجميلات يتخذهن سرارى له ، كذلك اقتنى بعضهم الغلمان البيض .

وكان طبيعياً أن يظهر أثر هذا كله على أدب العصر ، ونحن إن كنا قد رأينا أثر الجوارى أخذ يظهر فى أدب العصر العباسى ، وكذلك كثرة القول فى الغلمان ، فإننا مع ذلك لا نلمس الأثر قوياً فى القرون الأولى من العصر العباسى كما نلمسه فى هذا العصر ، فإن القول فى الجوارى والغلمان أصبح ترنيمة شعراء العصر ، ويكاد لا يخلو شعر شاعر ، ولا رسائل كاتب من القول فى هذا الموضوع .

العقيدة والمذاهب الفكرية

وبالإضافة لهذه الجوانب فى مجتمع العصر ، ينبغى أن نعرض للجانب الدينى والعقيدى ، وكان طبيعياً أن تؤثر النواحى السابقة جميعاً . أعنى الخواص السياسية والاجتماعية فى عقائد الناس وأفكارهم .

والظاهرة الجديرة بالتسجيل ظهور ألوان جديدة من العقائد والتقاليد الدينية لم تكن معروفة من قبل ، وكانت نتيجة طبيعية للاختلاط بين هذه الأجناس والشعوب ، وبين أمشاج العقائد والديانات ، بين المسلمين ، من سنيين وشيعة ، ودروز وباطنية ، وحشيشية واليهود والنصارى ، ووثنيين ، وبقايا عقائد قديمة حملتها فئات من الشعوب ذات الحضارات القديمة كالهنود والفرس الذين تركزت فى عقولهم بعض عقائدهم كالمانوية والزرادشتية وغيرها .

وقد اختلطت هذه جميعاً ، فتألفت منها مجموعة من العادات والعبادات

والآراء المختلفة الغريبة ، وكانت سبباً فى ظهور كثير من « الطرق » التى تفشت فى الإسلام وابتعدت به عن روحه الخالصة .

وقد أخذ الشعور الدينى عند المسلمين ينمو ويشتد ، لحاجة المجتمع إلى نموه لتعبئة الشعور العام ضد غزو الصليبيين ، وساعد الحكام على تنميته ، والنفخ فيه ، واتخذوا لذلك أسباباً كثيرة ، منها تشجيع الفقهاء وتقريبهم والإغداق عليهم ، ومنها محاولة الحكام الظهور بمظاهر دينية لتقريب أنفسهم إلى الناس كالعكوف على الصلاة ، وقراءة القرآن ، والاستماع إلى الحديث والإغداق على فقراء المسلمين ، وبناء المساجد ومدارس القرآن والحديث وما إلى ذلك ، كذلك تقريب فقراء الصوفية وبناء الربط لهم فى المدن الكبيرة وتوفير ما يحتاجون إليه فيها من غذاء وكساء .

وقد عرف السلاجقة السنيون بتشجيعهم على بناء المدارس ودور الحديث لبث الثقافة الإسلامية السنية ، وكانت المساجد تفتح طوال النهار لأداء فريضة الصلاة ، ولتعليم الدين ، ولقراءة القرآن ، وكان من عادة الناس ترتيل القرآن ملحناً كل يوم بعد صلاة الفجر ، ويجلس الناس لسماع المقرئين ذوى الأصوات الجميلة ، وللاستماع إلى تفسير آيات الذكر من أحد العلماء أو الوعاظ .

وإذاً فقد كان المسجد فى هذا العصر لا يقتصر على كونه مكاناً للصلاة ، بل كان مركزاً حياً ، كان مدرسة وكان ملاذاً للزهاد يقيمون فيه للتعبد « وختم القرآن » .

وكان صلاح الدين يهتم كثيراً بإقامة شعائر الدين ، والمحافظة على المظهر الإسلامى فى كل شىء ، وكان يحارب الفجور فى أنحاء دولته ولا يسمح بالشذوذ فى العقيدة ؛ بل يقضى عليه ، فقد حارب كثيراً من الملحدين وعاقبهم عقاباً شديداً ، كما أولى عنايته للحج فأمن الطرق التى يسلكها الحجيج إلى مكة والمدينة ، وأدى عن المسلمين ما كان يحصل منهم من مكوس إلى أمير المدينة[1] ، وكان فى إحدى السنوات ثمانية آلاف إردب قمح وألف دينار .

(١) أعلام النبلاء ٢٦٩ .

وبنى صلاح الدين كثيراً من الخوانق والربط والدور للفقراء من صوفية ومتعبدين ورحالة من أنحاء العالم الإسلامى ومن العلماء الغرباء الذين كثرت أسفارهم فى هذا العصر من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ؛ وكانوا رابطة قوية بين بلاد المسلمين وعاملاً حياً فى توحيد الثقافة العربية الإسلامية . وكانت الدور المعدة للعلماء أو المساجد مزودة بكل ما يحتاجون إليه ، وكانت تجرى عليهم المآكل والمشارب والملابس ، مع الرواتب المنتظمة من المال ، بل كان إذا أراد أحدهم السفر أعطى من المال ما يليق بمثله .

وقرب صلاح الدين وملوك الأيوبيين كذلك الفقهاء ، وأحبوهم كما لم يحبهم حاكم من قبل ؛ واتخذوا منهم خير سند لهم فى حروبهم مع الصليبيين ، فكان هؤلاء الفقهاء يشحذون همم الناس ويستثيرونهم للجهاد ، وكان الجهاد رسالة صلاح الدين فى الحياة ، وتبعه على هذا خلفاؤه .

وأولى الأيوبيون عنايتهم للعلوم الإسلامية والعربية ، كالفقه والحديث ، والسيرة النبوية ، ويروى أن صاحب إربل بلغ من تعظيمه لسيرة النبى ﷺ أنه دفع لأحد علماء الأندلس ألفى دينار عندما ألف له كتاباً فى السيرة النبوية هو كتاب « التنوير فى مولد السراج المنير »(١) .

وقد أدى هذا كله إلى وجود محصول كبير من الكتب الإسلامية التى ألفت فى هذا العصر والتى تدور حول الموضوعات الفقهية أو فى الحديث ، أو فى التاريخ الإسلامى وتراجم رجالات المسلمين وعلى رأسهم النبى ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم ، وأمراء المؤمنين الصالحون أمثال عمر بن عبد العزيز .

هذا جانب مشرق من جوانب الحياة الدينية ولكن هناك جانباً آخر أقل إشرقاً ، وهو ما انتاب هذه الحياة من خلافات عقيدية ومذهبية بين المسلمين أنفسهم من اتباع المذاهب المختلفة ؛ بين أهل السنة « المذاهب الأربعة » ، وبين الشيعة بفرقها ، أو بين أهل السنة والأشعرية والمعتزلة . أو بين الفقهاء على اختلاف مشاربهم والفلاسفة ، وكان لهذا النزاع مظاهره ؛ فقد كان الناس

(١) وفيات الأعيان ١٢٢/٣ .

من أتباع المذهب الواحد ، أو العقيدة الواحدة يختارون أماكن متقاربة لسكناهم – وهو مظهر مادى للتعصب المذهبى أو الدينى – فكان فى كل بلد إسلامى كبير أحياء خاصة لليهود وأخرى للنصارى وغيرهم من المذاهب والشيع[1] ؛ ففى دمشق مثلاً كان النصارى يتجمعون شيئاً فشيئاً فى الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة ، واليهود يتجمعون فى الجانب الشرقى ، والمسلمون حول المسجد الأكبر فى القسم الغربى والقلعة والأسواق .

وكان للشيعة فى مصر والشام قبل نور الدين وصلاح الدين أيام الفاطميين شأن عظيم كما ظل لهم شأن غير قليل إلى زمن طويل فى عصرهما . ويذكر ابن جبير أحوالهم فى الشام أيام صلاح الدين فيقول : « وللشيعة فى هذه البلاد أمور عجيبة وهم أكثر من السنيين بها وقد عموا البلاد بمذاهبهم ، وهى فرق شتى ؛ منهم الرافضة وهم السبابون ، ومنهم الإمامية والزيدية وهم يقولون بالتفضيل خاصة ومنهم الإسماعيلية والنصرية وهم كفرة ملحدون يزعمون الألوهية لعلى رضوان الله تعالى عنه »[2] ، وقد نشأت فى الشيعة فرقة النزارية أو الإسماعيلية الحشيشية ، وكانت فرقة ذات مبادىء وأهداف مخربة ، وكانت تمثل خطراً كبيراً على الشعوب الإسلامية التى بدأت تموج فى حركة الإفاقة فى ذلك العصر . وقد حاولت هذه الفرقة أن تلحق الضرر بالقوى الإسلامية المتحركة ، فسعت إلى الاغتيال والقتل ، وإلى الدسائس والفتن والمؤامرات ، فسببت بعض الخسائر والنكبات وكان منها قتل نظام الملك الوزير الكبير ، ومحاولة قتل صلاح الدين ، وقد احتفظ الإسماعيلية والحشيشية بقلاع ومراكز حصينة فى قلب البلاد الإسلامية والعربية ، مثل قلعة « ألموت » فى فارس وبعض الحصون فى جبال العلويين بالشام .

وندب بعض المسلمين أنفسهم لحرب هؤلاء الرافضة والشيعة ، فألفوا من بينهم جماعة أطلقوا عليها اسم « النبوية » وهم سنيون يدينون بالفتوة وأخلاق

---

(١) دمشق لسوفاجيه ترجمة ص ٣٦ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٨ .

الرجولة . قد سلطهم الله على الرافضة يقتلونهم أينما وجدوهم[1] . وبلغ الصراع بين أهل السنة والشيعة مبلغاً عظيماً منذ أن استولى صلاح الدين على مصر إذ أمر بإزالة كل أثر لذلك المذهب ، كما أنشأ المدارس لتدريس المذاهب السنية ، وكثيراً ما اصطدم العامة من الفريقين فقتل وجرح كثيرون[2] . وطالما ألب فقهاء السنة العامة على فقهاء الشيعة وعلمائهم ؛ كما فعلوا مع فريد الدين العطار لتشيعه فى قصيدة له ، فقد أمروا بإحراق كتبه ، وحرضوا الناس عليه فنهبوا بيته ودمروه[3] .

وقد بلغ الخلاف بين السنة والإسماعيلية ، وغيرهم من الفرق درجة التفريط والخيانة ، وتسليم بلاد المسلمين والعرب للأعداء للتشفى والانتقام من الفريق الآخر . ومثاله ما فعله ابن العلقمى الوزير الشيعى الرافضى لمولاه الخليفة العباسى السنى المستعصم ؛ إذ بيت خيانته له الخلاف بينه وبين دويداره ، وكان مغالياً فى السنة ، وكانت النتيجة تسليم بغداد للتتار[4] .

وكان يجرى بين الأشعرية والحنابلة العجائب من السباب وتكفير بعضهم بعضاً[5] .

وكان للدين مظاهر أخرى غير هذه العصبية والصراع المشبوب ، مظاهر تتسم بالبهجة أحياناً ، فقد كان المسلمون يحرصون على الاحتفال بأعيادهم الدينية ومواسمهم المختلفة ، فيظهرون من ضروب البهجة والسرور الشىء الكثير ، ويتبادلون التهانى ، ويلبسون الثياب الجديدة ، ويتزاورون ، وتزدان المدن ، وتزخر مابها من المرافق الدينية كالمساجد ودور العبادة والربط بجماعات المسلمين ينشدون الأناشيد الدينية ويرتلون القرآن ويقيمون الأذكار ، ففى ليلة نصف شعبان مثلاً ، كان المسلمون يحتفلون بها فى المساجد ، فتضاء بالثريات ،

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٨ .

(٢) راجع الجامع المختصر ص ١١٨/٩ .

(٣) Browne: A Literary History of Persia .

(٤) فوات الوفيات ٣١٣/٢ .

(٥) مرآة الزمان ٤٧٦/٨ .

ويقوم الناس بالأذكار والصلوات والدعاء والتكبير قال الشاعر ابن سوار يصف أحد الجوامع ليلة النصف :

ما أحسنَ الجامع فى ليلة النصـ	ـف وقد لاحَ عليه السرورْ
وأشبهت زَهْرُ قناديلهِ	كاسات راح للندامى تدورْ
وقارن النَّسْرُ الثريا به	وقابَل البدرَ هناك البدورُ[1]

وقد استغلت بعض الفرق الدينية الفقر وسوء توزيع الثروة ، واستغلت كذلك جهل العامة وسواد الشعب فلعبت بعقولهم ، وحاولت أن تجتذبهم إلى بعض المبادىء الهادمة المخربة ، مما جعلها تنتشر فى هذا الوقت ، كدعوة الإسماعيلية التى أشرنا إليها ، وكانت مبادىء هذه الفرق تزين للعامة التخريب فى ثوب الدين ، وتدخل إلى نفوسهم عن طريق العاطفة الدينية ، وكان يلجأ بعضهم إلى شتى الحيل يتسلطون بها على الناس ؛ كما يروى عن الحشيشية من أنهم كانوا يسقون أتباعهم الحشيش وينقلونهم إلى جنات وبساتين وعيون تتسرب منها الجداول ؛ حيث يقضون أوقاتاً سعيدة بين الخمر والجوارى ، ويدخل فى أوهامهم أن ما رأوا صورة مصغرة للجنة التى يوعد بها الأتباع ، وعندما يفيقون يمنون أنفسهم بالعودة إلى ما كانوا فيه فيتسلط عليهم رؤساؤهم بأن يلقوا فى روعهم أن العودة لا تتم إلا باتباع الأوامر ، فيصيرون ألعوبة فى أيديهم يوجهونهم تحت هذا الوعد إلى مايشاءون[2] .

وكان الدين يستغل كذلك من بعض الناس لكسب الرزق بالحيل والطرق المختلفة عن طريق الشعبذات ؛ إذ ظهر كثير من الشعبذين باسم الدين واستغلوا سذاجة العامة وجهلهم ، وأدخلوا فى أوهامهم كثيراً من الخرافات والعقائد الباطلة وصار لهم عديد من الأتباع والمريدين انطلت عليهم شعبذاتهم . وظهرت فى هذا العصر فرقة دينية تنتمى إلى الصوفية ، ويحترف أتباعها أشياء تختلف عما يتبعه الصوفية ، أشياء تتصل بأعمال السحرة والحواة ، أكثر من اتصالها بأعمال الدين . يقول ابن خلكان عن أتباع الرفاعى : « ولأتباعه

---

(١) فوات الوفيات ٤٣/٦٢ .

(٢) راجع الشرق الإسلامى قبل الغزو المغولى لحافظ حمدى ٢١٠ .

أحوال عجيبة من أكل الحيات وهى حية ، والنزول فى التنانير وهى تتضرم بالنار فيطفئونها ، ويقال إنهم فى بلادهم يركبون الأسود ، ومثل هذا وأشباهه » .

ومما شاع كذلك من عقائد تتصل بالدين : الرؤى والأحلام يشاهد فيها النائم الرسول ﷺ أو أحد صحابته ، أو أحد الصالحين ، فيأمره بعمل من الأعمال ، أو يدله على شيء أو أشياء ستقع ... وما إلى ذلك .

وكان للشعور الدينى الذى غلب على الناس فى هذا العصر أثره كذلك على الأسماء والكنى التى تسمى بها الناس ، فقد اتخذوا لأنفسهم أسماء وكنى مضافة إلى الدين أو منسوبة له مثل زين الدين ، وصلاح الدين ، ونور الدين ، وعلاء الدين ، ونجم الدين ، وجمال الدين ، وعز الدين ، وضياء الدين – إلى أمثال ذلك . وقلما نجد أحداً من المشهورين من سلاطين العصر وقواده أو أمرائه أو كتابه أو علمائه إلا واسمه مسبوق بأحد هذه الأسماء والألقاب .

وشغل الناس فى هذا العصر ببعض التيارات الفكرية والعقيدية التى انحدرت إليهم من ديانات أو ثقافات متعددة . وظهر فى الصوفية كثير من الآراء والعقائد والعادات من الديانات والعقائد غير الإسلامية كبعض العادات والعقائد عن الرهبنة المسيحية ، أو من الآثار الفارسية والهندية .

ولكن التصوف والصوفية على أية حال قد اتخذت صبغة إسلامية وتملكت مشاعر العامة وعواطفهم ، وطغت على المجتمع ظاهرة اجتماعية خطيرة شغل بها الناس حتى الخاصة منهم . وليس غريباً أن هذا اللون من ألوان العقيدة – على ما فيه من صفات طيبة وحسنات كثيرة تبدو مظهراً دينياً خالصاً – كان نتيجة لعوامل اجتماعية واقتصادية هامة . ولاشك أنه بسبب ما كان يسود العصر من مظالم اجتماعية ومساوىء فى الحكم والإدارة ، واستبداد وعدم استقرار ، لكثرة الحروب والفتن الداخلية ، وكثرة المجاعات والأوبئة التى كانت تحصد أرواح الملايين من البشر ، ثم تلك البلبلة الدينية الناشئة عن الفرق الدينية المختلفة المتنازعة المتناحرة ، والمذاهب الاجتماعية الناشئة والتى تحوى فى داخلها بعض مبادىء الفوضى والهدم ، ثم اختلاط المجتمع العربى الإسلامى فى هذا الوقت من

أمشاج من العناصر والأجناس ، كل هذا أثر فى ظهور الطرق الصوفية وتلونها فى صور وأشكال مختلفة .

الزهـد والتصـوف :

كذلك قد دفع كثير من العوامل السابقة بعض الناس إلى الزهد والانصراف عن العمل ، لأنهم رأوا أنهم لا يحصلون على ثمرة أعمالهم ، فقامت فلسفة العمل مع الجزاء فى الآخرة ، وتفشت فى النفوس ، وقويت روح التوكل والقنوع ، واليأس من الحياة الدنيا ، والتطلع إلى ما يعده الله للأتقياء فى الآخرة من ضروب النعيم التى يسعد بها الأقوياء والأثرياء فى الدنيا وحسب . كذلك تملك بعض الناس الزهد لما رأوا عناصر الفساد والإباحية والفوضى تدب فى المجتمع وتعم وتطغى ، عند ذلك انتحى الخيرون جانباً تقية وتورعاً . كذلك كف العاجزون ، واعتكفوا فى صوامعهم ، يتقشفون ويلبسون الجبب والخرق ، ويدعون الناس ، ويغرونهم بتلك الحياة السهلة ، التى لا نصب فيها ولا تعب ولا جرى وراء المطالب والمشاغل الدنيوية ، وقد زينوا للناس حياتهم ، وقبحوا ملاذ الدنيا ، ووصفوا الحياة بأقبح الأوصاف ، وخلطوا صفوها بكدر مصطنع ، وهولوا للناس مصائب الصراع حول المكاسب الدنيوية . ودعوهم إلى التأمل فى الله والحياة الأخرى ، والتمتع بالإشراق الإلهى فى الباطن . وربما كانوا يحاولون أن يلتزموا جانب الله ليرزقهم القوة الروحية الخفية ، للتغلب على صعاب الدنيا ومظالمها ، ما داموا قد سلبوا فى الدنيا القوة المادية .

وقد شجع الحكام تلك الحركات الصوفية عن رغبة حقيقية وعقيدة عند بعضهم أو عن رغبة خفية ماكرة ، لمجرد مسايرة الشعور العام ، ولأن هذه الدعوة فى صالحهم ؛ فهى تصرف العامة عن تتبعهم وحسابهم عما يفعلون ، أو الوقوف فى وجوههم وفى طريق رغباتهم الطامحة ؛ فبنوا الخوانق والربط ، وأجروا على الصوفية الرزق السهل اللين ، وتوافد إلى ما ابتنوا جماعات مختلفة من مشارق العالم الإسلامى ومغاربه .

ومهما يكن من شيء فإن الظاهرة الهامة فى هذا العصر هى انتشار الصوفية وطغيانها على ما سواها من مذاهب . وقد اتخذت الصوفية لنفسها ألواناً ، وسرت فيها تيارات متعددة إسلامية ونصرانية وعقلية فلسفية أو روحية . وليس المجال هنا متسعاً لعرض تلك الآثار أو الكلام فى التصوف ونشأته وتطوره ، إنما يهمنا هنا أن نشير إلى أثر التصوف فى هذا العصر خاصة ، وفى الفكر والثقافة عامة ، وكيف أثر ذلك على الذوق الجماعى عند الأدباء والعلماء .

وكانت أحوال الصوفية فى الشرق مما استرعى اهتمام ابن جبير فى رحلته قال : « وأما الرباطات التى يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهى برسم الصوفية ، وهى قصور مزخرفة يطرد فيها الماء على أحسن منظر يبصر ، وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الحياة الدنيا وفضولها ، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة فى أسباب المعايش وأسكنهم فى قصور تذكرهم بقصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة . وهم على طريقة شريفة وسنة فى المعاشرة عجيبة ، وصلاتهم فى التزام رتب الخدمة غريبة ، وعوائدهم فى الاجتماع للسماع المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا فى تلك الحالات المتبتل المثابر رقة وتشوقاً . وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة ، وهم يرجون عيشاً طيباً هنياً »[1] .

وقد كان لرجالها أحوال غريبة حقاً إذ أن أحدهم وهو عبد القادر الجيلانى (٤٩١ هـ - ٥٦١ هـ) يلازم الخلوة والسهر والمقام فى الصحراء والخراب - يحكى عن نفسه فيقول : « طالبتنى نفسى بالشهوة فكنت أصابرها ، وأدخل فى درب وأخرج إلى درب أطلب الصحراء ، فبينا أنا أمشى إذ رأيت ورقة ملقاة فإذا فيها : ما للأقوياء والشهوات ؟! إنما خلقت الشهوات للضعفاء يتقوون بها على طاعتى ، فلما قرأتها خرجت تلك الشهوة من قلبى »[2] .

---

(١) راجع .Browne: A Literary History of Persia p. 491

(٢) رحلة ابن جبير ٢٨٤ .

وكان من الصوفية ، فى هذا العصر علماء ألفوا فى التصوف ، ومنهم القشيرى صاحب الرسالة القشيرية بالعربية والفارسية ، كذلك ألف جماعة فى طبقات الصوفية مثل السلامى « طبقات الصوفية » ، والشيخ الأنصارى « كتاب الأسرار » والهجويرى كتاب « كشف المحجوب » بالفارسية . وغيرهم كثيرون .

ومن شيوخهم المشهورين فى القرنين السادس والسابع : نجم الدين كبرى[٣] ومجد الدين البغدادى (توفى بين سنة ٦٠٦ هـ وسنة ٦١٦ هـ)[١] ، ونجم الدين الداية[٢] (ت ٦٥٤ هـ) وشهاب الدين السهروردى صاحب التآليف المشهورة فى التصوف مثل « عوارف المعارف » (توفى سنة ٦٣٢ هـ) ، وعبد القادر الجيلانى ، والسهروردى المقتول صاحب « حكمة الإشراق » ، ومحى الدين بن العربى صاحب كتب « فصوص الحكم » و « الفتوحات المكية » . وتزيد مؤلفاته على خمسة عشر كتاباً ، وله شعر نشر فى ديوان يحوى ٢٤٤ صفحة[٣] ، ومن شعرائهم المشهورين عمر بن الفارض (المتوفى سنة ٦٣٢ هـ) ، وشعره جيد بليغ عليه مسحة القديم . ومن أشهر قصائده التائية ، وهى خمسة وسبعون بيتاً وقد شرحها كثير من العلماء .

وكانت أحوال الصوفية وأعمالهم موضوعاً لكثير من الشعر فى هذا العصر وخاصة ما كانوا يقومون به من غناء وذكر ورقص فى حلقاتهم ، وكانوا يدعون إلى « الموالد » والحفلات الدينية لأداء طقوسهم التى عرفوا بها ، وكان الأمراء وسراة القوم يعجبون بهم ، ويحرصون على استدعائهم فى المناسبات الدينية . فقد كان مثلاً صاحب « إربل » يحضر عدداً منهم ليلة المولد النبوى ، ويدعو أعيان العلماء وسادة القوم ، « ويعمل للصوفية سماعاً من الظهر إلى الفجر ، ويرقص بنفسه معهم »[٤] ، ثم يخلع عليهم الخلع ويطلق لهم الأموال .

---

(١) نفس المصدر p.495 .

(٢) نفس المصدر P.496 .

(٣) Browne P.497 .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير ١٣٧/١٣ .

ومن أشعارهم فى التوكل قال شاعرهم :

جرى قلم القضاء بما يكونُ	فسيان التحرك والسكونُ
جُنونٌ منك أن تسعى لرزقٍ	ويرزق فى غشاوته الجنينُ

ولم تكن الصوفية وحدها هى الدعوة التى صورت بعض الاتجاهات السلبية فى المجتمع الاسلامى والعربى لذلك العصر ، بل هناك ظواهر أخرى تدل على مدى تفشى تلك السلبية ، وتدل كذلك على التخلخل الاجتماعى والضعف والقعود عن كبار الآمال ، وعن الطموح . فكانت هناك ظواهر التنجيم والشعبذة بأنواعها ، توهم الناس بالكشف ، والقدرة على معرفة أسرار الكون والغيب ، والتنبؤ بالمستقبل وما يخفيه الغد . وكان ذلك ضرورياً بالنسبة للناس فى هذا العصر بسبب الاضطراب الشديد ، والخوف الدائم مما تخبئه الأيام ويخفيه الغد ، ومحاولة الناس التطلع إلى ما سوف يأتى به من شرور حتى يتجنبوها . وهذا كما قلت مرجعه لشعور القلق وعدم الاستقرار الذى ساد المجتمع للعوامل الكثيرة التى أشرنا إليها .

وتعلق الناس بالتنجيم والفلك لمعرفة أسرار الكواكب ، وما تدور به فى أفلاكها من مقادير على الناس ، وذكر ابن خلكان أن ابن خاقان قال فى الشاعر ابن الصائغ – وكان يعمل فى الفلك والنجوم – : « نظر فى كتاب التعاليم ، وفكر فى أجرام الأفلاك ، وحدود الأقاليم ، ورفض كتاب الله الحكيم ، ونبذه وراء ظهره ، ثانى عطفه ، وأراد إبطال مالا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واقتصر على الهيئة وأنكر أن يكون إلى الملة فيئة ، وحكم الكواكب بالتدبير ، واجترأ على الله اللطيف الخبير ، واجترأ عند سماع النهى والإيعاد ، واستهزأ بقوله تعالى : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ فهو يعتقد أن الزمان دور ، وأن الإنسان نبات أو نور »[1] .

وكثيراً ما كانت تنبوءات أولئك المنجمين والفلكيين مثار السخرية من الناس وخاصة إذا أخفقت التنبؤات ، وجاءت الأيام بعكسها . ومن ذلك ما كتبه

---

(١) وفيات الأعيان ٥٦/٤ .

ضياء الدين بن الأثير فى هذا الشأن قال : « ومن هذا ما ذكرته فى النجوم وهو فصل من كتاب : « وقد توهم أهل التنجيم بالتسيير والتقويم ، والحكم على أفعال العليم الحكيم ؛ فأخبروا عن النجوم فى سعودها ونحوسها بما لم تخبره عن نفوسها ، وقضوا فى ترتيب أبراجها واختلاف مزاجها وحكموا على حوادث العمل فى حال وجوده إلى عدمه . فى سعادته وشقاوته ، وصحته وسقمه ، وأشباه ذلك من الزخارف التى نصبوها للاكتساب على غير ذوى الألباب . وكلها أضغاث أحلام ، وأوضاع لا تخرج عن خط الأقلام »[1] .

---

(١) الوشى المرقوم لضياء الدين ابن الأثير ص ٥٨ .

الباب الثانى

الثقافة والفكر فى عصر الأيوبيين

١
العلم والعلماء

كان عصر الأيوبيين عصر إحياء للفكر والثقافة الإسلامية والعربية كما كان عصر إحياء سياسى . وتمثل هذا الإحياء فى بعث العلوم الشرعية والاهتمام بالقرآن والحديث اهتماماً بالغاً ، وقد مرت بنا إشارات عديدة تبين مدى اهتمام الحكام والناس وتقديرهم للعلم والعلماء ، والدراسة والمدارس . والحق أن العلم كان رائداً للناس جميعاً ، وكانت الغيرة عليه من غيرتهم على أوطانهم ودينهم ، ولذلك لم يبخلوا عليه بكل غال نفيس .

وشجع الحكام العلماء ، وتسابقوا إلى تقريب الفقهاء والحفاظ والقراء ، بل سعى كثير من ملوك الأيوبيين وأمرائهم لينهلوا من فيضه ، ويحكموا فروعاً منه ، تتفق مع ميول كل منهم ، وعرفنا من ملوكهم الأدباء والشعراء : الأفضل بن صلاح الدين ، والملك المعظم عيسى بن العادل ، ويلقبونه بمأمون بنى أيوب ، والملك المنصور داود ، كذلك عرفنا فى الكامل بن العادل الذى تولى على مصر زمناً طويلاً حبه الكبير للعلماء والمدارس .

ولهذا كثر بناء المدارس ودور الحديث والفقه ، وبذل الحكام كل مافى وسعهم لتوفير الأساتذة من أقطار العالم الإسلامى شرقاً وغرباً . ومن ثم أصبحت عواصم مصر والشام والعراق المشهورة : القاهرة ، والإسكندرية ، ودمشق ، وحلب ، وبغداد ، والموصل قبلة القصاد من سائر بلدان العالم العربى والإسلامى فى المشرق والمغرب .

وربما بدا غريباً للمؤرخ والباحث فى تاريخ الأدب على السواء أن يزدهر العلم والأدب فى عصر سادته الفتن المتواصلة ، وغلبت عليه الأحداث الكبار ، أحداث الحروب الصليبية التى عصفت بالشرق الإسلامى سنين طويلة . ولكن يبدو – كما رأى بعض الباحثين – أن الشرق قد اعتاد أن تسير الأحداث العنيفة

جنباً إلى جنب مع الثقافة والفن[1] .

وقد اعتمدت حركة البعث العلمي والأدبي في هذا العصر على التراث الإسلامي الزاخر في العصور السابقة ، وكان الدافع إليها والمحرك القوى أول الأمر حماس السلاجقة السنيين لإحياء شعائر أهل السنة ، وكذلك أتباعهم في الأقاليم المختلفة ؛ فكانوا مدفوعين بالدعوة للقرآن ، قراءته ودرسه وتفسيره وعلومه المتصلة به والحديث وجمعه وروايته وحفظه وشرحه ، وذلك على أثر فترة من الزمن طغت فيها عناصر الثقافة اليونانية البعيدة عن روح الإسلام ، كفلسفة الدهريين والمناطقة والملاحدة ، على عقول العلماء والمتعلمين في العصر السابق عصر البويهيين ، ونشأت نتيجة لذلك تيارات متعددة ، نتيجة اتجاهات شتى بالعقيدة الإسلامية وتكاد تنحرف بها وبمقوماتها عن الطريق السوى . كذلك كان لاشتداد الحركات العقلية عند مفكرى الإسلام أثره في صرف الناس عن طريق السنة ونهج القرآن والحديث . ولعل أشد تلك الحركات أثراً في الفكر الإسلامي حركة المعتزلة والمتكلمين التي ظهرت منذ أواخر القرن الثاني للهجرة ، واشتدت في القرن الثالث ، ثم حركة الشيعة والباطنية الذين احتضنوا آراء المعتزلة المتحررين في العراق ومصر وكانت مدارسهم وعلماؤهم دائبة على تدريس تلك العلوم ، ولعل أبرز تلك المدارس دار الحكمة التي أنشأها الفاطميون في القاهرة .

وجاء السلاجقة بعد ذلك ، وكانوا كما قلت سنيين متحمسين ، فناهضوا الحركات العقلية في الإسلام ، التي احتضنها الشيعة أعداؤهم المذهبيون ، بعد أن استولوا على مقاليد الحكم في بغداد والشرق جميعاً ، واستولى أتباعهم على الشام ومصر . وكان للسلاجقة في ميادين الثقافة الإسلامية جولات صادقة مظفرة ، وكان أبرز حكامهم اهتماماً بالعلوم والعلماء والمدارس الوزير العظيم نظام المُلك[2] . (قتل سنة ٤٨٥ هـ) إذ كان سنّياً شديد التعصب لعلوم

---

(١) راجع Lane poole: Saladin p.21 .

(٢) راجع أتابكه الموصل في سلسلة :
Rèceilles des Historiens des Crossades, Historiens Orienteaux vol.II p.2-16

الحديث . وكان يعقد مجلسه ، ويجعل فيه حلقة لقراءة الحديث يحضرها علماء عصره المبرزون[1] . وقد دفعه حماسه لأهل السنة – بتأييد من السلطان السلجوقى العظيم ملكشاه – إلى بناء المساجد والمدارس الكبرى لتعليم أبناء المسلمين القرآن والحديث والعلوم العربية الأخرى التى تخدمها[2] . وسمى كثير من المدارس التى أسسها بالنظامية نسبة إليه ، فكانت عواصم البلاد الإسلامية الكبرى لا تخلو من واحدة منها على الأقل ، وخاصة فى العراق وفارس ، فكان هناك نظامية بغداد فى القرن السادس الهجرى ، تخرج فيها كثير من العلماء المشهورين ، كما درس بها جماعة من المتفوقين . يقول لانبول : « فالمدارس النظامية ببغداد التى أنشأها الوزير نظام الملك كانت مركز إشعاع للعلم والثقافة على جميع الأقطار الإسلامية فى فارس والعراق وسوريا ومصر ، حيث التقى هذا الشعاع بشعاع آخر كان ينبعث من الأزهر جامعة مصر »[3] . ومنها نظامية نيسابور ، ونظامية الموصل وهراة ... إلخ .

وكان بناء مدرسة من أهم الأعمال التى يعمل لها سلاطين السلاجقة وأمراؤهم ووزراؤهم ، وكانت تماماً توازى عندهم بناء مسجد أو فتح مدينة أو بناء قلعة . ودفعت هذه الروح نفسها أمراء الأتابكيات أو « الأتابكة » – بعد انحلال دولة السلاجقة إلى أتابكيات أو إقطاعات صغيرة – إلى التشبه بسلاطينهم العظام ، فأصبحت دمشق وحلب والقاهرة والموصل وبغداد وحمص وبعلبك ، ومدن أخرى إسلامية عربية كثيرة فى عصر نور الدين وصلاح الدين مراكز هامة للثقافة بفضل ما أنشىء فيها من المدارس ومن نشأ فيها أو أقام وعلم فيها من العلماء[4] .

وقد بنى نور الدين محمود بن زنكى صاحب حلب مدرسة كبيرة فى دمشق لأصحاب أبى حنيفة[5] كما بنى صلاح الدين مدرسة لأصحاب الإمام الشافعى

(١) راجع معجم السلفى مصور بمكتبة بلدية الاسكندرية ورقة رقم ٤٩ .

(٢) الشرق الإسلامى قبل الغزو المغولى ص ٢٦ .

(٣) Lanepoole: Saladin p.18

(٤) Lanepoole: Saladin p.19

(٥) كتاب الروضتين ٢٢٩/١ .

بجوار ضريح الشافعي بالقاهرة . وكان صلاح الدين يقول للخبوشانى وهو يشرف على بنائها : زد احتفالاً وتأنقاً وعلينا القيام بمئونة ذلك[1] . واشتهر صلاح الدين كذلك بأنه يعد أعظم مشيد لدور العلم فى الإسلام بعد نظام الملك[2] .

ولم تقتصر همة سلاطين العصر وأمرائه وكبار رجاله فى تشجيع العلم والعلماء على بناء المدارس ، وجلب العلماء والأساتذة من كل مكان ، بل كان بعضهم علماء بأنفسهم ، وكان بعضهم الآخر شغوفاً بالعلم والدرس يحب الاستماع للعلماء والجلوس فى حلقات الدرس . وكان منهم من يختلس الفرص عند الفراغ من مشاكل السياسة والحرب وأعمال الدولة فيخلد إلى عالم أو شيخ يسمع منه ويسائله ويحفظ عنه ما يلقنه إياه من أحاديث ومواعظ أو حكم غالية . ويروى أن نظام الملك كان عالماً ، وأنه ألف كتاب « سياسة نامة »[3] . فى السياسة ، كما كان فقيهاً دينياً ، واشتغل بالفقه فى حداثته زمناً ، وكان يحب العلماء ويقربهم وينفق عليهم كثيراً . يقول بروكلمان : « كان مديناً بشهرته – فى المحل الأول – لما أسبغه من عطف على الفقهاء والعلماء »[4] . وذكر ابن الأثير فى أتابكة الموصل أنهم كانوا أحب الناس إليه ، وأقربهم إلى قلبه[5] ، وكان يناظرهم فى المحافل ويبحث معهم مشكل المسائل وغامض الآراء فى الفقه والعلوم الأخرى . ومن أشهر من قربهم نظام الملك ، وأمن شجعهم العالم الفلكى والفيلسوف الشاعر المشهور عمر الخيام[6] . وكان السلطان محمود السلجوقى (توفى سنة ٥٢٥ هـ) قوى المعرفة بالعربية ، حافظاً لكثير من الشعر والأمثال ، عارفاً بالتواريخ والسير[7] .

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٤٨ .

(٢) تاريخ العرب مطول – لفيليب حتى آخرين طبع بيروت جـ ٣ ص ٧٨٢ .

(٣) راجع Lanepoole: Saladin p.12 .

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية ١٢٨/٢

(٥) أتابكة الموصل ٢ ص ٢٥٠ مجموعة Receilles .

(٦) Saladin p.12 .

(٧) أخبار الدولة السلجوقية ص ٩٩ .

وكان عصر سنجر وإخوته (٤٨٥ هـ - ٥٥٢ هـ) بصفة عامة عصراً زاهراً فى الأدب والعلم وغيره أكثر من العصور الزاهرة السابقة ، فقد ازداد فيه عدد الكتاب والشعراء والعلماء من الفرس والعرب ، ونبغ فيه من شعراء الفرس جماعة مثل فريد الدين العطار ، ونظامى ، وعمر الخيام ، وسنائى ورشيد الدين الوطواط ، وأنورى وغيرهم[١] .

كذلك كان سلاطين الدولة الغزنوى فى غزنة لا يقبلون عن معاصريهم السلاجقة حباً للعلم وتشجيعاً للعلماء ، واشتهر من هؤلاء السلاطين شهاب الدين الغزنوى وكان يفد إلى بلاطه العلامة فخر الدين الرازى صاحب التفسير المشهور والكتب المعروفة فى الأدب والإعجاز والبلاغة وغيرها ، وكان السلطان يحبه ويعطف عليه ويبذل له المال[٢] .

وفى العراق كان الخلفاء العباسيون ووزراؤهم يقربون العلماء ويشجعونهم كذلك بشتى الوسائل ، وكان من أبرز وزراء العصر وأكثرهم تقديراً للعلم والعلماء عون الدين بن هبيرة (توفى سنة ٥٦٦ هـ) ، « وكان عالماً فاضلاً ذا رأى صائب وسريرة صالحة ، مكرماً لأهل العلم ، يحضر مجلسه الفضلاء على اختلاف فنونهم ويقرأ عنده الحديث عليه وعلى الشيوخ بحضوره ، ويجرى من البحث والفوائد ما يكثر ذكره »[٣] ، وألف ابن هبيرة هذا كتباً عدة ، منها « الإيضاح فى شرح الأحاديث الصحاح »[٤] .

وفى الشام كان نور الدين معروفاً بشغفه بالعلم والمشتغلين به ، وبحبه للفقهاء وأهل الحديث ، وكان لا يفتأ يجمعهم فى مجلسه ويستشيرهم فى أمور الدين والحكم . وممن وفد إليه من مشاهير الفقهاء فى العصر قطب الدين النيسابورى (توفى سنة ٥٦٨ هـ) . يقول أبو شامة : « فسر به نور الدين

---

(١) أخبار الدولة السلجوقية ص ٩٩ و Browne, p.299 .

(٢) الجامع المختصر لعنوان التواريخ وعيون السير ١٧١/٩ .

(٣) وفيات الأعيان ٢٧٧/٥ وكتاب الروضتين ١٤١/١ .

(٤) الروضتين ١٤١/١ .

وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق » ، وبنى له مدرسة كبيرة للشافعية لفضله[1].

وفى مصر والشام كان صلاح الدين يحفظ القرآن ويروى الحديث ويسمعه من حافظه ، سمع على الحافظ السلفى عالم الإسكندرية ومحدثها الكبير فى القرن السادس ، « كما جعل له ميقاتاً لسماع الأحاديث النبوية بقراءة الإمام تاج الدين البندهى المسعودى »[2] ، وجمع بلاطه جمهرة من العلماء حفظوا مآثره وترجموا له وألفوا الكتب فى مناقبه ، وكان من خلصائه القاضى الفاضل ساعده الأيمن فى تدبير المملكة ، وكتب له العماد الأصبهانى العلامة الأديب صاحب الكتب الكثيرة التى منها « خريدة القصر » و « الفتح القسى فى الفتح القدسى » ، وابن شداد القاضى الذى جمع سيرته فى كتاب « النوادر السلطانية » . وقد بز صلاح الدين كل السلاطين والأمراء المعاصرين فى الإنفاق على العلم والفقه ومدارسهما ، وكان من سياسته مكافحة التشيع عملاً وعقيدة ، فاتخذ العلماء والفقهاء وسيلة لبلوغ غرضه .

وجاء بعد صلاح الدين خلفاؤه فأحبوا العلم كما أحب . وقد سمع ابناه الأفضل والعزيز على الحافظ السلفى بالإسكندرية . وبعد وفاته وتوليهما بدمشق والقاهرة قربا كثيراً من الفقهاء والعلماء والأدباء ، وكان الأفضل شاعراً أديباً ، قرب إليه من الأدباء الكاتب المترسل ضياء الدين بن الأثير صاحب « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » وصاحب كثير من كتب الأدب مثل « الوشى المرقوم فى حل المنظوم » وكتاب « الاستدراك » فى السرقات وغير ذلك . وقد لزم ضياء الدين الأفضل زمن ولايته على دمشق وبعد حضوره لمصر ، ولازمه ، وكان بينهما ود متصل على الرغم من معارضة عم الأفضل الملك العادل وأخيه العزيز وأمراء الدولة . وسار الظاهر فى حلب سيرة أخويه وأبيه من قبل فآوى فى حلب كثيراً من العلماء الأفاضل ، ومنهم

---

(١) كتاب الروضتين ١/١٢٤ .

(٢) كتاب الروضتين ١/٢١٤ .

القاضى ابن شداد الذى آثر صحبة الظاهر بعد وفاة صلاح الدين ، والقاضى جمال الدين القفطى ، وأسعد بن مماتى الشاعر والكاتب صاحب كتاب « قوانين الدواوين » وغيرهم ، كما أنه آوى السهر وردى المقتول إلى أن أمره أبوه صلاح الدين بقتله بعد ثورة الفقهاء عليه .

ومن أمراء بنى أيوب الملك المعظم عيسى بن العادل أخى صلاح الدين وصاحب دمشق ، فقد كان محباً للعلم والعلماء ، حتى سماه أحد المؤرخين له فى عصرنا هذا مأمون بنى أيوب[1] . وقد أخذ العلم على كبار علماء عصره ، فتعلم العربية على زيد بن الحسن المشهور بأبى اليمن الكندى ، قرأ عليه كتاب سيبويه ، و « الإيضاح » لأبى على الفارسى ، وشرح سيبويه لابن درستويه[2] . وكان يحرض الفقراء على الاجتهاد والاشتغال بالعلم ، وحفظ الكتب ، فقد أثر أنه كان يقول : من حفظ نص « الجامع الكبير » فى الفقه للكرمانى أعطيته مائة دينار ومن حفظ « الإيضاح » لأبى على فى النحو أعطيته مائتى دينار ، فحفظ جماعة الكتابين ووفى لهم بما شرطه[3] .

ومن بين أمراء الشام كذلك الملك المنصور صاحب حماة (توفى سنة ٦١٧ هـ) فقد جمع من الكتب مالا يزيد عليه ، وكان فى خدمته ما يناهز مائتى متعمم من الفقراء والأدباء والنحاة والمشتغلين بالحكمة والمنجمين والكتاب[4] . وقد سمع هو على السلفى بالإسكندرية ، وصنف من الكتب « مضمار سر الحقائق وسير الخلائق » ، يقول ابن شاكر « وهو مؤلف كبير نفيس يدل على فضله ، ولم يسبق إلى مثله . وله كتاب سماه « طبقات الشعراء » يكون فى عشرة مجلدات[5] » .

وشارك العلماء السلاطين والأمراء فى النهضة العلمية بهذا العصر ؛ فقد بنى القاضى الفاضل مدرسة له فى القاهرة سماها باسمه ، ووقف عليها أوقافاً ، ونقل

(١) أحمد أحمد بدوى ألف كتاباً بعنوان مأمون بنى أيوب عن الملك المعظم عيسى .

(٢) إرشاد الأريب لياقوت ٣٢٢/٤ ط Gibb وراجع مرآة الزمان ٦٤٧/٨ .

(٣) مرآة الزمان ٦٤٧/٨ .

(٤) فوات الوفيات ٢٢٩/٢ .

(٥) فوات الوفيات ٤٩٨/٢ .

إليها بعض كتبه ، وكانت مائة ألف مجلد[1] . وبنى الحافظ السعدى مدرسة أنفق عليها من ماله ، واستعان بأهل الخير ، وأوقف عليها ما كان يملكه من مال وكتب[2] .

وكانت المدارس فى هذا العصر – وخاصة المدارس الكبرى فى الحواضر الكبيرة – جامعات تدرس فيها العلوم المختلفة ، وتنقسم إلى أقسام حسب العلوم التى تدرس بها . ويوكل بكل قسم أستاذ عالم من الأساتذة المشهورين ، فكان هناك أستاذ للتفسير وأستاذ للحديث ، وأستاذ للفقه وأستاذ للغة والأدب ، وأستاذ للنحو ، وأستاذ للتاريخ وأستاذ للفلسفة .. إلخ ، كما كان يقسم الفقه إلى مذاهبه الأربعة ، ويكون لكل مذهب أستاذه ، فأستاذ للمالكية ، وأستاذ للحنفية ، وأستاذ للشافعية ، وآخر للحنابلة ، إلا أن بعض المدارس كانت تقتصر على مذهب واحد كالشافعى

وكان بعض المدارس مستقلاً ، وبعضها ملحقاً بالمساجد ، وبها أجنحة خاصة لإقامة الطلبة الغرباء الوافدين[3] ، ينامون ويأكلون ويشربون وتجرى عليهم الرواتب ، وكانت الدولة تنفق على المدارس بسعة ، ومثال ذلك أن صلاح الدين كان ينفق على مدارس القاهرة وحدها فى عصره ألفى دينار كل شهر ، أى ما يوازى أربعة وعشرين ألف دينار كل سنة ، وكان لجامع عمرو وحده راتب يومى قدره ثلاثون ديناراً[4] . ولم نعثر تفصيلاً على وصف لبناء المدارس فى هذا العصر إلا أنه روى أن مدرسة الإمام الشافعى التى بناها صلاح الدين كانت مكونة من أربعة أروقة[5] . وكان يلحق بالمدارس دور للكتب لإطلاع الطلاب ودرسهم ، وكان للنظامية ببغداد دار كتب كبرى يقوم

---

(١) مرآة الزمان ٨/٤٧٣ .

(٢) فوات الوفيات ٢/٢٧٢ .

(٣) تاريخ العرب مطول ٢/٧٨١ .

(٤) رحلة ابن جبير ص ٥٠ .

(٥) تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ٢/٢٣٥ .

بالإشراف عليها أحد العلماء الأفاضل[1] . وكذلك كانت حال مدارس الشام ومصر والأندلس[2] .

وكان نظام التعليم فى المدارس الإسلامية وقتئذ يقوم على مرحلتين : مرحلة التعليم الابتدائى ، وكان منهاجه فى جميع البلاد الإسلامية يقوم أساساً على كتابة الخط وقراءة القرآن وتعلم النحو والصرف والشعر . والمرحلة الثانية التعليم العالى ، وكان يقوم على تفسير القرآن ، ومعرفة الديانات والفلسفة ، وأصول اللغة وفقهها والشعر وعلم القراءات والفقة بمذاهبه والتاريخ وعلم البلدان (الجغرافيا)[3] والحديث وعلومه . ولم يكتف الطلاب بهذا بل كان بعضهم يتخصص فى علم من هذه العلوم أو أحد فروعه ، وذلك بعد أن يجمع بينها فى المرحلة العليا ، فيلزم فى تخصصه بعض الأساتذة المشهورين فى العلم فى مدرسته ، أو قد يرحل إلى مدرسة أخرى فى بلده ، بل قد يضطره الأمر إلى الرحلة لشيوخ العلم فى المدارس الأخرى بالبلاد الإسلامية ليستزيد ممن يعرفون بالإلمام الواسع والدراية الشاملة ؛ وكان الطلاب يحتفون أشد الاحتفاء بالسماع على الأئمة المشهورين ، يهون لديهم فى سبيل ذلك كل جهد ومشقة ، وتقرب الشقة على ابتعادها . وكان جل همهم أن يحصلوا على إجازات تعتبر شهادة طيبة بالتحصيل والسماع .

وأما طريقة إلقاء الدروس داخل المدارس فيمكننا تصوره من بعض ما يرد فى كتب التاريخ أو الأدب نتفاً هنا وهناك ، ونستطيع منها أن نقول إن الأستاذ كان يجلس على كرسيه أو على مكان مرتفع وسط حلقة من الطلاب يلتفون حوله ، فيلقى درسه شفاهاً أو من كتاب بين يديه ، وقد يكون الكتاب من وضعه هو أو من وضع غيره ، ويناقش الأستاذ طلبته فى موضوع الكتاب ، ويقف عندما يستشكل فيشرحه ، أو قد يعرض الأستاذ لمسألة من المسائل فى الفقه أو الحديث أو اللغة أو الأدب ، فيشرحها ويأتى عليها بالشواهد من محفوظه أو مما يعرفه أو ما يأتى به من كتب .

---

(١) راجع الجامع المختصر ٩/٢٣٥ .

(٢) تاريخ العرب مطول ٣/٦٦٩ .

(٣) تاريخ العرب مطول ٣/٦٦٨ – ٦٦٩ .

وكان لبعض هؤلاء الأساتذة حذق بإلقاء الدروس ، وكان بعضهم ملماً بكثير من اللغات ، كما أنهم لم يقتصروا على الحديث عما يتخصصون فيه بل كانت دروسهم موسوعات تجمع كل شيء ، فكان درس الحديث مثلاً يجمع طرائف لغوية ونحوية وأبياتاً من الشعر ، ونوادر وأخباراً عن الشعراء وغيرهم مما يناسب المقام ، ويتخذون هذا وسيلة لتثبيت العلم فى أذهان طلبتهم ، أو للترويح أثناء الدرس من عناء التحصيل ، وقد كان ابن الدهان[1] مثلاً إذا جلس للدرس بنظامية بغداد يقطع أكثر وقته بالأخبار والحكايات وإنشاد الأشعار .. وكان يحسن الكلام بكل لغة ، إذا قرأ عليه أعجمى واستغلق عليه الفهم بالعربية أفهمه المعنى بلغته أو اللغة التى يجيدها غير العربية ، وكان حسن التعليم طويل الروح[2] .

ووصف لنا ابن جبير درس التفسير فى نظامية بغداد ، عند ذهابه إليها فى رحلته ، فذكر أن القرآن كان يقرأ بين يدى الإمام وهو على المنبر ، ثم يبدأ الإمام فى تفسيره آية آية ، مستشهداً بالحديث ، وكان ذلك الدرس بعد صلاة العصر كل يوم[3] .

وكان لكل أستاذ معيد من نابهى طلبته ، أو ممن تخرجوا على يديه ، أو ممن كان لهم فى العلم تخصص ومعرفة ، وكان كثير من الأساتذة والعلماء الذين تصدوا للتدريس ، وتولوا الأستاذية معيدين فى مدارسهم أو فى مدارس أخرى .

ولم تكن المدرسة ولا المسجد المصدر الوحيد للثقافة والعلم فى ذلك العصر بل شاركتهما المكتبة العامة والخاصة . وكان الاهتمام بالغاً باقتناء الكتب وحفظها فأنشئت دور الكتب فى قصور الخلفاء والسلاطين والأمراء واشتهر منها فى مصر مكتبة القصر الفاطمى ، وقد تحدث عنها المؤرخون ، ولهجت بها ألسن العلماء ، وسار ذكرها فى الخافقين . قال أبوشامة : « وكانت من

---

(1) ابن الدهان عالم جليل من علماء الموصل فى النحو واللغة وتوفى فى القرن السادس الهجرى .

(2) إرشاد الأريب ٦/٢٣٢ .

(3) رحلة ابن جبير ٢٢١ .

عجائب الدنيا ، لأنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التى بالقاهرة فى القصر ، ومن عجائبها أنه كان بها ١٢٢٠ نسخة من تاريخ الطبرى ، ويقال إنها كانت تحتوى على ألف ألف كتاب ، وكان فيها من الخطوط المنسوبة شيء كثير[١] . ويقول العماد الأصبهانى إن بها من الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد ، ، وكانت فى مختلف العلوم والفنون : فى الأدب والشرع والنجوم ، والمنطق ، والعلوم الطبيعية والهندسية ، والتاريخ ، والتفسير ، كما أنها كانت تحوى من الكتب الكبار وتواريخ الأمصار ومصنفات الأخبار مما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مجلداً[٢] وكانت الكتب داخلها محفوظة فى خزائن مقسمة . قال العماد : وخزائنها فى القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف ، مفهرسة بالمعروف[٣] ، وانتهى الأمر بهذه المكتبة العظيمة إلى أن بيعت بالمزاد ، وآل بعضها إلى القاضى الفاضل . وبعضها الآخر إلى العماد الأصبهانى[٤] .

وكان بالحواضر الإسلامية الأخرى غير القاهرة دور كتب مشهورة ، منها دار الكتب الملحقة بنظامية بغداد . وقد تعاقب على سدانتها ، وتولى أمرها جماعة من العلماء الأجلاء والأدباء الفضلاء ، منهم أبو يوسف الإسفرائينى ، وكان شاعراً أديباً (توفى سنة ٤٩٨ هـ) ومحمد بن أحمد الأبيوردى الشاعر الأديب كما كانت ببغداد دار كتب أخرى فى هذا العصر تعرف برباط المأمونية[٥] .

وكان بآمد دار كتب عظيمة حوت ألف ألف وأربعين ألف كتاب[٦] واستولى على نفائسها القاضى الفاضل بعد استيلاء صلاح الدين على البلد ، وقد وقع اختيار الفاضل منها على حمل سبعين بعيراً[٧] .

(١) كتاب الروضتين ١/٢٠٠ وراجع أتابكة الموصل Receilles p.2 – 285 .

(٢) نقله أبو شامة فى الروضتين ١/٢٦٨ .

(٣) نقلها حسن إبراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٤١٢ .

(٤) كتاب الروضتين ١/٢٦٨ .

(٥) إرشاد الأريب ٦/٢٣٥ .

(٦) Saladin: p.172 .

(٧) إرشاد الأريب ٥/١٢١ .

وكانت بأصبهان دار كتب كبيرة بجوار جامعها بناها تاج الملك[1] .

وظل عشق علماء المسلمين للكتب يفوق كل شيء ؛ إذ كانت الكتب المتنفس لهم ، يضمنونها آراءهم ، وكوامن أفكارهم ، لأنه لم تكن لديهم وسائل أخرى لبث هذه الآراء ، فلم تكن طبيعة الحياة الاجتماعية فى هذا العصر تعنى بالاجتماعات والخطب ، كما كان الحال مثلاً فى عصر الجاهلية فى أسواقهم ومواسمهم الكبرى المعروفة كسوق عكاظ مثلاً . وكذلك لم تكن هناك المنتديات السياسية والأدبية التى كانت موجودة فى صدر الدولة الأموية وفى أوائل الدولة العباسية بالكوفة والبصرة والمربد .. كذلك لم تكن هناك صحافة بطبيعة الحال . وقد ذكر فيليب حتىّ أن المسلمين قد وجدوا فى الكتب التسلية الوحيدة ، لأنه لم تكن حياتهم تألف المحافل السياسية ومسارح التمثيل المعروفة منذ القدم فى بلاد اليونان وروما ، مما اقتضى أن تكون الكتب - وحدها تقريباً - السبيل إلى تحصيل المعرفة . ومما يروى عن حب علماء ذلك العصر للكتب وكثرة جمعهم لها أن مكتبة القاضى الفاضل كانت تضم مائة ألف كتاب[2] . وكان القاضى القفطى (٥٧٠ هـ - ٦٤٦ هـ) قد جمع من الكتب مالا يوصف وقصد من أجلها إلى الآفاق ، وكان لا يحب من الدنيا سواها ، وقدرت مكتبته بخمسين ألف دينار . وله حكايات غريبة فى غرامه بالكتب يذكرها صاحب فوات الوفيات[3] . ويقول ياقوت الحموى عنه : « وكان جمّاعة للكتب حريصاً عليها جداً ، لم أر مع اشتمالى على الكتب وبيعى لها وتجارتى فيها - أشد اهتماماً منه بها ولا أكثر حرصاً منه على اقتنائها وحصل منها مالم يحصل لأحد[4] » .

ويروى عن حب المسلمين للكتب أن ابن حمدون الكاتب عندما تقاعد به الدهر ، وبطل عن العمل أخرج كتبه لبيعها وعيناه تذرفان الدمع كالمفارق

---

(١) تاريخ العرب مطول ٣/١٧٠ .

(٢) مرآة الزمان ٨/٤٧٣ .

(٣) فوات الوفيات لابن شاكر ٢/١٩٢ .

(٤) إرشاد الأريب ٢/٢٩٢ .

لأهله الأعزاء ، والمفجوع بأحبابه الأوداء ، وكان معه ياقوت فواساه فرد عليه قائلاً : حسبك يا بني ، هذه نتيجة خمسين سنة من العمر أنفقت في تحصيلها ، وهب أن المال يتيسر والأجل يتأخر وهيهات – فحينئذ لا أحصل من جمعها بعد ذلك إلا على الفراق الذي ليس بعده تلاق . وأنشد بلسان الحال :

هب الدهر أرضاني وأعتب صرفه   وأعقب بالحسنى وفك من الأسر
فمن لي بأيام الشباب التي مضت   ومن لي بما قد مرّ في البؤس من عمري[1]

وكانت للكتب أسواق تباع فيها وتشترى في الحواضر الكبرى ، وقد تقدمت قرطبة على حواضر الإسلام في الأندلس في تجارة الكتب ، وكان أعيانها يتنافسون في شراء الكتب الثمينة[2] ، ويرخصون في سبيلها كل غال .

وكان للعلماء المسلمين أثر كبير في ربط أجزاء العالم الإسلامي المترامية الأطراف من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وكانوا يعتبرون كل بلد يحلون به في هذه الأقطار الشاسعة بلدهم ، وأهله أهلهم ، يقيمون بينهم ويرحلون ولا يشعرون بالاغتراب ، بل كان يرضيهم كل الرضى أن يسعوا إلى مناهل المعرفة في الشرق أو الغرب فيغترفوا منها ، ويأخذوا من أصولها عن علمائها ، ثم يعودوا بعد أن يتزودوا بكل نفيس فيفيدوا ، بما تعلموا ، أبناء البلاد التي يحلون بها . وكان العلماء وطلابهم كالنحل يطوف الأنحاء ليجمع الشهد خالصاً ، وكانت نتيجة هذا التنقل مظاهر فريدة قد لا توجد إلا في التراث العربي والإسلامي ، تلك أن العالم من هؤلاء كان يؤلف في بلد يحل به كتباً يخلفها به ويرويها عنه فيه تلاميذه وقد تجد للعالم الواحد كتباً عدة ، ألف كلا منها في بلد وتركه ، فنسخه وتداوله تلاميذه .

وقد أثرت رحلات العلماء هذه على الحياة الفكرية في الحواضر الإسلامية آثاراً كبيرة ، وجعلت المسلمين وأمراءهم يوجهون عنايتهم إلى هؤلاء العلماء الرحل الوافدين من الشرق ومن الغرب ، فيبنون لهم الربط والمدارس والنزل ،

(١) المصدر نفسه ٣/٢١٠ .
(٢) تاريخ العرب مطول ٣/١٧٠ .

التى تأويهم وتوفر لهم الراحة وتكفل سبل الرزق ليتفرغوا للدرس والعلم ، ولا يشغلهم عنه اهتمامهم بأمور العيش والكسب .

والحديث وطلبه يقف فى أول العوامل التى دفعت العلماء إلى الرحلة . وكان العلماء فى هذا العصر كما قلت – عصر البحث السنى – حريصين على الحديث وعلى السماع من الأئمة المشهورين فيه ، وكان الأئمة والحفاظ أنفسهم يتنقلون فى البلاد . ومن أشهر حفاظ الحديث وأئمته فى العصر الحافظ السلفى نزيل الإسكندرية ، وصاحب المدرسة المشهورة بها ، وأصل الحافظ من بلاد فارس ورحل إلى العراق ثم الشام وجاء إلى مصر فنزل بالقاهرة ثم استقر به المقام آخر الأمر بالإسكندرية ، ووفد إليه جماعة من العلماء المشاهير من الشرق ومن المغرب والأندلس خاصة ، ويستطيع من يراجع معجم السلفى أن يطلع على ما دونه السلفى عن رحلاته وعن شيوخه وتلاميذه الذين كانوا ينزلون بساحته .

ووفد علماء المغرب والأندلس مع مواكب الحجاج للحج ، ولزيارة الأرض المقدسة بالحجاز . وكان طريق الحج من المغرب إما بحراً من الأندلس أو بلاد المغرب إلى الإسكندرية أو أحد موانى مصر الأخرى ، أو براً بحذاء الساحل الشمالى إلى الإسكندرية أيضاً ، وفيها يلتقى الفريقان ، ويسير الركب مصعدين فى النيل إلى القاهرة ثم يصعدون منها إلى الصعيد الأعلى حتى مدينة قوص ، ومنها يتخذون درباً فى الصحراء الشرقية على القوافل متجهين شرقاً صوب عيذاب على شاطىء البحر الأحمر ، ومن عيذاب يركبون المراكب بالبحر إلى جدة ثم إلى مكة ، فالمدينة ويشرقون إلى العراق ، ثم يعودون عن الطريق الشمالى إلى الشام فشواطىء البحر المتوسط ثم يركبون البحر مرة أخرى إلى بلادهم .

وقد هيأ حكام الشرق للحجاج من المسلمين سبل الراحة ، وأعانوا العلماء والفقراء ورجال الصوفية منهم خاصة . وكان العلماء يقابلون فى كل بلد يحلون به فى مصر والشام بالاحترام والإكرام من الناس عامتهم وخاصتهم على السواء .

وتحدث جارسيا جوميز فى كتاب « الشعر الأندلسى » عن رحلة علماء الأندلس والمغرب إلى المشرق فقال : « وكان المشرق إلى ذلك الوقت فى انهيار متصل ، ولم يبق له على الأندلس إلا ظل خفيف من سلطانه الثقافى الأول ، بل حدث عكس ما رأيناه قبلاً من وفود المشارقة على الأندلس حاملين إليه ذخائر العلم والحضارة ، واتجهت الآن موجة الهجرة من الأندلس إلى الشرق ، وحملت موجات الهجرة معها إلى مصر والشام أعلاماً أندلسيين ذوى خطر »[1] . والواقع أن كلام جوميز صحيح إلى حد ما ولكن لا ينبغى أن نسلم به تماماً ، فنقول إن موجة العلم فى الشرق فى عصر صلاح الدين وخلفائه كانت إلى انحسار . وإن ذلك كان السبب فى هجرة علماء المغرب إلى المشرق ، وإنما الواقع أن لهذه الرحلة أسباباً كثيرة ، منها الرغبة فى الحج كما بينا ، ومنها أيضاً تطلع أولئك العلماء إلى حكام الشرق الذين أحبوا العلماء وأكرموا وفادتهم وأغدقوا عليهم أمثال صلاح الدين ، فإن شخصيته كانت قطباً جاذباً جذب إلى مصر كثيراً من العلماء والرجال من بلاد المسلمين الكثيرة النائية ، كذلك أيضاً كان من أسباب وفادة بعض علماء المغرب الرغبة فى الاستزادة من علم المشرق بكنوزه وعلمائه ، فالقاهرة ودمشق وبغداد كانت لا تزال مراكز الإشعاع الفكرى على بلاد المسلمين عامة ، وإن كانت بغداد قد بدأت تخبو جذوتها فى القرن السادس الهجرى إلا أن القاهرة قد أورثها وأصبحت مركزاً هاماً عامراً خلال القرون الثلاثة التالية ، أى إلى القرن العاشر الهجرى قبيل الغزو العثمانى .

وقد تمتع العلماء فى ظل دولة صلاح الدين وخلفائه ببحبوحة العيش وصاروا يختارون للشورى والوزارة ، وكان لآرائهم أثرها فى سير الحوادث . وقد جمع بعضهم كثيراً من المال ، وكانت له الفروة والقصور والجوارى الحسان مما جمعوا من هبات السلاطين والأمراء . ويروى أن ابن نجية أحد علماء الحنابلة فى هذا العصر (توفى سنة ٥٩٩ هـ) كان يملك فى داره عشرين

---

(١) الشعر الأندلسى لجارسيا جوميز مترجم ص ٢٨ .

جارية للفراش ، وكان يعمل فى داره مايعمل فى دور الملوك ، ويعطيه الخلفاء والملوك أموالاً كثيرة[1] .

وتوفر العلماء على التأليف ؛ ونالوا على ما يؤلفون من الكتب تشجيعاً ، فكثر إنتاجهم فى جميع العلوم يروى عن ابن الجوزى أنه ألف فى جميع فروع الثقافة الإسلامية فى عصره تقريباً . ألف فى القرآن والحديث ، والتاريخ ، واللغة والأدب ، والشعر ، والوعظ ، والفقه . وبلغت تصانيفه ثمانمائة « اخترعها وأودعها حكمة وصواباً »[2] . وكثر أمثال ابن الجوزى ، وامتاز بعضهم بأنه جمع إلى جانب أطراف الثقافة الإسلامية والعربية ثقافات أخرى . ومن هؤلاء ابن الخشاب النحوى ، وكان عالماً فى النحو وعالماً بالحديث والتفسير واللغة والمنطق والفلسفة والحساب والهندسة ، « وما من علم من العلوم إلا وكانت له فيه يد حسنة »[3] ، ومنهم كذلك عبد اللطيف البغدادى الرحالة العالم فقد صنف ما يزيد على خمسين كتاباً فى مختلف العلوم والفنون ، والآداب والبلاغة والفلسفة والمنطق والطب والتاريخ والحيوان والنبات والكيمياء والطبيعة والهندسة والرياضيات[4] .

وظهر فى هذا العصر إلى جانب هؤلاء أعلام مخلدون فى التاريخ الأدبى وفى علوم الحديث والفقه والتاريخ والقراءات والتفسير والفلسفة وما إليها ، بل كان فى هذا العصر أعلام كبار فى تاريخ الفكر العربى والإسلامى عامة . ونخص بالذكر من هؤلاء وأولئك الإمام الفخر الرازى ، والإمام الزمخشرى (المتوفى سنة ٥٣٧ هـ) ، والجواليقى ، والشهرستانى ، والنسفى ، والحريرى ، والسهروردى ، وابن فيره الشاطبى ، وابن رشد الفيلسوف .

وكان هذا العصر عصر الأعمال العلمية الضخمة ، أو الموسوعات الكبيرة التى تعتبر مراجع هامة ورئيسية فى علومها ، كذلك امتاز بالشروح الكبرى ، والمبسوطات . ومثالها تفسير القرآن الكبير للفخر الرازى ، وكتاب المبسوط

---

(١) مرآة الزمان ٨/٥١٥ .

(٢) مرآة الزمان ٨/٤٨٩ .

(٣) إرشاد الأريب ٤/٢٨٦ .

(٤) فوات الوفيات ٢/١٧ – ١٨ .

للسرخسى ، « وبدائع الصنائع » فى الفقه الحنفى لعلاء الدين الكاسانى (المتوفى سنة ٥٨٧ هـ) وآخر فى فقه الحنابلة لابن قدامة ، وكتاب « الكامل » لابن الأثير عز الدين فى التاريخ ، وكذلك كتب أخيه مجد الدين فى الحديث ورجاله .

وكان الناس يعجبون بالعلماء ويحرصون على الاستماع إليهم حين يلقون دروسهم بالمساجد أو المدارس ، وصار لدى العامة شغف بالعلم والأدب بصورة ملحوظة طريفة ، وكثيراً ما نقرأ فى هذا العصر عن بعض العامة من الناس ممن لا يحسن القراءة ولا الكتابة ، ومع ذلك ينظم الشعر ويحفظ كثيراً من غريبه بل يروى كثيراً من نوادر المسائل الفقهية ويسمر بها مع العلماء فى مجالسهم . وكان هؤلاء العلماء لا يستنكفون من السماع لهم والأخذ منهم وراوية نوادرهم . ومما يذكر أن الحافظ السلفى بالاسكندرية كان يجلس إليه فى زمنه رجل اسمه شداد أخذ عنه كثيراً من النوادر وقيدها فى معجمه[1] .

وتنافس علماء المذاهب الأربعة فى الدراسات الفقهية فى هذا العصر . وكان بعض هذه المذاهب يغلب على مناطق بعينها ، أو بلاد بأكملها ، ففى مصر مثلاً يغلب مذهب الإمام الشافعى وخاصة بالقاهرة ، وقد وجدت بها مدارس كثيرة للشافعية ، فى حين كان مذهب الإمام مالك يغلب على الإسكندرية وبلاد المغرب والأندلس ، أما العراق وبلاد فارس وسائر المشرق فكان يغلب بها مذهب الحنفية والحنابلة والشافعية . وإلى جانب مذاهب أهل السنة الأربعة وجدت أيضاً مذاهب الشيعة – على الرغم من انهيار الدولة الفاطمية ومن قبلها الدولة البويهية . وقد احتفظت الشيعة بمراكز قوية لهم وسط المحيط السنى فى حلب والعراق وبعض بلاد فارس .

وحدث صراع كبير بين هذه المذاهب جميعاً ، ولم يكن الصراع مقصوراً على مجرد المبادىء أو التعاليم ، صراعاً فكرياً أو كلامياً ، بل ربما تطور إلى صراع حقيقى مادى ، وصدام بين أتباع تلك المذاهب ، فتكون النتيجة خسائر مادية ، وخسائر فى الأرواح ، وذلك مثل ما حدث بين الشافعية والحنفية فى نيسابور ، فقد قتل فيها فى فتنة بينهما من الحنفية سبعون رجلاً[2] .

(١) راجع على سبيل المثال – معجم السلفى مصور ورقة ٨٠ .
(٢) أخبار الدولة السلجوقية ص ١٢٥ .

ويقول أبو شامة فى الروضتين ذاكراً خبر فتنة قامت بين أهل السنة والإسماعيلية فى مصر . قال : « ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الإسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم ، وصاروا لا يقدرون على الظهور من دورهم ، وإذا وجد أحد الأتراك مصرياً أخذ ثيابه ، وعظمت الأذية بذلك ، وجلا أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد »[1] .

ومن العوامل التى أثرت كذلك على الثقافة والعلم فى هذا العصر ، الحروب الطويلة التى استعرت بين الشرق الإسلامى العربى والغرب المسيحى الإفرنجى وكان ميدانها الشرق الأوسط ، ومصر والشام على الأخص ، وكان من آثار تلك الحروب ما كتب العلماء فى الحرب والجهاد ، لحض المسلمين على الدفاع عن أرضهم ودينهم ولغتهم ، كذلك هذه الآثار العديدة فى الأدب شعره ونثره التى كانت من وحى تلك الحروب وسنعرض لها تفصيلاً . كما تأثرت اللغة العربية أيضاً بكثير من الألفاظ اللاتينية الدخيلة نتيجة الاختلاط والاتصال بين الفرنجة والعرب[2] .

٢

عناصر الثقافة

وكانت الثقافة الإسلامية هى الغالبة فى هذا العصر ، وأهم عناصرها القرآن ، والحديث ، والفقه ، واللغة ، والشعر القديم ، والتاريخ .

أما القرآن فقد لقى عناية فائقة ، باعتباره نصاً يحفظ ويتلى فى مناسبات كثيرة غير مناسبات الصلاة والعبادة ، أو للثقافة والدرس . وقد بلغ اهتمام الحكام بالقرآن وحفظه وتلاوته درجة كبيرة ، فقد بنى نور الدين محمود دوراً وأوقفها على قراء كتاب الله عز وجل . وكانت الصبية فى المساجد يعلمون

---

(١) راجع الروضتين ١/١٩٧ .

(٢) Aronld: Legacy of Islam 57

القرآن ، يجلس معلم القرآن مسنداً ظهره إلى سارية بالمسجد . ويجلس أمامه الصبية يلقنهم القرآن[1] . وتجرى عليهم الأرزاق ويكفل لهم العيش .

وكان السلاطين يحرصون على سماع قراء القرآن ويخشعون عند السماع ، كما كان يفعل صلاح الدين ، فقد كان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم حتى إنه كان يتخير إمامه ويشترط عليه أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم متقناً لحفظه ، وكان يستقرىء من يحضره فى الليل الجزبين والثلاثة والأربعة وهو يسمع ، وكان يستقرىء فى مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك[2] .

واشتهر من مفسرى القرآن الإمام « الزمخشرى » (ت ٥٣٨ هـ) صاحب تفسير « الكشاف » و « الفخر الرازى » (توفى سنة ٦٠٦ هـ) و« البيضاوى » (ت سنة ٦٨٥ هـ) .

والعناية بالحديث جلية . ومررنا بإشارات تدل عليها ، وكان الحديث يلى القرآن من حيث الأهمية لأنه عنصر الثقافة الإسلامية الثانى ، ويدلنا ابن حمود (توفى سنة ٦٤٣ هـ) على مدى اهتمام الناس بالحديث فى أوائل القرن السابع فيقول[3] :

اشتغلْ بالحديث إن كنتَ ذافهـ	ـم ففيه المرادُ والإيثارُ
وهو للعلم مَعْلَمٌ وبه بين ذَو	ى الدِّين تحسُنُ الآثار
إنما الرأىُ والقياسُ ظلامٌ	والأحاديثُ للورى أنوارُ
كن بما قد علمتَه عاملاً فالعـ	ـلمُ روضٌ منهن تجنى الثمار
وإذا كنت عاملاً وعليماً	بالأحاديث لم تمسك نارُ

وكان لأهل الحديث وحفاظه دور خاصة ومدارس يسكنها الأساتذة والطلاب كذلك أحب السلاطين والأفراد مصاحبة المحدثين ومجالستهم

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٢ .

(٢) الروضتين ٢١٩/٢ .

(٣) فوات الوفيات ٢٤/٢ ونقله صاحب أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ونسبه إلى عبد المحسن التنوخى (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) .

والسماع عليهم . وكان صلاح الدين أحرصهم على ذلك ، إذ يروى أنه كان شديد الرغبة فى سماع الحديث « ومتى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر مجلسه استحضره وسمع عليه ، وأسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له وإن كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ، ويتجافى عن الحضور فى مجالسهم سعى إليه ، وسمع عليه . وتردد على الحافظ السلفى بالإسكندرية »[1] .

كذلك الفقه ، فقد كانت للناس به عناية خاصة ، وكان للفقهاء مكانة رفيعة عند السلطان نور الدين محمود والسلطان صلاح الدين وملوك بنى أيوب ، وكثيراً ما كان أحدهم يجلس إلى الفقهاء للاستعانة بآرائهم ، وكان للفقهاء بسبب ذلك نفوذ كبير فى دولتهم بلغ بعضهم مكانة عظيمة ، وأصبح مسموع الكلمة ، محترم الرأى والمشورة .

ومن أعلام الفقهاء آنئذ ابن الجوزى ، وابن الصلاح ، وأبناء السهروردى ، والشهرزورى ، والكاسانى ، والسرخسى ، وغيرهم كثيرون .

وفى اللغة نبغ جماعة من الأعلام الكبار كأبى البركات ابن الأنبارى (توفى سنة ٥٧٧ هـ)[2] صاحب الكتب المعروفة ، وابن خروف النحوى (توفى سنة ٦٠٦ هـ)[3] ، والزمخشرى (توفى سنة ٥٣٨ هـ) وابن الخشاب ، والجواليقى ، وابن الشجرى .

كل هؤلاء ألفوا فى اللغة فى فروعها المختلفة مؤلفات ما زالت إلى اليوم موضع تقديرنا ، وتسد فراغاً كبيراً فى دراساتها ، وكانت دراسات اللغة فى هذا العصر متنوعة فكان بعضها تأليفاً عاماً فى فقه اللغة أو فى موضوعات خاصة منها ، وكان بعضها شرحاً للمؤلفات السابقة التى اعتبرت أصولاً فى الدراسات اللغوية والنحوية . ومن أهم كتب السابقين التى لاقت فى هذا

---

(١) الروضتين ٢/٢١٩ .

(٢) ترجمته بالروضتين ٢/٢٧ .

(٣) ترجمته بالجامع المختصر ٩/٣٠٦ .

العصر عناية ، فشرحت كلها أو مقدمتها ، كتب أدب الكاتب لابن قتيبة ؛ فقد شرح مقدمته الجواليقي ، واللمع لابن جني شرحه ابن الشجري[1] ، والخطيب التبريزي[2] ، وشميم الحلي[3] ، ودرّسه ابن الصائغ بحلب[4] ، ومجمل اللغة لابن فارس ، وإصلاح المنطق لابن السكيت ، وفصيح ثعلب . وقد اهتم بالكتاب الأخير أحد تلاميذ عبد القاهر الجرجاني واسمه على بن محمد ودرسه بنظامية بغداد ، ولذلك أطلق عليه اسم الفصيحي[5] لطول تدريسه له ، والأنموذج والمفصل للزمخشري ، وكتاب سيبويه في النحو بطبيعة الحال .

واشتغل بالتاريخ جماعة ، وتعددت ألوانه ، فكان منها التاريخ العام ، وتاريخ البلدان ، والسير ، والطبقات أو كتب الوفيات ؛ فمن اشتغل بالتاريخ العام عز الدين بن الأثير صاحب كتاب الكامل في التاريخ ، وابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) صاحب « المنتظم » ، وابن الساعي صاحب كتاب المختصر . ومن مؤرخي البلدان اشتهر ابن النجار صاحب « ذيل تاريخ بغداد » ، وابن المستوفي صاحب « تاريخ إربل » ، وابن عساكر صاحب « تاريخ دمشق » ، وابن العديم صاحب « تاريخ حلب » وعبد اللطيف البغدادي (المتوفى سنة ٦٢٩ هـ) صاحب « تاريخ مصر » . وممن ألف في السير والتراجم ابن شداد صاحب « سيرة صلاح الدين » المعروفة باسم « النوادر السلطانية » ، وعماد الدين الأصبهاني صاحب كتابي « البرق الشامي » و « الفتح القدسي » ، وابن خلكان صاحب « وفيات الأعيان » وجمال الدين القفطي صاحب « إنباه الرواة » وكمال الدين بن الأنباري صاحب « طبقات النحويين » ، وياقوت الحموي صاحب كتاب معجم الأدباء المعروف باسم « إرشاد الأريب » وابن أبي أصيبعة صاحب معجم الأطباء (توفي سنة ٦٦٨ هـ) .

(١) فوات الوفيات ٧١١/٢ ، إرشاد ٢٤٨/٧ .
(٢) إرشاد ٢٨٧/٧ .
(٣) إرشاد ١٣٨/٥ .
(٤) ابن خلكان ٤٦/٦ .
(٥) إرشاد ٤١٤/٥ .

وأوضح ما ظهر فى الحياة الفكرية لهذا العصر اشتداد دعوة أهل السنة ، ومحاولة تطبيق مناهج الدراسة العربية فى الحديث والسنة على الدراسات الأخرى ، ثم معاداة كل ما جاء إلى العربية والإسلام من علوم دخيلة ، وخاصة ما يتصل منها بالمنطق والفلسفة ، وما يضر منها بأصول العقيدة والعلوم الإسلامية ، ويخرج فى صور دعوات فكرية عقلية مثل دعوة المعتزلة والأشعرية وأمثالهم . وقد أشرنا إلى أن فقهاء السنة يسندهم السلاطين والأمراء لم يسمحوا لأمثال هؤلاء بأن يعيشوا إلى جوارهم ، ولا بتعاليمهم أن يتلقفها الناس .

وشهد العصر صراعاً عاتياً بين أقطاب أهل السنة وأقطاب الأشعرية خاصة ، وكان الأشعرية يضطهدون بصورة فكرية وكلامية أو بصورة مادية عن طريق العمل العنيف من السلطان أو العامة ، وأبرز أمثلة لهذا الاضطهاد مانراه من تعقب نظام الملك لعالمين جليلين هما أبو القاسم القشيرى ، وإمام الحرمين الجوينى لأنهما حاولا التوفيق بين مذهب أهل السنة والمعتزلة[1] . وقد انبرى الغزالى للأشعرية والفلاسفة ، محاولاً تحطيم كل منهما وبهرجة دعائم الدعوة الأشعرية ، والحط من قدر الفلسفة . وكان الغزالى الشافعى المذهب فى الفروع أشعرياً فى الأصول ، ثم عدل بعد تجربته المعروفة إلى معاداة الأشعرية . وحاول الغزالى فى كتاباته بناء العقيدة الإسلامية على أسس جديدة تقوم على التجربة النفسية ، ويهدف إلى الرجوع بالإسلام إلى الروح ، والخلوص من الشوائب التى علقت به ، وقد مكن لطريقة الصوفية المعتدلين من مذاهب أهل السنة ، وصور طريقته هذه فى كتابه « المنقذ من الضلال » وقد بسطها وفصلها تفصيلاً ، ودعم أصولها فى كتابه « إحياء علوم الدين »[2] .

أما هجومه على الفلاسفة فيصوره كتاب « تهافت الفلاسفة » . الذى رد

---

(١) راجع تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ١٢٨/٣ .

وتاريخ آداب اللغة العربية لنيكلسون (بالإنجليزية) ص ٢٧٩ .

Nicholson; A Literary History of Arabs.

(٢) راجع Gibb: Arabic Literature: 85

عليه ابن رشد الفيلسوف بكتاب « تهافت التهافت » . وقد عادى الغزالى الشاعر الفيلسوف عمر الخيام[1] . وهكذا كان الغزالى بمثابة المفكر الكبير والإمام الذى أرسى قواعد المذهب السنى فى القرنين الخامس والسادس ، كما أنه وضع الأسس الجدلية للتصوف فاكتسب به قوة من شهرة الغزالى وعقله وعلمه ، وشيوع كتبه بين الناس . وقد شاع التصوف فى هذا العصر كما رأينا ، وأصبح فى القرنين السادس والسابع غالباً على الاتجاه الدينى ، بل أصبح التصوف تياراً من تيارات الفكر الإسلامى ، ورافداً كبيراً من روافد الأدب كذلك .

والتصوف من الناحية الفكرية جمع كثيراً من الأفكار الدينية عند الأمم القديمة ووفق بينها وبين الإسلام ، كما استعان كذلك ببعض الاتجاهات الفلسفية والأخلاقية ، وقد اشتهر من كبار رجال الصوفية العرب فى هذا العصر السهروردى (المقتول سنة ٥٨٦ هـ) صاحب « حكمة الإشراق » ، و « هياكل النور »[2] وهو صاحب فلسفة الإشراق ، التى يظن أنها أثر من آثار فارسيته وما ورثه من عقائد الفرس القديمة وخاصة عقيدة زرادشت[3] . ومحيى الدين بن عربى (توفى سنة ٦٣٨ هـ) ، وله مؤلفات كثيرة ، وقد أسبغ على الحركة الصوفية إطارها الخيالى[4] .

وعلى الرغم من حملة الفقهاء وعلماء أهل السنة ، وبعض السلاطين والأمراء على الفلسفة والفلاسفة ، تلك الحملة التى بلغت أحياناً درجة الاضطهاد ، إلا أنها مع ذلك ازدهرت فى هذا العصر ، ووجدت لنفسها بيئة تتنفس فيها وتثمر . وقد وجدنا بعض العلماء والأئمة الكبار يهتم بها اهتماماً شديداً ، ويمزج دراساته الدينية بها مثل الإمام فخر الدين الرازى ، فى كتابه "تفسير القرآن" وهو خير شاهد على ذلك . وكان نتيجة لاتجاه الفخر هذا الاتجاه معاداة كثير من جماعات أهل السنة والغلاة منهم خاصة كالكرامية وبعض

(١) راجع Browne: A Literary History of Persia

(٢) راجع ترجمته فى وفيات الأعيان ٥/٣١٢ .

(٣) تاريخ العرب مطول ٣/٦٩٦ .

(٤) ترجمته فى فوات الوفيات ٢/٤٧٩ وراجع تاريخ العرب مطول ٣/٦٥٦ .

الحنفية والشافعية[1] . وقد قام فى وجه بعض خطباء الشافعية مرة وقال للناس : « أيها الناس إنا لا نقول إلا ما صح عندنا عن رسول الله ﷺ ، وأما علم أرسطاطاليس ، وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابى فلا نعلمها »[2] .

ونجد من الفلاسفة الكبار فى هذا العصر جماعة ، كان نصيب المغرب منها أكثر وأوفر من نصيب المشرق ، فقد نبغ هناك فى ظل دولة الموحدين ابن باجه (توفى سنة ٥٣٣ هـ) ، وابن الطفيل (سنة ٥٨١ هـ) ، وابن رشد (توفى سنة ٥٩٥ هـ) وابن ميمون وغيرهم .

وحظيت العلوم العقلية الأخرى بعناية ملحوظة ، مثل الطب ، وعلوم الطبيعيات . ومن أشهر أطباء العصر ابن التلميذ ، وابن ميمون طبيب صلاح الدين . كذلك علوم الرياضيات والفلك ، ومن علمائها عمر الخيام ، وقد عهد إليه السلطان ملكشاه السلجوقى بإصلاح التقويم فوضع التقويم الجلالى ، نسبة إلى جلال الدين ملكشاه ، وذلك لقدرة عمر الخيام وشهرته العريضة فى الرياضة والفلك . وكذلك روى لنا ابن أبى الصلت اهتمام المصريين فى عصره بالطب والفلك . وهكذا كان الحال فى المشرق فى بلاد فارس والعراق ؛ فقد بنى نصير الدين الطوسى مرصداً كبيراً لهذا الغرض فى بلاد فارس[3] .

وكان اهتمام الناس بالفلك – والعامة خاصة – لغرض آخر غير العلم وهو التنجيم ورصد الطالع ، فقد كثر المنجمون ، والمدعون منهم على غير علم وكثرت تبنؤاتهم بالباطل ، وقالوا عن أشياء لم تحدث ، فصاروا ضحكة ، وموضوعاً للسخرية بين الناس . وقال الشاعر الفلكى علاء الدين بن نبهان سند اليشكرى (توفى سنة ٦٨٠ هـ) يفند كذب ما تقول به النجوم[4] :

ولمّا دهانى الخَطْبُ من كل وجهةٍ	وأصبحَ حالى حائلاً مُتَبَدِّلا
عكفتُ على الأفلاك أرجُو معونَةً	بها أو بسعد الكواكِب يَنجلى
فخاطبتُ منها المشترى بعدَ زُهرةٍ	فأصغى إلى ما قلته وتأمَّلا

(١) راجع الفتنة التى أثارها هؤلاء ضده فى كتاب الجامع المختصر ص ٥ – ٦ .

(٢) الجامع المختصر ص ٦ .

(٣) فوات الوفيات ٢/٣١١ .

(٤) فوات الوفيات ٢/١٧١ .

وقد حمل الفقهاء على المنجمين لكذبهم . وكانوا يشكون فى كل من يأخذ بعلم النجوم ، ويدعون الناس إلى عدم أخذ العلم عنهم ، ولا سماع الحديث . قال ياقوت : « قال ابن السمعانى : قرأت على ابن أبى جرادة بحلب ، وخرجت يوماً من عنده فرآنى بعض الصالحين ، فقال لى : أين كنت ؟ قلت : عند الحسن بن أبى جرادة قرأت عليه شيئاً من الحديث ؛ فأنكر على وقال : ذاك يقرأ عليه الحديث ؟ ثم قال : ليته اقتصر على هذا ، بل يقول بالنجوم ويرى رأى الأوائل »[1] .

٣

البيئات العلمية والمراكز الثقافية

اشتهرت فى القرنين الخامس والسادس مجموعة من البيئات العلمية فى أنحاء العالم الإسلامى ، وكان من أسباب قيامها انقسام العالم الإسلامى فى هذين القرنين إلى مجموعة دويلات صغيرة ، لكل دويلة حاضرتها التى حاول حكامها أن يصنعوا منها بغداد أخرى أو قاهرة ، وهكذا أصبحنا نجد مدناً كثيرة مزدهرة بالعلم والعلماء يفدون إليها من كل بلد ، وتنشأ بها المدارس ودور الكتب الكبرى ويتخرج منها العلماء والأدباء فينسبون إليها ويبقى اسمها مع أسمائهم .

الإقليم الشرقى

الشرق :

ونبدأ بالقسم الشرقى من العالم الإسلامى ، ببلاد فارس ، ونبدأ من أقصى هذا الإقليم فنقع على « خوارزم » من أشهر مدن هذا الإقليم فى هذا الوقت ،

(١) إرشاد الأريب ٥/٢٤٤ .

وأكثرها تخريجاً للعلماء الذين كان لهم أثر واضح فى الدراسات الإسلامية ، بل الفكر الإسلامي إلى أمد بعيد . وقد نشأت بها فى ظل الدولة الخوارزمية حركة علمية وأدبية كبرى ، ونافس سلاطينها سلاطين السلاجقة فى إنشاء المدارس والتقرب إلى العلماء والأدباء . وقد أنشأ السلطان خوارزمشاه بها مدرسة للحنفية ، وأسس داراً للكتب . ويروى أحد العلماء أنه درّس خمس سنوات فى مدارسها . وظهر فى عهد سلاطين خوارزم الشاعر الأديب رشيد الدين الوطواط ، وكان يعارض أنورى شاعر السلطان السلجوقى وينافسه . وألف بالعربية والفارسية كتباً ورسائل منها « حدائق السحر » فى النقد بالفارسية . وعلى رأس من خرجتهم من النوابغ فى القرن السادس فخر خوارزم الزمخشرى محمود بن عمر (المتوفى سنة ١١٤٢ م = ٥٣٧ هـ)[١] ، وقد ألف فى تفسير القرآن كتابه المشهور « الكشاف عن حقائق التنزيل » وألف المفصل فى النحو ، والأنموذج ، وفى اللغة كتاب الأمكنة والجبال وغيرها ، وأطواق الذهب ، وفى المحاضرات ربيع الأبرار .

وأهم ما اشتهر به الزمخشرى ، وشغل الناس منه اعتزاله ومحاولة تطبيق آراء المعتزلة فى تفسير الكشاف ، مما أثار موجة من النقد والمعارضة عند معاصريه من علماء السنة ، وقد كان الكشاف محوراً لكثير من الدراسات والتعليقات فى بلاد إسلامية كثيرة – لعل أهمها كتاب ابن المنير السكندرى .

كذلك نبغ فى خوارزم أبو القاسم الخوارزمى شمس المشرق ، والذى قتل نفسه سنة ٥٢١ هـ ، قال ياقوت : وكان أفضل الناس فى عصره فى علم اللغة والأدب لكنه تخطى إلى علم الفلسفة فصار ممقوتاً بين المسلمين[٢] .

ومنها أبو الفتح ناصر الدين بن أبى المكارم الفقيه النحوى الأديب الخوارزمى ولد فى السنة التى توفى فيها الزمخشرى سنة ٥٣٧ هـ وتوفى سنة

---

(١) راجع ترجمته فى وفيات الأعيان ٢٥٤/٤ ، ونزهة الألباء ٤٦٩ وراجع أيضاً .
Browne: A. Lip. Hist. of Persia 292.

(٢) إرشاد الأريب .

٦١٠ هـ ، ولهذا قيل عنه إنه خليفته . وكان رأساً فى الاعتزال داعياً إليه ، وينتحل مذهب أبى حنيفة فى الفروع .

ومنها السكاكى أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر بن محمد (ولد سنة ٥٥٤ هـ) وهو علامة إمام فى العربية والمعانى والبيان والأدب والعروض والشعر ، متكلم فقيه .

ومنها القاسم بن الحسين بن محمد الخوارزمى . ولد سنة ٥٥٢ هـ وقال عنه ياقوت « صدر الأفاضل حقاً ، وواحد الدهر فى علم العربية صدقاً ، ذو الخاطر الوقاد والطبع النقاد ، والقريحة الحاذقة ، والحفيزة الصادقة . برع فى علم الأدب ، وفاق فى نظم الشعر ونثر الخطب . فهو إنسان عين الزمان وغرة جبهة هذا الأوان »[١]

وممن وفد إلى خوارزم من أئمة العصر فخر الدين الرازى (توفى سنة ٦٠٦ هـ)[٢] وقد درس بها .

ومن هذا العرض السريع للحالة العلمية فى خوارزم ولمن نبغ فيها واتجاهاتهم يظهر أن الطابع الغالب عليها كان الدراسات العقلية ، كما كان يغلب عليها الاعتزال ويسيطر على أكثر علمائها . وكان لعلوم الفلسفة والمنطق بها شأن كبير . ولشهرة خوارزم بالاعتزال يقول ياقوت عندما التقى بالقاسم بن الحسين الخوارزمى بخوارزم : « وقلت له : ما مذهبك ؟ فقال : حنفى ولكن لست خوارزمياً ، لست خوارزمياً . – وجعل يكررها – إنما اشتغلت ببخارى فأرى رأى أهلها ، نفى عن نفسه أن يكون معتزلياً ، رحمه الله »[٣]

وإلى الشرق من إقليم خوارزم يوجد إقليم ما وراء النهر (نهر جيحون) وهو إقليم OXUS[٤] . وكان لهذا الإقليم مكانته أيام الدولة الخوارزمية ، وأهم حواضره مدينة سمرقند وهى العاصمة ، ومدينة بخارى المدينة الثانية أو العاصمة

---

(١) إرشاد ١٤٦/٧ .

(٢) ترجمته سبقت ، وفى البداية والنهاية ٥٥/١٣ .

(٣) إرشاد ١٥٤/٦ .

(٤) راجع Le Strange: The Lands of the Eastern Caliphates

الثقافية . ومن سمرقند نبغ جماعة من العلماء والفقهاء فى هذا العصر منهم أبو حامد ركن الدين محمد بن محمد العميدى السمرقندى (توفى سنة ٦١٥ هـ)[١] ويذكر ابن خلكان أنه كان إماماً فى الخلاف خصوصاً البحث ، وأنه أفرده بالتصنيف كما صنف كثيراً من الكتب الأخرى . ونبغ منها فى الأدب محمد بن سليمان قنلمس السمرقندى ، وكان له شعر جيد ، ذكر أمثلة له صاحب فوات الوفيات ، وتولى الحجابة للباب الخليفى ببغداد زمناً وتوفى سنة ٦٢٠ هـ[٢] .

وعرفت بخارى بأنها كانت مركزاً هاماً لأهل السنة فى الإقليم الشرق ، وكانت مشهورة بدراسات الحديث والفقه .

ويلى إقليم خوارزم من ناحية الغرب إقليم خراسان ، وهو أهم أقاليم المشرق حينئذ موقعاً وثروة وعلماً وقد ظهرت أهمية هذا الإقليم خاصة فى القرن السادس الهجرى تحت حكم السلطان السلجوقى سنجر (توفى سنة ٥٥٨ هـ) ، وقد اعتاد سلاطين السلاجقة اتخاذ عواصمهم فى إحدى مدن خراسان الأربع الكبرى وهى بلخ ومرو وهراة ونيسابور . وكان آخرهم سنجر قد استقر فى مرو كبراها[٣] .

ونبدأ الكلام بنيسابور ، « وهى مدينة ذات فضائل جسيمة ، معدن الفضلاء ومنبع العلماء » كما يقول ياقوت[٤] ، وقد ظلت عامرة زاهرة حتى خربها الغزاة سنة ٥٤٨ هـ ثم استعادت مجدها وعزها مرة أخرى وظلت كذلك إلى أن خربها التتر مرة أخرى سنة ٦١٨ هـ بقيادة جنكيزخان[٥] ، وقد عمرت بالعلم والعلماء وأنشئت بها المدارس ، وأهمها النظامية ، أنشأها نظام الملك[٦]

(١) وفيات الأعيان ٣٨٨/٣ .
(٢) فوات الوفيات لابن شاكر ٤١٩/٢ .
(٣) الشرق الإسلامى قبل الغزو المغولى ص ٣٧ .
(٤) معجم البلدان ٣٥٦/٩ .
(٥) المصدر نفسه ٣٥٧/٩ .
(٦) راجع Browne p 294

قبل نظامية بغداد بخمس وعشرين سنة ، ودرس بها الغزالى[1] وإمام الحرمين الجوينى ، وقطب الدين النيسابورى . ومن بين أعيانها الذين تخرجوا فيها نظام الملك نفسه وزميل صباه الحسن الصباح[2]، وعمر الخيام كما خرج بها جماعة من أقطاب الفقه والعلم والأدب . فمن فقهائها الأرغيانى الفقيه الشافعى أبو خضر محمد بن عبد الله (توفى سنة ٥٢٨ هـ) . وقد اشتغل بنيسابور على إمام الحرمين الجوينى ، وبرع فى الفقه وكان إماماً فقيهاً ورعاً[3] ، وأبو محمد ابن يحيى النيسابورى الفقيه الشافعى (قتل سنة ٥٤٨ هـ) « أستاذ المتأخرين . وأوحدهم علماً وزهداً ، تفقه على حجة الإسلام الغزالى ، وبرع فى الفقه وصنف فيه وفى الخلاف ، وانتهت إليه رياسة الشافعية بنيسابور ، ووصل إليه الناس من البلاد ، واستفاد منه خلق كثير »[4] وكان يدرس بالنظامية . ومنها أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى ، وكان إماماً فقيهاً متكلماً على مذهب الأشعرى (توفى سنة ٥٤٨ هـ)[5]، وقطب الدين النيسابورى مسعود بن محمد (توفى سنة ٥٧٨ هـ)[6]. وقد أخذ بها على غير واحد من أئمتها ، وسمع الحديث ، ودرس بالنظامية على الجوينى وسافر بعد ذلك إلى بغداد ودمشق سنة ٥٤٠ هـ ، ثم خرج إلى حلب ودرس بها وصنف كتاباً فى الفقه ، واتصل بالسلطان صلاح الدين ، وجمع له عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه فى أمر دينه ، وتوفى بدمشق .

ومن علمائها فى اللغة والأدب الميدانى أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (توفى سنة ٥١٨ هـ)[7] وكان أديباً فاضلاً ، عارفاً باللغة ، أتقن فن العربية وأمثال العرب ، وله فيها التصانيف المفيدة ، ومنها كتابه المشهور

---

(١) وفيات الأعيان ٣٥٤/٣ .

(٢) راجع Browne 363 .

(٣) وفيات الأعيان ٣٥٨/٣ .

(٤) وفيات الأعيان ٣٥٩/٣ - ٣٦٠ .

(٥) وفيات الأعيان ٤٠٣/٣ .

(٦) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢٦٩/٣ .

(٧) وفيات الأعيان ١٣٠/١ ، ونزهة الألباء ٤٦٦ - ٤٦٧ .

« مجمع الأمثال » و « نزهة الطرف فى فن الصرف » وغيرها ، والبيهقى أحمد ابن على بن أبى جعفر (توفى سنة ٥٤٤ هـ)[1] وكان إماماً فى القراءة والتفسير والنحو واللغة ، صنف ، التصانيف فى ذلك وانتشرت عنه فى البلاد ، وكان ملازماً بيته والمسجد القديم بنيسابور ، ومن مؤلفاته « المحيط بلغات القرآن » و « ينابيع اللغة » ، يقول ياقوت : « جرد فيه صحاح اللغة من الشواهد ، وضم إليه من (تهذيب اللغة) و (الشامل) لأبى منصور الجبان و (المقاييس) لابن فارس قدراً صالحاً من الفوائد ، وهو كتاب صالح كبير الحجم يقرب حجمه من (الصحاح) » . والبيهقى على بن زيد (المتوفى سنة ٥٦٥ هـ) وقد وصل إلى نيسابور وتعلم بها ثم خرج منها ، وتردد عليها أكثر من مرة ، وبقى بها مدة كبيرة يدرس بجامعها القديم وبعض المساجد الأخرى [2].

مـــرو :

أما مرو وهى كبرى مدن الإقليم فيسميها ياقوت مرو العظمى[3] لـ أشهر مدن خراسان ، وقصبتها ، وكان سنجر قد اختارها دون سائر بلاد سلطنته وأقام بها ومازال مقيماً إلى أن مات . وبمرو جامعان أحدهما للحنفية والآخر للشافعية ، مر بها ياقوت الحموى ، وأقام وأعجب بها وبما فيها من علم وعلماء وكتب نفيسة . يقول : « فإنى فارقتها وبها عشر خزائن للوقف لم أر فى الدنيا مثلها كثرة وجودة » وكانت خزائن كتبها ملحقة بالمساجد أو بالمدارس ، وكان بها مدرسة نظامية بها مكتبة ، وكان الاطلاع على هذه الكتب ممكناً دون قيود . يقول ياقوت : « وكانت سهلة التبادل ؛ منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن تكون قيمتها مائتى دينار ، فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها »[4].

« وخرّجت مرو من الأعيان وعلماء الدين والأركان مالم تخرج مدينة

---

(١) إرشاد الأريب ٤١٤/١ .

(٢) المصدر السابق ٢١٠/٥ .

(٣) معجم البلدان ٣٣/٩ .

(٤) معجم البلدان ٣٦/٩ .

مثلهم[1] » ومن هؤلاء المؤرخ النسابة إسماعيل بن الحسين[2] ومن كتبه التاريخية « خطوة الفرس » نحو ستين مجلداً ، و « بستان الشرف » و « غنية الطالب فى نسب آل أبى طالب » ، و « الموجز فى النسب » ، وكتاب « الفخرى » صنفه للفخر الرازى ، وكتب كثيرة فى الأنساب والطبقات وتفرد بمرو بالتصدر لإقراء العلوم على اختلافها فى منزل ينتابه الناس على حسب أغراضهم ؛ فمنهم قارىء اللغة ومتعلم النحو ، ومصحح الفقه ، وناظر فى النجوم وناظر فى الأصول وغير ذلك . يقول ياقوت : « وله شعر كسائر العلماء » وتوفى بعد سنة ٦١٤ هـ ، فقد اجتمع به ياقوت فى هذه السنة . ومنها إسماعيل بن الحسين البيهقى[3] ، وكان جامعاً لفنون الآداب ، حائزاً لمفاتيح الحكمة وفصل الخطاب . أقام وتوطن بمرو ، وطريقه فى الفقه مستقيم ، وله كتب فى غرائب الحديث واللغة والخلاف .

ومن أدباء مرو أحمد بن محمد بن القاسم الإخسيكثى (توفى سنة ٥٢٨ هـ)[4] يقول ياقوت : « كان هو وأخوه ذو المناقب محمد أديبى مرو غير مدافعين ، يقر لهما بذلك كلهم ، قدما مرو وسكناها إلى أن ماتا ، وكان أحمد شاعراً أديباً مصنفاً كاتباً مسترسلاً فى ديوان السلاطين .

ومن نسابها المشهورين المذكورين السمعانى تاج الإسلام أبو سعد عبد الكريم بن محمد (المتوفى سنة ٥٦٢ هـ) وصاحب كتاب « الأنساب » المشهور (وهو مروزى شافعى ، صنف التصانيف الحسنة الغزيرة الفائدة فمن ذلك غير الأنساب « ذيل تاريخ بغداد » و « تاريخ مرو » وهو يزيد على ٢٠ مجلداً[5] . وخرج منها جماعة آخرون أقل شهرة .

---

(١) المصدر نفسه ٣٥/٩ .

(٢) إرشاد ٢ /٢٦٣ .

(٣) المصدر نفسه ٢٦١/٣ .

(٤) المصدر نفسه ١١١/٢ .

(٥) وفيات الأعيان ٣٧٩/١ .

إقليم الجبل - أصبهان :

ويلى هذا الإقليم العراق شرقاً ، وهو أكثر تلك الأقاليم السابقة صلة بالحياة العربية الإسلامية منذ قديم الزمان ، وأكبر مدينة به هى مدينة « أصبهان » ، وهى مدينة قديمة عظيمة ، لها شهرتها فى الأدب العربى والتاريخ العربى والإسلامى لما خرجت من العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء ، ولما دار فيها من الأحداث الكبيرة ، وما روى حولها وحول أهلها من الأخبار والطرائف .

واشتهرت فى هذا العصر (فى القرنين السادس والسابع) بتخريجها عدداً كبيراً من حفاظ الحديث ، ولكنها لم تعرف ازدهارها بالثقافة كما كانت فى سابق عهدها . يقول ياقوت : « وقد فشا فيها الخراب » ، ويعزوه لما كان بين أهلها من الاضطرابات بسبب العصبيات المذهبية ، وخاصة بين الشافعية والحنفية[1] .

ونشأ بها سلمان بن عبد الله الحلوانى النهروانى (المتوفى سنة ٤٩٣ هـ) وكان عالماً فى النحو واللغة ، واستوطن أصبهان ، وأخذ عنه الحافظ السلفى ، وله كتب كثيرة منها « تفسير القرآن » وكتاب فى القراءات ، « والقانون » فى اللغة فى عشرة مجلدات ، يقول ياقوت إنه لم يصنف مثله ، و « شرح الإيضاح » لأبى على الفارسى و « شرح ديوان المتنبى » ، و « الأمالى » .

ومنها إسماعيل بن محمد بن أحمد الوثابى (المتوفى سنة ٥٣٣ هـ) ، وهو أديب شاعر مذكور ، معروف بسرعة خاطره وحضور بديهته ، وتروى له فى ذلك أخبار وأشعار .

ومنها الحافظ أحمد بن محمد السلفى نزيل الإسكندرية (ولد سنة ٤٧٢ وتوفى بالإسكندرية سنة ٥٧٦ هـ) صاحب المدرسة السلفية المعروفة باسمه ، والعالم الكبير والمحدث المعروف فى دولة صلاح الدين .

ومنها أبو الفتوح أسعد بن أبى الفضائل محمود بن خلف العجلى الشافعى الواعظ (المتوفى سنة ٦٠٠ هـ) من الفقهاء الموصوفين بالزهد . وقد تبحر فى

---

(١) معجم البلدان لياقوت ٢٦٩/١ .

العلوم وصنف عدة تصانيف منها « شرح مشكلات الوسيط ، والوجيز للغزالى » وتكلم فى المسائل المشكلة فيها . وله كتاب « تتمة التتمة » لأبى سعد المنزلى .

ويقول ابن خلكان[1] : « وعليه كان الاعتماد فى الفتوى بأصبهان »، ومحمد ابن محمد بن حامد العماد الأصبهانى (المتوفى سنة ٥٧٩ هـ) ، وهو الكاتب المنشىء المؤرخ الشاعر ، أخذ على شيوخ العلم والأدب فى بلده ، وفى النظامية ببغداد ، واتصل بالملوك والأمراء ، وكان أول من اتصل بهم الوزير عون الدين ابن هبيرة ببغداد ثم السلطان نور الدين محمود ، والسلطان صلاح الدين الأيوبى ، وكان هو والقاضى الفاضل فرسى رهان فى دولة صلاح الدين فى العلم والأدب والجاه ، والمنزلة . تولى التدريس بدمشق بمدرسة « العمارية » ، وكان ينشىء رسائله بالعربية والفارسية ويجيد فيها وله شعر جيد .

ومصنفاته كثيرة أشهرها : « خريدة القصر وجريدة العصر » ذيل بها « دمية القصر » للحظيرى الوراق ، وقصرها على تراجم شعراء الشام والعراق ومصر والجزيرة والمغرب وفارس ممن كان بعد المائة الخامسة إلى ما بعد سنة ٥٧٠ هـ ، فى عشرة مجلدات و « البرق الشامى » وهو تاريخ بدأ فيه بذكر نفسه ورحلته ، وأخباره مع نور الدين وصلاح الدين وذكر بعض الأحداث والفتوحات . و « الفيح القسى فى الفتح القدسى » فى فتح بيت المقدس و « نصرة الفطرة وعصر القطرة » فى أخبار الدولة السلجوقية[2] .

ومحمد بن محمود بن محمد العقبة العالم (المتوفى سنة ٦٨٨ هـ) انتهت إليه الرياسة فى معرفة الأصول ، وشرح « المحصول » للفخر الرازى شرحاً كبيراً ، وله كتاب « القواعد » فى أصول الدين والفقه والمنطق والخلاف ، وهو أحسن تصانيفه ، وكتاب « غاية المطلب » فى المنطق . وقد جاب بلاد العراق

---

(١) وفيات الأعيان ١٨٨/١ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت طبع الرفاعى ١٩/١٩ .

والشام ومصر ، وولى قضاء قوص ومنبج والكرك ، ودرس بالصالحية وبمسجد الحسين بالقاهرة[1] .

وممن نزل بها من علماء العصر الحافظ ابن عساكر الدمشقي المشهور . وقد بقي بها زمناً وحدث وعلم . كذلك نزلها العلامة ابن النجار محمد بن محمود ابن الحسن ، المؤرخ صاحب « تاريخ بغداد » الذى ذيل به تاريخ الخطيب البغدادى .

همـــــذان :

وهى ثانية مدينة فى هذا الإقليم[2] . وتقع على مرتفع من الأرض ، لذلك فهى شديدة البرد شتاء ، وخرّجت جماعة من العلماء والأدباء الأفاضل ممن نسب إليها .

ومن علمائها فى هذا العصر محمد بن أبى عثمان موسى الحازمى[3] (المتوفى سنة ٥٨٤ هـ) أحد الحفاظ المتقنين وعباد الله الصالحين أخذ على شيوخ العلم بهمذان ، ثم تفقه فى بغداد على الشيخ جمال الدين بن فضلان وسمع الحديث على جماعة من المحدثين ، وسعى لطلبه فى عدة بلاد فرحل إلى الشام وفارس . وحل بأصبهان وكثير من بلاد أذربيجان . غلب عليه الحديث وألف فيه وفى غيره كتباً منها : « الناسخ والمنسوخ » فى الحديث ، وكتاب « الفيصل » فى مشتبه النسبة ، و « العجالة » فى النسب و « ما اتفق لفظه وافترق معناه » فى الأماكن والبلدان المشتبهة الخط ، وكتاب « سلسلة الذهب » فيما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن الإمام الشافعى ، و « شروط الأئمة » وغير ذلك .

ومنها أبو يعقوب يوسف بن أيوب .. ابن وهرة الهمذانى (المتوفى سنة

---

(١) فوات الوفيات ٢ - ٢٦٤ .

(٢) معجم البلدان لياقوت .

(٣) وفيات الأعيان ٣/٤٢١ .

٥٣٥ هـ)[1] الفقيه العالم الزاهد الربانى ، تلقى العلم فى همذان وفى بغداد ، وجلس للتدريس فى النظامية ببغداد سنة ٥١٥ هـ . وكان له رباط بمدينة مرو واجتمع إليه فيه جماعة من الصالحين ، وكان يعظ الناس ويهديهم واعتنق الصوفية وعظم فيها شأنه . وقضى حياته متنقلاً بين مرو وهراة وبغداد .

إقـــليم الوســـط

العـراق والشـــام ومصـــر

وإقليم الوسط الذى قامت به دولة صلاح الدين كان أكثر الأقاليم الثلاثة نشاطاً ، وخاصة الأيوبية ، فقد توافد إليه العلماء من كل صوب من الإقليمين الآخرين ، وزادت به المدارس زيادة كبيرة ؛ وراجت سوق العلم والأدب ، وعظم شأن كثير من البلاد ، وصارت محجة لطالبى العلم والمتأدبين ، وأهم حواضر هذا الإقليم فى العراق بغداد والموصل وأربل وسنجار .

العــــــراق

بغـــــداد :

فأما بغداد ، فكانت لا تزال حاضرة الدولة العباسية ، وارثة الثقافة العريقة والحضارة الزاهرة فى عصر الدولة العامرة فى القرنين الثالث والرابع وقد بنى بها نظام الملك فى النصف الثانى من القرن الخامس سنة (٥٤٩ هـ) مدرسته النظامية ، وكانت أهم المدارس التى ابتناها جميعاً وأبعدها ذكراً . وأكبرها أثراً ؛ فقد ألحقت بها دار عامرة للكتب ، قام على خزانتها جماعة من المشهورين الأجلاء[2] وكانت النظامية بالجانب الشرقى من بغداد ، وأقام بها ودرس الأدب

---

(١) وفيات الأعيان ٧٦/٦ .

(٢) معجم الأدباء ١٠٤/٥ والجامع المختصر ١٦٠/٩ .

أبو منصور الجواليقي (المتوفى سنة ٥٣٩ هـ) ، وشيخه التبريزي[1] ، ودرس بها علي بن أبي زيد القصيمي[2] ، وابن الجوزي وآخرون كثيرون . وفد إليها طلاب العلم من المغرب ومصر والشام ، ومن بلاد المشرق ، فكانت كعبة للعلم في القرنين الخامس والسادس .

وكان إلى جانب النظامية مدارس أخرى عديدة ، أكثرها في الجانب الشرقي أيضاً من دجلة . قال ابن جبير إن عدتها كانت نحو ثلاثين مدرسة في أيامه « وما منها مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع عنها ، وأعظمها وأشهرها النظامية ، وهي التي بناها نظام الملك ، وجددت سنة ٥٠٤ هـ ، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة على الفقهاء المدرسين بها ، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم »[3] .

وساعدت حياة الرخاء والرفاهية ، وما نالته بغداد من الشهرة في آفاق العالم الإسلامي على رغبة العلماء والطلاب في الذهاب إليها وتلقي العلم بها ؛ وقد وصف لنا ابن جبير ما تركته هذه المدينة في نفسه عند ذهابه إليها من أحاسيس وانعكاسات مبهجة لما فيها من الحياة الزاهرة والزاخرة بأنواع السرور والبهجة ، حتى اشتهرت في آفاق العالم الإسلامي بذلك ؛ وأصبح اسمها علماً على البهجة والأناقة والأنس والسرور ، يقول ابن جبير : « وكنا سمعنا أن هواء بغداد ينبت السرور في القلب ويبعث النفس دائماً على الانبساط والأنس ، فلا تكاد تجد فيها إلا جذلان طرباً ، وإن كان نازح الدار مغترباً »[4] .

ومن علماء اللغة بها ابن الدهان أبو محمد سعيد بن المبارك النحوي البغدادي (المتوفى سنة ٥٦٩ هـ) ، وكان في زمنه في بغداد يرجح على معاصريه من النحويين مثل ابن الجواليقي وابن الخشاب وابن الشجري ، وله كتب في اللغة والنحو والأدب منها : « شرح الإيضاح والتكملة » . يقول ابن خلكان : وهو مقدار ثلاثة وأربعين مجلداً ، ومنها « الفصول الكبرى »

---

(١) المصدر نفسه ١٩١/٧ وابن خلكان ٢٣٨/٥ .

(٢) نزهة الألباء ٤٤٨/٦ .

(٣) رحلة ابن جبير ٢٢٩ .

(٤) المصدر نفسه ٢١٦ .

و « الفصول الصغرى » ، وشرح « كتاب اللمع » لابن جنى شرحاً كبيراً يدخل فى مجلدين وسماه الغرة ، يقول ابن خلكان : ولم أر مثله كثرة شروح ، وكتاب « العروض » فى مجلدة . وكتاب « الدروس فى النحو » فى مجلدة ، وكتاب « الرسالة السعيدية فى المآخذ الكندية » يشتمل على سرقات المتنبى من أبى تمام »[1]، وكتاب تذكرته سماه « زهرة الرياض » فى سبع مجلدات ، وكتاب « الغنية فى الضاد والظاء » و « العقود فى المقصور والممدود » « والراء » ، و « الغنية فى الأضداد » وكان لابن الدهان هذا حفيد سمى باسمه كذلك ويسمى بابن الدهان الأصغر[2]وهو أبو بكر المبارك بن أبى طالب المبارك بن سعيد النحوى الضرير الواسطى ، وقد حفظ القرآن ، وأتقن القراءات ثم قدم بغداد وسكنها وأخذ عن علمائها أمثال ابن الخشاب البغدادى ؛ والكمال ابن الأنبارى ، قال ابن خلكان « وجل ما أخذ عنه » ، وقد درس بالنظامية ، وكان يحسن الحديث بكل لغة ، وكان شاعراً مجيداً (توفى سنة ٦١٢ هـ) . وأخذ عنه ياقوت .

ومنهم التبريزى[3]يحيى بن على بن محمد (توفى سنة ٥٠٢ هـ) وكان أحد الأئمة فى النحو واللغة والأدب ، وكان حجة صادقة مثبتاً ؛ رحل إلى أبى العلاء المعرى وأخذ عنه . وكذلك أخذ عن عبد القاهر الجرجانى وأخذ عنه أبو منصور الجواليقى ، ودخل مصر فى عنفوان شبابه فقرأ بها على ابن بابشاذ النحوى ، ثم رجع إلى بغداد فأقام بها إلى أن مات ، وكان له معرفة تامة بالأدب إلى جانب النحو واللغة .

وأخذ عنه جماعة مثل ابن الدهان سعيد بن المبارك ، والخطيب الحافظ أبو بكر أحمد بن على بن ثابت صاحب تاريخ بغداد ، وأبى منصور الجواليقى .

---

(١) هذا الكتاب ألف ضياء الدين فى الرد عليه كتاباً سماه « الاستدراك فى الأخذ على المآخذ الكندية » وهو مخطوط منه صورة بمكتبة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية . وقد نشر أخيراً وقام على تحقيقه الدكتور حفنى شرف ط نهضة مصر بالفجالة/القاهرة .

(٢) ترجمته وفيات الأعيان ٣/٣٠٠ وإرشاد ٦/٢٣٢ .

(٣) ترجمته فى ابن خلكان ٥/٢٣٨ وإرشاد ٧/٢٦٨ .

وصنف فى الأدب كتباً كثيرة منها « شرح الحماسة » ، و « شرح ديوان المتنبى » و « شرح سقط الزند » لأبى العلاء المعرى ، و « شرح المعلقات السبع » و « شرح المفضليات » . وله فى الحديث « تهذيب غريب الحديث » وفى اللغة « تهذيب إصلاح المنطق » ، وله فى النحو مقدمات حسنة قصد بها أسرار الصنعة وله فى العروض « الكافى فى علمى العروض والقوافى » .

ودرس الأدب بالنظامية ، وانتهت إليه الرياسة فى اللغة والأدب وسار ذكره فى الأقطار ، ورحل إليه الناس ، وكان – كما يقول ياقوت – يدمن شرب الخمر ، ويلبس الحرير والعمامة المذهبة ، وكان الناس يقرءون عليه تصانيفه وهو سكران .

والفصيح الاستراباذى أبو الحسن على بن أبى زيد النحوى (المتوفى سنة ٥١٦ هـ) ، أخذ النحو عن عبد القاهر الجرجانى ، وتبحر فيه حتى صار أعرف زمانه به . قدم بغداد واستوطنها ، ودرس النحو بالنظامية ، وانتفع به خلق كثير ، وأخذ عنه جماعة منهم ملك النحاة الحسن بن صافى ، كما روى عنه الحافظ أبو طاهر السلفى الأصبهانى نزيل الإسكندرية ، وألف كتباً كثيرة فى الأدب وغيره[١] .

وابن الخشاب عبد الله بن أحمد بن الخشاب البغدادى (المتوفى سنة ٥٦٧ هـ) العالم المشهور فى الأدب والنحو والتفسير والحديث والنسب ، والفرائض والعلوم وله فيها اليد الطولى . وألف فيها شرح الجمل فى النحو لعبد القاهر الجرجانى وسماه « المرتجل فى شرح الجمل » ، و « شرح اللمع » لابن جنى ولم يكمله ، ويقول ابن خلكان إنه كانت فيه بذاذة وقلة اكتراث بالملبس والمأكل[٢] .

والجواليقى موهوب بن أحمد بن محمد (المتوفى سنة ٥٣٩ هـ)[٣] وكان

---

(١) وفيات الأعيان ٢٤/٣ .

(٢) وفيات الأعيان ٢٨٨/٢ .

(٣) وفيات الأعيان ٤٢٤/٤ – ٤٢٦ وإرشاد ١٩٩/٧ .

إماماً فى اللغة وفنون الأدب . ويقول ابن خلكان : « إنه من مفاخر بغداد . قرأ الأدب على الخطيب التبريزى ، ودرسه بالنظامية بعد شيخه ، التبريزى وكان فى اللغة أمثل منه فى النحو ، وأخذ عنه الكندى وابن الأنبارى ، وله مصنفات مشهورة منها « شرح أدب الكاتب لابن قتيبة » و « المعرب من الكلام » . قال ابن خلكان : « ولم يعمل فى جنسه أكثر منه » و « تتمة درة الغواص للحريرى » وسماه « التكملة فيما يلحن فيه العامة » . وكان يختار فى مسائل النحو مذاهب غريبة وكان إماماً للخليفة المقتفى يصلى به الصلوات الخمس ، وألف له كتاباً لطيفاً فى علم العروض ونشأ ابنه إسماعيل (المتوفى سنة ٥١٥ هـ) مثله ، وكانت له حلقة بجامع القصر يدرّس فيها ؛ كما علم أبناء الخلفاء كأبيه[١].

وملك النحاة الحسن بن أبى الحسن الصافى (المتوفى سنة ٥٦٧ هـ)[٢]، ولد ببغداد وقدم دمشق ثم خرج منها وعاد إليها فاستوطنها إلى أن مات . وقد ألف فى اللغة والنحو والعروض والفقه كتباً عدة منها : « كتاب الحاوى فى النحو » وكتاب « العمدة فى النحو » . قال ياقوت : « وهو كتاب نفيس » و « المقتصد فى التصريف » . و « أسلوب الحق فى تعليل القراءات العشر وشىء من الشواذ » و كتاب « التذكرة السفرية » انتهت إلى أربعمائة كراسة ، وكتاب العروض مختصر محرر ، وكتاب فى الفقه على مذهب الشافعى سماه « الحاكم » فى مجلدتين ، ومختصر فى أصول الفقه ، ومختصر فى أصول الدين وديوان شعر . وكتاب مقامات حذا فيه حذو الحريرى .

والعكبرى أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبرى (المتوفى سنة ٦١٦ هـ)[٣]، ولد ببغداد وأقام وأخذ النحو عن أبى محمد بن الخشاب وعن غيره من مشايخ بغداد فى عصره وسمع الحديث من أبى الفتح محمد بن عبد الباق المعروف بابن البطى . وكان فقيهاً حنبلى المذهب ، ضريراً ، اشتغل بالنحو وبرع فيه وصنف مصنفات مفيدة كثيرة منها : « شرح الإيضاح » لأبى على

---

(١) فى تاريخ بغداد للدبيثى ص ٢٤٧ .

(٢) إرشاد ٧٥/٣ .

(٣) وفيات الأعيان ٢٨٦/٢ .

الفارسي ، و « شرح ديوان المتنبي » و « إعراب القرآن » في مجلدين ، و « إعراب الحديث » ، و « شرح اللمع لابن جني » ، و « اللباب في علل النحو » ، و « إعراب شعر الحماسة » ، وشرح المفصل للزمخشري وشرح الخطب النباتية » و « شرح المقامات للحريري » . وقد اشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به واشتهر اسمه في البلاد .

وابن الجوزي عبد الرحمن بن محمد بن علي (المتوفى سنة ٥٩٨ هـ) ، وكان عالماً جامعاً ديناً زاهداً واعظاً حسن الوعظ . لقيه ابن جبير وسمع عنه وأعجب به ، وصنف في علوم مختلفة كالتفسير والحديث والتاريخ ، وله تفسير كبير يسمى « المعين » في واحد وثمانين جزءاً ، قال سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان « ولكنه لم يبيضه » . وله في الحديث كتب ، وفي الفقه كتاب « الإنصاف في مسائل الخلاف » و « البازي الأشهب » و « لقطة العجلان » ، ومجموع مؤلفاته في هذا العلم كما قال صاحب المرآة عشرون كتاباً[1] ، وله تسعة كتب في اللغة ، وله في التاريخ كتاب « المنتظم » ، و « مناقب بغداد » وكلاهما مطبوع ، وكتاب « الفخر النوري » في سيرة نور الدين محمود ، و « المجلد الصلاحي » في سيرة صلاح الدين الأيوبي .

وابن النجار البغدادي محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله (ولد سنة ٥٧٨ هـ) الحافظ الكبير صاحب تاريخ بغداد ، وله كتاب الرحلة الواسعة إلى الشام ومصر والحجاز وأصبهان وخراسان ومرو وهراة ونيسابور ، وكتابه في تاريخ بغداد ، ذيله على كتاب الخطيب البغدادي واستدرك عليه فجاء في ثلاثين مجلداً[2].

وابن شداد[3] صاحب كتاب « النوادر السلطانية » في سيرة صلاح الدين . ولد بالموصل وأخذ الحديث والعلم عن أئمة عصره ثم انحدر إلى بغداد بعد تمام تأهله ، ونزل بالمدرسة النظامية ، وترتب فيها معيداً بعد وصوله إليها

---

(١) مرآة الزمان ٤٨٥/٨ .
(٢) فوات الوفيات ٥٢٢/٢ .
(٣) وفيات الأعيان ٨٥/٦ .

بقليل ، وأقام معيداً نحو أربع سنين والمدرس بها يومئذ أبو نصر أحمد بن عبيد الله الشاشي . وعزل عنها سنة ٥٦٩ هـ وتولى أحمد بن إسماعيل القزويني وابن شداد مستمر بها على الإعادة ، ثم خرج من بغداد إلى الموصل سنة ٥٦٩ هـ فترتب مدرساً بإحدى مدارسها . وله غير « النوادر السلطانية » كتاب فى الأقضية سماه « ملجأ الحكام عند التباس الأحكام » وكتاب آخر فى فضائل الجهاد . وقد ولاه صلاح الدين قضاء العسكر والحكم بالقدس سنة ٥٨٤ هـ ، ثم ذهب بعد وفاته إلى حلب حيث صحب ابنه الظاهر صاحبها وبقى بها إلى أن مات .

وياقوت الحموى الرومى أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (المتوفى سنة ٦٢٢ أو سنة ٦٢٦ هـ) أسر من بلاده صغيراً ، وابتاعه فى بغداد تاجر اسمه أبو منصور الجيلى ، وعلمه الحساب والكتابة وجعله فى الكتاب لينتفع به فى ضبط تجارته ، ولما كبر ياقوت قرأ شيئاً من النحو واللغة ، وشغله مولاه بالأسفار فى متاجره ، ثم جرت بينه وبين مولاه نبوة فأبعده عنه وذلك سنة ٥٩٦ هـ ، فاشتغل بنسخ الكتب بالأجرة ، وحصل بالمطالعة على فوائد كثيرة ، ومات مولاه التاجر بعد ذلك فحصل على بعض ماله .

وسافر ياقوت فى البلاد الإسلامية من مشرقها إلى مغربها . سافر إلى دمشق وحلب والموصل وإربل وخراسان وأقام بها وكان يتجر ، واستوطن مرو مدة وخرج إلى نيسابور ثم إلى خوارزم ، وصادفه وهو هناك خروج التتر سنة ٦١٦ هـ فهرب منها إلى الموصل ، فتقطعت به الأسباب وأعوزه دفء المأوى وخشن الثياب ، وأقام بالموصل مدة مديدة ثم انتقل إلى سنجار ثم حلب وأقام بظاهرها فى الخان إلى أن مات .

وقد قرأ فى صغره القرآن وشيئاً من الأدب ، وكان حسن الخط ، قال الشعر وأكثر النظم منه فى الغزل والتصابى وذكر المحبة وراق شعره وحفظته الناس ، وكانت أشعاره سائرة يتغنى بها ، وهى رقيقة لطيفة . وقد لقب نفسه بعبد الرحمن بعد اشتهاره فى الأدب ، وظل مقيماً بالمدرسة النظامية ببغداد زمناً . وله المصنفات الواسعة فى الأدب والتراجم والبلدان مثل « معجم

الأدباء » وسماه « إرشاد الأريب لمعرفة الأديب » و « معجم البلدان » ، و « معجم الشعراء » و « المشترك وصفاً المختلف صقعاً » وهو من الكتب النافعة وله فى التاريخ كتاب « المبدأ والمآل » ، وكتاب « أخبار المتنبى » .

والدبيثى أبو عبد الله محمد بن سعيد (المتوفى سنة ٦٣٧ هـ)[1] سمع الحديث عن أئمته ، وعلق منه التعاليق المفيدة ، وكان فى الحديث وأسماء رجاله من الحفاظ المشهورين ، وصنف كتاباً جعله ذيلاً على كتاب السمعانى فى الأنساب وعلى تاريخ بغداد للخطيب وذكر فيه ما أغفلاه أو جاء بعدهما ، وهو فى ثلاثة مجلدات . وصنف تاريخاً وسيطاً .

ومن الأطباء ابن التلميذ أبو الحسن هبة الله بن أبى الغنائم النصرانى (المتوفى سنة ٥٦٠ هـ) ذكره العماد الأصبهانى فقال : « سلطان الحكماء » ، وبالغ فى الثناء عليه ، وقال إنه مقصد العالم فى علم الطب وأبقراط عصره وجالينوس زمانه ختم به هذا العلم ، ولم يكن فى الماضين من بلغ مداه . وهو شيخ النصارى وقسيسهم ورأسهم ورئيسهم[2] .

ومنهم عبد اللطيف البغدادى (المتوفى سنة ٦٢٩ هـ) الطبيب الفيلسوف المتكلم والمعروف بابن اللباد ؛ صاحب الرحلة المعروفة إلى مصر[3] .

الموصـــــل :

وتلى بغداد فى الشهرة وكثرة العلماء والمدارس الموصل ، وهى مدينة كبيرة عامرة ، أكبر مدن ديار ربيعة ، وتقع على دجلة على الشاطىء الغربى حيث تتجمع بعض روافده الصغيرة وتكون مجرى واحداً ، واسمها يدل على موقعها لأنها تصل بين شرق العالم الإسلامى وغربه ، وكانت فى مكانها مدينة فارسية قديمة اسمها بوذ أردشير ، واشتهرت فى عصر الأمويين ، ثم أصبحت فى أواخر الدولة العباسية عاصمة لإقليم الجزيرة وأكبر حواضره وكان سكانها من العرب

---

(١) وفيات الأعيان ٢٨/٤ - ٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ١٢٠/٥ .

(٣) فوات ١٦/٢ .

من قبائل بكر وتغلب ومن الأكراد . وقد غلبوا عليها منذ القرن الرابع ، وهى شبه دائرية فى صورتها ، ذكر المقدس أنها كانت فى زمنه ثلث مدينة البصرة إلا أنها اتسعت بعد ذلك وتكاثر سكانها . وقلعتها مربعة وتقع فى الشمال على قناة تسمى نهر زبيدة ، وبجوارها السوق والمسجد العتيق ، وتقع منازل السراة فيها على نهر دجلة وتمتد إلى مسافة بعيدة ، وتملكها قبل عصر صلاح الدين والأيوبيين الأتابكة من آل زنكى وصارت المقر الأول لهم[1] . وبنوا فيها المدارس والمساجد والرباطات والمارستانات والقصور ، وازدهرت حالتها فى عهدهم ، وراجت تجارتها ، وجاءها ابن جبير فرآها مدينة عظيمة حصينة فخمة « قد طالت صحبتها للزمن فأخذت أهبة استعدادها للحوادث والفتن . وقد كادت أبراجها تلتقى انتظاماً لقرب مسافة بعضها من بعض » ، وقد فصل بين القلعة والبلد شارع متسع عتيد من أعلى البلد إلى أسفله ، وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والأسواق[2] . وقال عنها ياقوت كذلك فى هذا العصر « إحدى قواعد بلاد الإسلام ، قليلة النظير كبراً وعظمة وكثرة خلق وسعة رقعة ، فهى محط رحال الركبان ومنها يقصد إلى جميع البلدان ، فهى باب العراق ، ومفتاح خراسان ، ومنها يقصد إلى أذربيجان ، وكثيراً ما سمعت أن بلاد الدنيا العظام ثلاثة : نيسابور ، لأنها باب المشرق ودمشق لأنها باب المغرب والموصل لأن القاصد إلى الجهتين قل مالا يمر بها » ، وقال : « وكثيراً ما وجدت العلماء يذكرون فى كتبهم أن الغريب إذا أقام فى بلد الموصل سنة تبين فى بدنه فضل قوة وما نعلم لذلك سبباً إلا صحة هواء الموصل وعذوبة مائها ، وليس للموصل عيب إلا قلة بساتينها وعدم جريان الماء فى رساتيقها ، وشدة حرها فى الصيف وعظم بردها فى الشتاء ، فأما أبنيتهم فحسنة جيدة وثيقة بهية المنظر ، لأنها تبنى بالنورة والرخام ، ودورهم كلها أزاج وسراديب مبنية ، ولا يكادون يستعملون الخشب فى سقوفهم ألبتة ،

---

(١) ظل الأتابكة من أولاد زنكى يتولونها ولكن تحت سلطة صلاح الدين والأيوبيين . وتولى العادل أبو بكر بلاد المشرق فى حياة أخيه وجعل مقره الموصل ثم تولاها بعده ابنه الأشرف موسى .

(٢) ابن جبير ٢٣٤/٢٣٥ .

وقل ماعدم شيء من الخيرات فى بلد من البلدان إلا ووجد فيها[1] .

وقد ازدهرت بها الحياة فى عصر الأتابكة الزنكيين ، وكثر علماؤها ومتعلموها بفضل تشجيع حكامها لهم[2] ، وقد بنى بها نور الدين مسجداً ومدرسة ورباطاً للفقراء ، وكذلك فعل أخوه سيف الدين غازى ؛ فقد بنى بها مدرسة سماها المدرسة الأتابكية . وهى أحسن المدارس بها وأوسعها[3] ، وقد جعلها وقفاً على فقهاء الشافعية والحنفية ، وكذلك بنى رباطاً آخر للصوفية . وبنى فيها قايماز التركى الرومى (المتوفى سنة ٥٩٤ هـ) متصرف المدينة فى عهد خلفاء زنكى الجامع المجاهدى ورباطاً ومدرسة ومارستاناً بظاهرها على نهر دجلة . وكان عليه رواتب كثيرة بحيث لم يدع بالموصل بيتاً فقيراً إلا وأغنى أهله[4] . وقد أثرى أهلها ولكنهم ظلوا محافظين على دينهم ولم يسرفوا إسراف أهل بغداد . قال عنهم ابن جبير : « أهلها أحسن طبعاً وأكرم جبلة من أهل بغداد ، وهم على طريقة حسنة ، يستعملون أعمال البر ، فلا تلقى منهم إلا ذا وجه طلق وكلمة لينة ، ولهم كرامة للغرباء ، وإقبال عليهم ، وعندهم اعتدال فى جميع معاملاتهم »[5] .

وكانت تجارتها رائجة تذهب وتدور إلى المشرق والمغرب ، وتحملها السفن فى البحر المتوسط إلى أوروبا ، وظلت كذلك مركزاً هاماً من مراكز التجارة فى العصور الوسطى ، وكانت تصدر أنواعاً من الأقمشة الحريرية ، وإن اسم « موسلين » الذى يطلق على نوع معين منها إنما كان يستورده الإيطاليون منها ويسمونه Mosolina وعنهم شاع ذلك الاسم[6] . وكثرت الأموال فى أيدى الناس لرواج التجارة ، فتمكن حكامها من القيام بحركات تعمير وإصلاح وبر

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان مادة موصل .

(٢) Eneyclopaedia Britannica Vol. 18 p.651

(٣) الروضتين ١ — ٦٥ .

(٤) مرآة الزمان ٤٥٨/٨ .

(٥) رحلة ابن جبير ٢٣٧ .

(٦) فنون الإسلام ٣٤٦ .

واسعة . ويقال إن مجاهد الدين قايماز التركى كان ينفق على الفقراء كل يوم مائة دينار غير ما كان يرتبه كل شهر لهم . وكان أمراؤها ينعمون بهذا الثراء ؛ فكان سيف الدين غازى يجمع المغنيات ويستمع للغناء ، ويجمع الطيور النادرة كالبلابل والغرار والببغاء ، قال أبو شامة : « واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية ، وأن السلطان صلاح الدين أرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البلية »[1] .

وتولى التدريس فى مدارسها الست على دجلة جماعة من أفاضل العلماء ؛ ففى مدرسة نور الدين درس الفقه عماد الدين أبو بكر التوقانى الشافعى[2] . وقد درس بالنظامية جماعة من آل شهرزور . وآخرهم محيى الدين الشهرزورى . والمدرسة البدرية ودرس بها كمال الدين الشهرزورى وآخرون[3] .

ومن علمائها المشهورين جماعة على رأسهم آل ابن الأثير . فقد ظهر منهم ثلاثة إخوة برز كل واحد منهم فى علم من العلوم . فمجد الدين المبارك فى الحديث ورجاله ، وعز الدين على فى التاريخ . وضياء الدين نصر الله فى الأدب وفنونه .

مجد الدين المبارك بن محمد بن عبد الكريم (ولد سنة ٥٤٤ هـ) .

وعز الدين على بن محمد بن عبد الكريم (ولد سنة ٥٥٥ هـ) وله كتاب الكامل فى التاريخ وكتاب « أتابكة الموصل » .

وضياء الدين (ولد سنة ٥٥٨ هـ وتوفى سنة ٦٣٧ هـ) وله كتاب المثل السائر والجامع الكبير والوشى المرقوم ، والاستدارك على المآخذ الكندية[4] .

ومنها آل الشهرزورى وأخصهم يحيى الشهرزورى قاضى قضاة بغداد وقد

---

(١) الروضتين ١/٢٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ١/١٩٨ وخطط الموصل ٤٩ .

(٣) تاريخ الموصل ٩٠ .

(٤) راجع دراسة مفصلة عن ابن الأثير للمؤلف بعنوان « ضياء الدين ابن الأثير وجهوده فى النقد » طبع بمصر سنة ١٩٥٨ م .

سكن المدرسة النظامية متفقهاً ثم جاء الموصل وخرج إلى الشام حيث التحق بصلاح الدين ، وكان ينفذه فى رسائل إلى ديوان الخلافة ببغداد ، وكان يقول الشعر[1] ، ومنهم أبو محمد عبد الله بن القاسم الشهرزورى الملقب بالمرتضى (المتوفى سنة ٥١١ هـ) .

وعلى بن خليفة النحوى (المتوفى سنة ٥٦٢ ه) ، وكان يجلس بالمسجد المعروف بمسجد النبى بالموصل ، وكان إماماً فاضلاً ، تأدب عليه أكثر أهل عصره من بلده وصنف مقدمة فى النحو سماها « المقدمة »[2] .

ويحيى بن سعيد بن المبارك بن الدهان (ولد بها سنة ٥٦٩ هـ وتوفى سنة ٦١٦ هـ) وأشرنا إليه فى علماء بغداد .

وابن الفقيه عبد الواحد بن إبراهيم بن الحسن بن نصر الله بن عبد الواحد (ولد سنة ٥٦١ هـ وتوفى سنة ٦٣٦ هـ) وسمع عن أبى الفضل بن الطوسى حضوراً وكتب الخط المليح ، وقال الشعر[3] .

وعماد الدين أبو حامد محمد بن يونس بن منعة الفقيه الشافعى ، كان إمام عصره فى المذهب والأصول والخلاف ، وكان له صيت عظيم فى زمانه ، وقصده الفقهاء من البلاد الشاسعة . ودرس بالموصل بعدة مدارس ، وصنف كتباً فى المذهب منها : « المحيط فى الجمع بين المهذب والوسيط » ، و « شرح الوجيز للغزالى » ، وصنف جدلاً وعقيدة وتعليقة فى الخلاف لم يتمها ، وولى القضاء بالموصل ، وانتهت إليه رئاسة الشافعية ، ويقول ابن خلكان : « غير أنه لم يرزق سعادة فى تصانيفه فإنها ليست على قدر فضائله »[4] . توفى سنة ٦٠٨ هـ .

وابن عصرون وكان من أعيان الفقهاء وفضلاء عصره ، ومن سار ذكره وانتشر أمره . درس بالموصل سنة ٥٢٣ هـ ثم غادرها إلى سنجار وحلب

---

(١) الجامع المختصر ١٠٣/٩ – وأصل البيت الشهرزورى من شهرزور بلدة قرب إربل ، ورد رب هذه الأسرة الموصل فاستوطنها .

(٢) إرشاد ٢٠٦/٥ .

(٣) فوات الوفيات ٤٠/٢ .

(٤) وفيات الأعيان ٣٨٥/٣ – ٣٨٧ .

ودمشق . وله كتب كثيرة فى المذهب الشافعى منها « الانتصار » فى أربعة مجلدات ، و « المرشد » فى مجلدين ، و « الذريعة فى معرفة الشريعة » ، و « التيسير فى الخلاف » أربعة أجزاء ، و « مآخذ النظر » ، و « مختصر فى الفرائض »، و « الإرشاد المعرب فى نصرة المذهب » .

وابن خميس الكعبى الموصلى أبو عبد الله بن الحسين بن نصر الشافعى (المتوفى سنة ٥٥٢ هـ). أخذ الفقه عن أبى حامد الغزالى ببغداد وعن غيره ، وولى القضاء ثم عاد إلى الموصل وسكنها وصنف كتبه ومنها « مناقب الأبرار » على أسلوب رسالة القشيرى فى التصوف ، ومناسك الحج ، وأخبار المقامات[١] .

والشاتانى علم الدين (المتوفى سنة ٥٧٩ هـ) وكان فقيهاً غلب عليه الشعر وأجاد فيه واشتهر به ونزل بالموصل واستوطنها وتردد منها إلى بغداد وكان الوزير ابن هبيرة كثير الإقبال عليه والإكرام له . وذكره العماد الأصبهانى فى الخريدة ، وأورد له أشعاراً . ومدح صلاح الدين بقصيدة أولها :

أرى النصر معقوداً برايتك الصفرا فسر وافتح الدنيا فأنت بها أحرى

ومنها :

يمينك فيها اليمن واليسر فى اليسرى فبشرى لمن يرجو الندى منهما بشرى[٢]

وابن المستوفى (المتوفى سنة ٦٣٧ هـ) عاش متنقلاً بينها وبين إربل . وكان عالماً بفنون الأدب واللغة والشعر والأخبار والتاريخ . ألف « تاريخ إربل » فى أربعة مجلدات وله كتاب « النظام فى شرح شعر المتنبى وأبى تمام » فى عشرة مجلدات وكتاب « إثبات المحصل فى نسبة أبيات المفصل » فى مجلدين ومصنفات أخرى[٣] .

---

(١) وفيات الأعيان ٤٠٤/١ .

(٢) المصدر نفسه ٣٨٦/١ .

(٣) المصدر نفسه ٢٩٤/٣ .

وعضد الدين بن أسعد الموصلي ، كان علامة زمانه في علمه ونسيج وحده في نظمه ، كما يقول أبو شامة « درّس بالموصل واشتريت كتبه بأغلى الأثمان وتوفي سنة ٥٧١ هـ[١]» .

وقد ورثت الموصل العلم من قدم ، وتعددت بها الثقافات ، ففي الآرامية نبغ بها جماعة من العلماء وكانت تدرس بمدارسها الآرامية والعبرانية[٢].

وقد اختلطت الآرامية باليونانية في شعر بعض شعرائها القدامى . واشتهر في التأليف بها جماعة كما نظم بها الشعر آخرون في مدح السيدة العذراء وكان شعرهم الآرامي يجري على أساليب الشعر العربي في التوشيح وأشكال البديع اللفظي[٣]. وقد كثر إقبال الناس بها على العلم وشراء الكتب . فقد جاء عن أبي الدر ياقوت الموصلي أنه كان ينسخ الجوهري ويبيع النسخة منه بمائة دينار[٤].

أربل وسنجار :

ويتصل بالموصل في هذا العصر مدينتان أخريان هما إربل وسنجار . وكثيراً ما اتصل تاريخهما السياسي بالثقافي وتنقل بينهما العلماء والأدباء ؛ وتقع إربل في السهل بين الزاب الأكبر والزاب الأصغر . وهي ملتقى التجار ، وكانت قصبة من قصبات العلم في العراق . وبها مسجد (الكف) لوجود آثار كف على أحد أحجاره ، وبها مدارس درس بها العلماء الأفاضل . وكانت تابعة لأتابكية الموصل وناب بها الأمير أبو منصور قايماز بن عبد الله الزينبي عن أتابك سيف الدين غازي ، ثم حكمها بعده أبو سعيد كوكبوري الملقب بالملك المعظم (المتوفى ٦٣٠ هـ) وبنى بها أربع خانقاهات للزمنى والعميان ، وقرر لهم مرتبات ، ودوراً للنساء الأرامل والأبناء الصغار والملاقيط . ورتب لهم جماعة من المراضع ، وبنى البيمارستانات ، وداراً للضيافة يدخل إليها كل قادم

(١) كتاب الروضتين ٦٧/٢ .
(٢) تاريخ الموصل ١١١/٤٤ .
(٣) تاريخ الموصل ١١٢ .
(٤) تاريخ الموصل ص ٩٠ .

من فقيه أو فقير أو غيرهما[1] . وبنى بها مدرسة رتب فيها فقهاء الشافعية والحنفية ، وكان يأتيها متردداً ويعمل السماط ويبيت بها ويعمل السماع . وإذا طاب خلع شيئاً من الأنغام ولم يكن له لذة سوى السماع . وبنى فيها للصوفية خانقاهين ، آوتا منهم خلقاً كثيراً ، وكان يجتمع بهما فى المواسم ومولد النبى خاصة من الخلق ما يعجب الإنسان من كثرتهم على قول ابن خلكان . وأوقف عليهما أوقافاً كثيرة تقوم بجميع ما يحتاج إليه ذلك الخلق[2] . ويقدر صاحب مرآة الزمان من كان يحضر المولد بثمانمائة ألف[3] . ودخلتها التتار سنة ٦٣٤ هـ .

ومن علمائها ابن الأرملة أبو الثناء محمود بن الحسن بن على الضرير النحوى (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) ، وأخذ عن ابن الدهان بالموصل ، وانتقل إلى إربل وظل بها إلى أن مات[4] .

والبحرانى موفق الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف (المتوفى سنة ٥٨٥ هـ) الشاعر وكان إماماً مقدماً فى علم العربية ، مصنفاً فى أنواع الشعر ، ومن أعلم الناس بالعروض والقوافى ، وأحذقهم بنقد الشعر وأعرفهم بجيده من رديئه ، وأدقهم نظراً فى اختياره . واشتغل بشىء من علوم الأوائل ، وحل كتاب إقليدس . ويقول عنه ابن خلكان : إنه من طبقة ابن التعاويذى وابن المعلم والأبله فى الشعر[5] . وكان يتردد بين بلده البحرين وبين إربل ، ويتجر فى اللؤلؤ ، وهو شيخ ابن المستوفى صاحب « تاريخ إربل » . وقد رحل إلى دمشق وشهرزور ، ومدح صلاح الدين ، ومدح صاحب إربل زين الدين على كوجك بقصيدة مطلعها[6] :

رُبَّ دارٍ بالحمى طَال بَلاها ... عكف الرَّكبُ عليها فبكاها
كَان لى فيها زمانٌ وانقضَى ... فسقَى الله زمانى وسقَاها

(١) وفيات الأعيان ٢٧٠/٣ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) مرآة الزمان ٦٨٢/٨ .

(٤) الجامع المختصر ٢١٣/٩ .

(٥) وفيات الأعيان ١٠٢/٤ .

(٦) الجامع المختصر ٧٧/٣ .

ومجد الدين محمد بن أحمد بن الظهير الإربلي الحنفي الأديب (ولد سنة ٦٠٢ هـ وتوفى سنة ٦٩٧ هـ) وسمع ببغداد فى كهولته من أبى بكر بن الخازن ، وبدمشق عن السخاوى وجماعته ، وروى عنه أبو شامة صاحب الروضتين والدمياطي واليونيني ، وكان ذا رأى منتقى . من أعيان شيوخ الأدب وفحوله المتأخرين ، وله ديوان شعر فى مجلدين ، وشعره على النمط القديم[1].

وكتب ابن المستوفى لإربل تاريخاً مطولاً سبقت الإشارة إليه .

أما سنجار فهى موطن ولادة السلطان سنجر السلجوقى وآخر سلاطين السلاجقة العظام ، واشتهرت فى القرنين السادس والسابع – على حد قول القزوينى – بحماماتها – وقد ملكها نور الدين سنة ٥٦٦ هـ وسلمها لابن أخيه عماد الدين بن قطب الدين مودود[2] وملكها صلاح الدين سنة ٥٧٨ هـ ، واصطلح مع عماد الدين على أن يبقيه عليها سنة ٥٧٩ هـ ، وبعد وفاة عماد الدين سنة ٥٩٤ هـ ولى إبنه قطب الدين محمد ، وتولى تدبير دولته مملوك والده مجاهد الدين برتقش ، وكان ديناً خيراً إلا أنه كان شديد التعصب على مذهب الشافعى يكثر ذم الفقهاء الشافعية ويقع فيهم ، ومن تعصبه أنه بنى مدرسة للحنفية ووظف بها جماعة من فقهائهم[3]، ونزل عليها العادل سنة ٦٠٦ هـ بعساكر من الشام ومصر وديار بكر وحلب ومعه أولاده وأقام بضربها بالمجانيق ، ورجع عنها ولم يستطع دخولها[4]، وملك بعد عماد الدين أخوه عماد الدين شاهنشاه سنة ٦١٦ هـ ، وهو آخر ملوكها من الأتابكة[5].
وكان بها المدرسة العمادية نسبة إلى عماد الدين المذكور بظاهر البلد ، وتردد عليها جماعة من علماء الموصل وإربل الذين ذكرناهم .

---

(١) فوات الوفيات ٣٥٧/٢ .
(٢) أتابكة الموصل ٢٧٧ الجامع والمختصر ٥٦٦/٣ .
(٣) أتابكة الموصل ٣٥٠ ، الجامع والمختصر ٩٣/٣ .
(٤) مرآة الزمان ٥٤١/٨ .
(٥) المختصر ١٢٢/٣ .

البصـــرة :

ومن حواضر العراق فى ذلك العصر البصرة ، لكنها كانت مخربة ، غير عامرة بالعلم والعلماء كما كان شأنها فى الدولتين الأموية وأوائل العباسية . قال ابن جبير وقد مر بها « وقد استولى الخراب على أكثرها ، فالغامر منها أكثر من العامر »[1].

الكـــوفة :

والكوفة كذلك لم يكن لها شأن يذكر ، ويترجم ياقوت لأحد علمائها من النحويين واسمه عمر بن إبراهيم (توفى سنة ٥٧٩ هـ)[2]، من أئمة اللغة والنحو والحديث أخذ عنه ابن الشجرى ، درس ببغداد والكوفة ودمشق وحلب وعاد إلى بلده الكوفة وأقام بها إلى أن مات .

واشتهرت **حرّان** منذ صدر الخلافة العباسية بأنها مركز من مراكز الثقافة اليونانية ولذا سميت Hellenopolis هيلينوبوليس[3].

الشـــــام

دمشـــق :

ودمشق بلد عربى قديم ، يقع على مرتفع من الأرض ، وسط سهول فسيحة تمتد شمالاً وشمالاً بشرق حتى الفرات وجنوباً حتى قلب الجزيرة العربية ، وتحيط به الصحراء التى تبدو قاحلة قاسية لأول وهلة ، والتى قد لا تبدو مناسبة لازدهار المدنية ، وعلى الرغم من قربها للبحر إلا أنها لوجودها وسط الصحراء وقربها من بلاد العرب الصحراوية تعتبر قارية المناخ ، ولكن موقعها هذا وإن كان من أسباب عدم مناسبة مناخها إلا أنه كان من أسباب

---

(١) رحلة ابن جبير ٢١١ .

(٢) إرشاد ١٢/٦ .

(٣) Browne 476

شهرتها لتوسطها الطبيعي بين إقليم الشام والجزيرة بالعراق وجزيرة العرب والبحر ، والعرب يسمونها عروس الأرض وجنة الدنيا ، واشتهرت غوطتها فى أشعار العرب وأخبارها[1] . قال الشاعر :

وما جنـــةُ الخلد إلاّ دمشـــقُ   وفى القــلب شـوقاً إليها سعير[2]

ويجرى إليها نهر بردى ، وسمى كذلك لبرد مائه[3] ، وتحف به الرياض والبساتين العامرة بصنوف الفاكهة ، والزهور كالريحان والياسمين ، وهو نهر دمشق الخالد ، وينقسم عند اقترابه منها إلى شعب وقنوات ، ويخرج من المدينة مجتازاً الغوطة والينابيع تنبع على جنباته فترفده ، والأنهار تنفصل عنه فيرفدها حتى يمر بالغوطة كلها فيسقيها ، وتكون مدينة له بخصبها ، وجودة تربتها ، ثم ينصب فى بحيرة المرج أو بحيرة دمشق .

ولهج بوصف بردى الشعراء من قديم الزمان ، من حسان بن ثابت فى الجاهلية إلى شوقى فى العصر الحديث .

وجو دمشق يمتاز بربيع وخريف قصيرين يأخذ منهما الصيف الجاف الحار ، والشتاء القارس القصير قليل الأمطار ، ويلطف من جوها نوعاً ما ارتفاعها وقربها من البحر[4] . وقد أعجب بها ابن جبير عندما زارها فقال عنها : « جنة المشرق ، ومطلع حسنه المونق المشرق ، وخاتمة بلاد الإسلام التى استقريناها ، وعروس المدن التى اجتليناها . قد تحلت بأزاهير الرياض ، وتجلت فى حلل سندسية من البساتين ، وحَلَّت من موضوع الحسن بالمكان المكين »[5] .

---

(١) خطط الشام ودمشق لمحمد كرد على طبع دمشق سنة ١٩٢٥ .

(٢) مرآة الزمان ٥٠٧/٨ .

(٣) خطط دمشق لصلاح المنجد ص ٢٣ .

(٤) دمشق لجان سوفاجيه مترجم ص ٦ .

(٥) رحلة ابن جبير ٢٦٠ .

وقال عنها العرقلة شاعرها فى عصر صلاح الدين :

دمشقُ خُيِّيتِ من حيٍّ ومن نادى | وحَبَّذا سِحْرُ واديك مِنْ وادِى
يا رائحاً غادياً عرج على بَردى | وخَلّنى من حديث الرائح الغادى
كم قد شَربت به من ماءِ داليةٍ | فى ظِلِّ دانيةٍ تنبيك عن عـادِ
فى جنب ساقيةٍ من كف ساقيةٍ | كـادت تُثنى بقدٍّ غير ميّادِ
لها بعينى إذا ماسَتْ مَعَاطِفُها | جمـالُ مياسةٍ فى عين مِقـدَادِ

وازدهرت دمشق فى عهد نور الدين وصلاح الدين وخلفائه ، وكانت قد قاست كثيراً فى عهد الفاطميين والعباسيين[1] ، وكان عصر الأيوبيين بالنسبة إليها عصر إحياء ونهضة حقيقية ، سببها اتخاذهم لها قاعدة ثانية لملكهم العريض مع القاهرة ، كما كانت مركزاً حياً لعملياتهم الحربية ضد الصليبيين ، وسبّب وجود السلطان بها أكثر أيامه مع بلاطه وأقاربه وجنده ومماليكه واتخاذهم مساكن بها حركة نشاط واتساع عمرانى ، وحياة فى مجتمعها ، فقد احتاج الجم الغفير من آلاف الجند إلى آلاف أخرى من العمال والصناع وتوافد إليها هؤلاء وهؤلاء من أقطار مصر والجزيرة ، فجاء معها الرخاء ، والرواج .

وحظيت دمشق كذلك إلى جانب مكانتها العسكرية والتجارية والعمرانية بمكانة ثقافية ممتازة . وقد بنى بها نور الدين وصلاح الدين وخلفاؤه كثيراً من المدارس والمساجد والخوانق ودور الحديث والرباطات ، التى كانت تفد إليها العلماء والصوفية من أقطار العالم الإسلامى شرقاً وغرباً ، مما أدى إلى نشاط ثقافى ملحوظ ظهرت آثاره واضحة .

ويمكن أن نتصور شكل المدينة العام أو تخطيطها فى عصر صلاح الدين فى صورة أقرب إلى صورتها القديمة المربعة ، حسب تخطيطها الرومانى ، إلا أن أقطارها الأربعة لم تكن منتظمة . وتتقسمها أحياء مختلفة قد ذهب كل جماعة من سكانها بحى يسكنونه ، وكانت كل جماعة تنظم حياً يتكون حسب المذهب الدينى أو الحرفة ، فهناك مثلاً أحياء للنصارى وأخرى لليهود إلى جانب أحياء المسلمين ، كما وجدت أحياء لأصحاب السلاح وغيرهم

(١) سوفاجيه ٣٢ .

كالسروجية من أصحاب المهن ، وكل حى ينقسم إلى مجموعة من الشوارع الضيقة والحارات المغلقة التى تنتهى بباب خارجى[1] .

وكان طبيعياً أن يتجمع المسلمون فى القسم الغربى من المدينة حول المسجد الأموى . وفى هذا القسم نفسه بنى نور الدين المارستان ، وبنى بجواره عدداً من الربط والخوانق والمدارس[2] ، واختلفت نماذج مبانيها بين الطرز القديمة اليونانية والرومانية والبيزنطية والطرز العربية الإسلامية . وقد تميزت الطرز الرومانية بأحجارها الرملية الحمراء اللامعة ، وبالأبواب الضخمة المصفحة بالحديد الثقيل ، والأسوار القوية السميكة المرتفعة ، وتميز الطرز العربى كالمساجد والمدارس بمبانيه الرشيقة ذات الأقواس والزخارف والنقوش .

وكان مجتمع المدينة مختلف الأجناس ، بين عرب مسلمين ومسيحيين ، وأتراك وأكراد مسلمين ، ونصارى ويهود ، كما جمع كذلك أجناساً أخرى من سبى الحروب من الفرنج وغيرهم . وقد تزايد سكانها فى هذه الفترة زيادة كبيرة ، واتسعت مبانيها فجاوزت سورها القديم ، ونشأت ضاحيتان جديدتان خارجه هما العقيمة ، وتتبعها سويقة صارجا ، ثم الشاغور ، وقد بنى فى كل منها مسجد جامع[3] . وساهم الحكام فى عصر نور الدين والأيوبيين فى تطوير المدينة العمرانى بكثرة ما بنوا من قصور ومدارس وربط ومساجد ومارستانات[4]، وحمامات ، وقد دهش ابن جبير لكثرة عمرانها وازدياد سكانها فقال : « إنها تحتوى من الخلق على ما تحتوى ثلاث مدن ، لأنها أكثر بلاد الدنيا خلقاً »[5]، وكان فيهم كل لون من علماء وافدين ، وطلاب علم ، وشعراء ينشدون الجائزة ، وتجار يروحون ويغدون بتجارتهم ، وعساكر من أجناس مختلفة ، ومماليك وموالى يتبعون أسيادهم فى مواكبهم .

---

(١) Lanepoole: Saladin: 184

(٢) جان سوفاجيه ٣٦ .

(٣) دمشق فى العصر الأيوبى ص ٥٤ .

(٤) دمشق فى العصر الأيوبى ص ٥٠ .

(٥) رحلة ابن جبير ٢٨٣ .

وقد عمَّ المدينة الرخاء والرفاهية ، وأكسبها الترف بعض الصفات التى طبع عليها سكانها من لين الجانب والدماثة وحسن آداب السلوك ، مما لم يكن معهوداً فى غيرها من مدن الإسلام ، مما جعل رحالة عابراً بها كابن جبير يعجب من تلك الطبائع والأخلاق[1] ، وقد تأثر بعض سكان المدينة بعادات يهودها فى يوم السبوت من كل أسبوع ، مما دعا شاعراً مصرياً كابن مطروح يؤاخذهم عليها لأنهم يتشبهون فى يوم السبت باليهود فيتخذونه يوم لهو ومرح[2] . وكانت أماكن لهوهم ومرحهم خارج المدينة فى الغوطة وعلى شواطىء بردى حيث الحانات والخانات ودور اللهو وأماكن النزهة التى تقصد للمتعة والغناء وشرب الخمر .

وقد انتشر اللهو وشرب الخمر بين سكان المدينة ، وغشى الدور الخاصة بها خارج المدينة كثير من أهلها مما دعا الملك الأفضل ابن صلاح الدين وصاحب دمشق إلى إنذارهم وعقابهم وتكسير تلك الدور وتخريبها . وقال ابن رجب : « وإنهم جعلوا الملاهى فى دولة الأفضل ابن صلاح الدين على دراج جبرون فجاء الحافظ عبد الغنى المقدسى يوماً فكسر شيئاً عظيماً منها »[3] . وقد أصدر الأفضل أمراً سلطانياً يحرم فيه الخمر ، ويأمر بالتنبيه الشديد على التمسك بشعائر الدين .

ومما بنى من المدارس فى عصر نور الدين وصلاح الدين المدرسة العادلية الكبرى نسبة للعادل نور الدين ، وقد أتمها ووسعها الملك المعظم عيسى ، وكانت من أعظم مدارس الشافعية بها ، والمدرسة الشامية البرانية بنتها ست الملك بنت أيوب أخت صلاح الدين ، والمدرسة البدرية بناها أحد أمراء نور الدين واسمه بدر الدين وقد درَّس بها وسكن سبط ابن الجوزى (المتوفى سنة ٦٥٤ هـ) وكانت من مدارس الحنفية[4] والمدرسة العمادية التى درس بها

---

(١) ابن جبير فى « الرحلة » عند حديثه عن أهلها ودماثة أخلاقهم ص ٢٨٤ .

(٢) راجع مانقله صاحب كتاب دمشق فى العصر الأيوبى ص ٣٦ - ٣٧ وراجع ابن مطروح فى الباب الأخير .

(٣) دمشق فى العصر الأيوبى ١٢٥ .

(٤) دمشق فى العصر الأيوبى ص ٦٢ .

العماد الأصبهانى وسميت باسمه ، والعادلية الثانية التى بناها العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين قال أبو شامة : « وقد بناها هذا البناء المتقن المحكم الذى لا نظير له فى بنيان المدارس ، وهى المأوى وبها المثوى ، وفيها قدر الله تعالى جمع هذا الكتاب »[1] . يعنى الروضتين . وقد درّس بها قطب الدين النيسابورى إلى أن مات ، وعدد ابن جبير مدارسها عند زيارته لها بنحو عشرين مدرسة[2] . قال : « ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين وهى قصر من القصور الأنيقة » . ويذكر النعيمى فى كتاب الدارس فى المدارس منها ١٥٧ مدرسة ، ويذكر سوفاجيه أن مدارسها قد أصبحت فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى مائة مدرسة[3] .

ولم يكن الدرس – كما هو الحال فى جميع البلاد الإسلامية حينئذ – مقصوراً على المدارس بل كان لجوامع دمشق الكبيرة نصيبها من العلم والعلماء . وقد ساهمت فى نشر الثقافة ، فكان المسجد الأموى ، كما كان غيره من مساجدها يغص بالطلبة والعلماء ينتظمون حلقات فى أنحائها كخلايا النحل ، يصفهم ابن جبير قائلاً : « كان بجامع دمشق زوايا فى جانب الجامع يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والانفراد عن ازدحام الناس ، وهى من جملة مرافق الطلبة »[4] ، وكان أولئك الطلاب ينقلون العلم بالمجان دون أن يكلفوا أنفسهم مالاً ، ينتقلون من مدرسة إلى أخرى بحرية واسعة ، ويجلسون إلى من يحبون من العلماء دون تقيد ؛ بل كان فقراؤهم يتناولون من الدولة رواتب متفاوتة تكفل لهم العيش ، وكانت توفر لهم سبل الإقامة فى الخوانق أو المساجد أو الربط والدور الملحقة بالمدارس للمغتربين .

وحرص حكام دمشق على تشجيع العلماء وتقريبهم ، بل السماع منهم ، فكان صلاح الدين كثيراً ما يجلس لسماع ابن عصرون فى المسجد الأموى وسار خلفاؤه سيرته وأصبح لدمشق بفضلهم مركز ممتاز ، وجاءها الناس من

---

(١) الروضتين ٢١٤/٢ .

(٢) رحلة ابن جبير ٢٨٤ .

(٣) سوفاجيه ص ٣٧ .

(٤) رحلة ابن جبير ٢٦٦ .

المشرق ؛ من بلاد ما وراء النهر ، وفارس من سمرقند ومن بخارى ، ونيسابور وأصبهان ، ومن المغرب من قرطبة وبلاد الأندلس . وجاءوها كذلك من الإسكندرية والقاهرة يحملون معهم ثقافتهم المتعددة المتنوعة يصبونها فى مدارس دمشق ويعلمونها لطلابها .

وممن اشتهر من علماء دمشق فى هذا العصر محمد بن عبد الواحد السعدى الحنبلى (٥٦٩ هـ - ٦٤٣ هـ) يذكر ابن شاكر أنه صاحب التصانيف ، وأنه خرج من دمشق وطاف بكثير من بلاد المسلمين فى بغداد حيث استمع إلى ابن الجوزى وفى همذان وغيرها ثم رجع إلى دمشق ، وخرج مرة أخرى لجمع العلم حتى حصل منه الشيء الكثير ثم عاد وبنى مدرسة بدمشق أعانه على بنائها أهلها وجعلها دار حديث[١] .

وابن عصرون استدعاه إلى دمشق نور الدين ، وبقى بها إلى عصر صلاح الدين ، وكان يدرس بالمسجد الأموى .

وابن قدامة موفق الدين بن عبد الله بن أحمد (المتوفى سنة ٦٢٠ هـ)[٢] صاحب « المغنى » المشهور فى فقه الحنابلة .

وأبو عبد الله محمد بن على بن صدقة ، وقد علم الأفضل ابن صلاح الدين وأجاز له ، وابن شداد ، صاحب سيرة صلاح الدين وكاتم أسراره .

وابن زكى الدين الدمشقى (المتوفى سنة ٥٩٨ هـ) ، وكان ذا فضائل عديدة ، فى الفقه والأدب وغيرهما ، وله النظم المليح والخطب والرسائل ، وتولى قضاء دمشق سنة ٥٨٨ هـ ، وله قصيدة جيدة فى مدح صلاح الدين عند فتحه حلب سنة ٥٧٩ هـ وفيها يعارض بائية أبى تمام ، كذلك له خطبة مشهورة فى فتح بيت المقدس ألقاها فى المسجد الأقصى بين يدى صلاح الدين[٣] .

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر ٢/٤٧١ - ٤٧٢ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٣/١٠٠ .

(٣) يرويها ابن خلكان فى وفياته ٣/٣٦٥ .

وابن الجوزى عبد الرحمن المذكور فى علماء بغداد وصاحب المنتظم .

والبندهى أبو سعيد محمد بن عبد الرحمن المسعودى الخراسانى الشافعى (المتوفى سنة ٥٨٤ هـ)[1] وكان أديباً فاضلاً ، أقام بدمشق فى الخانقاه السمباطية ، وأخذ الناس عنه ، وتعلم على يديه الملك الأفضل ابن صلاح الدين ، وحصل بطريقة كتباً كثيرة نفيسة غريبة استعان بها على شرح مقامات الحريرى شرحاً طويلاً . وقد صحب صلاح الدين سنة ٥٧٩ إلى حلب ، ونزل بجامعها وقعد فى خزانة كتب الوقف ، واختار منها جملة أخذها لم يمنعه منها مانع ، وعاد إلى دمشق ومكث بها إلى أن مات ، ووقف كتبه على الخانقاه التى عاش بها .

وابن القلانسى (المتوفى سنة ٥٥٥ هـ) وكان من أعيانها وأفاضلها المبرزين . تولى رياسة ديوانها مرتين ، وبها توفى ، وله تاريخ مشهور ابتدأ به من سنة ٤٤١ هـ إلى حين وفاته ، وأرخ لأهم الحوادث التى وقعت فى تلك الحقبة[2] .

وابن عساكر الحافظ أبو القاسم على بن أبى الحسن بن هبة الله بن عبد الله ابن الحسين الدمشقى (المتوفى سنة ٥٧١ هـ)[3] . كان محدث الشام فى وقته . ومن أعيان فقهاء الشافعية ، غلب عليه الحديث فاشتهر به ، وبالغ فى طلبه إلى أن جمع منه مالم يتفق لغيره ، وصنف التصانيف المفيدة ، وخرَّج التخاريج ، وكان حسن الكلام على الأحاديث ، محظوظاً فى الجمع والتأليف ، صنف « التاريخ الكبير لدمشق » فى (٨٠) ثمانين مجلداً أتى فيه بالعجائب ، وجعله على نسق تاريخ بغداد للخطيب . وذكر ياقوت أنه فى خمسمائة وسبعين جزءاً . وتوفى بدمشق وحضر جنازته صلاح الدين[4] .

والشهرزورى كمال الدين القاضى (المتوفى سنة ٥٧٢ هـ) ، وكان عالماً

---

(١) وفيات الأعيان ٢٣/٤ - ٢٥ .

(٢) إرشاد ١٤٥/٤ .

(٣) وفيات الأعيان ٤٧١/٢ وترجم له ياقوت ترجمة مطولة فى معجم الأدباء ١٤٠/٥ .

(٤) الروضتين ٢٦١/١ .

جليلاً مقدراً من الملوك ، استدعاه نور الدين إلى دمشق ليدرس بمدرسته ، وظل بها يدرس إلى أن مات فى زمن صلاح الدين .

والكندى أبو اليمن تاج الدين زيد بن الحسن بن زيد (ولد سنة ٥٢٠ هـ وتوفى سنة ٦١٣ هـ)[1] البغدادى المولد والمنشأ ، الدمشقى الدار والوفاة ، المقرئ ، النحوى الأديب . كان أوحد عصره فى فنون الآداب وعلو السماع ، ويقول ابن خلكان : إن شهرته تغنى عن الإطناب فى وصفه . أخذ عن جملة من شيوخ العلم ، ومنهم أبو السعادات ابن الشجرى ، وأبو محمد الخشاب ، وأبو منصور الجواليقى ، ورحل عن بغداد إلى دمشق فى شبابه سنة ٥٦٣ هـ ، وصحب ابن أخى صلاح الدين الأمير فروخ شاه ، واختص به وتقدم عنده ، وسافر فى صحبته إلى الديار المصرية ، واقتنى من كتب خزائنها كل نفيس ، وعاد إلى دمشق فاستوطنها ، وقصده الناس وأخذوا عنه . قال صاحب المرآة : وانتهت إليه القراءات والروايات وعلم النحو واللغات . وكان حسن العقيدة ، طيب الخلق ، طريفاً لا يسأم الإنسان من مجالسته ، وله النوادر العجيبة .

وقرأ عليه الملك المعظم عيسى بن العادل كتاب سيبويه متناً وشرحاً لابن درستويه ، والإيضاح لأبى على الفارسى ، وكان يمشى من المسجد فى دمشق إلى القلعة راجلاً والكتاب تحت إبطه . وله كتاب مشيخة على حروف المعجم .

والبكرى المشار إليه من قبل جاءها وأقام بها زمناً .

حلـــب :

المركز الثانى من مراكز الثقافة العربية الإسلامية فى الدولة الصلاحية . وهى مدينة قديمة . واسمها آرامى قديم معناه اللبن أو البياض ، سميت به إما لبياض تربتها وإما لغزارة لبنها ، وقد ذكرت على معابد المصريين القدماء ، إذ كانت

---

(١) وفيات الأعيان ٨٧/٢ ومرآة الزمان ٥٧٥/٨ - ٥٧٧ وإرشاد الأريب ٢٢٢/٤ .

قاعدة مملكة صغيرة للحيثيين ، وكان للمصريين بقيادة رمسيس الثانى حروب فيها[1] .

وقد نشأت المدينة كأى مدينة زراعية وسط سهل ممتد ، وقامت مدنيتها على الزراعة منذ القدم ، وملكها اليونان ، ونزل فيها جماعة منهم ، وصبغوها بصبغتهم حضارياً وثقافياً . ثم ملكها الرومان عندما ورثوا ملك اليونان ثم العرب من بعد .

وسهلها منبسط يجرى إليها نهر صغير هو نهر قويق[2] ، يخرج من نبعين منبثقين من الأرض ، وينحدر النهر إلى حلب بين جبلين حتى السهل الذى تقع فيه فيلتقى بآخر ويصبحان نهراً واحداً فى بلدة أعزاز . وتمد قويق عيون أخرى قبيل وصوله إليها ، وتدور به الأرجاء ثم تمده عيون أخرى بعد أن يجاوز حلب . والنهر يجرى فى الشتاء والربيع وينقطع صيفاً .

وارتبط قويق بحياة المدينة وأهلها ، وكان يسميه أصحاب الخلاعة منهم « أبا الحسن »[3] . وتحيط بالنهر الجنات والبساتين ، وكان مسرحاً للناس ، ومراحاً فى أوقات لهوهم وسرورهم ، واتخذه الشعراء موضوعاً خصباً لأشعارهم ، وقد أبدع الصنوبرى فى وصف قويق فقال يصفه وقت الشتاء والصيف[4] :

قويقٌ إذا شمَّ ريحَ الشّتاءِ ... أظهر تيهاً وكِبراً عجيبَا
وناسَبَ دجلةَ والفُرَاتَ ... بهاءً وحُسناً وطيبَا
وإن أقبلَ الصيْفُ أبصَرتَه ... ذليلاً حقيراً حزيناً كئيبا
إذا ما الضفادعُ نادت به ... قويقُ قويقُ أبى أن يجيبا

وقال فيه أيضاً :

أقامتْ به الحيتانُ سُوقاً ولم تَزلْ ... تُقَامُ على شَطَّيْهِ للطير أسواقُ

---

(١) راجع درر الحبب فى تاريخ حلب ٢٨ - ٢٩ .

(٢) جف هذا النهر الآن وسطها لتحويل مجراه شمالها ، ولم يبق فيها سوى مجراه .

(٣) درر الحبب ١٣٤ - ١٣٦ .

(٤) المصدر نفسه ١٣٩ .

وسُرَّ بل بالأرجاءِ مثنى وواحداً	كما سَرْبَلتْ غُصْناً من البان أوراقُ
وفاضت عيونٌ من نواحِيه ذُرَّقٌ	ولما تعاونها جفونٌ وآماقُ
وإذا عَبثتْ أيدى النسيم بوجههِ	وقد لاح وجهٌ منه أبيض براقُ
فطوراً عليه منه درقٌ حقيقةٌ	وطوراً عليه جوشنٌ منه رقراقُ
وكم بعده لينوفرٍ مُتَشَوِّفٌ	بأرؤسِ تبرٍ والزبرجَدُ أعناقُ

وذاعت شهرة حلب فى العصر العربى الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى عند تولى الأمير سيف الدولة الحمدانى عليها ، وجمع فيها من الشعراء والعلماء والأدباء كل كبير مرموق ، فطيروا ذكرها فى الآفاق . كان بها المتنبى والسرى الرفاء وأبو الفرج الأصبهانى ، ثم خمد ذكرها بعض الوقت إلى أن كان القرن السادس فاستعادت مكانتها الأولى فى عصر نور الدين الذى اتخذها مركزاً لدولته بالشام ثم فى عهد صلاح الدين وابنه الظاهر الذى تولاها إلى أن مات وورثها بعده أبناؤه .

مر بها ابن جبير فقال عنها : « بلدة قدرها خطير ، وذكرها فى كل زمان يطير ، خُطَّابُها من الملوك كثير ، ومحلها من النفوس أثير ، وأما البلد فموضوعه ضخم جداً ، حفيل التركيب بديع الحسن ، واسع الأسواق كبيرها ، متصلة الانتظام مستطيلة ، تخرج من سماط صنعة إلى صنعة إلى أن تفرغ من جميع صناعات المدنية ، وكلها سقف بالخشب »[1] .

ووصفها ابن شداد فقال : « وعلى كل حال فإنها أعظم البلاد جمالاً وأفخرها زينة وجلالا ، مشهورة الفخار ، عالية البناء والمنار ، ظلها ضاف وماؤها صاف ، وسعدها واف ، وورودها لعليل النفوس شاف ، وأنوارها مشرقة وأزهارها مونقة ، وأشجارها مورقة ، نشرها أضوع من نشر العبير ، وبهجتها أبهج منظراً من الروض فى الزمن النضير » .

ووصف المهلبى أهلها فقال : « وأما أهلها فهم أحسن الناس وجوهاً

(١) رحلة ابن جبير ٢٤٠ .

وأجساماً والأغلب على ألوانهم الدريّة والحمرة والسمرة ، وعيونهم سودٌ وشهلٌ ، وهم أحسن الناس أخلاقاً وأتمهم قامة »[١] .

وكان أهلها فى عصر صلاح الدين يلبسون العمامة المشقوقة[٢] . وقد عمرت حلب زمن نور الدين لعدله وحسن سيرته حتى ارتفعت الأسعار مع كثرة الغلات لكثرة العالم[٣] . ويغلب على السكان التشيع ، ويقول ابن القلانسي إن أذانهم المشهور كان « حي على خير العمل » إلى أن ملكها نور الدين فأبطل الأذان وضيق على الشيعة الإسماعيلية[٤] . وبعد وفاة نور الدين وتولى ابنه الملك الصالح طلبوا إليه العودة إلى شعائرهم[٥] ، وفى سنة ٥٧٥ هـ أحرق الشيعة الإسماعيلية أسواقها وافتقر أهلها بذلك ، وكان إحدى الجوائح التى أصابت حلب وأهلها[٦] . وكانت كلما بنيت مدرسة لأهل السنة خربوها .

وبعد الملك الصالح وكل صلاح الدين ابنه الملك الظاهر غازى عليها إلى أن توفى سنة ٦١٣ هـ فولى ابنه وورثته من بعده ، وازدهرت حلب فى عهد الظاهر وصارت دولته بها معمورة بالعلماء والعقلاء لأنه كان محسناً إلى الرعية ، وكان من جملة شيوخ دولته القاضى بهاء الدين بن شداد والشريف الافتخار وبنو العجمى والقيسرانى[٧] .

وبنى نور الدين بحلب خانقاهين ، وصار بها بعد ذلك اثنى عشر خانقاهاً للرجال غير ما كان منها للنساء[٨] . وكان بها عدد كبير من المدارس لمذاهب أهل السنة المختلفة عدَّد منها ابن الشحنة ثلاثاً وعشرين مدرسة للشافعية داخل

---

(١) درر الحبب ١٤٩ .
(٢) وفيات الأعيان ٦/٢٣٠ .
(٣) أعلام النبلاء ٢/٧٠ .
(٤) ابن القلانسى ٣٠١ .
(٥) الروضتين ١/٢٣٨ .
(٦) المصدر نفسه ٢/١٦ .
(٧) مرآة الزمان ٨/٥٧٩ .
(٨) درر الحبب ١٠٦ — ١٠٨ .

المدينة وخارجها ، منها المدرسة النورية ، والمدرسة النصرية ، والمدرسة الصاحبية ، والمدرسة الظاهرية ، والمدرسة الأسدية (نسبة لأسد الدين شيركوه) .. وغيرها .

ومن مدارس الحنفية المدرسة الحلاوية ، قال ابن شداد : وهي من أعظم المدارس صيتاً وأكثرها طلبة وأغزرها جامكية ،والمدرسة الشاذبخية والأتابكية والحدادية .. وغيرها ، وعددها ثلاث عشرة مدرسة بداخل المدينة ، وبخارجها تسع مدارس ، ومن مدارس المالكية مدرسة وزاوية وست دور للحديث داخل المدينة ، وظاهرها زاوية للحديث .

وكان مما شجع على زيادة عدد مدارسها القاضي ابن شداد فى عهد الظاهر غازى . قال ابن خلكان ، وكان قد جاءها وتعلم بها ودرّس : « وكانت حلب فى ذلك الزمان قليلة المدارس ، وليس بها من العلماء إلا نفر يسير ، فاعتنى أبو المحاسن ابن شداد بترتيب أمورها ، وجمع الفقهاء بها وعمرت فى أيامه المدارس الكثيرة »[١] . قال : « ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد وحصل بها الاشتغال والاستفادة وكثر الجمع » . ورآها كذلك عند دخوله إليها فى مستهل سنة ٦٢٦ هـ قال : « ولما وصلت إليها لأجل الاشتغال بالعلم الشريف وكان وصولى إليها فى مستهل ذى القعدة ، وهى إذ ذاك أم البلاد مشحونة بالعلم والعلماء والمشتغلين »[٢] .

وأول مدرسة بنيت بها سنة ٥١٠ هـ ، وعلى حائطها مكتوب سنة ٥١٧ هـ ، واسمها المدرسة الزجاجية ، أنشأها بدر الدولة أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب[٣] .

والمدرسة الحلاوية ، وقد كانت كنيسة ثم جعلت مسجداً ، فلما ملك نور الدين حولها إلى مدرسة وجدد بها مساكن يأوى إليها الفقهاء ، وكان بدأ عمارتها سنة ٥٤٣ هـ ، وأوقف عليها مالَ كثير ينفَقُ على الفقهاء فى طعامهم

---

(١) وفيات الأعيان ٨٧/٦ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات ٤٦/٦ .

(٣) درر الحبب ١٠٠ .

ولباسهم فى المواسم والأعياد[1]. ثم بنى نور الدين الشعيبية سنة ٥٤٥ هـ .

والمدرسة العصرونية ، وكانت داراً لأحد الوزراء وحولها نور الدين إلى مدرسة سنة ٥٥٠ هـ ، وتولى التدريس بها ابن عصرون الشافعى إلى سنة ٥٧٠ هـ وهو أول من درس بها فعرفت به . وقد بنى بها نور الدين مساكن للمرتبين بها من الفقهاء[2].

والمدرسة النورية أنشأها نور الدين سنة ٥٤٤ هـ وتولى التدريس بها القطب النيسابورى ، والمدرسة الظاهرية أسسها الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين ، ثم أكملت من بعده ودرس بها القاضى بهاء الدين بن شداد وكانت وقفاً على الشافعية والحنفية[3]. وكان يحضر بها الظاهر دروس ابن شداد ، ودرس بها ابن العجمى وكان بها مساكن للفقهاء ، ولها بساتين يتنزهون فيها ، وكان عدد فقهائها خمسة عشر فقيهاً ، ولها مدرس فى الفقه ، ومدرس فى النحو والقراءات ، ومن جملة وقفها بستان إلى جانبها[4].

وعلى كثرة مدارس حلب ، فإن الثقافة لم تكن مقصورة على مدارسها بل كانت تعقد حلقات الدرس بالمساجد ، ومسجدها الجامع ، وكانت به سارية خضراء يجتمع فيها المشتغلون بالأدب ويقرءون عندها[5].

وكان بحلب خزانة كتب كبيرة وقف .

وعلماؤها فى هذا العصر كانوا فريقين فريقاً من العرب والآخر من الأكراد ، وكان بعضهم من أصحاب السنة وعلى رأسهم ابن عصرون ، والبعض الآخر ممن نظر فى الخلاف وعلى رأسهم العلامة القطب النيسابورى[6].

---

(١) أعلام النبلاء ٧١/٢ .

(٢) أعلام النبلاء ٥٧/٢ ودرر الحبب ١١١ .

(٣) أعلام النبلاء ٢٢٢/٢ .

(٤) أعلام النبلاء ٣٥٦/٤ .

(٥) المصدر نفسه ٨١/٤ .

(٦) المصدر نفسه ٦٨/٢ .

ومن فقهاء الحنفية الكاسانى أبو بكر بن مسعود بن أحمد الملقب بملك العلماء صاحب كتاب « البدائع » فى فقه الحنفية ، وهو كتاب جليل عمدة فى المذهب . وكانت زوجه فقيهة عالمة كذلك ، جاء إلى حلب أيام نور الدين وتولى التدريس بالمدرسة الحلاوية وتوفى سنة ٥٨٧ هـ[1].

وجاءها ابن خروف النحوى الإشبيلى الأندلسى (المتوفى سنة ٦٠٩ هـ) . حل بها وكان إماماً فى العربية مدققاً ماهراً عارفاً مشاركاً فى علم الأصول ، صنف شرحاً لكتاب سيبويه جليل الفائدة ، وحمله إلى صاحب المغرب فأعطاه ألف دينار ، وشرح الجمل وألف كتاباً فى الفرائض[2]

وجاءها ياقوت الرومى صاحب معجم الأدباء ومعجم البلدان أكثر من مرة وتوفى بها سنة ٦٢٦ هـ[3].

والواسطى أبو محمد القاسم بن القاسم بن عمر (ولد سنة ٥٥٠ وتوفى بحلب سنة ٦٢٦ هـ) وكان أديباً نحوياً لغوياً فاضلاً ، قرأ النحو بواسط على الشيخ مصدق ابن شبيب ، وسمع كثيراً من الشيوخ فى النحو واللغة والقراءات وصنف « شرح اللمع لابن جنى » و « شرح التصريف الملوكى » وكتاب « فعلت وأفعلت » على حروف المعجم ، وشرح مقامات الحريرى . وله شعر . ودارت بينه وبين النابلسى الشاعر مهاجاة ، وله موشحات على طريقة المغاربة .

والشواء أبو المحاسن يوسف بن إسماعيل الكوفى الأصل الحلبى المولد والمنشأ والوفاة (توفى سنة ٦٥٣ هـ) . وكان أديباً فاضلاً متقناً لعلم العروض والقوافى ، شاعراً يقع له فى النظم معان بديعة فى البيتين والثلاثة ، وله ديوان شعر كبير يدخل فى أربعة مجلدات[4] .

وابن الصائغ أبو البقاء يعيش بن على بن يعيش (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ)

---

(١) المصدر نفسه ٣٠٦/٤ .

(٢) فوات الوفيات وأعلام النبلاء ٣٢٨/٤ .

(٣) أعلام النبلاء ٣٧٢/٤ .

(٤) وفيات الأعيان ٢٣٠/٦ .

حلبي المولد والإقامة سمع على جماعة من العلماء فى حلب ودمشق والموصل ومن بينهم التاج الكندى ، وكان فاضلاً ماهراً فى النحو والتصريف ، وكان شيخ الجماعة فى الأدب بحلب سنة ٦٣٦ هـ ، ولم يكن فيها مثله ، وكان يقرىء بجامع حلب بعد العصر ، وبين الصلاتين بالمدرسة الزجاجية ، وكان حسن التفهيم لطيف الكلام ، طويل الروح على المبتدى والمنتهى ، خفيف الروح ظريف الشمائل ، كثير المجون ، مع سكينة ووقار . وشرح كتاب المفصل للزمخشرى شرحاً مستوفياً وليس فى جملة الشروح مثله ، وشرح تصريف الملوكى لابن جنى شرحاً جيداً ، وانتفع به خلق كثير من أهل حلب وغيرها حتى إن الرؤساء الذين كانوا بحلب ذلك الزمان كانوا تلامذته[١] .

وابن العديم كمال الدين عمر بن أحمد (٥٨٦ - ٦٦٦ هـ) حسنة حلب ونابغتها فى الأدب ، والخط ، والفقه ، والتاريخ ، صاحب تاريخ حلب المشهور ، أخذ على التاج الكندى بدمشق ، وكان محدثاً فاضلاً حافظاً ، مؤرخاً صادقاً فقيهاً مفتناً ، منشئاً بليغاً ، كاتباً محموداً ، درّس وأفتى ، وصنف وترسل عن الملوك ، وكان رأساً فى الخط لاسيما النسخ والحواشى ، وله كتب كثيرة أشهرها « تاريخ حلب » فى أخبار ملوكها وبناء عمارتها ، ومن كان بها من العلماء . وكتاب « الدرارى فى ذكر الذرارى » صنفه للملك الظاهر غازى ، و « الأخبار المستفادة فى ذكر بنى جرادة » وتوفى بمصر ودفن بسفح المقطم[٢] .

والقفطى جمال الدين على بن يوسف كتب للظاهر غازى . وصاحب التصانيف فى التراجم[٣] .

والجيانى الطائى جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك (٦٦٠ - ٦٦٢ هـ) ، النحوى الشافعى سمع بدمشق وتصدر بحلب لإقراء العربية ، وصرف همته إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه النهاية وأربى على المتقدمين ،

---

(١) ابن خلكان ٦/٤٥ - ٥١ .

(٢) ارشاد الأريب ٦/٣٥ وفوات الوفيات ٢/٢٠١ وأعلام النبلاء ٤/٤٨٠ .

(٣) سبقت الإشارة إليه .

وكان إماماً فى القراءات وعللها ، صنف فيها قصيدة دالية فى قدر الشاطبية ، وأما اللغة فكان إليه فيها المنتهى ، وكان إماماً فى العادلية ، فكان إذا صلى فيها يشيعه قاضى القضاة ابن خلكان إلى بيته تعظيماً له ، وأما النحو والتصريف فكان فيهما بحراً لا يشق لجحه ، وأما اطلاعه على أشعار العرب التى يستشهد بها فى النحو فكان أمراً عجيباً . وكان أكثر ما يستشهد بالقرآن . فإن كان مافيه شاهد وإلا عدل إلى الحديث . فإن لم يكن شىء عدل إلى أشعار العرب وكان نظم الشعر عليه سهلاً ، وصنف كتباً منها : « تسهيل الفوائد » و « سبك المنظوم وفك المختوم » وكتاب « الشافية » ثلاثة آلاف بيت وشرحها ، و « الخلاصة » و « مختصر الشافية » و « إكمال الأعلام » و « فعل وأفعل » وغيرها[1] .

وابن خلكان نشأ بالموصل وإربل وتعلم واشتغل بها زمناً ثم قدم حلب وأخذ فيها على ابن شداد وابن يعيش وغيرهما ، وغادر حلب إلى مصر سنة ٦٣٥ هـ .

وابن الصلاح أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزورى (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) تولى التدريس بالموصل والقدس ثم دمشق وحلب ، وكان عظيم القدر فى العلم .

مصـــــــــــر

القـــاهرة :

القاهرة المعزية أحدث المراكز الثقافية التى تحدثنا عنها فى الإقليم المتوسط فى العراق والشام ومصر ، وقد بناها المعز لدين الله الفاطمى ، واتخذها قاعدة لملكه العلوى الذى ضم جزءاً من شمال افريقيا والشام ، وبسط نفوذه فى الحجاز وبعض أجزاء الجزيرة العربية الأخرى . وقد جمع المعز لعاصمته كل ما يمكن أن يجمع لعاصمة كبيرة من مظاهر العظمة والمجد ، بنى بها القصور

(١) فوات الوفيات ٢/٤٥٢ — ٤٥٣ .

الفخمة التى تضارع أعظم القصور العباسية فى بغداد ، وبنى فيها الجامعة الإسلامية الخالدة « الأزهر » لتجذب المثقفين من أطراف العالم الإسلامى ، وبنى المرافق العديدة وسار على هذه السنن خلفاؤه ، فكثرت بها القصور والمساجد والحمامات والسبل والمستشفيات واجتذبت كثيراً من العلماء ؛ وحوت مكتباتها نفائس الكتب حتى ضرب بمكتبة القصر الأمثال ، وتحدث بفرائد ما جمعت الركبان .

ولا عجب فى حرص خلفاء الفاطميين على أن يجعلوا لمصر والقاهرة هذه المكانة فى العالم الإسلامى ؛ لأنهم كانوا يطمعون من وراء ذلك أن يجذبوا أنظار المسلمين إليهم فى وقت كانت الخلافة العباسية السنية فى بغداد تضعف شيئاً فشيئاً تحت ضغط العناصر التركية والفارسية . وقد نجح الفاطميون فى أن يكسبوا مصر والقاهرة صبغة تضارع العراق وبغداد ، فأصبحت القاهرة تنافس بغداد فى الغنى والرفاهية ، وأصبحت أخلاق الناس وبحبوحة عيشهم وتفننهم فى النعيم مضرب الأمثال ، بل إن الأدب والفن والعلم قد ازدهر ازدهاراً ملحوظاً ، مما آذن بتحول القيادة الثقافية والفنية فى القرون التالية إلى القاهرة .

وقد جاءت الدولة الأيوبية فى أعقاب الدولة الفاطمية ، وكان الأيوبيون يعرفون أهمية مصر فى العالم الإسلامى ويقدرون ما يمكن أن تقوم به من أدوار فى مناوأة الصليبيين ، لهذا كان صلاح الدين حريصاً كل الحرص على تقوية مصر وتدعيمها تدعيماً كاملاً داخلياً وخارجياً ، واقتصادياً وعمرانياً وثقافياً وعسكرياً ، وقد أفادت مصر كثيراً من روح صلاح الدين ومناهجه الإصلاحية . لأنه كان يرى أنها خط الدفاع الثانى فى وجه الصليبيين أعدائه ، ودمشق المواجهة لهم خط الدفاع الأول .

ولم تتغير فى عصر صلاح الدين عما كانت عليه فى عصر الفاطميين تغيراً جوهرياً ؛ إلا أن طابع الترف الذى كان يصبغ عصر « المصريين » — كما يسمى الفاطميون — كان أغلب لأن صلاح الدين كان مهتماً بهدف واحد عبأ له جميع القوى ، ذلك الهدف هو تخليص العالم الإسلامى من الاحتلال

الصليبى ، لهذا كان همه الأول تقوية الصف الإسلامى بشتى السبل ، فكانت إصلاحاته كلها تدور حول هذا الهدف ، بناء القلاع : قلعة القاهرة على المقطم ، وبناء السور الكبير ، وتجديد بعض الحصون المحيطة ، ومحاولة الاستفادة بإمكانيات مصر الزراعية والاقتصادية عن طريق تحسين أحوال الفلاحين ، وتخفيف المكوس لتنشيط التجارة ، ثم رفع إمكانيات الناس وإعدادهم إعداداً صالحاً عن طريق العلم ، وهو الهدف الثانى لسياسة صلاح الدين للتمكين للمذهب السنى على أنقاض الشيعى ، وكان العلم والإكثار من المدارس ، وجلب علماء السنة من الأقطار المجاورة وتشجيعهم على الإقامة بمصر والتأليف بها . وتربية تلاميذ فيها لإخراج جيل جديد من أصحاب السنة من المصريين أنفسهم .

هذا هو الطابع الإسلامى للقاهرة فى عهد الأيوبيين ، وكان طبيعياً أن تجمع القاهرة إلى جانب هذا اللون الإسلامى العربى لوناً آخر مستمداً من البيئة المصرية نفسها من النيل والتاريخ القديم ومشاهده الباقية الخالدة كالأهرام وأبى الهول والمعابد ، والعادات والتقاليد المتوارثة .

وظل النيل فى القاهرة عنصراً مكملاً لها ، فالخليج يشقها وتقوم عليه قصور السراة والسادة ، وفى جزيرة الروضة توجد متنزهات القاهرة ومراتعها وملاهيها ، فالنيل فى القاهرة عنصر ترفيه وجمال ، وهو أيضاً عنصر الحياة والبركة ، ففى فيضانه الخير العميم لمصر ، تقام له الحفلات ويفرح الناس ويستبشرون خيراً وينتظرون عاماً جديداً مغلاً يحمل الثروة فى جنباته فيغنى الناس وينعمون . لهذا تغنى الشعراء بالنيل ، وبروضات النيل قال الشاعر الأول :

كأن النِّيلَ ذو فهمٍ ولُبٍّ ... لما يَبْدُو لِعَيْنِ النَّاس منهُ
فيأتى عندَ حاجتِهِمْ إليه ... ويمْضِى حينَ يَسْتَغْنون عنهُ

والثانى :

وفَّت أصابعُ نيلنا ... وطغتْ وطافَتْ فى البِلادِ
وأتت بكلِّ مسرةٍ ... من ذى أصابع ذى أيادِى

والثالث :

سَدّ الخليجُ بكسرِهِ جبرَ الورَى طـراً فكـلٌّ قـد غـدا مسرُوراً

ووقفت الأهرامات وأبو الهول فى الجانب الغربى من النيل أمام القاهرة تشهد الناس على المجد التليد ، وقد أصبح القول فى الأهرامات وأبى الهول جزءاً من آداب القاهريين وكل من مر بالقاهرة من الشعراء والأدباء ، بل إن للعلماء كذلك مع الأهرامات وأبى الهول نوادر وأخباراً .

قال ظافر الحداد[1] :

تـأمّـل بنيـةَ الهـرمين وانظُـر وبينهمـا أبـو الهـول العجيـبُ
كعمّـاريتّـين عـلى رحيـلٍ لمحبـوبين بينهُـمـا رقيـبُ
ومـاءُ النيـل تحتهما دموعٌ وصـوتُ الرّيـح عندهما نحيـبُ

وتنعم القاهرة بجو لطيف طوال السنة سوى أشهر صيف قصيرة ، تشتد فيها الحرارة ولا تبلغ حداً لا يطاق ، كذلك الحال فى الشتاء ؛ لا يشتد بها البرد ولا ينزل الصقيع . فجوها هذا ملائم للحياة ، حبيب إلى النفوس ، شجع العيش بها والتغنى بمحاسنها .

وأما مركز القاهرة كحاضرة ثقافية كبرى فى عصر صلاح الدين فقد ساعد ، عليه كل العوامل السابقة ، وزادها صلاح الدين صلة بالعالم الإسلامى لأنها كانت من قبل أقرب لأن تكون منعزلة عنه وعن المراكز الثقافية الهامة الأخرى ، مثل بغداد ودمشق وقرطبة . ذلك لأن حكام القاهرة كانوا من الشيعة المخالفين فى شعائرهم وعقائدهم جماعة المسلمين من أهل السنة ، ولكنَ بعد تغلب صلاح الدين على مصر وحكمه للقاهرة واسترجاعه لمذهب أهل السنة بمصر ، وإزالته لآثار الشيعة وثقافتهم عادت الصلات مرة أخرى بين القاهرة وبين المراكز الإسلامية ، بل أصبحت القاهرة شيئاً فشيئاً على رأس تلك المدارس الثقافية ، وبدأت الحركة الفكرية الإسلامية والعربية تتجمع فيها من المشرق والمغرب ، وخاصة بعد حركة المغول والتتار والصليبيين ، والفرنج

---

(١) خريدة القصر ٢ - ٧ .

فى أسبانيا . وأصبحت رحلة علماء الأقاليم الإسلامية إلى القاهرة طابع العصر ، فكانت مدارسها ومساجدها موئلاً لكثير منهم ، وصارت مكتباتها خزائن لكتبهم والكتب الأخرى التى كانوا يحملونها معهم ، وأصبحت القاهرة بعد زمن خزانة للتراث الفكرى الإسلامى كله حافظت عليه حفاظها على الرقعة الإسلامية أمام الغزو الصليبى والمغولى .

وتولى صلاح الدين الأمر فى القاهرة سنة ٥٦٧ هـ باسم الملك الناصر ، وجعل يوسع نفوذه شيئاً فشيئاً فى الشام والجزيرة ، وبلاد العرب واليمن والسودان وليبيا ، وعمل جهده على تدعيم مصر عسكرياً وعمرانياً وثقافياً .

وقد زار ابن أبى الصلت مصر قبيل الحكم الأيوبى فى عصر الفاطميين ووصف لنا سكانها فقال : « وأما سكان مصر فأخلاط من الناس مختلفة الأصناف من قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم وحبشان وأرمن وغير ذلك من الأصناف والأجناس على حسب اختلافاتهم »[١] .

ووصف لنا أخلاق أهلها فقال : « وأما أخلاقهم فالغالب عليهم اتباع الشهوات والانهماك فى اللذات ، والاشتغال بالترهات ، والتصديق بالمحالات ، وضعف المرائر والعزمات إلى غير ذلك مما حكاه أبو الحسين على بن رضوان فى ذلك ، واقتصه وأورده من الأمور الطبيعية »[٢] وقال : « وكان المصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقاً لها وتعويلاً عليها وشغفاً بها ، وسكوناً إليها ، حتى إنه قد بلغ من زيادة أمرهم فى ذلك إلى ألا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التى لا تحصر فنونها ولا تحصل أجزاؤها وأنحاؤها إلا بعد أن يستشير النجوم »[٣] .

ومع ذلك فإن ابن جبير عندما زار مصر والقاهرة أعجب بها إعجاباً كبيراً ، ووصف حال الناس فيها والعلم والعلماء والمدارس وصفاً يناقض وصف ابن أبى الصلت[٤] . ويبدو أن صاحب الرسالة المصرية عندما كان بمصر

(١) الرسالة المصرية ٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤ .

(٣) الرسالة المصرية لابن أبى الصلت فى مجموعة « نوادر المخطوطات » . تحقيق عبد السلام هارون .

(٤) راجع رحلة ابن جبير - الجزء الخاص بمصر .

فى أواخر العصر الفاطمى - قد لقى من سوء أحوال الناس ، واضطراب الحكم ، وقلق النفوس وتبلبل الخواطر ما جعله يخرج من مصر ساخطاً حانقاً فيصور هذا السخط فى رسالته ، والحق أن المصريين كانوا يميلون حقاً إلى اللهو وهذا طابع فيهم منذ الأزل ، حب المرح وخفة الظل والابتهاج بالحياة ، ولكن ليس كما صور هو ميلاً للترهات واشتغالاً باللذات . ولم يفوقوا فى الاشتغال باللذات مثلاً بغداد فى أوج ازدهارها ، ولم تنحرف الشهوات عند أهلها انحرافها عند البغداديين وغيرهم من سكان الحواضر الإسلامية الأخرى ، أما حديثه عن ميلهم لاستعمال أحكام النجوم فى كل ما يطرأ لهم من الشئون ، فإن هذا كان طابع العصر ، وقد أشرنا إليه من قبل ولم يكن شيئاً مقصوراً على المصّريين وحدهم ، بل إن المعتصم نفسه فى القرن الثالث الهجرى قد أشار عليه المنجمون قبل خروجه لحرب الروم ، ونصحوه بالقعود ، وقال فى هذه المناسبة أبو تمام قصيدته البائية :

السيف أصــدَقُ أنبــاءَ من الكـتـبِ   فى حَـدِّهِ الحـدُّ بينَ الجدِّ واللَّعِبِ

وعجب أن يصف ابن الصلت المصريين بالتقاعد والاشتغال بالترهات وضعف العزمات ، ويصفهم فى الرسالة نفسها بعدم التبحر فى العلم والأخذ فيه بالأسباب والاكتفاء بالمعلومات والمعرفة الأولية التى تمكنهم من الحياة وخاصة فى الطب والنجوم . أما التبحر فيقول « إنه ليس منهم من يرقى إلى هذه الدرجة ويسمو إلى هذه المرتبة » ، وواقع الحال يخالف ابن أبى الصلت مما سنذكره عما قليل من أخبار العلماء والعلم والأدب فى مصر ، وقد كان فيها الجامع الأزهر الكبير ، والمتكبة العامرة الزاخرة والعلماء فى كل فن وفرع من فروع المعرفة .

وبعد تولى صلاح الدين الأمر لم يرد مناوأة التيار الفاطمى دفعة واحدة ، فلم يقابله بالاضطهاد الصريح ، بل بدعاية مقابلة ، وعند ارتقائه الحكم لم يكن فى مصر معهد واحد لتعليم الدين على مذهب أهل السنة على الأصول الصحيحة ، فعمل على سد هذا العجز وبدأ فى تشييد المدارس[1] ، وأوقف

(١) سيرة القاهرة ، مترجم ص ١٦٢ .

عليها الأوقاف الطائلة[1] ، وقد شجعه على ذلك ما فعله نظام الملك فى العراق وبلاد فارس ، وما فعله نور الدين فى الشام ، وهكذا كان إدخال نظام المدارس فى مصر بمثابة انقلاب فى الثقافة ، فقد أخذت تتحول من الدراسات المتعلقة بالشيعة إلى دراسات الحديث والسنة والفقه على المذاهب الأربعة . كما فتحت الباب أمام الثقافات الإسلامية المتعددة لتتدفق على القاهرة مرة أخرى من أنحاء العالم الإسلامى[2] . وقد بنى من المدارس مدرسة بغرب قبر الإمام الشافعى بالقرافة ، قال عنها ابن جبير « وبنى بإزائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، ولا أوسع ساحة ولا أجل بناء ، يخيل لمن يطوف بها أنها بلد مستقل بذاته بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها ، والبناء فيها حتى الساعة (ساعة رؤية ابن جبير لها (سنة ٥٧٨ هـ) . والنفقة عليها لا تحصى ، تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشانى ، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ،ويقول زد احتفالاً وتأنقاً ،وعلينا القيام بمؤونة ذلك كله »[3].

وقد بدأ بناء هذه المدرسة سنة ٥٦٦ هـ ووقف عليها وقوفاً وجعل عليها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشانى المذكور[4]، وبنى مدرسة أخرى للشافعية غير مدرسة ضريح الإمام الشافعى ، وبنى ابن أخيه كذلك مدرسة ثانية للشافعية[5] .

وبنى مدارس الناصرية والقمحية ، وأسس الملك الكامل دار الحديث الكاملية[6] وبنى مدرسة للمالكية[7].

---

(١) وفيات الأعيان ٢٠٥/٦ - ٢٠٦ .

(٢) سيرة القاهرة ١٦٧ .

(٣) رحلة ابن جبير .

(٤) الروضتين ١٩١/١ ، ٢٦٨ .

(٥) المختصر ٥٠/٣ .

(٦) مصر فى العصور الوسطى ٤٢٣ .

(٧) الروضتين ١٩١/١ .

وإلى جانب هذه المدارس أنشأ القاضى الفاضل مدرسته سنة ٥٨٠ هـ وألحق بها مكتبة جعل فيها من كتب القصر مائة ألف كتاب مجلد[١].

وقامت مساجد القاهرة الكبرى بدور هام فى الثقافة ، وكانت جوامعها العامة كالأزهر وجامع ابن طولون وجامع عمرو بن العاص منارات للعلم ، وقد اهتم صلاح الدين بجامع عمرو فجدده سنة ٥٦٨ هـ ، وكان مكاناً مختاراً للعلم ، وكان بأركانه الأربعة مدارس للمذاهب الأربعة[٢] ، وكان محل إجلال من المسلمين جميعاً والعلماء وطلبة العلم خاصة ، فكان إلى جانب الدرس يجلس فيه القاضى ليحكم بين الناس فى صحنه[٣]. وقد درس به جماعة من المشهورين مثل ابن برى النحوى[٤] وتصدر للإقراء فيه عثمان بن على بن عمر السرياقوسى النحوى الصقلى[٥] ، كذلك كانت لأبى على النحوى حلقة فيه لإقراء القرآن والنحو ، وقد سمع عليه الحافظ السلفى الحديث[٦].

والأزهر لم يفقد مكانته فى عصر صلاح الدين ، وان كان قد تغيرت برامج الدرس فيه ، ومنعت الخطبة فى جامعه ، ولكنه ظل مناراً للعلم يقصده الطلاب من أنحاء العالم الإسلامى ، فينقلون مختلف العلوم والفنون ويكفل لهم العيش وتجرى الأرزاق ، وكان الحكام وأولو الأمر يوقفون على الطلبة الكتب النافعة ليفيدوا منها فى دراستهم .

ومكتبة القصر الفاطمى كانت مكتبة عامرة زاخرة بالكتب ، وأشرنا إلى أن عدد ما حوته كان يقرب من المليون مجلد من الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والجيدة .

أما علماء مصر فى هذه الفترة فقد تنوعوا ، فكان منهم من جاء من أقصى المشرق ، ومنهم من جاء من العراق والشام أو من الأندلس والمغرب ، ومنهم

---

(١) الخطط للمقريزى ٢/٢٥٥ .

(٢) سيرة القاهرة ص ١٠٠ .

(٣) المصدر نفسه ٥٨ .

(٤) إرشاد ٤/٢٨٩ .

(٥) إرشاد ٤/٣٨ .

(٦) معجم السفر للسلفى مصور ورقة ٢٩ .

من نشأ فى مصر ، وقال السبكى فى « عروس الأفراح » : « إنهم صرفوا هممهم إلى العلوم التى هى نتيجة أو مادة لعلم البيان كاللغة والنحو والفقه والحديث وتفسير القرآن »[1] وعزا ذلك إلى أنهم كانوا أصحاب ذوق ؛ لذلك احتاجوا إلى تعلم صناعة البيان بخلاف المشارقة الذين كانوا أميل إلى علم المعانى ، لأنهم بطبعهم ميالون للعلوم العقلية كالفلسفة والمنطق وعلوم ما وراء الطبيعة .

وقد كان فى مصر علماء مشهورون فى النحو واللغة والبيان والقراءات والفقه والتفسير والحديث والأدب ، ولكن لم يبرز فيها من الفلاسفة ولا علماء المنطق والكلام أئمة متقدمون مثل ما كان الحال فى المغرب ، فقد برز ابن رشد ، وفى المشرق الغزالى والزمخشرى والفخر الرازى .

ومنهم على بن منجب الصيرفى (توفى بعد ٥٥٠ هـ)[2] وكان أحد فضلاء المصريين وأدبائهم وبلغائهم ، سلم ذلك له غير منازع فيه ، وكان أبوه صيرفياً ، واشتهى هو الكتابة فمهر فيها وعرف بالبلاغة وحسن الخط ، والتحق بديوان الجيش والخراج مدة ثم استخدمه الأفضل الجمالى الوزير الفاطمى فى ديوان الرسائل ورفع من قدره وشهره ، وله من التصانيف كتاب « الإشارة فيمن نال رتبة الوزارة » و « لمح الملح » و « عقائل الفضائل » ، واختيارات كثيرة للدواوين الشعراء كديوان ابن السراج وأبى العلاء المعرى ، وله رسائل أنشأها عن ملوك مصر تزيد على أربع مجلدات . وقد لقيه الحافظ السلفى بالقاهرة ودارت بينهما مراسلات .

وابن الزبير القاضى الرشيد أحمد بن على بن الزبير (المتوفى سنة ٥٦٢ هـ) . قال عنه العماد فى الخريدة : كان ذا علم غزير وفضل كثير ، قتله شاور صبراً ، ونسب إليه أنه شارك أسد الدين شيركوه فى قصده[3] . وله كتاب « جنان الجنان ورياض الأذهان » جمع فيه جماعة من أدباء مصر

---

(١) عروس الأفراح ١ - ٥ .

(٢) إرشاد ٤٢٣/٥ .

(٣) الروضتين ١٤٦/١ .

وشعرائها ، ونقل عنه العماد فى الخريدة[1] .

وابن برى النحوى المصرى[2] أبو محمد عبد الله بن أبى الوحش برى بن عبد الجبار الإمام « المشهور فى علم النحو واللغة والرواية والدراية ، علامة عصره وحافظ وقته ، ونادرة دهره » . أخذ علم العربية عن الشنتريني وأبى طالب عبد الجبار المعافرى القرطبى وغيرهما ، قيل لم يكن فى الديار المصرية مثله ، قرأ كتاب سيبويه ، وتصدر للإقراء فى جامع عمرو . وله على كتاب « الصحاح » للجوهرى حواش فائقة أتى فيها بالغرائب ، واستدرك عليه فيها فى مواضع كثيرة ، وهى دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه .

قال ابن خلكان : « وكان عارفاً بكتاب سيبويه وعلله ، وكان إليه التصفح فى ديوان الإنشاء ، لا يصدر كتاب عن الدولة إلى ملك من ملوك النواحى إلا بعد أن يتصفحه ويصلح ما لعله فيه من خلل خفى » . وأخذ عنه أبو موسى الجزولى صاحب « المقدمة فى النحو » .

والبلطى عثمان بن عيسى بن هيجون (المتوفى سنة ٥٩٩ هـ)[3] الأديب النحوى . له شعر ومجاميع فى الأدب وكان طويلاً ضخماً كبير اللحية ويلبس عمامة كبيرة وثياباً كثيرة فى الحر ، وهو من بلدة بَلَط قريبة من الموصل ، وقد أقام بدمشق مدة ، وانتقل إلى مصر بعد أن ملكها الناصر صلاح الدين فجاء إليها ورتبه صلاح الدين لإقراء النحو واللغة بجامع عمرو . وألف كتاب « العروض الكبير » فى نحو ثلثمائة ورقة ، وكتاب « العروض الصغير » وكتاب « العظات الموقظات » و « المستزاد على المستجاد فى فعلات الأجواد » وكتاب « علم أشكال الخط » وكتاب « التصحيف والتحريف » وكتاب « تعليل العبادات » . وذكره العماد الأصبهانى فى الخريدة وقال عنه ياقوت إنه كان يخلط المذهبين فى النحو (يعنى مذهب البصريين والكوفيين) ويحسن القيام بأصولهما وفروعهما « وكان مع ذلك خليعاً ماجناً شريباً للخمر

---

(١) خريدة القصر ٢/٤١ .

(٢) ترجمة ابن خلكان ١/١٩٣ وخزانة الأدب الجزء الثانى .

(٣) فوات الوفيات ٢/٦٥ – ٦٧ .

منهمكاً فى اللذات . وذكر له من الكتب غير ما ذكرنا « النيّر فى العربية » و « أخبار المتنبى » و « التصحيف والتحريف » وموشحة فى القاضى الفاضل بديعة مليحة سلك فيها طريق المغاربة[1] .

وابن الحاج شيث بن إبراهيم بن محمد بن حيدرة ضياء الدين (توفى سنة ٥٩٩ هـ) القفاوى القفطى النحوى اللغوى العروضى ، أحد أكابر الأدباء ، برع فى اللغة العربية وفنون الأدب وتقدم فيها ، وسمع من الحافظ أبى طاهر السلفى وغيره وحدّث ودرّس وكان ذا هيبة ووقار ، وله مقامات معروفة ، ومواقف بين يدى السلاطين والأمراء ، وكانوا يخدمونه ويوقرونه . ومن كتبه « الإشارة فى تسهيل العبارة » و « المعتصر من المختصر » و « تهذيب ذهن الداعى فى إصلاح الرعية والراعى » صنفه للملك صلاح الدين و « حز القلاحم وإفحام المخاصم » وتعاليق فى الفقه على مذهب الإمام مالك و « قصيدة فى الأسماء المذكرة سبعون بيتاً[2] .

وأسعد بن مماتى (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ)[3] الشاعر الأديب العالم صاحب التصانيف من عائلة نصرانية خرجت من أسيوط بصعيد مصر ، وعمل والده فى ديوان الخراج وأسلم هو وابنه عند تولى صلاح الدين ، وله ديوان شعر جيد ، ومن كتبه « قوانين الدواوين » ، ونظم سيرة صلاح الدين ، ونظم كليلة ودمنة ، و « الفاشوش فى أحكام قراقوش » و « مختصر الذخيرة لابن بسام » .

وابن مساس الإمام جمال الدين أبو محمد عبد الله بن نجم (المتوفى سنة ٦١٦ هـ)[4] المالكى الفقيه صاحب كتاب « الجواهر الثمينة فى مذهب علم المدينة » وهو من أكثر الكتب فوائد فى الفروع ، رتبه على طريقة الوجيز للغزالى ، وفيه دلالة على غزارة علمه وفضله ، والطائفة المالكية بمصر كانت

---

(١) إرشاد الأريب ٤٣/٥ .

(٢) إرشاد ٢٦٤/٤ .

(٣) البداية لابن كثير ٨٧/١٣ .

(٤) ابن خلكان ٢٧/٣ وإرشاد ٤١٤/٥ .

عاكفة عليه لحسنه وكثرة فوائده ، وقد تولى التدريس بالقاهرة زمناً ومات بدمياط .

والسخاوى على بن محمد (المتوفى سنة ٦٤٣ هـ) مصرى الأصل من قرية مصرية ، اشتغل فى القاهرة على ابن فيرة الشاطبى عالم القراءات ، وأتقن عليه القراءات والنحو واللغة ، وسمع الحافظ السلفى بالإسكندرية ، وابن عوف ، وبالقاهرة من البوصيرى وابن ياسين ، ثم انتقل إلى دمشق فأخذ على أبى اليمن الكندى النحوى . وصنف من الكتب « شرح المفصل » للزمخشرى فى أربع مجلدات و « شرح الشاطبية » فى القراءات فى مجلدتين ، وتفسير القرآن .

والبوصيرى هبة الله بن مسعود بن ثابت (المتوفى سنة ٥٩٨ هـ) كان محدثاً جليلاً سمع على الحافظ السلفى[١] .

والشاطبى أبو محمد القاسم بن فيره الضرير المقرىء ، (المتوفى سنة ٥٩٠ هـ)[٢] صاحب القصيدة المشهورة فى القراءات (الشاطبية) وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتاً . أبدع فيها كل الإبداع . وكانت عمدة قراء ذلك الزمان نزيل القاضى الفاضل . رتبه بمدرسته الفاضلية بالقاهرة متصدراً لإقراء القرآن الكريم بقراءاته والنحو واللغة .

الأنبارى محمد بن محمد بن بنان (ولد سنة ٥٩٧ هـ وتوفى سنة ٦٩١ هـ) الكاتب من أهل مصر وأصله من الأنبار ، قرأ الأدب ، وسمع الحديث ، وكان شيخاً جليلاً ، مهيباً عالماً أديباً ، كاملاً بليغاً ، يكتب الخط الحسن ، ويقول الشعر الجيد ويترسل ، وفيه فكاهة ودماثة أخلاق ، ذهب إلى بغداد رسولاً من قبل سيف الإسلام طغشكين أخى صلاح الدين بمصر ، فأكرم مثواه . وتولى ديوان النظر فى مصر وتنقلت به الوظائف فى أيام صلاح الدين بتنيس والإسكندرية وكان القاضى الفاضل يجله ويغشى أبوابه ويمدحه ويفتخر بالوصول إليه . ومن مؤلفاته تفسير القرآن المجيد ، وكتاب المنظوم والمنثور فى مجلدين .

---

(١) ابن خلكان ٥/١١٧ .

(٢) إرشاد ٦/١٨٤ وفيات الأعيان ٣/٢٣٤ .

وقد حدّث بكتاب الصحاح فى اللغة للجوهرى وبالسيرة النبوية .

وابن نجيَّة زين الدين الحنبلى[1] ولد بدمشق سنة ٥٠٨ هـ ونشأ بها واشتغل بالتفسير والوعظ ، بعثه نور الدين محمود رسولاً إلى بغداد سنة ٥٦٤ هـ ثم جاء إلى مصر وسكنها أيام صلاح الدين ، وكان صلاح الدين يحضر مجلسه ، وكذلك أولاده ، وكان يجرى بينه وبين الطوسى العجائب فى المناظرات والمجادلات لأن الطوسى كان أشعرياً وابن نجية حنبلى . واقتنى أموالاً كثيرة ، وكانت له الجوارى والإماء ومات فقيراً مع ذلك سنة ٥٩٩ هـ .

أبو حفص الفهرى[2] اللغوى المصرى عمر بن مظفر بن سعيد القاضى رشيد الدين الشاعر الكاتب ، تنقل فى الخدم الديوانية ، ومدح الملوك والوزراء ، وكان كثير الحفظ . روى عن الحافظ المنذرى ، وعاش خمساً وسبعين سنة وتوفى سنة ٦٢٨ هـ وخدم الملك الكامل وانفصل عن خدمته .

ابن دحية الكلبى المحدث شيخ الديار المصرية فى الحديث وأول من باشر دار الحديث الكاملية بالقاهرة . توفى سنة ٦٣٣ هـ[3].

القفطى على بن يوسف[4] (٥٦٠ - ٦٤٦ هـ) القاضى الأكرم وزير حلب ، وأحد الكتاب المشهورين والعلماء المرموقين ، ولد بقفط بصعيد مصر ، وكان أبوه كاتباً ، ونشأ بالقاهرة ثم رحل إلى حلب فأقام بها ، وكان جمع كثيراً من العلوم كاللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل ، وجمع من الكتب مالا يوصف ، وقصد من أجلها الآفاق ، وكان لا يحب من الدنيا سواها ولم يكن له دار ولا زوجة . وأوصى بجميع كتبه للناصر صاحب حلب وكانت تساوى مائة وخمسين ألف دينار ، وله حكايات غريبة فى غرامه بالكتب . وهو أخو

---

(١) مرآة الزمان ٥١٥/٨ .

(٢) فوات الوفيات ٢٢٧/٢ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ١٤/٥ .

(٤) فوات الوفيات ١٩١/٢ - ١٩٣ .

المؤيد القفطى ، وله من التصانيف كتاب « الضاد والظاء » فيما اشتبه فى اللفظ واختلف فى الخط و « الدر الثمين فى أخبار المتيّمين » وكتاب « من ألوت الأيام عليه فرفعته ثم التوت عليه فوضعته » و « أخبار المصنفين وما صنفوه » و « أخبار النحويين » و « تاريخ مصر من ابتدائها إلى ملك صلاح الدين » ستة مجلدات ، و « تاريخ المغرب ومن تولاها من بنى تومرت » و « تاريخ اليمن منذ اختطت إلى عصره » .. وجملة كتب أخرى فى اللغة والتاريخ .

وعلى بن ظافر بن الحسين الأزدى (المتوفى سنة ٦١٣ هـ) مصرى الأصل ، قال ياقوت : إنه كان نعم الرجل له علوم جمة وفضائل كثيرة . قرأ الأدب وبرع فيه ، قرأ على والده أبى منصور ظافر الأصول ، وبرع فى علم التاريخ وأخبار الملوك وحفظ من ذلك جملة وافرة ، ودرّس بمدرسة المالكية بمصر بعد أبيه ، وترسل إلى الديوان وتولى الوزارة للملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر أيوب بالشام ، ثم عاد إلى مصر فتولى وكالة بيت المال مدة ، وكان متوقد الخاطر طلق العبارة ، ومع تعلقه بالدنيا كان له ميل كبير إلى أهل الآخرة محباً لأهل الدين والصلاح . أقبل فى آخر عمره على مطالعة الأحاديث النبوية ، وأدمن النظر فيها ، وروى عنه القوصى وغيره ، وله تآليف منها : « بدائع البدائة » فيمن قال شعراً على البديهة ، وكتاب « مكرمات الكتاب » ، وكتاب « أخبار الشجعان » وكتاب « أخبار الملوك السلجوقية » ، و « أساس السياسة » و « نفائس الذخيرة » ولم يكمُل . قال ابن شاكر : « ولو كمل ما كان فى الأدب مثله » . وكتاب « التشبيهات » وكتاب « من أصيب ممن اسمه على » وابتدأ بذكر على بن أبى طالب رضى الله عنه ، و « الدول المتقطعة » قال ابن شاكر : « وهو كتاب مفيد فى بابه » . وله شعر يروى بعضه ابن شاكر فى فوات الوفيات[1] .

والدقيقى سليمان بن بين بن خلف المصرى النحوى العروضى العلامة . اجتمع به ياقوت عند حضوره لمصر ، وأجازه مؤلفاته ، وذكرها ياقوت ،

---

(١) فوات الوفيات ٢/١٠٦ - ١٠٧ .

وهى كثيرة ؛ فى النحو واللغة والشعر ومعانيه ، والأدب ، والمجموعات ، والعروض والقوافى[1] .

وأبو الخير الأنبارى سلامة بن عبد الباقى بن سلامة (المتوفى سنة ٥٩٠ هـ بمصر)[2] كان عالماً بالقراءات والعربية وفنون الأدب ، جاء إلى مصر وسكنها وتصدر بجامع عمرو يقرىء القرآن والنحو ، وله شرح على مقامات الحريرى .

وابن معطى يحيى بن معطى بن عبد النور ، (ولد سنة ٥٦٤ هـ) بالمغرب ، ورحل إلى دمشق فأقام بها زماناً طويلاً ثم تركها إلى مصر واستقر به الحال فى القاهرة ، وتصدر بأمر الملك الكامل لإقراء النحو والأدب بجامع عمرو ، وقد لقيه ياقوت فى رحلته لمصر وهو إمام فى العربية أديب شاعر حنفى المذهب . اشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به ، وله مصنفات مفيدة ، والتى اشتهر بها منها ألفيته فى النحو ، والفصول الخمسة فى النحو ، وحواش على أصول ابن السراج ، ونظم الصحاح للجوهرى ولم يتمه ، والمثلث فى اللغة ، وقصيدة فى العروض ، وقصيدة فى القراءات السبع ، وديوان خطب، وتوفى سنة ٦٢٨ هـ بالقاهرة[3] .

والمنذرى زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى (٥٨١ - ٦٥٦ هـ) درّس بالجامع الظافرى بالقاهرة مدة ثم ولى مشيخة دار الحديث الكاملية وانقطع بها نحواً من عشرين سنة[4] .

والسرقوسى عثمان بن على بن عمر النحوى الصقلى . قال الحافظ السلفى : « إنه من العلم بمكانة نحواً ولغة » ، وقرأ القرآن على ابن الفحام ، وله تواليف فى القراءات والنحو والعروض ، وصارت له فى جامع مصر حلقة للإقراء . وقرأ عليه ياقوت ولازمه مدة إقامته بمصر[5] .

---

(١) إرشاد ٤/٢٥٠ .

(٢) إرشاد ٤/٢٤٤ .

(٣) إرشاد ٧/٢٩٢ ووفيات الأعيان ٥/٢٤٣ .

(٤) فوات الوفيات ١/٦١٠ .

(٥) إرشاد ٥/٣٨ - ٣٩ .

إلى جانب هؤلاء العلماء الأجلاء الذين عاشوا فى مصر ودرّسوا ونفعوا بعلومهم ومصنفاتهم جاء إلى مصر علماء من أقطار العالم الإسلامى ثم رحلوا عنها مثل عبد اللطيف البغدادى العلامة والرحالة صاحب الرحلة المشهورة إلى مصر ، وقد جاءها أيام العزيز عثمان ، وياقوت الرومى صاحب معجم الأدباء ، وابن خلكان سنة ٦٣٥ هـ ، والخطيب التبريزى البغدادى سنة ٥٢٠ هـ ، وأبو اليمن الكندى وقد حصل من خزائنها على كتب كثيرة وعاد إلى دمشق .

الإســـكندرية :

مركز هام من مراكز العلم والثقافة فى مصر فى عصور اليونان والرومان والإسلام ، وقد بناها الإسكندر الأكبر ، وسميت باسمه وصارت من بعده ثغر مصر العامر وعروس البحر الأبيض المتوسط ومنارة فى المعرفة ، جعلها البطالسة عاصمة ملكهم ، وجملوها بالقصور والمعابد ، وحملوا إليها من أطراف الدنيا الطرائف والمفاتن ، وتألقت بها كليوباترا ملكة مصر الخالدة ، ودارت على رمالها رحى الحرب بين جيوش روما ، واصطرع فتياها المظفران أنطونيوس وأوكتافيوس ، وعادت بعد ذلك قاعدة للرومان يحكمون منها مصر ويزهون فيها بحضارتهم وما جمعوه فى خزائنها ومكتباتها من نتاج فكرهم وخلاصة ثقافة اليونان قبلهم .

وعرفت الإسكندرية مركزاً ممتازاً للثقافة فى العالم القديم ، وورثت عن اليونان العلم والفلسفة ، وقامت بها مذاهب جديدة كالإفلاطونية الجديثة على يد بلوتينوس « أفلوطين » الفيلسوف السيوطى الأصل السكندرى النشأة والموطن . وعلى يد جماعة آخرين من فلاسفة الإسكندرية وعلمائها . وكان بها المكتبة الشهيرة ذات الصيت العريض فى العالم القديم ، والتى كانت تحوى من الكتب النادرة كل غال ثمين .

وفتح العرب الإسكندرية ، فصارت فى عهدهم كذلك مناراً للعلم فورثت الإسكندرية العربية الإسلامية الإسكندرية الهيلينية الرومانية . وقد أعجب العرب عندما جاءوها بما يروى عن مجدها التليد عن قصورها الرخامية ،

ومناراتها السامقة ، وعمود السوارى والمعابد والأسوار والأبواب الضخمة ولا نكاد نقرأ لجغرافى عربى وصفاً للإسكندرية وآثارها إلا ونلمس مدى الدهشة التى تعتريه ، وهو يسترسل فى ذكر ما صح من أخبارها وما لم يصح ، وإنما هو من قبيل الأساطير والخرافة ، لكنها أساطير تحمل علامات التمجيد والإكبار .

قال عنها المقدسى فى أحسن التقاسيم : « قصبة نفيسة على بحر الروم ، عليها حصن منيع ، وهو بلد شريف كثير الصالحين والمتعبدين ، شربهم من النيل يدخل عليهم أيام زيادته فى قناة فيملأ صحاريهم ، وهى شامية الهواء ، كثيرة الأمطار ، جامعة للأضداد ، جليلة الرُستاق جيدة الفواكه والأعناب ، طيبة نظيفة ، بناؤهم من الحجارة البحرية ومعدن الرخام »[1] . ويقول صاحب الكواكب السائرة عن مبانى الإسكندرية : « وقد مكث أهل الإسكندرية سبعين سنة لا يمشون فيها بالنهار إلا وعلى وجوههم خرق سوداء مخافة على أبصارهم من شدة بياض حيطانها ألا تختطف ، فكان لا يوقد فيها سراج بالليل وإذا كان فى الليالى المقمرة تدخل المرأة الخيط فى خرم الإبرة ليلاً من غير سراج » . ويقول عن العمران المحيط بها وما يكتنفها من بساتين ومزارع للفاكهة والكروم : « وكانت العمارة ممتدة من رمال رشيد إلى برقة . فكان الرجل يسير فى العمارة فلا يحتاج إلى زاد لكثرة الفواكه والثمار ، وكان لا يسير إلا فى ظلال الثمار والأشجار تستره من حر الشمس إلى أن يصل إلى برقة ، وأما الآن فى زماننا فخربت بالكلية »[2] .

ووصف العرب عمود السوارى وتعجبوا من بنائه وارتفاعه ، وأخذتهم الدهشة كذلك من منارتها ووقوفها فى البحر على صخرة ناشزة ، وجعلها جغرافيوهم من عجائب مصر ، ويندر أن نجد واحداً يتحدث عن مصر والإسكندرية ولا يذكر عمود السوارى والمنارة ويبالغ فى وصفهما ما شاء له الخيال .

---

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى ١٩٧ .

(٢) الكواكب السائرة ص ١٧١ .

ومن معالم الإسكندرية البحر الممتد أمامها والبحيرة التى وراءها والسور الضخم ذو الأبواب الأربعة ، كذلك من معالمها فى عصرها الإسلامى كثرة قبور الصالحين والمساجد . ونرى صاحب الكواكب السائرة يحدثنا عن الأماكن المقدسة بالإسكندرية والتى يرى أن العمل فيها والصلاة أفضل من غيرها سوى الحرمين وبيت المقدس ، ومنها مسجد سليمان عليه السلام ومسجدٌ لموسى عليه السلام ومسجد للخضر ومسجدُ ذى القرنين[1] .

وقد ظلت الإسكندرية محتفظة بطابعها الرومانى حتى بعد الفتح العربى ، وظلت الجاليات اليونانية تحتل الأماكن المختارة بالقرب من البحر وسط البلد ، وتحيط بها أحياء المسلمين واليهود . يقول صاحب تقويم البلدان إنها موضوعة على صورة رقعة الشطرنج ، وأزقتها كالصلبان لا يضيع فيها الغريب ، فشوارعها متقاطعة ، وأحياؤها كل حى يأخذ ركناً من أركانها .

ويذكر صاحب المسالك والممالك أنه كان بها سوى أهلها ستمائة ألف يهودى خولا لأهلها[2] وكان بها الملعب الكبير يتوسطها وقد ذكره صاحب الكواكب السائرة [3].

ومن متنزهاتها خليجها وما يحوطه من البساتين ويقول فيه ظافر الحداد الشاعر [4]:

وعَشِيَّةٌ أهدت لعينيك منظراً ... جاء السُّرورُ به لقلبك وافدا
روضاً كَمُخْضَرِّ العذار وجدولا ... نقشت عليه يدُ الشمال معابدا
والنخل كالغيد الحسان تزيّنت ... ولبسن من أثمارهن قلائدا

وقد أحب الإسكندرية كثيرٌ ممن وفد إليها لطيب هوائها واعتدال نسيمها أكثر أيام السنة ، لكن بعضهم قد ضاق بكثرة رطوبتها فهجاها كما قال الشاعر[5] :

---

(١) الكواكب السائرة ص ١٠٨ .
(٢) المسالك والممالك ص ١٦٠ .
(٣) الكواكب ص ١٧٤ .
(٤) تقويم البلدان ص ١٠٦ .
(٥) الكواكب السائرة ١٢٢ .

الإسكندرية مكربة زحمٌ ونار تُسْعَرُ
إن قيل ثغرٌ أبيضُ فأقول لكن أبخرُ

كذلك هجا بعضهم أهل الإسكندرية واصفاً إياهم بالبخل كما قال الشاعر ابن صقر الخفاجي[1] :

نزيل الإسكندرية ليس يُقرى سوى بالماء أو عمد السوارى
ويتحف حين يكرم بالمدالى ويولَمُ بالإشاره للمنار
وذكر البحر والأمواج فيه ووصف مراكب الروم الكبار
فلا يطمع نزيلهم بخبز فما فيها لذاك الحرف قارى

وجاء حماد بن جبير الرحالة فذمَّ أصحاب المكوس فيها ، ولم يعجبه منهم تشددهم مع المسافرين .

وللإسكندرية مع صلاح الدين دور ملحوظ ، فقد ولاه إياها عمه شيركوه عند حضوره مصر أول مرة ، فحاصره فيها الفرنج بمساعدة شاور سنة ٥٦٢ هـ وضيقوا عليه الحصار ، وكان عمه مشغولاً بالصعيد لولا أن أهلها قدموا له المعونة ؛ وحفظوه وقت الشدة ، ودافعوا عن مدينتهم ، فحمل لها صلاح الدين فى نفسه أجمل الأثر واعترف بجميلها وجميل أهلها وكان يتردد عليها دائماً ، جاءها أول مرة بعد توليه أمر مصر سنة ٥٦٦ هـ ليشاهدها ويرتب قواعدها . قال صاحب الروضتين : « وعم أهلها بإحسانه خير كثير ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها »[2] . وصحبه فى إحدى زياراته لها سنة ٥٧٢ هـ عماد الدين الأصبهانى وولداه الأفضل على والعزيز عثمان ، وقد ترددوا جميعاً مع السلطان على الشيخ الحافظ أبى طاهر السلفى ، وصام فيها تلك السنة شهر رمضان ، وأمر بتعمير الأسطول المصرى الراسى فى شواطئها . قال أبو شامة : ولما نوى السلطان المقام بالإسكندرية ليصوم فيها رأى أنه لا يخلى نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد فى المشركين ،

---

(١) الكواكب ١٧١ .

(١) الروضتين ٩١/١

فرأى الأسطول قد أخلقت سفنه وتغيرت آلاته ، فأمر بتعمير الأسطول ، وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كثيرة ، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليه ، وشحنه بالرجال وولى فيه أحد أصحابه ؛ وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً وديواناً مفرداً »[1] .

إذاً فقد كانت الإسكندرية أيضاً قاعدة بحرية لأسطول صلاح الدين تقوم بها « ترسانة » لعمل السفن وإصلاحها ؛ وتمدها بما يلزم لها وقت السلم والحرب على السواء .

وقد تولى الإسكندرية جماعة من القادرين من رجاله ، ممن ساروا فى الناس سيرة حسنة فازدهرت فى عهدهم المدينة وجاء إليها كثير من العلماء والفضلاء .

وأهم الأحداث التى وقعت للإسكندرية فى عصر صلاح الدين هى حصار شاور والفرنج سنة ٥٦٢ هـ ، ثم غزو أسطول صقلية فى اليوم السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ وانهزامه بعد أربعة أيام فى أول المحرم سنة ٥٧٠ هـ . قال أبو شامة فى وصف هذه الوقعة : « إن أول الأسطول وصل وقت الظهر ، ولم يزل متواصلاً متكاملاً إلى وقت العصر ، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر لا على حين خفاء من الخبر ، فأمر ذلك الأسطول كان قد اشتهر وروع به ابن عبد المؤمن فى البلاد المغربية ، وهدد به الجزائر الرومية صاحب قسطنطينية ، فشوهد بالثغر من وفور عدته وكثرة عدده وعظيم الهمة به وفرط الاستكثار منه ما ملأ البحر واشتد به الأمر ، فحمى أهل الثغر عليهم البر ثم أشير عليهم بأن يقربوا من السور فأمكن الأسطول النزول ، فاستنزلوا خيولهم من الطرائد ، وراجلهم من المراكب فكانت الخيل ألفاً وخمسمائة رأس ، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل مابين فارس وراجل ، وكانت عدة الطرائد ستاً وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وكان معهم مائتا سفين فى كل سفين مائة وخمسون راجلاً ، وكانت عدة السفن التى تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن ، ودارت

---

(١) الروضتين ١/٢٦٩ .

المعركة قاسية عنيفة بين الفريقين ، واستبسل أهل الإسكندرية فى الدفاع حتى أجلوهم عن مدينتهم وجاءت النجدة من صلاح الدين فأفلت القبرصيون ولم يتمكنوا من البلد[1] .

وكان للإسكندرية أهميتها التجارية ، إذ هى أقرب ثغور مصر إلى أوربا ، وقد اهتم صلاح الدين وولاته وخلفاؤه بتنشيط الناحية التجارية وتشجيعها بها ، كما سمح السلطان الكامل بن العادل بتأسيس سوق تجارية للبنادقة (أهل البندقية) سميت (سوق الأيك) ومنحت نفس الامتيازات التى أعطيت لأهل بيزا الذين أرسلوا قنصلاً إلى الإسكندرية[2] .

وكانت الإسكندرية كذلك مركزاً هاماً لصناعة الزجاج منذ العصر الفاطمى[3] وكان يصنع بها الحرير . وكانت تحوطها البساتين والزراعات ، وقد ذكر الحافظ فى معجمه كثيراً عن مزارع الكرم خارجها[4] كما جاءت أخبار ذلك فى كثير ممن كتبوا عن الإسكندرية فى هذا العصر .

وأما المساجد والمدارس التى كانت بها فقد ذكر ابن جبير أنه كان يوجد بها جامع قديم لعمرو بن العاص ويصلى فيه المالكية الجمعة[5] ، وجامع العطارين بناه أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٧٧ هـ[6] ، والمدرسة السلفية بناها أبو الحسن على بن السلار الوزير الفاطمى للحافظ أبى طاهر السلفى .

وكانت بها كذلك فى هذا العصر دار كتب كبيرة تسمى دار كتب الحكيم أرسطاليس حبس فيها أمية ابن أبى الصلت[7] .

واشتهرت فى الإسكندرية فى القرن السادس الهجرى مدرستان كبيرتان

---

(١) الروضتين ١/٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٢) مصر فى العصور الوسطى ٤٤٩ .

(٣) المصدر نفسه ٢٤٨ .

(٤) معجم السلفى ورقة ٢٨ .

(٥) رحلة ابن جبير ٥٤ .

(٦) النجوم الزاهرة ١١٩٥ .

(٧) الإرشاد ٢/٣٦٤ .

للحديث والثقافة الإسلامية عامة ونعنى المدرسة العوفية[1] وشيخها ابن عوف رشيد الدين عبد العزيز بن محمد بن طاهر (توفى سنة ٥٨١ هـ) من ذرية عبد الرحمن بن عوف وأحد فقهاء الإسكندرية ومفتيها فى مذهب مالك . والمدرسة السلفية[2] وشيخها الحافظ أبو طاهر السلفى (توفى سنة ٥٧٦ هـ) .

وقد كانت الإسكندرية بفضل هاتين المدرستين ، وما جمعتا من العلماء ، وبفضل غيرهما من مدارس أهل السنة والحديث الأخرى الأقل شأناً ، مركزاً هاماً ومعقلاً كبيراً لأهل السنة . ذكرها القاضى الفاضل فى رسالة لصلاح الدين فقال : « ومما يطرف به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب السنة »[3] .

وأنشأ صلاح الدين بها مدرسة ثالثة كبيرة لأهل السنة . ودرست فيها اللغة وعلوم الدين والطب والفلسفة ، وألحقت بها مساكن للطلبة ، وحمامات ومارستان لعلاجهم . ووصفها ابن جبير فى رحلته .

كذلك ظهرت بالإسكندرية طائفة يسمون الصوفية يأمرون بالمعروف – فيما زعموا – ويعارضوه السلطان فى أمره ، وقد قويت هذه الحركة عندما جاءها فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع جماعة من متصوفة المغرب ، وكان أشهرهم فى القرن السابع أبو الحسن الشاذلى وتلميذه أبو العباس المرسى .

مدرسة السِّلفى :

بناها الوزير الفاطمى ابن السَّلار سنة ٥٤٤ هـ للحافظ السلفى ، وقد ظل يدرّس بها ويقرأ الحديث ما يقرب من نصف قرن ، تخرج عليه فيها جماعة من العلماء الكبار الذين وفدوا إلى الإسكندرية من مصر ومن المغرب والمشرق .

أما السلفى نفسه فهو عالم من أصل فارسى من أصبهان ، وقد نسب إلى

---

(١) بناها الوزير رضوان بن ولخشى الوزير الفاطمى سنة ٥٣٣ هـ .

(٢) أنشأها الوزير العادل ابن السلار الفاطمى وزير الخليفة الظافر الفاطمى (توفى سنة ٥٤٤ هـ) .

(٣) أبو شامة فى الروضتين .

سلفه بكسر السين جده ، ولد سنة ٤٧٢ هـ ، وتعلم ببلده وسمع عن علمائها فى ذلك العصر ، ثم رحل عنها فى سنة ٥٠٠ هـ وطاف الأقاليم ، فزار فى المشرق كثيراً من البلاد التى عمرت بالعلماء إلى شهرستان والرى وهمذان وزنجان وشينيا بالقرب من واسط والسوس من مدن خوزستان وتستر وآمد وميافارقين وصور وبغداد ، وقد زار بغداد مرتين ، زارها سنة ٤٩٠ هـ وظل بها إلى سنة ٤٩٧ هـ وأخذ عن مشاهير علمائها ومنهم أحد شيوخ الصوفية كما يقول فى معجمه ، ثم خرج من بغداد إلى الحج وسمع بمكة من بعض العلماء المجاورين ، وذهب إلى دمشق سنة ٥٠٩ هـ بعد طوافه ببلاد المشرق ، وبقى بها ردحاً من الزمن يسمع العلم والحديث والأدب عن علمائها ؛ ومن بينهم ابن الخلاط ، وانتقى من شعره مجلدة لطيفة حفظها عنه ، ثم جاء إلى مصر فى عهد الفاطميين ونزل بالقاهرة ثم غادرها إلى الإسكندرية ، وعاد إلى القاهرة مرة ثانية ثم غادرها نهائياً إلى الإسكندرية حيث بقى بها إلى أن توفى . وقد كان بالإسكندرية قبل سنة ٥٢٩ هـ لأنه سمع على القاضى ابن أبى الحديد قاضى الإسكندرية الذى توفى فى هذه السنة .

وعندما استقر به المقام بالإسكندرية ، كان بها العادل ابن السلاّر والياً . وقد احتفل به وزاد فى إكرامه وعمر له المدرسة التى عرفت باسمه وفوض تدريسها له ، وجعلها للشافعية[1] . قال ابن خلكان عندما زار الإسكندرية بعد وفاة السلفى بزمن طويل يقرب من خمسين سنة : وهى معروفة به الآن ولم أر مدرسة للشافعيين سواها .

وكان الحافظ فقيهاً ورعاً ثقة فاضلاً ، حافظاً متقناً ، سمع كثيراً وحفظ كثيراً وكان اهتمامه منصباً على الحديث وجمعه . قال منشداً لنفسه :

إنَّ عِلمَ الحديث علمُ رجالٍ   تركُوا الابتدَاع للإتْبَاعِ
فإذا الليلُ جنَّهم كتبُوهُ   وإذا أصبحُوا للسَّمَاعِ

ألف معجماً كبيراً لشيوخه ومن بينهم القارىء أبو جعفر أحمد بن الحسين

---

(١) وفيات الأعيان ٣/٩٣

ابن السراج ، والزمخشري ، وقد كانت بينهما مراسلات واستعار بعض كتبه[1]، والنهرواني بن عبد الله سلمان بن عبد الله النحوي اللغوي المفسر ، وعثمان بن علي الخزرجي الصقلي ، وقد روى له مختصراً في القوافي[2] ، والشاعر محمد بن خليفة التميري العراقي المتوفى سنة ٥١٥ هـ[3] ، وروى عن عثمان بن علي بن المعمر بن أبي عمامة البقال المتوفى سنة ٥١٧ هـ . كما اتصل بجماعة آخرين من الشعراء والعلماء والأدباء وروى بعض كتبهم ، فروى رسالة الحسن بن علي بن محويه إلى أبي حميد سبأ بن أبي السعود اليماني وهي مشهورة[4] . قال ياقوت وهي رسالة مطولة جيدة للشاعر اليمني[5] المتوفى سنة ٥٨١ هـ . وروى كذلك شعراً كثيراً لشعراء مصر في عصره مثل ظافر بن القاسم الحداد الجذامي الإسكندري المتوفى سنة ٥٢٩ هـ وجمع مجلدة لطيفة انتخبها من شعر ابن الخياط الدمشقي عندما كان بدمشق سنة ٥١٠ هـ[6] .

واستقر السلفي بالإسكندرية ، وتزوج واحدة من كريمات نسائها سنة ٥٣٤ هـ[7] ، وكان الناس يجلونه والحكام يكبرونه ويسعون إليه ، وكان صلاح الدين كلما جاء إلى الإسكندرية ذهب ليسمع عنه ، وكان يتردد عليه عادة في أيام الخميس والجمعة والسبت من كل أسبوع ومعه بعض ولده . قال العماد عن زيارة صلاح الدين للإسكندرية سنة ٥٧٢ هـ : « ثم وصلنا ثغر الإسكندرية وترددنا مع السلطان إلى الشيخ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي وداومنا الحضور عنده ، واجتلينا من وجهه نور الإيمان وسعده ، وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان واغتنمنا فرصة الزمان ، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبناها من العمر حتى آخر ما اجتمعنا به في ذلك الثغر » .

---

(١) إرشاد ١٥٠/٧ .

(٢) إرشاد ٤٠/٥ .

(٣) فوات الوفيات ٤٠٢/٢ .

(٤) فوات ٢٧٨/١ .

(٥) إرشاد ٨١/٤ .

(٦) معجم السلفي ق ١١ .

(٧) معجم السلفي ق ١٨ .

وكان يعيد عليه فى المدرسة رافع بن يوسف بن زيدون القيسى الإسكندرى وهو حائك ثياب ، وكان عدة تلاميذه أربعين من الصبيان ، وقد قرأ السلفى كثيراً من الحديث وكتب جملة من الأمالى التى أملاها وتوفى سنة ٥٥١ هـ[1] .

وتوفى الحافظ يوم الجمعة خامس من شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٦ هـ . وقد جاوز المائة بخمس سنين ولم يكف عن التدريس إلى أن مات يروى عنه أنه قال :

أنا إن بانَ شَبابى ومَضَى ... فلربىَّ الحمدُ ذِهنى حاضِرُ
ولئن خفْتُ وجفَّتْ أعظمى ... كِبراً غُصْنُ عُلوُمِى نَاضِرُ

ودفن بالإسكندرية بالباب الأخضر . قال أبو شامة : « وقد زرت قبره بالباب الأخضر » .

وقد ذاع صيت السلفى عند المغاربة فتوافدوا إليه وحطوا رحالهم عنده بالإسكندرية وقرءوا عليه وسمعوا الحديث ، ثم رووا عنده ما يحفظون من العلوم والآداب ، وكان يقيد كل ما يسمع من تلاميذه ، ويبدو أنه خلف غير معجمى السفر والمشايخ كتباً أخرى فى الأحاديث والأمالى . قال ابن خلكان إن أحد سماسرة الكتب سافر بعد موته إلى الإسكندرية لبيع كتبه[2] .

أما تلاميذه الذين أخذوا العلم فى مدرسته أو الذين سمعوا عليه فهم عديدون لا يمكن حصرهم ، فقد ظل كما قلنا يلقى العلم ويحدث أكثر من نصف قرن ، ونعد من بينهم المشهورين أمثال الحازمى محمد بن موسى الهمذانى صاحب التصانيف الفائقة ، وابن الجلاجلى ، وقد حدث فى أسفاره بشىء من مسموعاته منه وتوفى سنة ٦١٢ هـ . والصفى ابن شكر الوزير المصرى (المتوفى سنة ٦٢٢ هـ)[3] ، ومحمد بن خلف المقدسى ولد سنة ٥٢٠ هـ وتوفى سنة ٦١٨ هـ وكتب الكثير للناس وروى عنه خلق ، والشاعر ابن قلاقس الإسكندرى (المتوفى سنة ٥٦٥ هـ) ، والعلامة الجميزى المتوفى سنة

---

(١) معجم السلفى ق ٥٢ .
(٢) وفيات الأعيان ١/١٧١ .
(٣) الوافى بالوفيات ١/٤٦٤ .

٦٤٩ هـ مفتى الديار المصرية والذى انتهت إليه مشيخة العلم بمصر ، والحافظ على بن مفضل اللخمى المقدسى الإسكندرانى الفقيه المالكى المتوفى سنة ٦١١ هـ والحافظ الجماعيلى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ ، وصاحب حماة الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه أيوب ، والحافظ ضياء الدين السعدى المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ، والفقيه عيسى الهكارى الأمير الخطير والمقرب لصلاح الدين (المتوفى سنة ٥٨٥ هـ) ، والشاطبى صاحب الشاطبية وعالم القراءات (المتوفى سنة ٥٩٠ هـ) وابن الحاج النحوى القفطى (المتوفى سنة ٥٩٩ هـ) ، والقاضى ابن الزبير الأسوانى الشاعر الإسكندرى الإقامة (المتوفى سنة ٥٦٢ هـ) ، وأبو بكر يحيى بن سعدون القرطبى (المتوفى سنة ٥٧٦ هـ) وأحد الأئمة المتأخرين فى القراءات وعلوم القرآن والحديث والنحو ، وابن سناء الملك الشاعر المصرى ، وابن ظفر الصقلى روى عنه مقامات الحريرى عن صاحبها ، وروى عنه ياقوت كثيراً فى معجمه[1] .

مدرسة ابن عوف :

ابن عوف رشيد الدين عبد العزيز بن محمد بن طاهر (المتوفى سنة ٥٨١ هـ) من فقهاء الإسكندرية ومفتيها فى مذهب مالك بن أنس ، ذهب إلى دمشق سنة ٥٦٢ هـ وكان عمره إذ ذاك ستين سنة ، وكان قد أقام قبل ذلك فى الإسكندرية زمناً فى المدرسة التى أنشئت له وتولى التدريس بها وسميت باسمه . ولم تشتهر المدرسة العوفية شهرة السلفية معاصرتها ، وقد كان صلاح الدين يستفتيه فى بعض أموره ، يقول صاحب أعلام النبلاء : « سأل صلاح الدين القاضى الفاضل أن يتسفتيه عما ورد من الأحاديث فى قضاء الأعمى هل يجوز أم لا »[2] وسمع عليه من أبناء صلاح الدين العزيز عثمان[3] .

وعندما زار صلاح الدين الإسكندرية سنة ٥٧٧ هـ قال نغتنم حياة الشيخ

(١) ترجمة السلفى فى تاريخ ابن عساكر ٤٤٦/١ طبعة الشام ١٣٤٩ هـ .

(٢) أعلام النبلاء ٢٨٠/٤ .

(٣) ابن خلكان ٤٣٥/٢ .

أبى طاهر بن عوف فحضر عنده وسمع عليه موطأ مالك بن أنس بروايته عن الطرطوشى فى العشر الأخير من شوال ، وتم له ولأولاده السماع[1] .

وممن اشتهر بالإسكندرية من علماء اللغة :

ابن عبد الجبار بن على بن عبد الجبار بن سلامة بن عيذون (ولد سنة ٤٢٨ هـ وتوفى سنة ٥١٦ هـ) وكان إماماً فى اللغة حافظاً لها . حتى إنه لو قيل لم يكن فى زمانه ألغى منه لما استبعد ، وكانت له قدرة على نظم الشعر . قال الحافظ السلفى : « وكانت له قدرة على نظم الشعر ، وله إلىّ قصائد وقد أجبته عنها . ومن جملة شعره قصيدة فى الرد على المرتد البغدادى فيها أحد عشر ألف بيت على قافية واحدة فيها فوائد أدبية »[2] .

والقاضى سند بن عنان الأزدى ، أخذ عن أبى بكر الطرطوشى وجلس لإلقاء الدرس بعده فى الإسكندرية ، وانتفع به الناس ، ومن أهم آثاره كتاب حسن فى الفقه شرح به كتاب المدونة فى مذهب مالك أنهى به ثلاثين سفراً ومات قبل أن يتمه . وألف فى الجدل أيضاً ، توفى بالإسكندرية سنة ٥٤١ هـ .

الديباجى بن إلياس ، القاضى الشريف أبو محمد عبد الله العثمانى من ولد عمرو بن عثمان بن عفان (توفى سنة ٥٧٢ هـ) من بيت قضاء وعلم ، كان واسع الباع فى علم الأحاديث ، كثير الرواية قيماً بالآداب ، متفوقاً فى النظم والنثر ، إلا أنه مقل فى النظم ، أوحد عصره فى علم الشروط وقوله المقبول على العدول[3] .

وعلى بن ظافر صاحب كتاب « بدائع البدائة » ، الذى جمع كثيراً عن أدباء العصر وأدبهم ، وكان فى خدمة الملك العادل بالإسكندرية سنة ٦٠١ هـ[4] .

---

(١) مفرج الكروب ١١٢/٢ .

(٢) معجم السلفى مصورة بمكتبة بلدية الإسكندرية .

(٣) الروضتين ٢٧١/١ .

(٤) بدائع البدائة ١٧٧ .

وابن شيث جمال الدين عبد الرحيم بن على بن شيث بن إسحاق الكاتب (من أبناء إسنا ولد سنة ٥٠٧ هـ) بها ونشأ وتأدب بقوص ، وتعلم هناك كثيراً من العلوم والآداب وكان ديناً حسن النثر والنظم ، ولى الديوان ببلاد قوص فبالإسكندرية فبيت المقدس ، ثم تولى كتابة الإنشاء للمعظم عيسى بدمشق[١] .

وابن الحاجب[٢] أبو عمرو بن عمر بن أبى بكر النحوى المصرى المشهور (ولد بإسنا بالصعيد سنة ٥٧٠ هـ وتوفى سنة ٦٤٦ هـ) . وكان والده حاجباً للأمير عز الدين موسك الصلاحى ، وكان كردياً ، واشتغل أبو عمرو هذا بتحصيل العلم فى صغره بالقاهرة ، فحفظ القرآن ، وتعلم شيئاً من الفقه على مذهب الإمام مالك ، ثم تعلم العربية (النحو) والقراءات وبرع فى علومها وأتقنها غاية الإتقان ، ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعها فى زاوية المالكية وأكب الخلق على الاشتغال عليه ، وانتقل إلى الإسكندرية للإقامة بها ، ولم تطل مدته فيها فتوفى سنة ٦٤٦ هـ ودفن خارج باب البحر ، وقد رثاه أحمد بن المنيّر ، وغلب عليه فى علمه النحو ، وقد ألف مختصراً فى مذهبه المالكى ، ومقدمة وجيزة فى النحو سماها الكافية وهى التى شهر بها وأخرى فى التصريف وسماها الشافية وشرح المقدمتين . وصنف فى أصول الفقه . قال ابن خلكان : وكل تصانيفه فى نهاية الحسن والإفادة ، وخالف النحاة فى مواضع ، وأورد عليهم إشكالات وإلزامات تبعد الإجابة عنها ، وكان من أحسن خلق الله ذهناً . وذكر صاحب بغية الوعاة أنه كان من أذكياء العالم .

وكان بها من النساء المشهورات بالعلم والأدب جماعة ذكرهن السلفى فى معجمه وابن خلكان فى الوفيات ، من بينهن : تقية بنت غيث بن على الأمنازى الصورى المدعوة ست النعم ، قال السلفى عنها : « ولم تر عينى شاعرة قط سواها »[٣] .

---

(١) تراجم رجال القرنين السادس والسابع ص ١٥٣ .

(٢) ابن خلكان ٤١٣/٢ ، شذرات الذهب لابن العماد ٢٣٤/٥ والحياة العقلية ٢٠٧ والحركة الفكرية لعبد اللطيف حمزة ٢٢١ .

(٣) معجم السلفى ق ١٧ .

وخديجة بنت أحمد بن إبراهيم الرازى المدعوة مليحة ، روى عنها السلفى وقال : « وخديجة هذه أبوها محدث وأخوها محدث ، وقد حدثت أختها كما حدثت هى وتوفيت خديجة فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٢٦ هـ ، وهى بكر لم تتزوج قط ، وكانت تصلى طول الليل ولا تنام إلا عن غلبة »[1] .

والجديدة بنت المبشر بن فاتك الدمشقى وروى عنها السلفى .

وترفة بنت أحمد بن إبراهيم الرازى (المتوفاة سنة ٥٣٤ هـ) قال عنها السلفى[2] : « ترفة هذه من بيت العلم ، وهى فى نفسها كانت دينة كثيرة المعروف ، وتسمى أيضاً عائشة وتدعى ترفة رحمها الله . قرأنا عليها سنة ٥٣٤ هـ وتوفيت بعدها بمدة قليلة . رحمة الله عليها ، وكانت امرأة الشيخ أبى عبد الله محمد أبى موسى الخولانى الذى تزوجت أنا بعد موته بابنته »[3] .

وهكذا كانت الإسكندرية فى القرن السادس وأوائل القرن السابع مناراً للعلم ، زاخرة بالعلماء من كل لون ، والأدباء والشعراء وقال فيها أبو المظفر — كما يرويه صاحب النجوم الزاهرة : « وفى سنة ٦٤١ هـ قدمت القاهرة وسافرت إلى الإسكندرية فوجدتها كما قال الله تعالى : (ذات قرار ومعين) معمورة بالعلماء ، مغمورة بالأولياء الذين هم فى الدنيا شامة : كالشيخ محمد القبارى والشاطبى وابن أبى أسامة ، وهى أولى بقول القيسرانى رحمه الله فى وصف دمشق :

أرضٌ تحلّ الأمانى فى أماكِنِها ... بحيثُ تجتمِعُ الدُّنيا وتفْترِقُ
إذا شَدَا الطَيْرُ فى أغْصانها وَقَفَتْ ... على حدائِقها الأسْماعُ والحدَقُ

قال صاحب النجوم : وإن قول أبى المظفر من قول مجير الدين بن تميم فى وصف الإسكندرية[4] :

لما قَصدْتُ الإسكندرية زائراً ... ملأتْ فُؤادِى بهجةً وسروراً

---

(١) معجم السلفى ق ٤٦ — ٤٧ .

(٢) المعجم ق ١٩ .

(٣) المعجم ق ١٨ .

(٤) النجوم الزاهرة ٣٤٦/٦ .

ما زرتُ فيها جانباً إلاَّ رأتْ عينـاىَ فيها جنـةً وحَرِيـراً

قــوص :

كانت ثالث البلاد أهمية فى مصر من حيث الثقافة وكثرة العلماء والمدارس وكانت تلى الإسكندرية فى هذا الميدان ، وقد خرج منها جماعة من العلماء الأجلاء المذكورين ، والذين كانت لهم آثار باقية فى الثقافة والأدب والعلم . وهى فى أقصى الصعيد ، كانت مرفأً للحجاج يمرون بها عند اتجاههم إلى عيذاب بالبحر الأحمر ، وقد نزل بها كثير من العلماء الذين كانوا يقصدون الحج من المغرب ومن مصر والإسكندرية . نزل بها ابن جبير فوصفها فى رحلته قائلاً : هذه المدينة حفيلة الأسواق متسعة المرافق ، كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة لأنها مخطر للجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم ، ومنها يفوزون بصحراء عيذاب ، وإليها انفلاتهم فى صدورهم من الحج »[1] .

وخرج منها ابن شيث عبد الرحيم بن على بن الحسين القاضى الإسنائى القوصى ، وقد مر ذكره فى علماء الإسكندرية .

ومنها زكى الدين الكاتب القوصى (المتوفى سنة ٦٤٠ هـ) قال ابن شاكر « وكان فاضلاً فى نظمه ونثره ، متقناً للكتابة ، تولى الوزارة للمظفر صاحب حماة ، وكان يقول الشعر ، وتوفى بحماة مخنوقاً »[2] .

أســـيوط :

وهى المدينة القديمة ذات التاريخ المجيد ، كانت عاصمة لأمير أسيوط ، وكان من أقوى الأمراء فى عصر الإقطاع فى دولة الكهنة الفرعونية ، وقد عثر بها على نصوص قانونية هامة ، كما تشير آثارها إلى وجود حركة فكرية فى هذا

(١) ابن جبير ٦٥ .

(٢) فوات الوفيات ١ ص ٥٥٣ .

العصر الفرعونى القديم ، وقد صارت فى عصر اليونان والرومان عاصمة ثقافية تعرف باسم ليكوبوليس ، وخرج منها الفيلسوف أفلوطين صاحب الفلسفة الأفلاطونية الحديثة الذى انتقل إلى الإسكندرية وأسس بها مدرسته ونشر مذهبه . أما فى العصر العربى الإسلامى فقد أخذت أسيوط تستعيد مكانتها شيئاً فشيئاً ، وقد وصفت فى كتب الجغرافيين العرب بأنها أخصب بلاد مصر وأرضها أكثر البلاد استواء ، وأعجبوا ببساتينها ، وكان بها بستان خمارويه الإخشيدى المشهور ، وقد عرفت أسيوط مركزاً من مراكز القبط من قديم الزمن ؛ فيها كثير من الأديرة والكنائس القديمة ، وقد بنيت بها بعض المساجد القديمة كذلك ، وبنى فيها الفائز الفاطمى مدرسة عرفت باسمه « الفائزية » ، تولى التدريس بها بعض الشيوخ والعلماء ، وزار أسيوط فى العصر الأيوبى ابن الساعاتى ، وابن جبير ، فوصفها الأول شعراً والثانى نثراً ، وكلاهما أبدى إعجابه بها ، قال ابن الساعاتى (المتوفى سنة ٦٠٣ هـ) :

لله يومٌ فى سُيُوطَ وليلةٌ ... صَرْفُ الزَّمانِ بأُخْتِها لا يغلطُ
بتْنا بها والبدرُ فى غُلوَائِهِ ... وله بجنح اللّيل فرعٌ أشمطُ
والطلُّ فى سلك الغصُون كلؤلؤٍ ... نَظم يُصَافِحهُ النَّسِيم فيسْقُطُ
والطيرُ يقرأُ والغديرُ صحيفةٌ ... والريحُ تكتُبُ والغمامةُ تُنقطُ

ودرَّس بالمدرسة الفائزية بأسيوط فى القرن السابع العالم المغربى الجليل نجم الدين المغربى القصرى الأكتع الفتح بن موسى بن حماد ، وكان قد زار كثيراً من البلاد الإسلامية ؛ زار بغداد وحماة ، ثم جاء إلى مصر وألقى عصاه بأسيوط حيث عين قاضياً ، وكان يدرس فى الفائزية الفقه على مذهب الشافعى والأصول والنحو والعروض والحكمة والمنطق ، وظل بأسيوط إلى أن توفى سنة ٦٢٣ هـ ونظم كتاب « نظم المفصل فى النحو للزمخشرى » .

وخرج من أسيوط عائلة آل مماتى ، ومنهم المهذب ، وقد تولى ديوان الجيش فى أواخر العهد الفاطمى وأوائل العصر الأيوبى ، والأسعد وهو الشاعر الأديب صاحب قوانين الدواوين ، وكان قد اتصل بالقاضى الفاضل وتولى لصلاح الدين المناصب ثم خرج بعد وفاته من مصر إلى حلب حيث بقى هناك مع الظاهر ابن صلاح الدين إلى أن مات .

وخرج من أسيوط أيضاً الشاعر الوزير الصاحب ابن مطروح معاصر البهاء زهير وصديقه . وقد درس فى أسيوط ثم أتم علومه بالقاهرة ، وذهب إلى قوص حيث مدح واليها ولقى صاحبه البهاء زهير وقضيا معاً زمناً ثم عاد إلى القاهرة حيث اتصل بالرؤساء والقواد ، والتحق بخدمة السلطان الملك الكامل وتولى دمشق ثم عزل وسفر بينه وبين الخوارزمية ، وشاهد حوادث المنصورة وأسر الملك الفرنسي فى دار ابن لقمان .

وتخرج فيها ووفد إليها جماعة أخرى من العلماء فى القرنين السادس والسابع وما بعدهما إلى القرن العاشر حيث خرج السيوطى .

الباب الرابع

الأدب والأدباء



١

صحبت الحركة العلمية والثقافية فى القرون الخامس والسادس والسابع حركة أدبية واسعة ، أشرنا إليها فى الفصول السابقة . ولم يحظ هذا العصر بما يستحق من الدروس ، على كثرة ما حظيت به العصور السابقة ؛ العصر الجاهلى ، والعصر الإسلامى والأموى ، والعصر العباسى . ولم تحظ كذلك الدراسات الأدبية والعلمية فى إقليمى مصر وسوريا خاصة بالدرس لبيان الدور الخطير الذى كانتا تقومان به لحفظ التراث الإسلامى ، بعد أن بدأ يتحول شيئاً فشيئاً من الشرق والغرب ليصب فى القلب ، فى إقليم الوسط سوريا ومصر ، وقد حفظت مصر الإسلام والعروبة من الانهيار السياسى على أيدى المغول والتتار فى موقعة « عين جالوت » حيث انتصر بيبرس على جحافل التتار الزاحفة بعد أن اكتسحت أمامها العالم الإسلامى فى بلاد الفرس ، وفى العراق وفى شمالى سوريا ، ولم تُبق للعروبة والإسلام تراثاً ، بل خلفت وراءها رماداً ، وأشلاء ، وجمعت مصر وسوريا ما بقى ، وما أمكن حفظه أو خلاصه وضنت به على الضياع فصانته ، وكذلك فعلت بالنسبة للتراث المغربى ، بعد أن بدأ الانهيار السياسى الإسلامى فى الأندلس والمغرب ، بعد الانحسار الإسلامى والمد المسيحى فى شبه جزيرة الأندلس .

وكان جديراً أن يولى الباحثون دور مصر وسوريا عناية فائقة ، لكن يبدو أن عوامل كثيرة تدخلت ، ومنعت من انصباب الدرس وتركيزه على هذه الناحية ، لعل أبرزها أن اهتمام الناس فى مطلع النهضة العلمية فى مصر والشام فى أواخر القرن الثامن الميلادى وأوائل التاسع عشر كان يتجه إلى عصر العباسيين والأمويين ، ينشدون من ذلك البحث وراء العناصر القوية ، التى دفعت العلم والثقافة والأدب ليتخذوا منها عمداً ، ومحركات ودعائم تدعم الحركة الجديدة وتدفعها دفعات قوية ، ولم يكن كذلك الاستعمار الثقافى لمصر والشام وبقية البلاد العربية ليسمح بأن تبرز قيمة مصر والشام فى مجال الثقافة العربية الإسلامية ، وكان دائماً يحاول تفتيت قوة مصر ثقافياً ، وسياسياً لتبقى الأمة الإسلامية العربية دون قيادة .

ومن عجب أن دراسات المستشرقين لهذا العصر لا تشير إلا إلى أفراد معدودين ولا تشير إلى الدور الكامل المتماسك ، فهم حين يتكلمون عن العصر إنما يشيرون إلى الغزالى وابن رشد والزمخشرى والفخر الرازى من المفكرين ، ومن الأدباء إلى الحريرى والطغرائى وابن الفارض .

وليس هؤلاء هم كل من كان ، وليست آثارهم كل الآثار الفكرية والأدبية ، بل إن دراسات المستشرقين لم تتناول من الأدباء والمفكرين والشعراء من كانت لهم روح قومية ، أو من كان لهم دور فى حركات البعث الإسلامى العربى فى عصر صلاح الدين ومن بعده ، وكان هذا الإغفال متعمداً أغلب الظن . فلا نجد كلاماً عن ابن الأثير ولا القاضى الفاضل ، ولا عماد الدين الأصبهانى ولا ابن التعاويذى والأبيوردى وغيرهم ممن فاضت كتاباتهم بروح النضال والكفاح والتصوير الحى لحركات صلاح الدين ضد الاستعمار الصليبى .

وصف المستشرق جب العصر الذى سنتحدث عنه بأنه العصر الفضى للأدب وأن العصر السابق عليه فهو العصر الذهبى[1] . ونعته بأن لم يكن يمتاز بالإبداع والعبقرية بقدر ما كان يمتاز به من براعة الصنعة والمهارة الفنية التى غلبت إلى وقت كبير – على العبقرية والابتكار[2] . هذا الكلام لا يخلون من الحقيقة ، فالأدب فى عصرنا هذا كان حقاً أدب صنعة فى أكثره . وإن لم يخل الأمر بطبيعة الحال من الطبع والحس الرقيق . وهو أدب « برجوازى » – إذا صح استعارة هذا التعبير – فى أساليبه وموضوعاته بمعنى أنه أدب ترف لخدمة الطبقة الحاكمة والوزراء والولاة ، وهو فى كثير من حالاته كذلك أدب تسلية وقطع الوقت ، فيه غير قليل من اللعب باللفظ والمعنى ؛ والمهارة فى اللغز والتعمية ، بقصد السمر والدعابة ، وكان على الأديب والشاعر أن يبرع فى هذا كله ويعد عدته وآلاته ، وإلا كان أديباً كاسد السوق ، غير قريب إلى قلوب الرؤساء ونفوسهم ، ولا مختاراً لمجالسهم وأسمارهم .

---

(١) Gibb: Arabic Literature p.82

(٢) المصدر نفسه ص ٨٤ .

ومن معالم هذا الأدب فى النثر والرسائل كثرة ألفاظ المديح والإطراء ، كما أنه عرف بالافتتاحيات التى تزخر بمعانى الخضوع والذلة من مثل قولهم : « الخادم يقبل الأرض بين يدى المولى » .. أو الخادم يقول كذا وكذا .. الخ .

وفرض ذوق العصر ورفاهيته على الأدب ألواناً من التعبير عمادها استخدام الخواص الصوتية للعبارات ، لا الألفاظ المفردة وحدها ، كذلك استغلال الحروف كأصوات استغلالا كبيراً واللعب بها وإدارتها فى الجمل أو أبيات الشعر . وبرعوا فى توليد الأوزان الخفيفة ، والتى تميل فى نغماتها إلى التوقيع الراقص ، وهكذا .

وهذا الميل ، أو الذوق العام لهذا اللون من الأدب جعلهم ينحرفون عن الأنماط القديمة له ، والشعر خاصة ، ويبتعدون عن أساليبه وفنونه ، كما جعلهم ينفرون من روح البداوة كل النفور ، ورقوا فى أدبهم كما رقوا فى أخلاقهم وعاداتهم وغلبت ألفاظ المجاملة الدمثة . وصور ابن حجة[1] هذا الذوق بقوله : (فى أحد أنواع البديع فى الشعر) : « ولم يخطر لى أن أورد هنا من التشبيهات البديعة التى أخذتها أمثلة لهذا النوع إلا ما خف على السمع وعذب فى الذوق ، وارتاحت الأنفس إلى حسن صفاته ، فإن التشابيه التى تقادم عهدها للعرب رغب المولدون عنها ، فإنها مع عقادة التركيب لم تسفر عن بديع معنى إلا ماقل وندر[2] » .

وقال ابن رشيق فى هذا المعنى أيضاً : « إن طريق العرب خولفت فى كثير من الشعر إلى ماهو أليق بالوقت وأمس بأهله » ، وذكر من أمثلة ما تغير من مفهومات الشعر أن القينة الجميلة كانت تشبه بالذباب ، ولن ترضى هى نفسها بذلك كما قال أبو محجن .

---

(١) ابن حجة الحموى من أدباء القرن التاسع . فهو متأخر عن عصرنا هذا إلا أنه يصور حقيقة لها ما يؤيدها فى أدب القرنين السادس والسابع .

(٢) خزانة الأدب ص ٧ وكرر هذا القول مرة أخرى ص ١٨١ .

٢

أما موضوعات الأدب فقد كانت هى الموضوعات التقليدية نفسها للادب العربى ، إلا أنه زادت فى هذا العصر فنون جديدة ، وترعرعت فنون كانت معروفة من قبل . وقد كان هذا العصر عصر حروب متصلة بين المسلمين والصليبيين ، وكانت تلك الحروب سبباً فى ظهور لون من الأدب ، بل ألوان متعددة ترجع إلى أصل واحد هو الجهاد والدعوة لحماية الإسلام والمسلمين ، ومن هذه الألوان أدب القتال ، والحض عليه ، ووصف الجيوش وآلات الحرب ، والحصون ، وإبراز فضائل الشجاعة والنَّخْوة ، والبطولة والتفانى . واشترك فى هذا الشعراء والكتاب جميعاً . وللقاضى الفاضل من كتاب الرسائل أوصاف كثيرة للحروب والحصون ؛ له فى قلعة نجم قول مشهور تناقله عنه الأدباء وأعجبوا به أيما إعجاب ، كما وصف حصن الكرك – وكان أحد حصون الصليبيين المنيعة المشهورة والذى طالما ضايق المسلمين ، بل كان شوكة فى جنبهم تؤذى الناس ، وتقطع طريق الحاج ، ولم يتركها صلاح الدين بل شدد عليها الحصار إلى أن اقتلعها من الصليبيين فاستولى على الحصن الحصين وقد انتهز القاضى الفرصة فقال فيه :

« وهو شجىً فى الحَناجِر وقذىً فى المَحاجِر ، قد أَخذَ من الآمال بمَخنِقها ، وقعدَ بأَرْصَادِ العزائِم وطُرُقِهَا ، وصارَ رئياً للدهر فى ذلك الفجِّ ، وعذراً لتارك فريضةِ الله من الحجّ ، وهو وحصنُ الشوبَك – يسَّر الله الآخر – كبيتِ الواصِف للأَسدينِ :

ما مرَّ يومٌ إلا وعندَهُما   لَحْمُ رجالٍ أو يُولغانِ دماً[1]

ووصف المعركة التى وقع فيها هذا الحصن فى أيدى المسلمين فقال :

« أما الكركُ فكفأَتْ المنجنيقاتُ متظافرةً عليه ، وحِجارتُها على منْ فيه حاجرة ، وقد جُدِعتْ أُنوفُ الأبرجة ، وأسبَلَت قِنَاعُ السَّتَائِرِ وجوهَها

---

(١) الروضتين ٢/٥٥ .

المتبرجة ؛ وكلِّ جَوانبها وعرةُ المرتَقى ، التى تَتعادى فيها الهَممُ ، ويُبَاشِرُ حمرات الشتاء الكالح بوجههِ المبتسِم »[1] .

وألفت كتب فى أحوال الحرب والسلاح وغيرها . قال ابن خلكان فى ابن صابر المنجنيقى : « كان ابن صابر جندياً فى ابتداء أمره ، مقدماً على المنجنيقيين بمدينة السلام ، ولم يزل مغرى بآداب السيف وصناعة السلاح والرياضة ، واشتهر بذلك ، ولم يلحقه أحد من أهل زمانه ، فى درايته وفهمه لذلك ، وصنف فيه كتاباً سماه « عمدة السالك فى سياسة الممالك » ولم يتمه ، وهو مليح فى معناه ، يتضمن أحوال الحروب وتعبئتها ، وفتح الثغور ؛ وبناء المعاقل ، وأحوال الفروسية ، والهندسة ، والمصابرة على الحصار ، والقلاع ، والرياضة الميدانية ، والحيل الحربية ، وفنون العلاج بالسلاح ، وعمل أداة الحروب والكفاح ، وصنوف الخيل وصفتها »[2] .

وكتب ابن عساكر الدمشقى (المتوفى سنة ٥٧١ هـ) كتاباً فى الجهاد سماه « كتاب الأربعين فى الجهاد »[3] ، وجمع القاضى ابن شداد لصلاح الدين كتاباً فى الحرب يشتمل على فضائل الجهاد ، وما أعد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين »[4] وذكر ابن شداد فى سيرة صلاح الدين المعروفة « بالنوادر السلطانية » : « أن الرجل إذا أراد التقرب إلى صلاح الدين الذى يحثه على الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فى فضله ، وشرحتُ غريبها ، وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل »[5] .

وظلت الحروب الصليبية نبعاً لا ينضب لموضوعات الجهاد وآلاته فى أدب العصر ، وقد ألهبت عواطف المسلمين والعرب ، وكانت عاملاً هاماً فى ظهور

---

(١) الروضتين ٥٥/٢ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٦ - ٣٦ .

(٣) إرشاد ١٤١/٥ .

(٤) وفيات الأعيان ٦ - ٨٥ .

(٥) النوادر السلطانية ص ١٧ .

هذا اللون الأدبى ، وهو لون اهتدى فى قيمه ومثله بسيرة الرسول ﷺ ومغازيه ، وسير أبطال الإسلام الأوائل وجهادهم ، واعتمد المؤلفون والأدباء على إبراز الصفات لأولئك الأبطال من الصحابة والقواد لإذكاء روح الجهاد والتضحية فى صدور الجند المكافحين عن الإسلام[1] ، ولتثبيت الأقدام فى المعارك المتصلة فى سبيل الحفاظ على الأرض وعلى الكيان المهدد بجحافل الصليبيين .

وامتزج التأليف فى الجهاد والحث عليه بالتأليف فى التاريخ ووصف الوقائع والأحداث الكبيرة ، وقد ألفت كتب بتمامها فى الأعمال الحربية العظيمة التى تمت على يدى صلاح الدين مثل كتاب « الفتح القسى فى الفتح القدسى » . وهو كتاب يؤرخ لفتح صلاح الدين لمدينة القدس ، واستعادتها إلى حوزة المسلمين بعد أن اغتصبها الصليبيون زمناً ، وأقاموا بها إمارة هى إمارة بيت المقدس ، واعتبروها عاصمة لإماراتهم الشرقية فى بلاد الشام ، وكان ملكها رئيساً لأمراء تلك الإمارات . من هذا يتضح أن فتح بيت المقدس كان عملاً عظيماً من صلاح الدين ، لأنه اجتث شأفة الاستعمار الصليبى ، وكان دوى ذلك الفتح عظيماً ، والفرحة به غامرة غالبة ، ترددت أصداؤها فى نفوس المسلمين فى كل مكان . وكان كتاب العماد الأصبهانى صورة من تجاوب الأدباء مع هذا الحدث الأعظم ، وقد كتبه على طريقة عصره التى تعتمد على الإكثار من السجع والمحسنات البديعية حتى إن بروكلمان ، قال عنه : « ومن أسف أنه أثقل كتابه هذا بالمحسنات اللفظية التى توقع فى نفس القارئ أن الجانب اللغوى كان أهم عند المؤلف من الموضوع نفسه »[2] .

وسنعود مرة أخرى عند الكلام عن الاتجاهات الأدبية فى هذا العصر إلى الحديث عن هذا الموضوع تفصيلاً .

وقد وجد من المؤرخين من حاول أن يدون حوادثه ويؤرخ بأسلوب أدبى

---

(١) راجع كتاب الشعوب الإسلامية لبروكلمان ٢/٢١٦ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ٢/٢٣٣ .

رفيع ، وكانت فى بعض كتاباتهم التى تتناول الأحداث المعاصرة أو الأحداث التى تمس شغاف قلوبهم مقطوعات تصل إلى درجة رفيعة من الأدب الجميل ، نجد هذا فى كتابة ابن شداد فى فتح بيت المقدس وكتابة عز الدين بن الأثير عن مقتل الشهيد عماد الدين زنكى[1] ، وكذلك كتابته عن غزو المغول لبعض مدن المشرق ، وكتابة ياقوت عن هذا الموضوع فى بعض مواضع من كتابيه « معجم الأدباء » و « معجم البلدان » ، فهذه كلها قطع أدبية رائعة ، وإن كان أصحابها لم يتفرغوا للرسائل والشعر .

وسجل أدب هذا العصر معالم الحياة ، والمجتمع ، فكتب عن الاضطراب الاجتماعى ، ووصف الأدب ارتفاع الناس وسقوطهم وتقلب أحوال الناس بين المجد والانحدار ، وهى أشياء ومظاهر كانت عادية معهودة ، حتى إن كاتباً مثل القفطى يؤلف كتاباً فى « من ألوت الأيام عليه فرفعته ثم التوت عليه فوضعته »[2] ، ويصف أدب العصر النكبات الإنسانية الكبرى ، كالمجاعات التى كثرت فى هذا العصر فى مصر والشام والعراق ، ومنها وصف عماد الدين الأصفهانى للمجاعة التى حدثت بمصر سنة ٥٩٧ هـ وأورد بعضه صاحب مرآة الزمان[3] . وشارك الأدب فى الجانب الضاحك اللاهى من الحياة ، كما شارك فى الجانب القاتم المظلم ، فكان الشعر روح مجالس السمر والشراب ، والعدسة المصورة لما يجرى فيها . وكان الشعراء يجتمعون فى مكان جميل أو روضة ، أو حول بركة أو ماء جار فيتبارون فى إظهار قدرتهم وبراعتهم .

ومن بين الموضوعات الطريفة التى تناولها الأدب موضوعات من صميم الحياة التى قد لا نجد الأدب القديم يعنى بها ، مثل وصف الحمامات العامة ، أو ذم بعض العادات الشاذة ، والسخرية بالأوضاع غير اللائقة ، والسلوك أو التصرف المنحرف الشائن من بعض الناس ، ونقد أحوال العمال والموظفين فى الدولة مثل عمال المكوس ، أو موظفى الدواوين .

---

(١) أتابكة الموصل من مسلسلة Receuil II 2-182

(٢) إرشاد ٥ – ٤٨٣ .

(٣) كتاب الروضتين ٢ – ٥٦ ، ٥٨ .

وشغل الأدباء كذلك ردحاً من الزمان بموضوع ندر أن نجد مثيلاً له فى العصور الأدبية الأخرى ، أعنى به موضوع مدح المدن وذمها ، أو مدح الأقاليم وهجائها ، ومنها كتب ألفت فى ذكر فضائل الشام ودمشق وفضائل مصر ، وفضائل الإسكندرية ، وفضائل بغداد .. وغيرها من البلاد الإسلامية . وربما قامت بين الأدباء مناظرات أو منافرات ، أو نقائض كالتى كانت بين جرير والفرزدق موضوعها المدن ، كل أديب ، شاعراً أو كاتباً ، ينتصر لبلده فيمجده ، ويهجو بلد مناقضه . ومما يذكر فى هذا السبيل المفاضلة التى كانت تدور بين أدباء مصر والشام حول فضائل الإقليمين ، ومن فرسان هذا الميدان القاضى الفاضل الذى طالما جال قلمه فى ذكر فضائل مصر والتغنى بها وذم مدن الشام ، ومن رسائله الطريفة فى هذا رسالة أوردها أبو شامة فى الروضتين[1] ، وقد رد عليه العماد الأصبهانى بذكر فضائل الشام . وقال أبو شامة : « وقد قيل فى وصف دمشق ومدحها شيء كثير من النظم والنثر ، واشتمل ما جمعته فى أول تاريخ دمشق على قطعة كبيرة حسنة ، من ذلك ما وصفه شيخنا أبو الحسن على بن محمد السخاوى رحمه الله فى مقامة تشتمل على المفاخرة بين دمشق ومصر ، ووصف كلا من البلدين بما يليق به »[2] .

وظل نيل مصر من أبرز الموضوعات التى ترددت فى إنتاج الأدباء شعراء وكتاباً ، وقد تناوله كل واحد منهم بحسب ما تجود به قريحته أو حسب المناسبة التى يصفه فيها . وممن جرى قلمهم بوصفه ضياء الدين بن الأثير ، وأشار إلى بعضه ابن خلكان فى وفيات الأعيان قال : « ومن رسائله قوله فى صفة نيل مصر : « وعذبُ رضابهِ يُضاهِي جنَى النَّحل ، واحمرّ صفيحُه فعلِمتُ أنُه قتَلَ المحْل » وللقاضى الفاضل رسالة فى النيل نقل بعضها ابن حجة الحموى فى الثمرات[3] ، وغيرهم من الكتاب ، وذكر ابن أبى الصلت فى الرسالة المصرية[4] من أمثال المصريين فى فيضان النيل قولهم : « إذا دخل أبيب كان للماء دبيب » .

(١) الروضتين ٢ – ٥٦ – ٥٨ .

(٢) كتاب الروضتين ٢ – ٥٩ .

(٣) ثمرات الأوراق ص ١٣٢ .

(٤) الرسالة المصرية من مجموعة نوادر المخطوطات ص ١٧ .

ومن موضوعات العصر كثرة ما قيل فى السيف والقلم ، والموضوع قديم إلا أن الشعراء والكتاب قد أكثروا فيه كثرة لم تسبق . وكذلك عمد الكتاب والشعراء إلى موضوعات بعينها فأكثروا فيها بينما أهملوا موضوعات أخرى . ومما أكثروا فيه وصف الرياض ومظاهر الطبيعة .

وامتازت الكتابة بأنها اقتحمت على الشعر ميادينه ، بل تفوقت عليه ، وأصبح الكتاب بمنزلة أرفع من منزلة الشعراء ، وصارت بأيديهم أزمة البيان بعد أن رفع رايته الشعراء دهوراً طويلة من قبل .

وكان الكتّاب يحرصون على ألوان معينة من الثقافة يتزودون بها ولا تخلو مكتباتهم منها ، منها محفوظهم الوفير من الشعر القديم والنثر ، وكان بعض الأدباء يبالغ فى الحفظ فيحفظ كتباً بتمامها ، وكانت هناك كتب تحظى دون غيرها بالعناية والحفظ والدراسة ، وقام على شرحها وتذييلها جماعة العلماء واللغويين والأدباء ، وعلى رأس هذه الكتب « الحماسة » لحبيب بن أوس أبى تمام ، وكانت لها مكانة خاصة فى نفوس الأدباء ، وقل أن نجد أديباً معروفاً منهم لم يقرأ « الحماسة » ولم يحفظ منها كثيراً إن لم يكن قد حفظها كلها ، وكانوا يستشهدون بأبياتها فى كتبهم ورسائلهم ، بل ويقتبسون فى أشعارهم معانيها وألفاظها . وقد أشار ضياء الدين بن الأثير من كتاب العصر فى مقدمة كتابه : « المثل السائر » وفى مواضع منه ، وفى بعض كتبه الأخرى إلى حفظه للحماسة . وكى نعطى صورة لمدى اهتمام علماء العصر بهذا الكتاب نقول إنه قد تناوله بالشرح جماعة من أعلام اللغويين كالخطيب التبريزى ، إذ شرحها ثلاثة شروح[1] ، والبيهقى[2] ، وابن عصفور النحوى الأندلسى (المتوفى سنة ٦٦٩ هـ)[3] . وعارضها بجمع مجموعات شعرية مماثلة جماعة كابن الشجرى ، وحماسته معروفة متداولة بين الناس ، وشميم الحلى[4] وصدر الدين

(١) إرشاد ٧ - ٢٨٧ ، وفيات الأعيان ٢ - ٢٣٨ .

(٢) إرشاد ٥ - ٢١٣ .

(٣) فوات الوفيات ٢ - ٨٥ .

(٤) إرشاد ٥ - ١٣٩ وفيات الأعيان ٣ - ٢٦ .

البصرى (المتوفى سنة ٦٤٧ هـ) ، وقد ألف للملك الناصر صلاح الدين حفيد السلطان صلاح الدين كتاب « الحماسة البصرية » ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية ، ومكتبة بلدية الإسكندرية .

ويأتى مع « الحماسة » كتاب ديوان أبى الطيب المتنبى ، وكان عدة الأدباء ، وزاد الشعراء يستقون منه كل طريف بديع ، يقول ابن خلكان عند كلامه عن الأديب البيَّاسى الحافظ : « بلغنى أنه كان يحفظ كلام الحماسة تأليف أبى تمام وديوان أبى الطيب المتنبى ، وسقط الزند ديوان أبى العلاء المعرى »[1] . وقد شرحه التبريزى ، وابن عصفور ، وختم ابن الشجرى أماليه بمجلس قصره على أبيات من شعر أبى الطيب[2] .

واهتم الناس بشخصية المتنبى الشاعر ، فجمعوا أخباره ، جمعها ياقوت الحموى[3] ، وابن البلطى النحوى المصرى (المتوفى سنة ٥٩٩ هـ) .

والكتاب الثالث مما اهتم به الناس « مقامات الحريرى » ، كان يحفظها الأدباء والعلماء مع شرحها لما تحويه من ثروة لغوية وأدبية . قال ابن خلكان فى ترجمة العماد المحلى الكاتب الناظم الأديب : « وكان يحفظ المقامات ويشرحها »[4] ، وذكر ضياء الدين بن الأثير فى « الوشى المرقوم » : أن مقامات الحريرى وخطب ابن نباته كانتا عكازى أهل الزمان من متعاطى صناعة الإنشاء ، وذكر الشريشى مدى إعجاب الناس بمقامات الحريرى وسيرورتها منذ ظهورها إلى عصره فقال : « منذ ظهرت مقامات الحريرى لم تستعمل مقامات البديع ، ثم إنه طبق استعمالها آفاق الأرض »[5] .

وممن تولى شرحها فى الإقليم الشرقى أبو سعيد البندهى الخراسانى (المتوفى سنة ٥٨٤ هـ) فى خمسة مجلدات كبار ، « واستوعب فيه مالم يستوعبه غيره

---

(١) المصدر نفسه ٥ – ٩٦ وفورات الوفيات ٢ – ٦١٠ .

(٢) وفيات الأعيان ٥ – ١٨٠ .

(٣) وفيات الأعيان ٢ – ٢٩٦ .

(٤) الوشى المرقوم ص ٦ .

(٥) شرح الشريشى جـ ١ ص ١٥ .

من شراح الكتاب »[1] ، وشرح مشكلاتها ببغداد على بن زيد البيهقى[2] ، وشميم الحلى من الحلة بالعراق أيضاً . وقد سئل شميم هذا عمن يرضى عنه من المتقدمين فذكر المتنبى فى مديحه ، وابن نباته فى خطبه ، والحريرى فى مقاماته[3] . وفى الشام شرحها فى حلب أبو محمد القاسم بن عمر الواسطى نزيل حلب[4] ، وفى مصر شرحها أبو الخير الأنبارى النحوى (المتوفى بمصر سنة ٥٩٠ هـ) . كما شرحها بالمغرب الشريشى[5] .

ولم يكتف الأدباء والعلماء بشرحها ، بل حاولوا معارضتها ، فعارضها ملك النحاة الحسن بن أبى الحسن (المتوفى سنة ٥٦٨ هـ) . وقلدها بالفارسية حميد الدين البلخى[7] ، وألف ابن الخشاب النحوى (المتوفى سنة ٥٦٧ هـ) كتاباً فى الرد على الحريرى فى مقاماته[8] .

ويرجع اهتمام الأدباء والعلماء بهذه المقامات إلى أنهم كانوا يرون فيها وفى ديوان المتنبى أكمل تعبير عن روحهم كما ذكر بروكلمان ، أو أرفع نموذج للأدب العربى بشطريه النثر والشعر حسب ذوق العصر ، كما اعتبرا مرجعاً لغوياً لما يحويانه من غريب الألفاظ ، وفصيح التراكيب ، فكما أن المقامات تحوى أبواباً فى النحو واللغة والبلاغة موجزة وقد وجه إليها الشراح همهم ، ففصلوها بعد إجمال ، وعلقوا عليها ، وزادوا فيها .

---

(١) وفيات الأعيان ٤ – ٢٣ .

(٢) إرشاد ٥ – ٢١٢ .

(٣) معجم الأدباء ٥ – ١٣٨ .

(٤) وفيات الأعيان ٦ – ٤٠ .

(٥) وهى ثلاثة شروح طبع أكبرها بالقاهرة سنة ١٣٠٠ هـ .

(٦) إرشاد ٣ – ٧٥ .

(٧) Browne: 346-349

(٨) إرشاد ٢٨٧/٤ .

٣

وكانت صور الأدب النثرى وفنونه هى نفسها تقريباً الصور والفنون التى عرفت من قبل فى الأدب العربى ، ونعنى بها الخطب والرسائل ، وزادت عليها المقامات وهى أحدثها ظهوراً فى الأدب النثرى ، وكان لمقامات الهمذانى ، والحريرى أثر واضح فى انتشار هذا الفن الجديد وظهوره بين الفنون الأخرى ، وقوى أيضاً فن القصص ، فأخذ يشيع وينمو ولكن فى المجال الشعبى وباللغات العامية المختلطة بالفصحى أحياناً ، وقوى فن القصص وأضيفت نماذج جديدة من القصص الطويل إلى ما عرف من قبل مثل ألف ليلة وليلة وسيرة عنترة ، وسيف بن ذى يزن ، فأضيفت سيرة صلاح الدين والأميرة ذات الهمة وغير ذلك مما جاء بعد كسيرة الظاهر بيبرس .

وقوى فن الخطابة والدينية خاصة ، فلم تكن فى هذا العصر أحزاب أو فرق متناحرة حتى تقوم أو تقوى الخطابة السياسية ، كما كان الشأن مثلاً فى عصر بنى أمية ، ولم تكن هناك أيضاً حركات مذهبية أدبية أو عقلية تستدعى نهضة الخطابة الأدبية أو المحفلية كما كان الشأن فى مطلع عصر العباسيين حين قويت الخطابة الأدبية على أيدى المعتزلة . إنما قويت الخطابة الدينية فى هذا العصر لشيئين أولهما شعور المسلمين بالضعف أمام جحافل الصليبيين ورغبتهم فى استنهاض الهمم والحث على الجهاد وبذل النفس والنفيس فى سبيل نصرة الدين الإسلامى والأمة المحمدية ، والثانى هو غلبة العامل الدينى على النفوس ولجوء الناس إلى الدين باعتباره مخلصاً مما هم فيه من الرزايا والهموم .

وقد اشتهر جماعة من الخطباء الأئمة ، كانوا يعمدون إلى أن تأتى خطبهم مسجوعة ، وكانت تبدأ بحمد الله ، ثم بآيات من القرآن للتأثير بها على النفوس ، وكانت تختار الآيات ذات معان مقاربة لموضوع الخطبة لتكون استهلالاً لها ومدخلاً سهلاً إلى النفوس لما يريد الخطيب أن يصبه فى الآذان ، وهكذا كانت خطب ابن الجوزى حين يعظ الناس ببغداد[1] ، وهكذا كانت

---

(١) راجع رحلة ابن جبير ص ٢٢٢ – ٢٢٣ .

خطبة ابن الزكى المشهورة فى فتح بيت المقدس[1] ، واتخذ الخطباء فى هذا العصر من مجموعة خطب ابن نباته نموذجاً يحتذونه ، ويصنفون على شاكلته ، وقد أشار إلى ذلك ابن الأثير فى الوشى المرقوم .

والرســائل كان أهمها بطبيعة الحال الرسائل الديوانية التى تصدر عن ديوان السلطنة . وكان يقوم على ديوان رسائله جماعة من الكتاب الفحول ، وأشهر من تولى الكتابة فى عصرنا ابن الخلاّل والقاضى الفاضل وعماد الدين الأصبهانى والقاضى ابن شداد ، والشاعر ابن مماتى والوزير ضياء الدين بن الأثير والصاحب البهاء زهير .

وكان الكتاب يتأنقون فى كتابتهم « فيعرضون فيها لألوان شتى من التعب الفنى ، وحققوا فيها أموراً كثيرة ربما لا تتحقق كلها حتى فى الشعر المتكلف[2] » وبهذا صارت الكتابة أشق فى كثير من الأحيان من الشعر ، وصار الكتاب يفخرون بفنهم الدقيق ويتيهون على الشعراء .

وإلى جانب الرسائل الديوانية وجدت الرسائل الإخوانية ، التى يتبادلها الكتاب فى المناسبات ، فى التهانى ، والمداعبة ، أو فى الاشتياق وما إليه ، وكذلك وجدت الرسائل المطلقة التى ينشئها الكاتب فى موضوع من الموضوعات التى يروق له الكتابة فيها ، فهى أقرب للمقال فى عصرنا الحديث ، ووجدت من هذا النوع رسائل فى وصف الحروب ، والقلاع والحصون ، ورسائل فى النيل وما إلى ذلك . ووجدت أيضاً أنواع أخرى من الرسائل تدور حول المنافرات والمناقضات وأيهما أنفع وأخطر ، أو كالكلام عن البلاد وفضائلها أو رذائلها كالكلام عن مصر والإسكندرية ودمشق وحلب وما إليها . ولم تقل هذه الرسائل عن الديوانية شأناً ، بل من الوجهة الأدبية الخالصة هى أكثر أهمية وأكشف عن روح الكاتب وفنه .

وكانت الرسائل تلتزم نهجاً معيناً تكثر فيه من ذكر الشعر أو الاقتباس منه ،

---

(١) وفيات الأعيان ٣/٣٦٥ – ٣٧١ .

(٢) عبد اللطيف حمزة فى أدب الحروب الصليبية ١٧٥ .

وكثيراً ما تفتتح به أو بآيات من القرآن ، ولكن الاستشهاد بالقرآن والحديث كان أوضح فى الرسائل الديوانية منه فى الرسائل الإخوانية والفنون الأخرى . وهذا طبيعى ، لأن رسائل الدولة موجهة إلى الناس تخاطب فيهم الناحية الدينية فى أمور عيشهم وتدبيرهم وحقوق الدولة عليهم . وقد برع كتاب هذا العصر فى استخدام القرآن والحديث فى الرسائل عن طريق الاقتباس أو التضمين أو تقليدهما أو الإشارة إلى ما فيهما من أمر ونهى وعظة وقصص وما شابه ذلك .

وكذلك كان فن الكتابة يعتمد على القصص والأخبار والشعر والأمثال السائرة ، يضمنها الكتاب رسائلهم أو يستخدمون بعض معانيها أو ألفاظها فيوشحون بها جملهم وعباراتهم ، أو يشيرون إلى بعضها عن طريق إبراز طرف منها ويتركون للقارئ الاستنتاج وإتمام البقية فى الشعر أو القصة .

وتعقدت صنعة الاقتباس والتضمين والإشارة فى الرسائل إلى درجة لم يبلغها الشعر نفسه كما قلنا . لهذا لم يكن غريباً أن يصبح للرسائل كما لكل صنعة دقيقة أصول وأسباب وآلات ، وأن يكون لها رواد ينهجون الطريق ويبينون معالمه ويسير وراءهم غيرهم من السالكين . وقد ألف جماعة من الكتاب كتباً فى فنون الرسائل وأصول النثر والنظم ، ومنهم ضياء الدين بن الأثير فقد ألف كتباً عدة فى هذا الموضوع ، منها - بل على رأسها - « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » و « الجامع الكبير فى فنى المنظوم والمنثور » و « الوشى المرقوم فى حل المنظوم ونظم المنثور » ، ومنها « معالم الكتابة » لعلى بن شيث ، و « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » لشهاب الدين الحلبى .

ومن أعلام الكتابة فى هذا العصر القاضى الفاضل ، فهو زعيم الكتابة فى عصره غير مدافع ، و (توفى سنة ٥٩٦ هـ) ، وقد اصطنع لنفسه طريقة سار عليها وتبعه فيها التابعون[1] .

فن المقامات :

ظهر فى الأدب العربى فى القرن الرابع الهجرى ، وكانت إذ ذاك محاولات أولى ، ويأخذ من فنى القصة والرسالة ، فيأخذ من القصة الأحداث وتتابعها ،

---

(١) أدب الحروب الصليبية ١٧٩ .

والشخصيات والحوار ، ومن الرسالة التأنق فى العبارة واستخدام المحسنات كالسجع خاصة ، والتوشيح بالشعر والقرآن والأمثال وما شابهها . وقد ابتدعها بديع الزمان الهمذانى (المتوفى سنة ٣٩٣ هـ) بهراة « وقد أملى أربعمائة مقامة نحلها أبا الفتح الإسكندرى فى الكدية وغيرها ، وضمنها ما تشتهى الأنفس من لفظ أنيق قريب المأخذ وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام ، وجِدّ يروق فيملك القلوب وهزل يشوق فيسحر العقول »[1] .

« والمقامات معناها المجالس ، ومقامة مفعلة من القيام كمكان ومكانة ، وهما اسمان لموضع القيام إلا أنهم اتسعوا فيه ، فاستعملوها استعمال المكان والمجلس .. إلى أن قيل لما يقام به فيها من خطبة أو عظة أو ما أشبهها مقامة ، كما يقال له مجلس يقال مقامات الخطباء ومجالس القصاص »[1] .

ويرى نيكلسون فى المقامة تقدماً نحو الفن القصصى الذى لم يكن – فى رأيه – موجوداً عند الساميين[2] .

وأصبحت المقامات منذ ابتدعها الهمذانى نموذجاً لذلك النوع من الكتابة والشخوص التى ابتدعها والنمط الذى ابتكره كلها بقيت ، لم تتبدل عند تابعيه ، بل عاشت وتطورت[3] ، وقد نسج الحريرى على منوال الهمذانى « واستعمل بعض أسماء مقاماته ، وقفى أثر عيسى بن هشام بالحارث ابن همام وعارض طرح الإسكندرى بما نسجه أبو زيد السروجى ، وعلى كل تقدير فالبديع عرابة هذه الراية وعباس هذه السقاية » كما يقول ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب[4] .

وتحوى المقامات مجموعة من القصص أو سلسلة من الحكايات القصيرة

---

(١) المطرزى فى شرح مخطوط للحريرى ورقة ٤٥ .

(٢) Nicholson: A Literary History of Arabs p.328

(٣) راجع Nicholson: A Literary History of Atabs p.329

(٤) خزانة الأدب ص ١٣٣ .

المفضلة والتى تكون فيما بينها مجموعة من الحلقات فى سلسلة حوادث تقع لبطل المقامات فى صورة من النثر المسجوع والشعر ، وليست القصة وموضوعها شيئاً إلى جانب الأسلوب الذى هو كل شيء ، والحقيقة أن مقامات الحريرى اكتسبت شهرتها عملاً أدبياً فائقاً لأسلوبها ورصانة عبارتها ورونق فقراتها . ويبدو أن الحريرى اصطنعها ليعرض على مواطنيه اللغويين والنحويين فى البصرة قدرته ، وليمتع أصحاب اللغة والنحو بدقيق تراكيبه وغريب ألفاظه ، ويبدو كذلك أنه قصد من عمله هذا أن يبرز أقصى ما للغة العربية من قدرة جمالية وبراعة لفظية وروعة بيانية[1]. ولعله لم ينس أثناء صياغتها أن الغرض الأول لمقاماته هو الإمتاع والتسلية لما يعمد إليه خلالها من براعة الوصف والحوار وتنميق العبارات[2].

ويرى نيكلسون فى كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » أنها بتلك الخصائص أصبحت – على الرغم من قلة أصالتها عن زميلاتها الهمذانية – مقدمة متفوقة عليها فى القدرة اللغوية بحيث صارت قطعة ممتازة فى الأدب العربى لثمانية قرون ، وبحيث اعتبرت أحياناً بعد القرآن الكنز الأول للسان العربى[3] .

وأخذ الفن القصصى ينمو ويزدهر فى هذا العصر والعصور التالية فصاحة وبلاغة وأضيفت مجموعات جديدة إلى ألف ليلة وليلة فى العراق ومصر ، وإن كان بعض الباحثين يرى أن ذلك القصص متقدم بكثير[4]، ولكن مما لا شك فيه أنه قد زيدت إلى الأصل مجموعة كبيرة ابتداء من القرن السابع الهجرى والثالث عشر الميلادى ، وهى زيادة تدل دون ريب على عبقرية قصصية

---

(١) راجع Nicholson 336

(٢) راجع Gibb: 9

(٣) راجع Nicholson: A Literary History of Arabs p.336

وراجع كذلك تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (مترجم) ، ١٣٥/٢ .

(٤) راجع مقال « ألف ليلة وليلة » فى دائرة المعارف الإسلامية .

عاشت بين الناس فى ذلك العصر ، ولم يستطع الأدب الرفيع أن يحظى بها ، ويأخذ بأسبابها ويسايرها .

ومن فنون النثر كذلك فى العصر المذكرات ، وأشهرها كتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ ، وهو صورة مشوقة لحياته وحياة عصره ، وفيها يتحدث عن مغامراته والأحداث التى لاقاها فى الشام ومصر ، ومع أهله وعمه ، ومع خلفاء الفاطميين ووزرائهم ، ومع الصليبيين وقوادهم . وهى وقائع شيقة طلية فيها الطرافة ، ولا تعدم المادة التاريخية التى أغفلها التاريخ من الجوانب الخاصة فى حياة الناس وأحداث العصر .

وظهر كذلك أدب الأسفار والرحلات ، وأشهرها كتاب « سفرمانة » بالفارسية لناصر خسرو ، قبل هذا العصر بقليل ، وكان قد وفد من بلاد فارس إلى مصر فى عصر الفاطميين ، ويصور فى الكتاب رحلته ، وما دار له ، و « رحلة ابن جبير » ، وتعد درة من درر أدب الأسفار والرحلات لما يمتاز به الرجل من أسلوب سهل معبر ، لا يلتزم فيه السجع ولا المحسنات فجاءت رحلاته قطعة أدبية جميلة ، وبها مقطوعات يتجلى فيها فنه ، ويمتاز بالقوة الفائقة على تصريف الكلام مما يجعلنا نضع ابن جبير فى مصاف كبار أدباء العصر . وليست « رحلة ابن جبير » مقصورة فى روعتها على الأسلوب وجمال العرض ، بل إنه يمتاز فيها بملكة « لاقطة » مصورة ، يزور البلاد الإسلامية فيقع فيها على بعض المعالم البارزة فيصفها لك ، وكأنك تشاركه النظر ، ويختلط بأهلها فيرى صنوفاً من التقاليد والعادات التى تبدو لديه غريبة ، فيصفها لك بشعور الغريب الذى يقف من تلك العادات موقف الاستنكار أحياناً ، أو الرضى والترحيب أحياناً .

وهو فى استعراضه ناقد فنان ، له من اطلاعه وخبرته الطويلة فى الأسفار خير معين على تجلية ما يصوره لك بقلمه .

وبعد ابن جبير يأتى ابن بطوطة ، وهو جواب أقطار وصاحب أسفار طويلة ، بعيدة غريبة ، تلمس في رحلاته تعدد البلاد التي زارها إسلامية وغير إسلامية ، وتقع على عادات غريبة وطبائع طريفة ، وتختلف عن ابن جبير

بالتعدد والخروج عن العالم الإسلامي إلى بلاد أخرى مختلفة ، وابن جبير يطلعك على مازار من بلاد المغرب ومصر والحجاز والعراق والشام ، ولا يعدو ذلك إلى غيرها ، بخلاف ابن بطوطة ، إلا أن ابن جبير أجمل أسلوباً وأرفع عبارة وإن امتاز ابن بطوطة بعنصر التشويق والإغراب .

وكان للأدب خصائصه في كل إقليم من أقاليم العالم الإسلامي الثلاثة التي أشرنا إليها : المشرق وإقليم الوسط والغرب والأندلس ، ففي المشرق ازدهر الأدب في بلاطات سلاطين السلاجقة وخاصة السلطان سنجر[1] ، وسلاطين الخوارزميين[2] وكانوا يعشقون الأدب والأدباء ، ويقربون الكتاب ويستوزرونهم وكان الكتَّاب يدونون رسائلهم وإنتاجهم بصفة عامة باللغتين العربية والفارسية[3].

ومن اشتهر من رجال الدولتين رشيد الدين الوطواط الكاتب الأديب صاحب التصانيف والرسائل الكثيرة بالعربية والفارسية ، ومن رجال الدولة الخوارزمية خاصة في الأدب والإنشاء ابن الأصباغي وزير السلطان محمد خوارزمشاه (المتوفي سنة ٦٠٠ هـ) وكان منشئاً فاضلاً بليغاً أديباً[4].

ويغلب على كتابات المشرق الطابع العقلي ، لكثرة أخذهم بعلوم الفلسفة والمنطق والطبيعيات ، وقد ازدهرت هذه العلوم كما قلنا في بيئات مشرقية في هذا العصر مثل خوارزم .

وفي المغرب والأندلس كان للأدب شأنه كذلك في ظل الدولة الموحدية فكان يعقوب بن عبد المؤمن (المتوفي سنة ٥٩٥ هـ) مقرباً للأدباء ، مصغياً للمديح مثيباً عليه ، وله ألّف أبو العباس أحمد بن عبد السلام الكوراني كتابه الذي سماه « صفوة الأدب وديوان العرب » في مختار الشعر[5] ، يقول عنه ابن

---

(١) راجع Browné: 344

(٢) الدولة الخوارزمية ص ٧٧ - ٨٩ .

(٣) Browne: 317

(٤) الجامع المختصر ١٣٩/٩ .

(٥) وفيات الأعيان ١٢٠/٦ ، ٦ - ١٣٧ .

خلكان : « وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند أهل المشرق ، وكانت له نوادر نادرة ، وملح مستطرفة عند أهل الأدب » . وقد اتصل أهل المغرب والأندلس خاصة بالفرنجة وقتاً طويلاً ودهوراً متصلة مما جعلهم يقتبسون بعض آدابهم وآرائهم كما كان للطبيعة السخية الجميلة في الأندلس أثرها في أدب هذا الإقليم . وقد ظهر في هذا العصر من الأدباء الكبار الفتح بن خاقان (المتوفي سنة ٥٣٥ هـ) والشريشي شارح المقامات .

وقابل عصر الأيوبيين في المشرق عصر الموحدين في المغرب والأندلس (٥٤١ - ٦٦٨ هـ) . ونبغ في ظلهم جماعة من المفكرين وكبار الفلاسفة كابن طفيل وأبي الوليد بن رشد ، وابن البيطار . كما أمهم جماعة مشهوري شعراء العصر كابن زُهر (ت ٥٩٦ هـ) والرصافي البلنسي (ت ٥٧٣ هـ) ، وعرف كذلك إبراهيم ابن سهل الإسرائيلي (ت ٦٤٩ هـ) برقة شعره ، وخاصة الغزل .

أعيان الأدباء والكتَّاب

هناك خصائص نستطيع أن نقول إنها خصائص عامة لكتابة هذا العصر بصفة عامة كما أن هناك خصائص خاصة بكل إقليم وبكل كاتب وأديب ، وقد أشرنا إلى هذه الخصائص عند الحديث عن فن الكتابة أو النثر ، ويصح هنا أن نكرر القول بأن كتاب المشرق كانوا يمتازون عن كتاب مصر بطابع يعتبر علماً على كل من الإقليمين ، وسنراه جليّاً عند الحديث عن المشهورين منهم .

المشـــرق والعـــراق

رشيد الدين الوطواط :

وأشهر كتَّاب العصر في الشرق في فارس رشيد الدين الوطواط (المتوفي سنة ٥٧٣ هـ) واسمه محمد عبد الجليل البلخي ، وظل في خدمة الخوارزميين منذ أيام السلطان آتسز خوارزمشاه (٥٢١ هـ - ٥٥١ هـ) فاتخذ منه رفيقاً

خاصاً ، كما جعله شاعراً للبلاط ، وقد كان لسان السلطان يمدحه ويهجو عدوه السلجوقي سنجر ويهجو شاعره أنوري[1]، وله ديوان يحوي ١٥٠٠ بيت مميزة بجمالها وبلاغة أسلوبها كما ينقل براون عن دولتشاه[2]. وكان إلى جانب منزلته في الشعر كاتباً بليغاً ذا أسلوب أخاذ ، تبادل الرسائل مع كثير من علماء العصر وأدبائه وتبادل الرسائل مع الحسن القطّان . أورد ياقوت أمثلة منها[3]. وتدور حول الهجاء والسباب ، وأسلوب الوطواط فيها جيد مسجوع إلا أن السجع فيه غير رشيق ، بل هو ثقيل متكلف . كذلك راسل الزمخشري – ويقول ابن رشيق إن شعر الوطواط دون نثره جودة ، قال براون : ولسانه حاد لاذع .

وله ديوان رسائل ، سمي القسم الثاني منه أبكار الأفكار . وله كذلك كتاب في البلاغة سماه (حدائق السحر) وهو مطبوع ، ويقول براون إنه ربما كتاب (ترجمان البلاغة) المفقود للفرُّخي . وله كتاب (صد كلمة) أي مائة كلمة . وهو بالفارسية ، عن خطب الخلفاء الأربعة ومنه مخطوطات في ليدن وكمبردج تشمل الكتاب جميعه ، إلا أن الجزء بكلام على أكثر شيوعاً في فارس . وهو مطبوع هناك على حدة .

جلال الدين أبو الحسن :

بالعراق وكان من مشاهير الكُتَّاب البلغاء ، اتصل بسيف الدين غازي وصاحبه وصار له وزيراً ، أعجب به ابن خلكان وبالغ في وصفه وتقريظه وفضله على كل من تقدمه من الفصحاء[4]، وكان له ديوان رسائل أجاد فيه وجمعه ابن خلكان . وراسل حيص بيص الشاعر وكانت بينهما مكاتبات وتوفي سنة ٥٥٤ هـ .

---

(١) الدولة الخوارزمية ٨٧ .

(٢) Browne 333 .

(٣) معجم الأدباء ٣ / ١٦٩ – ١٧٧ .

(٤) ابن خلكان في وفيات الأعيان ٤ / ٢٣١ .

ابن حمـــدون :

محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون الكاتب البغدادي (المتوفي سنة ٥٦٢ هـ) من بيت فضل وديانة . كان ذا معرفة بالأدب والكتابة سمع وروى وصنف كتاب « التذكرة » في الأدب والنوادر والتواريخ . وهو كتاب كبير يدخل في ١٢ مجلداً واتصل بالمستنجد الخليفة العباسي واختص به ونادمه ، وولاه الخليفة الزمام[١].

وقد كان ابنه كذلك من الأدباء العلماء ، لقيه ياقوت ، وقال إنه كتب بالديوان العزيز ببغداد ، وكان من المحبين للكتب ، وقال إنه ألف كثيراً من الكتب[٢].

الواســـطي :

قوام الدين بن زيارة الكاتب المنشيء ، وكان من الصدور الأوائل (توفى سنة ٥٩٤ هـ) . قال ابن خلكان : « انتهت إليه المعرفة بأمور الكتابة والإنشاء والحساب مع مشاركته في الفقه وعلم الكلام والأصول وغير ذلك ، وله النظم الجيد . جالس الجواليقي وأخذ عنه وخدم الديوان ببغداد في صباه . وكان مليح العبارة في الإنشاء ، جيد الفكرة ، حلو الترصيع ، لطيف الإشارة وكان الغالب عليه في رسائله العناية بالمعاني أكثر من طلب السجع ، وله رسائل بليغة وفضله أكثر من أن يذكر » . تولى النظر بديوان البصرة ، وواسط والحلة . ولم يزل على ذلك إلى أن رتب حاجباً بباب الخليفة ، وقلد النظر في المظالم ثم عزل ، ثم رتب استاداراً وعزل ، ثم عاد إلى واسط وأقام بها إلى أن استدعى في رمضان سنة ٥٩٢ وقلد ديوان الإنشاء ثم ولى ديوان المقاطعات وظل بها إلى أن توفى .

وقال ابن خلكان : « وله كل معنى مليح وله ديوان رسائل ، وقعت عليه في بلادنا ولم يحضرني شيء منه أثبته ههنا » .

---

(١) فوات الوفيات ٢ / ٣٧٨ .

(٢) إرشاد ٣ / ٢١٠ .

المــدائني :

أبو الفوارس نصر بن نصر بن ليث بن مكي الكاتب (المتوفي سنة ٦٠٥ هـ) وقد اشتغل ببغداد وأقام بها واستوطن ، ثم خدم بالديوان وعلت منزلته ورتب مشرف دار التشريفات المعمورة ثم الإشراف بالديوان المفرد ، وتولى عدة مناصب أخرى ولم يزل في علو من شأنه وإقبال من سلطانه إلى أن توفي شابًا . وكان فيه فضل وكتابة وعنده أدب ويقول الشعر[1].

في الشام ومصر

اختلفت الكتابة في مصر والشام عن العراق وفارس ، لأن الصنعة في هذا الإقليم لم تكن ثقيلة ، بل كانت صنعة رقيقة رشيقة وكانت الصنعة الممثلة في المحسنات اللفظية والمعنوية غالبة كما هو الحال في كتابة العصر إلا أنها صنعة فيها ذوق وروح ليست جافة يابسة بأشكالها وقوالبها ، وخير مثال لهذا النوع كلام القاضي الفاضل وطريقته ، فقد افتن فيها كل افتنان ، ويقال إنه أخذ هذه الطريقة عن ابن الخلال الكاتب المصري ، وسنعرض لها مفصلاً عند الحديث عن الثلاثة الكبار القاضي الفاضل ، والعماد الأصبهاني ، وابن الأثير .

وضمت مصر في عصر الفاطميين جماعة من الكتاب تمرسوا في الكتابة الإنشائية .

ابن أبي الشحناء :

ومن بينهم الحسن بن محمد بن عبد الصمد بن أبي الشحناء (توفي سنة ٤٨٢ هـ) قال عنه ياقوت : « أحد العلماء الفصحاء وله رسائل مدونة مشهورة . قيل إن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني منها استمد وبها اعتد . وقد كتب للمستنصر في ديوان الرسائل بمصر[2].

(١) الجامع المختصر ٩ / ٢٧٩ .
(٢) إرشاد ٣ / ١٩٥ .

وابن الصيرفي :

علي بن منجب (توفى سنة ٥٥٠ هـ) من فضلاء الكتّاب المصريين وأدبائهم وبلغائهم . وكان أبوه صيرفيًّا واشتهى هو الكتابة فمهر فيها ، وقد اشتهر ذكره وعلا شأنه في البلاغة ، واشتغل بكتابة الجيش والخراج . واستخدمه الأفضل الجمالي في ديوان المكاتبات ، ورفع من قدره وشهره ، وأراد أن يوليه ديوان الإنشاء ، وله كتاب « الإشارة فيمن تولى الوزارة » وكتب أخرى ، وله اختيارات كثيرة للدواوين الشعراء مثل ابن السراج وأبي العلاء وغيرهما ، وله ديوان رسائل أنشأها عن ملوك مصر تزيد على أربعة مجلدات[1]. وقال عنه السلفي : من أجلاء الكتاب وأعيان أهل الأدب ، وله مجموعات . رأيته بمصر سنة ٥١٥ هـ وحين عزمت الخروج كتبت إليه في إثبات أبيات من نظمه بخطه ، فكتب في الجواب « وأما ما استدعاه من شعري فوالله ما تعرضت قط للنظم لأنه لا جواهر عندي تصان به » فاستحسنت لفظه الذي صدر عنه وقنعت بهذا القدر منه[2].

ابن الخلال[3]

يوسف بن محمد المتوفي سنة ٥٦٦هـ . من أعيان الكتّاب المصريين وفضلائهم ، كان صاحب ديوان الإنشاء بمصر في دولة الحافظ الفاطمي . وقال عنه العماد الأصبهاني : هو ناظر مصر وإنسان ناظرها ، وجامع مفاخرها ، وكان إليه الإنشاء وله قوة على الترسل ، يكتب كما يشاء . عاش كثيراً ، وعطل في آخر عمره ، وأضر ولزم بيته ، وتوفى بعد أن تملك الملك الناصر بثلاث أو أربع سنين ، وله مقاطيع من الشعر ، وأخذ عليه القاضي الفاضل وتأثر به كثيراً .

---

(١) معجم الأدباء ٥ / ٤٢٣ .

(٢) معجم السلفي مصورة معهد المخطوطات بالجامعة العربية .

(٣) كتاب الروضتين ١ / ١٩٢ وراجع كذلك Stanely Lanepoole His of Egypt in the Moyen Ages p. 188 ١ – ١٩٢ والمختصر ٣ – ٥٠ .

ابن الجـــراح :

أبو الحسن يحيى بن أبي علي الكاتب المصري (المتوفي سنة ٦١٦هـ) كتب في ديوان الإنشاء بالديار المصرية مدة طويلة وكتب كثيراً ، وكان خطه في غاية الجودة وكان فاضلاً أديباً متقناً له نظرة حسنة وشعر فائق ورسائل أنيقة . سمع على الحافظ السلفي بالإسكندرية وتوفى بدمياط ساعة حصارها بالفرنج .

القاضي الجليس[١] :

عبد العزيز بن الحسين بن الجبَّاب الأغلبي الصقلي (المتوفي سنة ٥٦١هـ) تولى ديوان الإنشاء للفائز مع الخلال ، وله رسائل وشعر .

خصائص الفن الكتابي

في آخر عصر الفاطميين وعصر صلاح الدين :

قال أبو شامة في الروضتين عن منشور كتبه أحد كتاب الخليفة الفاطمي بتقليد أسد الدين شيركوه : « ثم ذكر باقي المنشور ، وهو مشتمل على كلام طويل وحشو غير قليل على عادة الكتاب المتأخرين الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين ، والبلاغة عكس ذلك ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : بعثت بجوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً » .

فأبو شامة يأخذ على الكاتب التطويل بزيادة الألفاظ والمعنى واحد محدود والبلاغة هي الإيجاز ، كما يفهمها العرب ، وكما نوَّه عنها النبي صلى الله عليه وسلم .

وكذلك كان السجع – وهو طابع عام – يغلب على الكتاب ، وهو سجع يعمد إليه الكتاب عمداً ، ومثاله منشور آخر لأحد كتاب نور الدين محمود بالشام[٢]، نلاحظ عليه هذا اللون المتكلف من السجع والذي يختلف عن سجع

---

(١) فوات الوفيات ١ / ٥٧٧ .
(٢) الروضتين ٢ / ٥٨٣ .

القرنين الرابع والخامس ، فقد كان سجعاً فيه رونق الزخرف وعليه سيما الصنعة الجميلة لا الصنعة المعقدة التي أطلق عليها الدكتور شوقي ضيف بحق اسم التصنع . يقول : « ولعل أهم عامل تفترق به مقامات الحريري عن مقامات البديع هو أنها كتبت في ظلال مذهب التصنيع وزخرفة »[1].

كذلك الحال في الجناس ، وما ابتدعه الحريري في هذا الفن من ضروب عجيبة أشرنا إلى بعضها في الحديث عن الأدب والمقامات ، والتضمين بالشعر والقرآن والحديث .

ولم يكن هذا التضمين مجهولاً في فن الكتابة إلا أنه مع ذلك لم يدخل فيها عنصراً تقوم عليه دعائم هذا الفن ، وتكون له أصوله التي تحتذى وتؤلف فيها الكتب ، وسنشير إلى ذلك عند الحديث عن الفن الكتابي عنده .

وقد كان الكتاب يحاولون بكثرة لجوئهم إلى التعقيد والإسراف في الصنعة أن يوجدوا فنًّا جديداً يضارع الشعر ويفوقه أو كما يرى بروكلمان في مقامات الحريري أنها تمثل محاولة أخيرة من جانب الروح العربي إلى التماس فن ملائم من القول خارج نطاق الشعر التقليدي[2]» ونرى للحريري بعض رسائله المسرفة في الصنعة .

يقول في رسالة له التزم في كل كلمة منها السين نظماً وكتبها على لسان بعض أصدقائه يعاتب صديقاً له أخل به في دعوة ودعى غيره إليها وكتب على رأسها :

« باسم القدوس أستفتح ، وبإسعاده أستنجح ، سجية سيدنا سيف السلطان سدة سيدنا الإسبهسلار ، السيد النفيس ، سيد الرؤساء ، حرست نفسه ، واستنارت شمسه ، وبسق غرسه ، واتسق أنسه استمالة الجليس ومساهمة الأنيس ومواساة النسيب ومساعدة الكسير والسليب ... إلخ »[3]

ولم يوجد بمصر من حاول هذه المحاولة الشاذة عند الحريري ، أو تمادى مثل

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٤٩ .

(٢) بروكلمان تاريخ الشعوب ٢ / ١٧٢ .

(٣) أورد ياقوت الرسالة في الإرشاد ٦ / ١٧٥ - ١٧٦ .

ما تمادى فيه ، وإنه وإن كان وجد له بها مقلدون إلا أنهم لم يكثروا كثرة المقلدين من العراقيين والفرس ، وسرعان ما وجدنا محاولات التقليد في مصر والشام تفشل أو يقضي عليها ، بينما نجد كثيراً من محاولات التقليد في العراق وفارس تستمر ، وقد ذكرنا قبل من قام بتقليده هناك ، ولعل هذا يرجع إلى الناحية التي أشرنا إليها في بيان مصر والشام في هذا العصر ، ونعني به الجنوح إلى البساطة والخروج بالصنعة البيانية عن التعقيد ومجافاة الذوق ، والجهد والجفاف ، وسنجد عند الحديث عن القاضي الفاضل والعماد وابن الأثير ، أن القاضي الفاضل يختلف عن صاحبيه اختلافاً بيناً ، وسبب هذا الخلاف وأصله راجعان إلى الخاصية المشار إليها . فأسلوب العماد متكلف ثقيل في كل ما يكتب وكذلك صنعة ضياء الدين في رسائله ، وإن كان مرسله أحسن حالاً من الرسائل ، فأسلوبه في كتابة المثل السائر مقبول بل جيد . إذا قورن بما أورده من رسائله فيه ، وكذلك الحال في كتبه الأخرى مثل كتاب « الاستدراك » .

ويشارك المصريين أهل الشام المغاربة ، وأهل الأندلس ، فإنهم لم يغرقوا في الصنعة إغراق المشارقة ، ولم يخرج من بينهم واحد مثل الحريري في الكتابة ولا الأرجاني في الشعر .

بل إننا نجد في الشام من الكتاب من ثار على الصنعة اللفظية وعارضها ، كما وجد جماعة من الشعراء خرجوا على نهج البديع كذلك ، ومن هؤلاء الكتاب أسامة بن منقذ ، فقد كتب كتابة المسمى (بالاعتبار) في أسلوب سلس سهل ، وعبارة قصصية بسيطة يضمنها مختلف مغامراته في الحرب والسلم[1].

---

(١) بروكلمان ٢ / ٢٣٣ .

كبار كتّاب العصر

القاضي الفاضل :

أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف أبي المجد علي ابن الحسن بن الحسين اللخمي البيساني .

ولد القاضي الفاضل ببيسان سنة ٥٢٩هـ ونشأ بمصر وتعلم واشتغل بالدرس ، وبالأدب والرسائل . تحدث عن صباه ، وطلبه للعلم بمصر فقال : « أرسلني والدي وكان إذ ذاك قاضياً بثغر عسقلان إلى الديار المصرية في أيام الحافظ – وهو أحد خلفائها – وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات ، وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجلاً يقال له ابن الخلال ، فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرّفته من أنا وما طلبتي رحب وسهل ثم قال : ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات ، فقلت : ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن وكتاب الحماسة . فقال : في هذا بلاغ ، ثم أمرني بملازمته »[1].

وإذاً فقد كانت تلمذة القاضي الفاضل في فن الكتابة علي ابن الخلال ، وكان قد اشتهر في ديوان الرسائل ببلاغته . وعرفت تلمذة القاضي على ابن الخلال عند الكتاب من بعد . قال ابن حجة : « الذي ثبت عند المؤرخين وعلماء هذا الفن – يعني الكتابة – أن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى أخذ علم الإنشاء وحكمه عن موفق الدين ابن الخلال منشيء الخليفة الحافظ العلوي ، ورتبته في الإنشاء معلومة »[2].

وقد زاد أبو شامة على عبارة ابن الأثير شيئاً آخر ، ذلك أنه قال إن ابن الخلال أمره بملازمته « فترددت إليه وتدربت بين يديه ، ثم أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة فحللته من أوله إلى آخره ، ثم أمرني أن أحله مرة ثانية فحللته » فكأن ابن الخلال كان يرى أن أهم الآلات في تعلم الإنشاء والكتابة هي حفظ القرآن وحفظ شعر الحماسة ، ثم محاولة الاستعانة بهما بالاقتباس والتقليد ، وأولى درجات الاستعانة هي التدرب على حل المنظوم إلى منثور ، أو

(١) الوشي المرقوم لابن الأثير ٩ .

(٢) ثمرات الأوراق لابن حجة ص ٥٣ .

محاولة فك الشعر والآيات القرآنية إلى جمل نثرية عادية تحتفظ بأكثر ألفاظ الشعر والقرآن ولكنها تنظم تنظيماً آخر من صنع الكاتب المنشيء ، وبهذا يستطيع الكاتب أن يتدرب على بناء كلمات من نسق رفيع في عبارة من عنده ، ثم يتدرج في ذلك فيستطيع أن يستعين بهذا الشعر وهذه الآيات في المعاني التي يريدها مضيفاً إليها مايريد إضافته من ألفاظه هو حتى تتلاءم معها وتكون وإياها كالعقد الذي تتلاءم خرزاته ، وتتسق حباته .

وسنرى عند الحديث عن فن القاضي الفاضل أن هذا العنصر « الاقتباس وحل المنظوم » من أهم عناصر كتابته .

وتخرج القاضي على يد ابن الخلال ، فصار بارعاً قديراً في الكتابة وإنشاء الرسائل . واستطاع بمهارته أن يلي بعض المناصب الهامة في دواوين الفاطميين ، وقد ذهب إلى الإسكندرية وتولى الكتابة بها على باب السدرة ثم اتصل بالكامل ابن شاور فاستكتبه . وظلّ بها زمناً ثم استدعاه العادل بن الصالح بن رزيك الوزير الفاطمي إلى القاهرة سنة ٥٥٨هـ وأسند إليه ديوان الجيش كما ذكر عمارة اليمني في « الوزارة المصرية »[١].

قال الحموي في ثمرات الأوراق : « ومن أيام العادل ابن رزيك الحسنة التي لا توارى بل هي اليد البيضاء التي لا تجارى ، خروج أمره إلى والي الإسكندرية بإحضار القاضي الفاضل إلى الباب واستخدامه بحضرته في الديوان ، فإنه عروس الدولة بل للملة ثمرة مباركة متزايدة النماء أصلها ثابت ، وفرعها في السماء »[٢].

واشترك في الأحداث التي دارت بين شاور وضرغام قبل حضور شيركوه ، وصلاح الدين إلى مصر[٣].

وعندما جاء أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر ، وهزما شاور والفرنج ، واستقل شيركوه بالأمر وولي الوزارة ، طلب من القصر كاتب

(١) راجع الروضتين ١ / ١٣٠ .

(٢) ثمرات الأوراق ١٣٦ .

(٣) قال أبو شامة : إن ضرغام اعتقله مع الكامل ابن شاور سنة ٥٥٦ هـ . (الروضتين ١ / ١٦٦).

إنشاء ، فأرسل إليه القاضي الفاضل ، وقال أبو شامة في الروضتين : إن القصر بعثه إلى أسد الدين شيركوه استبعاداً له ، ذلك أنه زاحم كتاب القصر فثقل عليهم أمره ، وعندما أرسلوه إلى شيركوه ظن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا الأمر لا يتم وأن أسد الدين سيقتله كما قتل من قبله ، يعنون ضرغاماً وشاوراً وابنه -- وقالوا : لعله يقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا فكان من أمره ما كان[1].

فالرجل إذاً كان موضع حقد منافسيه من كتاب الديوان والقصر ، وهو حقد تشهد الدلائل وخصائص الفاضل وطبائعه على أنه كان لتقدمه فى فنه ولاستقامته في خلقه وأنه لا اعوجاج فيه كاعوجاج الموظفين في عهده ، وهكذا أرادوا التخلص منه وأراد الله تعالى التمكين له في دولة غير دولتهم ، دولة ناشئة فتية هي دولة صلاح الدين .

وجاء صلاح الدين إلى الوزارة بعد موت عمه أسد الدين شيركوه . فتولى له الكتابة ثم أعجب صلاح الدين بتقواه وكثرة عبادته ، وباستقامته وحسن خلقه ، بفنه وأدبه ، وعلمه ، بذكائه وحسن تصريفه للأمور ، فاعتمد عليه ، وكان له وزيراً لا يستغنى عنه ولا يفارقه في سلم أو في حرب ، وكان صلاح الدين يقول في الملأ من الناس : « لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل »[2].

وبعد زوال الدولة الفاطمية حصل على قدر كبير من الكتب من مكتبة القصر الفاطمي ، وصحب الفاضل صلاح الدين في وقعة الرملة ، وعاد بعد أن كسر جيش صلاح الدين ، وظل بمصر زمناً ثم عزم على الحج ، وكان صلاح الدين يعد جيشه للغزو[3]. وعاد من الحج وتردد مع السلطان بين الشام ومصر ، ولكنه كان دائماً يفضل الإقامة بمصر . وفي سنة ٥٨٥هـ كان السلطان بالشام يدبر بعض أمورها ويقوم بتدعيم ملكه وإعداد جنده ، وكان الفاضل بمصر يرتب للسلطان أموره ويجهز العسكر ويعد الأسطول ويحمل إليه المال والميرة إلى عكا ، والسلطان يكاتبه في مهماته ، وترجع أجوبته بأحسن

(١) الروضتين ١ -- ١٥٩ .
(٢) مرآة الزمان ٨ / ٤٧٢ .
(٣) الروضتين ١ / ٢٧٥ .

عباراته مشيراً وناصحاً ومسلياً ، وباحثاً عن مصالح الإسلام متقصياً »[1].

وفي سنة ٥٨٦هـ غادر القاضي الفاضل مصر إلى صلاح الدين بالشام ، قال بو شامة : « فوصل إلى العسكر المنصور في ذي الحجة ، وكان السلطان متشوقاً لقدومه وطالت مدة البين لغيبته عنه سنتين ، على أن أمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبة ، وقد جمع الملك العزيز بمقامه هيبة ومحبة ، وكان لسلطان شديد الوثوق بمكانه ، دائم الاعتماد والاستناد على إحسانه وإلى ركانه ، فإن استقدمه خاف على ماوراءه من المهام ، وإن تركه ناله وحشة لتفرد بالقضايا والأحكام ، وكان يكاتبه يشرح له الأحوال »[2].

وإذاً فقد جمع القاضي بين فن الكتابة والسياسة وتدبير الملك ، ونجح في كليهما نجاحاً كبيراً ، فكان خير سند لصلاح الدين في كفاحه ، وواجه صلاح الدين أعداء العرب والمسلمين بالسيف والحرب والقتال وعاضده القاضي الفاضل ، فحمى ظهره بالعون والتدبير وحشد الإمكانيات وتعبئة القوى في مصر لمدده .

قال لانبول في كتاب صلاح الدين : « ومع كتابة الفاضل الرائعة ، كان رجل خدمات عامة وإدارة ، فقد استعان به صلاح الدين في مصر عند غيابه في حروبه بالشام ، وكانت مصر وطنه المفضل المحبوب ، الذي لم يطق فراقه ولا البعد عن النيل الحبيب »[3].

وقال بروكلمان : « نهض بعبء الإدارة كلها منذ تم الأمر لصلاح الدين ، وعنى بتدوين يوميات رسمية طوال عهده بالإدارة العامة ، ولكن يد الزمان لم تحفظ لنا مع الأسف غير نتف صغيرة »[4].

وقال صاحب الجامع المختصر : « وكان صلاح الدين يحترمه ويعظمه ويرجع إلى قوله وإشارته »[5].

---

(١) الروضتين ٢ / ١٦٥ .

(٢) المصدر نفسه ٢ / ١٨٢ .

(٣) Lanepoole : Saladin 188 .

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية ٢ / ٢٣٣ .

(٥) الجامع المختصر ص ٢٨ .

واستمر به الحال على هذا إلى أن توفي صلاح الدين ، فحزن عليه الفاضل ولم يطق الوزارة بعده ، وقد ظل زمناً وجيزاً وزيراً لابنه الأفضل ثم استعفى وعاد إلى القاهرة عاكفاً على الأدب والعلم ، يجمع حوله تلاميذه ومريديه من الأدباء والكتاب والشعراء ، وظل كذلك إلى أن توفي سنة ٥٩٦هـ[١] ودفن بظاهر القرافة بالقاهرة .

وقد اجتمعت للفاضل في حياته أسباب الجاه ، والشهرة ، والغنى ، والعلم والخلق الكريم . كان ديناً صحيح العقيدة ، يحج إلى بيت الله كلما سنحت فرصة ذلك ، ويجاور هناك ، وكان خيِّراً ينفق من ماله على الفقراء ، وكان يبعث إليه السلطان بالمال ليفرقه على المحتاجين . بعث إليه مرة بثلاثة آلاف دينار ، وأمره بتفريقها على الفقراء والمجاورين[٢].

وكان اهتمامه بالعلم بقدر اهتمامه بالدين والسياسة ، فأنشأ مدرسة سميت باسمه وجعلها لتدريس المذهب الشافعي مع العلوم العربية الأخرى ، وضم إليها مكتبة زاخرة ، وقد جمع من مكتبة القصر وغيرها من مكتبات البلاد الإسلامية الشيء الكثير .. ذكر صاحب المختصر في التاريخ أنه كانت له خزانة تحتوي على ثلاثين ألف مجلد[٣]. وذكر صاحب مرآة الزمان أن كتبه كانت مائة ألف مجلدة .

رســـائلـه :

خلف تراثاً كبيراً من الرسائل . يذكر صاحب « مرآة الزمان » أنها تبلغ عشرة مجلدات[٤]. ويذكر ابن خلكان أن مسوّدات رسائله إذا جمعت ماتقصر عن مائة مجلد[٥]. وضاع كثير من هذه الرسائل ولم يبق غير بعضها متناثراً في كتب الأدب والإنشاء . وقد روى منها أبو شامة في الروضتين ، وكذلك

---

(١) قال صاحب مرآة الزمان : « إنه لما استولى العادل على مصر وولى له الوزارة صفي الدين بن شكر خافه فدعا على نفسه بالموت حتى لا يهينه فأصبح ميتاً » .

(٢) الروضتين ٢ / ٧ .

(٣) الجامع المختصر ٢٨ .

(٤) مرآة الزمان ٨ / ٤٧٢ .

(٥) ثمرات الأوراق ٥١ .

النويري في نهاية الأرب[1]، والقلقشندي في صبح الأعشى ، والحموي في ثمرات الأوراق كما جمع ابن نباته المصري مختارات منها[2]. وكذلك فعل ابن عبد الظاهر ؛ فقد جمع مختارات منها سماها (الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم) منه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات[3] إلا أننا مع ذلك نتمنى أن نعثر على جزء أكبر من رسائله ، فهي فضلاً عن قيمتها الأدبية ، تصور أجمل تصوير وأدق هذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصر والشام ، وتجلي كثيراً من الغموض في تاريخ الحروب الصليبية ودور مصر فيها .

وقد ذكر بروكلمان أن يد الزمان لم تحتفظ لنا مع الأسف بغير نتف صغيرة من يومياته الرسمية ، أو رسائله الإدارية ، أما رسائله الديوانية فلم يصل إلينا منها غير نصوص لم تختر – لسوء الحظ – من أجل أهميتها التاريخية بل لجمالها الأسلوبي[4].

قال في بني أيوب : « وقد كان يقالُ إن الذَّهبَ الإبريزَ لا تَدْخُل عليه آفة ، وإن يَد الدهْر البخيلَة به كافَّة ، وأنتم يا بني أيوب أيديكم آفةُ نفائِس الأموال ، كما أن سيُوفَكُم آفةُ نفوسِ الأَبْطَالِ ، فلو ملكتُم الدَّهْرَ لامتطيتُم لياليَه أداهمَ ، وتقلَّدتُم أيامَه صَوارم ، ووهبتُم شموسَه وأقْمَاره دراهمَ . وَأيامُ دولتِكُمْ أعراسٌ ومآتم ، والجودُ في أيدِيكُم خاتم ، ونَقْشُ حاتِمٍ في نَفس ذلك الخَاتَمْ »[5].

وقال يصف جيشاً في معركة : « فبَنتْ سنابكُ الخيل سماءً من العَجاج نجُومُها الأسنَّةُ ، وطارت إليهم عِقبان الخُيولِ ، قَوادِمُها القوائمُ ، ومخالبها الأعنَّة ، وتَصوَّبتْ عُيُونُ السُّمْرِ إلى قلوبهم كأنما تَطْلُبُ سوادَها ، وقصدَت أنهَارُ السُّيوف صُدورَهم لتروى أكبادَها »[6].

---

(١) نهاية الأرب ٨ / ١ .

(٢) سماها « الفاضل من إنشاء الفاضل » ومنه نسخة مصورة بدار الكتب المصرية .

(٣) ومنه نسخة في مكتبة بلدية الإسكندرية رقم ١٢٤٢٧ – ج .

(٤) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٢ / ٢٣٣ .

(٥) ثمرات الأوراق .

(٦) المصدر نفسه ١٣٢ .

وقال يصف قلعة حمص : « والشيخُ الفقيهُ قد شَهِدَ ما يُشهِدُ بِهِ من كَونها نجماً في سحاب ، وعُقاباً في عُقاب ، وهامةً لها الغمامة عمامة ، وأنملة إذا خضَّبها الأصيل كان الهلال منها قُلامة ، عاقدة حَبوةً صالحها الدهرُ على أن لا يحلها بفرعه ، عاهدة عِصْمةً ، صالحها الزمنُ على أن لا يُروعهَا بخلعِه ، فاكتنف بها عقارب منجنيقات لا تطبع طبعَ حمص في العقارب ، وضَرَبَتْ حجارةً بها الحِجارة فأظهرت فيها العداوةَ المعلومَةَ بين الأقارب ، فلم يكُنْ غيرَ ثَالِثَةٍ من الحدِّ إلا وقد أثرت فيها حُذريًّا بضربها ، ولم تصل السابعَ إلا والحُجرانُ تنذُر بنقبها ، واتسع الخرقُ على الراقِع ، وسَقَطَ سَعدُها عن الطَّالِع . إلى موحِّد هو إليها الطالِعُ ، وفُتِحت الأبراجُ فكانت أبواباً ، وسُيِّرت الجبالُ فكانتْ سراباً ، فهنالك بدت نقوبٌ يَرى قائمٌ من دونِها ما وراءَها ، وخُشيت فيها النَّارُ ، فلولا الشُّعاعُ من الشُّعاع أضاءَها »[1].

وقال في وصف قلعة الكرك المشهورة وحصار جيوش صلاح الدين لها :

« عذابُ الله بالحصْن وَأهلِه واقعٌ ، ماله من دَافعْ ، وإنَّ نهارَ النصر قد ظهرَ وما دونَه من مانِع ، وأما المنجنيقاتُ فقد نَكأتْ في الأبْراج بالْهدْم ، وفي الأعلاج بالهتْك ، فلم تُبْقِ لها الحجارةُ الطائرةُ إليها حِجارةً قائِمةً ، وإن لها من أمطارِها عليها ليلاً ونَهاراً ديمةٌ دائمةً ، وأطْفنا عليها بالزَّرجُون حتى وقعت الأسوارُ من سُكرِها ، وضربَنا دونها الستائر حتى ترنحت لصخْرِها ، وعاطتها كِفةُ المنجنيق عُقَارَ عَقرِها ، فالسور المقابل للمنجنيقات قد انهدمت أبراجُه وأبوابُه ، وانهدَّتْ قواعدُه وأركانُه . ولولا الخندَقُ الذي هو وادٍ من الأوديةِ واسعٌ عميقٌ ، لما تعذَّرَ إلى الزَّحف إليهم والهجْم عليهم طريق » ، وقال : « وقد جمعتْ الحِجارةُ في الإسقَاط بين رُءُوس الأعلاج ، فرمت الشَّرائف والواقِفِين عليها لحمايتِها ، وأرت الإفرنج باهتدائها إلى أردائها غايةَ غِوايتِها ، فما أخرَجَ أحَدٌ منهم رأساً إلا دخَل في عينيه نَصل ، وما هَجر قِرابَ الإسلام سَيفٌ إلا وله في رقاب الكُفر غِمد ، قطْعُها وصْلٌ ، وما على الحجر في الإسراف والتبذير حَجْر ، ولكلِّ ليلةٍ من وقع الحوافِر ، ومن سنا الأسِنَّةِ فَجر ، ولقد أخذنا من العدوِّ بالمخنق ، وشرعنا في ضم الخندق ، والحائِطُ واقعٌ ، والواقعة

(۱) الروضتين ۱ – ۲۳۹ .

بهم مُحيطة ، والدروع بالسيوف مُتَّصلة وبالجروح مُحيطة » .

وقال فيه أيضاً : « وأما الكرك فكفأتْ المنجنيقات عليه متظافِرة ، وحِجارتُها على من فيه حاجَرَة ، وقد جُدِعَت أنوفُ الأبرجَةِ ، وأسبلتْ قناعُ الستائر وجوهَها المتبرجة وكلُّ جوانبها وعرةُ المرتَقَى صعبةُ المحتَظَى ، والسلطانُ يستعذِبُ المشقات التي تتفَادَى منها الهممُ ، ويباشِر جمرات الشِّتاءِ الكَالح بوجههِ المبْتسم »[1].

وقال فيه : « هو شجاً في الحناجر ، وقذاً في المحاجر ، قد أخَذَ من الآمال بمخنقها وقعد بأرصاد العَزائم وطُرقها ، وصار ذَنباً للدهر في ذلك الفَجّ ، وعذراً لتارِك فريضَةِ الله من الحج ، وهو وحصن الشُّوبك يسَّرَ الله الآخرَ - كبيت الواصف للأسدين :

« ما مر يوم إلا وعندهما لحم رجال أو يولغان دما »

هذا فيما يتصل بنماذج من رسائله في وصف الحصون وحروب صلاح الدين ، مع الإفرنج ، أما الرسائل الخاصة لصلاح الدين ، فيمثلها نماذج عن شفاءِ السلطان من مرض ألم به قال الفاضل سنة ٥٨١ هـ : « وقد استَقْبَل مولانا السلطانُ الملكُ الناصرُ العافيةَ غضَّةً جدِيدة ، والعزْمةَ ماضيةً حَدِيدةً والنشاط ، إلى الجهاد والجنةِ مبسوطةَ البساط ، وقد انقضَى الحسابُ وجُزْنا الصِّراط وعُرِضْنا نحنُ على الأهوال التي من خوفها كاد الجملُ يَلج في سمّ الخياط »[2].

وقال من رسالة يذكر فيها أولاد السلطان وقد غاب عنهم زمناً : « وقبل الإجابة عن الفصول ، فنبشر بما جرت العادة به - لا قطع الله تلك العادة - من سلامة وصحة وعافية شملت موالينا وأولاده السادة ، أطاب الله الخبر إليهم عن المولى ، وإلى المولى عنهم ، وعجَّل لقاءَهم له ، فإنهم من يلق منهم بل كل منهم ملكٌ دستُه بُرجُه ، وفارسٌ مهده سرجُه ، فهم بحمد الله بهجةُ الدنيا وزينتها ، وريحانة الحياة وزهرتها ، وإن فؤاداً وسع فراقهم لواسع ، وإن قلباً قنع بأخبارهم لقانع ، وإن طرفاً نام على البعد عنهم لهاجع ، وإن ملكاً ملك تصبُّرَه

(١) الروضتين ٢ - ٥٥ .

(٢) الروضتين ٢ - ٦٦ .

عنهم لحازم ، وإن نعمة الله فيهم لنعمة بها العيش ناعم ، أما يشتاق جيدُ المولى أن يتطوق بدررهم ، أما تظمأ عينه إلى أن تتروى بنظرهم ، أما يحنُّ قلبُه على قلبه ، أما يلتقط هذا الطائر بتقبيلهم ما خرج من حبه ، وللمولى أبقاه الله أن يقول :

« وما مثل هذا الشوق يُحمل مَضْغُه   ولكن قلبي في الهوى متقلِّبُ »[1]

إن إعزازه لأهل الفضل دليل على فضله ، وإن الأولى أن تكونَ كتبُ الأدب عند أهله ، وما أبهجنا إذا جالَ في فضاءِ الفضائِل ، وخطَبَ من أبكار المعالي كرائم العقائل ، وآخى بين السيف والقلم ، وصار في موكبه العلْمُ والعَلَمُ »[2].

وله رسائل في موضوعات مختلفة ، فله رسالة مثلاً في النيل يقول فيها : « نِعمُ الله سبحانه وتعالى من أضوئها بُزوغاً ، وأضفاها سُبوغاً ، وأصفاها يُنبوعاً ، وأسناها منقوعاً ، وأمدها بحر مواهب ، وأضمنها حسن عواقب ، النعمة بالنيل المصري الذي يبسط الآمال ويَقبضُها مدُّه وجزرهُ ، ويُربِّي النبات حَجْره ويحيي مُطلقه الحيوان ، ويُجنى ثمرات الأرض صِنوانٌ وغير صِنوانٌ ، وغير صِنوانْ ، وينشر مطويَّ حريرها ، وينشر مَواتها ، ويوضح معنى قوله عز وجل : (وبارَكَ فيها وقدَّر فيها أقواتَها) . وكانَ وفاءُ النيل المبارك تاريخٌ كذا فأسفَرَ وُجهُ الأرضِ وإن كانت تُنَقَّب وأمَّن يومُ بشراهُ منْ كانَ خائِفاً يترقَّب ، ورأينا الإبانة عن لطائف الله التي حقَّقَت الظنونَ وَوَفت بالرزق المضمون ، إن في ذلك لآيات لقومٍ يُؤْمنون »[3].

وله رسالة في حمام الرسائل ذكرها ابن حجة الحموي وأعجب بها[4].

---

(١) الروضتين ٢ / ٣ .

(٢) الروضتين ١ / ٢٧٧ .

(٣) ثمرات الأوراق ١٣٢ .

(٤) ثمرات الأوراق ٥١ .

خصائص فن الفاضل في الكتابة .

يمتاز الفاضل بخصائص تجعله علماً مبرزاً في الكتابة ، بل وقدوة معلماً لجيل من الكتّاب ساروا على نهجه ، واهتدوا بطريقته . قال النويري في نهاية الأرب : « إليه انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت زود الفضائل واغترفت ، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت بها نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لا محالة والفاضل بغير إطالة ، وقد أنصف بعض الكتّاب فيه وفطن من تفضيله بملء فيه حيث قال : « كل فاضل بعد الفاضل فضله ، وكل قد عرف فضله »[٣].

وقال صاحب الجامع : « كان كاتباً فصيحاً ، بليغاً .. إليه انتهت الكتابة في زمانه »[٤].

وقال ابن حجة : « ولعمري إن الإنشاء الذي صدر في الأيام الأموية والأيام العباسية نُسِيَ وأُلْغِيَ بإنشاء الفاضل وما اخترعه من النكت الأدبية والمعاني المخترعة والأنواع البديعية ، والذي يؤيد قولي قول العماد الكاتب في الخريدة إنه في صناعة الإنشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع »[٥].

وأول ما جعل للقاضي هذه المنزلة قدرته على استخدام البديع وسيطرته على السجع وحسن تصريفه للألفاظ ، فتطاوعه أو يطوّعها للألوان البديعية المختلفة التي فتن بها الناس . وأظهر ما برع فيه الجناس الذي يديره في عباراته غير متكلف ، وإن كان قد بذل في استخراجه من الجهد ما بذل ، ولكنه يمرق أمامك دون تعثر أو توقف . والجناس والسجع هما الظاهرتان الأسلوبيتان اللتان يعتمد عليهما الفاضل في تلوين أسلوبه بالجرس الموسيقي المتتابع ، والذي يشبه في تتابعه وتقاربه مع تثنيه وانحناء الوشي والزخرف والنمنمة العربية التي توشي

---

(٣) نهاية الأرب ٨ / ١ .

(٤) الجامع المختصر ص ٢٨ .

(٥) ثمرات الأوراق ٥١ .

بها البرود والطرز الجميلة التي تحلى بها الجدران والسقوف والآنية والتحف العربية ، فلا غرو إذاً أن تحدث الشعراء بهذه القدرة الزخرفية الموسيقية في العبارة . يقول ابن التعاويذي في وصف رسائله[1]:

ترعى لِحَاظُكَ من بدائع وَشْيِها ... أزهارَ جنات ونورَ خمائِلِ

وقال أيضاً :

تزهو على الأصداف أوراقها ... لأنها أوعية الدرّ
قارئها ينظر في روضةٍ ... موشيّة الأقطار بالزَّهْرِ
كأنه فَضٌ وقد فضَّهَا ... لطائم العِطْر على العِطْرِ
تُجدِّدُ في أعطافِه نشوةً ... كأنها جاءَت على خمْرِ[1]

ومثال هذا اللون ما قاله الفاضل في قلعة نجم : « أما قلعة نجم فهي نجم في سحاب ، وعقاب في عقاب وهامة لها الغمامة عمامة . وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة » .

وقد جمعت هذه العبارات فنوناً من البديع ، ففضلاً عن السجع والجناس والمقابلة ، تحوي صوراً جميلة ، تتضمنها هذه الاستعارات والتشبيهات التي يرشح بعضها بعضاً ، فهو يشبه القلعة بالنجم وهي يحيط بها السحاب تشبه الهامة التي تحيطها العمامة ، وهي في سبائك الأصيل وقد ألقت عليها الشمس بضوئها العسجدي الأحمر كالأنملة قائمة عليها الخضاب . ورشح تشبيهها بالأنملة تشبيه الهلال بقلامة الظفر ، وهكذا نجد الفاضل يمزج في براعة بين التلوين الصوتي عن طريق الجناس والسجع ، والتلوين التشخيصي بالصور المخيلة عن طريق الاستعارة والتشبيه ، قال ابن حجة عن تشبيهه السابق : « فخضاب الأصيل لهذه الأنملة حسَّن أن يكون الهلال لها قلامة . وهذه غاية فاضلية لا تدرك »[3].

ويرى شوقي ضيف أن سمات القاضي الفاضل ميله الشديد إلى التشخيص[1]

(١) ديوان ابن التعاويذي ٣٣٤ .
(٢) ديوان ابن التعاويذي ١٩٤ .
(٣) خزانة الأدب ص ١٧٥ .
(١) الفن ومذاهبه في النثر - الطبعة الأولى ص ١٩٦ .

ويعتمد إلى جانب هاتين الخاصتين الأصيلتين على خصائص أخرى فرعية ، منها الكناية والتورية . قال ابن حجة الحموي : « وأظن أن القاضي الفاضل رحمة الله تعالى هو الذي ذلل منهما الصعاب – يعني في الكناية والتورية – وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب ، حتى ارتشف هذه السلافة أهل عصره ، وأصحابه الذين نزلوا بربوع مصره »(1).

ومثاله في رسالته التي تحدث فيها عن حمام الرسائل . قال : « وتطوى الأرض إذا نشرتْ الجناحَ الطائِر ، وتُزوى لها الأرضُ حتى ترى ما سيبلغهُ ملكُ هذه الأمة ، وتقربُ منها السماء حتى ترى مالا يبلغه وهم ولا همّة ، وتكون مراكب الأغراض والأجنحة قلوعاً ، وتركب الجو بحراً يصفق فيه هبوب الرياح موجاً مدفوعاً ، وتعلق الحاجات على أعجازها ولا تعوق الإرادات عن إنجازها ، من بلاغات البطائق استفادت ما هي مشهورة به من السجع ، ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهي دائمة الرجع ، وقد سكنت النجوم فهي أنجم »(2).

وكذلك اقتبس القاضي الفاضل من القرآن ، وتفنن في الاستعانة بآياته بطريق التضمين أو الإشارة أو التلميح ، وهو حيناً يورد الآية بتمامها ، أو جزءاً منها وحيناً يورد بعض لفظها ، وحيناً آخر يشير أو يلمح . قال صاحب مرآة الزمان : « وقد استعان بآيات من الكتاب في كثير من رسائله »(4)، وقال عبد اللطيف حمزة : « وهذه الخاصية التي تلفت النظر إليها هي خاصية نثر القرآن على طريقة ابن العميد في نثر الأشعار ، وبيان ذلك أن القاضي الفاضل كان يستطيع بهذه الطريقة أن يدمج القرآن في كلامه ، فكأنه جزء من هذا الكلام ، ولا تقل إنها طريقة بسيطة أو مسبوقة ؛ فالقول ببساطتها أو إمكانها مردود بمحاولتك تقليدها ، وعجزك كل العجز عن ذلك . والقول بأنها مسبوقة مردود كذلك ببحثك في آثار الكتّاب جميعهم قبل الفاضل . وانعدام هذه الخاصية في تلك الآثار ، وهكذا استطاع الفاضل أن يستغل القرآن لنفسه

(1) خزانة الأدب لابن حجة ص ٥٤ .
(2) ثمرات الأوراق ٥٠ .
(4) مرآة الزمان ٨ – ٤٧٢ .

استغلالاً فنياً صرفاً ، وأن يتخذ منه صبغاً من أجل أصباغه الفنية »[1].

ويريد عبد اللطيف حمزة أن يحتفظ للفاضل بفضل استعمال القرآن فنيًّا في أساليب النثر ، والحق أن الفاضل قد تنوع وتوسع في هذا الاستعمال ، ولم يكن هو بطبيعة الحال أول من اقتبس آيات القرآن ، لأن خطب الصدر الأول من المسلمين كانت متأثرة بالقرآن تضميناً واقتباساً ، كذلك كان كتاب بني العباس وبعض كتابات عبد الحميد متضمنة لآيات القرآن معنىً ولفظاً ، أما التنوع والتفنن والتوسع في هذا وذاك فشيء نستطيع أن نقول إن الفاضل حقاً كان أبا عذرتها ، ويدلك على ذلك ضروب من استعمال الفاضل لآيات القرآن ، قال في رسالة له كتبها عن صلاح الدين إلى الخليفة العباسي فى بغداد فى الاستصراخ وتهويل أمر الفرنج : « رب إني لا أملك إلا نفسي ، وها هي في سبيلك مبذولة ، وأخي وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة »[2].

وقال في وصف هجير الصحراء : « والجو يتنفَّسُ عن صدرٍ كمسجُورٍ كصدر المهجور ، والحرُّ وصاليه في هذا النحو كجارٌ ومجرور ، والمهامِهُ قد نشرت فيها ملاءُ السَّراب ، وزخرَفيها بحرُ ماء ولو لغير رشْدةٍ على غير فراشِ السَّحاب وجرُّ الرملِ قد مَنع حث الرمل ، ونحن في أكثر من جموع صِفّين إلا أننا نخافُ وقعة الجمل ، ووردنا ماءَ هذه العيون ، وهو كالمحبر يقترف منه المجرم مثل علمه ويرسله سهماً فلا يخطئه نقرة مقتلة ، وهو مع هذا قليل مما جادت به الآماق في ساحات النفاق ، لا في ساعات الفراق ، فيالك من ماءٍ لا تتميز أوصافه من التراب ، ولا يرتفع به فرض التيمم كما لا يرتفع بالسراب . ولا يعدو ما وصف به أهل الجحيم في قوله تعالى : ﴿ وإن يستغِيثُوا يُغاثُوا بماءٍ كالمهْلِ يَشْوي الوُجوه بئسَ الشَّرَاب ﴾ فنحن حوله كالعوائِدِ حول المريضِ يُعلّلونَ عليلاً لا يُردُّ الجواب »[1].

وهذه القطعة تمثل كثيراً من خصائص فنه ، فهي تجمع الاقتباس من

---

(١) أدب الحروب الصليبية ١٨٥ .

(٢) حسن التوسل ص ٥ .

(١) ثمرات الأوراق ١٣١ .

القرآن ، إلى السجع والجناس والتورية والكناية والتشبيه . كما أنها تمثل كذلك استعانته بالأخبار والتاريخ وبالحديث والفقه ومعلومات الناس فيهما . وقد مضى في نماذج رسائله أمثلة من استعانته بالشعر العربي القديم ، كما في رسالته في وصف قلعة حمص حيث يورد قول الشاعر قيس بن الخطيم :

طعنتُ ابن عبد القيس طعنة ثائر ... لها نفذٌ لولا الشعاع أضاءها
ملكتُ بها كفّي فانهرتُ فتقها ... يرى قائمٌ من دونها ما وراءَها

حيث ضمنه في قوله : « فهناك بدت ثقوب يرى قائم من دونها ما وراءها ، وخشيت فيها النار فلولا الشعاع من الشعاع أضاءها »[1].

وهكذا أصبح القاضي الفاضل أستاذ الكتاب والبلغاء في عصره ، ومن بعده أعجب به معاصروه وحاولوا معارضته وتقليده ، عارضه ضياء الدين بن الأثير . قال : سألني بعض الإخوان أن أنشيء في ذلك كتاباً إلى ديوان الخلافة معارضاً للكتاب الذي أنشأه عبد الرحيم بن علي رحمه الله ، فأجبته إلى سؤاله »[2]. كذلك ذكر ابن خلكان أنه كان يعارض القاضي الفاضل في رسائله ، « فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها ، وكان بينهما مكاتبات ومجاوبات »[4].

وقد تأثر به ونهج على طريقته من كتاب المصريين جمال الدين بن نباتة المصري ، قال عنه ابن حجة : « وتفقه الفاضلية لمذاهب ما سلكها المتقدمون »[1].

قال ابن حجة إن ابن سناء الملك ممن سلك طريق الفاضل ، كذلك قال : « ولم يزل هو ومن عاصره على هذا النهج في ذلك الأوان ، ومن جاء بعدهم من التابعين بإحسان إلى أن جاء بعدهم عصبة أخرى وزمرة تترى ، فكلهم

---

(١) وقد استعرض القلقشندي في كتابه طريقة الفاضل في الاقتباس والتضمين وتحدث عنها تفصيلاً في صبح الأعشى ١ / ٢٧٤ - ٢٨٦ ، وكذلك النويري في نهاية الأرب إذ يورد نماذج لا بأس بها من رسائله في الجزء الثامن .

(٢) المثل السائر .

(٤) وفيات الأعيان ٢ / ٣٣٣ .

(١) خزانة الأدب ٩٣ .

يرمون في هذا الإحسان عن قوس واحدة ، وينفقون من مادة هي في الجود معن بن زائدة ، ويصلون المقطوع بالمقطوع ، فلا تخلو فيه كلمة فائتة من فائدة »[1]. ويذكر جماعة ممن تأثروا به من الشعراء والكتاب مثل أبي الحسين الجزار والسراج الوراق ، والحكيم شمس الدين بن دانيال ، والقاضي محي الدين ابن عبد الظاهر . قال : فهؤلاء هم الفحول الذين جدُّوا بعد القاضي الفاضل إلى هذه الغاية ، ورفعوا راية هذا النوع ، وكان كل منهم عرابة تلك الراية ، تسابقوا جياداً والديار المصرية حلبة ، وتلاحقوا أفراداً وهم في شرف هذا الفن من هذه النسبة » .

ويذكر ابن شاكر أن الشاعر الماردينى ابن الصفار قال :

ويوم قُرٍّ برد أنفاسِه تمزق الأوجه من قرصها
يوم تود الشمسُ من بردِه لو جرَّت النارَ إلى قُرصها

أخذه من قوله القاضي الفاضل : « في ليلة جمد خمرها ، وخمد جمرها ، إلى يوم تود البصلة لو ارتدت إلى قمصها ، والشمس لو جرت النار إلى قرصها »[2].

وكان للقاضي الفاضل نظم ولكنه لم يرق إلى مرتبة رسائله ، وإن كان ابن حجة يقول عنه : كان نظم القاضي الفاضل رحمه الله ونثره كفرسَيْ رهان ولكنه نثر أكثر مما نظم[3].

ولم يكن القاضي كاتباً وشاعراً فحسب ، بل كان ناقداً كذلك ، يجلس في مجالس صلاح الدين ، ويناقش الشعراء الذين يأتون لمدح السلطان ، فيقرظهم ، وقصد مرة المهذب ابن سعد إلى الملك الناصر صلاح الدين بقصيدة يمدحه ؛ فقال القاضي لصلاح الدين هذا الذي يقول :

والشعر مازال عند الترك متروكاً

---

(١) خزانة الأدب ص ٥٤ .

(٢) فوات الوفيات ٢ / ١٩٦ .

(٣) ثمرات الأوراق ١٥١ .

فجعل جائزته كبيرة لتكذيب ظنه وجمع له بين الخلعة والضيعة . وعنى الفاضل قصيدة المهذب التي مدح بها الصالح بن رزيك والتي أولها :

أمـا كفـاك تلافى في تلافيكـــا

والتي يقول فيها[1]:

من أرتجي يا كريمُ الدهر ينعشـــني جدَاوَاهُ إن خاب سعيي في رحابيكا

أأمدَحُ التُّركَ أبغي الفضل عندهُـــم والشعرُ ما زالَ عنـدَ الترك متروكـا

كذلك يأخذ على القاضي أبي الفتح محمود بن إسماعيل بن قادوس بعض أقواله[2]، وجرت بينه وبين الشاعر ابن سناء الملك محاورة حول بعض ألفاظ شعر ابن سناء الملك . قال من أبيات :

صليني وهذا الحب باق فربمـــا يعزل بيت الحسـن منه ويكنـس

فوقف القاضي الفاضل رحمه الله على هذه القصيدة ، وكتب إلى ابن سناء الملك من جملة فصل : « والقصيدة فائقة في حسنها ، بديعة في فنها ، ولكن بيت يعزل ويكنس أردت أن أكنسه من القصيدة ، فإن لفظة الكنس غير لائقة بمكانها »[3]. ورد عليه ابن سناء الملك محتجًا بأن ابن المعتز قد استعمل ألفاظاً شبيهة بما استعمله هو ، ومع ذلك لم يعترض عليه معترض بل وقعت عند الناس مواقع حسنة مقبولة . بل استعمل لفظ الكنس في قوله :

وقوامي مثـــل القنـــاة من الخـــطْ طِ وخـــدي من لحيـــتي مكنـــوسُ

وقال إنه يقتدي بابن المعتز ويجري على أثره . « فوجد طبعه إلى هذا الأمر مائلاً ، وخاطره في بعض الأحيان عليه سائلاً ، فنسج على هذا الأسلوب وغلب على خاطره مع علمه أنه المغلوب ، وحبك الشي يعمي ويصم ، فقد أعماه حبه وأصمه إلى أن نظم تلك اللفظة في تلك الأبيات تقليداً لابن المعتز ، قالها وحمل أثقالها ، وهي زلة تغتفر في جنب حسناته ، وأما المملوك فهي عورة ظهرت في أبياته » فأجابه الفاضل بقوله : « ولا حجة فيما احتججته بابن

(١) الروضتين ١ / ٢٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ١٠٣ .

(٣) ثمرات الأوراق ص ١٠ .

المعتز عن الكنس في بيته فإنه غير معصوم من الغلط ، ولا يقلد إلا في الصواب فقط ، وقد علم مما ذكره ابن رشيق في العمدة من تهافت طبعه وتباين صنعه ومخالفة وضعه ، فذكر من محاسنه ما لا يعلق معه كتاب ، ومن بارده وغثه ما لا تلبس عليه الثياب » .

فهذا مثال من نقده لشعراء عصره ، وأنه لم يكن يترك فرصة تواتيه ليوضح لهم بعض أخطائهم البيانية أو الذوقية .

وقد حاول الفاضل من الفنون الأدبية غير الرسائل والشعر والنقد فن المقامات إذ يقول ابن حجة : « ثبت أن القاضي الفاضل شرع في معارضة المقامات وعارض منها كل فصل بفصل أحسن منه »[1]. ولكن يبدو كذلك أنه لم يوفق على الرغم من قول ابن حجة ؛ فقد عاد بعد قليل وذكر أنه عجز عن بعضها . وله شعر يذكر ابن حجة أنه كنثره جيد فيقول : « وكان نظم القاضي الفاضل ونثره كفرسي رهان . ولكن نثر أكثر مما نظم »[2].

---

(١) خزانة الأدب ٤٦١ .

(٢) ثمرات الأوراق ٥١ .

عماد الدين الأصبهاني

أبو عبد الله بن أبي الفرج محمد بن حامد .. المعروف بالعماد الكاتب الأصبهاني ، صاحب التصانيف والرسائل والشعر ، ولد بأصبهان ونشأ بها ، وقدم بغداد في صباه سنة ٥٣٤ هـ ، وتفقه على مذهب الشافعي ، على الشيخ أبي منصور ابن الرزاز بالنظامية . وسمع الحديث ، وأخذ الأدب عن ابن الخشاب . وحفظ كثيراً من دواوين الشعر العربي القديم والجديد مثل ديوان البحتري ، وقد عاد إلى بلده بعد أن قضى ببغداد تسع سنين سنة ٥٤٣ هـ ، فلقي بها الفضلاء وصحب العلماء ، وخرج منها سنة ٥٤٨ هـ على نية الحج ثم عاد إليها ، وسافر منها إلى بغداد مع أبيه مرة أخرى سنة ٥٥١ هـ ، واتصل في بغداد بالوزير ابن هبيرة ومدحه بقصائد ، واستكتبه ابن هبيرة واستنابه بواسط وأعمالها[١]

وذكر أبو شامة أن ذهب إلى الموصل سنة ٥٤٢ هـ وحضر إلى جمال الدين وزيرها بالجامع جمعتين ، وتكلم عنده مع الفقهاء في مسألتين ، ومدح جمال الدين بقصيدة أولها[٢]:

أظنُّهـمُ وقـد عزَمُـوا ارتحـالا ثَنَـوا عنّا جَمَـالا لا جِمـالا

وخرج من بغداد إلى الشام سنة ٥٦٢ هـ ، ونزل في دمشق عند القاضي الشهرزوري ، فأنزله بالمدرسة النورية الشافعية[٣] وهي المدرسة التي تولى بعد ذلك التدريس بها وعرفت به ، وذكره الشهرزوري للسلطان نور الدين ، وعرفه به وبحاله وعرض عليه قصيدة له يمدحه بها مطلعها :

محمـد يحمـد عيش بلـدة مالكهـا مبدلـهُ محمودهـا

وهي طويلة ، فرتبه نور الدين في ديوانه منشئاً سنة ٥٦٣ هـ ، بعد أن

---

(١) مرآة الزمان ٨ / ٥٠٤ .

(٢) الروضتين ١ / ١٣٥ .

(٣) المصدر نفسه ١ / ١٤٤ .

استعفى أبو البشر شاكر بن عبد الله من الخدمة في كتابة الإنشاء وقعد في بيته وظل في ديوان الإنشاء سنين كثيرة ، وفي سنة ٥٦٨ هـ ترتب مشرفاً بديوان نور الدين بالإضافة إلى كتابة الإنشاء[١].

ولقى أثناء وجوده بالشام نجم الدين أيوب والد صلاح الدين . ومدحه وأسد الدين شيركوه ومدحه ، وذهب شيركوه ومعه صلاح الدين إلى مصر ، وهناك ولى صلاح الدين الأمر ، فأرسل إليه العماد يمدحه ويهنئه .

وللعماد مدائح كثيرة في نور الدين ، قال أبو شامة : رحم الله العماد ، فقد نظم أوصاف نور الدين الجليلة بأحسن لفظ وأرقه[١]. ثم توفى نور الدين فحزن عليه العماد أشد الحزن ، وقال العماد عن نفسه : « ولما توفى نور الدين اختل أمري واعتل سري ، وعلت حسادي ، وبلغ مرادهم أضدادي »[٢] إلا أن عماد الدين وجد في صلاح الدين خلفاً لنور الدين ، وموضعاً لشعره ومديحه ، فتولى مدحه ، وأخذ جوائزه . وأول صلته ببني أيوب كما يرويها أبو شامة أنه كانت له معرفة بنجم الدين وأسد الدين شيركوه من تكريت بسبب أن عمه اعتقله السلطان محمود السلجوقي بقلعة تكريت ، ونجم الدين إذ ذاك واليها ، فاتصلت المودة بينهما من هناك ، فعند حضور العماد إلى دمشق سمع به نجم الدين فاتصل به وكان صلاح الدين مع عمه شيركوه بمصر . فمدح العماد نجم الدين أيوب بقصيدة أولها :

يوم النوى ليس من عمري بمحسوب

وتم ملك مصر بعد سنتين من إنشاده إياها . وأول قصيدة مدح بها صلاح الدين قوله :

كيف قلتم بمقلتيه فتور … وأراها بلا فتور تجور

ويروى العماد أول لقاء له مع صلاح الدين فيقول : « ولما وصلت إلى السلطان ، ورغبت منه في الإحسان وجدته لأمري مغفلاً ولشغلي مهملاً . ثم

---

(١) الروضتين ١ / ٢٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ١ - ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) المصدر نفسه ١ - ٢٢١ .

عرفت أن حسادي قالوا له متى أعدت ديوان الكتابة إلى العماد وهو لا شك بمحل الوثوق والاعتماد ، وهذا منصب الأجل الفاضل ، وهو عنده في أجل المنازل ربما ضاق صدره وتشعث سره ، فلما عرفت هذا المعنى لجأت إلى القاضي الفاضل لأنه به يعني ، فقام بأمري ، وبصره بقدري ، وأراح سري وشد أزري »[1].

وعلل العماد إعراض صلاح الدين عنه أول الأمر بقول حساده عند صلاح الدين أن العماد يصبو إلى منصب كتابة الإنشاء ، والسلطان يأتمن عليها الفاضل وهو بالمنزلة الرفيعة عنده . فلجأ العماد إلى الفاضل لينصره عند السلطان ، وليبعد الشبهة عنه . ويعود العماد فيروى ما حدث له بعد ذلك ، فيقول : « قد سبق ذكر ما قرره حسّادي في خاطر السلطان وقالوا شُغْله المكاتبة ، وهي منصب الأجل الفاضل ، وهو يستنيب فيه من رآه من الأفاضل ، وهذا تصرفه برفد جزيل ووجه جميل ، والسلطان مع شدة رغبته متوقف ، وإلى ظهور وجه النجاح في أمري متشوّف ، وكنت قد أنست مدة مقامي بالعسكر بذي المجد والمفخر ، ومورد الكرم والمصدر نجم الدين بن مصال ، وهو ذو فضل وأفضال وقبول وإقبال ، وله من السلطان ومن الفاضل لجلالة قدره إجلال ، وقد مال إلى فضل نباهته ونبلة ، وكان أبوه وزر للحافظ في آخر عهده منفرداً بسؤدده ومجده وكان من أهل السنة والجماعة والتقى والورع والعفاف ، وله يد عند السلطان في النوب التي قصدوا فيها مصر ، وأجزل عنده الإحسان والبر ، ولا سيما عند كونه بالإسكندرية محصوراً ، وكان إحسانه مشكوراً ، واعتناؤه لحفظه مشهوراً ، فلما ملك أحبه واختار قربه ، فلزمت له التودد ، وجعلته الوسيط بيني وبين الأجل الفاضل »[2].

واتصل الود بينه وبين الفاضل ، ومدحه العماد بقصيدة ، وأول ما قاله فيه مدحته حين لقيه بحمص . يقول فيها راجياً إياه أن يطلب من السلطان إعطاءه منصباً :

---

(١) الروضتين ١ – ٢٤٨ .

(٢) الروضتين ١ / ٢٥١ .

عاينتُ طود سكينةٍ ورأيتُ شمسَ فضائلٍ ووردْتُ بحرَ فواضلِ
ورأيتُ سحبانَ البلاغةِ ساحبًا ببيانهِ ذيلَ الفخارِ لوائلِ

ويقول :

أرجوك معتنياً لدى السُّلطان لي كرماً فمثلُك يعتني بأماثلي
قرِّرْ ليَ الشُّغْلَ المبجَّل مُخلياً بالي من الهمِّ المقيم الشَّاغِلِ

قال العماد : « فدخل الفاضل إلى السلطان وعرفه أنه فيّ راغب » ، وقال : « أنا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سفرة ، وقد يكاتبك ملوك الأعاجم ، ولا تستغنى في الملك عن عقد الملطفات وحل التراجم ، والعماد يفي بذلك ، ولك اختاره ، وقد عرف في الدولة النورية مقداره ، وأخذ لي خط السلطان بما قرره لي من شغلي » .

وأقام العماد بدمشق يكتب للسلطان إذا غاب الفاضل بمصر ، ثم أقامه صلاح الدين مقام الموفق خالد القيسراني في ديوان الاستيفاء ، فجمع بين الإشراف والاستيفاء ومنصب الإنشاء[1]. وكان العماد يؤرخ في رسائله ، كما فعل الفاضل ، حروب صلاح الدين وأعماله ، وتعاون الاثنان على تسجيل منشورات السلطان ورسائله وأوامره ، كما سجلا فتوحاته خير تسجيل .

وقد أرسل إليه السلطان مرة من مصر عمامة ، فبعث إليه العماد من دمشق يشكره ويمدحه بقصيدة . وقد أرسله صلاح الدين مرة رهينة إلى أمراء حلب عند حصره إياها سنة ٥٧١ هـ ، وحبسه ابن العجمي ومنع عنه الطعام ومعه آخر . قال العماد : « وبتنا في أنكد عيشة » ثم انتصر صلاح الدين ودخل حلب : فعاد إليه العماد . وعاد مع السلطان إلى مصر سنة ٥٧٢ هـ ، ولم يكن قد جاء من قبل إليها ، ويذكر مسيره عن دمشق وحسرته على فراقها في قصيدة[2] .

وجاء إلى مصر فاتصل بعلمائها وأفاضلها ، وجمع كثيراً من كتب مكتبة القصر الفاطمي ، قال : « نقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام »[3].

(١) الروضتين ١ / ٢٠٦ .
(٢) الروضتين ١ / ٢٦٦ .
(٣) الروضتين ١ / ٢٠٠ .

وصفت له الحياة بمصر ، وبدأ يرتاح إليها وإلى أهلها قال : وتوفرنا على الاجتماع في المغاني لاستماع الأغاني ، والتنزه في الجزيرة والجيزة ، والأماكن العزيزة ومنازل العز ، والروضة ودار الملك والنيل والمقياس . ومراسي السفن ومجاري الفلك ، والقصور بالقرافة ، وربوع الضيافة ، ورواية الأحاديث النبوية ، والمباحثة في المسائل الفقهية والمعاني الأدبية .. قال : واقترحنا على القاضي ضياء الدين الشهر زوري أن يفرجنا في الأهرام ، فقد شغفنا بأخبارها في الشام ، فخرج بنا إليها ، ودار بنا حواليها ، وزرنا تلك البرابي والبراري والرمال والصحاري وأحدنا المقار والمقاري ، وهالنا أبو الهول وضاق في وصفه مجال القول ، ورأينا العجائب ، وروينا الغرائب ، واستصغرنا في جنب الهرمين كل ما استعظمناه ، وتداولنا الحديث في الهرم ومن بناه ... إلخ[1].

ولم يدم بقاء العماد كثيراً في مصر ، ولا أرخت له الحياة حبل الهناءة ، بل سرعان ما استدعاه صلاح الدين للخروج لغزوة الرملة سنة ٥٧٣ هـ لملاقاة الصليبيين في فلسطين ، ولكن العماد تخاذل . وطلب من السلطان أن يعفيه من الخروج متعللاً في ذلك بمختلف العلل ، يقول : « وقد استشعرَتْ نفسي في هذه الغزوة من عاقبة ندَم ، والمدَى بعيدٌ والخطبُ شديدٌ ، وهذه نوبةُ السُّيوف لا نوبة الأقلام ، وفي سلامتِنا سلامةُ الإسلام ، والواجبُ على كلٍّ منا أن يلزَم شُغلَه ، ولا يتعدَّى حدَّه ، ولا يتجاوز محلَّه ، لا سيما نوابُ الديوان قد استأذنوا في العودة ، وأظهروا قِلَّةَ العُدَّة . وأظهرتُ سِرِّي للمولَى الأجلِّ الفاضِل ، فَسرَّهُ ذلكَ إشفاقاً عليَّ وإحساناً إليّ ، وكان السُّلطانُ أيضاً يُؤْثِرُ إيثاري ، ويختار اختياري فقال لي : أنتَ معنا ، أو عَزمْتَ أن تَدَعنا ؟ ، فقلتُ : الأمرُ للمولَى وما يختارُه فهو أوْلَى ، فقال : تعودُ وتدعُو لنا ، وتسأَلُ الله أن يُبلّغنا من النصْر سُؤْلَنا . وكنتُ قد كتبْتُ أبياتاً إلى المخدومِ الفاضل ونحنُ بالمُبْرَز في العشرين من شهر جمادى :

قيل في مصر نائلٌ عددَ الرَّمْـــــل ووفـــرٌ كنيلهـا الموفــورِ
فاغْترَرْنـا بهـا وسِرْنـا إليهـا ووقَعْنـا كمـا ترى في الغُـرورِ

---

(١) الروضتين ١ / ٢٦٧ .

وحَظِينـا بالرَّمْـل والسَّيْر فيـــهِ ... ومُنِعْنَـا من نِيلِهـا الميسُـــورِ

وبَرَزْنـا إلى المبـرَّز نشـــكو ... شَـــذراً من نُزُولِنـا بالسـديرِ

قيـل لي سِـرْ إلى الجِهادِ ومـاذا ... بالـغٌ في الجهـادِ جَهْـد مَسِـيرى

ليس يقْـوى في الجيـش جَـأشٌ ... ولا قوسٌ يرَىَ موتوراً إلى موتـور

أنا للكُتْبِ لا الكتـائب إقـدامِي ... وللصُّحْف لا الصفاح حُضُوري

كادَ فَضْلِي يضِيعُ لولا اهتمامُ الـ ... ـفَـاضِل الفائِضِ النَّـدَى بأمُـوري

فأنـا منـهُ في ملابِـسِ جـاهٍ ... رافـلاً منـهُ في حَبـير حُبُـورِي[1]

وقد لحق بالسلطان في دمشق في شوال سنة ٥٧٣ هـ ، وخلف القاضي الفاضل بمصر وظل بالشام ملازماً لصلاح الدين في تنقله من حمص إلى بعلبك كلما نال نصراً .

قال في هذه السنة : « ولزمت خدمته ، أرحَلُ برحيله وأنزل بنزوله » . وأثناء وجوده بالشام تذكر مصر ، وما رآه بها من خير ، وما نعم فيها من وجوه النعم فنظم يتشوق إليها :

سـاكِني مصـرَ هنـاكُمْ طيبُهـا ... إنَّ عيشـي بَعـدكُمْ لَم يَطِـبِ

لا عَدِمْتُم راحـةً مـن قُرْبِهـا ... فأنـا مـن بعدهـا في تعـبِ

بَعُـدَ العهـدُ بأخبـاركُـم ... فابعثـوا أخبَـارَكُـمْ في الكُتُـبِ

ليت مصـراً عرَفـت أنّي وإنْ ... غِبـتُ عنهـا فالهَـوى لم يَغِـبِ

وقد مرض أثناء ذهابه مع السلطان إلى إرْبل سنة ٥٨٠هـ ، وتخلف في بعلبك وسار السلطان إلى حمص ثم إلى حماة فأقام بها إلى أن شفي العماد ولحقه بها ، وكان القاضي الفاضل بدمشق في هذا الوقت فأرسل إليه طبيباً هو الحكيم ابن مطران ، فجاء العماد بعلبك وتولى علاجه وجاءه القاضي بنفسه وواساه في مرضه إلى أن برىء ولحق بالسلطان وعاد القاضي إلى دمشق[2].

ومن هذه الحادثة يتبين لنا مدى حب السلطان والقاضي الفاضل للعماد ، ومدى المكانة التي كانت له في دولة صلاح الدين ، وهي مكانة لا تسبقها إلا مكانة الفاضل في دولة القلم .

(١) الروضتين ١ / ٢٧٢ .
(٢) الروضتين ١ / ٦٠ .

وقد كان السلطان يستوحش إذ ما غاب العماد عن مجلسه ، جلس يوماً وتفقد جلساءه فلم يجد بينهم العماد ، وقد غاب عنه مدة ؛ فقال للقاضي الفاضل : لنا مدة لم نر فيها العماد الكاتب ، فلعله ضعيف ، امض إليه وتفقد أحواله ، فلما دخل الفاضل إلى دار العماد وجد أشياء أنكرها في نفسه مثل آثار مجالس أنس ورائحة خمر وآلات طرب فأنشد :

ما ناصَحتكَ خبايا الودِّ من رجل ... ما لم ينلْكَ بمكروهٍ من العذَلِ
محبتي فيكَ تأبى عن مُسَامَحتي ... بأن أراكَ على شيءٍ من الزَّلَلِ

فلما قام من عنده نزع العماد عما كان فيه ، وأقلع ولم يعد إلى شيء من ذلك البتة »[1].

هذا ما رواه ابن حجة . ويبدو من روايته تلك أن الفاضل كان يختلف في طبائعه وسلوكه عن العماد ، ذلك أن الفاضل كان رجل تقوى وصلاح ، وكان دائم العبادة والصلاة ، بل ربما بلغ في ذلك درجة التزمت ، والجد الصارم ، على خلاف العماد الذي كان يبدو من فعله وقوله ، وأخبار حياته أنه كان يمتع نفسه بشيء من الحرية ، ويطلق لها العنان ، إذا ما لاحت له فرصة لهو اقتنصها ، فهو يخرج لأماكن اللهو والنزهة ، ويطارح صحبه من الأدباء والشعراء اللذات ، يشربون الخمر ، ويتمتعون بالغناء وما إلى ذلك .

وقضى العماد فترة من الزمن إلى جوار صلاح الدين والفاضل ، ولقي كذلك في آخر أيام السلطان الكاتب الصاحب ضياء الدين بن الأثير في دمشق . وبعد وفاة السلطان ، وتولى ابنه الأفضل الأمر في دمشق أقره على إنشاء الكتب زمناً[2]، ثم اضطربت أحوال الأفضل ، وسفر العماد بينه وبين أخيه العزيز صاحب مصر فمضى إليه وعنده عمه العادل ، ولم يتمكن من العودة إلى دمشق إلا معهما حين نهضا إلى دمشق مع العسكر لحصار الأفضل وأخذ دمشق ، وبعد تمام الصلح بينهم عاد الأفضل من جديد وترك أمره إلى كاتبه ابن الأثير ، الذي تحكم في دولته فأغضب منه كبار أعوان أبيه ، فرحل عنه القاضي الفاضل إلى القاهرة وظل بمصر . ثم غضب العماد بعد ذلك

(١) ثمرات الأوراق ٤ .
(٢) الروضتين ٢ / ٢٢٥ .

واعتكف يدرس في مدرسته العمادية بدمشق ، وهجا ضياء الدين في رسالة له ، واستمر في مدرسته إلى أن توفي سنة ٥٩٧ هـ .

رســـائله وشـــعره :

يقول عنه صاحب الجامع المختصر : « إنه كان سمح القريحة ، جيد النظم ، كثير القول ، له الترسل المليح والكتابة البليغة ، دوَّن شعره وجمع رسائله وصنَّف كتباً منها : « خريدة القصر في ذكر شعراء العصر » و « الفتح القدسي » إلى غير ذلك[1]، وقال عنه الدبيثي في مختصره : « له شعر غاية في الجودة ، كثير القول والترسل البليغ »[2]. وكان حاد الذكاء ، سمح القريحة ، وقاد الخاطر ، وإن كان يعتريه العي والتلجلج أحياناً . قال ابن عساكر : « قالوا وكاد منطوقه يعتريه جمود وفترة ، وقريحته في غاية الجودة والحدة ، وقد قال القاضي الفاضل لأصحابه يوماً : قولوا فتكلموا وشبهوه في هذه الصفة بصفات ، فلم يقبلها القاضي وقال : هو كالزناد ظاهره بارد وداخله نار »[3].

وكان العماد يحفظ كثيراً من الشعر والخطب والأخبار إلى جانب حفظه القرآن والحديث ، وساعده هذه كله في الكتابة ، فقد زاد ثروته اللفظية والمعنوية ومكنه من صنعته ووسع أفقه في الجناس والسجع والتورية والاستعارة .

وأول ما تمتاز به رسائل العماد ، وتختلف عن رسائل القاضي الفاضل كثرة استعانته بالاستعارة ، الاستعارة الجزئية لا الصورة التامة المتكاملة الأجزاء ، كما هو الحال في كتابة القاضي الفاضل ، والتي قلنا إنها أميل منه إلى التشخيص ، فالعماد أكثر ميلاً إلى الاستعارات المتتابعة التي لا تتحد في صورة واحدة ، كذلك يختلف عن القاضي الفاضل بإغراقه في الجناس بصورة ملحوظة ، تكاد تخرج عن حد المعقول المقبول المستساغ إلى شيء من التكلف الثقيل على السمع ، وفقراته في السجع أكثر قصراً ، وسجعاته أكثر تكلفاً ، إذ تحس

---

(١) الجامع المختصر ٩ / ٦١ .

(٢) مختصر الدبيثي ١٢٢ .

(٣) البداية والنهاية ١٣ / ٣٠ .

وأنت تقرأه أنه يأتي بالجملة من أجل أواخرها وخواتيمها ، مما يفكك ترابط عبارته ، ويوهي عرى معانيه .

كذلك نرى أن العماد أقل عمقاً من الفاضل ، فمعانيه ليس فيها المجهود الذهني والفني الذي نحسه في كتابة الفاضل ، فصناعته نستطيع أن نقول إنها صناعة سطحية ظاهرية ، لا تتغلغل تغلغل صنعة الفاضل ولا تتعمق تعمقها . ونعرض لهذا كله نماذج من رسائله :

يقول في كتاب له في فتح عكا : « ولقد كَتَبْنَا في الزَّبُور من بعْدِ الذكْر أنَّ الأرضَ يرثُها عِبادِيَ الصَّالِحُون . الحمد لله على ما أنجزَ من هذا الوعْد ، وعلى نُصْرَتِه لهذا الدِّين الحنيف من قَبْلُ ومن بَعد ، وجعل بَعْدَ عُسْر يُسراً ، وقد أحدثَ الله بعد ذلك أمراً ، وهَوّنَ الأمْرَ الذي ما كانَ الإسلامُ يستطِيعُ إليهِ صبراً ، وخُوطِب الدِّينُ بقوله : ولقد مَنَنَّا عليكَ مِنَّةً أخْرى . فالأولى في عَصْر النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم والصحابَة ، والأخرى هذه التي أعتق فيها من رقِّ الكآبة ؛ فهو قد أصبح حُرًّا ريانَ الكَبد الحَرّا ، والزمان كهَيْئَتِه استَدَارَ ، والحقُّ ببَهجتِهِ قد استنَار ، والكفرُ قد رَدَّ ما كانَ عِنْدَه من المتَاعِ المسْتَعَار ، فالحمدُ لله الذي أعاد الإسلامَ جديداً ثوبُه بعد أنْ كانَ جديذاً حبْلُه ، مُبْيضًّا نصرُه ، مُخْضرًّا نصلُه ، مُتَّسِعاً فضله ، مُجتَمِعاً شَملُه ، والخادمُ يَشْرحُ من نبإِ هذا الفتحِ العَظِيم . والنصْر الكريمِ ما يشرحُ صُدُورَ المؤْمِنين ، ويمنحُ الحبور لكافَّة المسْلِمِين ، ويُوردُ البُشْرىَ بما أنعم به من يومِ الخميسِ الثالث والعشرين من شهرِ ربيعِ الآخر إلى يوم الخميس منسلخة ، وتلك سبعُ ليالٍ وثمانية أيام سخَّرها الله على الكُفار ، فترى القوم فيها صَرْعى كأنهم أعجازُ نخلٍ خَاوية ، وإذا رأيت ثَمَّ رأيتَ البلاد على عُروشها خاوية »[1].

وتظهر في هذه الرسالة خَصائصُ السَّجْع والجناس والاستعانةِ بالقرآن الكريم من حيث تضمين بعض الآيات بنصوصها أو بأكثر ألفاظها أو ببعض ألفاظها ومعانيها ، ويمثل اقتباسه من الشعر القديم ، ومن الخطب قوله في استرجاع بيت المقدس : « ونجومُ الرُّجومِ على شياطين الكُفْر بسيوف أهل

(١) الروضتين ٢ / ٨٩ .

الإيمان مُنْقَضَّة ، والثغورُ مبتَسِمة ، والأمورُ منتظمة ، والحصونُ مُتَسلّمة ، والخصوم مذعنةٌ مُسْلِمة ، وأرضُ الكُفْر ينقصُها الإسلامُ كلَّ يومٍ من أطرافها ، بل يستولي على أوسَاطِها وأكْنافِها ، ويعيدُ إلى الطَّاعةِ كرْهاً مذهبَ خِلافهَا ، ولقد أينعَ زَرْعُها من رُءوسِ المشْركين ، وهذا أوانُ حصَادِها وقِطافِها ، والنعمةُ بحمدِ الله عظيمة »[1].

ففي هذا المثال يتضح اقتباس العماد لمعنى بيت بشار بن برد المشهور :

كأن مثـارَ النَقـعِ فـوقَ رُءُوسنا   وأسيافَنـا ليـلٌ تهـاوَى كَواكِبُـهْ

وجمع بين معنى الآية ومعنى البيت ، واقتبس في آخر الفقرة قول الحجاج في خطبته المشهورة : « وإني أرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها » .

أما اعتماده على الاستعارات المتتابعة فتظهر في وصفه لمعركة حطين حيث يقول : « فاغتنمنا الغِرَّ في اللّقاء ، وهِجْنَا إلى الهيجاء ، وأسرعتْ الأعِنةُ ، وأشْرعتْ الأسِنَّةُ ، ونقعَ النقعُ أوامَ الجوّ ، وأجابَ الصَّدى دويّ الدر ، وجال الجاليش وطارَ السَّهمُ المريش ، وعصفتْ رياحُ السَّوابق ، واستعْبرَتْ عيُون البوارق ، ولقيناهُم في عرمْرَم عارم ومجرٍ جَارم ، وعوامِل جوازم وصواهل صَلادِم ، وضراغمَ ضوارٍ ، وجوارحَ جوار ، وأسودٍ قد اعتقلت أساود ، وجياد قد حملت أجاود ، وسوابحَ قد أقلّت بحوراً ، وصقورٍ قد ركبتْ صقوراً ...

ومازالت الحملاتُ تَتناوبُ ، والأسلاتُ تتواثَب ، والسواعِدُ بقرعِ الظُّبى سَواعٍ ، والرَّواعِفُ في زرع الطُّلى رَواع ، والمنايا تئِنُّ والحنَايا تحِنّ ، والبيضُ تُصَافِحُ البَيْضَ صِفاحُها ، والذكورُ لنتاجِ الحرْب العَوان بالفتح البِكْر عندَ اللقاءِ لقاحُها ، والذَّوابلُ في أشاجع الشُّجعان ذواب ، والصوارمُ لجوامحِ النيران شَرابٌ . ولما أحسُّوا بأسَنَا وإمرار أمْراسِنا ، والهجيرُ يَتلظّى ، وقد وقَدَ عليهم بنارهِ ، وأخذُوا طريقَ البُحيْرة للارتواءِ ، فأخذْنا قدامَهم ، ووقفنا أمامَهم ، وحَلأْناهم عن الوِرْد ، وألجأْناهم إلى الرد بالرَّدى ، فاعتصموا بتل حِطِّينَ ،

(١) الفتح القدسي ص ٥٥ .

وصِرْنا بهم مُحِيطِين ، وتَحكَّمتْ فيهم قَواضِبي القَواضِب ، ونشَبتْ من النُّشَابِ بهم نيوبُ النَّوائبِ »[1].

ويظهر في هذه النماذج جميعاً إسرافه في الجناس والسجع .

وشعر العماد متوسط لا يبلغ حد الجودة ، وإن كان بعض معاصرية معجباً به ، وقد ذهب في بعض قصائده إلى تقليد المتنبي ، يحذوه في قصيدة يصف فيها الحمى ، ينظم على الوزن نفسه كما يستخدم كثيراً من ألفاظه ومعانيه . قال العماد :

وزائــرة وليـس بهـا حَيــاءٌ ... فليـس تـزور إلّا في النهــار
ولو رَهبَـتْ لـدَى الإقـدام جَوْرِي ... لما رَغبـتْ جِهـاراً في جِـوارِي
تُقـيم فحينَ تُبْصِـرُ مـن أنـاتِي ... ثَبـاتَ الطَّـوْدِ تُسْـرِعُ في الفـرارِ
تفارقُني علـى غـيرِ اغتِســال ... فَلـمْ أخْـلُلْ لزَوْرَتِهــا إزارِي

وقال كذلك في قصيدة أخرى يمدح صلاح الدين :

بملك مصـر أهـنى مـالك الأمـم ... فاسـعد وأبشـر بنصر الله عن أمم
أضْـحى بعدْلِك شملُ المُلكِ مُلتئماً ... وهـل بعدْلِكَ شـيءٌ غـير ملتـئم
ووامِقـاً ثَلْمَ ثَغْـرِ الكُفْـر تَعجُمـه ... لا لثْـمَ ثغْرٍ شَنِيبٍ واضِـحٍ شَبِمِ

وفي هذه الأبيات تمتزج معاني المتنبي ببعض معاني أبي تمام .

---

(١) الفتح القدسي ١٦٧ .

(٢) الروضتين ١ / ٢٧٧ .

ضياء الدين بن الأثير[1]

عرضنا لكاتبين كبيرين من كتاب دولة صلاح الدين ، أحدهما وهو القاضي الفاضل جاد صارم في جده ، مخلص متفان في إخلاصه ، مجاهد بقلمه ، مشاطر برأيه لصلاح الدين في كفاحه ضد العدو الغاصب الصليبيين ، وهو إلى جانب جده وإخلاصه ذو عقل كبير وقلب كبير ، وقف وراء صلاح الدين ليسنده ويناصره بقلمه وجهده وتدبيره ، فهو إذاً رجل متهيىء في نفسه أو تكوينه لتحمل جسيم الأمور وجليل المهام ، ليس لديه وقت للهو أو عمل لنفسه ، وكانت رسائله صورة لكفاحه ؛ ولعقله ولقلبه ولإيمانه . عميقة في قوة ، جميلة بإخلاصها وصدقها وهي إلى جانب هذا كله تدور في القالب العام لفن الكتابة في هذا العصر ، قالب السجع والجناس ، وضروب البديع الأخرى ، وقد وفق في المزج بين القالب والمضمون في صورة تدعو للإعجاب . أما صاحبه الثاني العماد فهو كاتب رشيق القلم ، لا يأخذ نفسه بالجد ولا بالصرامة التي أخذ بها القاضي الفاضل نفسه ، وهو ذكي لمّاح الذكاء يميل إلى اللهو وإلى أخذ قسطه من الحياة الرضية السهلة الهانئة في أماكن النزهة والبساتين ، يشاطر أمثاله من الأدباء والشعراء مجالس الأنس والغناء ، يشرب الخمر وينادم عليها إذا وجد في ذلك فرصة ، وهو إذا ما جد الجد ، وطلب إليه أن ينهض للجهاد كما ينهض غيره من المواطنين ، يعجز ويجد في نفسه نفوراً عن هذا الأمر الذي يكلفه من أمره مالا يطيق ، فيقعد ويخشى أن يقال في قعوده ما يقال ، كما يخشى السلطان كي لا يقول إنه مخالف أو متقاعس ، فيوسط القاضي الفاضل ليريحه من عبء الجهاد ، فيعفى منه ويستريح لهذا كل الراحة ، ويعرف السلطان فيه هذا الطبع غريزة ، فيمازحه مرة أخرى ويدعوه لقتل بعض أسراه فيعجز ، ويكون موضع الفكاهة مرة أخرى . هذا هو العماد ثاني من تكلمنا عنهم من الكتاب ، وقد كانت كتابته كذلك صورة لهذه النفسية ، تهتم بالمظهر اللفظي أكثر من المضمون ، ليس فيها عمق الفاضل ولا

---

(١) للمؤلف دراسة واسعة عن ضياء الدين باسم « ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد » طبع مكتبة مصر سنة ١٩٥٨م .

وله كتاب « ضياء الدين بن الأثير » في مجموعة نوابغ الفكر العربي طبع دار المعارف سنة ١٩٦٧ .

جهده أو صدقه ، ولهذا جاءت وطابع الصنعة والتكلف عليها أظهر وأوضح ، وإن كان يقلل من ثقله على النفس خفة ظله أحياناً .

أما الكاتب الثالث ، وهو موضوع حديثنا فيختلف عن سابقيه ، فهو يصل إلى الكتابة والوزارة شابًّا ، وهو طموح من بيت كبير يملأ الإعجاب والكبر نفسه ، ولا يرى فيمن حوله من يضارعه نسباً ، أو جاهاً ومجداً ، ولا علماً وذكاء وفنًّا . ذلك هو ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم . قضى صباه بموطنه الأول جزيرة ابن عمر ، ولذلك ينسب إليها فيقال الجزري ، وأمضى شبابه يتلقى العلم على جماعة من شيوخ العلم والأدب بالموصل ، وكان والده قد انتقل إليها والتحق بخدمة آل زنكي أمرائها ، وعاصر ضياء الدين أثناء تلقيه العلم بالموصل جماعة من الأدباء الكبار وعلماء اللغة مثل ابن الدهان يحيى بن سعيد (المتوفي سنة ٦١٦ هـ) ، وعلي بن خليفة النحوي (المتوفي سنة ٥٦٣ هـ) والشاعر محمد بن دانيال المتوفي سنة ٦٠٨ هـ وشميم الحلي (المتوفي سنة ٦٠١ هـ) .

وبعد أن نصح ضياء الدين ، رحل إلى الشام حيث كان البطل صلاح الدين يكافح الصليبيين ، ويجمع حوله جيوش المسلمين من الجزيرة بالعراق ومن الشام ومن مصر ، وحيث كانت دولة القلم والعلم مزدهرة في ظله إلى جانب دولة السيف والجهاد ، وبهرت أعمال صلاح الدين في الحرب والسلم هذا الشاب الطموح ، فجاء إليه ، وكان ذلك سنة ٥٨٧ هـ . وعمره إذ ذاك ينقص عن الثلاثين ربيعاً بعام واحد ، ولقى القاضي الفاضل فرحب به وألحقه بخدمة السلطان كعهده بالأدباء النابهين ، وظل الكاتب الشاب في خدمة صلاح الدين فترة وجيزة ، التحق بعدها بخدمة ابنه الملك الأفضل ، وظل إلى جانبه يكتب له ويعاونه إلى أن مات صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ ، وتولى الأمر في دمشق بعده ابنه الأفضل وكان فيما يبدو شابًّا فيه شيء من النزق والغرور ، وكذلك كان صاحبه ضياء الدين وإن كان أكبر منه سنًّا ، واستطاع ضياء الدين أن يتمكن من نفس صاحبه ومن دولته ، حتى وضع كل شيء في يده ، وأصبح يتصرف في كل الأمور ، مما جعل المؤرخين يأخذون عليه هذا المسلك ، فيقول ابن كثير : « وكان الأفضل بعد وفاة أبيه قد أساء التدبير

فأبعد أمراء أبيه وخواصه ، وقرب الأجانب وأقبل على اللعب وشرب الخمر واللهو ، واستحوذ عليه وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري ، وهو الذي كان يحدوه إلى ذلك فتلف وأتلفه وضل وأضله ، وزالت النعمة عنهما »[1].

وقال العماد الأصبهاني « ... ووزيره الجزري قد بلي الناس منه ببلايا ، وهو في غفلة عن تلك القضايا ، وكان يدخل إليه ويوهمه من قبل أقوام أنهم عليه ، وأنهم يميلون لأخيه ، فيصدقه الأفضل فيما يدعي ، فصار يبلغ العادل منه أحوال ما تعجبه ، بل تغضبه ، وصار يتصل به كل من هاجر من الشام إلى مصر وما منهم إلا من يشكو الوزير الجزري »[2]. وقال فيه أحد الشعراء من أهل دمشق[3]:

متى أرى وزيركم ... وما له من وزر
يقلعه الله فذا ... أوانُ قلع الجزر

وقال فيه العماد مرة أخرى : « وتفرد الوزير في توزره ، ومد الجزري في جزره »[4].

ولم تعقب هذه السياسة من الأفضل ووزيره غير النتائج السيئة ، وغير ضياع الملك ، وتألب الأعوان ، وتمكن عمه العادل وأخيه العزيز عثمان من إخراجه من دمشق وفراق ابن الأثير ، وعاد ابن الأثير إلى الموصل حيث اتصل بخدمة أتابكتها ، وظل بها إلى سنة ٥٩٥ هـ حيث استدعاه الأفضل عقب وفاة أخيه العزيز وتوليه أمر مصر ، وذهب ضياء الدين إلى مصر ، وهناك اتصل بأدبائها وظل بمصر عاماً وبعض عام . وقال في الوشي المرقوم : « وكنت سافرت إلى مصر سنة ست وتسعين وخمسمائة[5]، وكان بها في ذلك الوقت ابن نجية الحنبلي ، والبلطي النحوي (المتوفي سنة ٥٩٩ هـ) ، وابن معطى ، والقاضي الفاضل وابن سناء الملك ، والأسعد ابن مماتي ، وعلي بن ظافر وغيرهم .

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٩ .
(٢) الروضتين ٢ / ١٣٠ .
(٣) المصدر نفسه ٢ / ٢٨٢ .
(٤) المختصر لأبي الفداء ٣ / ٨٨ .
(٥) الوشي المرقوم ١١ .

وقد تركت إقامته بمصر آثارها على إنتاجه وأدبه ، فقد ذكر ابن خلكان أن له رسالة في نيل مصر يقول فيها : « وعذب رضابه يضاهي جني النحل ، وأحمر صفيحه فعلمت أنه قتل المحل »[1]، وقال إنه معنى بديع غريب نهاية في الحسن . ولقي أدباء مصر وناظرهم . قال في الوشي المرقوم : « ورأيت (في مصر) الناس مكبين على شعر أبي الطيب المتنبي دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك ، وقلت : إن كان لأن أبا الطيب دخل مصر فقد دخلها قبله من هو مقدم عليه وهو أبو نواس الحسن بن هانىء فلم يذكروا لي في هذا شيئاً ثم إني فاوضت عبد الرحيم بن علي البيساني في هذا فقال : إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس . ولقد صدق فيما قال »[2].

وخرج من مصر مع صاحبه الأفضل متخفياً بعد مجيء العادل ، وقصد سميساط وبقي بها سنتين ، ثم انفصل عن الأفضل فغادر سميساط إلى حلب ثم الموصل فإربل . وسنجار ، وعاد إلى الموصل حيث ظل بها يكتب لعز الدين مسعود ، وبدر الدين لؤلؤ ، وقد أوفد من قبله إلى الخليفة ببغداد في سفارة ومعه رسالة من إنشائه ، وتوفي ببغداد سنة ٦٣٧ هـ .

وظل ضياء الدين بالموصل من سنة ٦١٧ هـ إلى سنة ٦٣٧ هـ أي عشرين سنة كاملة ، وكانت هذه الفترة أخصب فترات حياته فقد كانت فترة استقرار وإنتاج ، فيها ألف أكثر كتبه وأهمها « المثل السائر » و « الاستدراك » و « الوشي المرقوم » كما كتب كذلك أكثر رسائله ، وكانت تغدو بقلمه الرسائل من الموصل على لسان صاحبها إلى بغداد وغيرها من عواصم المسلمين . قال ابن كثير في حوادث سنة ٦٢٧ هـ بعد تولية المستنصر الخلافة : « وقدم رسول » من صاحب الموصل يوم غرة شعبان يحمل من الوزير ضياء الدين أبي الفتح نصر الله بن الأثير ، فيها التهنئة والتعزية بعبارة فصيحة بليغة »[3].

وظل يدرس للناس اللغة والأدب ، ويعلم تلاميذه « المثل السائر » . ومن تلاميذه الذين سمعوا عليه علي بن أنجب المعروف بابن الساعي (المتوفي سنة

---

(١) ابن خلكان ٥ — ٢٦ .

(٢) الوشي المرقوم ١١ .

(٣) البداية والنهاية ١٣ / ١١٤ .

٦٧٤هـ) صاحب كتاب المختصر في التاريخ[1]. وقد حدثه بكتب أخيه مجد الدين بن المبارك المحدث أيضاً ، وسمع به ابن خلكان وعرف فضله ، وتمنى أن يلقاه ليأخذ عنه . قال : « وقد ترددت إلى الموصل من إربل أكثر من عشر مرات ، وهو مقيم بها ، وكنت أود الاجتماع به لآخذ عنه شيئاً لما كان بينه وبين الوالد من المودة الأكيدة ، فلم يتفق ذلك »[2].

رسائله وكتبه :

لضياء الدين ديوان رسائل ، وتوجد منه أجزاء مخطوطة ، لكنه يورد كثيراً من رسائله في كتابه المشهور « المثل السائر » ، ويعتمد فن ضياء الدين في الكتابة على الأصول التي رأينا الفاضل والعماد قد اعتمدا عليها ؛ نعني القرآن الكريم والحديث والمحفوظ الكثير من اللغة والشعر والخطابة والأخبار ، أما الصورة الفنية التي يمتاز بها أسلوبه ، فإنه يكتب بطريقتين : الطريقة الأولى هي التي يستخدمها في الرسائل والإنشاء ، ويحذو فيها حذو كتاب عصره ، فيكثر من استخدام السجع والجناس والمحسنات البديعية بصفة عامة . والطريقة الثانية وهي طريقة النثر المرسل التي لا تعتمد على أصول البديع ، ولا تتمسك بقيوده . وفيها يتحرر ضياء الدين ويضيق بالبديع ، ولا يرى الإكثار منه ، إنما يفضل الأخذ بحذر وبقدر ما يزين الكلام ، ويشبهه بالحلى ، قليل منه يزين وإذا كثر ثقل وناء به الجيد . وهذه الطريقة الثانية يستعملها في التأليف ، فكتبه كلها بالأسلوب المرسل غير المقيد بالسجع ، وهو بهذا يختلف عن العماد الذي كان أسلوبه في الإنشاء وكتابة الرسائل هو نفس أسلوبه في التأليف مما يجعل قارىء كتبه « كالخريدة » أو « الفتح القدسي » يمل ويستثقل الاستمرار .

وتأثر ضياء الدين كما تأثر غيره بطريقة القاضي الفاضل في إنشائه ، وحاول تقليده ومعارضته[3].

ويدلنا ضياء الدين على الأمثلة التي استخدم فيها القرآن وحديث النبي في

---

(١) راجع الجامع المختصر ٩ / ٢٩٩ .

(٢) وفيات الأعيان ٥ / ٢٦ .

(٣) ضياء الدين بن الأثير ص ٤٣ وراجع ما سبق ذكره في القاضي الفاضل .

رسائله ، فلا يحوجنا إلى جهد كثير أو قليل . ومن هذا مما يناسب الموضوعات التي أوردنا منها أمثلة لسابقيه قوله في وصف المنجنيق : « ونصب المنجنيق فجثم بين يدي السور مناصباً ، وبسط كفه إليه مؤاتياً ، ثم تولى عقوبته بعصاه التي تفتك بأحجاره ، وإذا عصا عليها بلد أخذت في تأديب أسواره ، فما كان إلا أن استمرت عقوبتها عليه حتى صار قائمه حصيداً ، وعاصيه مُستفيداً وقال : ألم يكن نهي عن المد والتجريد ، فمالي لا أرى إلا مَدّاً وتجريداً ، وعند ذلك أذعن لفتح الأبواب وتلا قوله تعالى : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ وكذلك لم نأت صعباً إلا استسهل ، ولاحثثنا مطيًّا إلا استعجل ، ولطالما وقف غيرنا على هذا البلد فشقه طول الانتظار ولم يحظ منه إلا بمساءلة المنصب أحجار الديار »[1]. قال ابن الأثير : « في هذا الفصل معنى خبر من الأخبار النبوية ، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم في النهي عن ضرب المحدود : (لا مد ولا تجريد) ، أي لا يمد على الأرض ولا يجرد عنه ثوبه ». واقتبس ضياء الدين الآية الكريمة في قوله ، والصورة التي اعتمد عليها في معانيه صورة المد والعقاب ، سواء أكان ذلك في الحد عند القاضي أو في المكتب . وشبه عصا المنجنيق وهي ترتفع وتهبط بالحجارة تقذفها على الأسوار بعصا المُعَاقِب تهوي على المُعَاقَب تلهب جنبيه وقدميه .

ويدلنا في موضع آخر على طريقته في السجع ، التي تختلف عن طريقة غيره من الكتاب ؛ فهي تختلف عن طريقة الصابي والحريري والخطيب ابن نباتة ، وذلك أن هؤلاء إنما يعمدون إلى تكرار المعنى الواحد في الفقرتين ، وطريقته هو أن تستقل كل فقرة بمعنى بذاته . قال : ومنه ما كتبته في جواب كتاب يتضمن إباق غلام ، وهو « وأما الإشارة الكريمة في أمر الغلام الآبق عن الخدمة ، فقد يفرّ المهر من عليقه ، ويطير الفراش إلى حريقه ، وغير بعيد أن ينبو به مضجعه أو يكبو به مطمعه فيرجع وقد حمد من رجوعه ماذمه من ذهابه ، وعلم أن الغنيمة كل الغنيمة في إيابه ، فما كل شجرة تحلو لذائقها ، ولا كل دار ترحب بطارقها ، ومن أبق عن مولاه مغاضباً ، وجانب محل إحسانه الذي لم يكن مجانباً ، فإنه يجد من مفارقة الإحسان ما يجده من مفارقة

(١) المثل السائر طبع بولاق ص ٧٥ .

معاهد الأوطان ، وهل أضلُّ سعياً ممن دفع في صدر العافية وغداً يسأل عن الأسقام »[1].

قال : فانظر أيها المتأمل إلى هذه الأسجاع جميعها ، واعطها حق النظر حتى تعلم أن كل واحدة منها تختص بمعنى ليس في أختها التي تليها ، وكذلك فليكن السجع وإلا فلا . .

والمتتبع لرسائل ضياء الدين التي أوردها في كتابه يجدها كما وصف هو رسائل غيره « كتباً باردة غثة لا تعرب عن الحادثة ، بل بينه وبينها بعد المشرقين »[2].

وهو في نقده ، وتأليفه ، ودرايته بأسرار الأساليب ، ودقائق العربية ، يتعرف مواطن الحسن ومواطن القبح في الكلام ، يحسن وصف أدوار المقال ، ولكنه لا يجيد بالرغم من حملته على غيره من المجيدين أمثال الفاضل وابن عباد .

وليس هنا مجال القول في جهوده في النقد والتأليف ، لكنه على أية حال كان ممن أثمرت جهودهم في البيان العربي ، وكان لهم أثر واضح في بناء علم النقد والبلاغة بحسن ذوقه وحسن تفهمه ، وبكثرة محفوظه ولماحيته وذكائه .

وله كتابان ، أحدهما « المثل السائر » المشهور ، والثاني وهو « الاستدراك »[3] في الأخذ على المآخذ الكندية من المعاني الطائية وهو في الكلام عن السرقات ، وهو كتاب قيم من وجهة النظر النقدية ، لأنه يتناول قضية السرقات تناولاً واعياً جامعاً ، ويتتبع بصفة خاصة سرقات أبي الطيب من أبي تمام[4].

وحاول في نقده ألا يأخذ بمقاييس البلاغيين السابقين دون مراعاة للتذوق ، وصدق الإحساس ، وتناسق أصوات الكلمات ، وجرسها في الآذان مع المعاني وتلاؤمها .

---

(١) المثل السائر ص ١١٩ .

(٢) المثل السائر ٢٠٥ .

(٣) طبع أخيراً بمصر سنة ١٩٥٩ .

(٤) راجع « ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد » ص ١٢٤ .

وكان جريئاً في آرائه ، لم يخضع لنظريات سابقيه ولا للإجماع السائد في ترتيب الشعراء . وكان المتنبي عنده يمثل قمة الإبداع الشعري .

وأقر بفضل القرآن على البيان ، وعلى الحفاظ على اللغة ، ودعا إلى التمكن من العلوم الإسلامية والعربية ، والإقلال من خطورة آثار الفكر اليوناني على البيان العربي خاصة .

عبد الرحيم بن علي بن شيث
الكاتب (ت ٦٢٥ هـ)

هو الأسعد أبو القاسم عبد الرحيم ، كاتب مصرى نشأ فى مصر ودرج فى ديوان الإنشاء فى أخريات العصر الفاطمى ، وأخذ على كبار الكتاب ممن ضمهم الديوان ، ولما تولى صلاح الدين أمر مصر والشام ، كان ابن شيث القرشى كاتباً مرموقاً فى ديوان الانشاء وكان القاضى الفاضل كبير الكتاب يقرب ابن شيث ، ويكل إليه بعض أعمال الديوان لثقته فيه .

قال صاحب مرآة الزمان[1] : « العالم الفاضل ، كان الله تعالى قد جمع له من الفضل والمروءة والإحسان إلى حسن خلق . ما قصده أحد فى شفاعة فرده خائباً ، وكان كثير الصدقات ، واسع المعروف ، غزير الإحسان ، وكان القاضى الفاضل يحتاج إليه فى علم الرسائل . وكان إماماً فى فنون العلوم من المنظوم والمنثور .

وله تصانيف كثيرة ظريفة ، ورسائل وأشعار لطيفة . وكانت وفاته بدمشق ودفن بقاسيون سنة ٦٢٥ هـ . وكان المعظم عيسى يكرمه . وقد جعل له راتباً يقوم بأوده » .

ويروى على بن ظافر فى كتاب بدائع البدائة أن ابن شيث كان من صحبته ، وكثيراً ما اجتمعا معاً وتناشدا الأشعار ، وربما كانت الصحبة جمعتهم فى مجلس القاضى الفاضل وفى عهد السلطان الناصر صلاح الدين ، ودامت الصحبة طوال عهد الملك العادل أبى بكر . وربما ولى فى عهده نظارة القدس ، فقد وصفه ابن ظافر بناظر القدس[2] . قال : « وأنشدنى القاضى الأسعد عبد الرحيم بن شيث ناظر القدس الشريف لنفسه :

---

(١) مرآة الزمان ٦٥٣/٨ .

(٢) بدائع البدائة ص ٢٧٧ .

زار وقد آنس للقلب نار | وليس إلا وجهه إذ أنار
طيفٌ وقل ضيفٌ كما أننّى | أبحتهُ قلبى قرىً أو قرارْ
لم أنسَهُ خاضَ إلىَّ الدُّجى | وجابَ من شوقٍ إلىَّ القِفارْ
فانشقَّ قلبُ الصبح غيظاً به | وغارَ نجم الأفقِ منهُ فغَارْ
وذاتِ قدٌّ كالقضيب انثنى | وأين منها الغُصنُ لولا الثِّمارْ
بديعة كم لى بها غِرَّةٌ | وكم لها فى مهجتى من غِرارْ
وربَّ ليلٍ طابَ لى وصلها | به ، فلولا وصلُها قلتُ طارْ
رأيتُها ليلاً . وصبحاً فما | عرفت بالليل ولا بالنَّهارْ
بِتْنَا ضَجيعَىْ عِفةٍ ما درَتْ | منا يدٌ ما يحتويه الإزارْ
يُسكِرُنى لثمى لأصداغِها | فهى عناقيدٌ ولثمى اعتصارْ
يحجبُ عنى الصُّبحَ ستر الدجى | كأنما الليلُ لنا بُرد دَارْ
وبعدها فليطُلِ الليل كما | شاءَ على رَغْمِ الليالى القِصارْ

ويذكر على بن ظافر[1] أن ابن شيث كان فى صحبته مع جماعة من العلماء والشيوخ اجتمعوا فى معسكر الملك المنصور العادل أبى بكر بن أيوب ببلبيس فى طريقه إلى فك حصار دمشق عام ٥٩٧ هـ ونجدة ولده المعظم عيسى ضد ابن عمّه الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب ، والملك الأفضل .

قال ابن ظافر : « حضرنا يوماً عند الصاحب صفى الدين (ابن شكر) بمعسكر المنصور على بلبيس عند بروز السلطان لسفرته الثانية حين حوصرت دمشق الحصار الثانى سنة ٥٩٧ هـ فى خيمته بمجلس حفل ، لم يعدم فيه أحدٌ من مشايخ الدولة ووجوهها ، وهم إذ ذاك متوفرون ، لم ينتقص لهم عدد ، ولا فقد منهم أحد . فأنشدنى ابن أبى حفصة قصيدة عاتبةً فى بعض أبياتها ، وارتقى الأمر إلى أن قال أسعد بن الخطير – رحمه الله تعالى – : أن هاهنا جماعة كلهم يقول الشعر ، فلو اقترح عليهم أن يصنعوا شيئاً فى بعض ما يقع

(١) بدائع البدائة ص

تعيين الصاحب عليه لبان الجرىء الجنان من العاجز الجبان . ومن جملة من معنا فى المجلس ممن يقول الشعر ابن سناء الملك ، والأسعد أبو القاسم عبد الرحيم ابن شيث . فاقترح الصاحب أن نعمل فى منجنيق الشمعة – وكان الهواء عاصفاً – فقلت :

أرى شمعة ضمَّها المنجنيـــق ... فجاءتك بالمنظـر الأعجـبِ
يجولُ عليها احمرار الغشــاءِ ... كما جـالَ برقٌ على كوكـبِ
وشـــمعةٍ في المنجنيـــــق ... وهـي فيــه تُشْـــرِقُ
كأنهـــا من تحتــــــهِ ... شــمسٌ علاهَـــا شَــفَقُ

ولم يفتح على أحد بكلمة ، وانتقدوا عليه تشبيهها بالشمس ، وقالوا : « النجمُ أليق » .

وحديث ابن ظافر عن ابن شيث وما نقله من أخباره وشعره يدل على صحبته له زمناً فى جوار القاضى الفاضل ، وصحبة العزيز عثمان ، وصفى الدين بن شكر والملك العادل كما يشير إلى اجتماعهما فى أماكن كثيرة بالقاهرة ومصر مع بعض شعراء المصريين وأدبائهم فى ذلك العصر يتطارحون الشعر . ويبدو من الخبر السابق تمكن ابن شيث من النظم وحضور بديهته فيه .

ويقول خبر آخر :(١)

« وأخبرنى القاضى الأسعد أبو القاسم عبد الرحيم بن شيث . قال : اجتمعنا ليلة عند القاضى محيى الدين ولد قاضى القضاة صدر الدين بن درباس – رحمه الله – فتذاكرنا البديهة ، فاقترح علىّ أن أصنع له فى شمعة كانت بين أيدينا فصنعت :

وأنيسةٍ باتت تساهر مقلتى ... تبكى وتبدى فعل صبٍّ عاشقِ
سرقت دموعى والتهاب جوانحى ... فغدا لها بالقطِّ قطعُ السَّارِق »

وروى عنه خبراً استفتى فيه ابن شيث فى شعر يقوله ، فأمدّه بما ينبغى قوله(٢):

---

(١) بدائع البداهة ص ٣١٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٠٥ .

وتركت نشأة ابن شيث في ظل الفاطميين في مطلع حياته بعض آثار على عقيدته ، ونتاجه الأدبي ، إذ تبدو من بعض عباراته ما يدلُّ على ذلك كتعقيبه بعد اسم على رضى الله عنه بقوله صلى الله عليه فى كتاب « معالم الكتابة » .

ومهنة ابن شيث الأولى كما رأينا الكتابة ، لأنه نشأ فى ديوان الرسائل فى مصر الفاطمية ثم استمر فى مهنته هذه عصر الأيوبيين . وألف فى فن الكتابة الديوانية ، والإنشاء ، كتاباً هو ما أشرنا إليه « معالم الكتابة ، ومغانم الإصابة » ويجرى فيه على سنن بعض من سبقوه من كتاب الديوان أمثال على بن خلف صاحب « مواد البيان » وابن الصيرفي ، وجرى من بعده على سنتهم من أمثال شهاب الدين محمود ، والقلقشندي .

ولابن شيث مؤلفات أخرى ذكرها صاحب مرآة الزمان قال :[1] « وله تصانيف كثيرة ظريفة ، ورسائل وأشعار لطيفة » .

وقال : « وكان إماماً فى فنون العلوم من المنظوم والمنثور » .

ووصلنا من مؤلفاته الكتاب المذكور فى صناعة الكتابة ، وبعض أشعاره التى أوردها ابن ظافر وسقناها فيما سبق .

كتاب « معالم الكتابة ومغانم الإصابة » :

يقول فى مقدمته : « قال العبد الفقير إلى رحمة الله تعالى عبد الرحيم بن على ابن شيث القرشى عفا الله عنه - : الحمد لله الذى أرعف أنوف الأقلام بأرواح المعانى ، فهى بفخرها شُمٌّ ، وأسمعها فأبانت عن الخواطر وهم صمٌّ ؛ وأمطاها البنان فوخدتْ وسَبقتْ ، وأعطاها البيان فأخذتْ ونطقتْ . أحمده وهو الغنى الحميد ، وأمجدهُ وهو ذو العرش المجيد . وأستمد منه الحسنى بالشكر الذى ألهمه وأستزيد ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة هو بها لنفسه الشهيد ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أقام به الدين وشيده ، وزَيَّنَهُ باللَّسنِ وأيَّده . صلى الله عليه وعلى آله صلاةً ينجز له بها المقام المحمود موعِده ، ويعذب بها من الشرف موردُه » .

---

(1) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى ٦٥٣/٨ .

وبعد ، فقد كنت ألفتُ كتاباً فى رسوم الكتابة التى سقطت فى هذا الوقت ثاؤُهَا ، وطمست أنباؤها ، فالدارج عن سبيلها دارج ، والداخل فيها عن طريقها خارج ، والحاسبُ فيها راجمٌ بظنّه ، وحاصب ، وحاطبُ ليل لا يأمنُ المعاطب . وتوسعتُ فيه بحيث لم أترك فناً إلا ورسمت فيه فنوناً ، وفتحت فيه للناظر فيه عيوناً ؛ إلا أنى علقته تعليقاً يكاد يبهم علىَّ وأنا كاتبه . وأدمجت الخط فيه إدماجاً أكاد أنكره وأنا صاحبه . وكان الخاطر يسابق القلم فيمنع من التحرير ، وكانت أرواح المعانى تتوالى فلا أتمكن مع تواليها من التصوير ، وضاق علىَّ الزمانُ عن تسفير وجوه تلك الرسوم وتبييضها ، ولو وليتها غيرى لم يستطع العثور عليها لغموضها ، وخمدت عنها همتى علماً بأنى لو تنبهت لها تنبهتُ لغافِلٍ ، وجهدت لغير حافل .

أجهل خلق الله من بات جاهـــلاً	لمن بات عنه غـــافلاً غير حـــافل
ومن قصرت دون الفرائض نفســهُ	فأحرى بها التقصير دون النوافِـــلِ

وطلب منى بعض الأصحاب ذلك الكتاب ، فاعتذرت بما ذكرته ، فما قبل منى العذر فى غموض ما كتبته ، وإبهام ما سطرته . وقد رسمت فى هذا المجموع ما يجد الكاتب فيه ما يعنيه فيما يُغنيه ، وأدنيتُ له من قطوف أغصانها ما يجنيه ، فإذا أخذ به الكيِّسُ اهتدى به فى أعماله ، ونسج فيما يكتُب به على منواله . ورسمت له فى كل معنى ربما يسبر به الكاتب ويمتحن ، ويقيد به ويرتهن ، كتابين جعلتهما له نموذجاً ، وأطلعت له منهما شمساً وبدراً يهتدى بهما فى نهار اليقين إذا تجلى ، وفى ليل الشك إذا دجا ، وربما استغنى بهما فى ذلك المعنى ، لأن أكثرها يقلٍ وقوعه ويحسن موقعه إذا أُرِيدَ بالكاتب سقوطه بالامتحان ووقوعه . وكله مما كتبته على الخاطر بديهة وارتجالاً ، ولم أر بعد النظر انتقالاً إلى كلام أحد عن كلامى ولا ارتحالاً ، ولا رسمتُ أيضاً فيه شيئاً مما تقدم من مكاتبتى ، لأنى لاسترجاعى ما يصدر منى غير معوَّد . وأكثره لم يكن له عندى أصل ، لأنه كان غير مسوَّد . وربما شاهد ذلك كثير ممن كان يحضرنى ، ولا استكثر ذلك وأذكره افتخاراً . ولكن ذكرته اعتداداً لِلْقُصْرَانِ وجد واعتذاراً ، وسميته « معالم الكتابة ومغانم الإصابة » . والله اسأل أن

يجعلنى ممن تعرض فيه لطاعته ، ولا يجعلنى ممن إذا وقف للحساب لا يجد شيئاً من بلاغته . وهو حسبى ونعم الوكيل » .

ويبدأ أبواب الكتاب ، وقد قسمه إلى ثمانية أبواب موضوعاتها :

الباب الأول : فيما يجب تقديمه ويتعين على الكاتب لزومه .

والباب الثانى : فى طبقات التراجم وأوائل الكتب ، وما يكون به التخاطب بين المتكاتِبَيْنِ على مقدارِهما .

والباب الثالث : فى ذكر وضع الخط وحروفه ، وبْرى القلم وإمساكه ، مما لا يستغنى الكاتب عنه . نقلته نقلاً من كلام بعض الكتاب إلا أنى اختصرته .

والباب الرابع : فى البلاغة وفيما يتصل بها .

والباب الخامس : فى ألفاظ يقوم بعضها مقام بعض لا يستغنى عنها الكاتب .

والباب السادس : فى الأمثال التى يدمجها الكاتب فى كلامه ويستشهد بها نظماً عند توغله فى القول واقتحامه .

والباب السابع[1]:

والباب الثامن : فيما لابد للكاتب من النظر فيه والتحرز منه ، وكثيراً ما يسقط فيه كثير من الكتّاب .

ولم يذكر شىء عن الباب السابع فى النسخة ولعله سقط من الأصل أو لعل الكتاب من سبعة أبواب وأخطأ الناسخ فى العدّ .

ويصدّر حديثه فى الباب الأول عن مكانة الكتابة والكتاب فى الدولة مظهراً ما ينبغى أن يكون عليه أصحاب القلم من الخلق والعلم وآداب معاملة الرؤساء والسلوك مع من يقصدهم من رجال الدولة إلى غير ذلك من نصائح وقفنا على أمثالها فى كتب مشابهة . يقول ابن شيث[2]:

« كتابة الإنشاء هى الأصل ، وصاحبها له فى الأمور القطعُ والوصل . وكلامه الكلام الحرُّ ، وخطابُه الخطابُ الفصل .

ولها آداب لابد للكاتب أن يجعلها دأبه ، وأوتادٌ لا غنى له أن يشدَّ عليها

(١) ربما كان السقط هنا باب البديع .   (٢) معالم الكتابة ص ٩ .

أسبابه فأولها أن يجعل التقوى دليله الذى يقدمه . وأن يُسلس النصيحة لمن يخدمه . فمن بنى أمرهُ على غير هذين الأصلين انهدم بناؤه وإن استمر وقتاً ، واستَحَالَ نظرُ من يصحبه إليه إعراضاً عنه وحبُّه مقتاً .

وأن يتجنب الرّشَى ، فإنها مما يطيل أرشية الأقوال إلى قَلِيبِهِ ، وتعود عليه مضرتها عند تجريبه للأمور وتقليبه . وتقفه على الشفا وعلى الشفير ، وتسقط حرمته عند المرتشى وعند السفير ، وتكون أقواله عند المصحوب متهمة ، وأحواله الواضحة لديه مبهمة ، وأن يكون مع من يصحبه على حال الاحتياط والمراقبة . ولا يدل عليه فى المكاتبة ولا فى المخاطبة . وأن يغض بصره عمن يستحسن من حاشية المصحوب ومن أتباعه ، ويتجاهل عنه فى مثل هذه الأمور ، ولو جهد فى مكاشفته فيها وفى إطلاعه . ولا يفتر ببوادر الاسترسال فى ذلك ، فإن لها غوائل إذا فجأت لم يُغْنِ معها استئناف الحذر ، ومقابح إذا وضحت لم ينفع عندها ثاقب النظر .

وأن يتجنّب البادِرةَ على صاحبه ببادِرةِ الجواب ، فإنَّ ذلك يَؤُولُ إلى المضَاضَةِ والغضاضةِ وقد وقع فيه كثيرٌ ممن ظنَّه من محاسن الرشاقةِ والنضاضة . وربما قاده إلى أن يسقط المرَّة بعد المرّة ، وينطقَ بعد الحُلوةِ بالمرَّةْ .

وهذه الكلماتُ تملأ الإناءَ وإن اتسع ، وقَتَراتٌ تحجبُ ضياء الحُسْنِ وإن سَطَعْ . ولا يَتصنَّتُ إلى من يصحبُه إذا ناجَى سواه ، ولا يلتفِتُ إلىمَالا يَعْنِيه إلا إذا أشار إليه فيه وعناه . فإنَّ قوماً ظنُّوا أن التهافُتَ على هذه الأمورِ من مهمَّاتِ الخدمة ، ومن موجباتِ الحُرمة ، فكانَ سبباً إلى وضع أقدارهم وإسقاطها ، وكسر نفوسهم وإسخاطِها .

ولا يناهِبُ صاحبَه الكلَامَ فيما يأمره به قبلَ إكمالِ كلامِه ، ويوهمُ أنه فهم عنه قبل إفهامه . فربما أراد قومٌ أن يوهموا بذلك مشاركة من يخدمونه فى خواطِره ، والدُّرْبةَ بأحواله والاطلاع على سرائره . وهذا مضرٌّ ولا سيما لمن عليه مُصِرٌّ .

ولا يتلفَّت إلى إحدى الجهات إذا كان صاحبه يحدثه بأمر إيحاءً أنه يسمع مع

التلفت ، وأنه لا يفتقر فيما يلقى إليه إلى التصنت ، بل يجعل هِمَّتهُ كلها إليه فيما يقوله ، أو يقول له مصروفه ، ويُصغِي إلى الأحاديث التي يلقيها إليه بجملته ولو كانت عنده معلومة ومعروفة .

ولا يخلل أسنانه في مجلس صاحبه ، ولا يتنحّم ، ولا يشير بالتمخط وبالتبصُّق إلى جوانبه ، ولا يتمطّى ولا يتثاءبُ . ويتجنب الحضور إلى صاحبه إذا كان يُقهر على هذه الأشياء بالمرض ويُغلب . ولا يأكل الأشياء التي تكرِّه رائحة الفم في مظان المناجاة لصاحبه . فربما أحدثت هذه الأشياء في النفوس أنفةً ولاسيَّما مع المداومة والمداولة . وأوجبت مقتاً – ولابد من ذلك – مع الملازمة والمطاولة .

ولا يتسرَّع إلى خدمة المصحوب في مالا يلزمه كمناولة ما يؤكل وما يشرب . والمبادرة بإحضار ما يستدعي ويطلب ، ظناً أنه يغني في ذلك عن غيره ، فإن ذلك مما يحط من قدره ويحفظ عليه قلب من يتولى أمره .

ولا يدخل معه الحمّامَ ولا الأمكنة التي يسقط الصاحب الكلفة مع بطانته ، ولو طلبَهُ لها واستدعاه . ولا يدنو منه في عورات الأمور التي يحسن فيها التستر ولو استدناه . ولا يأكل معه . وإن دُفع إلى ذلك فليكن فيه طَبّاً وقوراً ، ولا يكن عند الطعام كلباً عقوراً . ولا يفشي سرَّه ولو أذن له في إفشائه . وليجعل سرَّه ميتاً مقبوراً في أحشائه . ولا يشير عليه في الحفل ولو اقتضت الحال ذلك ، وإن فعل ذلك في الخلوةِ فليكن كالعارض لا المعارض ، وكالباني له ، لا كالمناقض . وإذا وافقه في الرأي فليكن كأنه الموافق . ولا يعرض عليه إلا ما يعلم أنه الجائز عنده النافق . ولا يسفهه في الأمر الذي ينفرد به عنه إذا آل إلى غير المقصود . ولا يوافقه على الأمور التي يراه على الكذب في الأقوال والنقض للعهود . فإنَّ شاهد الزُّور مبغَّضٌ إلى من شهِدَ له . وما أفلح من جعل على الكذب معوَّله .

ويتجنَّب المزاحَ مع صاحبه ، ولو جذبه إليه وبسطه . ويتقاعد عن فحش الكلام ولو استنهضه إليه ونشَّطه . ولايُكثِرُ المسامرةَ مع صاحبه ، فإنها توجِبُ المَلَل ، ولا يأمن معها الخطأ في القول والزلل . ولا يفاجيءُ صاحبه بالشكر

على أفعاله في الخلوةِ ولا في الحفْلَة . ولا يستدرك الأمورَ عليه استدراكَ من اتهم بالإهمال والغفلة ، بل يوحيه أن كلَّ شيءٍ يفعله برأيه وبأمره . ويقرر في نفسه أنه يراهُ أعظم من مدحِهِ وشكرِه ، ولا يوجِدُه التخيُّل منه بشكوى أو بمعاتبة . ولا يتقاعدُ عنه في أمرٍ جرى معه فيه على عادة الملازمة والمواظبة . فإنَّ الإخلال بالعوائِد يوهِنُ أسبابَ الصحبة ويوهم ، ويفصلُ عُرى المودَّة ويَفْصِم .

وليؤدِّ الأمانة فيما يكتبه عنه بحيث لا يزيد في المكتوب شيئاً بعد الترجمة فيه أو بعد الكتابة . وليحرص على استئذانِه في كلّ أمرٍ يتولّاهُ له ، ولو كانَ فيه على تحقيق الإصابة . وإذا شفع إليه في أمر فليكن على سبيل التعريض لا التحريض ، وعلى طريق التفويض إليه فيما يفعله لا التقويض . ولا يجعلْ مكانه مكان من يوهم أنه سدَّ مسدَّه ، فإنّ القلب مُعلاقٌ ، والإنسانُ لما يحبُّه معشاق .

ولا يتعسَّفُ على الصاحب فيبعده الصَّلَفُ عنه والأَنَفة ، وينسيه حرماته المتقدمة ويكرّه له أحوالَهُ المؤتنَفة . وإن استطاع أن يجعل لكل ما يكتبه نسخةً عنده فهو أحوى لما يريده وأحوطُ . وهو لكتَّاب الملوكِ أقصَدُ وأقسط » .

وهكذا فإن هذه هي النصائح التي يسوقها ابن شيث للكاتب الديواني عامة ولكاتب الدست أو كاتب السر خاصة ، لأنه ألصق بمن يكتب له من ملكٍ أو أمير أو وزير .

وهذه النصائح تنطبق على كلّ الناس في معظمها ، إلا ما يخص صنعة الكتابة والعلاقة الخاصة بين صاحب السلطة وكاتبه الخاص . ومعظمها مستمد من الآداب العامة والأخلاق العامة التي تعارف عليها الناس ودعا إليها الفلاسفة وكتب الرسالات ، ومعظمها مستمد من أصول إسلامية دعا إليها القرآن ونبي الإسلام محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه ومارسها في حياته وسيرته وهو القائل : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، والقائل له ربه : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ . والذي خلقه عظيم ﴾ . والذي خلقه القرآن حيث قال : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .

فأدب الكاتب إذا وخلقُه على ما نصَّ عليه ابن شيث هو أدب الإنسان

المسلم الذي يشرف بالانتماء للإسلام والعمل بمبادئه السمحة .

وينتقل ابن شيث من هذه النصائح العامة ، والدعوة إلى الأخذ بأسباب الآداب الرفيعة إلى الدعوة لإتقان حرفية المهنة (الكتابة) وما تقتضيه وتتطلبه من سلوكيات وطقوس واستعداد وإعداد . كأن يقول :

« ومن أحسن أحوال الكاتب أن يكون حضوره عند صاحبه باستدعاء ، وأن يكون قيامه عند الفراغ من المهام والانتهاء ...

وليحذر الدخول على صاحبه في الخلوات بغير استئذان ، وإن كانت تلك عادته معه في المحفل فربما أحفظ هذا وأغضب ...

وليتجاف الكاتب النطق بالألفاظ المتحاشاة بين يدي صاحبه ... وكثير من الناس ينشطون إلى النطق بهذه الألفاظ الفحشية ، وهي لا تحسنُ ولا تليق ، وكثيراً ما تذهبُ ماءَ صفحات الوجه وتُريق :

وإذا تحاشيتَ القبيح فإنما أكبرتَ نفسك عند من يتسمَّعُ
وإذا أردت تصنُّعاً بمَذمَّةٍ فتوخَّ محمدةً بها تتصنَّعُ

ويقال أن بعض الكتَّاب أزرى على ابن وهب الكاتب عند صاحبه وقال إنه ضرِطَ . فقال له : مه فإنك قد فَعَلْتَ بأعلاك ما فعل بأسفَلِهِ ؟!

ويقول : ولا يتزوَّقُ بالملبوس الغريب ، ولا يتسوّقُ بإظهار النعمةِ والطيب ، ولا يكُنْ مع الزهادةِ والقذارة ، بل يكون في ذلك على الحال الوسط ، فإنه يحصل فيه على الوضاءة المطلوبة من الرجالِ والنضارة ...

ولا يحضر عند صاحبه إلا وداوته معه سواء استدعاه للكتابة أو لغيرها ، كما أنَّ الجنديّ لا يحضر إلا بسيفهِ وآلةِ حربهِ ، وإن كان في حالة دنوِّهِوقربهِ ».

ويدخل في تفصيلات كثيرة من أعمال الكتاب ودرجاتهم ، وأنواع ما يتولون من الأمور في شتى الدواوين ، مبيناً خصائص كل ديوانٍ ، وما ينبغي اتباعه فيه .

ويخص الباب الثاني بالحديث عن نظام الرسائل ، من حيث الشكل : الخط

والسطور ومن حيث العبارات ، وما يقتضيه المقام في المخاطبات ، والمألوف من ذلك عند كتاب ذلك الزمان ، وطريقة البدء والدعاء ، والتحميد ، وعرض الموضوع ، والختام والتأريخ وما إلى ذلك .

ويخص الباب الثالث بالحديث عن أمور متعلقة بطريقة الكتابة والأدوات المستخدمة كالأقلام والدواة والحبر ، ويفصل في شكل الحروف وطريقة الكتابة ، وطريقة الإمساك بالقلم ، والجلسة الصحيحة .

يقول : « واعلم أن الجِلسة هي أصل في الكتابة ، ومما يُعين الكاتب إسناد ظهره إلى شيء لين » .

ويقول : « واعلم أن القَلم إذا لم تصحَّ قطتُه لم يستقم به الخط ، ولو كان الكاتبُ من كان وأكثر ما تتكررُ الكتابة من جهتِه » .

وفي الباب الرابع عن البلاغة وما يتصل بها يقول :

« إعلم أن هذا الباب هو الذي عليه المعوَّل في الكتابة ، وفيه تتفاوتُ أقدار الكتَّاب . وهو الذي فضَّل الله به من آتاهُ من عباده فصل الخطاب . والوقوفُ على كلام المتقدمين فيه يرهفُ الخاطر ويشحذُهُ ، ويسدّدُ القولَ وينفِذُه .

والبلاغــة مجموعة في قسمين :

أحدهما : أن يكون اللفظ قليلاً وهو دال على معانٍ . وهو أعلا القسمين وأعظم ما وقع من هذا قوله سبحانه وتعالى : ﴿ نحنُ أولياؤكُم في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ ، ولكم فيها ما تشتهِي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون ، نُزُلاً من غفور رحيم ﴾ .

فجميع ما في الوجود يصح أن يكون داخلاً تحت قوله : ﴿ ما تشتهي أنفسكم ﴾ . إذ لا شيء منه إلا ويصلحُ أن يكون مُشتهى .

وواضحٌ أنه يريد في هذا القسم الأول ما عرف بالإيجاز ، وأما القسم الثاني عنده فهو المساواة . أو ما اصطلح علماء البلاغة على تسميته كذلك إذ يعرفه بقوله :

والقسم الثاني : أن يكون الكلام منطبقاً على المعنى ، لا يُفضل عنه ، وذلك كقوله تعالى إخباراً عن كتاب سليمان صلوات الله عليه إلى بلقيس :

﴿ إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين ﴾

ويذكر بعد هذا مثالاً من كتابته . وحديثاً عن الشعر والنثر والفرق بينهما وأظن هذا ختام الباب الرابع حيث يبدو أنه بدأ حديثاً جديداً في البديع على طريقة أهل العصر استهله بالقول في السجع ، ولعلّ باب البديع هو البـــاب الذي سقط من أبوابه الثمانية فيكون البلاغة الرابع والبديع الخامس ، والسادس هو « في ألفاظ يقوم بعضها مقام بعض » والسابع الأمثال ثم يأتي بعد الباب الثامن آخر الكتاب .

مثال من كتابات ابن شيث الإنشائية

يقول : وقد كتبتُ مرةً إلى بعض الناس ، وكان يتبارى بألفاظه ، ويتباهى بمعارفه على طريق التهزىء به .

« أما بعدُ ، فإنّكَ رجُلٌ من شذّاذِ الدّهماء ، وسقاط السّفلة ، ورِعاعِ الرعيَّة ، وهمج السواد . أشبهُ بالشاءِ والنَّعَم من الأناسيّ ، وكأنّكَ من الجنّاتِ العَفاريت لشوْهَةِ المنظر وشناعةِ الشَنشنة . كأن رأسَكَ بيضةُ دجاج ، أو قطعةٌ من زَبَدٍ طامٍ قذفتْها إلى البَرّ يدُ الأمواج . ليس للحِجَى فيها مستقرٌ ، ولا للنُّهَى بها مُستَودَع ، وكريمتاكَ[1] إن طمحتَا لعبَ بكوكبيهما الزَّوَرُ ، وإن غَمَّضتَا طمَسَهُمَا الجحظُ ، أكبُ المارن ، أقطُّ شاطىءِ الصفحتين ، أكلحُ المتوسِّمُ ، أقلحُ[2] المتبسِّم . يتظَنّاك الرّائيّ إذا تطاولْتَ بالخُيلاء تمشي من قُعود ، وتهوِي من صُعود . جعد الأناملِ ، مخشوشَنُ البراجم[3] ، دقيق الزند ، أقصرُ من أفحوصِ القطاة باعاً ، وأحرجُ من مجال الطرفِ ذراعاً . وأحقُ من قصاصةٍ تناهبتْها أيدي الرّياح . ياموراً[4] مشهوداً لك بخبث القرونةِ ، منطوقاً عنك

(١) عيناك .
(٢) الأكلحُ الذي تقلصت شفته عن أسنانه والقلح صفرة في الأسنان .
(٣) البراجم رءوس سلميات الأصابع .
(٤) اليامور ذكر الأيل .

بشؤم النقيبةِ ، تَصُبُّ على العِلْيةِ حسداً أن لا يضاهوك في التسافُل ، وتتمنّى زوال النعمةِ عَن ربّها حتى يكافئك في الإسفاف . تُقطّبُ في وجه القادِم كأنما ذوبُ المَحاجِمْ ما بين عينيك خوف المسألة والتصدّي إلى الاستجداء . فإذا أمنت من ذلك أصحبْتَ بالاستكانة والاستخذاء . لو أطمعت بكفَنٍ وَدِدْتَ أن تُسوَّى بك الأرض ، وتمنيت أن تكون على ظهرها لَقًى ، أو في بطنها عظماً رميماً ، على ما فيك من اللهج بالحياةِ مع المنقصةِ للتمتع بالشهوات ، والخوفِ من الموت لسوء الطويَّةِ أمنع من لبدة أسدِ أبي أشبال ، أكبُّ بلبواتِه مساساً إذا استُعْطِفْتَ لمكرمة ، وألين من بطنِ الرقطاءِ إذا اجتُذِبْتَ لمنقصة ، مكّاءُ ، بكّاءُ ، هاعٌ لاعٌ . تكادُ تتحامى ظِلالَ الأفياءِ في حمّارةِ الهواجر ، خوفاً أن تكون أشخاصاً تفجأك . وتعافُ الماءَ الزُلاَلَ في شدة الظمأ توهُّماً أن النهر سيفٌ أُخرِط لكَ ، وأنَّ تجعُّده بالنسيم قطوبٌ في وجهك ، يتكاءدُكَ[1] حَمْلُ المباءَةِ إذا حمّلتَ أمراً ، وبودّك دفعُ القذاةِ عن مآقي عينك ، فأيُّ سجيةٍ أقبحُ من سجيّتِكَ ، وهي لك رِضىً ، وأي خليقة أشنَعُ من خليقَتِكَ ، وأنت بها كلِفٌ ، ولم أرِدْ ذمَّك ، ولكن جعلتُ هذهِ الألفاظَ مرايا لك تبْرِزُ لك مخبّآتِ أوْصَافِك من صِفاتها . ورجوتُ وإن كان بعيداً أن أنشّطَ بها همتك من عقالِها » .

---

(١) يتكاء دُك : يشقُّ عليك .

الفاشوش في حكم قراقوش
لأسعد بن مماتي

وقد ألّفه أسعد بن مماتي أحد كتاب الدولة الأيوبية الكبار ، وأحد شعرائها المشهورين[1]، تخرّج في ديوان الإنشاء على بعض أهله ممن ولوا مناصب إدارية في الدولة الفاطمية ، وبلغ جده أبو مُليح درجة رفيعة في عصر الأفضل بن بدر الجمالي وكذلك والده من بعده .

وكتب ابن مماتي هذا الكتاب يسخر من أحد كبار رجال دولة صلاح الدين وهو الأمير بهاء الدين قراقوش الذي ولّاه صلاح الدين نائباً على القاهرة ، فقام بأعمال جليلة منها بناؤه للقلعة المشهورة .

ويصور ابن مماتي قراقوش في صورة الحاكم الظالم المستبد . يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة[1]: « والعجب من ذلك الكاتب القبطي الأريب كيف نال من رجل كهذا الرجل العظيم ، وكيف عبث بسيرته كل هذا العبث الخطير حتى حمل الناس في مصر والشرق على أن تشيع بينهم هذه العبارة : « حكم قراقوش » يرددونها على أنها حقيقة وقعت ، ويضربونها مثلاً على الظلم والجبروت ، أو على العتهِ والسَّفه والتخبط المعيب في إصدار الأحكام الجائرة والأقضية الفاسدة ، والأوامر الشاذة المضحكة » .

ولا يزال الكتاب في صورته الخطية لم يحقق تحقيقاً علمياً[2] والفشوش الأحمق يقول ابن مماتي :

« لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش مخرِمَة فاشوش ، قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كلَّ غُمَّةْ ، لا يقتدي بعالم ، ولا يعرف المظلوم ، الشكيَّةُ عنده لمن سَبَق ، ولا يهتدى لمن صَدَق ، ولا يقدرُ أحدٌ من عظم منزلتِه على أن ير

---

(1) الفاشوش ص ٤ من سلسلة كتاب اليوم .
(2) ذكر الدكتور عبد اللطيف حمزة بعض نسخ الكتاب الخطية في دار الكتب وبعض المكتبا العالمية .

كلمته . ويشتاطُ اشتياط الشيطان ، ويحكم حكماً ما أنزل الله به من سُلطان .
صنَّفتُ هذا الكتابَ لصلاح الدين عسَى أن يريحَ منه المسلمين ثم ساق من الحكايات ما يصور به هذا الرأي الذي ارتآه في الرجل .

ومنها قوله : « **الحكاية الأولى** »

« كان قراقوش رجلاً صقلبياً ، يميل إلى البيض ، ويكرهُ السُّود . واضطرته الظروفُ في يوم ما إلى الحكم بين امرأةٍ حجازية وجاريةٍ لها تركيةٌ ، وكانت هذه أول مرة يحكُمُ فيها : قالت الحجازية لقراقوش – إن هذه الجارية قد أساءتْ الأدب عليَّ فنظر قراقوش إلى بياض الجارية التركية وسواد الحجازية ، فقال للحجازية :

– ويلك ! خلق الله جاريةً تركيةً لجاريةٍ سوداء حجازية ؟ ، ما أنا بأحمق أو مغفل .. يا عثمانِ ! ودُّوا هذه الحجازية الحجرة ! .

فمكثت الحجازية شهراً ، وما لبثتْ أن عادت إليه تقول :

– إنني قد أعتقتُها لوجه الله تعالى .

فقال لها قراقوش – يا سبحان الله ! ، إنّها هي التي تعتقك فإنكِ جاريتُها ، وإن أرادت تبيعك فإنها تبيعك ، وإن أرادت عتقك فإنها تعتقك .

فقالت الحجازية للتركية – إعملي معي مثل ما عملتُ معك .

فقالت التركية – وماذا تريدين مني ؟

فقالت الحجازية – إذهبي إلى قراقوش وقولي له إنك تعتقيني لوجه الله تعالى فذهبت التركية إلى قراقوش وقالت له – قد أعتقت سيدتي الحجازية لوجه الله تعالى .

فقال قراقوش – جزاك الله خيراً .

وخرجت الحجازية من السجن !! »

الحكاية الثالثة :

« قيل إن امرأة أتت بولدها إلى قراقوش فقالت :

– يا سيدي بهاء الدين ، إن ولدي يشتمني ، فأمر بحبسه سنة ، فلم تذق

أمه تلك الليلة طعم النوم ، فلما أصبحتْ راحت إلى السّجانين وقالت :

– ما الحيلة في خلاصِ ولدي من هذا الحبس ؟

فقالوا لها – هاتي حلاوتنا ونعرفك إيش تقولين للأمير بهاء الدين قراقوش فدفعت إليهم النقود وقالوا لها :

– روحي الساعة إلى الأمير وقولي له : يا سيدي أنا امرأة حبست لي ولدي سنة كاملة ، وقد انقضت السنة ، فأخرج لي ولدي من الحبس .

فأتت المرأة إلى الأمير قراقوش وقالت له ذلك فقال لها :

– روحي الآن ، فلا جدال في أنه بقي له من السنة سبعة أيام سوى أمس وغداً .

فمضت المرأة وأعلمت السجّانين ، فقالوا لها :

– هذه نعمة ! ، فإذا كان الغد فروحي إليه وقولي له :

– قد انقضت سبعة أيام ! ،

فأصبحت المرأة وجاءت إلى قراقوش ، فلما نظر إليها قال :

– يا امرأة حتى تغرب الشمس

– يا غلام ! ، إذا غربت الشمسُ فأطلق لها ولدها من الحبس ، ولا ترجعي تجيبيه ، أو يحبسوه سنتين !! »

الحكاية السادسة عشرة :

حكى أن جندياً نزل في مركب وكان به فلاح وزوجته ، وكانت الزوجة حاملاً في سبعة أشهر ، وضربها الجندي فسقطتْ ، فذهب الفلاح إلى الأمير بهاء الدين قراقوش ، وشكا إليه الجندي فقال الأمير بهاء الدين للجندي :

– خذ زوجة الفلاح عندك ، وأطعمها واسقيها حتى تصير في سبعة أشهر ثم أعدها إلى زوجها !!

فقال الفلاح – يا مولانا ، تركت أجري على الله !! .

وأخذ زوجته وذهب .

وتمضي الحكايات على هذا النحو عن أحكام قراقوش تصور حمقه ، وغفلته ، إلى عسفه وظلمه الذي لا يراجع فيه .

وتختلف صورة قراقوش في الحقيقة كما يرويها التاريخ عن هذه الصورة الساخرة التي صوّره بها ابن مماتي ، والتي تظهر روح المصريين في السخرية من الحاكم المستبد ، ولعل الدافع الذي دفع بابن مماتي إلى تصوير بهاء الدين على هذه الصورة كان أمراً ما حدث له مع هذا الأمير ، لم يرضه أو ضايقه ، فأراد أن ينتقم منه على تلك الصورة الساخرة ، ولا شك أن ابن مماتي كمصري قبطي كان يكن لمثل هؤلاء الأتراك كرهاً لاعتقاده بأنهم دخلاء مغتصبون ، وأنهم تملكوا وتمكنوا بالقوة والبطش لا بالذكاء والمقدرة والعلم ، كما أنه باعتباره أحد رجال القلم كان يكنُّ حقداً دفيناً على أمثال بهاء الدين من الأمراء أصحاب السيف لأنهم كانوا المقدمين ، الحاصلين على كل شيء دون أصحاب العمائم والأقلام الذين لا يحصلون إلا على ما يجود به أولئك من فتات موائدهم .



مقامات أو منامات الوهراني

والوهراني أديب عالم مغربي من وهران بالجزائر الآن ، واسمه ركن الدين محمد بن محمد بن محرز الوهراني ، جاء إلى مصر في أخريات الدولة الفاطمية ، وعاصر انقضاء هذه الدولة واستيلاء شيركوه على السلطة ، وعقبه ابن أخيه صلاح الدين ثم قيام صلاح الدين على الأمر في مصر وتوليه السلطنة بعد وفاة آخر خلفاء الفاطميين .

وانتقل الوهراني إلى الشام ، والعراق ، وذهب إلى بغداد لكنه لم يستطب الإقامة بها فعاد إلى الشام ، وتنقل بين عواصمها دمشق وحلب وغيرها . والتقى فيها بجماعة من الأمراء والحكام من الأيوبيين ، وبجماعة من الوزراء ورجال الدولة أمثال القاضي ابن الزملكاني ، والقاضي الشهرزوري ، كما لقي جماعة من العلماء والقضاء والفقهاء والأدباء جاء ذكرهم في مقاماته هذه أو مناماته . وتوفي عام ٥٧٥ هـ .

وترك الوهراني مجموعة من نثره على صورة من النثر المسجوع[1] سميت بالمقامات تجاوزاً ، وبها منامات كذلك ورسائل ومن بينها المنام الكبير الذي يشبه إلى حد كبير في خياله وأماكن أحداثه في العالم الآخر رسالة الغفران لأبي العلاء المعري .

وقد أشاد به ابن خلكان في كتاب وفيات الأعيان . ويقول الدكتور عبد العزيز الأهواني في تقديمه للمجموعة : « وبعد فإن هذه المجموعة من النصوص تمتاز في تاريخ النثر الفني في الأدب العربي بمميزات ترفعها إلى مقام عال . ولا نكاد نجد في النثر العربي القديم نصوصاً فيها ما في كتابات الوهراني من حيوية وذكاء ولمحات تعبر عن شخصية الكاتب وتصور في دقة وبلاغة بعض جوانب

---

(١) قام على تحقيق مجموع مقامات الوهراني إبراهيم شعلان ومحمد نغش وراجعها الدكتور عبد العزيز الأهواني ونشر دار الكاتب العربي بمصر سنة ١٩٦٨ .

الحياة الفكرية والاجتماعية في عصر من عصور التحول في المجتمع العربي ، وهو عصر الانتقال من الدولة الفاطمية في مصر إلى الدولة الأيوبية .

وقد اعترف القدماء بفضل الوهراني وبراعته وخفة روحه ورشاقة أسلوبه ، وخاصة في المنام الكبير الذي أثنى عليه ابن خلكان ثناءً كبيراً .

وفي الحق أن منامات الوهراني ومقاماته وأسلوبه تُضيف إلى النثر العربي ثروة ، وتفتح للدارسين آفاقاً ، وتُقدم للقراء مادة شيقة ممتعة لا تقل عما اشتهر من عيون النثر العربي[1].

والمجموع الذي نشر تحت اسم منامات الوهراني ومقاماته ورسائله يحوي خليطاً من هذا كله ويستوقفنا اسم المقامات ، وهو مصطلح عرفناه يطلق على هذا اللون من القصص المسجوع الذي ابتكره وأبدع فيه بديع الزمان الهمذاني ، وأعقبه الحريري فأحدث في المقامات أشياء أعجبت الناس ولهجوا بها وحاولوا تقليدها .

وأهم ما تميزت به مقامات الهمذاني والحريري شخصية الراوية والبطل وهو أديب جوال ، يمر بمواقف مختلفة ، يرويها الراوية ويجيء على لسانه أقوال مسجوعة وشعر فيه كثير من التلاعب بالمحسنات البديعية .

ولم تحتفظ بعض المقامات المتأخرة أو التي جاءت بعد الحريري بهذا الطابع القصصي ولا بشخصية البطل الأديب الجوال ولا الراوية بل اكتفت بالشكل العام والأسلوب المسجوع المرصع بالمحسنات البديعية والشعر ، وطابع الفكاهة والسخرية ، والنقد الاجتماعي وهذا هو طابع مقامات الوهراني ومناماته .

والأصل في المقامة كما نعلم هو الخطبة القصيرة تلقى في مقام بعينه لذلك سميت المقامة ، ولعل المقامات الوهرانية التزمت بهذا الأصل الأول .

لكن الذي يسترعي الانتباه « المنامة » وهو مصطلح جديد يظهر على يد الوهراني ، ويتمثل في منامته الخيالية التي يحكى فيها حلماً أو مناماً في اليوم الآخر في الجنة والنار وعلى الأعراف . ويروى عَمّنْ يلقي من الناس هناك من

(١) المقدمة ص و

قديم الزمان ومعاصريه . وهم حشد مختلط من السياسيين والولاة والملوك والأمراء والعلماء والفقهاء ورجال الدين والأدباء .

يقول في المنام الكبير :

« ولقد فكر الخادم ليلة وصول كتابه إليه في سوء رأيه فيه وشدة حقده عليه ، وبقي طول ليلته متعجباً من مطالبته له بالأوتار الهزلية بعد الزمان الطويل ، وامتنع عليه النوم لأجل هذا إلى هزيع من الليل .

ثم غلبته عينه بعد ذلك فرأى فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت وكأن المنادي ينادي : هلموا إلى العرض على الله تعالى . فخرجت من قبري أيمم الداعي إلى أن بلغت إلى أرض المحشر ، وقد ألجمني العرق ، وأخذ مني التعب والفرق ، وأنا من الخوف على أسوأ حال ، وقد أنساني جميع ما أقاسيه عظيم ما أعانيه من شدة الأهوال . فقلت في نفسي : هذا هو اليوم العبوس القمطرير ، وأنا رجلٌ ضعيف النفس ، خوّار الطباع ، ولا صبر لي على معاينة هذه الدواهي . كنت أشتهي على الله الكريم في هذه الساعة في هذا المكان رغيفاً عقيبياً وزبديّة طاهجة ناشفة ، وجبن سناري ، ونعارة نبيذ صيدناني ، والحافظ العليمي ينادمني عليها بأخبار خوارزم ، وفخر الدين بن هلال يغني لي :

يا أهــل نعمــانٍ إلى وَجَناتِكُــمْ   تُعــزَى الشــقائِقُ لا إلى النُّعمــانِ

وأبو العز بن الذهبي يغازلني بعينيه ويسقيني الصّرف من النعّارة حتى يغرق حسّي ، وأغيب عن الوجود فتنقضي عنّي الشدائد وأنا في غير معقول .

فما انقضت أمنيتي حتى طلع عبد الواحد بن بدر من جانبي وقال لي الساعة رأيت عدة جوار يطلبونك ، مع بعضهم أولاده يزعمون أنهم منك ، وأنت تنفيهم عنك ، وبعضهم يدّعي أنك بعتهم لغيرك وهم حبَالى منك . فقلت له : هوّن عليك يا شيخ :

قد باعتْ الأسباط قبلي يوسفاً وهم هم

ووجمت من كلامه ساعة وقلتُ : لو أني مثل الحافظ العليمي الذي لا

يفتني إلا الغلمان الذكور ، كلما التحى واحدٌ باعهُ وأخذ آخر ما حلَّتْ بي هذه المصيبة . فقال لي عبد الواحد : ذكرتني بهذا القول . الساعة كان الحافظ العليمي يقلب عليك الأرض . فقلت له : وأين أجده ؟ فقال : هذا هو واقفٌ مع النبيه ابن الموصلي يمسح أفخاذه من البول . فقلت له : وأيّ شيءٍ أصاب النُّويهْ المسكين ؟ فقال : إنه لما سمع انشقاق السماء الدنيا خرى على ساقاتِه من الزمع فقلت له : النويهة معذور . وسرت إلى نحوك وناديتكِ فأقبلت إليَّ تجري ، وما كلمتني كلمة دون أن كلمتني كلمة موجعة وشتمتني ، ولعنتني وطيَّرت في وجهي خمس أواقٍ بُصاق كعادتك عند الكلام ، وقلت لي : يا عدو الله ما كفاك أنك خاطبتني بنون الجمع وكاف الخطاب حتى ذكرت اسمي بغير كنية ولا لقب ؟ . والله لأتوصلنَّ إلى أذيّتك بكل ما أقدر عليه من القبيح . فقلت لك : يا كافر القلب أما ترتدع ، أما ترعوي أما ترى السماوات تتفطر مثل فطاير المزّة في الكوانين ؟! أما ترى الملائكة منحدرة من السماء إلى الأرض زرافات ووُحْداناً؟! أما ترى الميزان يرتعد بما فيه مثل المحموم إذا أخذه النافض البلغمي يوم البحران . أما ترى الصراط يرقص بمن عليه ؟!

رقــص القــلوص براكــبٍ مســتعجل »

ويروي بعض المشاهد في اليوم الآخر ويلقى جماعة ممّن عرفوا في الدنيا بأعمالهم السيئة وهم يساقون إلى الجحيم وبعضهم ممن على الأعراف وبعض ممن حسنت أعمالهم يردون الحوض ثم يقول :

« .. ثم ترتفع الضوضاء وإذا بموكبٍ عظيم قد أقبل من المقام المحمود كأنهم الشموس والأقمار ، ركبان على نجائب من نور يؤمون المشرعة العظمى من الحوض المورود فسألنا عنهم فقيل لنا سيد المرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ».

سيرة صلاح الدين

أو « النوادر السلطانية » لابن شداد

تعتبر سيرة صلاح الدين أو النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية التي كتبها ابن شداد عن حياة البطل الإسلامي المجاهد صلاح الدين الأيوبي من أهم السير في العصر الأيوبي . وإن لم تكن الوحيدة التي تعرضت لوقائع حياة الرجل وحروبه ، فقد تصدى لتلك الوقائع جماعة من كتاب العصر ومؤرخيه أمثال عماد الدين الأصبهاني كاتبه والأديب المعروف في كتابيه « الفتح القدسي » و « البرق الشامي » . وعز الدين بن الأثير في « الكامل في التاريخ » وأبو شامة في كتاب « الروضتين » ، وابن واصل في « مفرج الكروب » .

إلا أن كتاب أبي شامة أفرد كتابه للرجل وحده ، وأبرز عناصر شخصيته وبعض دقائقها مما تكشف عنه بعض التصرفات التي لم تعن بعض كتاب سيرته الآخرين ، وربما كان لقرب أبي شامة من صلاح الدين وبخاصة في السنوات الخمس الأخيرة من حياته من سنة ٥٨٤ هـ إلى وفاته سنة ٥٨٩ هـ أثر واضح في تدوين بعض ما رأى وما سمع بنفسه دون أن ينقل عن أحد .

وابن شداد مؤلف الكتاب فقيه وليس أديباً أو كاتباً ، ولهذا جاء أسلوبه طلقاً مرسلاً لم تقيده محسنات البديع ، كالسجع والجناس ولم تثقله تلك الحلى فتخفي بعض معانيه ، بل كان متحرراً منها يقصد إلى الحقيقة والهدف المراد قصداً في يسر وسلاسة .

وابن شداد هو أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الأسدي ، لقب ببهاء الدين ، وولد بالموصل سنة ٥٣٩ هـ ، وحفظ القرآن صغيراً ، وتعلم كغيره من أبناء المسلمين ، فتلقى أصول الثقافة العربية من القرآن والحديث والعربية ، وقرأ بالسّبع ، وأتقن القراءات والتفسير ، وعلم الحديث ، وتفقه على مذهب

الشافعي ، وأخذ العلم على جماعة من أئمة العصر في بلده الموصل ثم انتقل إلى بغداد ، وعين معيداً بالمدرسة النظامية ، وعاد بعد أربع سنوات إلى بلده الموصل ليتولى التدريس بمدرسة القاضي الشهرزوري ، وتلقى عليه العلم بها جماعة .

وحج وزار سنة ٥٨٣ هـ ، وذهب إلى بيت المقدس في تلك السنة ، ثم ذهب إلى دمشق وكان صلاح الدين في تلك الأثناء محاصراً لقلعة كوكب فلما عرف بوجوده بالشام استدعاه وأكرمه ، وجمع للسلطان كتاباً في الجهاد وفضائله .

واتصلت أسبابه بصلاح الدين منذ ذلك الحين فولاه قضاء العسكر سنة ٥٨٤ هـ والحكم ببيت المقدس بعد فتحه . وصار من المقربين للسلطان ، ومن جلسائه الأثيرين ، يكاد لا يفارقه في حل أو ارتحال ، وكان صلاح الدين يأنس إليه ويستشيره في كثير من أموره . وظل ملازماً له حتى آخر يوم من حياته .

وبعد وفاة السلطان توجه إلى حلب فلزم ابنه الظاهر غازي وسفر بين أبناء صلاح الدين لجمع كلمتهم ، وكانوا يجلونه ويكنون له المحبة لما عرفوه من قربه إلى قلب أبيهم .

وتولى قضاء حلب زمناً أيام الظاهر غازي . وبلغ عنده رتبة الوزارة ، فكان يستشيرة في كل أموره .

وعني ابن شداد بالعلم والعلماء في حلب ، ورتب المدارس وعمّرها ، ورعى العلماء والفقهاء واستقدمهم إليها ، وعمّر مدرسة خاصة من ماله وألحق بها داراً للحديث .

وظل ابن شداد على نشاطه ، ومنزلته السامية في حلب طوال أيام الظاهر وابنه العزيز ... واعتزل في آخر أيامه بمنزله يدرّس الحديث كل يوم حتى توفي سنة ٦٣٢ هـ .

وترك بعض مؤلفات في الفقه والحديث فضلاً عن سيرة صلاح الدين .

سـيرة صـلاح الدين :

ويقدم لكتاب النوادر بمقدمة يقول فيها بعد الحمد والشهادة :

« وبعد ، فإني لمّا رأيت أيام مولانا السلطان الملك الناصر جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان ، رافع علم العدل والإحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين . منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين ، خادم الحرمين الشريفين أبي المظفر يوسف بن أيوب ابن شاذي ، سقى الله ضريحه صوب الرضوان ، وأذاقه في مقر رحمته حلاوة نتيجة الإيمان وقد صدقت من أخبار الأولين ما كذبه الاستبعاد ، وشهدت بالصحة لما روى من نوادر الكرام الأجواد ، وحققت وقفات شجعان مماليكها ما قدحت فيه الشكوك من أخبار الشجعان .

ورأيت بالعيان من الصبر على المكاره في ذات الله ما قوى بها الإيمان ، وعظمت عجائبها عن أن يحيط بها خاطر ، أو يُجنّها جَنان ، وجلّت نوادرها أن تُحدّ ببيان لسان ، أو تُسطّر في طرس ببنان . وكانت مع ذلك من قبيل لا يمكن الخبير بها إخفاؤها ، ولا يسع المطلع عليها إلا أن تُروى عنه أخبارها وأنباؤها . ومسّني من رقّ نِعمتِها وحقّ محبتها وواجب خدمتها ما يجبُ عليّ به إبداءُ ما حققتُ من حسناتِها ، ورواية ما علمت عن محاسن صفاتها .

ورأيت أن اقتصر من ذلك على ما أملاهُ على العيان أو الخبر الذي يقاربُ مضمونه درجة الإيقان . وذلك جزء من كل ، وقِلّ من جُلّ . ليستدلّ بالقليل على الكثير ، وبالشعاع على المستطيل بعد المستطير .

وسميت هذا المختصر من تاريخها « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » وجعلته قسمين أحدهما في مولده – رحمه الله – ومنشئِه وخصائِصه ، وأوصافِه ، وأخلاقه المرْضية ، وشمائله الراجحةِ في نظر الشرع الوفية .

والقسم الثاني في تقلبات الأحوال به ، ووقائعه وفتوحه ، وتواريخ ذلك أيام حياته – قدّس الله روحه . والله المستعانُ في الصيانة عن هفوات اللسان والقلم ، وجريان الخاطر لما فيه مزلة . وهو حسبي ونعم الوكيل .

ونختار من كل من القسمين بعض ملامح لشخصية هذا البطل الفذ وأعماله وبطولاته .

قال في ذكر « ماشاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية » « وكان رحمه الله - حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، وقد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء . وفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء ، فتحصَّل من ذلك سلامة عقيدة من كدر التشبيه ، غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه ، جارية على نمط الاستقامة ، موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضية عند أكابر العلماء .

وأما الصلاة فإنه كان رحمه الله تعالى شديد المواظبة عليها بالجماعة ، حتى إنه ذكر يوماً إن له سنين ما صلَّى إلا جماعة ... وكان يواظب على السنن والرواتب ، وكان له صلواتٌ يصليها إذا استيقظ بوقت في الليل ، وإلّا أتى بها قبل صلاة الصبح ...

وأما الزكاةُ فإنه مات رحمه الله تعالى ولم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة ، وأما صدقة النفل فإنها استنفذت جميع ما ملكه من الأموال . فإنه ملك ما ملك ولم يُخلّف في خزانته من الذهب والفضةِ إلا سبعةً وأربعين درهماً ناصرية ، وجراماً واحداً ذهباً . ولم يخلف مِلكاً ولا داراً ولا عقاراً ، ولا بستاناً ولا قريةً ، ولا مزرعةً ، ولا شيئاً من أنواع الأملاك .

ويكون - رحمه الله تعالى - يحب سماع القرآن العظيم ويستجيد إمامه ، ويشترط أن يكون عالماً بعلم القرآن العظيم ، متقناً لحفظه . وكان يستقرىء من يحرسه في الليل وهو في برجه الجزءين والثلاثة والأربعة وهو يسمع . وكان يستقرىء وهو في مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين ، والزائد على ذلك .

وكان رحمه الله تعالى خاشع القلب رقيقة ، غزير الدمعةِ إذا سمع القرآن يخشعُ قلبه ، وتدمع عينه في معظم أوقاته .

وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، وأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به . وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث . إجلالاً له . وإن كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه ، وسعى إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية وروى عنه أحاديث كثيرة .

ولقد كان رحمه الله عادلاً رءوفاً رحيماً ، ناصراً للضعيف على القوى ، وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاءُ والقضاةُ والعلماءُ ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير ، وعجوزٍ هرمةٍ وشيخٍ كبير . وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً .

ولم يردَّ قاصداً أبداً ولا منتحلاً ، ولا طالب حاجة ، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه .

ولقد رأيته واستغاث إليه إنسانٌ من أهل دمشق يقاله له ابن زهير على تقي الدين عمر ابن أخيه ، فأنفذ إليه ليحضره إلى مجلس الحكم . وكان تقي الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ولكنه لم يحابه في الحق .

ولقد كان – رحمه الله تعالى – من عظماء الشجعان ، قوي النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهـوله أمر . ولقد رأيتُه يعطي دستوراً في أوائل الشتاء ، ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عددهم الكبير .

وكان – رحمه الله تعالى – إذا اشتدت الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبيٌّ واحد على يده جنيبٌ ، ويخرق من الميمنة إلى الميسرة ، ويرتبُ الأطلاب[1] ، ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها . وكان يشارف العدو ويجاوره رحمه الله .

ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ، ووطنه وسكنه ، وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمةٍ تهبُّ بها الرياح ميمنةً وميسرة .

---

(١) الأطلاب : جمع طلب لفظه كردية تعني الأمير الذي يقود مائتي فارس .

وكان قد أخذ كوكب[1] في ذي القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة وأعطى العسكر دستوراً ، وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر ، وكان مقدمها أخاه الملك العادل – عز نصره – فسار معه ليودعه وليحظى بصلاة العيد في القدس الشريف - حرسه الله تعالى – وسرنا في خدمته . ولما صلّى العيد في القدس وقع له أن يمضي إلى عسقلان ، ويودعهم بعسقلان ثم يعود على طريق الساحل ، يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ، ويرتب أحوالها ، فأشاروا عليه أن لا يفعل ، فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدة قليلة ، والفرنج كلهم بصور ، وهذه مخاطرة عظيمة ، فلم يلتفت رحمه الله ، وودع أخاه والعسكر بعسقلان ، ثم سرنا في خدمته إلى الساحل طالبين عكا ، وكان الزمان شتاء ، والبحر هائجاً شديداً ، وموجه كالجبال كما قال تعالى . وكنت حديث عهد برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندي حتى خيّل لي أني لو قال لي : إن جُزْتَ البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا لما كنتُ أفعل . واستسخفتُ رأي من ركب البحر رجاء دينار أو درهم . واستحسنت رأي من لا يقبل شهادة راكب البحر . هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر . فبينا أنا في ذلك إذ التفت إليّ – رحمه الله – وقال : أما أحكي لك شيئاً في نفسي ؟! إنه متى يسّر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد ، وأوصيتُ وودّعتُ وركبتُ هذا البحر إلى جزائره ، واتبعتهم فيها ، حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفرُ بالله أو أموت » .

ومما يرويه عن حلمه وعفوه قال : لقد كان متجاوزاً ، قليل الغضب ، ولقد كنت في خدمته بمرج عيون قبل خروج الإفرنج إلى عكا – يسر الله فتحها - وكان من عادته أن يركب في وقت الركوب ثم يَنْزِلَ فيمد الطعام ، ويأكل مع الناس ، ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها ، ثم يستيقظ من منامه ويصلّي ، ويجلس خلوةً وأنا في خدمته ، نقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه . وقد قرأ عليّ كتاباً مختصراً تصنيف الرازي ... ونزل يوماً على عادته ، ومُدَّ الطعام بين يديه ثم عزم على النهوض ، فقيل له إن وقت الصلاة قد قرب ، فعاد إلى الجلوس وقال : نصلّي وننام ثم جلس يتحدث حديث متضجّر ، وقد خلا

(١) قلعة على الجبل المطل على طبرية .

المكان إلا ممن لزم ، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده ، وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين ، فقال له : أنا الآن ضجران ، أخّرها ساعة فلم يفعل ، وقدم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده ، وفتحها بحيث يقرأها ، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه ، فقال : رجلٌ مستحق . فقال : يوقع المولى له ، فقال : ليس الدواة حاضرة الآن ... فقال له المخاطب (المملوك) : هذه الدواة في صدر الخركاه[1]... فالتفت رحمه الله فرأى الدواة ، فقال : والله لقد صدق ، ثم اعتمد على يده اليسرى ، ومَدَّ يده اليمنى فأحضرها ووقع له . فقلتُ : قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وما أرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق . فقال : ما ضرَّ ناشيء ، قضينا حاجته وحصل الثواب » .

ومما يرويه عن مروءته واحتفائه بالعلماء قال :

ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين وخمسمائة رجلٌ جمع بين العلم والتصوف ، وكان من ذوي الأقدار ، وأبوه صاحب تدريز ، فأعرضَ هو عن فن أبيه ، واشتغل بالعلم والعمل ، وحج ووصل زائراً لبيت المقدس ، ولما قضى لبانته منه ورأى آثار السلطان - رحمه الله - فيه وقع له زيارته ، فوصل إلينا ، إلى المعسكر المنصور ، فما أحسست به إلا وقد دخل على الخيمة فلقيته ورحبت به ، وسألته عن سبب ذلك ووصوله ، فأخبرني بذلك وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة ، فعرّفتُ السلطان بذلك في ليلة وصول هذا الرجل فاستحضره وروى عنه حديثاً ، ثم انصرفنا ، وبات عندي في الخيمة ، فلما صليتُ الصبح أخذ يودّعني فقبّحتُ له المسير بدون وداع السلطان ، فلم يلتفت ، ولم يلو على ذلك ، وقال : قد قضيتُ حاجتي منه ولا غرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته ، وانصرف من ساعته . ومضى على ذلك ليال ، فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله ، فظهر عليه آثار الغضب كيف لم أخبره برواحه ، وقال : كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسّهُ منا ؟ . وشدّ النكير عليّ في ذلك ، فما وجدتُ بداً من أن أكتب

(١) لفظ فارسي معناه نوع من الخيام .

كتاباً إلى محيي الدين قاضي دمشق كلفته فيه السؤال عن حال الرجل وإيصال رقعة كتبتها إليه طي كتابي أخبره فيها بإنكار السلطان رواجه من غير اجتماعه به ، وحسّنتُ له فيها العود . وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك ، فما أحسست به إلا وقد عاد إليّ ، فرحّبَ به السلطانُ وانبسط معه ، وأمسكه أياماً ثم خلع عليه خلعةً حسنةً ، وأعطاه مركباً لائقاً ، وثياباً كثيرة يحملها إلى بيته وأتباعه وجيرانه . وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاء لأيامه .

ومن مشاهداته لحروب صلاح الدين وصف الموقعة الكبرى عند عكا فقال :

« وذلك أنه لما كان يوم الأربعاء الحادي والعشرون تحركت عساكر الإفرنج حركة لم تكن لهم بمثلها عادة ، فارسهم وراجلهم ، وكبيرهم وصغيرهم ، فاصطفوا خارج خيمهم ، قلباً وميمنة وميسرة وفي القلب الملك ، وبين يديه الإنجيل محمولاً ، مستوراً بثوب أطلس مغطّى ، يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف ، وهم يسيرون بين يدي الملك .

وامتدت الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الإسلام من أولها إلى آخرها ، وكذلك ميسرة العدو في مقابلةِ ميمنتنا إلى آخرها ، وملكوا رءوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم إلى النهر وطرف ميسرتهم إلى البحر .

وأما العسكر الإسلامي المنصور فإن السلطان أمر الجاووش أن نادِ في الناس « ياللإسلام » وعساكر الموحدين . فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة ووقفوا بين أيدي خيامهم ، وامتدت الميمنة إلى البحر والميسرة إلى النهر كذلك أيضاً .. وكان هو في القلب وفي ميمنة القلب ولده الملك الأفضل ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البلنكري ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين بن نور الدين ...

هذا والسلطان يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم على القتال ويدعوهم إلى النزال ويرغبهم في نصر دين الله ، ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ، ومضى فيه مقدار أربع ساعات وعند ذلك تحركت ميسرةُ

العدو على ميمنة المسلمين ، فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلبات كثيرة ، وتكاثروا على الملك المظفر وكان في طرف الميمنة على البحر ، فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم ، فينال منهم غرضاً ، فلما رأى السلطان ذلك ظن به ضعفاً ، وأمدّه بأطلاب عدة من القلب حتى قوى جانبه وتراجعت ميسرة العدو واجتمعت على تل مشرف على البحر .

ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع ، وتحركوا نحو ميمنة القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم . ولقد رأيت الرجّالة تسير سير الخيالة ولا يسبقونها ، وهم يسبقون حيناً . وجاءت الحملة على الديار بكرية كما شاء الله تعالى وكان بهم غرة عن الحرب ، فتحركوا بين يدي العدو ، وانكسروا كسرة عظيمة ، وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة ، واتبع العدو المنهزمين إلى العياضية ، فإنهم استداروا حول التلّ ، وصعد طائفة من العدو إلى خيمة السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك ...

وأما الميسرة فإنها ثبتت لأن الحملة لم تصادفها ، وأما السلطان فأخذ يطوف على الأطلاب فينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ، ويحثهم على الجهاد وينادي فيهم « يا للإسلام » ، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس ، وهو يطوف على الأطلاب ، ويخرق الصفوف ، ويأوي إلى تحت التل الذي كان عليه الخيام .

وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتجمعت الرجال وتداعت وتراجع الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ، ونصر الإيمان ، وظل الناس في قتل وطرح ، وضرب وجرح إلى أن اتصل المنهزمون السالمون إلى عسكرهم فهجم المسلمون عليهم في الخيام فخرج منهم أطلاب كانوا أعدوها – خشية من مثل هذا الأمر – مستريحة فردوا المسلمين ، وكان التعب قد أخذ من الناس ، والعرق قد ألجمهم ، فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر – يخوضون في القتلى ودمائهم إلى خيامهم فرحين مسرورين .

وعاد السلطان في ذلك اليوم إلى خيمته فرحاً مسروراً » .

ووقع السلطان صلح الرملة مع الملك ريتشارد قلب الأسد والذي يسميه ابن شداد والمؤرخون المسلمون الإنكتار . وصرف الجيوش ، وعاد إلى دمشق سنة ٥٨٩ هـ ولم يلبث أن مرض . قال ابن شداد في مرضه ووفاته :

« ولما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية وكانت في باطنه أكثر من ظاهره ، وأصبح في يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسلاً عليه أثر الحمّى ، ولم يظهر ذلك للناس ، لكن حضرت أنا والقاضي الفاضل ، ودخل ولده الملك الأفضل ، وطال جلوسنا عنده ،وأخذ يشكو من قلقه في الليل ، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ثم انصرفنا والقلوب عنده . فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة الملك الأفضل ، ولم تكن القاضي الفاضل عادته ذلك فانصرف ودخلتُ أنا إلى الإيوان وقد مد الطعام ، والملك الأفضل قد جلس في موضعه ، فانصرفت ، وما كان لي قوة على الجلوس استيحاشا .

ثم قال : ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف ، ولقد جلسنا في سادس مرضه وأسندنا ظهره إلى مخدة ، وأحضر ماء فاتراً ليشربه عقب شرب الدواء لتليين طبيعته فشربه فوجده شديد الحرارة ، فشكا من شدة حرارته ، وعرض عليه ماء ثانٍ فشكا من برده ، ولم يغضب ولم يصخب ، ولم يقل سوى هذه الكلمات : « سبحان الله ألا يمكن أحد تعديل الماء » . فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء . والقاضي الفاضل يقول لي : « أبصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ، والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره » .

واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ، ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه . قال ابن شداد : « ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر وهي الثانية عشر من مرضه اشتد مرضه ، وضعفت قوته ... وحال بيننا وبينه النساء ..

قال : وبات تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله تعالى والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكره الله تعالى .

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر » .

كتب الأدب الجامعة :

التيفاشي وكتاب سرور النفس

أو « بغيـة الطلب »

والتيفاشي عالم أديب مغربي ، وفد إلى مصر والشام ، وأقام بالقاهرة زمناً ، اجتمع فيها بصفوة من رجال مصر وعلمائها وأدبائها وشعرائها وترك لنا ذخيرة أدبية طيبة منها هذا الكتاب وكتبه الأخرى التي سنشير إليها .

أما الرجل فاسمه أحمد بن يوسف بن أبي بكر بن حمدون ، ويلقب بشرف الدين ، ويعرف بكنيتين هما أبو الفضل وأبو العباس[1].

والنسبة إلى تيفاش تحملها أسرة أحمد كلها لأنها تنتمي إلى بلدة تيفاش ، مكانها الآن قرب بلدة قسطنطينة الجزائرية .

وقد نشأ أحمد في ظل أبيه القاضي ، ودرس عليه كثيراً من العلوم وبخاصة علوم الأوائل التي جمع والده كثيراً من الكتب المتعلقة بها ، ومنها الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية . وبعد أن شب وتعلم في بلده غادرها مشرّقاً ، فألقى عصا ترحاله أول الأمر بتونس ، فسمع بها على بعض الأساتذة ، وغادرها صبياً إلى مصر ، والتقى فيها بعبد اللطيف البغدادي صاحب الرحلة (٥٥٧ - ٦٢٩ هـ) فقرأ عليه بعض علوم الأوائل مع النحو واللغة وعلم الكلام .

وكان حضور عبد اللطيف البغدادي إلى مصر موافقاً لنشوب النزاع بين أبناء صلاح الدين ، ونهوض الملك العزيز عثمان لحصار أخيه الأفضل بدمشق ، وعوده منها دون أن ينال شيئاً سنة ٥٩٠ هـ . وصحبه في رحلة العودة موفق الدين البغدادي .

وتردد في أثناء وجوده بمصر على الشام ، وذهب إلى دمشق فالتقى بعلمائها

(١) راجع ترجمته في مقدمة كتاب سرور النفس للدكتور إحسان عباس - طبع بيروت سنة ١٩٨٠ .

وعلى رأسهم آنذاك العلامة اللغوي الأديب تاج الدين الكندي الذي أخذ عليه كثير من أدباء العصر وشعرائه. وأقام في دمشق بعض الوقت ثم عاوده الحنين إلى وطنه فغادرها إلى قفصه حيث تولى بها القضاء زمناً، وبها تزوج ورزق ثلاثة أطفال. ولكن القلق بدأ يساوره بعد أن ترك القضاء، وعاوده الحنين إلى المشرق ودمشق خاصة. ولم يلبث أن ماتت زوجه في قفصه، فزاد ذلك من عزمه على الرحيل، وباع أملاكه وما يثقل عليه حمله، «واتخذ لنفسه مركباً، وشحنه بما تبقى من متاعه، وحمل فيه أبناءه الثلاثة وأقلع قاصداً الإسكندرية»[1]، وفيما هو بحذاء ساحل برقة هبت على المركب ريحٌ شديدة حطمته فغرق أولاده الثلاثة ومعظم ما معه من المتاع، ونجا هو بحشاشة نفسه على لوح من الخشب، واستنقذ عربُ برقة بعض متاعه، وأخذوا المتاع معهم ليبيعوه في الاسكندرية، فوجد الفرصة سانحةً لمرافقتهم، ولكنه خاف إن هو أعلن أنه صاحب ذلك المتاع أن يقتلوه طمعاً في الاستيلاء على أمواله، فصاحبهم متنكراً. ولما بلغ الاسكندرية صنع مقامة يذكر فيها ما جرى له وبلغت مسامع الملك الكامل سلطان مصر آنذاك، فكتب إلى والي الاسكندرية ليخلص له ماله، فخلص له منه جملة.

وكان أن استدعاه الملك الكامل إلى مجلسه لحبه العلم وتقريبه العلماء والأدباء فقد كان يبيت عنده في القلعة جماعة منهم ينصب لهم أسرة لينامُوا عليها بجانب سريره ليسامروه.. وكان للمغاربة حظ وافر عنده.

وهكذا عاش التيفاشي بالقاهرة في كنف الكامل ورعايته حتى سنة ٦٣٠ هـ التي خرج فيها الكامل قاصداً آمد، فصحبه التيفاشي لشوق هزه للسفر إلى دمشق وتجديد عهده بها. ومن دمشق ذهب إلى حلب ثم سار متوجهاً إلى آمد حيث الملك الكامل فوجده في طريقه عائداً إلى مصر فسار في ركبه، وجاء إلى مصر ثانية فسكن بها حتى وفاته.

وعند تولي ابن يغمور وزارة سلطان مصر قرب إليه بعض المغاربة، والتقى في مجلسه أدباء المصريين والمغاربة، وممن كان يعمر مجلس ابن يغمور (ت سنة

---

(١) المقدمة ص ١٤ نقلاً عن بغية الطلب ٢/١٦٠.

٦٦٣ هـ) ابن سعيد الأندلسي صاحب المغرب والمشرق ، والجزار الشاعر المصري المشهور ، وسيف الدين المشدّ قريب ابن يغمور وقد أهداه ابن سعيد كتاب « المغرب » ثم أجازه روايته .

وتردد على منزل جلال الدين المكرم ، وتعرف في القاهرة بابن العديم حين حلّها رسولاً من صاحب حلب ، وأهداه كتاباً من مؤلفاته بخطه كما أنشده مقاطيع من شعره .

وأصيب التيفاشي بالصمم في أخريات حياته ، وأصيب في عينيه حتى عمي ، إلا أنه عوفي بعد العلاج وأبصر ، ومرض فأدركه الموت سنة ٦٥١ هـ . ودفن في القاهرة .

وكان التيفاشي على قدر من الكياسة والذكاء ، مع ظرف وميل إلى التحرر من القيود وربما فسر لنا ذلك بعض تصرفاته التي يرى فيها بعض المتزمتين خروجاً على حدود الدين والوقار . ولعله كان يبيح لنفسه شرب الخمر والتمتع بملاذ الدنيا . وينعكس هذا الميل على كتبه التي يكثر فيها ذكر الملاذ ، وقد يسرف في المجون ، وذكر القصص وأخبار النساء التي تدخل في إطار الأدب المكشوف أو النوادر المتعلقة بالجنس يرويها في صراحة ودون مواربة . ولعل هذا الاتجاه لم يكن غريباً في عصره وما سبقه من العصور عند جماعة من الأدباء دون كثير ممن كان يحتشم ولا يتبذّل .

وكان ميل التيفاشي إلى الفلسفة والعلوم الطبيعية بالدرجة الأولى ، وكان اهتمامه بعلم الجواهر والأحجار ، والنجوم ، وما إلى ذلك ، ثم كانت هوايته للأدب والشعر ، ويروي عنه شعرٌ . كما ألف كتباً في الأدب .

يقول إحسان عباس[1]: « فأما الاتجاه الأدبي فقد يبدو في بعض الأحيان ظلاً للاتجاه العلمي ، فهذا الشغف بالشعر الذي قيل في النجوم والرياح وتقلب الفصول ، والحر والبرد والشموع والنيران يشير إلى ذلك . وعلى هذا لم يسمح التيفاشي لصوت النقد بأن يرتفع إلا حين رأى التنوخي يكثر من تشبيه المحسوس بغير المحسوس » .

(١) مقدمة سرور النفس ص ٤٤ .

وله شعر حسن ونثر جيد ، ولم يصلنا شيء من إنشائه ، فأما نثره التأليفي فهو مستساغ لا يرمي فيه إلى الإكثار من السجع وبقية المحسنات . وشعره معظمه مقطعات وصفية أو إخوانية . وقد أحصى له إحسان عباس ثمانية عشر كتاباً بعضها منسوب إليه خطأ .

ومن أشهر مؤلفاته :

١ - تفسير التيفاشي ذكره القلقشندي وقال إنه تغلب عليه القصص .

٢ - كتابٌ في علم البديع متوسط الحجم ذكره القلقشندي كذلك .

٣ - كتاب في المسالك .

٤ - قادمة الجناح في آداب النكاح .

٥ - مشكاة أنوار الخلفاء وعيون أخبار الظرفاء قيل عنه إنه كتاب مطول حسنٌ ممتعٌ ضاهي به عقد ابن عبد ربه .

٦ - كتاب في التاريخ .

٧ - أزهار الأفكار في جواهر الأحجار - عده القلقشندي أحسن مصنف في الأحجار ونقل عنه في مواضع وكذلك فعل الصفدي ، ويكاد الغزولي أن يكون قد لخصه في مطالع البدور وطبع بعناية المستشرقين غير مرة ، وطبع بالقاهرة سنة ١٩٧٧م .

٨ - سجع الهديل في أخبار النيل . اعتمد عليه السيوطي في حسن المحاضرة في غير موضع .

٩ - المنقذ من التهلكة في دفع مضار السمائم المهلكة .

١٠- الدرة الفائقة في محاسن الأفارقة أهدى منه نسخة إلى ابن العديم عند حضوره إلى القاهرة .

١١- درة اللآل في عيون الأخبار ومستحسن الأشعار .

١٢- الديباج الخسرواني في شعر ابن هاني .

١٣- الشفا في الطب المسند عن المصطفى .

١٤- نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب . ومنه عدة نسخ في مكتبات عربية ببغداد والرباط .

١٥- متعة الأسماع في علم السماع . في الموسيقى وأنواع الرقص وخيال

الظل . ومنه نسخة وحيدة بالمكتبة العاشورية . وقد عرّف بالكتاب ونشر فصلين منه محمد بن تاويت الطنجي بمجلة الأبحاث .

١٦- سرور النفس وهو ما نعرض تلخيص موضوعه وإيراد نماذج منه .

سـرور النفـس

وهو ما لخصه ابن منظور عن كتاب التيفاشي الأصلي الكبير والذي أسماه « فصل الخطاب » قال عنه الصفدي : « له كتاب كبير إلى الغاية ، وهو في أربع وعشرين مجلدة جمعه في علم الأدب وسماه « فصل الخطاب » ورتبه وبوّبه ، وجمع فيه من كل شيء وتعب عليه إلى الغاية » .

ويفترض الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب أن هذا الكتاب موسوعة تشمل الأدب والعلوم والتاريخ وأنها في أربعين جزءاً . وتتناول :

١ - مظاهر الطبيعة كالليل والنهار والشمس والقمر والسماء والكواكب .
٢ - العالم الحيواني بما فيه من أصناف المخلوقات .
٣ - عالم الأحجار والمعادن .
٤ - جزء في الطب عنوانه : الشفاء .
٥ - جزء في الموسيقى عنوانه : متعة الأسماع .
٦ - تاريخ الأمم .

وأما علاقة سرور النفس بفصل الخطاب فيرى الصفدي أن ابن منظور حصل على أكبر عدد من أجزاء الموسوعة فاختصرها في عشرة مجلدات وسماها « سرور النفس »[1].

ولم يبق من هذه المجلدات العشر سوى مجلدين أحدهما : « نثار الأزهار في الليل والنهار » والثاني : « طل الأسحار على الجلنار في الهواء والنار » .

وتتجلى معارف المؤلف العلمية واضحة فيما بقى لنا من أجزاء الكتاب ، كما تتكشف معارفه الأدبية . « فهو إذ يقدم صورة مسهبة للنشاط الشعري

(١) مقدمة الكتاب تحقيق إحسان عباس ص ٣٢ .

المعاصر المتصل بما يعالجه من موضوعات نجده يردد دواوين الشعراء من مختلف العصور ، إلا أن ذوقه المحدث يبعده كثيراً عن الشعر القديم . ولما كان ما يروقه من الشعر هو الصور ، فإنه يتكىء كثيراً على الشعراء المصورين كابن المعتز وكشاجم ، والسريّ ، وابن طباطبا . ولهذا السبب نفسه يجد ضالته بيسر في كتب التشبيهات ككتاب تشبيهات ابن أبي عون ، وكتاب تشبيهات الكتاني ، والمجموعات الشعرية مثل اليتيمة وغيرها من كتب الثعالبي مثل خاص الخاص ومن غاب عنه المطرب . والكتب التي تلتقي مع كتابه في موضوعات الليل والنهار والسحاب. والمطر وما شاكل ذلك . وأهم كتاب قدم له مادة في هذا المجال هو كتاب المعاني للعسكري[1].

ونمثل من الكتاب ببعض ما جاء في أبوابه .

قال في الباب الأول : « في المَلَوَين الليل والنهار » .

« في التنزيل العزيز : ﴿ وآية لهم الليل نسلخُ منه النهارَ فإذا هم مظلمون ، والشمسُ تجري لمستقرٌ لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمرَ قدّرناهُ منازلَ حتى عاد كالعُرجونِ القديم ، لا الشمسُ ينبغي لها أن تسبقَ القمر ، ولا الليلُ سابقُ النّهار ، وكلٌّ في فلكٍ يسبحون ﴾ .

الليل والنهار يسميان المَلَوَيْن، ويسميان الجديدين والأحدين والعصرين ، والقرنين والبردين والأبردين ، والخافقين والدائرين والحاذقين والخيطين . وهما زغمتا الدهر ، وابنا سمير ، وابنا سبات . وذكر أبو العلاء المعري الحرْسين . والحرسُ الدهرُ ، ولم يسمعْ مثنّى إلا في قوله :

ويحقُّ في رُزْءِ الحسين تغيُّر الحـــر ... ســـين ، بَلَهَ الدر في الأصـــدافِ

وجمع الحرسِ أحرسٌ ، وقد يجمعُ مَا يثنّى ويُثَنّى ما يجمعُ ، وما ذكر من مثنى هذا الباب مسموعٌ لا مقيس . وسُمّيا ملوين لأنهما يملآن الآفاق نوراً وظُلمة ، وسميا جديدين لتجددهما بالضياء والإظلام على الدوام . وسمّى النهار نهاراً لظهور ضوءِ الفجر يجري كالنهر من المشرق إلى المغرب معترضاً حتى يأتي على

(١) المصدر نفسه ص ٣٧ .

الظلام . وسُمّيَ الليل لأنه يُلالي بالأشخاص حتى يتشكك الناظر في الشيء فيقول : هو هو ، ثم يقول : لا لا فقد لا لا بها .

والنهار ضد الليل ، ولا يُجمع كما لا يجمع العذاب والسَّراب ، فإن جمعتَ قلتَ في قليله أنهر ، وفي الكثير نُهُرٌ بالضم . والنهارُ ذكر الحُبارَى .

وقال[1]: محمد بن أحمد بن طباطبا الحسيني :

وتنوفــةٍ مــدٌّ الضمـير قطعتُهـــا ... والليــلُ فــوقَ إكامِها يتربَّــعُ
ليــلٌ يمــدُّ دجــاهُ دون صباحـــه ... آمــال ذي الحرص الذي لا يقنــعُ
باتتْ كواكِبُــه تحـوطُ بقـــاءَهُ ... في كـلّ أُفقٍ منه نجـمٌ يلمـــعُ
زهـرٌ يَحـثْنَ على الصبـاح طلائعاً ... حولَ السماءِ فهنَّ حسْرى ظُــلَّعُ
متيقظــاتٌ في المســير كأنهَـــا ... باتتْ تنــاجي بالذي يُتَوَقَّـــعُ
والصبحُ يرقبُ من دجاهُ غِـــرَّةً ... متطــاوِلٌ مــن سِـــجْفِه يتطـــلَّعُ
متنفســاً فيــه جَنـانــاً واهِنـــاً ... في كلّ لحظـةٍ ســاعةٍ يتشـــجَّعُ
حتى انْزوَى الليـل البهيمُ لضوئِـه ... وقد اسـتجاب ظلامـه يتقشَّـــعُ
وبـدتْ كواكبُـه حيـارى فيه لا ... تـدري لو شك زيالِهـا ما تَصنَـعُ
متهــادلاتُ النـورِ في آفاقِهـــا ... مُســتعبراتٌ في الدُّجــى تسترجعُ
وكواكِبُ الجـوزاءِ تبسـطُ باعهـا ... لتعـانق الجـوزاء وهـي تُــودِّعُ
وكأنهــا في الجــو نعشُ أخي بلىً ... يُــكى ويوقـفُ تارةً ويُشـيَّعُ
وكأنمـا الشـعري العبـورُ وراءَهـا ... ثـكلَى لهـا دمـعٌ غزيـرٌ يهمَـعُ
وبنــاتُ نعشٍ قد برزنَ حَواسِراً ... قدامهــا أخواتُهـــنَّ الأربـــعُ
عَـبْري هتكْنَ قِناعهنَّ على الدُّجـى ... جزعـاً ، وآلت بعدُ لا تتقنَّـعُ
وكأنَّ أفقــاً من تلألـؤ نجمـــه ... عند افتقــاد الليــل عــينٌ تدمـعُ
والفجـرُ في صفـو الهـواءِ مُـورَّدٌ ... مثـل المدامةِ في الزجـاج تشعْشَعُ
ياليـلُ مالكَ لا تغيث كواكِبـاً ... زفراتُهــا وجـداً عليك تقطّـعُ
لوْ أن لي بضيـاءِ صبحـك طاقـةً ... يا ليـــلُ كنـتُ أردُه لا يطْــلُعُ
حـذراً عليك ، ولو قدرت بحيلتي ... جرَّعتُه الغُصَــصَ التي تتجــرَّعُ

---

(1) ص ٣٩ .

يا صبح هالكَ شيبتي فافتِكْ بها | وَدَعْ الدُّجَى بسوادِهِ يتمتَّعُ
أفقدتني أنسي بأنجمها التي | أصبحتُ من فقدي لها أتوجَّعُ

هذا الذي أبدع فيه ، وخالف الشعراء في أنسه بالليل والكواكب ، وبكائه عليهما ، وتوجعه لفقدهما ، وجميع الشعراءِ مهْيُعهم شكوى الليل وطوله والتوجع لرعي النجوم . ووصف الليل والنجوم مما انفرد ابن طباطبا بالإجادة فيه كأبي نواسَ في الخمر ، وابن المعتز في التشبيه ، والصنوبري في صفات الربيع ، والبحتري في طيف الخيال ، وأبي تمام في البديع والرثاء ، وابن حازم في القناعة ، وأبي العتاهية في الزهد ، وابن الرومي في الهجو ، ومحمود الوراق في الحكم ، والمتنبي في المدح والأمثال ، والحمدوني في طيلسان ابن حرب ، والمعري في الدرع ، وعمر بن أبي ربيعة في النسيب ، وكشاجم في الأوصاف النادرة ، ومحمد بن هانىء في وصف الحرب وأدواتها ، والسريّ الموصليّ في وصف شعره ، وأبي العباس الخازن في الاعتذار والاستعطاف ، وطياب في الحمار ، وابن الحجاج في المجون ، وأبي حكيمة راشد بن عبد القدوس في رثاء ذكره .

ومن المتقدمين امرؤ القيس في وصف الخيل ، والنابغة في الاعتذار ، والأعشى في الخمر وزهير في المدح ، والشماخ في وصف الإعصار ، وذو الرمّة في وصف الفلوات والهواجر ، وشعراء هذيل في القسيّ والنبل ، والفرزدق في الفخر .

فهؤلاء الشعراء وقف كلٌّ منهم قريحته على إجادة الفن المذكور عنه ، وفتح له فيه ما لم يفتح لغيره » .

وقال[1]: « والحكَماءُ يمدحون الليل والاشتغال فيه . قال بعضهم لابنه : يا بني اجعل نظرك في العلم ليلاً فإن القلب في الصدر كالطير ينتشر بالنهار ويعود إلى وكره في الليل ، فهو في الليل ساكن ، وما ألقيت إليه من شيء وعاه » .

---

(١) ص ٤٥ .

وقال بعضُهم : في الليل تجمُّ الأذهان ، وتنقطع الأشغال ، ويصحُّ النظر ، وتؤلف الحكمة ، وتدرّ الخواطر ، ويتسع مجالُ القلب . والليلُ أجرى في مذهب الفكر ، وأخفى لعمل البر ، وأعونُ على صدقة السرّ وأصحُّ لتلاوة الذكر . وأربابُ الأمر يختارون الليل على النهار لرياضة النفوس . وسياسة التقدير في دفع المُلمّ ، وإمضاء المهمّ ، وإنشاء الكتب ، ونظم الشعر ، وتصحيح المعاني ، وإظهار الحجج ، وإصابة غرض الكلام ، وتقريبه من الأفهام .

وفي الليل تتزاورَ الأحبابُ ، وتتهنَّأ بالشراب ، ويكمُلُ الإطرابُ وتغيبُ الرُّقَابُ ، وتغلقُ في أوجه الأضدادِ الأبواب . ولا يمكن فعلُ شَيْءٍ من ذلك كله في النهار ، لاستجلاب الظِّنّةِ بالاستتار .

وكان ابن المعتز لا يشربُ إلا ليلاً ، ويقول : الليلُ أمتعُ ، لا يطرق فيه خَبرٌ قاطعٌ ، ولا شغلٌ مانعٌ . والنهارُ أبرصُ لا يتمُّ فيه سرور .

ونظم ذلك كشاجم فقال :

اتخذْ الليلَ جمَلْ	ما حُمّلَ الليلُ حَمَلْ
آمنُ فيه طارقاً	يشغَلني عن الشّغلْ

فضائل النهار :

وقال[1]: لما كانت محاسن الأشجار ، وما تشتمل عليه من الأزهار ، وما يتخللها من الجداول والأنهار ، إنما تظهر للأبصار بالنهار ، وكان في ضيائه أنسُ القلوب ، وتنفيسُ الكروب ، وانتشارُ الحرارة الغريزية في الأبدان ، ونزهة العيون في محاسن الألوان كان الشربُ في تجاه الرياض المشرقة ، وتحت ظلالِ البساتين المونقة ، وعلى حافات البرك والأنهار المتدفقة ألذّ من الشرب بالليل الحائل بين الناظر وبين إدراك حسن المناظر . إلّا أن ذلك مقصورٌ على فصل الربيع لتزيُّنِ الأرض بأنواع الزخارف وما تلبسه من خضر المطارف حتى تبدي لمبصرها من أزهارها ما هو أبهى من الجوهر ، ويهدي أرجها ما هو أطيب من

(١) سرور النفس ص ٥٧ .

المسكِ الأذْفَر . ففي هذا الفصل خاصةً ينبغي لمن ألانت له الدنيا أعطافها ، ومهدت له أكنافها وأدرّت عليه النِّعم أخلافها أن يغتنم صبوحه قبل الشروق ، ويواصِلَ قائِلتَهُ بالغبوق . فأما العرب ومن هم في طبقتهم فإنما آثروا الصبوح فراراً من العواذل على الخلاعة ، ليسبقوا من يعذلهم قبل أن يغدوَ عليهم ، لأن من شأنِ العواذِلِ أن يبكّروا على من يريدون عذله على الشراب في أمسه ، لأن ذلك وقت صحوة وإفاقة ؛ فاستعملوا الإصطباح ليسابقوا عذّالهم بمباكرة صبوحهم . قال عديٌّ بن زيد :

بكـــر العاذلـــون في وضـــح الصُّبْـــــــح يقولـــونَ لي ألا تســـــــتفيقُ

وقال طرفة بن العبد :

فلولا ثــلاثٌ هـــنّ من لذة الفتــى وجـــدّكَ لم أحفـلْ متى قام عُوَّدي
فمنهنّ سَبْقُ العاذلات بشـــربةٍ كميتٍ متَى ما تُعْلَ بالماء تُزبِــــدِ

وقال[1]:

« طلع الملك المعظم (عيسى) ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب إلى معذنةِ جامع دمشق لرؤية هلال شوّال ، ومعه القاضي والعدول ، فغابت الشمسُ ولم ير الهلال ، ثم رآه مملوكٌ كان حظيًّا عند الملك المعظم فقال الملك المعظم لجبريل بن شكر المصري الشاعر المعروف بابن القصّار : قل شيئاً في ذلك . فقال :

توارى هلالُ الأفقِ عن أعينِ الورَى وغطّى بسترِ الغيم زهواً محيّــــاهُ
فلما أتـاهُ لاجتــلاءِ خليـــــــلُه تبـــدّى له دون الأنام وحيّــــاهُ »

ومن الباب الخامس [في انشقاقِ الفجرِ ورقةِ نسيم السحر ، وتغريد الطير في الشجر ، وصياح الديك وإيذانه بالصّباح] :

الفجـــر أول ضوء تراهُ من الصباح ، ويقال له ابنُ ذكاء . وذكاء من أسماء الشمس .

(١) سرور النفس ص ٧٨ .

قال الراجز :

وردتـــهُ قبـل انبــلاج الفجــر   وابن ذكاءٍ كامــنٌ في كَفْـــــرِ

والكفرُ ماغطّاهُ ، يعني به الليل ، والفجر مأخوذٌ من انفجار الماء ، لأنه ينفجر كالماء شيئاً بعد شيء وهما فجران : لأنه يلوحُ ثم يخفي ، والثاني هو الفجر الصادق ، وهو الذي يحرم الطعام على الصائم .

والذي يلي الفجر من الليل هو السحر . ويقال له أتيتهُ بسحرٍ وبسحرةٍ ، وبالسحرِ الأعلى لآخر السحر ، وسجداً لأوله .

ويقال انبلج الصباح انبلاجاً فهو أبلج ، وتبلَّجَ يتبلَّج ، وسَاحَ يسيحُ ، وانساح ينساح انسياحاً ، وانفسح يَنْفَسِحُ ، وانصاح ينصاح انصياحاً – كلُّ ذلك إذا اتسع وانبسط ، وتنفَّسَ يتنفَّسُ . وفي التنزيل العزيز : ﴿ والصبح إذا تنفَّسَ ﴾ . وصاحَ يصيحُ إذا عَلا وظهرَ . قال الفرزدق :

والشّيبُ ينهضُ في الشّبابِ كأنّهُ   ليـلٌ يصيـحُ بجانبيـهِ نهـــارُ

لما علا وظهرَ شبَّهَهُ بالصائحُ الذي دلَّ على نفسِهِ بصياحه . فإذا علا بعد ذلك بشيءٍ فعرفتَ المارَّ وإن كان منك بعيداً قلت : أسفر الصبحُ .

وفي التنزيل العزيز : ﴿ حتي يتبيَّن لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجر ﴾ والعربُ تشبهَ رقةَ البياض البادي من الفجر أولاً ورقة السواد الحافَّ به بخيطين أبيض وأسود على جهة الاستعارة والتمثيل . قال أبو دُؤاد :

فلمـا بَصُـرْنَ بـه غُـــدْوةً   ولاحَ مـن الفجـرِ خيـطٌ أنـارَا

والكتاب العزيزُ نزلَ على ما تفهمه العربُ في لغتها ، وتألفه في عرفها . ونزل « الخيط الأبيض من الخيط الأسود » ولم يكن فيها الفجر ، ومضى على ذلك عام ، فجاء عديُّ بن حاتم إلى رسول الله صلى عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني جعلت تحت وسادتي عقالين أبيض وأسود أعرف الليل والنهار . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما هو سواد الليل وبياض النهار .

فاستدل الفقهاء بهذا القول على أن النهار من طلوع الفجر إلى غروب الشمس . وعلى ذلك العمل في الصوم والصلاة والإيمان وغير ذلك من جميع ما يناط به حكمٌ شرعي .

وأما على ظاهر اللغة فاختُلِف فيه ، فروى أبو حنيفة الدينوري في كتاب « الأنواء » أن النهار محسوب من طلوع الشمس إلى غروبها ، والليل من غروب الشمس إلى طلوعها ، ولا يعدُّ شيءٌ قبل طلوعها من النهار ، ولا شيء قبل غروبها من الليل . وقال الزَّجَّاج في كتاب الأنواء أيضاً : أول النهار ذرور الشمس . ومن أهل اللغة من جعل وقت النهار من الإسفار إذا اتسع الضوء وانبسط ، وهو موافق لمن قال بالذرور . واعتبرَ في ذلك التسمية اللفظيةَ . وقال : النهار مأخوذ من اتساع الضوء واتضاح نوره . وأنشد :

ملكتُ بها كفّي وأنهرْتَ فتقهَا يَرى قائماً من دونها ما وراءَها

والحكم عند عامة الفقهاء في النهار ما ورد في الحديث وهو : طلوع الفجر إلى غروب الشمس . وأما تحديد تبيين الخيط الأسود من الفجر . وهو الذي بسببه تجب الأعمال ، فقد اختلف فيه ، ووقع العمل على أنه الفجر المعترض الآخذ في الأفق يمنة ويسرة ، فبطلوع أوله في الأفق يجب الإمساك عن الأكل للصيام ، لما خرَّجه مسلم في صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم قال : ليس الفجر الذي يقول هكذا وهكذا وجمع بين أصابعه ثم نكسها إلى الأرض — ولكن الذي يقول هكذا — ووضع المسبحة على المسبحة ومدَّ يديه ... » .

القول في الطير][1]

وفي الخبر أنه صلى الله عليه وسلم كان يعجبه أن ينظر إلى الخُضْرة وإلى الحَمامِ الأحْمرَ وفي حديث آخر : كان يعجبه النظر إلى الأُترجّ وإلى الحمام والطير .

والطير : جماعةٌ مؤنثةٌ واحدها طائر ، وجمع الطائرِ أطيار وطيور . وقيل

(١) سرور النفس ص ٩١ .

جمع الطائر طوائر كفارس وفوارس . وجاء تذكير الطير وهو قليل ، والتأنيث أكثر وأفصح . وجاء في التنزيل العزيز : ﴿ والطيور محشورة ﴾ ، ﴿ والطير صافات ﴾ . وأما في التذكير فعلى قول الشاعر :

لقد تركت فؤادك مُستجناً مطوقةٌ على فننٍ تُغنّى
يميل بها ويرفعُها بلحن إذا ما عنَّ للمحزون أناً
فلا يحزُنكَ أيامٌ تولّى تذكُرها ولا طيرٌ أرناً

وكلُّ طائرٍ يهدلُ ويرجّعُ كالقُمريّ والفاخِتةِ والورشان واليمامة واليعقوب وما أشبه ذلك فالعربُ تسميه حماماً . والحمام عند العرب القماريّ والدباسي ، وهي التي يصفون بكاءها في بلادهم . والفاختةُ جنسٌ من القُماريّ إلا أنه هجين لا عتق له .

جهم بن خلف :

تذكّرتُ ليلى إذ رميتُ حمامةً وأنّى بليلى والفؤاد قريحُ
يمانيّةٌ أمستْ بنجرانَ دارها وأنت عراقيٌّ هواكَ نَزُوحُ
فإنْ سجعتْ ورقاءُ في رونق الضحى على الأيك حمّاءُ العِلاطِ صدوحُ
مطوّقةٌ طوقاً من الريش لا ترى لنائحةٍ طوقاً سواهُ يبوحُ
وأسعدُنها بالنّوح من كلّ جانب صواحب في أعلا الأراك تصيحُ
فهيّجنَ صبًّا بالعراقِ مُروّعاً بصوتٍ يُعلُّ القَلبَ وهو صحيحُ
وكدتُ من الشوقِ المبرّح إذ بكتْ بأسرارِ ليلى في الفؤاد أبوحُ

في الديك وإيذانه بالصباح :

قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : صرخ ديك عند النبي صلى الله عليه وسلم فسبّهُ بعض أصحابه فقال : لا تَسُبّهُ فإنه يدعو إلى الصلاة . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن مما خلق الله عز وجل لديكا عرفُه تحت ساق العرش ، ورجلاه في الأرض السفلى وجناحه في الهواء ، فإذا ذهب ثلثا الليل وبقى ثلثٌ ضربَ بجناحه ثم قال : سبحان الملك القُدُّوس ، سُبُّوحٌ قدُّوس ، ربي لا شريك له ، فعندئذ تضربُ الطير بأجنحتها ، وتصيحُ الديكة ..

وفي الديك الصيصةُ ، وهي طرف عُرفه الحادُّ ، وهي سلاحُه الذي يقاتلُ به ، وبها سُمّيَ قرن الثور صيصة ، وسُمّيتْ آطام المدينة للامتناع بها صياصي . وفي التنزيل العزيز : ﴿ وأنزلَ الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ﴾ .

ويقال لصوت الديك الدعاءُ والزُّقاءُ والصياحُ والصراخُ ، والصّقاعُ .

السـريُّ الرفـاء[1]:

كشفَ الصباح قناعه وتألّقا ـ وسطا على الليل البهيم فأطرقا
وعلا فلاحَ على الجدارِ موشّحٌ بالوشي تُوِّجَ بالعقيق وطوّقا
مرخٍ فضولَ التّاج من لَباتِه ومشمّرٌ وشياً عليه منمّقا

وقال ابن معمعة الحمصي :

ليَ ديكٌ حضنتُه وهو في البيـ ـضةِ من منصبٍ كريم الخِيمِ
ثمّ ربَّيتُه كتربيةِ الطفـ ـل رضيعاً وعند حال الفطيمِ
يأكلُ العفوَ كيف ما شاء من ما لي أكل الوليّ مالَ اليتيمِ
هو عندي بصورة الولدِ البرّ وفي صورة الصديق الحميمِ
أبيضُ اللّونِ ، أفرق العرف نظّا رٌ بعين كأنها عين ريمِ
وعلى نحرهِ وشاحانِ من شذ رٍ بديعٍ ، ولؤلؤٍ منظومِ
رافعٌ رايةً من الذّنبِ المشر فِ يسعى بها كسعى الظليمِ
وإذا ما مشى تبخترَ مشيَ الطّـ ـرب المنتشى من الخرطومِ
وسمَ الأرض وسم طِينَ كتابٍ بخواتيم كاتب مختومِ
وله خنجران في قصب الساقيـ ـن قد رُكّبا لحفظ الحريمِ
وعليه من ريشه طَيْلسانٌ صنيعَ من صبغةِ اللطيف الحكيمِ

وقد أجادَ القاضي التنوخي في وصف الشمس فقال :

ويومٍ كأنّ الشمس من تحتِ غيمهِ مفاخِرُ قد غطّيتَها بعيوبِ
إذا طلعت في فرجةٍ فيه خِلتَها مخيلة جدوَى من خلال جُدوبِ
وقد مدَّ ستراً فوقها فكأنما يُغطّي بكُفْرانٍ ثوابَ مثيبَ

(١) سرور النفس ص ١١٦ .

قال مصنف الكتاب : إني لينغّصُ عليَّ إحسانَ هذا الرجل - مع كثرته - ما أخذ به نفسه من تشبيه الأظهر بالأخفى ، وهو شيءٌ كرهه أكابرُ العلماء ونصُّوا عليه ، وهو قد أُغرِيَ به لا يكادُ يُخْلِي منه تشبيهاتِه وهذه الثلاثة أبيات من هذا القبيل ، شبَّهَ فيها الأظهرَ بالأخْفَى .

قال أبو الفوارس سوار بن إسرائيل الدمشقي[1]: كنتُ عند السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فحضر إليه رسول أمير المدينة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، ومعه قودٌ وهدايا ، فلما جلسَ أخرج من كمه مروحة سعفٍ بيضاء عليها سطران من نساجة السعف الأحمر وقال : الشريف يخدم السلطان . وقال : خذ هذه فما رأيت أنت ولا أبوك ولا جدُّك مثلها ، فاستشاط صلاح الدين غضباً . فقال الرسول : لا تعجل بالغضب قبل تأملها . وكان صلاح الدين ملكاً حليماً فإذ عليها مكتوب :

أنا من نخلةٍ تجاورُ قبـــراً ... ســادَ من فيـــه سـائرَ النـاسِ طُرّا
شملتني ســعادة القــبر حــتَّى ... صــرتُ في راحــةِ ابنِ أيوبَ أقْرا

الخـــــريف[2]:

سُمِّيَ خريفاً لأن الثمارَ تُخْرفُ فيه أي تُجنَى وتقَطعُ ، ومنه اشتُقَّ الخرفُ للشيخ وهو ذهابُ العقل ، كأن عقله انقطع . وقال أبو حنيفة : لم يذكر أحدٌ من العرب الخريفِ في الأزمنة ، لأن الخريف عندهم ليس اسماً للزمان ، وإنما هو اسمٌ لأمطار أواخر الشتاء .

ووصف عليُّ بن حمزةَ الخريف فقال : الخريف ثمرةُ الربيع ، كالشجرةِ التي تثمرُ ، ولولا الثمرة لم تكنْ في الشجرة منفعة .

وفي الخريف تحصُلُ أصنافُ ما يتموَّل ، وتدَّخرُ أقواتُ الخلائقِ الممسكة لأرواحها إلى الخريف القابل . وفيه يكونُ الزعفرانُ . وله على جميع أنوار

---

(١) سرور النفس ص ٢٢٧ .

الربيع فضلٌ ، وله وردٌ يطلُعُ كنصل السهم وقرنِ الخشْف ، في لون الياقوت الأزرق واللازوردِ المشوّنِ كالعيون الشُّهْلِ وأعرافِ الطواويس …

وفيه يجنى النَّحْلُ ، وتُحـرزُ أعسـالُ النحـلِ ، وتقطـفُ الأعيانُ التي فيها المنافعُ ، وتُجنى الأقطانُ التي منها لباسُ الناس وزينتُهم أحياءً ، وسترتُهم أمواتاً . وفيه يقطف اللوز والجوز والعنَّابُ والزعرورُ وغير ذلك . وفيه تتناكحُ ذواتُ الأظْـلافِ الإنسيـةُ والوحشـيَّة .

قال أبو محمد بن المقتدر : وفيه يُكالُ الأرزُ ، وهو أحدُ الأقواتِ المحتاج إليها ، ولا يقومُ مقامه شيءٌ لأنه أولى أغذية بن آدم صغاراً وكباراً . وقد يستغنى به عن الحنطةِ ولا يستغنى بها عنه ، لأنه يغذو المراضيعَ في الأوقاتِ التي لا يصلحُ لهم أكلُ الخبز فيها وبغلّتهِ وبعظَمِها وكثرةِ ريعها يُضربُ المثل .

وفي الخريف يقدم طير الشتاءِ من الجبالِ والبلادِ الباردة مثل الكراكيّ والأوزّ واللغالغ مما يتصيَّدُ بالجوارح وسائرِ آلاتِ القنص والرمي بالبندقِ وغيره .

والخريف[1] أصحُّ السنةِ زماناً وأسلمها أواناً ، والشمسُ فيه بالميزان ، وهو أحدَ الأعدلين المتوسطين حين أطلعت السماءُ حوافِلَ أنوائها ، وتأذَّنتْ بانسكاب مائها . وصفت المواردُ من كدرها ، وتهذبت من عكرها ، وخلصت الأرضُ من حمَّارة قيظها ورمضائها . وإجماع الناس على محبة ريح الشمال وإيثارها على الرياح الأربع مشهود لا اختلاف به ، وإنما تحمدُ في الخريف لا في الربيع ، لأنها في ذلك الزمان تقوى النفوسَ وتجذبُ للناس النشاط والظرفَ ، وتصلح عليها المرضى وتقوي أجسامهم . وكلُّ علةٍ يطول مكثُها إنما تحدثُ في إقبال الصيف وتقلعُ في إقبال دخول الشتاء . وهي تستحيل في الربيع بخلاف هذا لأنها تتلف الغلّات وتفسدها . ولا يكون سقوطُ البردَ فيه إلا في الشمال . ولا تكون الزلازلُ والصواعق إلا معها . وقوله عز وجل : ﴿ فأُهلكوا بريح صرصرٍ عاتية ﴾ . قال المفسرون : هي ريحُ الشمال .

(١) سرور النفس ص ٢٣١ .

وفي الخريف إقبال كلّ خير ، وفيه المطر الوسميُّ الذي يتباشر به الناسُ ، ويتبركون به ، وتكثرُ عليه العمارة ، وتزيد فيه الأنهارُ . ويكرهُ المطرُ في الربيع لأنه يفسِدُ الغلّات ويهدم المنازل ، فهو في الخريف سُقْيا وشراب ، وفي الربيع صواعقُ وعذاب . وفي هذا غيثٌ يُرجى صلاحُه ، وفي ذاك غَيْثٌ يُخْشَى فسادُه . وبردُ ماء الخريف مستطاب دون ماءِ سائر السنة .

وكانت العربُ تقول فيمن مات في أول الخريف : مات ولم يشرب ماءَ الخريف . وكان ابن الرومي يفضِّل الخريفَ على سائر فصول السنة ؛ وقال وهو يجودُ بنفسه : ما آسي من دنياكم إلا على ثلاث : هواءُ التشارين الرطبِ والأذاذُ (الرُّطبُ) كأنه أولادُ الملوك في الغلائِل الممسكة ، وإطلالةٌ في وجه نجاح .

أبو نواس :

أتـى أيلـول وانقشـع الحـرورُ	وأخبـتْ نارَهـا الشِّـعْرى العبورُ
فقومـا فالقِحَـا حمراً بمـــاءٍ	فإنَّ نتـاجَ بينهمـا السُّـرورُ
نتـاجٌ لا تـدرُّ عليـهِ أمٌّ	وحمـلٌ لا تعـدُّ له الشـهورُ
إذا الكاسـاتُ كرَّ بهـا علينـا	تكـوَّنَ بيننـا فَلَكٌ يَـدُورُ

قال الشيخ شرف الدين المصنف[1] : نزل بمصرَ بردٌ عظيمٌ في سنةٍ ، وأقامُ يباعُ في السوق أياماً ،ولم يُعهد مثله بمصر، وقَتَلَ طيرَ الجوّ ، فأنشدني أبو بكر ابن محمد بن عثمان الإسلمانيني في ذلك ، وكان في شعبان سنة ثلاث وأربعين وستمائة :

قـل للرمـاة تنحُّـوا عن مقاعدكُـمْ	فقد كفى اللهُ رمْيَ الطـيرِ كلَّ يـدِ
وأصـبح الجـوُّ يرميهـا فيصرعُهـا	من حـالقٍ بمصيباتٍ من الـبردِ

وتوفي هذا الشاعر في رمضان من السنةِ المذكورة .

(١) سرور النفس ص ٣٠١ .

أدب الرحـــلات :

رحلة عبد اللطيف البغدادي إلى مصر[1]

المؤلف : وسيرته الذاتية :

قال ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء : « ونقلتُ من خطهِ في سيرته التي ألّفها ما هذا مثاله : قال : « ولدت بدار لجدي في درب الفالوذج في سنة سبع وخمسين وخمسمائة وتربيتُ في حجر الشيخ أبي النجيب ، لا أعرفُ اللعب واللهو ، وأكثر زماني مصروف في سماع الحديث وأخذت لي أجازات من شيوخ بغداد وخراسان والشام ومصر . وقال لي والدي يوماً : قد سمَّعْتك جميع عوالي بغداد والحقتك في الرواية بالشيوخ المسانّ . وكنت في أثناء ذلك أتعلم الخط وأتحفظ القرآن والفصيح ، والمقامات وديوان المتنبي ونحو ذلك ، ومختصراً في الفقه ، ومختصراً في النحو ، فلما ترعرعتُ حملني والدي إلى كمال الدين عبد الرحمن الأنباري ، وكان يومئذ شيخ بغداد وله بوالدي صحبة قديمة أيام التفقه بالنظامية . فقرأتُ عليه خطبة الفصيح » .

قال : « وأول ما بدأت حفظت اللمع (لابن جنى) في ثمانية أشهر .. ثم حفظت أدب الكاتب لابن قتيبة حفظاً متقناً . ثم حفظت مُشكِل القرآن له ، وغريب القرآن له . كل ذلك في مدة يسيرة . ثم انتقلت إلى الإيضاح لأبي على الفارسي فحفظته في شهور كثيرة ، ولازمت مطالعة شروحه وتتبعه التتبع التام حتى تبحرتُ فيه ، وجمعتُ ما قال الشرّاحُ . أما التكملة فحفظتُها في أيام يسيرة في كل يوم كراساً . وطالعتُ الكتب المبسوطة والمختصرات ، وواظبتُ على المقتضب للمبرد ، وكتاب ابن درستويه . وفي أثناء ذلك لا أُغفل سماع الحديث والتفقه على شيخنا ابن فضلان بدار الذهب .

قال البغدادي : « وللشيخ كمال الدين بن علي الأنباري مائة تصنيف

---

(١) طبع الكتاب مرتين الأولى باسم « عبد اللطيف البغدادي في مصر » بتحرير سلامة موسى والثانية بتحقيق أحمد غسّان سبانو بعنوان « الإفادة والاعتبار » طبع دار قتيبة ببيروت سنة ١٩٨٣ .

وثلاثون تصنيفاً أكثرها في النحو وبعضها في الفقه والأصولين وفي التصوف والزهد . وأتيت على أكثر تصانيفه سماعاً وقراءةً وحفظاً وشرع في تصنيفين كبيرين أحدهما في اللغة والآخر في الفقه ، ولم يتفق له إتمامُهما . وحفظت عليه طائفة من كتاب سيبويه ، وأكْبَبْتُ على المقتضب فأتقنته .

وبعد وفاة الشيخ تجردتُ لكتاب سيبويه ولشرحه للسيرافي » .

ويسرد البغدادي جملة أخرين من الشيوخ الذين قرأ لهم أو تخرج عليهم ، وجملة من المصنفات في شتى فروع العلم الشرعي واللغوي والعقلي .

وترك العراق متجهاً إلى الشام ، فجاء دمشق وبها جماعة من العلماء المشهورين وعلى رأسهم أبو اليمن الكندي الذي تخرج عليه جماعة من علماء العصر ، وقصده آخرون من مشارق الوطن العربي وبلاد الإسلام ومغاربها . وكان خروجه أولاً من بغداد إلى الموصل سنة خمس وثمانين وخمسمائة . ووجد بدمشق جماعة من كبار العلماء ممن جذبتهم شهرة صلاح الدين وشجعهم تقريبه للعلماء وتقديره لفضلهم . قال : « ولمّا دخلت دمشق وجدت فيها من أعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الإحسانُ الصلاحيُّ جمعاً كثيراً ... واجتمعتُ بالكندي البغدادي النحوي وجرى بيننا مباحثاتٌ ، وكان شيخاً بهياً ذكياً ، مثرياً ، له جانب من السلطان ، لكنه كان معجباً بنفسه مؤذياً لجليسه ..

وعملت بدمشق تصانيف جمة منها « غريب الحديث الكبير » ، جمعت فيه غريب أبي عبيد القاسم ابن سلام ، وغريب ابن قتيبة ، وغريب الخطّابي . وكنتُ ابتدأت به في الموصل ، وعملت له مختصراً سميته المجرد . وعملت كتاب الواضحة في إعراب الفاتحة نحو عشرين كراسة ... » .

قال : « ثم إني توجهت إلى زيارة القدس ، ثم إلى صلاح الدين ظاهر عكّا ، فاجتمعت ببهاء الدين ابن شداد قاضي العسكر يومئذ ، وكان قد اتصل به مشهرتي بالموصل ، فانبسط إليّ وأقبل علي وقال نجتمع بعماد الدين الكاتب فقمنا إليه ، وخيمته إلى خيمة بهاء الدين فوجدته يكتب كتاباً إلى الديوان العزيز بقلم الثلث من غير مسوَّدة ، وقال : هذا كتابٌ إلى بلدكم . وذاكرني في

مسائل من علم الكلام ، وقال : قوموا بنا إلى القاضي الفاضل ، فدخلنا عليه ، فرأيتُ شيخاً ضئيلاً كلُّه رأسٌ وقلب . وهو يكتب ويُملي على اثنين ، ووجهه وشفتاهُ تلعبُ ألوان الحركات لقوة حرصه في إخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة أعضائه .

وسألني القاضي الفاضل عن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خَزَنتُها ﴾ أين جوابُ إذا ، وأين جواب لو في قوله تعالى : ﴿ ولو أنَّ قرانا سُيِّرتْ به الجبال ﴾ وعن مسائل كثيرة . ومع هذا فلا يقطع الكتاب والإملاء . وقال لي : ترجع إلى دمشق وتجري عليك الجرايات . فقلتُ : أريد مصر . فقال : السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكّا وقتل المسلمين بها . فقلت : لابد لي من مصر ، فكتب لي ورقة صغيرة إلى وكيله بها .

فلما دخلتُ القاهرة جاءني وكيلُه وهو ابن سناء المُلك . وكان شيخاً جليل القدر ، نافذ الأمر . فأنزلني داراً قد أزيحتْ عِلَلُها ، وجاءني بدنانير وغلَّة ، ثم مضى إلى أرباب الدولة وقال : هذا ضيف القاضي الفاضل . فدرَّتْ الهدايا والصلات من كل جانب . وكان كلُّ عشرة أيام أو نحوها تصل تذكرة القاضي الفاضل إلى ديوان مصر بمهمات الدولة وفيها فصل يؤكد الوصيَّة في حقّي . وأقمت بمسجد الحاجب لؤلؤ - رحمه الله أقرىءُ .

وكان قصدي في مصر ثلاثة أنفس : ياسين السيميائي ، والرئيس موسى بن ميمون اليهودي وأبو القاسم الشارعي . وكلهم جاءوني . أما ياسين فوجدته مُحالياً كذاباً ، مشعبذاً .

وجاءني موسى فوجدته فاضلاً للغاية ، قد غلب عليه حبُّ الرياسة ، وخدمة أرباب الدنيا ، وعمل كتاباً في الطب جمعه من الستة عشر لجالينوس ومن خمسة كتب أخرى ... وعمل كتاباً لليهود سمَّاهُ « كتاب الدلالة » ولعن من يكتبه بغير القلم العبراني . ووقفت عليه فوجدته كتاب سوءٍ يفسدُ أصول الشرائع والعقائد بما يظن أنه يُصلحها .

وكنتُ ذات يوم بالمسجد وعندي جمع كثير ، فدخل شيخٌ رثُّ الثياب نيِّرُ

الطلعةِ مقبولُ الصورة ، فهابهُ الجميعُ ، ورفعوه فوقهم ، وأخذت في إتمام كلامي ، فلمّا تصرّم المجلس جاءني إمام المسجد وقال : أتعرف هذا الشيخ ؟ . هذا أبو القاسم الشارعي . فاعتنقتُه وقلتُ : إياك أطلب . فأخذته إلى منزلي وأكلنا الطعام وتفاوضنا الحديث ، فوجدتُه كما تشتهي الأنفُس ، وتلذُّ الأعينُ سيرتُه سيرةُ الحكماء العقلاء ، وكذا صورته . وقد رَضِيَ من الدنيا ببرضٍ ، لا يتعلق منها بشيء يشغله عن طلب الفضيلة . ثم لازمني فوجدتُه قيّماً بكتب القدماء ، وكتب أبي نصر الفارابي . ولم يكن لي اعتقاد في أحد من هؤلاء ، لأني كنتُ أظن الحكمة كلّها حازها ابن سينا وحشاها كتبه . وإذا تفاوضنا الحديث أغلِبُهُ بقوة الجدلِ وفضلِ اللَّسَن ، ويغلبني بقوة الحجّة وظهور المحجّة . وأنا لا تَلينُ قناتي لغمزه ، ولا أحيد عن جادة الهوى والتعصُّب برمزه . فصارَ يُحضِرُني شيئاً بعد شيءٍ من كتب أبي نصر ، والإسكندريّ ثامسطيوس يُؤنِسُ نِفاري ، ويُلِينُ عريكة شِماسي حتى عطفتُ عليه أقدّم رِجلاً وأؤخرُ أخرى .

وشاع أن صلاح الدين هادنَ الإفرنج وعادَ إلى القدس ، فقادتني الضرورة إلى التوجه إليه ، فأخذت من كتب القدماء ماأمكنني ، وتوجهتُ إلى القدس ، فرأيتُ ملكاً عظيماً ، يملأ العين روعة والقلوب محبة ، قريباً ، بعيداً ، سهلاً مُحبباً . وأصحابه يتشبهون به ، يتسابقون إلى المعروف كما قال تعالى : ﴿ ونزعْنا ما في صدورهم من غلّ ﴾ .

وأول ليل حضرتُه وجدتُ مجلسياً حفلاً بأهل العلم ، يتذاكرون في أصناف العلوم ، وهو يحسنُ الاستماع والمشاركة ، ويأخذُ في كيفية بناءِ الأسوارِ وحفر الخنادق ، ويتفقّهُ في ذلك ويأتي بكل معنى بديع . وكان مهتماً في بناء سورِ القدس وحفر خندقه ، يتولّى ذلك بنفسه ، وينقل الحجارة على عاتقه . ويتأسى به جميعُ الناس ، الفقراء والأغنياء ، والأقوياء والضعفاءُ ، حتى العمادَ الكاتب والقاضي الفاضل ، ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر . ويأتي ويمدُّ الطعام ثم يستريح . ويركب العصر ، ويرجع في المساء . ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعملُ بالنهار .

فكتب لي صلاح الدين بثلاثين ديناراً في الشهر على ديوان الجامع ، وأطلق أولاده رواتب حتى تقرر لي في كل شهر مائة دينار .

ورجعتُ إلى دمشق ، وأكببت على الاشتغال وإقراءِ الناسِ بالجامع ، وكلما أمعنتُ في كتبِ القدماء ازددت فيها رغبة ، وفي كتب ابن سينا زهادةً . واطّلعت على بطلانِ الكيمياء ، وعرفتُ حقيقة الحال في وضعها ، ومن وضعَها وتكذّب بها ، وما كان قصدهُ في ذلك . وخلصتُ من ضلالين عظيمين موبقين . وتضاعف شكري لله سبحانه على ذلك ، فإنما أكثر الناسِ إنما هلكوا بكتب ابن سينا وبالكيمياء .

ثم إن صلاح الدين دخل دمشق وخرج يودّع الحاج ، ثم رجع فحمَّ ، ففصده من لا خبرة عنده فخارتْ القوّةُ ، ومات قبل الرابع عشر ، ووجد الناس عليه شبيهاً بما يجدونه على الأنبيا . وما رأيت ملكاً حزن الناسُ بموته سواهُ ، لأنه كان محبوباً ، يحبُّه البَرُّ والفاجر ، والمسلم والكافِر ثم تفرق أولاده وأصحابه أيادي سبا ، ومُزّقوا في البلادِ كُلَّ ممزَّق ، وأكثرهم توجه إلى مصر لخصبها وسعة صدر ملكها .

وأقمت بدمشق وملكها الملك الأفضل هو أكبر الأولاد في السن إلى أن جاء الملك العزيز بعساكر مصر يحاصرُ أخاه بدمشق ، فلم ينل منه بغية ، ثم تأخر إلى مرج الصفر لقولنج عرض له فخرجتُ إليه بعد خلاصه منه فأذن لي في الرحيل معه ، وأجرى عليّ من بيت المال كفايتي وزيادة وأقمت مع الشيخ أبي القاسم يلازمني صَباح مساء إلى أن قضى نحبه . ولما اشتد مرضه ، وكان ذات الجنب عن نزلة من رأسه ، وأشرت عليه بدواء ، فأنشد :

لا أذودُ الطـــير عــن شـــجرٍ قــد بلَــوتُ المــرّ من ثمـــرِهْ

ثم سألته عن ألمــه فقـــال :

ما لجـــرح بميتٍ إيـــلامُ

وكان سيرتي في هذه المدة أنني أقرىء الناسَ بالجامع الأزهر من أول النهار إلى نحو الساعة الرابعة وسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره ، وآخر النهار أرجع الجامع الأزهر فيقرأ قوم آخرون . وفي الليل أشتغل مع نفسي .

ولم أزل على ذلك إلى أن توفى الملك العزيز . وكان شاباً كريماً ، شجاعاً ،

كثير الحياء لا يحسن قول لا . وكان مع حداثة سنه وشرخ شبابه كامل العفة عن الأموال والفروج » .

تلك صورة قلمية عن سيرته الذاتية اختطها عبد اللطيف البغدادي ، ونقلها ابن أبي أصيبعة ، وهي تكشف عن ملامح شخصيته وعلمه ، واتصالاته برجال العلم ، والدولة وتلقى بعض الأضواء على أحداث عاصرها وشخصيات تاريخية معروفة لقيها كشخصية صلاح الدين والقاضي الفاضل والملك الأفضل ، والملك العزيز ، والكندي ، فوقف من بعضهم موقف الحب والتقدير ، ووقف من الآخرين موقف العداء والإنكار .

ويتم ابن أبي أصيبعة سيرة أستاذه عبد اللطيف البغدادي حتى ختام حياته فيقول : « أقول : ثم إن الشيخ موفق الدين أقام بالقاهرة بعد ذلك مدة - أي بعد وفاة العزيز - له الرتب والجرايات من أولاد الملك الناصر صلاح الدين . وأتى إلى مصر ذلك الغلاء العظيم والموتان الذي لم يشاهد مثله . وألف الشيخ موفق الدين في ذلك كتاباً ذكر فيه أشياء شاهدها أو سمعها ممن عاينها تذهل العقل ، وسمّى ذلك الكتاب : « كتابُ الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة ، والحوادث المعاينة بأرض مصر » .

ثم لمّا ملك السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب الديار المصرية وأكثر الشام والشرق ، وتفرقت أولاد أخيه الملك الناصر صلاح الدين وانتزع ملكهم توجه الشيخ موفق الدين إلى القدس ، وأقام بها مدة ، وكان يتردد على الجامع الأقصى ، ويشتغل الناس عليه بكثير من العلوم ، وصنف هنالك كتباً كثيرة .

ثم إنه توجه إلى دمشق ونزل بالمدرسة العزيزية بها وذلك في سنة أربع وستمائة (٦٠٤ هـ) وشرع في التدريس والاشتغال . وكان يأتيه خلق كثير يشتغلون عليه ويقرأون أصنافاً من العلوم . وتميّز في صناعة الطب بدمشق ، وصنف في هذا الفن كتباً كثيرة ، وعُرف به ، وأما قبل ذلك فإنما كانت شهرته بعلم النحو ، وأقام بدمشق مدة ، وانتفع الناس به ، ثم إنه سافر إلى حلب ، وقصد بلاد الروم ، وأقام بها سنين كثيرة . وكان في خدمة الملك علاء

الدين داود بن بهرام صاحب أرزنجان ، وكان مكيناً عنده عظيم المنزلة . وله من الجامكية الوافرة والافتقادات الكثيرة !. وصنف باسمه عدة كتب .

وتوجه موفق الدين بعد ذلك إلى حلب وأقام بها زمناً والناس يشتغلون عليه ، وكثرت تصانيفه ، وكان له من شهاب الدين طغريل الخادم أتابك حلب جار حسن ، وهو متنحلّ لتدريس صناعة الطب وغيرها ، ويتردد إلى الجامع بحلب ليسمع الحديث ويقرىء العربية .

وكان دائم الاشتغال ملازماً للكتابة والتصانيف .

ويذكر ابن أبي أصيبعة جملة كثيرة من كتبه التي ذكرنا بعضاً منها فيما مر من الحديث[1].

واتجه إلى المشرق ثم عاد إلى بغداد حيث مات سنة ٦٢٩ هـ ودفن .

وإذا كان ابن أصيبعة قد ترجم لموفق الدين البغدادي هذه الترجمة الضافية والتي لا تقل فيها كثيراً عن قول صاحبها وسيرته الذاتية ، وبدا منه إعجابه الشديد به ، كما كشف عن علاقة والده به وما كان بينهما من مراسلات في اغتراب موفق الدين ورحلاته في بلاد الشام والروم والعراق والمشرق .

ومن هذه الترجمة يتضح كذلك حب موفق الدين للعلوم الطبيعية والطب بصفة خاصة إلى جانب اجتهاداته في علوم الحديث والنحو . كما يتضح حبه للرحلة وكثرة التنقل في البلاد .

وواضح أنه وصل إلى مصر في عصر العزيز عثمان ، وظل بها حتى عصر الملك العادل أبي بكر ، وأنه عاصر المجاعة الكبرى سنة ٦٠٠ هـ .

وإذا كان ابن أبي أصيبعة قد رسم هذه الصورة المشرقة لموفق الدين ، فإن بعض الملامح والعبارات وردت على لسان الرجل تنم عن شخصيته ، وأنه كان رجلاً معتداً بنفسه ، ولم يكن يطيق من يتفوق عليه ، أو كان يضيق فيما يبدو بمن يراه متقدماً في علم من العلوم ، وأنه كان رجلاً جدلاً سهل المنطق سلس

---

(١) راجع طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة وراجع الاعتبار ص ١٦٢ / ١٦٤ .

العبارة . وكان ذا طموح لا يقف عند حد . وكان مكثراً من التأليف في شتى فروع العلم الإسلامي واللغوي والطبيعي والعقلي .

وهذه الصورة تعود فتشوبها بعض الشوائب في ترجمة القفطي في أنباه الرواة[1].

يقول القفطي :

« عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن أبي سعد البغدادي الموصلي الأصل البغدادي المولد .. المدعو بالموفق الملقب بالمطجن . كان يدّعي معرفة النحو واللغة العربية وعلم الكلام والعلوم القديمة والطب . أسمعه والده في صباه من جماعة كأبي الفتح محمد بن عبد الباقي بن البطي ، وأبي زرعة طاهر ابن محمد بن طاهر المقدسي .

خرج من بغداد إلى الشام ، وقدم مصر بعد سنة ثمانين (وخمسمائة) ، ونزل في مسجد باب زويلة ، وتعرف بالحاجب لؤلؤ ، وادعى ما ادعاه ، فمشى طلبة المصريين إليه واختبروه ، فقصّر في كل ما ادَّعاه فجفوه ، وأقام بها مدة لا يُعبأ به ، ثم نفق على شابين كوفيين بعيدي الخاطر يعرفان بولدي إسماعيل بن حجاج المقدسي كاتب الجيش فنقلاه إليهما وأخذا عنه من العربية مازادهما يبساً وعمي قلب ، ولكنه لسان ثم خرج بعد ذلك إلى دمشق ، وادعى الرواية ، فقرأ عليه بعض المبتدئين .

وكان دميم الخلقة نحيلها ، قليل لحم الوجه ، قصير القامة . ولما رآه زيد بن الحسن الكندي لقبه المطجّن - والألقاب تنزل من السماء !! - فشاعت ولم يُعرف بعد ذلك إلا بها ، وكان يدعي تصنيف كتب ما فيها مبتكر ، وإنما يقف على تصانيف غيره ، فإما أن يختصر أو يزيد مالا حاجة إليه . وهي في غاية البرودة والركاكة . وكان إذا اجتمع بصاحب علم فر من الكلام معه في ذلك العلم ، وتكلّم في غيره مغرباً ، ولم يكن محققاً في شيء مما يقوله ويدعيه .

قال القفطي : « ولقد إجتمعت به واختبرته فرأيته فيما يدّعيه كالأعمى

(١) أنباه الرواة بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ .

الذي يتحسس ويدعي حدة النظر!، وما وثقت من روحي بذلك حتى سألت جماعة من أهل علوم متفرقة قد كان يدّعيها ، فذكروا من أمره بعدَ نظره وكلامه نظير ما علمته منه » .

قال : « وخطر له في شهور سنة ثمان وعشرين وستمائة السفرُ إلى العراق ليحج فمرض ببغداد ، وأخذ في مداواة نفسه بطبه ، فمات !!؟ - كما شاء الله في شهور سنة تسع وعشرين وستمائة . وأبيعت كتبه بحلب فوقعت على شيءٍ منها ، وهي في غاية الانحطاط عن رتبة الكمال . ونعوذ بالله من فتنة الدَّعوى » .

وواضح من كلام القفطي أنه متحامل على الرجل ، قادحٌ فيه ، ربما لما هو من جاري العادة بين العلماء من تحاسد ، وربما لأن الرجلين لم يتفقـا ، أو لأن القفطي كما رآه بعض علماء عصره كان مندفعاً هجاماً يسرع إلى العيب في الناس كبعض الناس ولا أستثني صاحب علم فهي طبيعة البشر .

ولعل هذا الموقف من أحد علماء العصر بين عالمين جليلين ، وما بدا فيه من تناقض شديد يفتح أعيننا على ضرورة الحذر الشديد فيما نأخذ وما ندع من تراثنا وما نعتقده وما نرفضه منه ، فلا نرتضي غير ما يثبت لدينا بالنظر الفاحص ، والحيدة والبعد عن هوى المذهب والعقيدة ، وعاطفة الحب أو الكراهة .

ومع هذا كله فنحن لا نعفيه أي عبد اللطيف البغدادي من التزيّد والادعاء في بعض ما قال وما نقل ، وشاهدنا كثير من المبالغات في وصف أحوال المجاعة في مصر ، وما ادعاه لنفسه من مواقف مع بعض العلماء الأجلاء من الاستعلاء عليهم .

ومما جاء من حديثه عن بعض ما رأى في مصر قوله فيها[1]:

« وأما أرض مصرَ فلها أيضاً خواص ، منها أنه لا يقع بها مطرٌ إلا ما لا احتفال به ، وخصوصاً صعيدها ، فأما أسافلها فقد يقع بها مطرٌ جودٌ لكنه لا يفي بحاجة الزراعة . وأما دمياط والإسكندرية ومادانا‌هما فهي غزيرة المطر ، ومنه

(١) الإفادة والاعتبار ص ١٦ .

يشربون . وليس بأرض مصر عينٌ ولا نهر سوى نيلها . ومنها أن أرضها رمليةٌ لا تصلح للزراعة لكنه يأتيها طينٌ أسود علك فيه دُسُومةٌ كثيرةٌ يسمَّى الإبليز يأتيها من بلاد السودان مختلطاً بماء النيل عند مدّه ، فيستقر الطين ، وينضبُ الماء ، فيحرث ويزرع . وكلّ سنة يأتيها طينٌ جديد . ولهذا تزرع جميع أراضيها ، ولا يراحُ شيءٌ منها كما يفعل في العراق والشام .

ومنها أن الفصول بها متغيرةٌ عن طبيعتها التي لها ، فإن أخص الأوقات باليبس في سائر البلاد أعني الصيفَ والخريف تكثر فيه الرطوبة بمصر بمد نيلها وفيضه ، لأنه يمدُّ في الصيف ويطبق الأرض في الخريف ، فأما سائر البلاد فإن مياهها تَنِشُّ في هذا الأوان وتغرز في أخفض الأوقات بالرطوبة أعني الشتاء والربيع . ومصر إذ ذاك تكون في غاية القحولة واليبس . ولهذه العلة تكثر عفوناتُها واختلافُ هوائها ، ويغلب على أهلها الأمراض العفنيّة الحادثة عن أخلاط صفراوية وبلغمية .

وأكثر أمراضهم في آخر الخريف وأول الشتاء ، لكنها يغلب عليها حميد العاقبة ، ويقل فيهم الأمراض الحادة والدموية .

واختار الروم الإسكندرية وتجنبوا موضع الفسطاط لقربه من المقطم ، فإن الجبل يستر عما في لحفِه أكثر مما يستر عما بعد منه ، ثم إن الشمس يتأخر طلوعها عليهم فيقلّ في هوائهم النضج ويبقى زماناً على نهوة الليل . ولذلك تجد المواضع المنكشفة للصَّبا من أرض مصر أحسن حالاً من غيرها . ولكثرة رطوبتها يتسارع العفن إليها ويكثر فيها الفأرُ ويتولد من الطين !. والعقارب تكثر بقوص . والبق المنتنُ والذبابُ والبراغيث تدوم زماناً طويلاً .

ومنها أن الجنوب إذا هبت عندهم في الشتاءِ والربيع وفيما بعد ذلك كانت باردة جداً ويسمونها المريسيَّ لمرورها على أرض المريس وهي في بلاد السودان . وسبب بردها مرورها على برك أو نقايع » .

وعن الحيوان بمصر يتحدث عن الحمير ، والبقر والخيل والتماسيح يقـــول[1]: « ومن ذلك الحمير بمصر فارهة جدًّا ، وتركب بالسروج ،

(1) الاعتبار ص ٣٨ .

وتجري مع الخيل والبغال النفيسة ولعلها تسبقها . وهي مع ذلك كثيرة العدد ، ومنها ما هو عال بحيث إذا ركب بسرج اختلط مع البغلات يركبه رؤساء اليهود والنصارى ، يبلغ ثمن الواحد منها عشرين ديناراً إلى أربعين » .

« وأما بقرهم فعظيمة الخلق حسنة الصور . ومنها صنفٌ هو أحسنُها وأغلاها قيمةً يُسمّى البقر الخيسيَّة ، وهي ذواتُ قرون كأنها القسيّ غزيرات اللبن » .

أما خيلها فعتاقٌ سابقةٌ ، ما يبلغ ثمنه ألف دينار إلى أربعة آلاف . وهم ينزون الخيل على الحمير ، والحمير على الخيل فيأتي البغلة ، وأمُّها أتان . ولكن هذه البغال لا تكون عظيمة الخلق كالتي أمهاتها حجورة لأن الأمّ هي التي تعطي المادة .

ومن ذلك التماسيح كبيرة في النيل وخاصة في الصعيد الأعلى ، وفي الجنادِل ، فإنها تكون في الماءِ وبين صخور الجنادل كالدود كثرةً ، وتكون كباراً وصغاراً وتنتهي في الكبر إلى نيفٍ وعشرين ذراعاً طولاً .

في اقتصاص ما شوهد من آثارها القديمة[1]:

« أما ما يوجد بمصر من الآثار القديمة فشيءٌ لم أر ولم أسمع بمثله في غيرها ، فأقتصر على أعجب ما شاهدته .

فمن ذلك الأهرام ، وقد أكثر الناسُ من ذكرها ووصفها ومساحتها ، وهي كثيرة العدد جداً وكلها في الجيزة وعلى سمت مصر القديمة ، وتمتد في نحو مسافة يومين . وفي بوصير منها شيءٌ كثيرٌ . وبعضها صغار ، وبعضها طينٌ ولبنٌ ، وأكثرها حجرٌ ، وبعضها مدرَّجٌ ، وأكثرها مخروط أملس .

وقد كان منها بالجيزة عدد كثيرٌ لكنها صغارٌ فهدمتْ في زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب على يَدَيْ قراقوش بعض الأمراء الكبار ، وكان خصيًّا روميًّا ،

(١) الإفادة والاعتبار ص ٤٤ .

سام الهمة ، وكان يتولى عماير مصر ، وهو الذي بنى السور من الحجارة محيطا بالفسطاط والقاهرة وما بينهما وبالقلعة التي على المقطم . وهو أيضاً الذي بنى القلعة وأنبط فيها البيرين الموجودتين اليوم ، وهما أيضاً من العجائب ، وينزل إليها بدرج نحو ثلاثمائة درجة . وأخذ حجارة هذه الأهرام الصغار وبنى بها القناطر الموجودة اليوم بالجيزة . وهذه القناطر من الأبنية العجيبة أيضاً ومن أعمال الجبّارين وتكون نيفاً وأربعين قنطرة . وفي هذه السنة وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائة تولى أمرها من لا بصيرة عنده فسدّها رجاءَ أن يحتبسَ الماء فيروي الجيزة ، فقويت عليها جرية الماء فزلزلت منها ثلاث قناطر وانشقّتْ .

وأما الأهرام المتحدث عنها المشارُ إليها الموصوفة بالعظم فثلاثة أهرام موضوعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط ، وبينها مسافاتٌ يسيرة ، وزواياها متقابلةٌ نحو المشرق . واثنان منها عظيمان جداً وفي قدرٍ واحد وبهما أولع الشعراء ، وشبهوهما بنهدين قد نهدا في صدر الديار المصرية . وهما متقاربان جداً ومبنيان بالحجارة البيض ، وأما الثالث فينقص عنهما بنحو الربع ، لكنه مبني بحجارة الصوان الأحمر المنقط الشديد الصلابة ، ولا يؤثر فيه الحديد إلّا في الزمن الطويل . وتجده صغيراً بالقياس إلى ذينك ، فإذا قربت منه وأفردته بالنظر هالك مرآه ، وحسر الطرف عنه تأمله .

قال[1]: « وخُبِّرنا أن في القرية المجاورة لهما قوماً قد اعتادوا ارتقاء الهرمين بلا كلفة فاستدعينا رجلاً منهم ورضخنا له بشيء فجعل يصعد فيها كما يرقى أحدنا في الدرج بل أسرع ، ورقى بنعليه وثيابه وكانت سابغة » .

قال[2]: « وكان الملك العزيز عثمان بن يوسف لما استقلّ بعد أبيه سوّل له جهلةُ أصحابه أن يهدم هذه الأهرام ، فبدأ بالصغير الأحمر وهو ثالثة الأثافي ، فأخرج إليه الحلبية والنقّابين والحجّارين وجماعةً من عظماءِ دولته وأمراء مملكته وأمرهم بهدمه ، ووكلهم بخرابه ، فخيّموا عندها وحشروا عليها الرجال

(١) الإفادة ص ٤٦ .

(٢) الإفادة ص ٤٨ .

والصنّاع ووفروا عليهم النفقات ، وأقاموا نحو ثمانية أشهر بخيلهم ورجلهم يهدمون كل يوم بعد بذل الجهد واستفراغ الوسع الحجر والحجرين ، فقومٌ من فوق يدفعونه بالأسافين والأمخال ، وقوم من أسفل يجذبونه بالقلوس والأشطان ، فإذا سقط سمع له وجبةٌ عظيمة مسافةً بعيدة حتى ترجف الجبال ، وتزلزلَ الأرض ، ويغوص في الرمل ، فيتعبون تعباً آخر حتى يخرجوه ، ثم يضربون فيه الأسافين بعد ما ينقبون لها موضعاً ويبيتونها فيه فيتقطّع قِطعاً وتُسحبُ كل قطعةٍ على العجل حتى تلقى في ذيل الجبل وهي مسافة قريبة . فلما طال ثواؤهم ونفدت نفقاتُهم ، وتضاعف نصبُهم ووهت عزائمهم وخارت قواهم كفُّوا محسورين مذمومين لم ينالوا بُغيةً ، ولا بلغوا غاية ، بل كانت غايتهم أن شوّهوا الهرمَ ، وأبانوا عن عجزٍ وفشل . وكان ذلك في سنة ثلاثٍ وتسعين وخمسمائة » .

وتحدث عبد اللطيف البغدادي عن آثار مصر من المعابد « البرابي » والتماثيل « الأصنام » و « المقابر » حديثاً واعياً ، لا حديث المتفرج الجاهل ، ومن الملاحظ أنه يطلق اسم القبط على سكان مصر عامة – لا يخص النصارى . يقول مثلاً :

« ولما رأى بنو إسرائيل تعظيم القبط هذه الأصنام وتبجيلهم إياها ، وعكوفهم عليها ، وألفوا ذلك وأنِسُوا به لطولِ مقامهم بينهم ، ثم رأوا قوماً من أهل الشام عاكفين على أصنام لهم : ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهتهم ، قال إنكم قومٌ تجهلون ﴾ . ولما كان النصارى معظمهم وجمهورهم أقباطاً وصابئة نزعوا إلى الأصل ، ومالوا إلى سنة آبائهم القديمة في اتخاذ التصاوير في بيعهم وهياكل عبادتهم ، وبالغوا في ذلك وتفننوا فيه . وربما ترامَوا في الجهالة والنَّوكِ حتى تصوَّروا إلههم والملائكةَ حوله بزعمهم . وجميع ذلك لبقايا فيهم من سُنَنِ أوائلهم .

ومازالتْ الملوكُ تراعي بقاء هذه الآثار ، وتمنع العيْثَ فيها والعبث بها ، وإن كانوا أعداء لأربابها . وكانوا يفعلون ذلك لمصالح منها لتبقى تاريخاً يتنبه بها على الأحقاب . ومنها أن تكون مشاهدة للكتب المنزلة . فإن القرآن العظيم ذكرها ، وذكر أهلها ، ففي رؤيتها خُبرْ الخَبرْ ، وتصديق الأثر . ومنها أنها

مذكرةٌ بالمصير والمآل . ومنها أنها تدل على شيءٍ من أحوال من سلف وسيرتهم وتوفر علومهم ، وصفاء فكرهم . وغير ذلك . وهذا كله مما تشتاق النفس إلى معرفته ، وتؤثر الاطلاع عليه » .



الباب الرابع

الشـــعر والشـــعراء



١

حال الشعر ورجاله :

لعب الشعر دوراً هاماً في أحداث هذا العصر ، وكان ترجماناً لما دار فيه ولم يقتصر الشعر على طبقة الشعراء المحترفين من مداحي الملوك والسلاطين والأمراء ، بل إن كثيراً من الناس قد تعلقوا به وصار لهم هواية محببة يلجأون إليه فيودعونه مايريدون التعبير عنه من مكنونات نفوسهم ، أو يتبادلون به التهاني والرسائل ، أو يتخذونه وسيلة للتسلية والمتعة في مجالسهم وأسمارهم . وكان من بين من قالوا الشعر فقهاء وعلماء وأطباء ومهندسون وتجار وجنود وقواد ، وأناس من عامة الشعب .

فمن علماء الشعراء الطغرائي صاحب لامية العجم ، كان خبيراً بصناعة الكيمياء ، وله فيها تصانيف[١]، ومن الأطباء ابن الساعاتي (توفى سنة ٦١٨ هـ) ، وكان طبيباً فاضلاً ، وأديباً شاعراً ، وله معرفة تامة بالمنطق والعلوم الحكمية ، وكان خبيراً في علم الموسيقى ، ويحسن الضرب بالعود[٢]، ومن التجار التوراني (توفى سنة ٥٨٠ هـ) ، أخذ عنه الجواليقي ، وكان عارفاً بالنحو ، جيد النظم والنثر[٣]، ومن الأطباء حكيم الزمان الجياني (توفى سنة ٦٠١ هـ) وقد رحل من الأندلس إلى بغداد ومدح السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وكان علامة زمانه في صناعة الطب والكحل بارعاً في الأدب وصناعة الشعر ، وعمر طويلاً ، وكان له حانوت لصناعة الطب ، وكان صلاح الدين يجري حقه له ويحترمه ، وللجياني فيه مدائح كثيرة . وصنف كتباً ، وله عشرة دواوين ، كما يقول ابن شاكر[٤]. وكان حمدان بن عبد الرحيم الأثاربي طبيباً شاعراً (توفى سنة ٥٥٤ هـ)[٥]، وكذلك كان الشاعر الأندلسي

---

(١) إرشاد ٤ / ٥١ .

(٢) المصدر نفسه ٤ / ٢١١ وهو أخو ابن الساعاتي المشهور أبي الحسن علي بن رستم الشاعر .

(٣) المصدر نفسه ٤ / ٢٣٠ .

(٤) فوات الوفيات ٢ / ٣٥ .

(٥) إرشاد ٤ / ١٤٣ .

أبو الحكم بن غلندو الإشبيلي المتوفي سنة ٥٨٧ هـ متميزاً بصناعة الطب[١].
ومن شعراء الجند الأسعردي (المتوفي سنة ٦٨٤هـ) وكان من جند الملك المنصور صاحب حماة وهو متأخر عن عصرنا ، وكان بديع النظم رقيقه لطيف التخيل[٢]، ويروي ابن شاكر له شعراً كثيراً .

إلا أن بعض هؤلاء لم يرق شعرهم إلى مرتبة الشعر الجيد ، ولم يبلغوا هم أنفسهم منزلة الشعراء المحترفين ، بل كان شعرهم غالباً كغيره من شعر العلماء الذي أشار إليه النقاد في العصور المختلفة ، من مثل شعر سيبويه والخليل بن أحمد وأضرابهما ، وقد بلغ من سخف شعر بعض العلماء أن أصبح مادة للتسلية والتندر والسخرية به وبأصحابه ، ويروي ياقوت أن تاج الدين الكندي سمع مرة شعراً للحافظ بن عساكر ، فقال : « هذا شعر أضاع فيه صاحبه شيطانه »[٣]. وقال ياقوت نفسه في شعر أحد العلماء : « ولهذا أشعار من هذا النمط ترك الكاغد أبيض خير من تسويده بها ! »[٤].

وليس معنى هذا أن كل من جمع بين العلم والشعر جاء شعره كذلك غثًّا بارداً رديئاً ، بل إننا نجد نماذج ممن جمعوا بين الإثنين ومع ذلك احتفظوا بمكانة رفيعة في عالم الشعر كابن التعاويذي وابن الهبارية – وقد نظم كتاب كليلة ودمنة – والأبيوردي وكان شاعراً وعالماً بالأنساب واللغة .

وأدى الشعر دوراً هاماً كما قلنا في معارك التحرير بين المسلمين والصليبيين وكانت له حظوته وأثره عند السلاطين والوزراء والأمراء والقواد ، وكان الشعراء ألسنة الثناء والدعاية لانتصاراتهم وأعمالهم . وهكذا ظل الشعراء المحترفون مقربين من أصحاب السلطة وكبار رجال الدولة ، وغالى بعضهم فقدم الشعراء على العظماء والرؤساء والقادة . وقد أشار الشاعر الفارسي

---

(١) إرشاد ٤ / ١٣١ .
(٢) فوات الوفيات ٢ / ٥٣٩ .
(٣) إرشاد ٥ / ١٤٥ .
(٤) إرشاد ٥ / ٤١٤ .

أنوري إلى ما بلغه الشعراء من المنزلة الرفيعة في بلاطات الملوك والسلاطين ووصفها في شعره[1].

وفي المشرق لم ينس سلاطين الدولة الخوارزمية أن يحيطوا أنفسهم بأنواع الأبهة والعظمة كما لم ينسوا أن يملأوا قصورهم بكل مباهج الحياة وميزاتها ، كما ملأوا قصورهم بالأدباء والشعراء من الفرس والعرب ، وكان لهؤلاء نصيب كبير من عنايتهم وتشجيعهم رغم أن السلاطين لم يعرفوا من اللغات إلا التركية وإن كان بعضهم يعرف من العربية والفارسية النزر اليسير[2]. وفي دولة السلاجقة وفي عصر السلطان سنجر المتوفي سنة ٥٥٢ هـ زاد عدد الشعراء زيادة عظيمة إلى درجة أنه يمكن تعداد اثنين وخمسين شاعراً غير الوزراء والأمراء والأطباء من الشعراء[3]، وكان بعض هؤلاء يقولون الشعر بالفارسية وآخرون يقولونه بالعربية ، ومن أشهر شعراء الفرس سنائي العظيم وهو أحد شعراء الصوفية العظام ، ومنهم كذلك العطار وجلال الدين الرومي[4].

وفي العراق كان ابن هبيرة الوزير العباسي يقرب الشعراء ويعطف عليهم ويصلهم بصلات سخية ويجري لهم الرواتب ، فانقطع له كثير منهم[5]، وبينهم الشاعر المشهور حيص بيص وابن التعاويذي والأبله ، وغيرهم كثير ، وكانت تجري في مجلسه معارضات ومباريات بين الشعراء يظهرون فيها براعتهم ، وكان ذلك يحدث كثيراً بين الحيص بيص وابن الفضل في مجلس الوزير الزينبي[6].

وكذلك كان الحال في الشام ومصر فقد كان كل من نور الدين محمود وصلاح الدين يقرب الشعراء ويجلس لاستماع قصائدهم في تسجيل الانتصارات أو تخليد المآثر التي يقومان بها ، وكانا لا يبخلان على الشعراء بالمال والعطاء الجزيل . وكان صلاح الدين يهوي الشعر ، ويحب أن يسمعه

---

(١) Browne 376 .

(٢) الدولة الخوارزمية ٧٧ .

(٣) Browne 344 .

(٤) Browne 317 .

(٥) وفيات الأعيان ٥ – ٢٧٨ .

(٦) فوات الوفيات ٢ – ٦٢٠ – ٦٢١ .

عندما يهجع إلى نفسه بعد المعارك . أو بعد المتاعب التي يلقاها في تصريف شئون الملك ، وكثيراً ما كان يستدعي بعض مقربيه ، ويطلب إليه أن يقرأ عليه في ديوان أحد الشعراء ، وكان ديوان ابن منقذ الشاعر الشامي المعاصر من آثر الدواوين لديه . كذلك كان ابن منقذ نفسه ، فقد حظى بعطفه في آخر أيامه وكان الشاعر قد بلغ من العمر مرحلة الشيخوخة .

واعتمد الشعراء المحترفون على الشعر للكسب ، وكثر المتكسبون به في هذا العصر لما رأوا من السلاطين والرؤساء إقبالاً ، وانقطع جماعة من الشعراء للكسب من وراء نظمه ، واتخذوا المديح والملق والزلفى مذاهب لهم لطلب المال والحصول عليه ، وشاعت نغمة السؤال والاستجداء الصريح من مثل قول ابن التعاويذي[1]:

أترضون يا أهل بغداد لي	وعنكم حديث الندى يسندُ
بأنّي أرحلُ عن أرضكم	أجوبُ البلاد وأسترفدُ
ألا رجلٌ منكُمْ واحدٌ	يحركه المجدُ والسؤدد
يقلّدني مِنّةً يسترقُّ	بها حُرَّ شكري ويسترفدُ
ويغضبُ لي غضبةً مرةً	يعود بها المصلح المفسدُ
لقد شانني أدبي بينكم	كما شين باللحية الأمردُ
أمالي فيكم سوى « شعره	رقيقٌ وخاطرهُ جيد »
يسركم أن يُغنّى به	ويُطربكُمْ أنه ينشدُ
وأقسمُ أن رغيفاً لديَّ	من قولكم جيداً أجودُ

وظهرت إلى جانب هاتين الطبقتين – طبقة العلماء والمتكسبين بالشعر – طبقة أخرى ، لا تقول الشعر تكلفاً ولا تكسباً ، ولكن تقوله عن وجدان فياض بأفكار ومعان وعقائد خاصة ، تلك هي طبقة شعراء الصوفية ، وكان لهذه الطبقة دنياها وعالمها الواسع العريض ، وكان شعرهم زاخراً بألوان من الغزل على طريقتهم في صياغة جميلة ومعان لطيفة ، وكان الشعر الذي ينظمونه ينشد في حلقاتهم ، وترعرع وفاض وجاد وغزر إنتاجه إلى حد بعيد ،

(١) ديوان ابن التعاويذي ١٣٩ .

« وأصبح يتوسل بضروب البلاغة إلى إحداث ضرب من التواجد في نفوس المستمعين إليه »[1].

ويعد ابن الفارض أشهر شعراء الصوفية من العرب على الإطلاق ، ويقول ابن خلكان[2]: « له ديوان شعر لطيف ، وأسلوبه فيه رائق ظريف ينحو منحى طريقة الفقراء ، وله قصيدة مقدار ستمائة بيت على اصطلاحهم ونهجهم ، وله دوبيت ومواليا وألغاز » . وقصيدته التي يشير إليها هي التائية المشهورة . وجعله نيكلسون لا يقل عظمة في شعره عن شعراء الصف الأول من الصوفية الفرس[3] وشعره عربي قديم الطابع في صياغته ومعانيه . وكان رقيقاً في غزله وخمرياته يكسو بهما تجاربه الصوفية .

وجعله ماسينيون أشهر شعراء هذا اللون في العربية هو والتستري مقابلين في الفارسية الجلال الرومي والعطار .

وجلال الرومي(المتوفي سنة ١٢٧٣)م من أعلام هذا الشعر في الفارسية ، وتأثر به كثير ممن أخذ عنه أو احتذى حذوه في الفارسية والعربية على السواء ، وقد ولد جلال الدين ببلخ سنة ١٢٠٧م ونزحت عائلته من بلخ إلى نيسابور وفيها التقى بفريد الدين العطار ثم اتجه غرباً حيث استقر في قونية بآسيا الصغرى (تركيا الآن) إلى أن مات ، ويعد جلال الدين أعظم شعراء الصوفية الفرس ، ومثنوياته تأخذ مكانها الرفيع بين أعظم أشعار الزمان[4].

وتغلب على شعر الصوفية بصفة عامة آثار الفلسفة الهندية ، وأن كثيراً من الأفكار المميزة لهذا اللون من الشعر مشتقة من الأفلاطونية الحديثة وهي التي أخذ أفلوطين بعض أصولها من الفلسفات الشرقية[5]. وإلى بعض آثار الرهبانية النسطورية .

---

(١) ماسينيون في مقال « تصوف » في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) وفيات الأعيان ٣ – ١٢٦ .

(٣) Nicholson 394 & Gibb: 92 .

(٤) Browne: 515 .

(٥) ماسينيون في مقال « تصوف » في دائرة المعارف الإسلامية .

وسبق قولنا إن شعر الصوفية كان ينشد في حلقاتهم . ونلاحظ أن هؤلاء الشعراء يمدحون في لغة صوفية الخمر التي حرمها الإسلام في هذه الدنيا وادخرت في الجنة للأبرار ، ويتغنون بكأس المحبة التي يديرها الساقي عليهم مسترسلين في أذكارهم ، وإنشادهم ملوحين بأيديهم يتملكهم هياج يخرج بهم أحياناً عن الطور[1].

٢

الشعر والعصر :

وسجل الشعر أحداث العصر وكان صورة لها عكس مراحل الحروب الصليبية ، وما حصل عليه المسلمون من انتصارات ، أو ما نكبوا به من هزائم ، فوصف مالاقاه المسلمون أول تلك الحروب على أيدي الفرنج الغاصبين من ضروب القتل والتخريب وخاصة في القدس ، وتشرد آلاف المسلمين وخروجهم من ديارهم هائمين على وجوههم لاجئين إلى بلاد الشام ومصر والعراق . وقد جاء إلى بغداد آلاف من هؤلاء في شهر رمضان شهر العبادات . يحملون معهم أنباء الرعب والخوف ويجرون أذيال الهزيمة التي لحقت بالمسلمين ، مما أفزع الناس وأقلقهم وحز في نفوسهم ، فهرع الناس في مدينة السلام إلى المساجد يستغيثون ، ويدعون الله أن يرفع ذلك الكرب . وقد وصف الأبيوردي الشاعر العراقي ذلك الحزن الشامل الذي انتاب بغداد في مرثية حزينة باكية جيدة (سنة ٤٩٢ هـ)[2].

وخلد الشعر الفارسي حوادث التتار المروعة ، وما جروه على بلاد المسلمين من تخريب وإحراق وخاصة في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري ، ولأنوري الشاعر الفارسي قصيدة سماها « دموع خراسان » يبكي

---

(١) المصدر السابق .

(٢) راجع هذه القصيدة في الكامل لابن الأثير حوادث سنة ٤٩٢ هـ ، وتاريخ أبو الفداء في السنة نفسها ، وراجع كذلك : Ameer Ali: A Short History of Saracens وديوان الأبيوردي .

فيها خراسان بعد غارة التتار وتدميرهم إياها ، وقتلهم أهلها وإشعالهم النار فيها[1].

وسطر الشعر بأبياته مفاخر الأبطال الكبار وانتصاراتهم ، ممن تصدوا للتتار البرابرة ، أو للصليبيين المغيرين . وعلى رأس هؤلاء الأبطال يقف نور الدين محمود ، وصلاح الدين ، وقد حظي هذان البطلان أكثر من غيرهما بالشعر الغزير لما قاما به من أعمال جليلة . إذ كان عقب كل موقعة يتم فيها النصر لأحدهما ، يجلس السلطان لسماع المدائح والإجازة عليها ، وكان لصلاح الدين النصيب الأوفر ، لشخصيته الفذة ، وانتصاراته الباهرة وكان بين من قام بمدحه من شعراء عصره من العراق ابن التعاويذي ، ومن شعراء الشام العرقلة والعماد الأصبهاني ، ومن شعراء مصر ابن سناء الملك وابن مماتي وغيرهم .

وكان لقواد صلاح الدين ورجاله المشهورين نصيب في الشعر لما أبدوه من ضروب الفروسية والشجاعة ، مما ألهج ألسنة الشعراء بالإشادة بهم إعجاباً وتقديراً ، وقد ذكر الغزّي الشاعر أبياتاً في جند صلاح الدين من الترك ، فقال[2]:

في فتية من جيوش الترك ما تركت	للرعد كَرَّاتهم صوتاً ولا صيتـــاً
قوم إذا قوبلوا كانوا ملائكـــة	حسناً وإن قوتلوا كانوا عفاريتـــا

ويعجب المتتبع لشعر العصر وشعرائه أن لا يجد بين أولئك الشعراء من يتناول شخصية أحد الأبطال ، فيحاول تخليدها بشعر يرسم معالمها كما فعل المتنبي مثلاً بالنسبة لسيف الدولة ، حيث رسم خطوط شخصيته واضحة في قصائده المعروفة بالسيفيات ، وهذه السيفيات تعتبر من أجمل وأخلد الشعر العربي ، وقد خلدت شخصية سيف الدولة كما لم تخلد شخصية من قبل في الشعر العربي ، بل كما خلد هوميروس أخيل ، وكان أجدر بصلاح الدين أن

---

(١) راجع Browne: 384 .

(٢) الجامع المختصر ٣ - ٤ .

يلقي متنبياً آخر في القرن السادس ، إلا أننا لا نجد سوى قصائد عادية في مستواها الفني ويبدو أن شعراء العصر كانوا مشغولين بالصنعة والمظهر اللفظي أكثر من العناية بروح الشعر مما جعل الشعر يخرج أحياناً عن طريق الفن والإبداع إلى مجموعة من الألفاظ والصفات المكررة ، والتي تحمل أوصافاً تحشد حشداً تنفر السامع بطول القراءة وتكسبه الملل والسأم .

وهكذا خرج فن المديح إلى مظهر شكلي لفظي ، بعد أن كاد المتنبي ارتقى به إلى لون آخر رفيع .

ولم يكن المديح مقصوراً على الأشخاص المعاصرين بل إن الشعراء تعرضوا في مدائحهم لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتوسلوا به إلى الله سبحانه لكشف الغمة عن أمته . ويجدر بالملاحظة حقاً أن المدائح النبوية في القرن السابع الهجري كانت قد بدأت تأخذ طريقها إلى الشعر العربي بشكل واضح ، وتصبح فنًّا مستقلاً بذاته . وحتى أصبح لا يخلو ديوان أي شاعر من شعراء هذا القرن والقرون التالية من قصائد ذوات عدد في مدح النبي . بل إن بعضهم قد أفرد دواوين بتمامها لهذا الفن . ومن أشهر أصحاب المدائح في القرن السادس البوصيري ، وقصائده مشهورة معروفة ، وأشهرها البردة والهمزية اللتان مازالتا تنشدان في المحافل الدينية وليالي المولد النبوي بصفة خاصة .

ولم تكن شخصية النبي وحدها موضوعاً لشعراء المديح ، بل إن بعض شعراء الصوفية قد نظموا مدائح في الله سبحانه وتعالى ، وقد يبدو هذا غريباً حقًّا ، ولكنه حدث فعلاً ، ومن هؤلاء الشعراء نجم الدين بن إسرائيل . قال في قصيدة سينية يمدح الله تعالى بدأها بقوله :

يا ناق ما دون الأثيل مُعَرَّسُ ... جِدِّي فصُبْحُك قد بدا يتنفسُ

واستصحبي عزماً يُبَلغكِ الحمى ... لتظل تغبطُك الجواري الكُنَّس

وهي في اثنين وستين بيتاً[1].

(١) يذكرها ابن شاكر في فوات الوفيات ٢ / ٤٣٧ .

والهجاء من الموضوعات التي كثر فيها القول في هذا العصر ، ولكنه هجاء يختلف في طابعه وخصائصه ومادته ، عن الهجاء التقليدي القديم ، عن هجاء جرير والفرزدق والأخطل ، أو هجاء ابن الرومي . وقد تعرض الهجاء للأشخاص والبلاد والأشياء الأخرى كالحمامات والمساكن ، بل إن بعضهم هجا صحن حلاوة[1]، ومن أشهر الهجائين ابن الهبارية ، وابن عنين ، وكان الأخير مولعاً بالهجاء وثلب أعراض الناس . وله قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً كثيراً من رؤساء دمشق سماها « مقراض الأعراض »[2]. وقد طرده صلاح الدين من دمشق لخبث لسانه . أما ابن الهبارية فكان كما قال ابن خلكان : « كثير الهجاء والوقوع في الناس ، لا يكاد يسلم من لسانه أحد » . ويقول عنه العماد : غلب على شعره الهجاء والهزل والسخف ، وسبك في قالب ابن الحجاج ، سلك أسلوبه ، وفاق في الخلاعة (توفي بكرمان سنة ٥٢٤هـ) .

ولعل اضطراب الحالة الاجتماعية وسوء أمور الناس وفقرهم مما دفع إلى تلك الألوان الهجائية ، فإن الظلم الاجتماعي ووصول جماعة من الناس إلى مراتب الجاه والسلطة ، وحصول آخرين على المال الوفير حتى بلغ بهم الغنى والثراء العريض مما جعل الناس يتحاسدون ، ويتحاقدون ، وينظر بعضهم إلى بعض ، فيرى المتخلف في المتقدم العري أنه لا يمتاز عنه في شيء ، بل قد يرى نفسه متقدماً عليه علماً ومعرفة وذكاء ، لهذا فهم يرون أن من وصل من الناس إلى ما وصل إليه من جاه أو مال إنما كان في غفلة الزمن ، لذلك نجد بعض الشعراء يترصد لبعض أولئك ويتعقبهم بلسانه الساخر يفضح معايبهم ، ويكشف للناس عوراتهم ونقائصهم ، وينشر مخازيهم ، وقد لا يكون غرضه من ذلك إلا الحصول على المال . ومن هؤلاء الشعراء ابن عنين المذكور ، وشاعر بغدادي آخر هو ابن القطان الخليع (المتوفي سنة ٥٥٨ هـ) ، وكان هذا الأخير مولعاً بالمتمجرفين يتولاهم ويتعقبهم بلسانه الساخر العابث[3].

وتجاوز الشعر هجاء الأفراد إلى هجاء الناس جميعاً ، وهجاء الزمن والدهر

---

(١) راجع فوات الوفيات ٢ / ١٦٧ .

(٢) وفيات الأعيان ٤ / ١٠٦ وراجع مرآة الجنان ٤ / ٧٠ .

(٣) راجع فوات الوفيات ٢ / ٦١٧ .

لما يجده الشاعر من فساد عام يستشري ولا يتبين له مخرجاً، فليس لديه من حيلة سوى أن يطلق لسانه على الجميع، لا يخلي من أحد، فترى أحدهم يقول مثلاً (وهو المسجف العسقلاني المتوفي سنة ٦٣٥ هـ)[1]:

أنا في جيل خسيس وقبيل وزمان
أمدح السلطان كي يصبح مالي في أمان
أكذا كان أبو تمام قبلي وابن هاني

بل نجد أن الفساد الاجتماعي يدفع بعض الشعراء إلى ما فشا في الناس من الظلم فيقول[2]:

أرى الناس مذ كانوا عبيداً لغاشم وخصماً لمغلوب وجنداً لغالب

وتأثر الغزل بروح العصر وقيمه ومثله، كما تأثر فنا المديح والهجاء؛ فشاع الغزل بالمذكر بصورة لم يسبق إليها حتى أصبح هذا الفن عادة للشعراء يفتتحون به قصائدهم كما كانت تفتتح قصائد الشعر قديماً بالنسيب وبكاء الأطلال وذكر الظعائن، بل إن المجتمع كان يسمح للمتزمتين والمعروفين بالتقوى والورع بالخوض في هذا الموضوع مجاراة لذوق العصر وتقاليده. فنجد شاعراً مثل عمر بن الوردي يعتذر عن افتتاح قصائده بالغزل باضطراره إلى ذلك خشية بوار أشعاره، فيضطر إليه اضطراراً حتى تروج وتذيع. يقول[3]:

أستغفرُ الله من شعر تقدّم لي في المُرْد قصدي به ترويجُ أشعاري

ويقول في موضع آخر[4]:

ما المردُ أكبرُ همّي ولا نهاية علمي
ولست من قوم لوطٍ حاشا تقايَ وحلمي
وإنما خرجُ دهري كذا فنفّقْتُ شِعْري

---

(١) فوات الوفيات ١ / ٥٣٦.
(٢) هو علي بن مقرب الأحسائي الشاعر المتوفى بعد سنة ٦١٨ هـ.
(٣) ديوان ابن الوردي طبعة حجرية سنة ١٣٠٠ هـ ص ٤٤.
(٤) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي لسيد كيلاني ص ٢٥٥.

وربما كان سبب انتشار هذا اللون من القول يرجع إلى سَبْي الحُروب من غلمان الفرنج ، وما كان يجلبه تجار الرقيق من أطفال الأتراك من أصقاع آسيا وأصبح هؤلاء بملاحتهم موضع قربي من الناس حتى إن الأمراء والسلاطين ، بل الفقهاء والعلماء لم يزعهم الدين والتقية عن أن يصطحبوا الغلمان الصباح الوجوه في مجالسهم ، ولم يروا عيباً أو بأساً في أن يختص أحدهم بواحد أو اثنين منهم لمرافقته في خلواته يستعملهم لطعامه ووضوئه .

وقد شاع في المجتمع الإسلامي غزل المذكر وغزل المؤنث ، نتيجة المكوف على لذة النساء واللذات الجسدية لقلة ما كان يشغل مثل هذا المجتمع من مشاغل سياسية ، وخاصة في العصور المتأخرة عصور الركود والانحدار والتدهور فلم يجد الناس شغلاً يملأون به الفراغ الكبير الذي يحسون به سوى الخلوة للنساء والغلمان .

ومن معاني هذا القول المطروقة الشائعة على ألسن شعراء العصر وصف العارض وقد خط فيه الشعر ، فبدا سواده إلى جانب بياض الوجه . ومنه قول الشاعر[1]:

لقـد أثـرت صدغـاه في لون خده	ولاح كفيء من وراء زجـــاج
ترى عسكراً للروم في الزنج قد بدتْ	طلائعـه تسـعى ليـوم هيـاج
أم الصبح بالليل البهـيم موشحـاً	حـكى آبنوسـاً في صفيحـة عـاج
لقد غار صدغاه على ورد خـدّه	فسـيَّجه من شـعرِه بسـياج

ولما كان هؤلاء الأتراك ممن يتعلمون صنعة الحرب ويبرعون فيها ويتفوقون في القتال ، ويخوضون المعارك في شجاعة وشهامة ، فقد مزج الشعراء بين هذه المعاني ومعاني الغزل ، وشتان ما بين الإثنين ، فذكروا اهتزاز العود كاهتزاز السمهري وفتك اللحظ كالصارم المشرفي ، وإصابة الجفون كالسهام المفوقة ، وانثناء الحواجب انثناء القسيّ أو الأقواس الموترة ... الخ .

وظلت بعض الموضوعات التقليدية التي اعتاد الشعراء القول فيها مجالاً للشعر في العصر كذلك ، ومن هذه الموضوعات وصف الخمر ومجالس

(١) الجامع المختصر ٩ / ١٤٢ .

الشراب ، وبرع فيها جماعة مثل ابن النبيه[1]، ولكنهم مع ذلك لم يبلغوا درجة السابقين أمثال أبي النواس ومسلم وغيرهما . ولكن جد موضوع آخر غير القول في الخمر ومجالسها وهو قريب منها ، ذلك هو القول في الحشيش ، وكانوا يسمونه حشيشة الفقراء ومن مفهوم الأبيات التي سنسوقها نستنتج أنه كان يشرب في الربط والمساجد وكان يداوم عليه الصوفية ، ومن هنا اشتق اسمه « حشيشة الفقراء » . وقد أخذ الحشيش طريقه إلى المجتمع الإسلامي وأصبح بالتالي موضوعاً للشعر ، وصار الشعراء يقرنون ويوازنون بينه وبين الخمر ، فيفضله جماعة ويرى تفضيلها آخرون وممن قال في هذا الموضوع من شعراء العصر الإسعردي ، (المتوفى سنة ٥٦٥ هـ) قال :

لك الخيرُ لا تسمع كلام المفَنِّـدِ	ودونك في فتيـاك غير مُقَلِّدِ
سألتَ عن الخضراء والخمرِ فاستمعْ	مقالة ذي رأيٍ مصيب مسـدَّدِ
وحقِّك ما بالخمر بعضُ صفاتِهـا	أتشرب جهراً في رباط ومسـجدِ
عليـك بهـا خضْراءَ غـير مبـالغ	بأبيض ورق أو بأحمـر عسـجدِ
ولكـن على رغـم المُدامِ هديـة	تنـزَّه عـن بيـع لغـير التزهُّـد
رياحينـه يحـكي الجنان اخضرارُها	وخمـرهم كالمارج المتوقِّـدِ
مُدامُهـم تُنسـي المعـاني وهـذه	تذكِّرُ أسـرار الجمـال الموحَّـدِ
هي السرُّ ترقى الروح فيها إلى ذرا الـ	ـمعالم في معـراج فَهْـم مجـرَّدِ
بل الروح حقًّـا لا تحُـلُّ بربعهـا	هـموم ولا يحظى بها غير مُهتَـدِ

ويقول في قصيدة أخرى يفضل الخمر على الحشيش[2]:

أترضَى بأن تمشي شبيه بهيمـة	بأكْـلِ حشيش يابس غير أرْغـد
فَدَع رأيَ قـومٍ كالدَّواب ولا تُدِرْ	سِـوى دُرَّةٍ كالكواكـب المتوقِّـدِ
مدامٍ إذا ما لاح للركـب نورهـا	وقـد حلَّ ليلاً عـاد بالنور يهتـدي
حشيشتهم تكسو المهيب مهـانةً	فتلقـاه مثـل القـاتل المتعمـدِ
وتبدو على خديه مثل اخضرارهـا	فيضحي بوجه مظلم اللَّون أرْبـدِ

---

(١) راجع قصيدته في فوات الوفيات ٢ / ١٤٦ - ١٤٧ .

(٢) فوات الوفيات ٢ / ٣٣٣ .

وتُفسِدُ من ذهْنِ النديم خيالَه ... فينظر مُبْيضَّ الصباح كأسود
وحمرتنا تكسُو الذليلَ مهابةً ... وعزًّا وتلقى دونَه كل سيِّدِ

ويتصل بالقول في الغزل والخمر والحشيش وما إليها القول في الأديرة ، ومطارح اللهو والمتنزهات من الرياض وشواطىء الأنهار والبحيرات وما إليها . وكثيراً ما يغشى تلك الأماكن جماعات من الشعراء والأدباء ممن عرفوا بخفة الظل وحلاوة النكتة وسرعة البديهة وتوقد الخاطر ، والميل إلى الخلاعة والمرح والمجون ، ليكونوا عنصر ترويح عن الجماعة ، وليخلعوا على جو المجالس أفانين من اللهو والخلاعة . وقد عاش في هذا العصر جماعة من الخلعاء وأصحاب المجون من الشعراء ، ممن اتخذوا من خلعاء العصر العباسي في القرنين الثاني والثالث أمثال أبي نواس وأبي دلامة والحسين بن الضحاك وأضرابهم أئمة يحتذون على منوالهم ، فكان منهم في الموصل ابن الأردخل[1]، وأبو القاسم الإسطرلابي « المتوفي سنة ٥٣٢ هـ » . يقول ابن خلكان : « وكان كثير الخلاعة يستعمل المجون في أشعاره حتى يفضي به إلى الفحش في اللفظ »[2]. وابن جكينا الحسن بن أحمد بن محمد البغدادي (المتوفي سنة ٥١٨ هـ) ، يقول ابن العماد الكاتب : « أجمع أهل بغداد على أنه لم يرزق أحد من الشعراء لطافة شعره ، وكان من ظرفاء الشعراء الخلعاء وأكثر أشعاره مقطعات »[3].

وقريب من هذه الفنون ذكر الغناء ووصف المغنين والمغنيات مدحاً وهجاء ووصفَ آلة الطرب وصفاً يبلغ أحياناً حد الإبداع ، ويدعو إلى الإعجاب .

ومن أمثلة هذا وصف الحصكفي الشاعر الأديب لمغن قبيح في صورة رسم فيها أحاسيسه ، تذكرنا بوصف ابن الرومي لشنطف المغنية[4].

وأجاد الشعراء وصف الرياض وأماكن النزهة الجميلة ، وبرع في وصف الطبيعة بصفة خاصة شعراء الأندلس ، ونذكر منهم في هذا العصر البلنسي[5]

(١) فوات الوفيات ٢ / ٣٧٨ .
(٢) وفيات الأعيان ٣ / ١٠١ ، ١٠٣ ، وراجع فوات الوفيات ٢ / ٦١٦ .
(٣) فوات الوفيات ١ / ٢٢٩ .
(٤) وفيات الأعيان ٥ / ٢٥٢ .
(٥) راجع ترجمته ، فوات الوفيات ٢ / ٨٢ – ٨٣ .

يروي له ابن شاكر أبياتاً جميلة في وصف دولاب ماء وسط الرياض ، وأخرى في وصف سحابة .

وقال ابن سعيد في الروضيات[1]:

إذا الغصون غدت خفاقة العَـذبِ ... فاسجد هديت إلى الكاسات واقتربِ
وطارت الورقُ في أرواقها طربـاً ... ومل إذا مالت الأغصان من طرب
وانهض إلى أم دفْرٍ بنت دسـكرةٍ ... تجلى عليك بإكليل من الذهـبِ
وللأزاهـر أحـداقٌ محدّقـةٌ ... قد كحلتها يمين الشمس بالذهب

ووصف الشعراء أشياء لم يكن القدماء يعنون بوصفها أو الاهتمام بها في شعرهم فنجد أحدهم يصف هرة أليفة وصفاً جميلاً إنسانياً رقيقاً وهو الفضل ابن إسماعيل الحرماني[2]، ووصف آخر أشياء من آلات المنازل وأثاثه كإبرة في لباد أحمر[3] أو بعض ما تقع عليه العين في الحقول فيصف حقْلا كان به غربان[4]، أو يصف أحدهم جرادة فيقول محب الدين الشهروزي :

لها فخـذا بكـرٍ وسـاقا نعامـة ... وقادمتـا نسـر وجؤْجـؤُ ضيغـم
حبتها أفاعي الرمل بطناً وأنعمـت ... عليهـا جيـاد الخيل بالرأس والفـمِ

وهو وصف يصور دقة الشاعر وأناته في رسم الصورة .

ومن الموضوعات الطريفة لشعر العصر ما قاله الفضل بن إسماعيل في وصف هرة[5].

إن لي هرةً خضـبَتْ شعرهـا ... دون ولـدان مـنزلي بالزقـون
ثم قلدتُهـا لخـوفي عليهـا ... ودعـاتٍ تَـرُدُّ شـرَّ العُيـون
كل يـوم أعولهـا قبـل أهـلي ... بزلال صـافٍ ولحـم سَـمِين
وهي تلعابـةٌ إذا ما رَأتْـني ... عابسَ الوجْـهِ وارِمَ العِـرنيـنَ

(١) فوات الوفيات ٢ / ١٨٠ .
(٢) إرشاد ٦ / ١٣٣ .
(٣) هو البلنسي الشاعر – فوات الوفيات ٢ / ٨٢ .
(٤) البلنسي كذلك المصدر نفسه .
(٥) إرشاد الأريب ٦ / ١٣٣ .

فتغنى طوراً وترقص طورا ... وتلهي بكل ما يُلهيني

لا أريد الصلاة إن ضاجعتني ... عند بردِ الشتاء في كانونِ

وإذا ما حككتُها لحَسَّتْني ... بلسانٍ كالمبردِ المسْنُونِ

وإذا ما جفوتُها استعطفَتني ... بأنين من صوتِها وحَنينِ

أملحُ الخلقِ حينَ تلعب بالفأ ... رِ تلقيهِ في العذاب المُهينِ

وإذا ماتَ حِسُّه أنْشَرتْهُ ... بشمالٍ مكروبةٍ أو يمينِ

وتُصاديه بالغفول فإن را ... مَ انجحاراً علته كالشاهِينِ

وإذا ما رَجَا السلامة منها ... عاجلتْهُ بنَشْطةِ التنينِ

ومن موضوعات الشعر الألغاز . وكان الشعراء يتراسلون بها ويقضون أوقاتهم في عملها وحلها . وهي تدل على مدى قدرة الشاعر وتمكنه ، وكانت مجالاً ليتبارى فيها الأدباء ، ونبغ في عملها جماعة ، وألف فيها آخرون كتباً جمعوا فيها ما وقعوا عليه منها مثل علي بن عدلان الربعي (المتوفي سنة ٦٦٦ هـ) ، ألف كتاب : « عقلة المجتاز في حل الألغاز »[١].

ويتصلُ بالألغاز ضروب المداعبات الشعرية الأخرى التي تعتمد على النكتة أو اللمحة البادرة ، أو تضمين أبيات من الشعر المشهور لشعراء معروفين . ومن طريف ما يروى في هذا أن ابن شيث كتب مرة للملك المعظم عيسى أنه لما فارقه ودخل منزله طالبه أهله بما حصل له مع السلطان ، فقال لهم : ما أعطاني شيئاً ، فقاموا إليه بالخفاف وصفعوه فكتب بعد ذلك شعراً يقول فيه[٢]:

وتحالفت بعض الأكف كأنها الـ ... ـتصفيق عند مجامع الأعراس

وتطابقت سود الخفاف كأنها ... وقع المطارق من يد النحّاس

فرمى المعظم الرقعة إلى فخر القضاة ابن بصاقة وقال : أجبه عنها ، فكتب إليه نثراً وفي آخره :

---

(١) فوات الوفيات ٢ / ١٢٢ .

(٢) فوات الوفيات ١ / ٥٦١ .

فاصبر على أخلاقهن ولا تكن متخلقاً إلا بخلق الناس
واعلم إذا اختلفت عليك بأنه (ما في وقوفك ساعة من باس)

والعجز صدر بيت مشهور لأبي تمام تمامه « نقضي ذمام الأربع الأدراس » .

واستخدم الشعر كذلك في نظم المسائل المختلفة في العلوم العقلية والطبيعية ، فنظموا في الفلك ، وما يتعلق به من تنجيم . وقد كانت له مكانة معروفة في هذا العصر ، وكثيراً ما كان الأمراء والسلاطين يستطلعون آراء المنجمين ليروا لهم الطالع قبل خوض المعارك أو لقاء الأعداء ، وإن كثيراً من تخرصات المتنبئين والمنجمين كانت تتكشف عن عكس ما أخبرت به ، وعندئذ يصبح المنجمون هدفاً للسخرية من الشعراء[1].

وتركت أحوال المجتمع التي أشرنا إليها في الفصل الثاني أصداءها في الشعر وأول ما سجله منها الاضطراب والتحول في أمور الناس والمعايش ، وكثرة الحوادث وتقلب الدول ، والارتفاع والانخفاض ، قال ابن زبارة[2]:

باضطراب الزمان ترتفع الأنـ ـذال فيه حتى يعم البلاءُ
وكذا الماءُ ساكناً فإذا حر ك ثارت من قعره الأقذاءُ

وصار الشعر متنفس المحروبين ، والمحرومين ، يعبرون به عن لواعجهم ومشاعرهم المكبوتة من ظلم القادة ، وعنف الحكام ، وغدر بعضهم ، فنرى في هذا العصر ظاهرة أخذت مكانها في الشعر ، هي كثرة الحديث عن عدوان الدهر ، والشكوى المريرة من الزمن ، وظهر بشكل ملحوظ موضوع أصبح من موضوعات الشعر المطروقة هو القول في السجن ، وشكوى عذابه وآلامه ، وقد نجد بعض الشعراء يكثر من هذا الحديث حتى تصبح له دواوين بتمامها فيه ، أو قصائد طويلة متواترة مثل الشاعر الفارسي مسعود بن سعد بن

(١) راجع الروضتين ٢ / ٧٣ .
(٢) وفيات الأعيان ٥ / ٢٨٩ .

سليمان فقد كتب مجموعة من القصائد في حبسه سماها « حبسيات »[1]، وللخاقاني (المتوفي سنة ٥٨٢ هـ) حبسية مشهورة[2].

ولم يكتف الشعر بترديد نغمات التوجع والأنين ، والتحسر على الزمان والوقوف أمام الأحداث موقفاً سلبياً ، بل كان يلجأ أحياناً إلى نقد الأحوال الاجتماعية في مرارة ، فيتبرم بالمكوس الباهظة المرهقة ، ويدعو أولي الأمر إلى رفعها أو تخفيفها أو الرفق في تحصيلها ، ومن ذلك ما ذكره الشاعر المغربي ذوبان بن عتيق ، وأورده الحافظ السلفي في معجمه – قال – وقد طولب بمكس كان يتولاه يهودي[3]:

يا أهل دانيـــة لقــد خالفتمــوا	حــكم الشريعــة والمـروءة فينــا
مالي أراكم تأمرون بضـــد مــــا	أمَــرتْ ، تُرى نســخ الإله الدينـا
كنــا نطــالبُ لليهــود بجزيــةٍ	وأرى اليهــود بجزيــة طلبونــا
ما إن سمعنــا مالكــاً أفــتى بذ	لــك لا ولا ســـحنونــا
هذا ولو أن الأئمـــة كلهــــم	حاشــاهم بالمكــس قد أمرونــا

وجأر ابن جبير في الرحلة بالشكوى من عمال المكوس بالإسكندرية . وتناول بعض الشعراء عمال الحكومة وموظفيها بالنقد والتجريح والتشهير ففضحوا أعمالهم وإهمالهم وسرقاتهم واستيلاءهم على أموال الشعب والإسراف في اختلاسها أو الجور في التحصيل ، وأخذ ما ليس لهم حق فيه باطلاً ، ونرى البوصيري يصور أحوالهم الفاسدة في قصيدة طويلة جيدة يقول فيها :

نقـــدت طــوائف المستخدمينا	فلم أر فيهــم رجــلا أمينـــا
فقــد عاشرتهــم ولبثت فيهــم	مع التجــريب من عمــري سنينا
فكتّــابُ الشـــمال هــم جميعــاً	فلا صحـــبت شـــمالهم يمينـــا
فكــم سرقوا الغلال وما عرفنـــا	بهــمْ فكأنهــم ســـرقوا العيونـا
ولولا ذاك ما لبســـوا حريــراً	ولا شـــربوا خمــور الأندرينـــا

(١) Browne: 324

(٢) المصدر نفسه .

(٣) معجم السلفي مصور ورقة ٤٨ .

ولا ربــوا من الولــدان مُرْدا   كأغصـــانٍ يمــلن وينحنينـــا
وقـد طلعــت لبعضـــهم ذقـــون   ولكنْ بعــد أن حلقــوا الذقونـــا

* * *

أمولاي العــزيز غفـــلت عمـــا   يــتم من اللئـــام الكاتبينـــــا

ونجد كذلك نماذج من الشعر الإنساني الجياش بالعواطف الإنسانية العميقة إلى جانب الألوان التي أشرنا إليها من شعر المديح والهجاء واللهو والتسلية فكم تغنى الشعراء بالعاطفة الصادقة ، يلونونها أحياناً بألوان تقليدية ، فنجدهم يشتاقون إلى نجد وصبا نجد ، متطلعين إلى الأرض المقدسة والروضة الشريفة حيث ينشدون الراحة النفسية والمتعة الروحية إلى جوار ربهم ونبيهم ، بعد أن حرموا لذة العيش ومتعته في عصر اضطربت أموره ، وغامت سماؤه ، لهذا كثر ذكر الشعراء لنجد وصبا نجد وريم نجد ، وكلها رموز للمعاني الدينية ، وهي عاطفة إنسانية عميقة صادقة أصيلة ، يعبر الشاعر عن شوقه للنبي ، وحبه لجناب خالقه فيرمي ببصره وقلبه إلى الأرض التي اختارها البارىء موطناً لنبوته ورسالته ، الأرض التي جعلها الله تعالى منزلاً للشريعة والقرآن ، منزلاً للعدل والتسامح والتعاطف والمعاني الإنسانية الرفيعة . ويتغزل الشعراء في حبيبات وهميات يشونهن آلامهم ولواعجهم ، ويتأسون بشميم العرار والشيح ، ويسرحون وراء الظباء في الفيافد ، ويطلقون الأعنة للخيال فيسبح بهم في عوالم بعيدة عن واقعهم المليء بالأشجان والأحزان ، ولعل لشعراء الصوفية أثراً كبيراً في إشاعة هذا اللون من الشعر .

وكم نرى من شعراء غلبت عليهم العاطفة الدينية ، فصاروا يشدون بأبيات النسك والزهد بدلاً من الغزل والصبابة ، يدعو الشاعر فيها نفسه إلى الإذعان والقناعة والانكسار عن التكالب في طلب العيش ، والانكفاء عن المطامع وطريقها المليء بالأشواك والأخطار والمهالك ، ويدعو غيره إلى طريقته ، وينصحه بترك السبل المعوجة والتزام الطريق السليم المستقيم مثل قول الشاعر[1]:

(١) وفيات الأعيان ٥ / ٢١٩ .

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ... وللمشتري دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه فهو من ذين أخيبُ

ونرى أصحاب هذا الاتجاه يحاولون أن يقنعوا أنفسهم بشتى الأساليب بجدوى هذه السبيل التي يسلكون ، ويحتجون بعديد الحجج لذلك القعود عن الطموح والسعي ، ولنتدبر قول قائلهم وهو ينهي ويثبط المتطلع للوزارة فيقول[1]:

لا تغبطن وزيراً للملوك وإن ... أناله الدهر منهم فوق همته
واعلم بأن له يوماً تمور به الأر ... ض الوقور كما مارت لهيبته
هرون وهو أخو موسى الشقيق له ... لولا الوزارة لم يأخذ بلحيته

فيحتج بأن هارون أخا موسى لولا أنه تولى له الوزارة لم يغضب عليه موسى ولم يأخذ بلحيته . وترى أحدهم يدعو إلى الطريق السوي محتجاً بحجة طريفة ، فيقول : إن ألف الكتابة أكثر الحروف استقامة ، ولهذا تقدمت عليها جميعاً في الأبجدية ، فينبغي إذاً الاستقامة في طلب الحاجات . قال :

إن كنت تسعى للسعادة فاستقم ... تنل المراد ولو سموت إلى السما
ألف الكتابة وهو بعض حروفها ... لما استقام على الجميع تقدما

وخاض الشعر في العقائد ، وأصبحنا نرى شعراء المذاهب والنحل يتجادلون في عقائدهم ومذاهبهم ، ويرددون حجج المعارضين ويدلون بحججهم ، فشعراء أهل السنة يندون بالمعتزلة والشيعة الباطنية ، وهؤلاء يردون على أولئك وينتصرون لعقائدهم ، واتخذوا من الشعر منبراً لنشر الآراء حتى تذيع بين الناس ويسهل تناقلها ، لسهولة حجة الشعر في العلوق بأذهان العامة ، ويقتنعون عاطفياً إذا ما دق عليهم أو شق الاقتناع عقلياً . ونمثل لهذا بشعر أحد أهل العدل من المعتزلة إذ يقول في الجبرية[2]:

المجبرون يجادلون بباطل ... بخلاف ما يتلون في القرآن
كل مقالته : الإله أضلني ... وأراد ما قد كان عنه نهاني

(١) وفيات الأعيان ٥ / ٢٨٩ .
(٢) معجم السلفي مصور ق ١٣ .

أيقــول ربك للبريَّــة آمنــــوا ويصـــدهم عن منهــج الإيمـــانِ
إن صــح ذا فتعوذوا من ربكـــــم ودعـــوا تعــوذكم من الشـــيطانِ

ويرد عليه الجبري فيقول :

ما أبعـــد القـــاصي عن المتـــداني وســـنا الهدايــة من دجــى الكفــران
قل للجهـــول بربــه وبمــا أتـــى من قولـــه في محـــكم الفرقـــان
أنســـيت ربَّــك غــرة وجهـــالة للعجـــز والتقصـــير والنقصـــانِ
إن كــان ليـس يتم عَــدلُ شــاءَه ويتم ما تهـــوى من الطغيـــان
فكــفى بذا عجــزاً له ونقيصـــةً واحـــكم فأنت إذاً إلــه ثـــان

تلك إذاً هي موضوعات الشعر ، ومعانيه .

٣

مذاهب الشـــعر وفنـــونه :

ولشعر العصر ملامحه الأسلوبية ، التي تلون الصورة والشكل الفني أو الإطار الذي ظهرت فيه تلك الموضوعات . وقد تنوعت المذاهب الفنية في شعر العصر ، فنرى بعض الشعراء قد انتحوا ناحية القديم ينهجون على نهجه ، ويصطنعون أساليبه ومعانيه ، والتزم آخرون مذهب الصنعة والبديع ، وجمع فريق ثالث بين المنهجين فأخذوا من القديم معانيه ، ومن الجديد أساليبه .

أما التقليديون ، أنصار المذهب القديم فقد كان منهم ، بل من الرواد الأوائل في العراق الطغرائي (قتله السلطان محمود السلجوقي سنة ٥١٤ هـ)[١]، وله لامية العجم التي حاول فيها تقليد لامية الشنفري ، ويقول عنه ياقوت إنه كان آية في الكتابة والشعر خبيراً بصناعة الكيمياء ، وخدم السلطان ملكشاه ، وكان منشىء السلطان محمد بن ملكشاه ولازمه مدة ملكه فتولى ديوان الطغراء (وهي الطرة التي تكتب في أعلا المناشير فوق البسملة

(١) أتابكة الموصل ص ٤٢ ويذكر ياقوت أنه قتل في المزحمة بين السلطان مسعود والسلطان محمود السلجوقيين سنة ٥١٠ هـ وقد جاوز الستين .

بالقلم الجلي تتضمن اسم الملك وألقابه ، وهي أعجمية محرفة من الطرة) ، وله ديوان شعر . واشتهرت لاميته ، لبلاغته ورصانة أسلوبها وتولى شرحها جماعة من علماء عصره والعصور التالية .

ومن التقليديين حيص بيص (المتوفي سنة ٥٧٤ هـ)[١]، وكان شاعراً فقيهاً شافعي المذهب . إلا أن الأدب ونظم الشعر غلبا عليه ، فصار من مشهوري الشعراء في عصره ، وكان أعلم الناس بأخبار العرب ولغاتهم وأشعارهم ، وله ديوان شعر وديوان رسائل . وكان أميل إلى التقعر في أسلوبه ، يميل إلى الإكثار من الغريب في لغته . وفي حديثه كان لا يكلم الناس إلا كلاماً معرباً .

ومنهم **ابن التعاويذي** (المتوفي سنة ٥٨٤ هـ)[٢] أبو الفتح محمد بن عبيد الله ابن عبد الله بن التعاويذي ، ويسمى سبط ابن التعاويذي ، وكان كاتباً بديوان المقاطعات ، وكان شاعر العراق في وقته . اجتمع به العماد الأصبهاني وصحبه زمناً ، وانتقل إلى الشام ، والتحق بصحبة صلاح الدين ومدحه بثلاث قصائد أنفذها إليه من بغداد ، إحداها عارض بها قصيدة صرَّ درَّ التي أولها :

أكــــذا يُجـــــازى ودُّ كــل قـرين

فقال ابن التعاويذي وأحسن[٣] :

إن كان دينـك في الصبابة ديــني فقـف المطـــى برمــلتي يبريـــن

واتصل بعون الدين بن هبيرة الوزير العباسي ومدحه ، وشعره من حيث موضوعاته متعدد الألوان يجمع بين المديح وغيره ، إلا أن المديح غالب . وديوانه يصور لك رجلاً متعلقاً بالمال يطلبه من هنا وهناك ، يمدح أو يهجو ليحصل عليه ، وينزل أحياناً إلى مرتبة الاستجداء والتصريح بالطلب ، مما يخلع على شعره طابعاً ممجوجاً مملا ، إلا أنه حين كان يخلو إلى نفسه ويصرح بخباياها كان يجيد ، وتتكشف ملكته عن جدهـا ، وله قصيدة في وصف فقره وعياله

---

(١) إرشاد ٤ / ٢٣٣ ، وفيات الأعيان ٢ / ١٠٦ .

(٢) وفيات الأعيان ٤ / ٩٠ وما بعدها ويذكر أبو شامة في الروضتين أنه توفي سنة ٥٨٣ هـ .

(٣) ديوانه مطبوع والقصيدة به ص ٤٢٠ .

تذكر بقصائد ابن الرومي في هذا الموضوع[1]، وله قصائد في الغزل والنسيب مشهورة. وله في موضوعات متفرقة، في حصار بغداد بواسطة جيوش السلطان محمد السلجوقي وحسن بلاء الخليفة العباسي وجنده وأهالي بغداد حتى جلى جيش السلجوقي. ومن شعره في بغداد يصور أحوال الناس[2]:

يا قاصداً بغداد جز عن بلـــدةٍ ... للجـــور فيهـا زخـرة وعبـــابُ
إن كنت طالب حاجة فارجع فقد ... شُـــدّت على الراجي بها الأبـــواب

يقول فيها:

والناس قد قامت قيامتهـم ولا ... أنســـاب بينهـم ولا أســـبابُ
والمـرءُ يسـلمه أبـوه وعرســه ... ويخونـه القربـــاءُ والأصحـــاب
لا شـافع تغـني شفاعتـه ولا ... جـان لــه ممـا جنـاه متـــابُ
شـــهدوا معادهـــم فعـاد مصدقاً ... من كـان قبـلُ ببعثـه يرتـابُ
حشـر وميـزان وعرض جرائد ... وصحـائف منشـورة وحسـابُ
وبهـا زبانيـة تبث علـى الورى ... وسـلاسـل ومقامـــعٌ وعـذاب
ما فاتهـم من كل ما وُعدوا بـه ... في الحشـر إلا راحـمٌ وهـــاب

وله شعر خفيف الروح مثل قوله في حمل أهدى إليه[3]:

وباخــل جـاد علـى بخـلـه ... محتفـــلا في عمـــره مـــرهْ
أهـدى إلينـا حَمَـلاً يابسـاً ... ما رويـت من دمـه الشّـفرَهْ
فخِلتُـــه حـين تأمّلتُـــه ... صـبّا مشـوقاً من بني عُـذرَه

وله في عماه أشعار كثيرة يرثي بها عينيه ويندب زمان شبابه وتصرمه[4]، ومنها قولـه:

أتُـرى تعُـودُ لنـا كمـا ... سَـلَفتْ ليـالِي الأبرقـين
فتـكُرُّ عاطفــةُ بوصـــ ... ــلِ واجتمـاع بعـد بَـيْن

---

(١) يذكرها ياقوت معجباً إرشاد ٦ / ٣٧ - ٣٨.

(٢) الديوان ص ٤٧.

(٣) الديوان ٢١٧.

(٤) وفيات الأعيان ٤ / ٩٠.

ويقـول فيها :

وأصبحْت في عيني التي كانت هي الدنيا بعين

عين جَنَيْتُ بنورها نور العلوم وأي عيْن

حالان مَسَّتْني الحوادث فيهما بفجيعتين

بظلام عين في ضيا ء مشيب رأس سرمدين

والقصيدة زاخرة بالحسرات والألم مع هذا الوزن الحزين الذي ينتهي بالنون المكسورة التي تسبقها الياء الساكنة فتعطي النغم الحزين الذي يهيء الجو للمعاني النابضة من نفس كسيرة .

وأسلوبه يغلب عليه الطابع القديم كما قلنا . يقول عنه ياقوت الحموي : وشعر أبي الفتح غرزٌ ، وديوانه كبير يدخل في مجلدين ، جمعه بنفسه قبل أن يضر ، وافتتحه بخطبة لطيفة ورتبه على أربعة أبواب[1]... وقال عنه ابن خلكان : « كان شاعر وقته ، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقتها ، وهو في غاية الحسن والحلاوة ، وفي اعتقادي لم يكن قبله بمائتي سنة من يضاهيه ، ولا يؤاخذني من يقف على هذا الفصل ، فإن ذلك يختلف بميل الطباع ، ولله در القائل :

وللناس فيما يعشقون مذاهب »[2]

وكان ابن التعاويذي يقلد الشعراء القدماء المعروفين ، ويحاول أن يحتذى في بعض قصائده على قصائدهم عن طريق المعارضة ، ومن معارضاته قصيدته التي يمدح بها صلاح الدين ويبدؤها بقوله[3]:

سِرْبٌ مهىً أم دمى محاريب أم فتيات الحيّ الأعاريبِ

يعارض فيها قصيدة المتنبي البائية :

من الجآذر في زي الأعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب

---

(١) إرشاد ٢ / ٣٧

(٢) وفيات الأعيان ٤ / ٩٥ .

(٣) ديوان ابن التعاويذي ص ١ ط مرجليوث بمصر سنة ١٩٠٣ م ص ١٨ .

والأبيوردى الشاعر العربي . عاش بأصبهان وكان ينتسب إلى بني أمية وعبد شمس ، وكان كثير الاعتزاز بنسبه هذا في شعره ، كما كان دائم الفخر بعروبته ، وكان ينهج منهج الشعر العربي القديم في الصياغة والمعاني جميعاً . يبدأ قصائده بالغزل ، غزلاً عربياً يتنقل بك فيه في الصحراء ونجد وينتقل من منابت الشيح والعرار والقيصوم ؛ وهو مغرم بنجد ، يكثر من ذكرها في شعره ، ويفرد جزءاً من الديوان لشعره فيه يسميه باب النجديات ، ولم يتسول في شعره تسول ابن التعاويذي ، بل ظل عفًّا أبيًّا كريماً في حياته وشعره جميعاً .

وقد غلب حب البادية على نفسه ، فكان يتصل بأمراء العرب ، وبشيوخ القبائل الضاربة في صحراء العراق والأحساء مثل قبائل بني أسد ، واتصل بأميرها دبيس به صدقه ، وكان شاعراً ، واتصل بعرب بني كنانة وبني عقيل ولزم الأمير مفرج ، واتصل بعرب الأزد بصحراء السماوة .

وكان شاعراً طموحاً يذكرنا بالمتنبي في روح قصائده ، ونستمع إليه يقول :

ولست كمن يعلي إلى الهون طرفُــه	ولا يركبُ الخطــي دون ذمــاره
فقد ساس جسَّــاسُ بنُ مرة وائلا	بقتل كليب دون لقحــة جــاره

فنذكر على الفور أبيات المتنبي الكثيرة في هذا الموضوع ومنها :

ذَلَّ من يغْبِــطُ الذَّليــلَ بعيـــشٍ	رُبَّ عَيــشٍ أخفُّ منــه الحمامُ
من يهــن يَسهلْ الهَــوانُ عليــهِ	ما لجـــرحٍ بميـــت إيــلام
ضــاق ذرعــاً بأنْ أضيقَ بـــه ذَرْ	عاً زَمــانِي واستكرمَتِني الكِرامُ
واقفــاً تحت أخمصَي قدَميْ نفْســـي	واقفــاً تحــتَ أخمَصَيَّ الأنــامُ
أقــراراً ألذُّ فـــوقَ شـــرارٍ	ومَرامــاً أبْغِــي وظلمــي يُــرامُ
دونَ أن يشْــرَقَ الحِجَــازُ ونجــدٌ	والعَراقــانِ بالقَنَـــا والشّــآمْ

وأبيات أخرى كثيرة في ديوانه .

ويقول الأبيوردي مفتخراً[1]:

(١) الديوان ط لبنان سنة ١٣١٧هـ .

فَلي صدى يَحرِقُني أوارُهُ ولا ثؤوبُ غُلَّتي على صدى
والمجد مما أقتني وأبتني فإن عثرتُ دونه فلالَعا
ولا أحسطُ بالوهادِ أرحُلي فالعبشميونَ يحُلُّون الرُّبا
ولي مدى لا بُدَّ من بلُوغِه وكلُّ ساعٍ ينتمي إلى مدَى

ابن مقرب الأحسائي :

وقريب من روح الأبيوردي وطريقته ابن مقرب الأحسائي ، وهو شاعر بدوي وطناً وروحاً ، وهو صاحب نفس طموح كصاحبه ، يسعى إلى المجد وبلوغ أمل بعيد يظل طول حياته يعمل لبلوغه ، وتعترضه الصعاب ولكنه يكافح ويغالب ولا يستسلم . وإذا كان الأمل البعيد للأبيوردي هو إعادة خلافة أجداده بني أميّة فإن ابن مقرب كان يأمل في استرجاع السلطة للعرب ، بعد أن رأى غيرهم من الأعاجم والمولدين يسلبونها منهم ، ونرى ابن مقرب يجاهد ليخلص بلاده الأحساء من سلطان الدولة العباسية وخولها الأعاجم من الترك والفرس . وشعره يموج بهذا اللون القاتم الساخط الذي يحمل فيه على الدهر والناس ، ويذم الأصحاب ، كما يدعو إلى الرحلة ، وهو مغرم بها لا يحب القعود ، ويدعو إلى امتشاق الحسام والنضال ، وكل شعره دعوة للحرب وإلى حشد الجند ورفع السلاح .

ومن أمثلة شعره العربي الروح البدوي المظهر قصيدتُه التي يقول فيها[1]:

خذوا عن يمين المنحنى أيها الركبُ لنسأل ذاك الحي ما صنع السِّربُ

ويفخر بنفسه وبنسبه وأرومته ربيعة ونزار[2]:

وأنت من الفرع الذي فخرت به نزار وسارت في معد مناقبه
سما بك بيت عبدليٌّ أحلَّهُ ديارَ الأعادي سمرُهُ وقواضبُه
وعالى محلّي في ربيعةَ أشرفَت عُلوًّا على كل المعالي مراتبُه

(١) ديوان ابن مقرب ص ١٩ ط حجرية بالهند .
(٢) الديوان ص ٣١ .

له في ذم الدهر :

وقـائلة هــون عليـك فإنهــا ... متــاع قليـل والسـلامة في الزهـد
فإن علـت الروس الذباب لســكرة ... من الدهر فاصبر فهو سكرٌ إلى حد
وقد تملك الأنثى وقد يلثم الحصـى ... ويُتَّبـعُ الأغـوى ويسـجَدُ للقـرْدِ
ويعلو على البحر الغثـاءُ وتلتـقي ... على الدرِّ أمـواجٌ تزيـدُ على العـد

وهو مثل صاحبه الأبيوردي يتمثل بأبي الطيب المتنبي في شعره وصوره ومعانيه ، فتجد ابن مقرب يقول مثلاً :

وازمع وضع اعتزم وانفع وضُرّ وصِلْ ... واقطع وقُم وانتقِمْ واصفَحْ وجِدّ وهب

مقلداً بيت المتنبي المشهور :

أقِل أنِل أقطع احمِل علِّ سلِّ أعد ... زد هَشّ بَشّ تفضّلْ أُدْنُ سُرَّ صِـل

ابن منير الطرابلسي :

وكان يمثل هذا المذهب في الشام ابن منير الطرابلسي إلى حد ما (توفى سنة ٥٤٨ هـ)[1] ولو أنه كان يعمد في شعره أحياناً إلى البديع ، كان ابن منير أديباً شاعراً ، عارفاً بفنون وأوزان العروض لكنه مرهوب اللسان ، وقد لزم أمراء شيزر من بني منقذ ، والملك بوري بن طغتكين صاحب دمشق ، ثم السلطان نور الدين محمود . يقول ابن خلكان : « وله ديوان شعر ، وكان بينه وبين القيسراني الشاعر الشامي مكاتبات وأجوبة ، وكانا مقيمين بحلب ومتنافسين في صناعتهما » .

ومن مدائحه لنور الدين ، والتي يظهر فيها مذهبه الذي يخلط به البديع :

أيـا نور ديـن خبـا نــورُهُ ... ومُـذْ شـاع عدلك فيـه اتقـد
رآك الصـليب صـليب القنـاة ... أمـين العثـار متـين العَمَـد

(١) راجع ترجمته في وفيات الأعيان ١ ﻫ ١٣٩ ، وأعلام النبلاء ٤ / ٢٣١ وابن القلانسي ٣٢٢ وأورد أبو شامة بعض أخباره وشعره في مواضع متفرقة .

ويقلد ابن منير أبا تمام في قصائد كثيرة أوردها له أبو شامة في الروضتين ، ويمثل مذهبه هذا قوله[1]:

سفها لحلمك إن رضيت بمشرب	رنق ورزق الله قد ملأ الملا
ساهمتَ عيسَك مُرَّ عيشك قاعداً	أفلا فليت بهنَّ ناحية الفلا
فارقْ تُرَق كالسيف سُلَّ فبان في	متنيه ما أخفى القرابُ وأخملا
لا تحسبن ذهاب نفسك ميتةً	ما الموت إلا أن تعيش مذللا
للقفر لا للفَقْر هبها إنما	مغناك ما أغناك أن تتوسلا

وذهب هذا المذهب التقليدي في الشعر من المصريين في هذا العصر الشاعر الصوفي **عمر بن الفارض** (ت ٦٣٢ هـ) .

ذلك هو الاتجاه التقليدي وأهم شعرائه – وقد حمل أصحابه على البديعيين فقال شاعرهم (وهو المهذب بن الزبير) :

لحقت الماخضين الشعرَ قبلي	وإن أخلوا من الزبد الوطابا
فقل لمقعقع بشنان لفظ	نفى إثباتك القشْر اللبابا
طلِي كأس القريض من المعاني	وحسن اللفظ كان لها حبابا

فهو يعترف بسيره على الاتجاه القديم ، وإن لم يترك له القدماء في المعاني رائعاً ، ويتهم أصحاب البديع بأنهم طلابُ لفظ ، وأن الشعر معنى لا لفظ ، فاللفظ قشور وشكل وإنما اللباب والجوهر هو المعنى . فالمحسنات اللفظية التي أغرقوا فيها لا تجدي كثيراً في الشعر الجيد .

وقد كان هذا الاتجاه التقليدي فضلاً عن ظهوره عند أولئك الشعراء وأشباههم يغلب في الموضوعات الجليلة التي تحتاج إلى القوة في التعبير لملاءمة قوة الموضوع ، كالفخر ومدح النبي صلى الله عليه وسلم أو وصف حدث جلل أو مدح ملك عظيم .

غير أن التأثر بالقدماء لم يقتصر على تقليدهم في صياغتهم وأساليبهم بل تعداه إلى التأثر المباشر ، أي الاعتماد على صورهم وتشبيهاتهم ومعانيهم ، وكثيراً ما

(١) ابن خلكان ١ / ١٣٩ .

يحدث هذا في معارضة الشعراء لنماذج قديمة مشهورة ، وأشهر من عارض شعراء العصر قصائدهم أبو تمام والبحتري والمتنبي ، ولم يقتصر التقليد والمعارضة لهؤلاء الشعراء على شعراء العرب ، بل إن بعض شعراء الفرس كانوا معجبين بشعراء العرب القدامى ، فأنوري الفارسي تأثر بالأخطل وجرير والأعشى وحسّان بن ثابت والبحتري وأبي نواس وغيرهم[1].

ومن بين من عارض أبا تمام من شعراء العصر العماد الأصبهاني في كثير من قصائده ، ومن أمثلتها قصيدته في شيركوه حين غلب على الوزارة في مصر ومطلعها :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعبِ — كم راحةٍ جُنيت من دوحة التعبِ

وهي معارضة لبائيته :

السيف أصدق أنباء من الكتب

وقد كانت هذه البائية نموذجاً هاماً احتذاه جماعة من شعراء العصر في مناسبات شتى ، في التهنئة بالفتوح ، أو بالمديح ، وقد سبق أن أشرنا إلى تقليد بعض الشعراء لها .

واحتذى المتنبي جماعة منهم الشاعر المؤيد الآلوسي ، حيث عارض قصيدته الميمية :

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها — وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

بقصيدة ميمية طويلة يقول فيها :

وقفت بحزوى وهي فيها مغانمة — فؤادي وجسمي قد تعفت معالمه

وقوف بناني في يميني ولم أقف — وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

قال ابن خلكان : « وهي قصيدة طويلة أجاد فيها ، وقد وازن فيها قصيدة المتنبي في سيف الدولة بن حمدان .. واستعمل في قصيدته أنصاف أبيات من قصيدة المتنبي على وجه التضمين »[2].

---

(١) راجع Browne 389 .

(٢) وفيات الأعيان ٤ / ٤٣٠ - ٤٣١ .

وقلد المتنبي كذلك أبو الفرج عبد الله بن سعد الموصلي في قصيدة يمدح بها نور الدين محمود مطلعها :

ظُبى المواضي وأطراف القنا الذُّبُل ضوامن لك ما حازوه من نَفَل

قال أبو شامة : « قلت حاول ابن سعد في هذه القصيدة ما حاول المتنبي في قوله :

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع

فإن كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم وهم المنهزمون ، وقد أحسنا معاً »[1].

وقد لا يقتصر التأثر بالقدماء على التقليد والمعارضة ، بل إن بعض الشعراء كابن سعد المذكور ضمنوا قصائدهم بشعر قديم ، وقد كثر هذا النوع حتى نجد قصائد طويلة مضمنة بشعر للنابغة وزهير وامرىء القيس وغيرهم من الجاهلية أو بشعر أبي تمام والبحتري والمتنبي من العباسيين ، واختلفت درجات التضمين والاقتباس من فنون الشعر في هذا العصر الذي يحتفي به الشعراء والناس أشد الاحتفاء ، ويعجبون به أشد الإعجاب ، وكان لمحصولهم من الشعر القديم من حفظ الدواوين أو المختارات أثر واضح في اقتباسهم ، وقد أشرنا فيما مضى إلى أن كثيراً من الناس والأدباء خاصة كانوا يحرصون على حفظ دواوين السابقين .

البديعيـــون :

وهناك غير أصحاب القديم من الشعراء أتباع المذهب الثاني وهو أكثر شيوعاً من سابقه ، ونعني به مذهب البديعيين أصحاب الصنعة ، فقد كانوا الكثرة الغالبة ، وهم بدع العصر ، ومذهبهم المذهب المفضل المختار الذي يتلاءم مع أذواق الناس ويتفق وأهواءهم . وكان بعض الناس يرون أن من البديعيين من يذهب إلى المغالاة إلى حد التكلف والتعقيد . مما دعا بعض الشعراء ممن لا

(١) الروضتين ١ / ١٢٩ .

يذهبون هذا المذهب أن يحملوا على أصحابه وطريقتهم في الشعر مثل الأبيوردي الذي أشرنا إليه ، وعمر بن الوردي الذي يقول[1]:

إذا أحببت قول الشعر فاختر ... لنظمك كل سهل ذي امتناع
ولا تقصد مجانسةً ومكّنْ ... قوافيه وكِلْهُ إلى الطباع

وكان الشاعر الأسعد بن مماتي أيضاً يكره الميل إلى البديع وإغراق شعراء عصره في الجناس خاصة . قال الحموي : « وكان الأسعد بن مماتي أيضاً ممن لم يجعل الجناس له مذهباً في نظمه وما أطرف ما قال[2]:

طبع المجانس فيه نوع قيادة ... أو ما ترى تأليفه للأحرف

واتخذ البديعيون من الحريري وطريقته في المقامات نموذجاً يحتذى ، والحق أن الحريري قد أتى في مقاماته بضروب من عجيب الصنعة اللفظية واللعب بالألفاظ حتى شهد بمهارته وإعجازه في هذا الفن العلماء واللغويون في عصره والعصور التالية ، وحاول مقلدوه بدافع الإعجاب المفرط به أن يأتوا من ضروب البديع بما أتى به ، وأن يسلكوا الوادي الذي سلك .

ومن لعب الحريري اللفظية التي ألّفها وأشاعها التجنيس في عباراته وفي شعره الذي نظمه ، وهو غير التجنيس المعروف في البديع منذ أبي تمام ، بل هو زيادة عنه وإمعان فيه وإكثار ، ويسمونه أيضاً بالمجنس لأن قوافيه مجنسة مثل قول الشاعر شميم الحلي[3]:

ليت طوَّل بالشـ ... ـام ثواه وثوى بِه
جعل العَوْدَ إلى الزّو ... رَاء من بغض ثوابه

ومن هذا المجنس ضربٌ آخر أكثر تعقيداً نظم منه الحريري بيتين اثنين وصفهما بقوله : « اسكتا كل نافث ، وأمنا أن يعززا بثالث ، وهو قوله :

سم سمة تحمد آثارها ... واشكر لمن أعطى ولو سمسمة

(١) خزانة الأدب للحموي ص ٢١ .
(٢) الروضتين ص ٢١ .
(٢) إرشاد ٥ / ١٣٠ .

فقال مقلده – وهو عثمان البلطي :

محلمة العاقل عن ذي الخنا ... يوقظه إن كان في محلمه
مكلمة الخائض في جهله ... تصيب من يردعه مكلمه

ويذكر خمسين بيتاً من هذا القبيل[1].

وشاع هذا اللون ؛ البسيط فيه والمعقد في الشعر حتى صار فناً قائماً ، ونظم الشعراء فيه القصائد الكاملة مثل الوجيه ابن الدهان (المتوفى سنة ٦٠٢ هـ) .

ومن ذلك اللعب اللفظي أن يحاول الشاعر الإتيان بقواف من وزن معين يحصر فيها الكلمات التي جاءت في اللغة من ذلك الوزن ، ولا يمكن الزيادة عليها[2]. ومن أمثلة التلاعب بالقافية أن تنظم أبيات يحسن في قوافيها الرفع والنصبُ والخفض مثل قول شاعرهم :

إني امرؤ لا يصبيني الشادنُ الحسن القوام[3]

فرفع القوام بالحسن مشبهة باسم الفاعل والتقدير « الحسن قوامه » ، ونصبهُ الحسن القواما على التشبيه بالمفعول به ، وخفضه بالإضافة .

وهذه الأشكال النظمية أوضح دليل على مدى ما أوغل فيه أولئك النظامون من عبث بالشعر والألفاظ ، واستخدام خصائصه للتدليل على القدرة اللغوية والمعرفة بفُنون الإعراب وقواعده[4]

ومما عرف من ضروب هذا العبث التلاعب بحروف الهجاء في تركيب الألفاظ من مثل قول الشاعر[5]:

---

(١) إرشاد ٥ / ٥٠ .

(٢) يمكنك أن تراجع من هذا النوع قصيدة لابن البلطي أوردها ياقوت في معجم الأدباء ٥ / ٥٥ ، وهي على مثال أخرى للحريري في مقاماته .

(٣) إرشاد ٥ / ٥٢ ومنه قصيدة لرشيد الدين النابلسي في فوات الوفيات ١ / ٥٣٣ .

(٤) راجع لابن البلطي في ياقوت ٥ / ٥٠ – ٥٤ ضروباً من هذه المقدرة .

(٥) مشرف الدين الحموي (٥٨٦ – ٦٦٢ هـ) .

وهنت فكنت في عيني صبيـًّا أخاطبه بألفاظ الهجاء
فلو أصبحت ذا حاءٍ وسين لما عنفت في شين وحاءَ

وقول الآخر في نوع منه :

ما لم يغير عكسه لفظه مثاله « قد نبل البندق »
وما إذا صُحِّفَ معكوسُه عاد إلى صنعته « فستق »

وشاع البديع حتى صار يحلو لبعض الناظمين أن ينظم قصيدة يجمع فيها كل بيت منها نوعاً منه[1].

هذه ألوان يغلب عليها المغالاة والتكلف ، وهي أقصى ما وصل إليه هذا الفن من تطرف وإغراق ، إلا أن كثيراً من شعراء العصر الذين أعجبوا بالبديع لوناً فنياً لم يغرقوا هذا الإغراق إنما تناولوا بعض فنونه بحذر وحيطة ، ووشوا به أسفارهم ولم يثقلوها ، ومن الشعراء الذين أخذوا به على تفاوت فيما بينهم ابن منير الطرابلسي ، وقد أشرنا إليه ، وصنوه ومعاصره ابن القيسراني أبو عبد الله محمد بن نصر بن صفير (المتوفى سنة ٥٤٨ هـ) ، وكان من الشعراء المجيدين والأدباء المتفننين . وكان هو وابن منير شاعري الشام في هذا العصر وجرت بينهما وقائع وملح ونوادر ، ولزما السلطان نور الدين محمود ولهما فيه القصائد الطنانة في مدحه ، وكانا يشبهان بجرير والفرزدق للمناقضات والوقائع التي جرت بينهما ، وقد ورد ابن القيسراني إلى دمشق من حلب وأنشد صاحب دمشق معين الدين أنر قصيدة بائية حسنة المعاني والمقاصد فاستحسنها السامعون واستجادوها ، وشفعها بغيرها فوصله أنر أحسن صلة . ويقول ابن القيسراني : « إنه كان مليح المعاني كثير التطبيق والتجنيس »[2] ويروي له أبو شامة في الروضتين شعراً في مدح نور الدين ومعين الدين أنر ، وهو شعر سهل الأسلوب لا يعمد فيه إلى التكلف ، ونفسه فيه طويل ، وكان ابن القيسراني يحتذي أبا تمام ، ومن ذلك قوله في نور الدين محمود[3]:

---

(١) راجع فوات الوفيات ٢ / ١١٨ .

(٢) ابن القيسراني ٣٢٢ .

(٣) الروضتين ١ / ٥٨ .

هـذي العزائم لا ما تدّعي القُضب وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت تعثرت خلفها الأشعار والخطب

وهي معارضة واضحة لبائية أبي تمام وله ديوان شعر صغير مخطوط بدار الكتب المصرية .

ومن شعراء الشام المكثرين في البديع مسعود بن الفضل النقاش الحلبي المتوفى سنة ٦١٣ هـ . ومن شعره :

أصل تلافي من تلافيكم فعلموني كيف أرضيكم
قلبتم قلبي وما خلته يشقى وقد أصبح يأويكم
وأي خلق الله يرضى لكم بفت أكباد محبيكم
لأمتعت عيني بكم إن رأت واستحسنت غير مغانيكم[1]

ومنهم في الشام كذلك الضرير الحمصي ، قال يمدح صلاح الدين[2]:

وزرت به الحصن الذي لو تحصنت فوارسه بالنجم أوردته الردى
قَصَمتَ به صُلْبَ الصليب ورعته وشدّته لما غفا فتشهّدا
هبست إليه هبة يوسفيّة تعيد هباء كل ما كان جلمدا
وفض بما قد فضّه من سهامه نواجذ ثغر الهنفراءِ وقدّدا[3]

ومنهم عماد الدين الأصبهاني ، قال من قصيدة يمدح بها صلاح الدين ويذكر مسيره من الشام إلى مصر سنة ٥٧٦ هـ[4]:

وجبنا البويب والمصاقع قبله إلى بركة الجب التي قربت مصرا
إلى عزمة في المجد غير قصيرة وكان قصارى أمرنا أن نرى القطرا
ولما نزلنا مصر في شهر طوبة وردنا بكف العادل النيل في مسرى
غدا قاصرا عن قصره قصر قيصر وإيوان كسرى عند إيوانه كسرا

ومن شعراء العراق الذين أخذوا بهذا الفن الأرَّجاني أبو بكر بن أحمد بن

(١) أعلام النبلاء ٤ / ١٣٩ .
(٢) كتاب الروضتين ٢ / ١٢ .
(٣) الهنفراء = « همفري » الصليبي .
(٤) الروضتين ٢ / ٢٠ .

محمد بن الحسين (ولد سنة ٤٦٠ وتوفى سنة ٥٤٤ هـ) ويقال إنه أشعر الفقهاء وأفقه الشعراء . قال عن نفسه :

أنا أشعر الفقهاءِ غير مدافع … بالعصر أو أنا أفقه الشعراء
شعرى إذا ما قلت دونه الورى … بالطبع لا بتكلف الإلقاء
كالصوت في ظلل الجبال إذا علا … للسمع هاج تجاوب الأصداء

وقد تفنن الأرجاني في ضروب البديع ، وأعجب به شعراء العصر لذلك ، ورَاجَ خاصة عند البلاغيين بعده ، فقد جمعوا منتخبات من نظمه في أبواب كتبهم مقرونة بعبارات الإطراء والإعجاب ، كما فعل ابن حجة في خزانة الأدب ، قال عنه : « والأرجاني أيضاً نظمه غريب في هذه البلاد ، فلذلك أوردت منه هنا النبذة اللطيفة والله أعلم »[1]. وكان مما فعله الأرجاني غير الإكثار من البديع جناساً وتطبيقاً وتورية الإكثار أيضاً من التضمين بأنصاف أبيات للشعراء السابقين كما ذكر صاحب حسن التوسل[2].

ومن أصحاب البديع في مصر ابن سناء الملك وهو ابن القاضي الرشيد سناء الملك (توفى سنة ٦٠٨ هـ) وأخذ عن القاضي الفاضل طريقته في النظم . قال ابن حجة : « وتلاعب في التورية باختراعات يسكنها في عامر أبياته »[3]، وقال عنه أبو الفدا : « الشاعر المصري المشهور أحد الفضلاء الرؤساء ، صاحب النظم الفائق »[4]، وقال عنه ياقوت : « أحد أدباء العصر وشعرائه المجيدين ذاع صيته وسار ذكره »[5]، وقال عنه ابن خلكان ، « صاحب الديوان ، له الشعر البديع والنظم الرائق » . وله ديوان موشحات سماه « دار الطراز » .

ذكر ابن خلكان أنه قد « اتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين ، وكان لهم مجالس يجري بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها » .

---

(١) خزانة الأدب ١٥٣ .
(٢) حسن التوسل ص ١٢
(٣) خزانة الأدب ٢٤٤ .
(٤) المختصر ٣ / ١١٤ .
(٥) إرشاد ٧ / ٢٣٦ .

مدح صلاح الدين وأخاه تورانشاه والقاضي الفاضل ، وكانت بينه وبين الفاضل مراسلات ، ومدحه بعدة قصائد . قال ابن خلكان : « وجمع شيئاً من الرسائل الدائرة بينه وبين القاضي الفاضل في ديوان ، وفيه كل معنى مليح »[1].

وكان بعض الكتاب يجمعون بين النظم والنثر ، وكانوا يتأنقون في الشعر تأنقهم في النثر ، ومنهم العماد الأصبهاني وابن شيث صاحب معالم الكتابة (المتوفي سنة ٦٢٥ هـ)[2]. وضياء الدين بن الأثير .

نجد غير ما طَرأ على الشعر من ضروب الصنعة اللفظية ، والتلاعب بالحروف والأصوات ، أو بالكلمات نفسها ومقلوباتها أو مرادفاتها وما شابه ذلك ، كاللغز والتعمية مما أشرنا إليه ، أنه طرأ شيء آخر جديد على لغة الشعر وأسلوبه ، وهو الإكثار من استعمال الألفاظ العامية الدارجة في كل بلد وإقليم من الأقاليم التي أشرنا إليها ففي العراق وفارس استعملت في الشعر العربي كلمات فارسية ، إلى جانب استعمال بعض الكلمات العربية الدارجة في العراق ، وكذلك الحال في مصر والشام والمغرب . وقد أورد كثير ممن أرخ لهذه الفترة بعض ما شاع من تلك الألوان ، ونجد أمثلة لها في كتب العماد الأصبهاني وابن خلكان وابن شاكر[3].

وقد كان لشيوع هذه العناصر ، وخاصة العامية أثر مخرب على الشعر العربي أو على الروح العربي في الشعر ، وقد أدت به إلى الانحلال والركود ، مما أصاب الشعر الفصيح بنكسة طويلة استمرت ما يقرب من خمسة قرون بطولها . ازدهرت فيها ألوان من الأدب الشعبي على حساب الأدب الفصيح .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥ / ١١٢ .

(٢) فوات الوفيات ١ / ٥٦١ .

(٣) راجع فوات الوفيات ٢ / ٦١٦ تجد كثيراً من الأمثلة .

٤

أساليب الشعر :

تلك كانت الفنون التي استجدت بصفة عامة ، أما أساليب الشعر : معانيه وصوره وأوزانه ، فقد اختلفت باختلاف المدارس الثلاثة ، أو المذاهب أو التيارات إذا شئت تسميتها ، وقد أشرنا إلى أن المعاني عند أصحاب المذهب القديم مستمدة من الشعر العربي القديم ، بل ومن الصحراء وحياة الصحراء ، ومثالها ما جاء في شعر الأبيوردي[1]:

نزلنا بنعمان الأراك وللندى ... سقيطٌ به ابتلَّتْ علينا المطارف
فبت أعاني الوجد والركب نوَّمٌ ... وقد أخذت مني السُّرى والتنائف
وأذكر خوداً إن دعاني إلى النوى ... هواها أجابته الدموع الذوارفُ

فهذه صورة بدوية ، وألفاظ بدوية ، قريبة من ألفاظ جرير والفرزدق والراعي وأشباههما .

أما المحدثون فقد اشتقوا معانيهم مما بين أيديهم من معالم الحياة ، أو تناولوا المعاني القديمة ، وأجروا فيها التعديل والتبديل ، حتى أحالوها جديدة في ظاهرها ، وإن كانت قديمة في روحها . وقد شارك في هذا المسلك أيضاً الفريق الثالث ، الذين وقفوا بين المحدثين والقدماء ، ومن أمثلة هذه المعاني المجددة قول الشاعر يصف خالاً على خد جميل :

لهيبُ الخدِّ حين بَدا لعيني ... هوى قلبي عليه كالفراش
فأحرقه فصار عليه خالاً ... وها أثر الدخان على الحواشي

فتشبيه الخد بالنار ليس بدعاً ، وإنما البدع هو هذه الصورة التي تخيلها الشاعر للخال وكأنّ قلبه فراشه أحرقت بلهيب الخد فبقي أثرها رماداً هامداً ، أو قول الشاعر (ابن النطروني السكندري)[2]:

---

(١) هو الشاعر سليمان بن عبد المجيد الحلبي الكاتب (فوات الوفيات ١ / ٣٥٨) .
(٢) ابن النطروني السكندري المتوفي سنة ٦٠٣ هـ - جـ ٢ - ٣٤ فوات الوفيات :

من لي برد غُديّات بـذي سلم　حيث النسيم عليل والثرى خضر
والنوّر يضحك في وجه السحاب إذا　أبدى عُبوساً وأبكى جفنه المطرُ

وهو معنى الشاعر القديم (الحسين بن مطير) :

كلّ يوم بأقحوان جديد　تضحك الأرض من بكاءِ السماء

ومن المعاني الجديدة أو المجددة ، نجد مجموعة تنبع من نبع واحد هو الاستجداء والتطفل على موائد السلطان ، ومجالسه ، وهي أخلاط من الملق والرياء والمبالغة في التعظيم والاجلال . والأمثلة كثيرة على هذه المعاني ، لا يخلو منها ديوان من دواوين شعراء العصر وخاصة شعراء المديح المتكسبين . وانظر إلى قول ظافر الحداد يمدح قاضي الاسكندرية ويهنئه بشهر رمضان :

شهر الصيام بك المهنّا　إذ كانَ يُشْبِهُ منك فنّا
ما سار حولاً كَامِلاً　إلا ليسرق منك معنى
فرأى هِلَالَكَ من محـ　ـلّ هلاله أعلا وأسنى
بهرت محاسنك الورى　فأعادت الفصحاءَ لكنا
وإذا مدحناك احتقر　نا ما نقول وإن أجدنا
والفضلُ أجمع بعضُ وصـ　ـفِك فهو غاية ما وَجدنا
إن الذي صدح الحما　مُ به ثناؤك حين غنّى

وكثرت المعاني التي تدور حول الطرائف وتبادل النكات ، واللعب واللهو ، وحفلت بالكنايات والتورية ، والنظم المرتجل على الخاطر . من ذلك ما ذكره العماد الأصبهاني من أن ظافراً الحداد أحضره الأمير السعيد بن ظفر والي الاسكندرية ليبرد خاتماً في يده قد ضاق عن خنصره فقال :

قصر في أوصافك العالَمْ　فاعترف الناثر والناظمْ
من يكن البحر له راحة　يضيق عن خِنصره الخاتمْ

فأمر له بعطاء ، فقيل له إن كنت ذا خاطر سمح فأنشدنا أسرع من لمح في هذا الغزال المستأنس ، يعني غزالاً كان في حجر الأمير ، فقال :

---
(١) خريدة القصر للعماد قسم شعراء مصر ٢ / ٥ .

عجبت لجرأة هذا الغزال … وأمر تخطى له واعتمد
وأعجبْ به إذ بدا جاثماً … فكيف اطمأن وأنت الأسد

فأمر له بعطاء آخر ، فقال له الرجل ممتحناً : أنظم في هذه الشبكة المسدولة على هذه الديار شيئاً . فقال[1]:

رأيت ببابك هذا المنيف … شباكاً فأدركني بعضُ شك
وفكرت فيما جرى لي فقلت … مكان البحار يكون الشَّبَك

كذلك كانت الحالة الاجتماعية مصدراً من مصادر المعاني لشعراء العصر ، وقد اشتقوا من الحروب الصليبية كثيراً من المعاني ، واختلطوا بالنصارى من الفرنج وأخذوا عنهم بعض عاداتهم وأخلاقهم ، وإن كان أثرهم في الشام أقل من غيرها كصقلية وأسبانيا . وقد تأثرت اللغة ببعض الألفاظ اللاتينية الدخيلة[2]، وظهر ذلك في آثار بعض الشعراء مثل أسامة بن منقذ الذي اتصل بالصليبيين وعاملهم ونوه عن ذلك في كتاب الاعتبار .

كما أن الحروب الصليبية أيضاً أوحت إلى الشعراء بوصف المعارك والجيوش والحصون إيحاءها للكتاب ، ونجد ذلك واضحاً جلياً في مدائحهم الكثيرة للسلطانين نور الدين وصلاح الدين ، ومن خلفهما .

ونجد الاتجاه إلى نقد المجتمع في كثير من شعر العصر ، وهو نقد يعمر بنغمة السخط والحقد أحياناً ، وقد أشرنا إلى قصيدة البوصيري في الموظفين ، ونورد أبياتاً هنا لشاعر مصري آخر عاش قبل البوصيري بمائتي سنة ، أي في مطلع العصر الذي نتحدث عنه وهو ابن المقدام المحلي[1]. يقول في وصف حاله وينتقد أحوال الكُتّاب في عصره :

وكتّابٌ لهم أبداً حُماةٌ … تُمدُّ لها الرُّقى مثل الصِّلال
وكُلُّهُمُ يجرُّ إليه نفعاً … فعادته احتجابي واعتزالي

---

(١) خريدة القصر ٢ / ١٥ .

(٢) Arnold : Legacy of Islam 57 .

(١) يقول العلماء إنه من المحلة بالديار المصرية ذكره العماد (خريدة القصر ٢ / ٤٧) وقال ياقوت « لا أدري إن كان من المحلة الكبرى أم من محلة غيرها » . (معجم البلدان كلمة محلة) .

بأيـد تبتـدرن إلى الرشـــاوى كأيـدي الخيـل أبصـرت المخـالي

وقال في أمير يصف أحوال الجند ، ومدى استبدادهم بالأمر ونهبهم وسلبهم في آخر العصر الفاطمي وقبل عهد صلاح الدين :

فاتركونـا معَاشـر الجنـد واغنَوْا بـسـدُرورِ الأرزاق كـلَّ أوانِ
والولايـاتِ والحمـايـاتِ والغُـرْ مِ وأخذ الأجعـالِ من كل خـانِ
والمعاصـير والسـواقي وتسـويـ ـغ الضيـاع المفرَّداتِ الحسـانِ
وارتعـوا في جزور ذي الدولة الها مي نداهـا في أطيب اللُّخمـانِ
واشغلونـا بمـا بـه يُشـغل الحـ ـرُّ لنفـع أو خيفـة العُـدْوان
بالطحَـال المسـدُودِ أو طـرف الرئـةِ أو بالمِعْـلاق والمُصـرانِ

كذلك استخدم الشعراء لغة الفلاسفة والمنطقيين والمشتغلين بالطب والطبيعة والنجوم والفلك والرياضيات وما إليها ، وأصبح شيئاً معهوداً أن يتظرف بعضهم فيضمن ما ينظم من أبيات مصطلحات لبعض تلك العلوم ، بل إنهم كانوا يستمدون بعض معانيهم وصورهم كذلك منها . ويقول شاعرهم مستخدماً بعض مصطلح الهندسة وألفاظها متغزلاً[1]:

تقسـم قلـبي في محبـةِ معشـر بكـل فـتى منهـم هـوايَ منـوط
كأن فـؤادي مركـزٌ وهـم لـه محيـطٌ وأهـوائي إليـه خطـوطُ

وقال اخر بلغة الطب[2]:

جـوده كالطبيب فهـو يـداوي سـوء أحوالنـا بحسـن الصنيـع
فهـو كالموميـاء إذا انكسـر العظـ ـم ومثـلُ التريـاق للملسـوع

وقال ثالث بلغة الفلسفة :

حبي سـعيداً جوهـرٌ ثابـتٌ وحبـه لي عـرضٌ زائـلُ
به جهـاتي السـت مشـغولةٌ وهـو إلى غـيري بهـا مائـلُ

---

(١) وفيات الأعيان ٥ / ١٢٢ .
(٢) وفيات الأعيان ٥ / ١٢٢ .

وقال آخر بلغة الفقه[1]:

أأجيز قتلي في « الوجيز » لقاتلي ... وأحَلّ في التهذيب أو في «الشامل»
أم في « المهذب » أن يعذب عاشق ... ذو مقلة عبري ودمع هاطل

والوجيز والتهذيب والشامل والمهذب كلها كتب فقهية .

وكذلك الحال في مصطلح النحو ، فقد شغف بها جماعة من الناظمين أو متشاعري العلماء ، فاشتقوا معانيهم من ميدانه ، وتفننوا في ذلك وقد لاحظ هذه الظاهرة ابن خلكان نفسه فقال في شعر أحدهم : « وكان كثيراً ما يستعمل العربية في شعره »[2] وأورد أمثلة لذلك ، منها قوله :

وكنا خمس عشرة في التئام ... على رغم الحسود بغير آفة
فقد أصبحت تنويناً وأضحى ... حبيبي لا تفارقه الإضافة

وقال في غلام أرسل أحد صدغيه وعقد الآخر :

أرسل صدغاً ولوى قاتلي ... صدغا فأعيى بها واصفه
فخلت ذا في خده حية ... تسعى وذا عقربا واقفه
ذا ألف ليست لوصل وذا ... واو لكيد ليست العاطفه

وأما صور شعره وخيالاته فظلت كما هي في الشعر القديم صوراً قصيرة متتابعة لا يطول فيها نفس الشاعر إلا قليلاً في النادر الشاذ ؛ ولا يعثر منها على صور كصور ابن الرومي مثلاً ، الذي يطول به فن التفتيق والتفصيل في الصورة مستخدماً كل إمكانيات اللغة من ألفاظ ومعانٍ ، وهذه الخاصية أعني خاصية النَفَس القصير في الصورة ، والتشبيهات المتتابعة المنفصلة الوحدات المتصلة الحلقات كالسلسلة ، خاصية بارزة في شعراء مصر والشام ، إلى جانب خاصية أخرى هي خفة الشعر ورقته ، ولطافة روحه ، وهذه الصفة الأخيرة أكثر وضوحاً عند شعراء مصر . أما شعراء الإقليم الشرقي ونعني بلاد الفرس والإقليم الغربي من بلاد الأندلس والمغرب ، فلم يكن اعتماد الشاعر في فنه على

(١) المصدر نفسه ٥ / ١٧٥ .
(٢) المصدر نفسه ٦ / ٣٢٢ .

اللفظ الرشيق والصورة القصيرة ، أو التشبيه المقتضب ، بل كان يعتمد الشاعر في بلاد الفرس على المعاني يصنفها ويتعمق فيها ولا يلقى بالاً إلى اللفظ ، لذلك كان عمادهم في فنون البلاغة فن المعاني لا البديع ، وكان أفقهم أكثر اتساعاً فيما تناولوه من موضوعات كما كان أثر العقل فيه واضحاً أكثر من الفن الشعري ؛ لهذا ظهر في الشعر الفارسي القصص الشعري[1] والأخلاقي[2].

أما شعراء المغرب والأندلس ، فقد غلب على شعرهم الوصف ، والمزج بين المعاني الجميلة الدقيقة واللفظ العذب الرشيق ، كذلك امتاز الأندلسيون بالتجديد في شكل الشعر من الناحية الموسيقية وبناء القصيدة .

ويمثل لشعراء مصر والشام ، واتجاههم الذى أشرنا إليه بمثال من شعر ابن منير الطرابلسي حيث نلمس تخطف الصور والتشبيهات تخطفاً سريعاً ، مع الحشد والتتابع ، يقول[3]:

خلوتُ بمن أهواهُ بعد تَفَرُّقٍ ... بأرض إلى صوب النّدى أن يصوبهَا
فكان عويلي رعدَها وابتسامهُ ... وميضاً وأهواءُ القُلوب جنوبهَا
وجاد غمام من دموعي لروضها ... فضَوَّعَ أنفاس الخزامى وطيبهَا
وقرب منّي الدهرُ حباً رجوتُه ... وأبعدت الأيام عنّي رقيبَها

واستمد الشعر من القرآن زاداً غنياً في معانيه ، وكثر تضمين الشعراء بآياته ومع أن فن تضمين الشعر بالقرآن كان موجوداً قبل هذا العصر ، لكنه شاع وذاع ، وعلى رأس من أذاعه ووضع أصوله القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في فن الكتابة والنظم جميعاً ، وتتلمذ عليه فيه جماعة من الشعراء والكتاب كابن سناء الملك وغيره . ويبدو التضمين بالقرآن في صور عدة ، منها التضمين بالآية يذكرها مباشرة . كقول الشاعر[4]:

---

(١) ومن شعراء القصص في هذا العصر النظامي (المتوفى سنة ٥٩٥ هـ) وقد نظم ضرباً من الشعر (الخمسة) يحتوي على خمسة قصص غرامية في مثنوي من وزن المزج .

(٢) من الشعراء الذين غلبت الأخلاق وتعاليمها في شعرهم سنائى وسعدي الشيرازي من الفرس .

(٣) أعلام النبلاء ٤ / ٢٤٦ .

(٤) الصابوني فوات الوفيات ٢ / ٣٤٢ .

رأيت في خده عِذارا | خلعت في حبِّه عذارى
قد كتب الحسن فيه سطرا | « ويولج الليل في النهار »

أو تضمين الآية بتصرف كقول الشاعر :

يَسقي الرحيقَ المختوم من يده | ختامه من عِذاره مِسْكُ
أسبل دمعي من خده درراً | جسْمي من فرط أنصبابهُ مُسْكُ

أو قد يشير مجرد الإشارة إلى معنى آية قرآنية ، أو قصة كقول الشاعر يشير إلى قصتي موسى ونوح عليهما السلام[1]

يحكي لنا ليلاً فبدا نور وجهه | أم القمرُ الوضّاحُ واتضح الشّكُّ
صُعقتُ له لما استنار جماله | فطُورُ فؤادي مذ تجلّى له دكُّ
طما بحرُ أجفاني فيا نوح غفلتي | تنبّهْ ، لهذا البحر تصطنع الفُلْكُ

وقال آخر مشيراً إلى قصة يونس عليه السلام مع الحوت[2]:

يقيسون يحيى في الفعال بيونس | وهذا على ضد القياس المؤنس
وكيف يصح الحكم والحوت بالع | لذاك وهذا بالنّمّ صوت يونس

وضمنوا بقصص العرب المعروف كقصص ليلى والمجنون ، ومثاله قول الشاعر ابن الصفار المارديني (المتوفى سنة ٦٥٨ هـ)[3]:

وتركيٍّ نقيّ الخدّ ألمى | بقدٍّ ماس كالغصن الرطيب
له شَعر حكى مجنون ليلى | يخط إذا مشى فوق الكثيب

وضمنوا بالشعر العربي القديم ، وبمعانيه .

ومال الشعراء من الأوزان إلى الخفيف الرشيق ، واشتقوا أوزاناً جديدة أكثر ملاءمة للمعاني التي أكثر من القول فيها ، وأطوع من حيث النظم لروح الشعر الجديد ومطالبه ومعانيه . وحاول بعض الشعراء التحرر من عمود الشعر العربي وابتدعوا لأنفسهم طريقة خاصة لم يلتزموا فيها الدقة اللغوية وحدود

---

(١) فوات الوفيات ٣ / ٤٠١ .
(٢) فوات الوفيات ١ / ٥٤١ .
(٣) المصدر نفسه ٢ / ١٩٧ .

الإعراب ، ومن هؤلاء شاعر اسمه ابن جابر ، أورد ترجمته وأمثلة من شعره ابن شاكر في كتاب فوات الوفيات . يقول في قصيدة له يصف فيها طريقته هذه :[1]

أنـا امـرؤٌ انكَـــرُ مـــا	يعـــرفُ أهـــلُ الأدبِ
مـولىً كـــلام نحـــوُه	لا مثـــل نحـــو العـــربِ
لكنـــــــه منفـــرد	بلفظـــــه المهـــــذّبِ
يصـــافع الفـــراء في النحـــ	ـــو بجـــلد ثعـــلبِ
ويقصـــد التشـــليث في	نتـف سـبال قُطـــربِ

واتخذ الشعراء أنماطاً جديدة لبناء شعرهم غير القصيدة التقليدية والمعروفة بأجزائها فأصبحنا نرى في هذا العصر شعراء ينظمون في الدو بيت والمزدوج ، ولعلها من آثار الشعر الفارسي الذي شاع فيه النظم بهذه الطريقة في الرباعيات والمثنوي ، وأشهرها رباعيات الخيام ومثنويات سعد الشيرازي وجلال الدين الرومي .

وصارت الرباعية أو (الدوبيت)[2] في الشعر العربي تنظم في معان خاصة وموضوعات لا تصلح لسواها . أو هي أليق بها من غيرها كالحكمة ، والنادرة القصيرة ، والمثل ، وأما المثنوي والمزدوج فنجده أليق بالمنظومات المطولة التي تتطلب طول النفس ، وقد وجدنا منها قديماً أرجوزة ابن المعتز في تاريخ عصره ، وكذلك نجد منها مثالاً مطولاً أيضاً يتناول موضوعاً تاريخياً في هذا العصر هو أرجوزة حازم القرطاجني ، ومنها كذلك ألفية ابن مالك في النحو .

ولم يبرع شعراء العرب في النظم في هذين النمطين براعة شعراء الفرس ولم يحسنوا استخدامهما ، وكان منهم من يلجأ إليها ضرباً من التنويع والتغيير .

وممن عرف بنظم الدوبيت من شعراء العرب كما ذكر ابن خلكان صلاح الدين الأربلي (المتوفي سنة ٦٣١ هـ)[3] من إربل على نهر دجلة . قال : « وله نظم حسن ودوبيت رائق ، وبه تقدم عند الملوك » .

---

(١) فوات الوفيات ٢ / ١١٧ .

(٢) راجع في الرباعية والدوبيت ما كتبه Browne في كتاب :

A Literary History of Persis p. 34 – 35, 246

(٣) وفيات الأعيان ١ / ١٦٧ .

كذلك نظموا الموشحات على طريقة الأندلسيين ، وقد تأثروا فيه بفنهم على يد من وفد إلى المشرق من علماء الأندلس[1] ، ومن شعراء الموشحات في هذا العصر في الأندلس :

ابن زهر الأندلسي : (المتوفي سنة ٥٥٩ هـ)[2]. وابن سهل الإسرائيلي[3] ويقال إن أول من مكن لها في الشرق ابن عربي الشاعر الصوفي[4] وأشهر من عرف بنظم الموشح في مصر ابن سناء الملك (المتوفي سنة ٦٠٨ هـ) ، وله ديوان موشحات سماه « دار الطراز » . ونظم فيها كذلك أبو محمد القاسم بن القاسم الواسطي (المتوفي سنة ٦٢٦ هـ)[5].

٥

الشـــعر الشـــعبي :

وظهرت إلى جانب الشعر الفصيح ألوان شعبية من النظم ، لا تلتزم أوزان الشعر ولا لغته ، وتجري بلغة العامة في كل إقليم ، وتتخذ لها أوزاناً خاصة . وقد بدأت هذه الألوان الشعبية تأخذ مكانها في آداب الناس في القرن السادس الهجري ، واهتم مؤلفو الأدب بها وباختيار بعضها وجمعه في كتبهم ، وظهر منها في مصر والشام والعراق ألوان متعددة ، كذلك ظهر من قبل في الأندلس لون عرف باسم الزجل واشتهر على يد ابن قزمان (المتوفي سنة ٥٥٥ هـ)[6].

وأقبل الناس على هذه الألوان الشعبية من الأدب ، لأنهم رأوا فيها تعبيراً عن إحساساتهم في صورة أقرب إلى نفوسهم وعقولهم من الأدب الفصيح الذي شغل أصحابه بالزخرف واللعب بالألفاظ والعبث بالبديع وضروب التسلية التي أشرنا إليها ، وابتعدوا عن المعاني الإنسانية ، كذلك كان لضعف بعض

(١) راجع تاريخ العرب مطول لفيليب حتى ص ٣ / ٦٦٧ و Gibb: p. 97 .
(٢) ياقوت إرشاد ٧ / ٢٢ وما بعدها .
(٣) تاريخ العرب مطول ٣ / ٦٦٧ .
(٤) Gibb p. 91 .
(٥) فوات الوفيات ٢ / ٢٦١ ، ٢٦٢ .
(٦) تاريخ العرب مطول ٣ / ٦٦٧ .

الشعراء وشيوع العامية نتيجة لقلة المتمسكين باللغة الفصحى من عامة الناس والمهتمين بالتخاطب بها منهم . وقد شاعت هذه الألوان ، وراجت ، وكثر محبوها بين المتعلمين أنفسهم والأدباء الفصحاء ، مما اضطر بعض الشعراء إلى النظم فيها[١] خضوعاً للرأي العام الأدبي .

ومن هذه الألوان الشعبية عرف « الزجل » و « الكان كان » و « المواليا » و « القوما » . أما الزجل فقد برع فيه كما قلنا ابن قزمان في الأندلس[٢]، وجرده - كما يقول ابن حجة - من الإعراب تجريد السيف من القراب[٣]. ولم يطلب منه غير عذوبة ألفاظه وغرابة معانيه . أما في مصر فقد برع شهاب الدين أحمد القمّاح وأصبح إمام الديار المصرية في فن الزجل[٤]، وفي الشام علاء الدين بن مقاتل « مالك أزمة الزجل »[٥]، وفي العراق عرف به جماعة منهم ابن جابر البغدادي الذي أشرنا إليه من قبل ، ومن أمثلته يقول ابن جابر البغدادي[٦]:

الوقـــت يا نديـمـــي قــد طــاب واعتـــدل
والشــمــس مــد ليـــالي قــد حـــلت الحمــــل

ومنـــه قولـــه[٧]:

لا بـد تظهــر بين النـــاس قلنـــدري مخـلوق الـــرأس
تلبـــس عـــوض دا الكتّـان وحلتك من صوف الجرفـان
أو دلـــق أو تصبـــح عريـــان
تغـــدو تـــدور مع أجنـــاس محلقـــين الـروس أكيـــاس

---

(١) Nicholson 45

(٢) راجع تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ٢ : ٧٤ - ٧٥ .
وتاريخ العرب مطول لفيليب حتي ص ٦٦٧

(٣) خزانة الأدب ١٤٢ .

(٤) ويرجح أنه من رجال القرن السابع ويذكره ابن حجة في الخزانة ص ١٧٦

(٥) خزانة الأدب ٦٨

(٦) فوات ٢ / ١١٢ .

(٧) فوات الوفيات ٢ / ١١٢

ما يعرفوا إلا الخضرة　　والنبلك لا شرب الخمرة
متقالها بألفي جرّة
وعندهم منها أكياس　　دافق يقاوم سبعين كاسْ

من قبل ما تغدو مشطُولْ　　تهتم في أمر المأكولْ
وتطلع السوق بالكشكولْ
تطلب على رؤاس　　وباقلاني مع هرّاس

وهي في نظمها قريبة من بعض الألحان الشعبية المصرية التي لإنزال نسمعها تردد على آذاننا مثل لحن الأدباتي .

ومن أزجال الزجال المصري أحمد القمّاح قوله[1]:

وفي الأزاهر لم ترى شيء تذهّبْ　　وشيء تصيبه قد زها وتفضّضْ
النرجس احداقو الشهل نعسانة　　إلا أنهما من الندى ليس تغمضْ
وحين فتح عيونه لي وجهي　　شبهت أصفر ولما بدا في الأبيض
ما زعفران على نصاف مطبوع　　ولا فصوص كهرب في صلال زبرجدْ

« والكان وكان » فن يقول عنه صاحب تاريخ الموصل إنه أحدثه البغداديون وسمى بهذا الاسم لأنهم كانوا ينظمون به الحكايات والخرافات حتى ظهر ابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) وشمس الدين الكوفي فنظما فيه المواعظ والحكم[2] وكان يسمى هذا الفن بمصر الزكالش . قال علي بن ظافر : وأخبرني بعض أصحابنا المصريين أن بعض جلساء الصالح بن رزيك أنشد بمجلسه بيتاً من الأوزان التي يسميها المصريون « الزكالش » ويسميها العراقيون « كان وكان »[3] وهما :

النار بين ضلوعي　　ولنا غريق في دموعي
كأنني فتيلة قنديل　　أموت غريق وحريق

---

(١) خزانة الأدب ١٧٦ .

(٢) تاريخ الموصل ٨٢ .

(٣) بدائع البداءة ١٣٣ .

ونظم فيه جماعة منهم الشاعر العراقي الحاجري (المتوفي سنة ٦٣٢ هـ)[1] واشتهر به من البغداديين أبو منصور بن نقطة المسحر (المتوفي سنة ٥٩٧ هـ) وكان ينظم فيه أنغاماً يسحر بها الناس في رمضان[2]، وقال عنه صاحب الجامع المختصر « شيخ مجيد مشهور صنعته الغناء وعمل « الكان وكان » ، فيأتي في ذلك بالمعاني اللطيفة . وكان أخوه زاهداً فقال أبو منصور هذا :

أنا مغني وأخي زاهد عمل مـــرّة　　　　يربـن في دار دِى حلوة ودِى لمّرة

وكان عامياً يعمل خفاف النساء »[3].

ومما يرويه صاحب مرآة الزمان لأحد البغداديين أيضا في هذا العصر قوله[4]:

لمـا تزايـــد وجـــــدي　　　　فيـــكم وقَـــلْ تصـــبُّري
وعرفتــــكم عـــــداي　　　　وقلـــت الحركـــــات
يـــا حاضـــرين بقـــلبي　　　　يـــا غايبـــين عن النظــر
مـــتى يجيـــني مبشـــز　　　　مـــن عندكـــم بقدومـــكم
ويفرحـــون أصدقـــائي　　　　وأكمـــــد الشـــمّات
حـــتى يدقـــوا بطبـــول الـ　　　　هنـــا أبـــواب الرجـــا
وأقـــول للعـــين افرحـــي　　　　قـد رد مـــا قـد فـــات
مـــتى يقولـــوا قـــد جُـــز　　　　افـــرح بســـرعة لِلُقـــا
وأقـــول يـــا أحبـــابي　　　　أطـــلبم الغيبـــــات
وإن قضَـــالي رَبـــي　　　　أمـوت ولا أنظـر شـخصكم
وجـــا نَـذيـــري إليـــكم　　　　يُقُـــلْ لكُـمْ قـد مَـــات
فحوشـــوا النـــاس عـــني　　　　عـــلى رعوس المـــــلا
إنـــي عـــلى العهـــد بـــاقي　　　　حـــتى يجـــيء الميقـــات

---

(١) وفيات الأعيان ٣ / ١٦٩ .
(٢) مرآة الزمان ٨ / ٥٠٩ .
(٣) الجامع المختصر ٩ / ٦٨ .
(٤) مرآة الزمان ٣٣٩٨ .

والمواليـا ، كانت تجري على ألسنة العامة خاصة في شهر رمضان ، ويذكر صاحب تاريخ الموصل أن محدثها هم الواسطيون (أهل واسط) ، فقد نظموا فيها الغزل وتناقلها العبيد والغلمان لسهولتها ، فصاروا يتغنون بها في بساتين النخل وعند سقي الأرض ، كانوا يقولون في آخر كل كلمة « ياموااليا » إشارة إلى أسيادهم ثم أخذها عنهم البغداديون ، وأدخلوا عليه بعض الإصلاح حتى عرفت بهم دون مخترعيها »[1]. وقال ابن خلكان ، وذكر موالاً بغدادياً : « وقد ألَّف بعض البغاددة في مواليا على اصطلاحهم - فإنهم لا يتقيدون بالإعراب فيه بل يأتون فيه كيفما اتفق »[2]. وذكر ابن خلكان المواليا التالي :

ظَفرْت لِيـلَةْ بليلي ظَفْرة المجنـوْنْ وقلـت وافي لحـظِيّ طالع ميمـون
تبسَّمِت فأضـاءَ اللؤلـؤ المكنُـونْ صار الدجى كالضحى فاستيقظ الواشون

ومن مواليا البغداديين ما ذكره سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان[3] قال : قال الشاعر البغدادي :

مـــالي ومـــالي تغـــيرت أحـــوالي
لقـــيت مـــالا يكَيَّـــف ولا يـــدور ببـــالي
مـــا مثـــلهم يحســـدني ولا هـــم أمثـــالي
هـــمُ هـــمّ هـــمّ نفســـي وضـيَّقوا فـــي حبْســـي
ومزَّقـــوا كتـــب درســـي ، عمـــداً وهـــم راس مـــالي

وقال ابن الفارق في غلام صنعته الجزارة :

قلتوا لجزار عشقتوكم تشـــرِّجني
قتلتني . قال : دا شُغْلي توبّخني !
ومَـالْ إلىّ وبَاس رجـلي يرنّخْـني
يريـد دبحـي لينفخـني ويسلخني

(١) تاريخ الموصل ٨٢ .
(٢) وفيات الأعيان ١ / ٤٣ .
(٣) مرآة الزمان ٤٤٠ .

« **والقوما** » ، يقول عنه صاحب تاريخ الموصل : « وأحسنه ما كان من أربعة أقفال ، ثلاثة متساوية في الوزن والقافية والرابع أطول منها وزناً ، وهو مهمل بغير قافية ؛ اخترعه البغداديون – كذلك – في الدولة العباسية برسم السحورة في شهر رمضان ، وسمي بهذا الاسم من قولهم : « قوماً للسحر قوماً » ونظموا فيه الزهدي والخمري والعتاب ، وكان أول من اخترعه ابن نقطة للخليفة الناصر وكان يعجبه ويطرب له ، حتى جعل لابن نقطة وظيفة عليه في كل سنة »[1].

وذكره الأبشيهي في المستطرف فقال : « قيل أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر ، والصحيح أنه مخترع من قبله ، وكان الناصر يطرب له ، وكان لابن نقطة ولد صغير ماهر في نظم القوما ، فلما مات أبوه أراد أن يعرف الخليفة بموت أبيه ليجريه على مفروضه ، فتعذر عليه ذلك فصبر إلى دخول شهر رمضان ، ثم أخذ أتباع والده من المسحرين ، ووقف أول ليلة من الشهر تحت الطيارة ، وغنى القوما بصوت رقيق ، فأصغى الخليفة إليه وطرب له ، فكان أول ما قاله قوله[2]:

يا سيّد السادات   لك بالكرم عادات
أنا بني ابن نقطه   تعيش أبويا مات

ومنه قول الصفي الحلي[3]:

من كان يهوي البدورْ   ووصْل بيض الخدورْ
بالبيض والصُّفْر يسخو   وقد خلى في الصُّدورْ
من حب بيض الخدورْ   ورام لزوم الصدورْ
يسمح وإلا فيبْقى   من بينهم مهدورْ
كم بين سجف الخدور   من عاشق مصدورْ
يرعى الكواكِبْ لَعلّو   يرى جمال البدورْ

---

(١) تاريخ الموصل ٨٢ .
(٢) المستطرف ٢٤٢ .
(٣) المستطرف ص ٢٤٢ .

[illegible] الجلال والخدودْ　　　وجوه مثل البدورْ

إشراقها في المعاجزْ　　　وغروبها في الصدورْ

قد كنت فوق الصدودْ　　　بين الظبا والبدورْ

فصرتْ أحسدْ من أبصرْ　　　خيامهم والخدورْ

نوائب المقدورْ　　　مثل الكواكب تدورْ

وبعد طيب الخواطرْ　　　يقضي بضيق الصدور

غيري يلازم الصدورْ　　　وأنا عليكم أدورْ

وأصطلي الصد وأنا　　　من بينهم مهدورْ

* * *

الشعر وملوك الأيوبيين

حاول ملوك الأيوبيين وسلاطينهم منذ عهد صلاح الدين تشجيع الشعر والشعراء فضلاً عن العلم والعلماء ، فقد أثر عن صلاح الدين أنه كان يحب سماع الشعر ، ويجلس إلى الشعراء فقد آثر الشاعر الأمير أسامة بن منقذ وبعث إليه يستدعيه إلى مجلسه في دمشق وكان أسامة قد بلغ من العمر مبلغاً كما كان من رجاله المقربين من يقول الشعر أمثال القاضي الفاضل ، والعماد الأصبهاني .

ولزم الشاعر الدمشقي ابن نفادة[1]، وهو شمس الدولة أحمد بن نفادة السلمي الدمشقي صلاح الدين في كثير من مواقعه والتقى في مجلسه بالقاضي الفاضل .

وأم مجالسه ومجالس أبنائه جماعة من شعراء الشام ومصر كذلك .

وشاركه إخوتُه وأبناؤهم في تقريب الشعراء والاحتفاء بهم ، فقد كان العادل أبو بكر كذلك ممن يحفل مجلسه بالشعراء ، وروى علي بن ظافر في البدائة بعض أخباره وقد اجتمع في معسكره في القاهرة والاسكندرية وبلبيس والشام بعض الشعراء أمثال ابن سناء الملك ، وابن شيث ، وابن النبيّة .

وكان الملك الأفضل علي بن يوسف الولد الأكبر لصلاح الدين شاعراً ومحباً للشعراء قرب الشاعر الكاتب علي بن ظافر ، فقدم إليه كتاب التشبيهات ، ومدحه ببعض قصائده وذكر الصفدي[2] أنه كان يقول الشعر ويحبو الشعراء :

« هذا الملك الأفضل نور الدين علي بن السلطان صلاح الدين يوسف ، كان متأدباً حليماً ، حسن السيرة ، متديناً ، قلَّ أن عاقب على ذنب ، يكتب الخط الحسن ، وله المناقب الجميلة . وهو أكبر إخوته ، ما صفا له الدهر ولا هنَّأه بالملك بعد أبيه ، بل لبث مدة يسيرة بدمشق ثم حضر إليه عمه العادل أبو بكر ، وأخوه الملك العزيز عثمان فأخرجاه من ملكه بدمشق إلى صرخد ، ثم جهزاه إلى سميساط . وفي ذلك كتب إلى الإمام الناصر ببغداد :

(١) راجع الغصون اليانعة ص ٢٦ .
(٢) الغيث ١٤٣ .

مــولاي إنَّ أبــا بكـــر وصاحبــه عثمان قد غصبـا بالسّيف حقّ عـلي
فانظرْ إلى حظ هذا الاسم كيف لقي من الأواخــر مـا لاقـى مـن الأوّل

فكتب إليه الإمام الناصر الجواب :

وافى كتــابُك يا ابن يوسف مُعلناً بالصّدق يُخبرُ أن أصلك طـــاهرْ
غصبُـــوا عليًّـا حقَّــهُ إذْ لم يكـــن بعـد النـبيّ له بيـثرب ناصــرْ
فاصْبرْ فإنَّ غدا عليه حسـابهم وابشــر فناصـــرك الإمــام الناصرْ

ولم ينصره الناصر ، بل توفى فجأة في سميساط ، ومن شعره رحمه الله :

أما أن للسـعد الذي أنا طــالبٌ لا دراكــه يومـاً يُرى وهو طــالبي
تُرى هل يريني الدهرُ أيدي شيعتي تمكّــنُ يوماً من نواصي النواصــب

ومن شعره رحمه الله على ما ذكره ابن واصل في مفرج الكروب

يا من يســوّد شـعره بخضــابه لعسـاه من أهل الشبيبة يحصــل
ها فاختضبْ بسوادِ حظـي مـرة ولك الأمــانُ بأنـه لا ينصُــل

وكان الملك العزيز عثمان يحب الشعراء ويقربهم ، وكذلك كان الملك الكامل بن العادل سلطان مصر ، والسلطان الصالح نجم الدين

وكان الكامل يحب الأدباء والشعراء ، ويبعث في استحضارهم ، ويكثر من مسامرتهم ويجعل لهم أسرة إلى جانب سريره ، ليقضي الليل معهم في سماعهم . وكان من وزرائه ابن يغمور الذي مدحه الشعراء ، وجالسه من شعراء المصريين وأدبائهم الجزار وسيف الدين المشدّ ، ومن شعراء المغاربة التيفاشي وابن سعيد المغربي صاحب المغرب .

كما عرف من ملوك دمشق والشام وبلاد المشرق بقول الشعر وتقريب الشعراء الملك الأشرف موسى الذي ضم بلاطه ابن مطروح ، ووزر له ، وعلي ابن ظافر ، وابن النبيه .

كما أن الناصر داود بن الملك المعظم عيسى صاحب الكرك كان من المحبين

للشعر الناظمين له، المعجبين بالشعراء المتوفرين على تكريمهم. يقول الصفدي[1]:

وقد كان الناصر من الشعراء المجيدين، والأدباء المفيدين، يتفوّق بلطفه على النسمات المتأرجة، ويكتب خطاً يزري بالحدائق المديحة.

روى له الصفدي شعراً حين خرج من بلده قاصداً الخليفة الناصر ببغداد بعد أن اضطره الملك الكامل صاحب مصر إلى ذلك:

وَدَانٍ أَلمَّتْ بالكثيب ذوائبه ... وجنح الدُّجَى وحفٌ تجولُ غياهبُه
تقهقهُ في تلك الربوعِ رعودُه ... وتبكي على تلك الطلولِ سحائبه

ومنها:

أيحسنُ في إشْرْعِ المعالي ودينها ... وأنت الذي تُعزَى إليه مذاهِبُهْ
بأني أخوضُ الدوّ، والدوُّ مقفرٌ ... سبَارِيتُه مُغْبَرةٌ وسِباسُبُهْ
ويأتيك غيري من بلادٍ قريبةٍ ... له الأمن فيها صاحبٌ لا يُجانبُهْ
فيلقى دُنُوًّا منك لم ألقَ مثلهُ ... ويحظى، ولا أحظَى بما أنا طالبُهْ
وينظُرُ من لألاءِ قُدسِك نظرةً ... فيرجع والنورُ الأماميُّ صاحبُهْ
ولو كانَ يعلوني بنفسٍ ورتْبةٍ ... وصدقِ ولاءٍ فيه لستُ أصاقِبُهْ
لكنْتُ أُسلّي النّفسَ عما أرومُه ... وكنتُ أذودُ العينَ عمَّا تراقِبُهْ
ولكنه مثلي، ولو قلتُ إنني ... أزيد عليه لم يَعبْ ذاكَ عائبُهْ

---

(١) شرح اللامية ٢ ص ١٣٤.

شعراء بني أيوب

الملك الأمجد « مجد الدين بهرامشاه »

ت ٦٢٨ هـ

يعد الملك الأمجد من أبرز شعراء البيت الأيوبي ، وقد وصلنا ديوانه ويدلّ على مقدرته على نظم الشعر ، وهو أبو المظفر بهرامشاه بن فرّوخ شاه ابن شاهنشاه ابن أيوب بن شادي ، ولقبه الملك الأمجد مجد الدين . تولى بعلبك من قبل السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد وفاة أبيه الذي شارك في حروب صلاح الدين وأبلى بلاءً حسناً ، وكان من أبطال الأيوبيين المشهورين في معاركهم مع الصليبيين . وكذا كان ولده الأمجد فارساً محارباً شارك في حروب صلاح الدين وغاراته ، وبعد وفاته شارك ابنه الأفضل عليّ صاحب دمشق ، وكان عوناً له ، ثم لمّا آل الأمر في دولة صلاح الدين إلى الملك العادل وأولاده شارك في حروب العادل وأبنائه ، وأهم ما خاضه من معارك معركة « أخلاط » في بلاد أرمينيا مع الأشرف موسى والعادل وبعض ملوك بني أيوب ، كذلك شارك في معركة تحرير دمياط المشهورة سنة ٦١٥ هـ والتي استطاع الملك الكامل صاحب مصر نصرة إخوته وأبناء عمومته من ملوك الشام قهر الأفرنج الصليبيين وإجلائهم عن دمياط بعد أن احتلوها وفتكوا بأهلها .

وظل الأمجد على بعلبك حتى نُحّي عنها ، فاستقر في أُخريات حياته بدمشق ، وظل بها حتى مقتله على يد أحد مماليكه سنة ٦٢٨ هـ ، ودام ملكه لبعلبك خمسين عاماً ، ولم يتم بدمشق عاماً .

وكان الأمجد ممدَّحاً من الشعراء ، أديباً شاعراً يحب مجالسة الشعراء الاستماع إليهم ، وينفق عليهم بسخاء . فقصده جماعة من شعراء الشام ، من شهرهم فتيان الشاغوري[1] .

---

(١) من شعراء الشام المشهورين .

وعرف الملك الأمجد بقول الشعر والإجادة فيه ، وديوانه يجمع شعره الذي قاله بعد الأربعين من عمره ، وهو على مستوى جيد ، ولا يعقل أنه يضم كلَّ ما قال من الشعر في حياته منذ بدأ يروض فيه القول .

ويذكر سبط ابن الجوزي أن ديوان شعره كان كبيراً متداولاً بين الناس[1]، وقال أبو الفدا إنه كان أشعر بني أيوب ، وشعره مشهور[2].

وتتفاوت أغراض شعره في عدد القصائد ، والأبيات ، إلّا أن الغالب عليه الغزل والنسيب ، والخمريات ، والحماسة والرثاء .

وجرى الأمجد في بعض ما قال من نسيب على سنن القدماء في الوقوف على الأطلال وذكر بعض الأماكن التي اعتاد شعراء العرب على ذكرها ، والتغني بها في أشعارها كعالج وكاظمة والغريب ، والعقيق ، ووادي القرى ، ورضوى وما إلى ذلك .

« ويتصف غزل الملك الأمجد بطول النفس ، حتى إنه ليبلغ في بعض القصائد سبعين بيتاً ، وأغلبه من الأبحر الطويلة »[3] وإن لم يخل من الأبحر القصيرة ، والمجزوءة . ويردد من معاني الغزل والنسيب ما اعتاده الشعراء من المعاني ، إلا أنه أحياناً يعرضها في معارض من رقيق اللفظ وشفيف الحسّ ، ومُلتهب العاطفة . وهو فضلاً عن ذكر محاسن المرأة ، من جسدٍ أو مشية أو حركة يتحدث عن الفراق ولوعة الهجر ، وبخل الحبيبة ، كما يتحدث عن حلاوة اللقاء ، وعذب الوصال ويلوم العذول واللائم ، ويناجي الحمام ، ويتسلّى بنوحه على الغصون .

يقـــول :

أرقْتُ من بارقٍ بالجـزع لمـّـــاع ... بـدا فهيَّـجَ أشـواقي وأوجـــاعي

أهـدى الحنـين وقد لاحت لوامعه ... لمغـرم من بعـادِ الحيّ مُرتـــاع

(١) مرآة الزمان ٨ / ٢٧٢ ، وفيات الأعيان ٢ / ١٦٢ ، وفوات الوفيات ١ / ١٥ وشذرات الذهب ٥ / ١٢٦ .

(٢) المختصر في تاريخ البشر ٤ / ٤٥ .

(٣) مقدمة ديوانه بتحقيق الدكتور ناظم رشيد - طبع مطبعة الأوقاف والشئون الدينية بالعراق سنة ١٩٨٣ .

مصاحبُ البينِ ما تنفكُّ أينقُهُ ... مُغِذَّةً بين أجراعٍ وأجزاعِ
تعافُ أن تردَ الماءَ الجمامَ وأنْ ... ترعى الجميمَ على خصبٍ وإمراعِ
في كلِّ هجلٍ بعيدِ القفرِ تقطعُهُ ... سَوَاهِماً بين إيجافٍ وإيضاعِ
تَهْوِى بكلِّ رَبيطِ الجأشِ ، مدَّرِعٍ ... ماضي العزيمة ، حامي العرض شرَّاعِ

هذه المقدمة ، وينتقل منها إلى الفخر بهذا التخلص في البيت الأخير .

ويقول وقد غير المطلع وتصرف في ذكر الديار :

أعرفتَ من داءِ انقيادِكَ شافياً ... هَيهاتَ ، لستَ ترى لِدائِكَ راقيا
لا ترجُ من بعد انقيادِكَ للهوَى ... بُرءًا ، وقد لبَّيتَ منه الداعيا
عزَّ الدَّواءُ ، فليسَ تلقى بعدَها ... طَبًّا لدائِكَ في الغرام مداويا
ما هذه في الحبِّ أوَّلُ وقفةٍ ... تركتْكَ مستعمَ الأضالعِ باكيا
قلِقَ الوسادِ ، وقد تعرَّضتِ النَّوى ... حَيْرانَ تسألُ أرْسُماً ومغانيا
تتبادرُ العَبَراتُ في عَرَصاتِها ... بددًا ، وقد أقرحْنَ طرفاً داميا
دمنٌ طُوينَ على البلى وأحالَها ... مرُّ الرِّياحِ مُراوحاً ومُفاديا
جرَّت عليها السافيَاتُ ذُيُولَها ... فطمسْنَ ما قد كان منها بادِيا
ذهبت بشاشتُها وأوحش رَبْعُها ... وتبدَّلتْ عُفْرَ الظِباءِ جِوازِيا
ظعنَ الأحبَّةُ راحلين وخلَّفوا ... قلباً بنيرانِ التفرُّقِ صاليا
كانتْ بهنَّ حواليـاً ، فأعادَها ... رَيْبُ الزَّمانِ عواطلا وغوانيا
من كلِّ مائسةِ القوامِ رشيقةٍ ... جيداءَ خجَّلَتْ الغزالَ العاطيا
ترنو إليَّ بمقلةٍ مرتاعةٍ ... حذَرَ الرقيبِ ، فلا عدمْتُ الرَّانيا
يا منزلاً بين العذيبِ وحاجرٍ ... حُوشِيتَ أن ألفى لعهدك ناسيا
فسقى رياضَكَ مِلْعهادِ سَحائبٌ ... تترى عليهِ بواكراً وسواريا
وسقى زمانَكَ من دموعي صَيّبٌ ... أَسَى على ما فَاتَ منه هاميا
زمناً عهدْتُ به الزَّمانَ قشيبةً ... أبرادُهُ ، والدَّهرَ غِرًّا لاهيا
جَذِلاً ركضْتُ به جوادَ شَبيبتي ... وسحبْتُ من مرحٍ عليه ردائيا
أقسمتُ ما لمعتَ بوارِقُ مزنةٍ ... إلَّا عقدتُ بهنَّ طرفاً كاليا
سهرانَ قد رفضَ الرُّقادَ ، وباتَ منْ ... خَرقِ الصبابةِ للبوارقِ راعيا
أذكرْنَه ومضَ المباسمِ في الدُّجى ... بوميضها ، فسالَ معاً جاريا

ما للفـــراق بينهـــنّ يـــروعُـــني فأبيتُ مســجورَ الجوانح عانيـــا
أألراعُ منـهُ وما شـحذْتُ عزيمـتي إلّا وفلّلْـتُ السـيوفَ مواضيـــا
مِن مُرهفاتِ الهِنـدِ غير كليـــةٍ طبعـتْ قواضِبَ فانثنينَ قواضيـا
والعيـسُ في أعطانهنّ مَواركـــاً تُـدْني مناسِمُهَا المحلَّ النائيـــا
تجتـابُ خرقاً بالرّيــاحُ مخرّقـــاً ويبيــدُ بيـداً سيرُهـا وفيافيـــا
تَنْصَاعُ مِن خوفِ السـياطِ كأنّما خالَتْ على أعجـازِهنَّ أفاعيـــا
تنحو بِيَ البلدَ البعيـــدَ مــــزارُه وخداً ، فتُرجِعُـه قريبـاً دانيـــاً
يا ظبيـةَ الوادي نِـداءَ مُوَلَّــــهٍ نَاداكِ من ألـمِ التَفرُّقِ شـــاكيا
قد كان يكفيني هـواكِ ، فما الذي جلبَ البعَادَ ، ومن أباحَ جفائيـــا
أصبحتُ أسألُ عنكِ برقاً لامعـــاً يبــدُو كحاشيةِ الرّداءِ يمانيـــا
لا شيءُ أقتـلُ من تباريحِ الهَـــوى للمستـهامِ إذا رجِعْـنَ أمانيـــا
خُدَعٌ وعودُكِ بالوصـالِ ، وقاتـلٌ ليانُهـا ، لو كان قلبي واعيـــا
أأروم وصلكِ بعد ما زَجَر النُّهـــى عنـه طماعيني ، وكفَّ غراميـــا
ما لي ووصلَ الغانيات ، وقد بـدَا مِنْهُـنَّ ما قد كَانَ قِدْماً خافِيــاً
هلّا رَجعــتُ عن الغوايةِ والهَـوى أنفــاً ، لقـد جذبَ العفافُ زماميا
ورفضْـــتُ أيامــاً بهـنَّ تصرَّمــتْ ومآربــاً قضيْتُهـــا ، ولياليـــا

هذه القصيدة التي تقع في سبعة وثلاثين بيتاً ، وجعلها خالصة في النسيب وشكوى الهَوى ، ولوعة الفراقِ ، ولذعة البعادِ وصدود الحبيبْ ، جمع في أولها كثيراً من معاني النسيب ، وذكر الديار ، وذكريات الخوالي العافيات منها ، كما ذكر الرحلة على الناقة تقطع به البيد ، يضرب ظهرها بالسوط فيتلوى عليه وكأنه في حسبانها الحيَّة . ثم هذا الزجرُ لنفسه بعدُ عن ذلك الهَوى الذي أضناه .

وأحسب الشاعر قد مس وتراً من نفس قارىء القصيدة بهذه الصياغة التي تنسابُ تعبيراتها انسياباً مع إيقاع الشعر وصوره التي يستعيدُ بها معاني القدماء تمرُّ في تراكيبه ، وتترى في رؤى وخيالات سريعة محبَّبة يُقرّبُها إلى النفس ذلك النغم الهادىءُ الذي ينتهي بالقافية المطلقة الياء .

ونستمع إليه وهو يصوغ هذه المعاني الغزلية الرقيقة على بحر مجزوء الرجز في إيقاع عذب فيقول :

خلَّ المطيَّ تخدي	لاحت رُبُوعُ هِنْدِ
هَيَّمها نفح الصَّبا	عن عذَباتِ الرَّنْدِ
فأرقلَتْ مُسرِعةً	تطْلبُ أرضَ نجْدِ
حتَّى كأنَّ عندها	من الجوَى ما عِنْدي
أعدى غرامي حُبُّها	إنَّ الغرامَ يُعْدِي
نجائِبٌ تسخَرُ مِنْ	وخْدِ النَّعام الرُّبْدِ
تقنَعُ من مَشْربها	بكلِّ نزْرٍ ثَمْدِ
أحبابَنا نقضْتُمُو	تِلك العهودَ بَعْدي
وما حسبتُ أنكُمْ	تنسُون حقَّ ودِّي

ويستخدم من عناصر التعبير ما استخدم القدماء من عناصر الطبيعة ، فالبرقُ والنجم ، وسيلُ العهاد ، وحاجر ، والعذيب ، ووادي النعمان ، وشجر الأراك ، والبانُ ، وعذباتُ البان ، والحمائم وترجيعها ، يذكره الحبيب :

سلَا البانُ من نعمانَ هل لعِبتْ به	رياحُ صباً يحيا بها ويقوِّمُ
وهل رجَّعَتْ فوقَ الفروع حمائِمٌ	لهنَّ على أعلا الغصون ترنُّمُ
تهيِّجُ أشجان الفؤاد كأنَّها	بما في ضميري من هوى القيد تعلَمُ
فلله كم تُبْدِي الحمامةُ شجْوَها	لديَّ على غصنِ الغرامِ وأكتُمُ
تراها لما عندِي من الوجْد والهوَى	إذا ذرَفتْ منّي المدامعُ ، تَفْهمُ
وماذاكَ عن علم بما أنا مُنطوٍ	عليه ، ولكنَّ الحنينَ يُهيِّمُ
يذكِّرني الآلافَ سجعُ هديلها	وذكرُ قديم الحبِّ للقلْب مُؤْلمُ
فأبكيهُمُ دمعاً إذا فاضَ ماؤهُ	تحدَّرَ من جفني وأكثرهُ دمُ
وأستنشقُ الأرواحَ شوقاً إليهمُ	وأسْأَلُ آثارَ المعاهِد عَنْهمُ

والملك الأمجد فارس من فرسانِ الأيوبيين في الحروب الصليبية ، وهو يجمع في فروسيته بين حديث المرأة والهوى والعذاب في الحب ، والتطلع إلى رضا الحبيبة ، والمعاناة في سبيل الحصول عليها ، وكأنها النصر الذي يصبو إليه ،

وهو يخوض الغمار ، حيث تصطكُّ السيوف ، وتجول الخيول ، وترامى البُهمُ بالسُّمْر والنبال . يقول :

ومن كان في أسرِ الصبابةِ قلبُـــه سيبكيهِ نُؤْيٌ للديـار ومعــــالمُ
ويلتــذُّ طعْـمَ الحبّ جهـلاً وإنّـهُ إذا رَاجعَ العقلَ الصحيح ، لِعلْقَمُ
على أنّني جلْدٌ على كلِّ حــــادِثٍ يزعـزِعُ منه – لو ألمَّ – يَلَمْلَــمُ
صَبورٌ إذا ما الحربُ أبدتْ نُيوبَها بحيثُ الرِّمـاحُ السمهريَّة تُحطـمُ
وعند لقاءِ الخيلِ في الرَّوع كلَّمـا تقصَّدَ في القِرْنِ الوشـيجُ المقوَّمُ
وحيثُ الكمـاةُ الحمسُ في غمراتها كأنَّهُمُ في محكَم السَّرْدَ عُــوَّمُ
يشـوقُهُم في موقِفِ الموتِ نـثرةٌ وأسـمرُ عسَّـالٌ ، وأبيضُ مخـذمُ
وجرواءُ مثلُ الريـحُ تسبقُ ظِلَّهَـا إلى الغايةِ القُصوَى ، وأجردُ شـيظمُ
وفي كلِّ وجـهٍ للمهنـدَ مضـربٌ وفي كلِّ نحرٍ للمثقّفِ لِهْـــذَمُ
وفي كلِّ أرضٍ من سـنابِك خيلهمْ عجـاجٌ مثارٌ في العِنانِ مُخـيِّمُ
وللأرضِ ثوبٌ بالسنجيع مُخضَّبٌ وللشمس وجهٌ بالقَتـام مُلَثَّـمُ

ويجمع الفارس بين متعة الحب والمرأة ، ومتعة الخمر ولذة الشراب ، ومعهما بأس القتال ، وفتكُ المغوار .. يقول بعد أبيات له في النسيب والحديث عن خوف المفاوز والأهوال في سبيل بلوغ المحبوبة :

أدرْها مثل ذَوبِ التبرِ صِرفـاً تطـيرُ بها من الفرح الرّنـــانُ
إذا ما الليــلُ شـدَّ لـه رواقٌ وألقــى مَـن دُجُنّتِـهِ الجـرانُ
ولـم يصـدَحْ ، وقد طاحَ الندامَى بها قبلَ الصّباح العُتْرُفـانُ[1]
فبادِرْها ، ولا يمنَعْـكَ عنهـــا فـلانٌ بالنصيحـــةِ ، أو فـلانُ
فخـيرُ الوقـتِ ما واقـاكَ فيـهِ زَمــانٌ ، أو شـبابٌ ، أو مكـانُ
فيـومٌ فيـه للكاسـاتِ حَـــظٌّ لهـا في رأسِ شاربهـا عنـــانُ
يقـادُ به فيصعبُ مســتقيداً رخِـيَّ البـالِ ليـسَ به جـرانُ
ويــومٌ فيـه للأعـداءِ كـأسٌ يغـصُّ بفضـل سورتها الهــدَانُ[2]
يذيقُهـــمُ بهـا جُـرَع المنـايَا وللأقـرانِ بالمــوتِ ارتهـــانُ

---

(١) العُتْرفانُ : الديك .
(٢) الهِدَانُ : الأحمقُ الجافُ .

وتأثر الملك الأمجد في شعره باستاذه أبي اليمن الكندي واضح ، فمن علاماته في ألفاظه الميل إلى استخدام قاموس الشعر القديم الجاهلي والأموي خاصة ، وترديد لمعاني أولئك الشعراء وأبي الطيب المتنبي .

وشعره ينبيء عن محصول وفير من الشعر القديم ، والألفاظ والتعبيرات القديمة فعالمه الشعري وخيالاته حافلان بذلك ، ولا يعدل عن هذا النهج إلا قليلاً ، في الصنعة واستخدام عناصر البديع من جناس وطباق ، وتورية ، وإن لم يخل في صنعته من بعض ذلك في قلة ، وعندما يقتضي السياق ، فيأتي الصنعة مليحة غير مستثقلة .

الشـعراء النابهـون

ونستعرض جماعة من الشعراء الذين كانت لهم بين معاصريهم شهرة ومكانة ، وكانت أشعارهم جارية على ألسنتهم ، ونذكر منهم فئات ثلاث في الأقاليم الثلاثة التي كانت تظلها دولة الأيوبيين ، وهي الشام ومصر وشمال العراق . ونراعي فيمن نذكر أنه يمثل لوناً من الشعر يختلف عن غيره ، وتتمثل فيه عناصر بيئته ، وعصره وشخصيته . وأول ما نبدأ بهم شعراء الشام ، وسنتناول في حديثنا ابن منير وابن القيسراني والعرقلة وابن الساعاتي وابن عنين .

الشعر والشعراء في الشام

ابن منير وابن القيسراني[1]:

وهما شاعران مشهوران من شعراء المديح ، وطبقتهما واحدة ، وعاشا معاً في الشام وتبادلا القصائد ، وكانت بينهما مناقضات ، قال العماد : وهما كفرسي رهان .

وابـــن منـــــير :

هو أحمد بن منير الطرابلسي ، ولد ونشأ بطرابلس الشام ، وتعلم القرآن واللغة والنحو وحفظ الشعر ، وكان شيعي المذهب رافضياً . قال ابن خلكان إن أباه كان ينشد الأشعار ويغني في أسواق طرابلس . وقد أخذ عنه ابنه صنعة الشعر ، وبرع فيه ، ولما تفوق في الشعر غادر بلده إلى دمشق ، واتصل برجالها الكبار ، وتردد بين دمشق وحلب ، ولقي ابن القيسراني بها وكانت بينهما مكاتبات وأجوبة ومهاجاة وظلا مقيمين زماناً بحلب .

وعاد ابن منير إلى دمشق ، ولكنه أساء إلى بعض أعيانها ، وتناولهم بالهجاء وكثر هجاؤه ، وكان هجوه خبيثاً فاحشاً كما يقول صاحب أعلام النبلاء وابن خلكان . فغضب عليه الناس بدمشق ، وحرضوا عليه أميرها بوري بن طغتكين ، فسجنه ثم أفرج عنه ونفاه عن دمشق ، فخرج منها إلى الشمال ، ولجأ إلى شيزر معقل آل منقذ ، فتقبلوه قبولاً حسناً ، وكانوا مقبلين عليه . قال العماد وروسل للعودة إلى دمشق فأبى ، وكتب رسائل في ذم أهلها .

واتصل في آخر حياته بنور الدين محمود ومدحه ؛ وكان نور الدين قليل الإقبال على الشعراء ، قليل الاحتفاء بهم ولكنه استمع لابن منير ، ونظم الشاعر فيه قصائد كثيرة ، طويلة النفس ، وقال أبو شامة إنه بعد موت القيسراني وابن منير لم يبق فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي

---

(١) مرت الإشارة إليهما في الحديث عن مذاهب الشعر وفنونه ونفصل هنا الحديث فيما أوجزناه .

إلا ابن سعد الموصلي[1]. وظل ابن منير مصاحباً للسلطان في دمشق ، ثم عاد مع العسكر إلى حلب ، فتوفى بها سنة ٥٤٨ هـ ، قال ابن القلانسي : مات بعلة هجمت عليه ربا فيها لسانه .

وأهم ما اشتهر به ابن منير الهجاء ، وهو الطابع الذي يميزه ، والذي لاصقه ، ويكاد يجمع من ترجموا لحياته على ذلك ، وكان في هجائه خبيث اللسان مفحشاً ، لذلك كان موهوب الجانب ، ومع ذلك فلم يسلم - كقول ابن القلانسي من لسانه منعم عليه ولا مسيء إليه ، وكان طبعه في الذم أخف منه في المدح ، وكان يصل بهجائه لا بمدحه وثنائه[2]. وكان ابن منير فيما يبدو في حرب مع الناس ، والزمن كما يقول هو[3]:

أنا حـزبٌ والدهـر والنـاسُ حزبٌ فمـتى أغلـبُ الفريقـين وحـدي

وقال عنه العماد : وذكره مجد العرب العامري بأصفهان ، لما سألته عن شعراء الشام فقال : « ابن منير ذو خاطر منير ، وله شعر جيد لطيف ، لولا أنه يمزجه بالهجو السخيف » .

مديحـــــه :

مدح جماعة من الكبراء على رأسهم نور الدين محمود ، والوزير الموصلي جمال الدين وزير آل زنكي[4]. ومدائحه لنور الدين قوية جيدة تختلف عن كثير من شعره الذي يبدو أقل جودة ، وهو مع ذلك مسرف في الجناس والصنعة ومنه قوله[5]:

أيـا نـور ديـن خبـا نـوره ومـذ شـاع عدلك فيـه اتقـد

ولابن منير مقطعات وقصائد في موضوعات أخرى ، اختار منها العماد

---

(١) الروضتين ٩٤ .

(٢) ابن القلانسي ٣٢٢ .

(٣) العماد خريدة القصر قسم شعراء مصر ١ / ٧٦ .

(٤) الروضتين ١ / ١٣٦ .

(٥) سبق هذا الشعر مع مثال آخر لمدائح ابن منير في نور الدين .

الأصبهاني أشعاراً في غزل المذكر . قال العماد : وكان مولعاً بغلام يعرف بابن العفريت وفي خده خال ، وأكثر أشعاره في الخال ، وقد ردد المعنى فيه .

وقال في قصيدة له : « ومن قطعه الرقيقة ، الغريبة المعنى الحقيقة بالثناء عليها حقيقة لا مجازاً ، بل عن حقيقة هي :

أترى يثنيه عن قسوته ... خدُّه الذائبُ من رقَّته
أفأستنجده وهو الذي ... لوَّن الدمع على صبغته
أو ما حاجَبَه حاجِبُه ... إن تجافى عن مدى جفوته
فلهذا قوسه موترةٌ ... تستمدُّ النبلَ من مقلته
قمرٌ لا فخر للبدر سِوَى ... أنه صيغ على صورته
صدغه كرمة خمر قسِّمت ... بين خديه إلى نُكهته
فَتَّرت جفنَيه منها نشوةٌ ... توقظ العاذِل من سكرته
أتخال الخال يعلو خدَّه ... نقطُ مِسْكٍ ذاب من طرَّته
ذاك قلبي سُلِبتْ حبتُه ... واستوت خالا على وجْنَتِه

وذكر العماد أنه سأل عنه الشاعر الناقد أسامة بن منقذ ، فذكر أنه أخذ بعض ما في شعره من ابن مكنسة الشاعر المصري ، وقال له العماد :-فاحكم كيف كان في الشعر ؟ وهل كان قادراً على المعنى البكر فقال : كان مغواراً على القصائد يأخذها ، ويعوّل في الذبّ عنها على ذمّهِ للناقد أو للجاحد[1].

وقد ساعده على التفوق في فن الهجاء سرعة خاطره وبلاغته . قال عنه ابن نجا الدمشقي : ما كان أسمح بديهته .

---

(١) خريدة القصر شعراء الشام ١ / ٧٦ .

ابن القيســراني

هو أبو عبد الله محمد بن نصر العكاوي ، كان من الشعراء المجيدين والأدباء المتفننين ، قرأ الأدب على ابن الخياط الشاعر الأديب ، وجرت بينه وبين ابن منير كما ذكرنا مفاوضات ومعارضات ، حتى قال عنهما العماد إنهما كانا يشبهان جريراً والفرزدق في زمانهما ، « فكأنهما جرير العصر وفرزدقه ، وهما مطلع النظم ومشرقه » ، وكانا أيضاً شاعري الشام في حياتهما ، وقد توفيا في عام واحد سنة ٥٤٨ هـ . وفي وقت متقارب ، وكان مقيماً بحلب ، ثم جاء دمشق في آخر حياته سنة ٥٤٨ هـ . بدعوة من مجير الدين أنر ومات بعد ذهابه بعشرة أيام ... ومدح مجير الدين بقصيدة حسنة المعاني والمقاصد فاستحسنها السامعون واستجادوها وشفعها بغيرها فوصله بأحسن صلة ، وعاد إلى منزله فانتابته حمى توفي بعدها .

قال ابن القيسراني المؤرخ : « وكان أديباً وشاعراً مترسلاً فاضلاً بليغ النظم مليح المعاني كثير التطبيق والتجنيس »[1]. وله ديوان شعر صغير مخطوط بدار الكتب المصرية .

مدائحـــــه :

يروي له صاحب الروضتين شعراً كثيراً في مدح نور الدين . وهو شعر سهل الأسلوب لا يعمد فيه إلى كثرة التجنيس والبديع مثل ابن منير ، وصوره كلها قصيرة متتابعة ، وعبارة عن صفات يصوغها شعراً ، ويغلب عليه قلة الرونق والروح الشعري ، ويتمثل كثيراً شعر المبدعين من شعراء العرب السابقين أمثال أبي تمام والمتنبي .

وللقيسراني غير المدائح قصائد في موضوعات كالغزل ، والوصف ، وفي شعره آثار حياته الأولى أيام الشباب في عكا بلده ، وكان قد احتلها الفرنج وبدأت الفرنجة تأخذ طريقها إليها ، فبنيت فيها الكنائس ، على الطرز الغربية

(١) ابن القيسراني ٣٢٢ .

وأقام بها الفرنج ، وظهرت نساؤهم في الأسواق ، وجلبوا معهم مغنياتهم ومغنيهم وضروب لهوهم وتسليتهم ، وشاهد ابن القيسراني هذا كله وسجله في شعره .

قال في إفرنجية زرقاء العينين[1]:

لقد فتنتني فرنجيةٌ نسيمُ العبيرِ بها يعبقُ
ففي ثوبها غصنٌ ناعمٌ وفي تاجها قمرٌ مُشرقُ
وإن تكُ في عينها زُرقةٌ فإن سِنانَ القنَا أزرقُ

عرقلة الدمشقي (المتوفي سنة ٥٦٧) ، شاعر الفكاهة :

واسمه أبو الندى حسّان بن نمر ، شاعر مطبوع خليع خفيف الظل من حاضرة دمشق ، يختلف عن الشاعرين السابقين في روحه وشعره ، فهو صاحب شعر رقيق لا تلمس فيه التعقيد والتكلف اللذين تجدهما كثيراً في شعر العصر ، وهو ليس ميالاً للمديح ، لا يكثر منه ، كما أنه لا يجيده ، ولا يطيل في قصائده فكل شعره أو أكثره مقطعات صغيرة . قال العماد : « وقصائده قصار ، وفي النادر أن تزيد قصيدته على خمسة وعشرين بيتاً ، ومقطعته على عشرة أبيات ، وكلها نوادر وكلام مضحك[2]» .

وقد حببته خفة روحه إلى من اتصل بهم من الناس ؛ لقيه العماد الأصبهاني في دمشق أثناء وجوده بها فوصفه بقوله : « لقيته بدمشق شيخاً خليعاً ربعة مائلاً إلى القصر ، أعور ، مطبوعاً ، حلو المنادمة ، لطيف النادرة ، معاشراً للأمراء[3]، شاعراً مستطرف الهجاء ، لم يزل خصيصاً بالأمراء السادة من آل أيوب ينادمهم ويداعبهم ويكاتبهم قبل أن يملكوا مصر ، والملك الناصر صلاح الدين أشغفهم بنكته ، وأكلفهم بسماع نتفه ، وله فيه مدائح ، ولديه منه منائح[4]» .

اتصل بجمال الدين الوزير الموصلي ومدحه ، ومدح الوزير المصري الصالح

---

(١) خريدة القصر قسم شعراء الشام ١ / ٩٩ .
(٢) خريدة القصر شعراء الشام ١ / ١٨٣ .
(٣) المصدر نفسه ١ / ١٧٩ .
(٤) الروضتين ١ / ١٣٦ .

ابن رزيك ، ورثاهما وقد حدث أن توفيا في عام واحد سنة ٥٥٩ هـ ، فقال[١] :

لا خير في الدنيا ولا أهلها ... بعد جمال الدين والصالح
بحران لولا دمع باكيهما ... ما كان ماء البحر بالمالح

واتصل بأمراء آل أيوب ، والتقى بصلاح الدين ، وكان أميراً من أمراء نور الدين قبل أن يملك مصر . فألفه ، وأنس له ، ويقول العماد : وكان قد وعده صلاح الدين بدمشق أنه إن ملك مصر أعطاه ألف دينار ، فلما ملك مصر بعث إليه عرقلة يقول :

قل للصلاح معيني عند إعساري ... يا ألف مولاي أين الألف دينار
أخشى من الأمر إن وافيت أرضكم ... وما تقي جنة الفردوس من نار
فجد بها عاضديات مسطرة ... من بعض ماخلف الطاغي أخو العار
حمْراً كأسيافكم غرًّا كخيلكم ... عتقاً ثقالا كأعدائي وأطماري

فسيَّر له صلاح الدين ألفاً ، وأخذ له من اخوته مثلها[٢]. ويروي أبو شامة في الروضتين أن عرقلة جاء صلاح الدين بمصر فأعطاه عشرين ألف دينار ، وأخذ له من إخوته مثل ذلك ، وعاد من عنده إلى دمشق مسروراً محبوراً ، وكان ذلك في ختام حياته[٣].

وتقمصت عرقلة روح أبي نواس ، فماثله وقلده في منادمته لصلاح الدين ، وفي مجونه وخلاعته ، وفي هجائه وخمرياته وروضيَّاته ، ومن تمثله لأبي نواس ، أكثر من ذكره في شعره . قال في قصيدة يمدح فيها الصالح بن رزيك :

وكأني أبو نواس إذا ما ... جئت مصراً وأنت فيها الخصيب
ولئن كنت مخطئاً في قياس ... إن قدري ما قال قدماً حبيب

ويقصد قول حبيب بن أوس الطائي أبي تمام حين وصف ممدوحه بقوله :

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

(١) الروضتين ١ / ١٣٩ .
(٢) فوات الوفيات ١ / ٢٢٢ وراجع خريدة القصر قسم شعراء الشام ١ / ١٧٩ .
(٣) الروضتين ١ / ١٧٧ .

فقيل له إن الممدوح أرفع ممن ذكرت فرد قائلاً :

لا تنكروا ضربي له من دونـــه مثلاً شروداً في الندى والبـــاس
فالله قـد ضـرب الأقل لنـــوره مثلاً من المشـكاة والنـبراس

وقال يمدح صلاح الدين : (ذاكراً أبا نواس والخصيب أيضاً) :

الحمـد لله السـميع المجيبْ قد هَلَك الشرك وضلَّ الصليب
يا ساكني أكناف مصـر أنـا أبو نواسٍ والصـلاحُ الخصيبْ

ومن خمرياته التي تحس فيها روح أبي نواس قوله :

أدِرْ يا طلعَـةَ البــدْر علينـا أنجُـمَ الخمْـرِ
وقَطِّـع ليلنـا بالكـأ س حـتى مطلـع الفجْـرِ
عـلى فتـانة العينـ ـين والخـدَّين والثغـرِ
بـدا في وجههـا قمـرٌ ومـن نغماتهـا قُمـرى
كـذا فليشـرب الصهبا ءَ مثـلي يـا ذوى الشُّعْر
مـع الفتيـان في الحـانا تِ بـين الطبـل والزَّمْـر

وقال محاكياً قصيدته المشهورة :

دع عنك لومي فإن اللوم إغــراءُ وداوني بالتي كانت هي الـداء

قال عرقلة[1]:

نديمي داوِ بالخمـر الخُمـــارا أدِرْ كأسي يميناً أو يســـارا
مشعشـعة إذا مـا صفَّقوهـا بمـاء خلْتُهـا نوراً ونـاراً
لهـا من مولدي موسـي وعيسـى شـرابٌ لليهـــود وللنصـارى
ومسمعة إذا ما شـئت غنَّــت « ألا حـيى المنـازل والديـارا »
بـدت بدراً ومادت دعص رمـلٍ وماسـت بأنـةً رشـدت هـزارا
إذا غازلتهـا أو غـازَلتـني تأمـلت الفـرزدق والنـوارا

(١) خريدة القصر ١ / ٢٧٠ .

ومن روضياته ، يصف روضة قرب دمشق بقرية (النيرب) :

ولقــد نعمــتُ بروضــة في نــيربٍ ألفَ الربيــع بروضــه الغصن الندي
أزهــاره من جوهــر ونسـيـمُـه من عنـبر وثمـاره من عســجدِ
وعلى الغصـون من الحمائم قينــةٌ تغنيك عن شدو الغريض ومعبَدِ
والمـاءُ في بردَى كـأنَّ حبَـابَه بـردٌ حبتـه الريحُ غيرُ مُجمَّـدِ
بينـا تُراهُ كالسجنجل ساكنـاً حـتى تراه أجعـدًا كالمـبردِ

وقال في دمشق ورياضها :

دمشقُ حييتِ من حيي ومن نـادِ وحبَّـذا حبَّـذا واديـك من وادِ
ليس الندامى ندامى حين تنـزلُه يَعُلُّهـمْ شـادِنٌ كأسـاً على شـادِ
حقَّـا وللورق في أوراقـه طـربٌ كـأن في كل عـود ألف عـوّادِ
يا غاديـاً رائحـاً عرِّج على بردى وخلِّـني من حديث الرائح الغادي
كم قد شربت به في ظلِّ دانيـة من مـاء دالية تنبيـك عن عـادِ
في جنْبِ ساقية من كفِّ ساقيـة قامت تثـنَّى بقـدٍّ غير منـآدِ
سـمراءَ كالصعدة السمراء واضحة يشفي لَمَى شفتيها غُلة الصـادي
لهـا بعيني إذا ماسـت عواطفُهـا جَمـالُ ميَّاسةٍ في عين مقـدادِ

ومن غزلياته الحلوة[1]:

لمن حلة ما بين بصُـري وصرخـدِ تـروح بها خيل الجلاح وتغتدي
ونـارٌ بقـلبي مثلهـا لأهيلهــا تُشـبُّ لضيف مُتهـم ولمُنجـدِ
ومشـوقةٍ رفـت ورقَّـت شـمائلاً إلى أن تسـاوي جلدُها وتجـلُّدي
من الخفرات البيض تُغني لحاظُها عن المرهفات البيض في كل مشـهد
حجازية الأجفان والخصر والحشـا شـآميةُ الأرداف والنهـدِ واليـدِ
إذا ابتسـمت فالـدرُّ عقد منضَّـدٌ وإن حدَّثـت فالدرُّ غير منضَّـد
وألمى كمثـل البدر تبدو جيوبـه على مثـل خوط البانة المتـأوِّدِ
لـه مقـلة سـكرى بغير مدامـةٍ ولي مقـلةٌ شـكوى بدمـع مـورَّد
رعى الله يومـاً ظلَّ في ظلِّ أيكـةٍ نديمي على زهر الرياض ومنشـدي

(١) خريدة القصر شعراء الشام ١ / ١٩٦ .

وكأساً سقانيها كقنديل بيعة | بها وبه في ظلمة الليل نهتدي
معتقة من قبل شيث وآدم | محلّلة من قبل عيسى وأحمد
صفت كدموعي حين صدّ مديرها | ورقت كديني حين أولى بموعد
وفي الشيب لي عن لاعج الحبّ شاغل | وقد كنت لولا الشيب طلاع أنجد

ويهزل فيضع الصور المتباينة متلاحقة متقابلة ، فتبدو المفارقة مضحكة مثل قوله في غلام أحول عشقه ، وهو أعور :

يا لائمي هل رأيت أعجبَ من | ذي عور هائم بذي حَوَلِ
أقِلُّ في عينه ويكثُر في | عيني بضدّ القياس والمثَلِ

ويعتمد هزله ، أو فنه في الفكاهة والإضحاك على الصورة المنتزعة من الأشياء المضحكة ، ومن تلاعبه بالألفاظ ، فهو يطلب من بعض الناس شقّة عراقية وهي نوع من اللباس أشبه بالعباءة . فيقول في وصفها منتزعاً بعض الصفات المضحكة ومتصرفاً في الألفاظ تصرفاً يخدم غرضه الفكه[1]:

حاجتي شقّة تشقُّ على كُلْـ | ـل بغيضٍ من الورى وحسودِ
ذات لونٍ كمثل عرضِك لاعِرْ | ضي وحظّي من القريب البعيد
فابعثْها صفيقةً مثل وجهي | جَلّ من صاغَ جِلْدَه من حديد
واجعلنها طويلة مثل قرني | ولساني لا مثل قدّي وجيدي
كي أرى في الشآم شيخاً خليعاً | في قميص من العراق جديد

ومن تلاعبه باللفظ في الهجاء قوله يهجو شاعراً اسمه وحيش :

لا بارك الرحمن في وُحَيش | فإنه مكدّرٌ للعَيْش
كم قال لا قلقل غير نابه | أبيات شعر كبيوت الخيش

وقال من أبيات وقد أعطاه بعضهم شعيراً :

يقولون لِمَ أرخصت شعرك في الورى | فقلت لهم إذ مات أهل المكارم
أجازي على الشِّعرِ الشعيرَ وإنّه | كثيرٌ إذا استخلَصتهُ من بهائم

---

(١) خريدة القصر شعراء الشام ١ / ٢٠١ .

ابن عنين ، المتمرد الساخر

اسمه محمد بن نصر الله بن الحسين ، كوفي الأصل ، وولد في دمشق ونشأ ودرس على جماعة من علمائها ، كالحافظ ابن عساكر ، وقطب الدين النيسابوري وكمال الدين حسين الشهرزوري قاضي دمشق ، ثم ارتحل إلى بغداد فأتم علمه هناك ، قال ابن خلكان : « وكان غزير المادة من الأدب مطلعاً ، على معظم أشعار العرب ، كان يستحضر كتاب الجمهرة لابن دريد[1] » .

ابتدأ ابن عنين قول الشعر سنة ٥٦٥ ، ولم يتجاوز السادسة عشر من عمره وكان ذلك على عهد نور الدين محمود بدمشق ، وكان نور الدين زاهداً في الشعر والشعراء ، إذ كان يقدم عليهم الفقهاء والصوفية ، وكانت نفس الفتى تغتلي بالتمرد والتحرر ، وتضيق بالأوضاع ، وتثور على ماتراه من مظاهر النفاق في الناس ، يتوق إلى الخروج على طاعة الأمراء والسلاطين ، وعاصر دولة صلاح الدين منذ نشأتها ، ورآه عند حضوره إلى دمشق بعد وفاة نور الدين ، ولقي جماعة من رجاله المقربين ، مثل القاضي الفاضل ، ولكنه لم يتقبلهم في نفسه قبولاً حسناً ، فبدأ يغمز ويلمز ، ويشنع ويسخر ، ولم ينج من لسانه أحد ، حتى إنه هجا القاضي الفاضل[2] وهجا السلطان نفسه وكاتبه قال :

سلطاننـــــا أعـــــرج وكاتبُـــــهْ ذو عَمَـش والوزيـــر منحـــــدبُ

فضاق به السلطان ورجاله ، وأصدر أمره بنفيه عن دمشق إلى أي بلد يختاره ، ولم يختر بلداً بعينه ، بل صرف همه في البلاد ، ونقم على الذين أخرجوه من بلده الذي يحبه فقال :

فعـلامَ أبعـدتم أخـا ثقـــةٍ لم يقـترف ذنبـاً ولا سرقـــا
أنفــــوا المـؤذن من بلادكـــــم إن كـان ينـفي كل من صدقـــا

وطاف بالبلاد ، بالشام والعراق والجزيرة وأذربيجان ، وخراسان ، والهند ، واليمن ومصر . وقد أوغل في المشرق حتى قال :

أشقُّ قلب الشرق حتى كأنـني أفتش في سودائه عن سنا الفجْـرِ

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان .
(٢) مرآة الزمان ٢ / ٤٧٣ .

ولقي بها الفخر الرازي ، فصاحبه ، وأحسن صحبته ، وأعطاه من المال ما أرضاه ، ومدحه ابن عنين بمدائح جيدة . ولكن هذه الصحبة لم تنسه بلده ، وحنينه إلى وطنه ، فنظم في المشرق قصائد كثيرة يتشوق فيها إلى دمشق ويتألم لاضطراره إلى البعد عنها . ويقول في أبيات له :

أَحِنُّ ومن وراء النهــر داري حنـين العـود أوثقـه الغـراس
وكيف تبيت تطمع في مديحـي رجـاء نوالها العجم الخســاسُ
ولو أني مدحـت ملوك قومـي تراغـت حولي النعـم الدخـاس
فإن النـاس في طـرق المعـالي لهـم تبـع وهـم للناس راسُ

فيعز عليه أن يتجول في بلاد غريبة العاطفة واللسان ، في بلاد الهند وما وراء النهر ، ويعز عليه أن يقول الشعر في ملوك أعاجم غير عرب ، بينما ملوك وطنه أحق بما يقول من الشعر . وهذه نزعة وطنية كامنة في نفسه كانت تفصح عنها أبياته كلما وجدت مناسبة أو أتيحت لها فرصة سانحة . وبلغ تعصبه لعروبته مبلغاً جعل كل جنس سوى العرب أقل في نظره ، وغير حفي بالتكريم ، هذا مع أن روح الإسلام في هذا العصر كانت أغلب على العروبة ، ذلك لأن النضال ضد الصليبيين الذين جاءوا تحت راية الصليب ومتخفين في ثياب الدين دفعت المسلمين أيضاً إلى الوحدة للوقوف يداً واحدة عرباً وكرداً وفرساً تحت راية الإسلام مما جعل بعض الشعراء يقول :

بدولـة الترك عزت دولة العــرب

وكذلك ابن النبيه المصري :

الله أكــبر ليس الحســن للعــرب

لكن ابن عنين ، متعصب لعروبته ولا يقبل عنها بديلاً فنقول في إباء يشبه إباء المتنبي :

وكيف تبيت تطمـع في مديحـي رجـاء نوالهـا العجـم الخســاسُ

ويقول عائباً من استرضع في غير العرب مزرياً به إن كان عربي الأب :

فألفيته يهوى الندى وتردُّه | عروقٌ إلى أخواله الزرقِ تنتمي
إذا أيقظته نخوةٌ عربيةٌ | إلى المجد قالت أرمنيتُه نم

وقال أيضاً :

وقلت فتى من دوحةٍ عربيةٍ | تشابه منها الفرعُ في الطيب والأصلُ
ولم أدر أن الأرمينية ظئرهُ | وفي الأرمنيات النجاسة والبخلُ

وبعد أن بلغ ابن عنين في رحلاته الهند ، لم يعجبه المقام بها ، ولا أعجبته أحوال أهلها ، ودفعه الحنين للعرب ولوطنه إلى العودة ، فقفل راجعاً إلى اليمن ، وهناك التقى بأميرها سيف الإسلام العزيز طغتكين بن أيوب أخي صلاح الدين ، فأكرم وفادته ، وأغدق عليه ، ورضي بصحبته ، وأكرمه أيما إكرام وأحب الشاعر الأمير وأجله ، ومدحه بقصائد تعد من خير شعره في المديح ، وقال معبراً عن راحته واطمئنانه إلى جواره :

فلما استقرت في ذراه بي النوى | وألقت عصاها بين مزدحم الوَفدِ
تنصل دهري واستراحت من الوجى | قلوصي ونامت مقلتي وعلا جَدّي

وبدأت الدنيا تغدق عليه وتفتح له صدرها ، فاشتغل بالتجارة ، وتردد بين اليمن والحجاز ومصر ، وحدث له مرة بمصر أن ضايقه رجال المكوس ، فسلط عليهم لسانه ، وتناول ملكها العزيز عثمان بن صلاح الدين قال :

ما كل من يتسمى بالعزيز لها | أهل ولا كل برق سُحْبُه غَدِقَهْ
بين العزيزين بونٌ في فعالهما | هذاك يعطي وهذا يأخذ الصدقَهْ

ويقصد بالعزيز الثاني هنا العزيز سيف الإسلام صاحب اليمن .

واتصل في مصر بجماعة من شعرائها وأدبائها ، كذلك لقي بها ابن الساعاتي وله في وداعه قصيدة نظمها سنة ٥٨٧ هـ – سنة ٥٨٨ هـ ، وكذلك نجد لابن الساعاتي أبيات مماثلة في ديوانه .

وقد أقام في مصر مدة طويلة بعد أن غادر اليمن لآخر مرة سنة ٥٩٤ هـ بعد وفاة صلاح الدين ، وطالت عشرته لشعراء مصر وأدبائها ، فأعجبوا به وبخفة

روحه وظرفه ودعابته وفكاهته . قال ابن خلكان في ترجمة ابن سناء الملك : « واتفق في عصره بمصر جماعة من الشعر المجيدين ، وكان لهم مجالس يجري بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها ، ودخل في ذلك الوقت إلى مصر شرف الدين بن عنين ، فاحتفلوا به ، وعملوا له دعوات ، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش ، وكانوا يقولون : هذا شاعر الشام . وجرت لهم محافل سطرت عنهم » .

وقد تركت زيارته هذه لمصر أثراً في نفسه ، لقد أحبها ، وتشوق إليها ، وبعد أن أتيحت له فرصة العودة إلى بلده دمشق بعد طول غيابه وغربته لم يتشوق إلى بلد من البلاد التي كان بها قدر تشوقه إلى مصر . قال فيها[1]:

تحيةَ مشتاقٍ بعيدٍ مزارُه ... أبى شوقه أن يستقر قرارُه

إذا نَفْحَةٌ مرتْ به قاهريَّةٌ ... ذكتْ في الحشا بين الجوانح نارُه

وما شام من أعلا المقطم جفنُه ... سنا بارقٍ إلا توالت قطارُه

* * *

أحنُّ إلى مصرٍ ويا ليتَ أنَّ لي ... إذا ذكرت مصرٌ جناحاً أعارُه

فآوى إلى ظلٍّ ظليل ونائلٍ ... جزيلٍ وملكٍ حالف العزَّ جارُه

وانتهت غربته بالعودة إلى دمشق ، لقي بها الملك المعظم عيسى بن العادل ابن أيوب فرحب به المعظم وأكرمه ، واستشاره في أموره ، وولاه في آخر عمره الوزارة ، فأحسن السياسة وأحبه الناس ، وقد دخل دمشق متحدياً لأهلها تغمر قلبه الشماتة فيهم لأنهم أخرجوه ، وشردوه هذا الزمن الطويل ، فقال في عودته :

هجوت الأكابر في جلَّقٍ ... ورعت الرضيع بسبب رفيع

وأُخرجتُ منها ولكنني ... رجعت على رغم أنف الجميع

وظل في دمشق ، زمناً طويلاً إلى آخر حياته من سنة ٥٩٧ هـ إلى سنة

---

(١) ديوان ابن عنين نشر خليل مردم ص ٩١ .

٦٣٠ هـ أو سنة ٦٣٣ هـ سنة وفاته ، وعمر عمراً طويلاً إذ بلغ الثمانين ، ولم يخرج من دمشق إلا في سفارات للمعظم إلى بغداد أو غيرها .

وخلف لنا ابن عنين ديوان شعر لم يجمعه هو ، لأنه لم يكن يعني بجمع شعره إنما جمعه أحد الدمشقيين ، وليس كله ما جمعه ، بل إن ما جمعه جزء من كثير ، قال ابن خلكان : « لا يبلغ عشر ماله من النظم » . كذلك خلف لنا كتابين أحدهما اختصار لجمهرة ابن دريد ، والثاني تاريخ العزيزي برسم سيف الإسلام العزيز ، ولكنهما فقدا .

شـــعره وفنونـــه :

قال ابن خلكان عنه : « وكان من أظرف الناس وأخفهم روحاً ، وأحسنهم مجوناً . وبالجملة فمحاسن شعره كثيرة »[1]

وقال ياقوت : « كان يقال إنه يخل بالصلاة ويشرب الخمر . ورمي بالزندقة »[2]، فأول صفة تطبع شعره الهجاء قال ابن خلكان : « كان مولعاً بالهجاء وثلب أعراض الناس » وقال ياقوت : « وله قصيدة اسمها مقراض الأعراض تناول فيها جماعة من أعيان دمشق – وأورد مطلعها – ثم قال : ومن ثم أخذ في الهجو بنفس طويل ، وتفنن بأساليب السب والثلب ، فأورد مالا يحسن إيراده ، وقال : وهجا آباءه ، ثم قال : وشعره غرر كله » .

فالصورة التي يرسمها المؤرخون له صورة الظريف خفيف الروح ، الماجن الخليع المخلّ بالصلاة ، شارب الخمر ، الزنديق ، المولع بالهجاء والسليط اللسان الموكل بثلب الأعراض والفحش ، كل هذا في شعر حسن غزير ، ذي نفس طويل وتفنن في أساليبه ، ولطيف في موارده حتى إنه غرر كله .

وإذاً فشعر الهجاء عنده هو عماد شاعريته ، وهو أيضاً الصورة الأدبية لشخصيته ، والهجاء يتشعب عنده إلى شعبتين : الأولى ، هجاء مقذع أقرب إلى السباب والفحش ، والثانية سخرية لاذعة ، في تهكم مرير .

---

(١) وفيات الأعيان .

(٢) معجم الأدباء ٧ / ١٢١ .

وعجيب أن تجتمع هذه الصفات في شخص إلى جانب صفات أخرى هي الإباء والشمم والعفاف عن المال ، وحسن التدبير ، وعدم الخضوع والتملق للسلطان .

لكنها الحقيقة مختلفة متباينة في الظاهر ، وتجتمع في الخفاء لتصدر عن نبع واحد هو الشخصية المتمردة الساخرة ، فهو رجل طبع على التمرد ، وعدم الرضا بكل معوج خاطىء ، لا يصبر عليه ، يبادر إلى تناوله بلسانه ، وساعده على ذلك طبيعة ساخرة ، نافذة ، وقد يشبهه من يقرأ شعره بالمتنبي في تمرده على الزمن والناس وفي طلبه للمعالي دائماً ، أو ليس هو القائل :

ولا بد أن أسعى لأفضل رتبة ... وأحمىَ عن عيني لذيذ منامي

أو ليس هذا من معاني المتنبي التي أكثر من تردادها في شعره ، ثم أليس قلقه في البلاد وارتحاله من بلد إلى بلد سعياً وراء هذا المجد ، أو هذا الأمل الذي ينشده ، هو ما كان يفعله المتنبي ، ويقلق له ، ويضني نفسه وراحلته طوال حياته بسببه ؟ ، أو ليس صرف عصبيته للعرب ، يماثله كذلك ، ثم هما أخيراً وليس آخراً يجمعهما موطن أصلي واحد فكلاهما من الكوفة أصلاً ، وإن كان مولد ابن عنين بدمشق .

وساعةً تقرأ لابن عنين فتذكر أبا نواس في خلاعته ، ومجونه ، وتهتكه وسخريته برجال الدين ، تقرأ له قوله في محدِّث كان يجلس في المسجد الأموي ويحدث الناس واسمه يعقوب :

رأيت النبي عليه السلام ... فقمت إليه وقبلته
فقال أيعقوب يروي الحديث ... فقلت : نعم ، قال : مَا قلتُه

وقال في رجل جاء من بغداد ينبز بالجدى ، ويدَّعي الخطابة :

حوى قصبَ السبْقِ أهلُ العراقِ ... وعطر ذكرهم الأنديهْ
وأيُّ خطيبٍ يحاربهُم ... وقد خطبت فيهم الأجديهْ

ويقول في رثاء حماره :

لقد كان إن سابقتهُ الريح غادرها كأنَّ أخمصَها بالشَّوكِ ينتعِـلُ
لا عاجزاً عند حمل المثقلات ولا يمشي الهوينى كما يمشي الوجى الوحل

* * *

يرجِّع النَّهْق مقرونـــاً ويطربُـــني لحناً كما يطـربُ المزموم والرَّمَـــــلُ

وتقرأ أنه كان مغرى بالقضاة والفقهاء والمحدثين والواعظين ورجال الدين ، فتذكر ما قاله أبو نواس في أهل الحديث مثل :

ولقـــد كنـــا روينـــــا عـــن ســـعيد عـــن قتـــادة
أن من مـــــات محبًّـــــا فلـــه أجـــــر الشـــــهادة

أو قوله حين تصنع التنسك :

لو تـــراني ذكـــرت للحســـن البصـــــــري في حســـن سـمته وقتـــــاده
المســـابيح في ذراعـــي والمصحـــف في لبـــتي مكـــان القـــــلادة

وساعة تقرأ له فيتمثل لك ابن الرومي في هجائه المر النفاذ ، المفحش أحياناً مثل قوله في أحد القضاة ، وكان ميالاً إلى النساء وكتب بها إلى المعظم عيسى[1]:

أقولهـــا لو بلغـــت مـــا عســـــــى فالطبـــل لا يضـــرب تحـــت الكُسَى
قاضيـــك إن لم تُقْصـــه فاخْصِـــه أو لا فـــلا يحـــكم بـــين النّســـــــا

ونقرأ له في خروف هزيل أهدى إليه[2]:

أتاني خروف ما شككت بأنـــه حلفُ هوى قد شفَّه الهجر والعذلُ
إذا قام في شمس الظهيرة خلتـــه خيالا ســرى في ظلمـه ما له ظـلُّ
فناشدته ما تشتهي ؟ قـال قتَّـــة وقاسـمته ما شـفَّه ؟ قال لي الأكلُ
فأحضرتها خضراءَ مجاجـــة الثرى مسلمةً ما حصَّ أوراقهـا الفَتْـلُ
فظـــلَّ يراعيهـــا بعـــين ضعيفـــةٍ وينشـــدها والدمـع في الخد منهـل
« دَنَت وحياضُ الموت بيني وبينها وجادت بوصْلٍ حين لا ينفع الوصلُ »

(١) ديوان ابن عنين .
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٤ .

وهكذا كان ابن عنين شاعراً متدفق الشاعرية وقاد الذكاء لماح الخاطر ، يحسن الأداء في لفظ رصين ، ونظم غير مختل ، وكانت معرفته باللغة خير معين له على ذلك ، وهو يستعمل المحسنات البديعية ، لكنه لايسرف فيها إسراف غيره من الشعراء ممن تعرضنا لهم ، وهو ينتقي ألفاظه بدقة ، فيأتي في المديح بما يلائم موضوعه قوة ورصانة ، ويأتي في الهجاء باللفظ الحصيف السهل ، بل قد يعمد أحياناً إلى العامي الدارج ، وكثيراً ما نجد الألفاظ العامة مما يستعمله أهل دمشق تُفْلتُ على لسانه مثل « العواني ، والعلق ، والنصف ، ودق الحنك .. إلخ »[1] مما قد يبدو في أعين المتزمتين ضعفاً أو إسفافاً ، إلا أنه رواية أو حكاية لأقوال الناس ، وهو أوقع في معرض السخرية والهجاء .

---

(١) راجع مقدمة الديوان لخليل مردم ص ٢٦ .

ابن الساعاتي (ت سنة ٦٠٤ هـ) الوصاف المصور :

هو أبو الحسن علي بن رستم بن هردوز ، قال ابن خلكان : « شاعر مبرز في حلبة المتأخرين ، له ديوان شعر أجاد فيه كل الإجادة[١] » .

وأصله من خراسان ، جاء منها والده محمد بن رستم بن هردوز وكان مشتغلاً بعلم النجوم وصنع الساعات ، وإليها نسب ، وبقي والده في دمشق ، وولد هو بها وتنشأ ، ولذلك يسميه ياقوت الشاعر الدمشقي ، أخذ في دمشق على جماعة من علمائها في القرن السادس ، وقرأ كثيراً من دواوين شعراء العرب القدماء جاهليين وعباسيين ، واستوعب كثيراً من قصائدهم حفظاً ، وحاول تقليدهم والاستعانة بهم في أدبه ، وبقي الشاعر في دمشق طوال حياته وشطراً من شبابه إلى سن الثلاثين أو الثانية والثلاثين ، وفي سنة ٥٨٥ هـ . غادر دمشق إلى مصر حيث قضى بقية عمره .

فالشاعر إذاً قسم حياته بين دمشق ومصر ، وقضى في الأولى طفولته وصباه وصدر كهولته حيث مات كهلاً في الخامسة والخمسين .

وكانت حياة الشاعر في دمشق حياة غير رضية ، يغلب عليها العوز وشكوى الحاجة وقد ردد الشاعر هذه المعاني كثيراً في شعره ، وكان لذلك كثيراً ما يسأل من يمدحه أو يعرض بالسؤال ، وكان ذلك شديداً على نفسه ، والشباب دائماً يعز عليه أن يحتاج وأن يسأل ، وانقلب الحال عندما جاء إلى مصر إذ تيسرت له سبل العيش ، وصار له بعض الثراء والغنى مما جعله يرضى ويكف عن الشكوى .

وشعره يصور لنا هذا كله ، فهو يقول في قصيدته له إنه ما ترك دمشق وهي وطنه ومسقط رأسه إلا ليسعى وراء العيش العزيز :

ما سرت عن جلق أبغي البديل بها ... لولا طلابي محلا للعلا قذفـا
طول المقام لأهل الفضل منقصة ... والمسك لولا النوى ما أدرك الشرفا
لو لم تجرد سُيوف الهند ما رهبت ... والدُّر ما جلَّ حتى فارق الصدفا

---

(١) وفيات الأعيان ٣ / ٧٣ .
وراجع المقدمة القيمة التي كتبها الأستاذ أنيس المقدس لديوانه الذي نشره ببيروت .

ويقول في أبيات أخرى :

فإنْ بلدٌ لم أغدُ فيه مكرماً ... نهضت فأعملت الجديْليّة البُدْنا
فإني كعود الهند هِينَ بذوْجه ... وقد عبّقتْ أنفاسُه السهلَ والحزْنا

ولعل روح المتنبي تبدو ظاهرة في هذه الأبيات ، الروح الطامحة المتطلعة للمجد والمال ، المتبرمة بالاستقرار ، الساعية دائماً إلى هدف بعيد ، ولكن روح ابن الساعاتي وآماله كانتا أقل وأهون من روح المتنبي وآماله ، لهذا لم يكن شعره في هذا الموضوع ، في معاني السعي والتنقل والطموح تنهض بإزاء شعر أبي الطيب ، فأبو الطيب لم يكن يسعى إلى المال وحسب ، ولا إلى المكانة المرموقة في الحياة وبين الشعراء فحسب ، فإنه قد بلغ هذا كله ، كان له من المال ما كفاه وأغناه ، وكانت له من المكانة والدالّة عند سيف الدولة ما جعله أثيراً يخاطبه خطاب الناس ، ولم يكن ليحجب عنه حاجة يطلبها ، لكنه مع ذلك كله كان قلقاً إلى جواره يطمع في شيء كبير ، فغادره إلى كافور وهناك لم يرض بأن يكون شاعر الحاكم وحسب ، وإن أغرقه بالذهب وإن تقرّب إليه بالخلع ... وظل كذلك متنقلاً من مكان إلى مكان ، لا يستقر ولا يرضى .. إلى أن جاءته الراحة الكبرى فأنهت هذا القلق ووضعت خاتمة حزينة لنفس لم ترح ولم تسترح . أما ابن الساعاتي ، فكان ظلاً خفيفاً باهتاً لطموح المتنبي ، بدأ ثورته في شبابه وهو يشعر أنه مغبون بين مواطنيه ، وأن أدبه جدير بأن يقدر ، وأن يرفعه بحيث يحيى حياة رغدة ، يستطيع فيها أن يقضي أوطار نفسه ، فيشرب ، ويلهو ويسمع الغناء . وبعد أن يتم له ذلك يستقر ويرضى ويذهب عنه التبرم والسخط .

وقد أمكنه باتصاله بجماعة من العظماء وكبار الرجال أن يثري ، مدح صلاح الدين والخليفة العباسي في بغداد ، وأبناء صلاح الدين : المعز والمؤيد ، والأفضل وأخاه العادل ، والملك المعظم عيسى . ومدح إلى جانب هؤلاء القاضي الفاضل والعماد الأصبهاني . ويدل قول ابن الساعاتي في مصر :

وتبرّجتْ غيدُ المنى وتأرّجت ... ريحُ الغِنى وافترَّ ثغرُ مآربي

يدل هذا القول على مدى ما لقيه بمصر من غنى . ويقول في قصيدة أخرى يرثي بها أحد أبنائه :

ومن لي لو أستطيع الشفاء ... بما حُزت من ثروة أو صفد

وكانت إقامته بمصر بمدينة المحلة الكبرى ، وكان معه عائلته ، وقد مات منه ثلاثة أبناء ، وخرج ابن الساعاتي من المحلة إلى القاهرة ، وعاش بالقاهرة مع جماعة من الشعراء والأدباء المذكورين في ذلك العصر وكان فيما يبدو يتردد عليها أثناء إقامته بالمحلة ، ليجتمع بهم وليقضي من دهره ساعات صفوه ولهوه ، فيخرج إلى رياضها وبساتينها ، ويذهب في النيل على ظهر زورق متنزهاً .

ويسافر ابن الساعاتي كذلك إلى أسيوط بالصعيد ، ويصف زيارته لها بثلاثة أبيات مصوراً بساتينها ونيلها ورياضها ، وهي أبيات مشهورة ترويها كثير من كتب الأدب لجمالها ، ولا ندري فيم كانت زيارة ابن الساعاتي لأسيوط ، أفي تجارة كانت ، أم لمجرد الزيارة والرحلة . أم تراه ذهب إلى هناك للقاء بعض علمائها وأدبائها . كل هذا جائز ، ولكنه لم يذكر في شعره شيئاً عن تجارة كان يقوم بها ، كذلك لم يبين لنا من كان يتصل به من العلماء بأسيوط .

والمتتبع لشعر ابن الساعاتي ، حسب أطوار حياته يجد أنه ينقسم كما أشرت إلى قسمين من حيث معانيه ، فهو في أول شبابه ساخط متشائم ، كثير التبرم والهجوم على حساده ، والكائدين له من الأعداء ، وتلوح لنا إلى جانب هذه لمحات أخرى لشخصيته ، فهو في شبابه وعنفوان رجولته رجل ميال إلى اللهو ، يحب مجالسة الظرفاء . ومشاركتهم في لهوهم وسماعهم ، وهو ظريف تبدو فيه خفة روح وخلاعة وهو لا يبدو متبرماً في مطلع شبابه إلا لأنه لا يملك المال الذي يمكنه من بلوغ مآربه والتمتع بحياته وشبابه . يقول :

عجباً تخاف الفقر أو ترجو الغنى ... ويداك تأخذ ما تشاء وتترك
فاهجر معاتبة الليالي واصلا ... دم كرمة في عُرسٍ لهو يُسفك

ولكنه يعود في آخر حياته ، وبعد موت بنائه الثلاثة ألى ترك هذا كله ، يقول :

ذرى بعدها ذكرى الغواني فإنني　　لطمت بكف الجد سالفة الدهرِ

وقال في المعنى أيضاً :

ومن لم يمانع غفلةً دون نفسِهِ　　فليس بذي نفس يُعَدُّ ولا عَقْلِ

وتجد ابن الساعاتي دائم الافتخار بنفسه ، وبأصله الخراساني . قال :

وإنا لمن قوم مواقع جودهم　　مواقع جودِ الغيث في البلد القفر
ورثت الخراسانيّ حلماً ونائلاً　　فلا قلق البقيا ولا حرج الصدْر
إذا انتدى منا امرو قالت العلا　　لنخْلِ مكان الصدْر للفارس الحبْر
وما كان نظْمُ الشعر عادةَ مثلنا　　لمسألة لولا الإرادةُ للفخْر
ولولا بقايا صبوةٍ عربيةٍ　　لبغض الظباء السمر لا البيض والسُّمرِ

ونعود مرة أخرى فنلتقي في هذا الشعر بروح أبي الطيب ، ولكنها هنا كما كانت من قبل ظلال روح ، فأين هذا الفخر من فخر المتنبي بنفسه قبل آبائه وأجداده ، وبشعره وبيانه .

ويفخر ابن الساعاتي بشعره فيلم ببعض ما قاله أبو الطيب . يقول :

لا تحفلن بنظم قومٍ أصله　　نظمى فلجُّ البحر غيرُ الساحَل
طلبُوا ففاتهم الذي أنا قاتلٌ　　كالنجم يَبْعُدُ عن مدى المتطاولِ
فهم البغاث متى سَموا لمنيفةٍ　　بَسقَتْ مُنُوا من منطقي بجَنادِلِ

فيرى هنا أن كل شعر يقال إنما هو أصلاً شعره أخذوه وحرفوه ، ونزلوا به ، ولن يستطيع أولئك الشعراء المعاصرون أن يسموا إلى درجته ، ولا أن يقولوا شعراً كشعره الذي يبدو لهم وكأنه النجم بعيد المنال ، ويبلغ تيهه بقوله درجة تفضيل نفسه على من سبقه من شعراء العرب ، فيقول :

وقافيةٍ عذراءَ في كل مطلب　　زهيدٍ من الأيام ظاهرةِ الزهدِ
تقيد لبيداً تعتريه بلادةٌ　　وقلَّ عبيدٌ أن يكون بها عبْدِي

ويدعو نفسه أمير النظم :

ولستُ أمير النظم والنثر إن جرتْ ... إلى غيرك الوجناءُ أو وصل الحبْلُ
كفاها جلالا أن فكري وليُّها ... وأنك يا نجل الملوك لها بعلُ
فما كان مثلي ابن الوليد وإنما ... تقادمَ ميلادٌ ولا مثلك الفضْلُ[1]

ويقول محتسباً لنفسه الفضل على الرغم من تأخر زمانه :

ما شابني قربُ الولاد فقد ... جاوزتُ في الإحسان من قبْلي
هذا أخير الأنبياء غدا ... وهو الشفيع وسيِّدُ الرّسْل

شعره :

ويعتبر شعر ابن الساعاتي ، مثلاً آخر من شعر العصر الذي يحفل بالبديع ، إلا أنه يميل في أسلوبه وألفاظه إلى السهولة والسلاسة ، مبتعداً عن التعقيد . وتراه يفاخر بهذا فيقول :

طائية صعبت وأسهل لفظها ... فانظر إلى الصعب المنيع المسهل
نزعتُ عن المعنى البعيد وهُجنة الو ... صف المردَّد والكلام المقفل

ويمتاز بالخيال الواسع والقدرة على انتزاع الصور الغريبة ، وتركيب التشبيهات العجيبة . وهو قدير على هذا ، مفتن فيه ، بارع لا يضارعه في عصره شاعر مثله . يقول في أبيات يصف فيها يوماً له بأسيوط وليلة مقمرة قد بدا بدرها مكتملاً ، وأحاطت الرياض بأشجارها المتدلية الأغصان على صفحة النيل ، والطير يشدو بعذب اللحن ورقيق النغم . يقول :

لله يومٌ في سيوط وليلةٌ ... عمر الزمان بمثلها لا يغلط
بتنابها والبدر في غلوائه ... وله بجنح الليل فرعٌ أشمط
والطلُّ في سلك الغصبون كلؤلؤ ... نظم يصافحه النسيمُ فيسقطُ
والطير يقرأ والغدير صحيفةٌ ... والريح تكتب والغمامةُ تنقط

ويقول في أبيات أخرى يصف زورقاً خرج فيه في النيل ، ومشبهاً له بإنسان العين ، والنيل حوله بالمقلة ، والمجاديف بالرموش :

---

(١) يقصد مسلم بن الوليد والفضل الوزير البرمكي .

ولما توسطنا مدى النيـــل غـــدوةً ظننتُ وقلبُ اليـوم باللهو جذلان
عُشارِية إنساناً له المـاء مقـــلة وليس لها إلا المجاديف أجفـــــان

وقد يسرت له هذه القدرة على انتزاع التشبيهات إحسان الوصف ، وخاصة وصف الروض بأشجاره وزهوره ، والغدران والمياه ، ومظاهر الطبيعة الشمس والقمر والليل ، وقد وصف النيل كثيراً وأغرم به حتى إن ابن خلكان يذكر أنه أفرد ديواناً لما قاله فيه وسماه « مقطعات النيل »[1] فمن جملة ما قاله فيه :

متنقِّــل مثـل الهــلال فدهـــــره أبداً يزيــدُ كما يزيـد ويرجـــعُ
يلقـي الثرى في العام وهـو مســلِّمٌ حتـى إذا مـا مـلَّ عـاد يـودِّع
وكأنمـا هـو والنجـوم موائـــلٌ فيـه ونور البـدر إذ يتشـعشـعُ
بيــضٌ تُســلُّ على متـون ســوابغ خُضْــرٍ بأمثـال العقـودِ ترصَّــــعُ

وقال في وصف روضة :

وتأمَّــلْ صنـع الإله ومـا بثَّـ ـت قطـار السـماء في الأقطـار
كل مخطــوبة الخميـلة تجـــلى في ثيــاب الأنــوار والنُّـــوار
جمَّـدت ماءَهـا الصَّـبَاحين حاكت ثــوب أزهــارهـــا يـــدا آذار
فكأن الشــقيق خــدُّ حبيــــب أخجلتــــه لواحــــظ النظــار
وكأنَّ النمَّـــامَ صــبٌّ أبـاح الســـ ـقم منـه ذخــائر الأســـــرار

ولابن الساعاتي الغزل الرقيق العذب ، وإن كان الوصف عنده أبدع وأجمل ، وقد غلب ميله للوصف على غزله ، ممزوجاً بتلك الروح ، فهو يصف أحوال الحب من الجوى والسهر والبعد ، وفعل هذا كله في المحبين ، ويصف الطيف الزائر ، ويصف الخدود والقدود ، والثغور والشعر والعيون ، ولا يزخر غزله مع ذلك بالعاطفة الحارة الصادقة ، ولا بالتجربة الملوعة المحرقة في الحب ، ولا يصور لوعة المحبين التي تجدها في شعر الغزلين الصادقين ، إنما هو غزل تغلب عليه الصنعة ، والظرف ، والرقة ، وهو بهذا قريب من غزل شعراء

---

(١) وفيات الأعيان ٣ / ٧٣ .

العباسيين الغزلين ، غزل أبي نواس ومسلم ابن الوليد والبحتري وابن الرومي . يقول :

أنا أهــوى ذا عــذارٍ وجهُــــهُ	قمــرٌ من خجَــلٍ في شـــفق
رقمـــت ديباجــة الصبــح يد الحـ	ـســن منــه بخيـــوط الغســق
وســقى وجنتــه مــاء الصِّـــبى	فبـــدا الورد خــــلال الـــورق

وقال في قصيدة أخرى :

بأبي أحــور كالظـــبي لدن القـــ	ـدّ فــرد الحســن كالبــــدر
يهــز ســكر الــدل مــن قـــده	وهـــو بعيــد العهــد بالســـكر
غصــناً من الفضــة من لي بـــه	في يــده غصــــن مــن التـــبر

ونجد في شعره إلى جانب هذه النماذج التي تبدو جميلة لصنعتها وجمال تشبيهاتها شعراً تثقله الصنعة ، ويسمجه الزخرف والإسراف فيما أسرف فيه معاصروه من سخف .

الشـــعر والشـعراء في مصـــر

كانت هذه الفترة في القرن السادس من أخصب الفترات الأدبية في تاريخ مصر ، وقد امتازت بكثرة من أنجبتهم مصر من الشعراء ، ويكفي أن نقرأ ما كتبه ابن أبي الصلت في « الرسالة المصرية » ، وابن ظافر في « بدائع البدائة » ، وابن سعيد في المغرب ، والعماد الأصبهاني في الخريدة قسم شعراء مصر لنعرف مدى ما كانت تتمتع به مصر من سمعة أدبية ، ومدى ما كان لشعرائها من صيب إلى جانب ما يتميزون به من خفة روح ورشاقة أسلوب .

وللشعر المصري والشعراء المصريين طابع مميز ، طابع مستمد من البيئة ، ومن الإقليم ، وما فرضته خصائصه الجغرافية والكونية على سكانه ، ومن التاريخ وكثرة ما تقلب على مصر من الدول ، وكثرة من ذابوا في كيانها من الأجناس فاندمجوا في المصريين وانطبعوا بطابع مصر ، ولم يطبعوا مصر بطابعهم ، ثم هذه العقائد الراسخة المستمدة من الأجيال البعيدة ، والراسخة في أعماق المصريين وتكاد تجري منهم مجرى الدم .

وأول ما يميز المصريين بطابع عام صفة الإيمان الراسخ بالوطن والحب لمصر حباً يبلغ درجة التقديس ، والعبادة . ولأمر ما اعتقدوا منذ قديم الأزل أن أرضهم هذه هي أرض الخلود ، وأن إله الآلهة سيبعثهم مرة أخرى على ضفاف النيل في غرب الوادي ، فابتنوا لأنفسهم البناء الخالد على الزمن ليحيوا حياتهم الثانية في أرضهم الحبيبة . وإنا لنلمس هذا الحب في الأساطير المصرية القديمة ، في أسطورة أوزوريس وإيزيس ، وفي أسطورة « سنوحي » وفي أسطورة « الملاح الغريق » .

كذلك يتصف المصريون بحبهم العميق الراسخ للسلام ، لأن أرضهم أرض سلام ، فالطبيعة فيها مسالمة ، رتيبة يأتي خيرها للناس رخاء كل عام بنظام ، لا عنف فيها ولا قسوة ، ونيلها العتيد يجري في رفق ، لا انحدار ولا شلالات تعترض طريقه ، بل انبساط وتدفق وبر . كل هذا جعل أهلها يميلون للاستقرار .

وفي المصريين رقة في الطبع وإخلاص ، وهما ميزتان في خصالهم ، وأكثر ما تظهر هاتان الخلتان في الشعر في الغزل ، وفي الإخوانيات ، والغزل رقيق في معانيه ، رقيق في ألفاظه يكاد يذوب رقة وعذوبة ، كذلك الإخوانيات يطبعها الوفاء العميق المكين ، وكثيراً ما تبادل الشعراء رسائل الشعر التي تفيض رقة وإخلاصاً وحبًّا .

وربما بدا للناس هذا الخلق ضعفاً أو ليناً ، أو هواناً ، وربما رآه بعض النقاد والمطلعين على شعر المصريين فلم يعجبهم تهالكه هذا « وذوبانه » ، لكنها طبيعة خالصة صادقة إذا ما صَدقت العاطفة ، فالمصريون يحبون من يخلص لهم إلى درجة ليس بعدها من مزيد ، ويكرهون من يكرههم أو يعاديهم إلى درجة الجنون والهوس في الكراهية .

وكذلك يطبع المصريين ميلهم الغريزي للفكاهة والتندر ، « والتريقة » أو السخرية اللاذعة ، وليست سخريتهم من النوع الحاد المرير الذي قد نجده عند غيرهم من الشعوب ، إنما سخريتهم كما قلت لاذعة ، لا تحمل طابع الحقد ، بل تحمل التبكيت ، والمصريون يصبون فكاهتهم ، ودعابتهم على كل شيء . ويتخذونها سلاحاً ضد الطغاة من الحكام والشاذين من أفراد المجتمع ، يقومون بها من اعوجاجهم ، كذلك يتخذونها مادة للتسلية والمرح في أوقات أنسهم وسرورهم .

وقد جاء إلى مصر جماعة من الأدباء في القرن السادس ، ومارسوا أخلاق المصريين وطبائعهم ، فأعجبوا ببعضها ولم يعجبهم بعضها الآخر ، وقد حمل ابن أبي الصلت على بعض ما لم يعجبه من طبائع المصريين ، فقال : وجلهم أهل رعانة ، ولهم خبرة بالكيد والمكر ، وفيهم بالفطرة قوة علية ، وتلطف فيه ، وهواية إليه ، لما في أخلاقهم من الملق والسياسة التي أربوا فيها على كل من تقدم وتأخر ، وخصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم حتى صار أمرهم في ذلك مشهوراً والمثل بهم مضروباً ، وفي خبثهم ومكرهم يقول أبو نواس :

محضتكم يا أهل مصر نصيحتي   ألا فخذوا من ناصح بنصيب
رماكم أمير المؤمنين بحية   أكول لحيات البلاد شروب

اق إفك فرعـون فيكــم		فإن عصــا موسى بكـف خصـيب

وبعد أبي نواس ، وقبل ابن أبي الصلت جاء مصر أبو الطيب وقال في المصريين ما حكمت به نفسه الغاضبة من وصف لهم بالذلة والخنوع وسائر الأوصاف التي يطالعها الناس فس كافوريات أبي الطيب .

والواقع أن ما اتهم به المصريون من خبث ودهاء ، أو من ضعف وذلة إنما هو انحراف كما قلت من ميلهم إلى السلم في مقاومة الحاكمين ، فلم تؤثر في مصر حركات عنيفة دامية كما يؤثر في غير مصر من الأمم ، وإنما كان يلجأ المصريون إلى حل مشكلاتهم السياسية عن طريق سلمي بهذا اللون من المكر والدهاء . وهم مع ذلك قادرون على مجابهة العدو الخارجي بكل قواهم . فهم إذاً يجنبون بلدهم الدمار والكوارث في الداخل ، بينما يصدمون العدو بكامل ثقلهم على الحدود ليجنبوا كذلك بلدهم الحبيب عبث العابثين .

وإن كان الزمن قد طبع الناس جميعاً في القرون المظلمة وفي عصور الطغيان بطبائع العبيد ، فإن نصيب مصر من خلق العصر كان قليلاً ، فلم يشتهروا بالدناءة والدس والنميمة والخيانة كما كان الحال في بغداد في القرن السادس مثلاً . وجل ما كان يدور على أرض مصر من دسائس وخيانات إنما كان في معظمها من صنع الوافدين من الأتراك والمماليك في سبيل نزاعهم على الملك ، كذلك كانت الأحداث الدامية والثورات من صنع الجند المجتلب أو من صنع الأعراب البدو في الجنوب وفي صحراوات مصر .

والمصريون يعشقون الحرية لأنفسهم ولبلدهم ، ويكتمون وهم يعملون في صمت ودأب ، وطبعهم في الصبر والدأب لا يماثل ، ليس فيهم الملل والانفعال الثائر الذي يطبع الأعراب مثلاً ، وغيرهم من قبائل الرعاة كالمغول والترك ، وأساطيرهم حول الصبر كثيرة متداولة ، فعن طريق الصبر والعمل الدائم يصلون إلى مايريدون .

وهكذا تلك خصائص تطبع الشخصية المصرية ، إيمان راسخ بالأرض التي يعيش المصري عليها ، وإيمان راسخ في الله ، وحب يملأ النفوس ويأخذ بمجامع القلوب ، وعاطفة تملي عليهم الإخلاص أو الكراهية ، ومرح يقتلون به الوقت

ويسلطونه على العدو ، فينفس عما يحملون له من كره ، وحسن مواجهة للأمور وتدبير يوصف بالدهاء وبالخبث وصبر طويل ودأب متواصل في سبيل الغرض بلا ملل ولا ضجر .

كل تلك الخصائص تبرز أحياناً ، وتختفي في الأدب القومي في مصر ، تبرز عندما تقوى الشخصية المصرية وتعمل على إظهار كيانها في فترات القوة ، عندما تتمتع بحرية واستقلال ، ظهرت في عصر الإخشيديين ، ثم في عصر الفاطميين وقويت في عصر صلاح الدين والأيوبيين والمماليك .

ونعرض لشعراء مصر الأعلام في عصر صلاح الدين وخلفائه ، فنلمح في شعرهم ملامح تلك الشخصية ، نجدها عند ابن سناء الملك ؛ والأسعد بن مماتي ، وابن الزبير ، وابن مطروح ، والبهاء زهير ، وابن الجزار ، وابن الفارض . فقد كانت هذه الفترة من تاريخها عامرة بجماعة من الشعراء تجمعهم رابطة واحدة ، وتضمهم مدرسة القاضي الفاضل ، ويكاد أن يكون هو أستاذ مدرسة الأدب والشعر في تلك المرحلة .

قال ابن خلكان في حديثه عن ابن سناء الملك : « واتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين ، وكان لهم مجالس يجري بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها .. وكانوا يجتمعون على أرغد عيش .. وجرت لهم محافل سطرت عنهم »[1].

وأول ما يبرز في شعر مصر في هذه الفترة بصفة عامة – قبل أن ندخل في خصائص كل شاعر – صفة أرضها وطبيعتها . ويختص نيلها بأوفر نصيب ، والعجيب أن النيل في مصر كان موضوعاً حَيّاً في الأدب شعراً ونثراً ، لم يكد يخلو من الحديث عنه كاتب أو شاعر جاء إلى مصر وظل بها زمناً . وفي أوائل القرن السادس تحدث ابن أبي الصلت في رسالته المصرية عن النيل فقال : « ثم يأخذ عائداً في مصبه إلى حجري النيل وسر به ، فينتصب أولاً عما كان من الأرض مشرفاً عالياً ، ويصير فيما كان منها متطامناً ، فينزل كل قرارة كالدرهم ويغادر كل تلعة كالبُرد المسهَّم ، وفي هذا الوقت من السنة تكون أرض مصر

(١) وفيات الأعيان ٥ / ١١٢ .

أحسن شيء منظراً ، ولا سيما متنزهاتها المشهورة ، ودياراتها المطروقة كالجزيرة ، وبركة الحبش ، وما جرى مجراها ، من المواضع التي يطارقها أهل الخلاعة ، وينتابها ذوو الأدب والطرب ، واتفق أن خرجنا في مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش ، فافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من روحها بأوفى رواق وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شموس في خلع البدور ، ونجوم بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال في ذلك بعضنا :

لله يومي ببركة الحبش والأفق بين الضياء والغبش
والنيل تحت الرياح مضطربٌ كصارم في يمين مرتعش ..[1]

وذكر ابن أبي الصلت وصف بعض الشعراء المعاصرين للنيل فقال :

ولله مجرى النيل منها إذا الصبا أرتنا في مرها عسكراً مُجْرَا
فشطٌ يهزُّ السمهرية ذُبَّلاً وموجٌ يهز البيض هندية بترا

ووصفوا آثار مصر الخالدة ، أهرامها وأبا الهول ، ومعابدها ، وما أقامه الرومان واليونان بالإسكندرية وغيرها من آثار ونصف . وصف الهرمين ابن أبي الصلت فقال[2]:

بعينك هل أبصرت أعجب منظر على طول ما أبصرت من هرمَيْ مصر
أنافا عنانا للسماء وأشرفا على الجوّ إشراف السماك أو النسر
وقد وافيا نشزاً من الأرض عالياً كأنهما نهدان قاما على صدر

وتفنن الشعراء في تطويع فن الشعر لروح النكتة والفكاهة ، فاستخدموا من ألوان البديع ما يلائم هذه الروح ، فكثر استخدامهم للجناس والتورية . وقد ذكر ابن حجة الحموي أن هذين النوعين غلبا على صنعة شعراء مصر منذ عهد القاضي الفاضل ، من أمثال ابن سناء الملك والحسين الجزار ، والسراج الوراق وغيرهم ، وكان للتورية مكانة خاصة في الشعر المصري في ذلك العصر ، مما يتفق وطبع المصريين وميلهم الفطري للنكتة ، والتورية تؤديهم إلى ما يريدون ،

(١) الرسالة المصرية ٢٠ .
(٢) الرسالة المصرية ٢٧ .

فأصبح فيها وفي الجناس يفرخ ميلهم إلى الدعابة والفكاهة[1].

وتبدو الروح المرحة في أبيات للشاعر المصري ابن الذروي المتوفى سنة ٥٧٧ هـ وقد ذكر فيها صاحباً له أحدب الظهر :

زعموا أنني أتيت بهجو	فيك نَمَّقتُه بسمٍّ صِلالِ
كذبوا إنما وصفت الذي حُزْت	من النبل والسنا والكمالِ
لا تظُنَّنَّ حُدْبَة الظهر عيباً	فهي للحسن من صفات الهلالِ
وكذاك القسيُّ محدَوْباتٌ	وهي أنكى من الظُّبا والعوالي
ودناني القضاة وهي كما تعـ	ـلم كانت موسومةً بالجمالِ
وإذا ما علا السنام ففيه	لقروم الجمال أيُّ جَمَالِ
وأرى الانحناءَ في مِنْسَرِ الكا	سِر يُلفى وفي مخالبِ الرئبالِ
وأبو الغصن أنت لا شك فيه	وهو ربّ القوام والاعتدالِ
قد تحليت بانحناء فأنت الرا	كع المستمر في كل حالِ
وتعجلت حمل وزرك في الظهـ	ـر قائماً في موقف الأهوالِ

... الخ

وهي قصيدة ظريفة تجري على هذا النسق خفيف الروح[2].

وقد وصف ابن سعيد شعر المصريين بالحلاوة ، فقال هذه الحلاوة للنيل أكسبها إياهم[3].

أسكان مصر جاور النيلُ أرضَكم	فأكسبكم تلك الحلاوةَ في الشعرِ
وكان بتلك الأرض سحر وما بقى	سوى أثر يبدو على النظم والنثر

المدرسة المصرية الأولى :

وتأثرت جماعة الكتاب والشعراء المصريين الذين عاشوا في ظل الدولة الأيوبية بفن القاضي الفاضل في الكتابة ، وتأثروا بطريقته التي عرف بها وظلت سمة لفن تلك الجماعة .

(١) راجع على سبيل المثال خزانة الأدب للحموي ص ٣٤٤ / ٣٥٠ .
(٢) الروضتين ٢ / ٢٧ .
(٣) فوات الوفيات ٢ / ١٨٠ .

ابن سناء الملك ، الشاعر الرقيق المفتن :

هبة الله بن الرشيد جعفر بن المعتمد سناء الملك السعدي الشاعر المصري . ولد سنة ٥٥٠ هـ وتوفى سنة ٦٠٨ هـ ، وكان أبوه يعمل كاتباً في ديوان القاضي الفاضل ، وعندما ولد هبة الله وكبر ألحقه بالديوان ، وكان له فضل ذكاء وحب للأدب وطبع في الشعر ، نظم الشعر قبل العشرين من عمره ، وكان قد التحق بالخدمة لدى الفاضل قبل هذه السن . أخذ الحديث عن الحافظ السلفي . وتأدب على الفاضل ، وكان كثيراً ما يرشده ويوجهه في شعره ، يعرضه عليه بعد نظمه ، فيشير عليه الفاضل بأن يعدل فيه بما يراه حتى يقوم معوجه ، وكان الفاضل يحبه ، ويقربه ، ويؤثره على غيره من خاصته . ولعل هذه القربى جاءته عن طريق ثقة الفاضل بأبيه الذي كان يقوم على شئون الفاضل نائباً عنه في غيبته مع السلطان صلاح الدين في الشام ، فيؤدي ما يراد منه على أتم وجه .

قال عماد الدين الأصبهاني إن الفاضل كان يكرم ابن سناء الملك جداً ويوقره ، ويرى فيه مخايل شاعر عظيم وقد ذكر ابن سعيد أن أباه غالباً في التشيُّع ، ويدل لقب جده سناء الملك على أنه كان أحد كبار الموظفين في الدولة الفاطمية .

رآه العماد الأصبهاني أول مرة في دمشق سنة ٥٧١ هـ عندما جاء بناء على دعوة الفاضل له ، قال : فوجدته في الذكاء آية ، أحرز في صناعة النثر والنظم غاية ، يتلقى عرابة العربية له باليمين راية ، ألحقه الإقبال الفاضلي في الفضل قبولاً ، وجعل طين خاطره على الفطنة مجبولاً ، وأنا أرجو أن تترقى في الصناعة رتبته » .

ولابن سناء الملك ديوان شعر رقيق ما يزال محفوظاً بدار الكتب ، وله كذلك ديوان موشحات سماه « دار الطراز » ، جمع فيه بعض الموشحات لشعراء المغاربة والأندلسيين ، وحاكى هو نفسه صناعة الموشحات ولكنه لم يكثر .

شـــعره :

وشعره رقيق تغلب عليه الصنعة ، لكنها صنعة قد تروق أحياناً فتكون خفيفة مقبولة حسنة الوقع في النفوس . وقد تثقل بعض الأحيان فتبدو سمجة متكلفة . وأكثر ما يجيد ابن سناء الملك في الغزل والوصف ، وله قصائد لا بأس بها في مدح القاضي الفاضل ، ومدح السلطان صلاح الدين ، ولكن مدائحه فيه ليست في قوة مدائح غيره من شعراء الشام والعراق ، وتفوق مدائحه للفاضل مدائحه للسلطان ، ومرجع هذه ، الصلة الروحية التي تربطه بالفاضل ، فيقول ما يقول من شعره فيه صادقاً معبراً عن إخلاص وعاطفة صادقة تتملك نفسه ، وتحس هذه العاطفة في قوله :

أصبحت في مدح الأجل موحــداً ... ولكم أتتني من أياديـه ثُـــنى
وغــدوت في حــبي لـه متشـيعاً ... من ذا رأى متشـيعاً متســننا
ورأيــت صحبتـه نعـيماً عاجلاً ... فرأيـت بذل النفس فيـه هينـــا
وأرادني وظننـت غـيري قصـــده ... فوجـدت دهـري مذ عناني مذعنا

وقد مزج هذه الأبيات بالجناس الذي كان غرام الشعراء به لا يحد ، وله الغزل الرقيق الجميل الذي يكاد أن يذوب فيه رقة وعذوبة ، يقول :

وبـات يسمعني من لفـظ منطقــه ... أرق من كلمي فيــه ومن غـــزلي
وددت أعضائي أسماعـاً لتســـمعه ... ولو تحمـلت فيــه وطـأة العــزل
ودمعـة الدل يجريها على جســـدي ... فهل رأيت سقوط الطل في الطـلل
ونلـت ما نلـت ممـا لا أهم بـــه ... ولا ترقَّــت إليــه همـة الأمـــل
ومــر والليــل قد غـارت كواكبـه ... لما نوى الصبـح تطفيلا على طفل
لم أسحب الذيل كي أمحو مواطئـه ... لكنني قمــت أمحو الخطْوَ بالقبـــل
يا ليـلةً قد تولـتْ وهــي قائلــةٌ ... لا تظـلمنّي مــعْ أيامىَ الأولِ

ويقول في أبيات أخرى حلوة :

كم لنـــا من خُلَسٍ في الغلَـــسِ ... خُلــس نمَّــتْ برغـم الحـــرسِ
نلــتُ فيــه عسـلا من لعـــسٍ ... آه وأشـــواقي لـذاك اللَّعَـــسِ
قــد تنفســـتُ فهـل عندكُــم ... أنَّ نفْسـي خرجَـت من نفسِـــي

فهذه الرقة التي يذوب فيها الشاعر في خطاب محبوبته إذ يقول : لكنني قمت أمحو بالقبل ، تمثل كثيراً من المعاني التي يرددها الناس في مصر في أغانيهم ، والتي تنم عن رقة أصيلة . ثم انظر كيف يتلاعب الشاعر في تلطف بالألفاظ في الأبيات الثلاثة السابقة .

ويأتي بعد الغزل القول في الوصف وشرب الخمر ، وله في الخمر أبيات جميلة يأخذ فيها أحياناً بعض ما قيل في الخمر من معان قديمة فيكسوها ألفاظاً وصوراً جديدة ، ويتلاعب في صنعة وافتنان ، ويقول :

وأعجب من كلّ ما قد جرى ... عجوزٌ أتتني بها مُعْصِرُ
وَهذي القضيَّة معكوسةٌ ... أرى العقل من مثلها يَنْفِرُ
فواصلتها في كُئوس ظننت ... بها أن حارسنا ينصرُ
وأحرقت منها ظلام الدجى ... لما صحَّ من أنه يكفرُ
وبات نديمي لا ليله ... يطولُ ولا شربُه يقصُرُ
وقام الموذن ينعي الظلام ... فهذاك ينعي وذا ينعُرُ

فهذه الخمر المعتقة الموصوفة بالقدم ، معاني الشعراء الذين سبقوه في هذا الموضوع كذلك وصفها بالنور ، وبأنها تنير في الظلام ، ووصف مجالس الشراب ، وأن شاربيها يعكفون عليها إلى طلوع الفجر ، كل هذا معروف قديم إنما جدد ابن سناء الملك فجعل الخمر عجوزاً جاءت على يد فتاة معصر صغيرة تسقيه ، وقد قابل بين الصورتين ، كما قابل ووَرَّى في إنارة الكئوس بما فيها من الخمر ويكفر الليل وظلامه ويكرر هذه المعاني فيقول في قصيدة أخرى :

تذكَّرت دهراً ليس ينسيه لذةٌ ... ولم يسلُ قلبي عن هواه شرابُ
وحجّي إلى حانوتِ راحٍ وحانةٍ ... وكعبةُ لهوى أغيدٌ وكعابُ
وإفراط حبّي للعجوز التي غدت ... عروساً تهادى والعقودُ حبابُ
تعيد شباب العقل ضعفاً وكبرة ... ويرجع منها للكبير شبابُ
إذا قتلوها بالمزاج تبسمت ... كشاربها يرتاح وهو مصابُ
ومن عجب أنا نصيرُ بشربها ... شياطين تردى الناس وهي شهابُ

فهذه العجوز التي غدت عروساً ، وعقودها هذا الحباب الثائر على سطحها وشرب الخمر في حانوتها بين فتى أغيد مليح الوجه ، وكعاب صغيرة السن حلوة ثم هذا المعنى القديم الآخر الذي يجعل الخمر مقتولة بالماء ، وهو معنى مشهور لحسان بن ثابت ولمن تبعه من الشعراء في الخمر ، وكل قد تفنن فيه بقدرته . ثم هذه الصورة التي تقتبس فيها المعنى القرآني في مقابلة بين الشياطين والشهب في قوله تعالى : ﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ . وترد المعاني الدينية كثيراً في شعره ، وألفاظ الفقه ، والحديث ، ومثالها قوله :

وغانيــة لم تعــدُ عشرين حجــة ... أقول لهـا قولاً لديـه ثـواب
عليــك زكاة فاجعليهــا ، وصالنا ... لأنـك في العشـرين وهي نصــابُ
وما طــلبي إلا قبولٌ وقبــــلةٌ ... وما أربى إلا رضــاً ورضـــابُ

وكذلك قولــه :

ويـا مـن بفيــه لنـا سُــكَّرٌ ... ولكنـــه سُــكَّرٌ مُسْـــكِرُ
يُحـلل جهـراً عقـول الرجَـــال ... فمـن أجـله حــرِّم المســكِرُ
أصــوم عن الوصـــل دهري وقـد ... رأيـت الهــلال ولا أفطــــر

وحب مصر وأرضها يجري في عروقه مجرى الدم ، فهو لا يكاد يخرج من مصر . ويغترب مع القاضي عبد الرحيم والسلطان في الشام زمناً حتى يحن لمصر ، وطنه فيبدو هذا الحنين في منظوماته . يقول :

لقــد ضَــرَّني البين المشـتُّ وحزَّني ... فيالك بيناً ما أضرَّ وما أضــــرى
أأهبط من مصر وقدماً قد اشــتهى ... على الله أقوامٌ فقال اهبطوا مصــرا
وكم لي بها دينار وجه تركتُــــه ... وراني فعيــني بعده تشـتكي القطرا
فوالله ما أُشـرى الشـآم وملكــه ... وغوطته الخضـرا بشبرين من شـبرا
فإن عدتْ والأيام عوجٌ رواجـــعٌ ... لقد أنشأتنا قبلها النشأة الأخــرى

ابن قلاقس ، السكندري الرحالة[1]

ولد أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف الشاعر المعروف بابن قلاقس بالإسكندرية سنة ٥٣٢ هـ ، ونشأ بها وأخذ العلم عن شيوخها وعلمائها الأجلاء ، واتصل بالحافظ السلفي ، ومدحه بكثير من شعره ، كما أثنى عليه الحافظ في معجمه ، وأورد مختاراً من قوله فيه . ومما قال فيه ابن قلاقس[1]:

وامدح الحافظ الممدَّحَ تلبَسْ	حُلَلَ النُّسْكِ عنده والعفافِ
أي حَبْرٍ لآلِ فارسَ أضحى	كتبيّ الهدى لعبد مَنَافِ
سلفيٌّ مخايل الفضل دَلَّتْ	أنه من بقيّةِ الأسلافِ

وأخذ الأدب عن أفاضل المتأدبين بالثغر ، ويثبت من ديوانه أنه اتصل من بينهم بالقاضي الفاضل ، ومدحه بكثير من قصائده ، كذلك اتصل بالقاضي الرشيد بن الزبير الأديب الشاعر العالم[2]، وشقيق المهذب ، وبعث إليه بشعر عند وجوده بالإسكندرية كذلك .

وظل بالإسكندرية إلى أن بلغ الشباب ، وقال الشعر ، ونبغ فيه وسمع به كل من حل بها ، فحمل ذكره معه وشعره . وقد سمع بفضله جماعة من فضلاء صقلية وأعيانها فبعثوا إليه يستقدمونه إليهم ، وسار ابن قلاقس إلى صقلية سنة ٥٥٣ هـ ، واتصل هناك بأبي القاسم بن حجر ودبج فيه قصائد تعتبر من خير ما قاله من شعر ، وعاد إلى الإسكندرية مرة أخرى وظل بها ثم غادرها في رحلة ثانية إلى اليمن ، حيث لقي هناك بعض حكامها قبيل حكم صلاح الدين لها . ومن أشهر ممدوحيه بها ياسر بن بلال . وقد تردد بين اليمن ومصر ، وغرقت به المركب مرة بالبحر الأحمر ، فنجا هو وحده وغرق جميع من كانوا معه ، وعاد إلى اليمن فأعطاه من اتصل بهم من الأعيان وأثرى من العطاء ، فعاد ثانية يركب

---

(١) ديوانه ص ٦٧ . وراجع في ترجمته مقدمة ديوانه تحقيق الدكتورة سهام الفريح طبع الكويت سنة ١٩٨٨ .

(٢) ديوانه ص ٦٥ .

البحر ولكنه غرق هذه المرة تجاه عيذاب سنة ٥٦٥ هـ . وسنة إذ ذاك لم تعد الخامسة والثلاثين .

شـــعره :

وشعر ابن قلاقس يغلب عليه المديح ، وهذه طبيعة شعراء العصر لتكسبهم بالشعر أغلب الأحيان ، ومدح غير الأمراء والأعيان بصقلية واليمن والإسكندرية جماعة من العلماء والأدباء ، وقد ذكرنا منهم القاضي الفاضل والقاضي ابن الرشيد وكذلك مدح القاضي ابن خليف ، ونجم الدين بن مصال ، والقاضي ابن الحباب .

ونذكر مثالاً لمدائحه أبياتاً يمدح فيها أبا القاسم بن حجر الصقلي . يذكر فيها صقلية وركوبه البحر فيقول :

ما امتطينـا أخـت السـحائب إلا لتـوافي بنـا أخـا الأمطـار
كلُّ نـون من المراكـب فيهـا ألـف مسـتقيمةٌ للصـواري
تَقْسـمُ الماءَ والهـواءَ بِسـاقٍ وجنـاحٍ من عـائمٍ طيّـارِ
عوضتَنـا الأوطـانَ عنـدك والأو طـارَ بعـد الأوطـان والأوطـارِ
إنمـا أنت يا أبـا القاسم القـا سـم للجـودِ لا على مقـدارِ
صُقِـلتْ صفحتـا صقليـةٍ منـ ـك فجـاءَت كالصـارم البَتـارِ

وشعر ابن قلاقس مشهور عند شعراء عصره وأدبائه ، فابن ظافر يذكر منه منتخبات في كتاب « البدائع والبدائه » ويعجب به[1]. كذلك يذكره ضياء الدين بن الأثير في (المثل السائر) ويقول عنه إنه ممن أكثر من التشبيه كابن المعتز ، كذلك يورد أمثلة من شعره ويقول فيها إنها من المعاني الدقيقة[2] ويختار له ابن نباته مجموعاً من شعره ويقول عنه في مقدمة مختاره ذاك : « طالعت ديوان الأديب البارع أبي الفتوح نصر الله بن قلاقس ، فطالعت الفن الغريب ، وفتح على بتأمل ألفاظه فتلوت : ﴿ نصرٌ من الله وفتح قريب ﴾ ، بيد أني

(١) راجع صفحات ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ .
(٢) المثل السائر ١ / ٣٣٠ .

وجدت له حسنات تبهر العقول فضلاً »[1].

كذلك أعجب به البديعيون في مصر والشام وأوردوا في كتبهم ومختاراتهم كثيراً من الأمثلة من شعره ، وأكثروا في شواهدهم منه ، وأورد ابن حجة في الخزانة بعض شعره وروى أخباره[2].

وفي شعر ابن قلاقس خاصيتان ظاهرتان ، هما في الأصل من وحي بيئته . فشعره يمثله شاعراً سكندريًّاً رحالة كثير الركوب للبحار ؛ أما كونه سكندريًّاً فهذا واضح ، من ذكره لرجالات الإسكندرية وعلمائها في ذلك العصر ، وذكره كذلك لمعالم الإسكندرية كالمنارة المشهورة ، وذكره للبحر والمطر . وجدير بالتسجيل كثرة ذكر ابن قلاقس للمطر والبرق والرعد والسحاب في شعره ، وهذا طبيعي أملته عليه بيئته في الثغر ، بيئة المطر والسحاب والماء المتدفق من السماء والماء الممتد أمام بصره في البحر الواسع العريض . وغرام الشاعر بذكر هذه الأشياء لعله عن وعي ؛ فهو يصور تجاربه الشعرية فيصور ما يراه ويقع تحت عينيه ، من ظواهر طبيعية بارزة في بيئته ، أو هي صور ترد على لسانه لا إرادية مما تختزنه مخيلته من هذه الظواهر الطبيعية الملازمة للإسكندرية وأهلها في الشتاء خاصة . ونستطيع أن نتتبع هذه الظاهرة في موضوعات شعره المختلفة ، فهو يستخدم التشبيه بالمطر والسحاب في المديح . يقول :

فخراً لراحتك الكريمة إنها ... نال المقل نوالها والمكثر
كالغيث فوق البرّ برٌّ إذا هما ... فيه ووسط البحر در يزهر

ويصف ممدوحه بصقلية فيقول :

وقمنا في سماء العز نرعى ... جبين الشمس في الغيث المطير

ويمدح ياسر بن بلال فيقول :

ما ترى الأفق بين برد سحاب ... ذي انسحاب وعارض ذي اعتراض

(٣) خزانة الأدب لابن حجة الحموي ص ٦ .
(٤) راجع خزانة الأدب ص ١٥٤ .

أنهضته الصبا فأعيا عليها ثقل في جناحه المنهاض
ورعت بالرعود فيه عشار نحرتها خناجر الإيماض
كلما انحل منه بالوبل سلك كان عقداً على نحور الرياض

ويقول مادحاً وكأنه يصف يوماً ممطراً يحتمي من وبله تحت سقف مشقوق :

ولما بدا ركب السحاب تسوقه حداة الرياح الهوج وهي تزجر
وكنت لبيت أستجن من الحيا به إذا غيث من السقف يقطر
فلا فرق ما بين السحاب وبينه سوى أن ذا صاف وذاك مكدر

ويتغزل فلا يتخلى عن ذكر المطر والسحاب والبرق والرعد يقول :

مر بنا كالظَّبي لكنه يذعرنا والظَّبْيُ مذعورُ
واهتزَّ كالغُصْنِ ولكنه بأدمع العُشَّاقِ ممطورُ

ويصف مغنِّياً يدق طاراً :

تثنَّى فلا ميسُ الغصون ولينُها ورجَّعَ أصواتاً فلا تذْكرُ الوُرْقا
وأعجبُ إذ تحتَثُّ يُمنَاهُ طارةً فتسمعها رعداً وتبصرُها بَرْقاً

فصوت دقاته على الرقّ كالرعد وحركة اليد عليه كالبرق لماحةٌ سريعة .

ويصف طرساً مكتوباً فيشبهه بالسحاب السود ، ومعانيه تبرق وتتألق بين السطور كالبرق المتألق :

إلا أنه طرسٌ تبسَّم عن نهى جرى في حواشيه فشقَّ وشوَّقا
دجا عارض الأقلام منه وأومضت بروقُ المعاني بينه فتألقا

وابن قلاقس يركب البحر ، ويرى الموج فيه كالجبال ، والسفينة تعلو وتهبط والريح تدمدم ، فيصف هذا كله وصفاً طريفاً فيقول :

وما أسير إلى روم ولا عرب لكن لريح وإبراق وإرعاد
أقلعت والبحر قد لانت شكائمه جدًّا وأقلع عن موج وإزباد
فعاد لا عاد ذا ريح مدمرة كأنها أخت تلك الريح في عاد

ولقد رأيت بها الأشراط قائمة — لأن أمواجه تجري بميعاد
تعلو فلولا كتاب الله صح لنا — أن السماوات منها ذات أعماد
ونحن في منزل يسري بساكنه — فاسمع حديث مقيم بيته غادي
لا يستقر لنا جنب بمضجعه — كأن حالاتنا حالات عباد
فكم يعفر جنب غير منعفر — وكم يخر جبين غير سجاد
حتى كأنا وكف النوء تقلقنا — دراهم قلبتها كف نقاد

ويرجو أن تلوح له من بعيد أنوار المنارة بالإسكندرية ، ويلمح على الأفق البعيد بيوتها البيضاء فيمني النفس بالشاطىء ، وبالعودة إلى وطنه الحبيب حيث مسارح صباه ومهد طفولته .

متى تنور آفاق المنارة لي — بكوكب في ظلام الليل وقاد
وألحظ المشرفات البيض مشرقة — كالبيض مشرفة في هام أنجاد
متى أروح وأغدو في معاهدها — كما عهدت سماها الرائح الغادي
متى تقر ديار الظاعنين بها — والبين يطلبهم بالماء والزاد

وكان طبيعيًّا أن يكثر من ذكر السفن ووصفها لكثرة رحلاته ، فهو يصفها بالطائر وسط الماء ، وهي مفرودة الشراع ، وتارة يصفها بالحوت الكبير (النون) وهي تشق الماء في قوة ، ويصفها مرة ثالثة بأنها الخال على خد أملس يقول :

بكل سوداء مثل الخال يحملها — بوجنة منه فيها للضحى خفر

ويردد في عشقه لكثرة الأسفار في البحر ، والقفز على السفن تمخر العباب وفوق النوق تخترق النجود والوهاد :

لو لم يحرم على الأيام إنجادي — ما وصّلت بين إتهامي وإنجادي
طوراً أسير مع الحيتان في لجج — وتارة في الفيافي بين آساد
إما بطائرة في ذا ولازمة — أو في قتاد على هذا وأقتاد
والناس كثر ولكن لا يقدر لي — إلا مرافقة الملاح والحادي

ويقول في أبيات أخرى :

سافر إذا حاولت قدرا ... سار الهلال فصار بدرا
والماء يكسب ما جرى ... طيباً ويخبث ما استقرا
وبنقله الدرر النفيسة بدلت بالبحر نحرا

ولابن قلاقس غير ذكر البحار والرحلات قصائد وأبيات وصفية أخرى في موضوعات متعددة ، وهو لا يفتأ يذكر علم مصر الخالد النيل في كثير من شعره ، ولا يصفه إلا في ساعات صفوه وسروره ، في أوقات الأصيل ، ومن حوله الرياض والبساتين . يقول :

وللنيل تحت ثياب الأصيل ... لجين توشح بالعسجد
يحاكي إذا درجته الصبا ... برادة تبر على مبرد

ويقول :

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة ... واعجب لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وأبدت شعاعاً منه يخلفها ... كأنما احترقت في الماء بالغرق
وللهلال وقد وافي لينقذها ... في إثرها زورق قد صيغ من ورق

وله في وصف الخمر معان جميلة ، وإن كانت معانيه في معظمها من معهود معاني سابقيه ، وخاصة معاني أبي نواس ومسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك . ونلاحظ أنه يبدأ قصائده في المديح بذكر مجالس الشراب ، ووصف الخمر إلى جانب الموضوع التقليدي وهو النسيب . يقول من قصيدة يمدح بها ابن خليف القاضي :

وهتكت جيب الدن عن مشمولة ... تلقي على الساق رداء أحمرا
ريعت بسيف المزج فاتخذت له ... درعاً من الحبب المحوك أومغفرا
لو لم يصبها الماء حين توقدت ... بيد النديم لخفت أن يتسعرا
وبنيتها قصراً سقيت براحتي ... كسرى أنو شروان فيه وقيصرا
وغمست ثوب الريح في كاساتها ... حتى ترى أرج الشمائل أعطرا

ويقول في وصف ضارب رق :

مر بنا ناه على طاره ... يلمسه أحسن ما لمس

وواصــل النقــر على أصبـــع تغنيــه لو شــاء عن الخمـــس
فحدثــوا عــن قمــر مشــرق يلعب بالــبرق على الشمـــس

ويصف عوادة قبيحــة :

عوادة غنــت لنــا صوتـــاً يشـبه نـزع الروح والموتـــا
شبهتهـــا فــوق أوتارهـــا بعنكبـــوت نســـجت بيتـــا

* * *

الأسعد بن مماتي ، الشاعر العالم

أسعد بن المهذب بن مماتي من أسرة صعيدية الأصل من أسيوط ، وكانت هذه الأسرة قبطية من أقباط أسيوط ، نزحت إلى القاهرة في عهد الفاطميين وتولى جده أبو مليح ووالده المهذب بعض الوظائف الكبرى في الدولة الفاطمية وكان والده قبيل قيام الدولة الأيوبية متولياً على ديوان الجيش ، فلما ولى أسد الدين شيركوه أبعده عن الديوان لأنه قبطي ، ولم يكن آل أيوب يميلون وهم السنيون المتحمسون إلى تولية أمور دولتهم لرجال من الأقباط أو النصارى .

وأسلم المهذب ، وأبناؤه ومن بينهم أسعد أيام شيركوه ، وبهذا ظل المهذب على الديوان ، وتسلمه من بعده ابنه أسعد .

وهكذا نرى أن أسعد قد ولد ونشأ في أسرة من سراة القوم ، لم ينقصها الثراء ولا الجاه ، ولا العلم والأدب . وقد عرف أسعد كثيراً من علوم عصره ، تعلم اللغة والأدب والتاريخ وعلوم الأوائل : الطب والفلسفة والمنطق والفلك والهندسة والحساب ، وبرع فيها . وكان ذكاؤه عوناً له على التحصيل والنبوغ ، وقد ظهرت موهبته الشعرية في شبابه ، وساعد على نمو هذه الموهبة وازدهارها ماكان يشهده من مجالس الأدب والشعر التي كانت تعقد في دار جده أبي مليح وأبيه مهذب ، ويقصدها أعلام الشعر والأدب في عصره .

وحفظ كثيراً من روائع الأدب القديم ، وبعض دواوين الشعراء المشهورين كما أخذ يدرب نفسه على كتابة الإنشاء . فالتحق بديوانه وأخذ يعد نفسه مع جماعة من كتابه . ولم يلبث غير قليل حتى برع كذلك في الكتابة إلى جانب براعته في الشعر . وبعد إسلامه تمكن أن يجلس إلى الفقهاء والعلماء المسلمين ، فأخذ عن جملتهم علوم القرآن والفقه والحديث ، واستوعب كثيراً منها حتى إنه ألف فيها .

وتولى أسعد ديوان الجيش للسلطان صلاح الدين . ووثق فيه السلطان ، وقربه وزيره القاضي الفاضل ، وأخلص أسعد لهما وبذل ما في وسعه لخدمتهما ، فارتفعت مكانته في نفسيهما ، وكان له دور كبير في الأعمال

الإدارية التي مكنت لصلاح الدين تعبئة القوى في مصر لصالح حملاته بالشام .

وتوفي صلاح الدين بدمشق سنة ٥٨٩ هـ ، وخلفه على مصر ولده العزيز عثمان ثاني أبنائه ، ودارت بين العزيز عثمان وأخويه الأفضل صاحب دمشق ، والظاهر صاحب حلب منازعات انتهت باستيلاء العادل أبي بكر على مصر ودمشق . وتوفي العزيز وخلفه ابنه الصغير الذي لم يدم طويلاً وأصبح الأمر للعادل في النهاية .

وتولى الوزارة في مصر بعد موت صلاح الدين الوزير صفي الدين بن شكر وكان يكره القاضي الفاضل ويحقد عليه ، وقد مات الفاضل قبل توليه الوزارة ، فاضطهد ابن شكر تلاميذه ومقربيه ومن بينهم أسعد بن مماتي ، ومما زاد في عداوة ابن شكر له أن كان موظفاً صغيراً في الديوان أيام رئاسة أسعد . وقد زاد ابن شكر في اضطهاده حتى طالبه بكثير من المال لم يقدر على سداده فهرب واختفى في بيت أحد أصدقائه ، ثم بالقرافة والجند يطلبونه ، وتمكن من الخروج خفية من مصر إلى الشام ، واتجه من توه إلى حلب فتلقاه الملك الظاهر بالترحاب والقبول . وكان الظاهر محبًّا للعلماء ، آوى إليه كثيرون ممن كانوا حول والده من الأفاضل كابن شداد ، وجمال الدين القفطي المصري ، وأجرى الظاهر على أسعد راتباً شهريًّا مناسباً يكفل له العيش الكريم ، غير ما كان يعطيه له كلما ألف له كتاباً ، وما كان يتناوله كذلك أجراً لتدريسه بمدارس حلب .

وله من المؤلفات نظم السيرة الصلاحية ، وكان خير هدية يفتتح بها عهده مع ابنه الظاهر ، وله من المصنفات الدينية كتابان : « تلقين اليقين » تحدث فيه عن حديث : بُنِيَ الإسلام على خمس ، ثم كتاب « حجة الحق على الخلق » ، في الأصول والوعظ والتحذير من سوء عاقبة الظلم ، وهوَ كبير الحجم ، وكان السلطان صلاح الدين يكثر النظر فيه ، وكان القاضي الفاضل معجباً به ويقول عنه : وقفت من الكتب على مالا تحصى عدته ، فما رأيت والله كتاباً أحسن منه ، وإنه والله من أهم ما طالعه الملوك .

وله كذلك كتابه الضخم الذي خلد اسمه ، ودل على مدى قدرته وفهمه

لأمور الإدارة وإلمامه الواسع بأحوال البلاد المصرية الإدارية والمالية ، وهو كتاب « قوانين الدواوين » ويقول من عنى ببحثه إنه كتاب ضخم اختصره في مجلد صغير ، طبع بمصر المختصر ، ثم تولى طبع الأصل الدكتور عزيز سوريال طبعه علمية محققة .

وقد ألفه أسعد للعزيز عثمان ، ويدور موضوعه عن دواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها ، وما يجري فيها ، ثم إحصاء لقرى وكورها ودساكرها وعددها أربعة آلاف قرية ، ثم مساحة كل قرية ، وقانون ريها ونظمها ومتحصلها عيناً وغلة . ويعد بحق مرجعاً تاريخياً وإدارياً هاماً لمصر في ذلك العصر ،وقد توفي أسعد بعد حياة حافلة سنة ٦٠٦ هـ بحلب ودفن هناك .

ومن كتبه الأدبية « نظم كليلة ودمنة » ، وينسب له كتاب « حكم قراقوش » .

أدبــه وشــعره :

كان القاضي الفاضل يقول عنه : إنه بلبل المجلس ؛ لما كان يرى من حسن خطابه وقال عنه العماد : « أحدُ الكتاب في الديوان الفاضلي ، ذو الفضل الجلي والشعر العلي ، والنظم السوي ، والسحر المانوي والروى الروى ، والقافية القافية أثر الحسن . شاب للأدب راب ، وعن الفضل ذاب ، وهو من شملته العناية الفاضلية ، وحسنت منه البديهة والروية .

وقد اجتمع به العماد بالقاهرة ، وسايره في عسكر صلاح الدين واستمع لكثير من شعره وأعجب به .

وفي شعره يمدح صلاح الدين بقصائد كثيرة ، كما يمدح القاضي الفاضل . ومدائحه لا تتميز بشيء عن سواها من مدائح الشعراء في عصره ، وأكثر شعره سوى ذلك من أبيات ومقطوعات كان يتراسل بها مع معاصريه من الأدباء . أو كان يقولها في مجالس تجمعه مع الفاضل أو غيره من الشعراء ؛ مثل قوله في أترجة كانت بين يدي الفاضل :

لله بل للحســـن أترجـــةٌ تذكِّـر النـاس بأمـر النعـيم

كأنها قد جمعت نفسَها من هيبة الفاضل عبد الرحيم

وقال متغزلاً :

وحياءِ ذاك الوجه بل وحياتِه قسماً يُريكَ الحسْن في قَسَماته
لأرابطن على الغرام بثغره لأفوز بالمرْجوِّ من جنَّاتِه
وأجاهِرَنَّ عوازلي في حبِّه بالمرهفات عليَّ من لحظاتِه
قد صيغ من ذهب وقُلِّد جوهراً فلذاك ليس يجوزُ أخذ زكاتِه

وقال يصف بقة ، وتبدو فيها خفة روحه :

تكادُ بقرْص البق تتلف مهجتي إذا لم أجدْ من ثوب جلدي تخلصا
ومن أعجب الأشياء في البق أنها على الجسم سُمّاقٌ وتنبت حمصا[1]

ماجاء من أخبار الأسعد
في « بدائع البدائه »

وكان من صحبة القاضي الفاضل ، وزملاء ظافر الحداد ، وغيره .

(١) قال علي بن ظافر (بدائع ص ١١٦) :

اتفق أن خرجنا للقاء القاضي الفاضل ، فرأيت في الموكب رجلاً أسود اللون وعليه جبةٌ « حمراءُ فأنكرتهُ ولم أعرفه ، ولقيتُ القاضيَ الأسعد أبا المكارم بن الخطير (أطال الله بقاءه) :

فقلت له : من هذا الذي كأنه فحمةٌ في دم حجامة ؟ . فقال لي :

كأنَّهُ ناظِرُ طرفٍ أرمدِ

فقلت : يصلحُ أن يكون قبله :

وأسود في ثوبه المورَّدِ

سماق « ثمر » أحمر اللون .

وبعـده :

أو مثـلُ خـالٍ فـوقَ خـدٍّ أمـرَدِ

(٢) قال علي بن ظافر : (ص ١٢٢)

« وأخبرني القاضي الأعز بن المؤيد – رحمه الله – بما هذا معناه . أنه كان عند أبي المعالي الشمّاس كاتب القاضي الأسعد بن مماتي في ليلة اصطلى فيها بالجمر ، من كؤوس الخمر ، واجتلى بها النجوم الزُّهْرَ من مجتنى نجوم الزهر ؛ قال : فأفضتُ في ذمّها ، وذكر عظيم إثمها ، ثم ندمتُ على ما فرط ، واعتذرت اعتذار من فرّط ، فقلت :

شربتُمْ قهـوةً وشـربتُ مـاءً   فأغنـاني اللُّجَيْنُ عـن النُّضارِ
ومن بانتْ أحبّتُـهُ وسـاروا   تعـلَّلَ بالتشاغل بالدّيـارِ

ثم استجزته (الأسعد) فقال :

وكنـت نظـيركُمْ بالشـمّ منها   ولكنني سـلمتُ من الخُمـارِ

(٣) قال علي بن ظافر : (١٩٨)

وأخبرني القاضي أبو المكارم أسعد بن الخطير بن مماتي المقدم ذكره قال : اجتمعت مع الوجيه أبي الحسن علي بن الذروي رضي الله تعالى عنه ، ومعنا رجلٌ سيِّءُ الخلق ، كثيرُ الضجر والحنَق ، ذو صدر يضيقُ عن مِثقالِ الذرَّة ، ويتّسع عنه اتساع الأفق لسَمِّ الإبرة ، فترافدنا في ذمّه ، فقال ابن الذروي :

لو كانَ سُرمكَ مثل صدْرِكَ ضيقةً   طال اشتياق خَنارِه للفيشـل

فقلت :

ولكنت أول من يقـال بأنَّـهُ   بغّـاءُ إلّا أنه لم يُدْخـل

(٤) قال علي بن ظافر (٢٦٨)

حضرنا يوماً عند الصاحب صفي الدين بمعسكر المنصور على بلبيس عند بروز السلطان لسفرته الثانية – حين حوصرت دمشق الحصار الثاني في خيمته

بمجلس حفل ، لم يعدم فيه أحد من مشايخ الدولة ووجوهها ، وهم إذ ذاك متوفرون ، لم ينقص لهم عدد ، ولا فقد منهم أحد ، فأنشدني ابن أبي حفصة قصيدةً عاتبتُه في بعض أبياتها ، وارتقى الأمر إلى أن قال الأسعد بن الحظير – رحمه الله تعالى – إن هاهنا جماعةً كلهم يقول الشعر فلو اقترح عليهم أن يصنعوا شيئاً في بعض ما يقع تعيين الصاحب عليه لبان الجريء الجنان من العاجز الجبان ، ومن جملة من معنا في المجلس ممن يقول الشعر ابن سناء الملك ، والأسعد أبو القاسم عبد الرحيم بن شيث ، فاقترح الصاحب أن نعمل في منجنيق الشمعة وكان الهواء عاصفاً ... » .

(٥) قال علي بن ظافر (٢٧٦)

وأخبرني الأسعد أبو المكارم أسعد بن الحظير قال : كنت عند الفاضل – رحمه الله تعالى – إذ دخل الوزير نجم الدين فأخبره بما طلب وأنشده ما صنع فقال الفاضل : هذا معنى كنت صنعته قديماً إلا أني استدخلتُ الليل بواباً فقلت :

بتنــا على حالٍ تسوءُ العِــدا ... وربّمـا لا يمكنُ الشـــرحُ
بوّابُنـا الليـلُ وقلنـا لـــه ... إن غبتَ عنا هجـم الصّبـحُ

قال الأسعد : ولم أكن صنعتُ شيئاً ، فصنعت بديهاً :

قلـتُ للّيـل عندمـا زارني البـــدْ ... رُ ، وأوجستُ خيفةً للـــرُّواح
أنـتَ يا ليل برد دارِ حبيـــبي ... فتأهّـبْ لدفـع صـــدرِ الصَّباح

قال : فاستحسن الوزير الغنيم الثاني ، فقلت : برْدُ دار المولى فعلم منه حسن الخلق ، يقول : انصرف راشداً ، وهذا البرد دارٌ فظٌّ غليظ يدفعُ في الصدْر .

(٦) وقال ابن ظافر (٢٧٩)

وبرز أمر الملك العزيز – عثمان – رحمه الله إلى وزيره الأجل نجم الدين – رحمه الله تعالى أن يصنع غزلاً في جارية صنعت على خدها بالمسك صورة حيَّةٍ وعقرب فصنع أبقاه الله بديهاً .

(مقطوعة شعرية) ...

ثم أمر الناس بالعمل فأكثروا ، وصنع بن مماتي قطعاً كثيرة تزيد على العشرين ، من أحسنها قوله :

نقشت حيَّة على وَرْدِ خدٌّ مُزَخْرَف
فبدتْ آية الكليم على وجهِ يوسُفِ

وقال أيضاً :

في خدّها عقربٌ وحَيَّهْ وأنتِ يا نَفْسُ بعدُ حَيَّهْ
قد جالَ ماءُ الشبابِ فيه وأرسل الصُّدْغُ فيه فَيَّهْ

(٧) وقال ابن ظافر (ص ٣١٩)

وأخبرني القاضي الأسعد : قال أمرني الملك العزيز رحمه الله تعالى أن أصنع في فرسٍ أشهب قطعةً أشبهه فيها بالقمر في لونه وسرعته . وقال رحمه الله : إن الناس شبهوه بالشهاب ، والقمر أسرعُ جرياً منه ، فصنعتُ في الحال :

وأشهب يقطع عَر ضَ الأرض في لمح البصَرْ
ما مثله في لونه وجريه إلا القَمَرْ

(٨) قال ابن ظافر (٣٣٩)

وأخبرني الفقيه العفيفُ شجاع العربي – المقدم ذكره قال : اجتمعت مع الوجيه أبي الحسن بن الذروي ، والأديب نشو الملك بن المنجّم ، وجعفر القرشي المنبوذ بشلعلع – المقدم ذكر الجميع عند القاضي الأسعد بن الحظير بن مماتي في بستانه فمدحته بقطعةٍ لإحسانٍ كان منه إليّ وكتبتُها في ورقة كرم ، فحين وقف عليها صنع بديهاً :

أطر بنا شعر العفيف الذي قد فاقَ في النُّبل وفي الفَهْمِ
ولو لم يكنْ يُسكرنا شِعْرُهُ ما صاغه في ورقِ الكَرْمِ

(٩) قال علي بن ظافر : (ص ٤٠٣ / ٤٠٤)

دخلت يوماً على القاضي الفاضل – رحمه الله – فجرى في مجلسه من تفوق المذاكرة ما

أدّاهُ إلى أن قال : كان الرشيد بن الزبير قد اجتمعت فيه صفات وأخلاق تقتضي أن تجود معاني العباد فيه .. وكان ينافر في سوق الشعر ويسرق المعاني ، فقال فيه ابن قادوس :

سلَخْتَ أشعارَ الورَى جملةً حتى دعوْكَ الأسودَ السَّالِخا

فأخذ الأسعد الخطير يستحسن هذه القطعة ، فقلت له : كما تقول ، إلّا أنه لحن في قوله الأسود السَّالخا ، فإنما يقال : أسود سالخ ، وأبرصُ سام ، فاللحنُ يقيم الوزن والصوابُ يكسره ، فهو خطئي حسَنٍ .

ابن النبيه المصري (ت ٦١٩ هـ)

هو العلامة كمال الدين علي بن محمد بن يوسف بن النبيه المصري الكاتب الشاعر صاحب ديوان الرسائل للملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب .

ولد ابن النبيه في مصر ، وسكت التاريخ عن ذكر مكان ولادته ، ونشأته الأولى ، إلا أنا تقدر أنه أستظل بظل الدولة الفاطمية في أخريات أيامها وتلقى ثقافته أيامها ، والتقى في شبابه ببعض علمائها وأدبائها ، وبخاصة أولئك الذي لحقوا ببداية الدولة الأيوبية أيام صلاح الدين .

ولعله اتصل ببعض الكتّاب فتعلم الكتابة على أحدهم ، وربما التحق كذلك بديوان الإنشاء أو غيره من دواوين الدولة ، فقد كان أصحابها ، والقائمون عليها يضمون إليهم بعض ناشئة الأدباء يعاونونهم في أعمالهم ، ويتدرب هؤلاء بدورهم على أعمال الدواوين .

وديوان الشاعر لا يدلنا على شيء من علاقاته في شبابه أو رجولته الأولى ولا تورد له المصادر قولاً قبل عام ٦٠٠ هـ أي وهو فيما يقارب الأربعين من عمره ، ولا نظن أنه لم يقل شعراً قبل ذلك . أما ديوانه الذي بين أيدينا فإنه مختار من شعره وليس كل شعره ، وقصائده كلها – تقريباً – في المرحلة الأخيرة من حياته حين بلغ مرتبة في الدولة الأيوبية .

وتدلنا هذه الأشعار على أنه اتصل بكبار رجال الدولة وسلاطينها ، وأنه غادر مصر في عهد السلطان الكامل محمد بن العادل ليلحق بأخيه الأشرف موسى الذي كان يتولى البلاد الشرقية في الجزيرة الفراتية ، الموصل ، وإربل ، وميافارقين وخلاط ببلاد الأرمن حتى لقب « شاه أرمن » . وذلك قبل انتقاله إلى دمشق برغبة الملك الكامل ليضم بلاد المشرق إلى حوزته وسلطانه مباشرة ويعوّض أخاه الأشرف عنها دمشق وما يتصل بها من بلاد أخرى بالشام بعد أحداث جرت بين الأخوة من أبناء العادل وأبناء العم من الصلاحين .

التحق إذاً ابن النبيه بخدمة الأشرف موسى في حدود سنة ٦٠٠ هـ ، بعد أن انتصر على صاحب الموصل ، وانضم إلى مجموعة من الأدباء والشعراء خدموا الأشرف ولزموه في تلك الحقبة . وظلّ ملازماً للأشرف لم يفارقه ، متنقلاً معه أحياناً في بلاد المشرق ، أو وحده أحياناً أخرى ، متردداً بين حرّان وحلب وغيرهما كما تدلّ مدائحه للأشرف في المناسبات المختلفة .

ويذكر ابن واصل[1] في حوادث سنة ٦٠٠ هـ تهنئة ابن النبيه للأشرف بإيقاعه بعسكر الموصل : يقول ابن واصل : « وكانت هذه الوقعة أول ما عرف من سعادة الملك الأشرف ويمن نقيبته ، فإنه لم يلق بعد ذلك جيشاً إلا فضّه . وعلا بهذه الواقعة ذكره ، واشتهر صيته ، وهنّته الشعراءُ بما حصل له من هذا الفتح العظيم . ومن مدحه وهنأه منهم كمال الدين علي بن النبيه المصري ، فإنه مدحه بقصيدة مطلعها[1]:

لما انثَنى الغُصنُ فوق كُثبانِه . جَبرْتُ قلبي بكَسْرِ رُمّانِه
ونلتُ من ريقه وعارضِه أطيب من راحِهِ وريحانة »

وذكر ابن واصل أن ابن النبيه هنأه بقصيدة لتعمير قلعة الطور[2] بالشام سنة ٦٠٩ هـ مع والده السلطان العادل . ويذكرَ العادل وابنه موسى في هذه القصيدة فيقول :[3]

الملكُ العادل من أمّه فقد رأى مُوسى على الطورِ
إن كان قد دكَّ قديماً فقد عمّرَهُ أحسن تعميرِ

ولما توفي ابن للخليفة العباس الناصر ببغداد سنة ٦١٣ هـ وعمل الأشرف موسى عزاءً رثاه ابن النبيه بقصيدة مطلعها :[4]

الناسِ للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد

وكان الملك الأشرف قد عمل هذا العزاء بحران .

---

(١) مفرج الكروب ٣ / ١٥٧ بتحقيق د. جمال الدين الشيال .
(١) القصيدة في ديوانه ص ١٣٠ بتحقيق عمر محمد الأسعد طبع دار الفكر بدمشق سنة ١٩٦٩ .
(٢) والطور جبل عال مطل على عكا .
(٣) مفرج الكروب ٣ / ٢١٦ وراجع الديوان .
(٤) المصدر نفسه ٣ / ٢٣١ .

ويذكر علي بن ظافر في البدائع[1] أنه اتفق له أن « اجتمع مع القاضي أبي الحسن ابن النبيه ومعهم جماعة من شعراء مصر . فأنشدهم قول مؤيد الدين الطغرائي في الهلال :

قُومُوا إلى لذَّاتكم يا نيامْ وأترِعُوا الكأسَ بصَفْو المدامْ
هذا هلالُ العيد قد جاءَنا بمنجلٍ يحصد شهر الصيامْ

فقال ابن النبيه : لو شبهه بمنجل ذهب يحصد نرجس النجوم لكان أولى ؛ ثم قال نظماً :

انظر إلى حسن هلال بدا

فقال ابن ظافر :

يُذهِبُ من أنواره حندسا

فقال ابن النبيه :

كمنجل قد صيغ من فضة

فقال ابن ظافر :

يحصد من شهب الدُّجى نرجسا

ويبدو أن ابن النبيه كان من أصحاب علي بن ظافر الذين كانوا يجتمعون معاً بالقاهرة وكانوا بين أدباء وشعراء ، منهم من عرف واشتهر كالأسعد بن مماتي ، ومنهم من لم يشتهر ولحق فيما يبدو ببعض صحبة القاضي الفاضل ، ومنهم الوزير نجم الدين وزير العزيز عثمان أو نجم الدين المصمودي قاضي العسكر للملك العادل أبي بكر ، ونشو الدولة ابن المنجم علي بن المفرج الشاعر[2].

ويلقب ابن النبيه بالقاضي ولم يتولَّ القضاء ، بل كان كاتب إنشاء ، ولكن جرت العادة أن يطلق لقب القاضي على كل صاحب قلم كما يطلق لقب الأمير على كل صاحب سيف .

بدائع البداهة ص ١٨٧ بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وطبع الأنجلو سنة ١٩٧٠ .
(١) راجع النجوم الزاهرة – تحقيق حسين نصار ص ٣٤٥ وبدائع البداهة في أكثر من موضع وقد توفي سنة ٦١٦هـ .

ديوانــــه :

والجزء الذي وصلنا من ديوانه كما قلنا مختار منه ، وليس كل ماقال من الشعر ، وقد اختاره بنفسه ، وقسمه ثلاثة أقسام :

القسم الأول : قصائد في مدح الخليفة العباسي الناصر لدين الله وسماه « الخليفيات » .

والقسم الثاني : قصائد في مدح الملك العادل أبي بكر وسماه « العادليات » .

والقسم الثالث : وهو أكبرها في الملك الأشرف موسى وسمّاهُ « الأشرفيات » .

ويضم الجزء الأول أربع قصائد منها ثلاث في المديح وواحدة في الرثاء ، والثاني يضم قصيدتين في المديح ، وأما الثالث فيضم بقية الديوان ومعظمها في مدح الأشرف موسى سوى بضع قصائد ومقطعات في مديح بعض الملوك وأعيان الدولة ، منها واحدة في مدح شهاب الدين غازي أخي الأشرف موسى وأخرى في مدح الحاجب علي بن حماد واثنتان في مدح القاضي الفاضل ، وواحدة في الأسعد بن مماتي ، وأربع قصائد ومقطعات في الوزير الصاحب ابن شكر وزير الملك العادل ، وقصيدتان في علم الدين ابن الصاحب . وبقية الديوان مجموعة من المقطعات في موضوعات مختلفة معظمها في الوصف والاستعطاف والشفاعة والألغاز ، والرسائل الشعرية والغزل في المذكر ، والغزل ، والشكوى .

ويمكن تقسيم شعره على هذا الأساس تاريخياً إلى مرحلتين وفق ما جاء في مقدمات القصيدة ، ومن قيلت فيه . فأما المرحلة الأولى فهي السابقة على التحاقه ببلاط الأشرف موسى سنة ٦٠٠ هـ ، ومعظمها في القاهرة ، وبعضها في الشام ودمشق وأما المرحلة الثانية فهي مرحلة التحاقه بخدمة الأشرف وحتى وفاته سنة ٦١٩ هـ .

ويقدم ابن النبيه لمختار شعره الذي جمعه في ديوانه بمقدمة بليغة تتسم بطابع

أسلوب كتاب الإنشاء في عصر ، وبخاصة أسلوب الفاضل . يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .
الحمدُ لله الذي بث أرواح العقول في أجساد الصُّور ، وعمَّ البسيطة بأجناس الحيوان ، واختص منها بالنطق البشر . ﴿ خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾ ، وأظهر أسرار الحكمة بواسطة فهمه ، وجعل بدائع صنعته ميداناً لجولان سوابق علمه ، استخلصه لعبادته وشكره ، كما شهد الكتابُ المطهَّرُ المكنون . أنزل فيه ﴿ وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليَعْبُدون ﴾ ، ﴿ فاذكروني أذكركم ، وأشكروا لي ولا تكفُرون ﴾ . شرّف جنسهم بأنه أرسل فيهم رسولاً منهم جعله صلى الله عليه وسلم حاملاً بكاهل الشفاعة أعباء الأوزار عنهم . ولمَّا كان القادر الغنيُّ لا يرضى لعباده الكفر ، وعني بغرس خلقه ليجتني من أفنانه أثمار الشكر ، تحقق أن شكر كلّ منعم واجب ، وقام من ذلك دليلٌ اتفق عليه أئمة المذاهب . وأحق الناس بعد الله تعالى بالشكر ملكٌ أشار إليه بنان البيان ، وأبهج بذكره جنان الجنان ، وقلد باسمه القريض فزان الأوزان . عفّ وعفا ، وكفى وكفى ، وأحيى وفاق الوفا ، وحمى وحمل ، وعلّم فعمل ، واستولى سابق نداه على أمد كلّ أمل ، فزمانُ دولته غضُّ النضارة نضُّ النضارة ، حلو الشارة ، بديعُ الإشارة ، المولى السلطانُ الأشرفُ شاهُ أرمن ، سلطان العراق والشام ، مظفر الدنيا والدين ، ناصر أمير المؤمنين ، أبو الفتح موسى ، ابن الملك العادل ، سيف الدنيا والدين ، أبي بكر بن أيوب خليل أمير المؤمنين . قدّس الله روحه ، ونوّر ضريحه .

ولمَّا لم يجد مملوكُ دولته ، وغرسُ فواضله ، وربيبُ نعمته ، أبو الحسن عليُّ بن النبيه ما يكافئُ به أياديه ، ويجازي به إحسانه الذي يخجِلُ الغيث روائحه وغواديه ، توفَّر على استخراج جواهر صفاته من بحر كرمه ، ونظَم فرائد فوائده ، فكافأ نعمَةً بنعمة ، وجمعها في هذا الكتاب ، معترفاً أن الشرف للجوهر ، لا للناظم ، وأن الفضل للبحر الذي أرسل الغيث على أجنحة الغمائم . وجعله عرضة لنقد الخواطر ، وميداناً لجواد قريحة كلّ متأمل وناظر . وسبيلَ كلّ منصف ينظر فيه الإيمان بآيات معجزاتِ سحرهِ المبين ، وإقالةِ العثار فيما

لعله يعرض فيه من الخطَلِ الوِدادِ على المؤلفين والمصنفين . ﴿ وليعْفُوا وَليصْفَحُوا ألا تحبُّونَ أن يغفِرَ الله لكم ، والله غفورٌ رحيم ﴾ .

موضوعات شعره : المديح

ذكرنا أن موضوعات شعره يغلب عليها المديح للخليفة الناصر لدين الله العباسي والعادل أبي بكر ، والأكثر للملك الأشرف موسى بن العادل .

وصفات المديح التي يسوقها في شعرها متشابهة لا تخرج عن قاموس المديح القديم ولا تكاد معانيه تخرج عن معاني القدماء في هذا إلا فيما ندر من محاولة لإلباس المعنى القديم المتداول ثوباً جديداً أو مغايراً من اللفظ ، أو عرض القديم في معرض من مجالي العصر ومعطياته ، وما غلب على معارفه وعاداته وأحداثه وصور حياته .

ولعل أول ما يواجهنا في مدائحه للناصر ببيان تلك العلاقة المعنوية ، أو الدينية بين الخليفة العباسي وسلاطين وملوك الدول المستظلة بظل العباسيين ، أو الذين ينتمون إليه مذهباً وعقيدة .

ومعلوم أن ملوك الترك والأكراد من سلاطين السلاجقة والأيوبيين وملوكهم كانوا يدينون بمذهب أهل السنَّة فهم يرون في الخليفة العباسيّ إمامهم الروحي . ونرى هذا المعنى يتردد في شعر ابن النبيه ، ويضيف إليه بعض المعاني الأخرى التي لا يحسبها من عقائد أهل السنة بل إن ألسنة الشعراء التقطتها من كلام الشيعة عن أئمتهم من مثل قول ابن النبيه في مديح الناصر :

فهنــاك من جســد النبــوَّة بضعــةٌ	بالوحْـي جبـريلٌ لهـا يـتـردَّدُ
بابُ النجـاةِ ، مدينـةُ العـلم الـتي	مازالَ كَوكَـبُ هديهـا يتوقَّـدُ
ما بين سـدرته وسـدَّةِ دَسـتِه	نبـأٌ يقـرُّ له الكفـورُ الملحـدُ
هـذا هو السـرُّ الذي بهر الورى	في ظهـر آدم فالمـلائكُ سجَّـدُ

هذه المبالغات في صفة الخليفة ، لم تكن معروفة في مدائح الشعراء العباسيين للخلفاء في القرون السابقة ، وأعني في القرنين الثاني والثالث بصفة خاصة ، ولعلَّ هذا كما قلت مما اكتسبه شعر المديح في القرنين الرابع والخامس من مديح

أئمة الفاطميين وخلفائهم فهم الذين أضفوا عليهم تلك الصفات التي ترفعهم إلى مقام الألوهة والتقديس ، وإن لم يصرح ابن النبيه بهذا ، لكنه اقترب من هذا المقام .

وهو يركز على أن باب العلم هو العباسُ ونبوه ، لا عليٌّ بالضرورة وأبناؤه ووارثوه كما كان الشيعة يدّعون في أقوالهم في العصر السابق على هذا العصر . يقول ابن النبيه ، وفيه إشارة واضحة إلى قول الشيعة بالإمام المنتظر أو المهديّ الذي سيملأُ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جوراً :

بُعداً لمنتظرٍ سَوَاهُ ، وقد بَدتْ ... منه البراهينُ التي لا تجْحَدُ

ثم يقول :

الله أنزل وحيَه لمحمّدٍ ... وإليكُم أفضَى بذَاكَ محمّدُ

يعني أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم قد أفضى بالعلم إلى عمّه العباس وأبنائه ، فهم بالضرورة الذين يملكون حقّ العلم الربّاني ، والسرّ الرحماني . « وكلٌّ يدّعي وصلاً بليلى » .

ويبلغ به الإسرافُ في القول درجة أن يصرح - وإن كان ذلك شعراً ، والشعراء يهيمون في كل واد - يقول :

لولا التقيّةُ كنتُ أولَ معشرٍ ... غالوا فقالوا أنتَ ربٌّ تُعبَدُ

وعلى أن الناصر كما يقولون كان ظالماً ، وكانَ مسرفاً على نفسه ، ولم يكن الأمثل في التمسك بمظهر هذا المنصب ومخبره ، بل كان يتخلق بأخلاق الفتوة وابتدع فرقة تنهج نهجهُ ، ولم يقره كثيرٌ من المؤرخين على أفعاله ، على الرغم من هذا فالشاعر يجعله مدافعاً عن الإسلام ، ومجاهداً في سبيله ، وهو عاكفٌ في قصره في بغداد ، ويحمي ثغور الإسلام ، ويجاهد أعداءه غيرُه ممن نذروا أنفسهم لذلك ، حميّةً ، أو رغبة في ملك وسلطان ، وجندهم بين رغبة في الذود عن بيضة الإسلام تقوى وعقيدة ، ودفاعاً عن الحمى والحريم والأرض ، أو طمعاً في عطية ، أو نفلٍ ما تجودُ به الغزوات ، وتخلّفه الحروب من منتصر له مالُ الغارم وأرضه ونساؤه ، ومنهزم مسلوب المال والأرض والعرض .

وتضحك هذا الشاعر الذي يقول في الخليفة الناصر وهو من عرفنا :

ملكٌ إذا ظمِئتْ شفاهُ رماحِه في معركٍ فدمُ الوريد المورِدُ
ملكٌ إذا التطمتْ صفوفُ جيوشهِ أيقنتَ أنَّ البرَّ بحرٌ مُزْبِدُ
يعلوهُ من زُمَرِ الملائكِ فيلقٌ بالرُّعب ينصر عزمه ويُؤيِّدَ

فالشاعر يقول هذا ، والواقع يقول غيره ، فأرض الخلافة والإسلام ، يتنازعها الأعداء في المشرق والمغرب بين التتار ، والفرنج من الصليبيين وغيرهم ، وخليفة الإسلام لا يملك لهم من أمره شيئاً إلا أن يستمع إلى قصائد أمثال ابن النبيه الذين ينسبون إليه كل فضل ولا فضل له إلا أنه خليفة توارث الناس فيما توارثوا الاعتقاد في صلاحه وتقواه وهيبته وبركته ، وهو فردٌ من الناس ، لم تكسبه قرابته للنبي صلى الله عليه وسلم ميزة على خلقه فيما يدعي هذا الشاعر أو يدّعي غيره من الشعراء في غيره من الأئمة والخلفاء .

والشاعر هاهنا يجعل من « الحبَّة قبة » ، ومن الواقعة الصغيرة ملحمة كبرى ، ويكرر المعاني التي أشرنا إليها في قصائد الخليفيات يقلبها في معارض منوعة ، والمضمون واحدٌ لا يتغير . كأن يقول :

فليسَ يُخذَلُ في يوم الحساب فتىً والناصرُ ابنُ رسول الله ناصِرُه
إمامُ عدلٍ لتقوى الله باطِنُه وللجلالةِ والإحسان ظاهِرُهُ
تجسَّدَ الحقُّ في أثناءِ بُردَتِه وتوَّجتْ باسمه العالي منابِرُه
له على سرِّ سِتْرِ الغيبِ مشترفٌ فما مواردُهُ إلا مصادِرُهُ

وينفق الشاعر أبياتاً في مثل هذا المديح المبالغ فيه ، والذي تنفر منه أذواق الجادّين ممن يرون في الشعر مدعاةً لتسجيل الحقائق والصدق في التعبير عن المشاعر الذاتية أو العامة دون إسراف ، فالله لا يحب المسرفين من عباده وكذلك روح الإسلام تتبرأ من مثل هذا القول :

كل الصلاة خداجٌ لا تمام لها إذا تقضّت ولم يذكره ذاكِرُه
كلُّ الكلام قصيرٌ عن مناقبه إلا إذا نظم القرآن شاعِرُهُ

وكذلك الحال في مديحه للعادل والد الأشرف مخدوم الشاعر ، فهو لا يفتأ

يخلع عليه تلك المعاني الدينية ، فمقره « ميافارقين » كعبةٌ للقاصدين ، ويدعو لها بالسقيا :

سقَا الله ميافارقين ومن سـقَى سجالَ سحابٍ لا يغبُّ قطارُها
وما لي أستسقي لها صَيِّبَ الحيا وراحةُ سيف الدين تطفو بحارها

وعلى أنه يذكر مشاركته أخاه في مجاهدة الصليبيين ، ومن بعده موالاته لنزالهم ومكافحتهم على ثغور الشام وقلاعه .

به دمَّر الله الصليبَ وأهلَهُ به ملَّةُ الإسلام عالٍ منارُها
فلا زالتْ الأفلاك تجري بنصرِهِ ولا زالَ عنه قطبُها ومدارُها

ويتخذ من مدائح العادل مناسبة أحياناً للإشارة إلى مخدوم الشاعر موسى ابن العادل .

وأما أشرفياته ، فهي معظم مدائحه ، ويستغل اسم الأشرف موسى فيما يوحي به من علاقة بموسى النبي ومعجزاته في العصا ، وفي تكليم ربّه بالطور كأنْ يقول :

بحدِّ سيفك آياتُ العصا نُسِخَتْ إذا تَقَرْعَنَ يوم الرَّوع كافِرُهُ

ويقول بمناسبة اجتماع العادل وابنه موسى على حصن الطود بالشام :

الملكُ العادلُ من أمَّه فقد رأى مُوسَى على الطُّورِ

ويقول حين انتصر في يوم أبي شزَّه على صاحب الموصل :

عساكِرُ الموصِل التي انكسَرَتْ تخْبِرُ عن نفسِهِ وفرسانِهْ
يومَ أبو شزَّةٍ وقد قَدحَتْ سنابِلُ الخيْل زَنْدَ نيرانِهْ
تفرعَنُوا باجتماع كيدِهِمُ فالتقَفَتْهُم آياتُ ثُعْبانِهْ
أغرقهُمْ بحرُ جيشِه فَهُمُ كآلِ فرعونَ تحت طوفانِهِ

وقد يمزج بعض المعاني الدينية الأخرى إلى تلك المتعلقة بآيات موسى النبي .

كأن يقول :

إن غـاضَ مـاءُ الرّزقِ موســى ، وإن تغـرُبُ شَمْسٌ إنّـه يُوشـــعُ
لـه يـدٌ ظاهرهَـا كعبــة وفي نـدى باطنهَـا مَشــرعُ
بيضَـاءُ في السـلمِ ولكنّهــا حمـراءُ إذ سنُّ القَنـا تُقــرَعُ

وترى كيف مزج بين هذه المعاني الدينية ، وبعض معاني المديح عند من سبقه من شعراء العباسيين في وصفه لجود صاحبه وبطشه معاً فيما تعمل الكف من تقديم العطاء في السلم ، فهي بيضاء ، والبطش في الحرب لأنها تمسك بأداة القتل والقتال من سيف أو رمح .

وليس غريباً أن يكثر في مديحه للعادل ، والأشرف معاً من ذكر صفات الفروسية والشجاعة ، والحديث عن خوض المعارك ، واشتجار القنا ، وتصاعد السيوف وهبوطها في غبار العرب ، وكأنها الشهب . وهذا الأشرف كان مشغولاً كأبيه وعمّه ، وأعمامه وبني عمه جميعاً من بني أيوب بالقتال ، وسوْقِ الجيوش والغارات إن لم يكن ضد الصليبيين ، فضد بعضهم بعضاً ، أو ضد بعض أمراء المسلمين ممن لا يذعنون لسلطانهم .

غــزله :

وإذا كانت هذه المدائح تجري على السنن المعهود إلا ما قل منها ، وتتناول المعاني المعروفة عند الشعراء في هذا الموضوع كالوصف بالكرم والتشبيه بالبحر والغيث ، والخضرة للكف والبياض دليل الخير والعطاء ، والوصف بالشجاعة ومناجزة الأقران ، وعرض صور الشجاعة في الحرب بقوة الضرب بالسيف أو الرمح ، والصمود في المعركة ، وتعود الخيل على حمله واقتحام قتام الصدام .

إذا كانت المدائح تحمل كل هذا المعاني معادة ومكررة ، وملونة أحياناً ببعض الصور الدينية اقتباساً من القرآن الكريم باللفظ أو المعنى ، أو الإشارة إلى بعض قصص أنبيائه وأخبارهم ، أو الاستعانة بالتاريخ الإسلامي ، أو التاريخ الإنساني والإشارة إلى إبطال كل منهما ، فإن هذا الشعر مع ذلك مصنوعٌ غير مطبوع ، تبدو آثار الصنعة فيه على ما سنبينه في حديث أسلوبه ، وقد تخف

هذه الصيغة أو تلطف إذا تغزل الشاعر ، فترى في لفظة رقة ، وتحسّ له افتناناً في التعبيرات ، تملحُ ، وتقع منك موقع الإعجاب ، وتسرّ لما تحمل من لمحات الجمال التي يحسن الشاعر صياغتها ، وإضافة الاصباغ ، والخطوط الرشيقة إلى صورها التقليدية أو المعروفة .

وغالباً ما يبدأ قصائد مديحه بالغزل ، إلّا أن مطالع الغزل في مدائحه للأشرف موسى تبدو أكثر جمالاً وافتناناً من تلك التي بدأ بها قصائد مديح الخليفة العباسي أو السلطان العادل أبي بكر .

وهو يعتمد في معانيه وصوره الغزلية على موروث الشعر العربي ، وقد يميل أحياناً إلى أن يأتي بها بدوية أعرابية كقوله في مطلع إحدى مدائحه للعادل أبي بكر بن أيوب :

لِمَنْ شجرٌ قد أثقلتها ثمارُها	سَفائِنُ بِرٍّ والسَّرابُ بحارُها
حروفٌ إذا استَقرأْتَها في انفرادها	سطورٌ إذا استولى عليها قِطارُها
حنايا إذا السَّاري السُّرى ارتمى بها	فهنَّ سهامٌ يستطير شرارُها
توالت كموج البحرِ مُزْبَدَةَ البُرى	عليها قبابٌ بالدُّموع احمرارُها
وفي الكِلَّة الحمراءِ بيضاءُ طفلةٌ	بزرقِ عيون السُّمرَ يحمي احورَارُها
أثارَ لها نقْعُ الجيادِ سُرَادِقاً	به دُونَ سترِ الخِدْرِ عنَّا استِتَارُها
لها طلعةٌ من شعْرها وجَبينها	تعانَقَ فيها لَيْلُهَا ونهارُها
لها من مهاةِ الرَّمْلِ جيدٌ ومقلةٌ	وليْسَ لها استيحاشُها ونفارُها
وما سكنَتْ وادي العقيق ولا الغَضَا	ولكن بعيْني أو بقلبي دارُها

ويمضي عن هذه الألفاظ والمعاني البدوية إلى غزل محدث في معانيه وألفاظه ، فيقول :

إذا ما الثريا والهلالُ تقارَنا	أشكَكْ هل ذا قرطها وسوارُها
فأيُّ قضيب جالَ فيه وشاحها	وأيُّ كثيبٍ ضاقَ عنهُ إزارُها
وما كنتُ أدري قبلَ لؤلؤ ثغْرها	بأيِّ نفيساتِ اللآلي صِغارُها
هي البدرُ إلا أن عندي محاقَهُ	هي الخمرُ إلَّا أنَّ حِظِّيَ خمارُها
أيا كعبةً من خالها حجرٌ لها	بَعيدٌ حجُّها واعتمارُها

فإن بلغتها النفس يوماً بشيقها ، فقــلبي لها هَدْيٌ ودمعـــي جمارُهــا

وعلى أن معظم غزله في مطالع قصائد المديح من هذا اللون المحدث الحضري ، بل الذي ساد في القرنين السادس والسابع الهجريين ، من حيث رقة اللفظ ، ومحاولات إدخال صور البديع المختلفة ، والتجديد في قديم الصيغ والتعبيرات ، ومحاولة الاستعانة بلفظ القرآن ، ومصطلح العلوم ، أو منجزات الحضارة ، ومشاهد العصر ، ومغاني الطبيعة ومفاتنها ، فيقول :

تنقَّـبتْ بالنُّـوْرِ والنـــورِ ، واعتجــرتْ لكــنْ بديجُــورِ
ســـاحرةُ الطــرفِ ولكنَّهــا ، من فــترةٍ في زيّ مســـحُورِ
شفَّ بياضُ اللَّاذ[1] عن جسمها ، كالخمــرِ في باطــنِ بلُّلــورِ
كأنَّمــا مِعْصَمهَـــا جَـــدْولٌ ، صيـــغَ له ســـدٌّ من النُّـــور
تبْســـمُ عن منظومِ دُرٍّ فــإنْ ، ترنَّمــتْ جـــاءَتْ بمنثُـــورِ

ويصفُ من يحبُّ بأنه ضيق العين ، وهو فتاةٌ ، أو فتًى من الترك ، وهم المعروفون بضيق العيون . وقد ساءَ هذا النموذج في جمال العيون لدى شعراءِ العصر ، وتغير ذوق الجمال فيها عن النموذج العربي في سعتها وبياضها . ويقول :

لي ضيِّقُ العـــين وإن أطنبُـــوا ، في الأعْـــيُنِ النجْـــلِ ، وإنْ أوسَعُوا
في قُنْدُسِ الكمَّـــةِ من وجهـــهِ ، لي شـــاغِلٌ عمَّا حَوى البرقُـــعُ
تـزرعُ عينـــايَ عـــلى خـــدِّهِ ، ورداً ، ولا أجـــنى الـــذي أزرعُ
جـــنتْ بـــه عيـــني فإنســـانها ، مُسَـلْسَلٌ أغـلالُهُ الأدمـــعُ

وأحسب هذه المعاني جديدة من بدع ابن النبيه ، وهي دليل على رقته وشاعريته وليس غريباً أن تصدر عنه تلك المعاني وهذا اللقط العذبُ اللذان فاقَ بهما كثيراً من أقرانه .

وعلى أن أبياته الذائعة الرقيقة التي تكشف عن عاطفة عذبةٍ وتدلُّه محبوب خير دليل على مقدرة الشاعر في هذا اللون .

---

(١) اللاذُ : ثيابٌ حريرية بيضاء .

أفديه إن حفظ الهوَى أو ضيعــــا ... ملكَ الفؤادَ فما عسَى أنْ أصنَعَـا
من لم يذُقْ ظُلْمَ الحبيب كظلْمـــه ... حُـلْواً فقد جهِـلَ المحبّة وادّعـا
يا أيها الوجه الجَميلُ تدَارك الصَبُّ ... النحيــلَ فقَد عفَـا وتضعضَعَــا
هـل في فـؤادِكَ رحمـةٌ لمتـيَّم ... ضمَّـتْ جوانِحُـه فؤاداً موجعَـا
هل من سبيل أن أبثَّ صَبـابتي ... أو اشـتكي بلْوايَ أو أتضرَّعــا
إنّي لاســتحيِّي كمـا عوَّدتــني ... بسوى رضـاك إليك أن أتشفَّعـا

وغزلُ ابن النبيه كله أو معظمه فيما اختار من شِعره في الديوان غزل أنثوي لا يصدم ذوقك ، ولا يجري فيه على عرف معاصريه من غرامهم بالغلمان .

ويمزج الغزل أحياناً بوصف الخمر كعادة كثير من شعراء العصر ، والمحدثين جميعاً كما قد يجمع الغزل ووصف الخمر والطبيعة فيجتمع في مقدماته ثلاثة العناصِر الممتعة للروح الجالبة للذة . فيقول :

طابَ الصبوحُ لنا فهـاتِ وهــاتِ ... واشــرب هنيئـاً يا أخـا اللَّــذاتِ
كَم ذا التواني والشـبابُ مطـــاوعٌ ... والدَّهــرُ ســمحٌ ، والحبيبُ مواتي
قم فاصطبحْ من شمسِ كأسِكَ واغتبقْ ... بكواكبِ طلعـتْ من الكاســاتِ
صَــفراءُ صَافيةٌ توقَّــدُ بَرْدُهــا ... فعجبــتُ للنــيرانِ في الجنَّــاتِ
ينسَــلُّ من قاد الظـروف حبابُهـا ... والدرُّ مجتلبٌ من الظلمـــاتِ
وتريكَ خيـط الصبــح مفتولاً إذا ... مَرقــتْ من الرَّاووق في الطَّاســاتِ
عذراءُ واقعها المزاجُ أما تــرى ... منديـل عُذْرتِها بكـفِّ سُـقَاةِ
يسـعَى بها عَبْلُ الروادفِ أهيـــفٌ ... خنـث الشـمائِل شـاطِرُ الحركـاتِ
يهوى فتسبقه ذوائِـبُ شـــعْرِهِ ... ملتفَّــةٌ كأســاوِد الحيَّـــاتِ
يدري منــازِلَ نيّراتِ كؤوسِـــه ... مـا بـين منصــرِفٍ وآخـرَ آتِ

فقد عمد ابن النبيه في هذه الصورة الخمرية إلى إيراد المتقابلات في الألفاظ والمعاني والتضاد في الألوان ليدعو إلى العجب ، أو يثير في النفس غرابة الجمع بين المتناقض ويعيد إليك لمحات من معاني شعراء الخمر ، لكنه يضفي على تلك المعاني ملامح ذاتية فانظر إلى قوله :

عــذراء واقعهـــا المــــزاج

وقد أضاف إليها هذا المعنى في الشطر الثاني الذي أحسبه جديداً لم يتردد فيما تقرأ من شعر الخمر .

وانظر إليه وقد التقط هذه الحركة الرشيقة للساقي أو الساقية ، وكيف وصفها فإنها تجمع بين الخنث والخفة ، وأن الشعر تسقط على الجبين إذا انحنى ليصب من إبريقه في الكأس .. صورة معجبة لا شك لولا أنه ثنّى عليها بهذا التشبيه التقليدي « أساود الحيات » في وصف تلك الذوائب ثم تعجّب منه كيف أعادَ تخليق الصورة القديمة للخمر وهي تتلألأ في الكؤوس وتتداولها الأيدي ، مشبَّهاً بالشهب ، النيّرات التي تمرق في السماء .

ويقول في قصيدة له معجبة بما وفَّر لها من جميل الصور وطريف الصياغة ورقة اللفظ ، ومختار المعين :

يا ساكِني السَّفح كم عينٍ بكُمْ سَفَحتْ ... نَزَحْتُمُ فهي بعد البُعْدِ قد نَزَحَتْ
لهْفى لظبية إنسٍ منكم نفرتْ ... لا ، بل هي الشَّمسُ زالتْ بعدما جنحتْ
بيضَاءُ حجَّبَها الواشونَ حين سَرَتْ ... عنّي ، فلو لمحتْ صِبْغَ الدُّجى لمَحتْ
يقتصُّ من وجنتيها لحظُ عاشِقِها ... إن ضَرَّجتْ قلبه باللَّحظ أو جرحتْ
من لِي بسَلْمٍ وفي أجفانِ مقلتها ... للحرب بيضٌ حِدادٌ قطُّ ما صفحتْ
يهتزُّ بين وشاحَيْها قضيبُ نقا ... حمائِمُ الحلْي في أفنانه صَدَحَتْ
واسْودُ الخالِ في مُحمرِّ وجْنتِها ... كمسكةٍ نَفحتْ في جمرةٍ لفَحَتْ
لها جُفونٌ وأعطافٌ عجبتُ لها ... بالسُّقْم صحَّتْ ، وبالسكر الشديد صَحتْ

وفي هذا المقطع من القصيدة ، يتغزل ، ويفتن في صور الغزل ، ويحاول أن يستدعي من محفوظه من الشعر القديم والمحدث ، مضيفاً إليه من ابتداعه بعض المعاني والصياغات ، ومن تأليفه من القديم بعضاً آخر . وتطرب للبيت الذي يقول فيه :

يهتز بين وشاحيها قضيب نقاً ... حمائمُ الحلي في أفنانه صدحت

لافتنانه في تركيب هذه الصور الجديدة من معان سابقة ، في مختار من اللفظ ، وتوفيق متقن في التركيب .

ونلاحظ كعادته الجمع بين الأضداد ، والولع بالمتقابلات ، مع توظيف لغيرها من أشكال البديع كالجناس ، غير مسرف فيه .

وينتقل الشاعر إلى وصف الروض :

وروضةٍ وجناتُ الوَرْدِ قد خجلتْ	فيها ضُحًى وعيونُ النَّرجسِ انفتحتْ
تشاجرَ الطَّيْرُ في أشجارها سحَراً	ومالَتْ القضْبُ للتعنيق فاصطلحتْ
والقطر قد رشَّ ثوبَ الدَّوح حين رأى	مجامِرَ الزَّهرِ من أذيالِه نَفَحتْ
باكرتُها وحمامُ الرَّوض نافرةً	عن البروج بكفِّ الصُّبْح إذ وضَحَتْ
ما بين غدرانِ ماءٍ كاللُّجين صَفَتْ	وأكؤسٍ كنُضارٍ ذائبٍ طفحتْ

وينتقل بعدها للخمر ومجلسها وساقيها .

وتلاحظ في انتقالات الشاعر من مقطع إلى آخر في قصيدته تمهيداً في اللفظ والمعنى ، ولا ينتقل فجاءة من النسيب الأول إلى وصف الروض ، ومن ثمَّ إلى مجلس الخمر والساقي بل يمهد ، فتراه متى أراد الانتقال من النسيب إلى وصف الروض ، مهَّد بقوله :

وروضة وجناتُ الوردِ قد خجلت	فيها ضحًى ، وعيون النرجس انفتحت

ومن قبله قال :

يهتز بين وشاحيها قضيبُ نقًا	حمائمُ الحلْي في أفنانه صدحت

وعند انتقاله إلى الخمر من الروض يقول :

ما بين غدران ماءٍ كاللجين صفت	وأكؤسٍ كنضار ذائب طَفَحتْ
بكرٌ إذا ابنُ سماءٍ مسَّها لبستْ	ثوبَ الحبابِ حيَاءً منهُ واتَّشحتْ
تشعشعتْ في يد الساقي وقد مزجت	كأنها بنصالِ الماءِ قد ذبحتْ
يسعى بها أهيفٌ خفتْ معاطِفُه	لكن روادفه من ثِقلها رجَحتْ

وتأمل كيف احتال على بيت حسان ابن ثابت :

إن التي ناوَلتنيها ..	قُتِلَتْ قُتِلتَ ، فهاتها لم تُقتَلِ

وأفتى الشعراء من بعده في هذا المعنى ، وجاء به ابن نباتة فجمع خُلاصَة ما صاغ السابقون وافتنوا في عرضه ليقول :

تشعشعت في يد الساقي وقد مزجت كأنها بنصالِ الماءِ قد قُتلت

وكثيراً ما يمزج ابن النبيه مقاطع النسيب ووصف الرياض ومجلس الخمر والغزل في الساقي معاً كأن يقول :

رُضابُك راحي ، آسُ صدغيك ريحاني شقيقي جَنَى خدَّيْك ، جيدكَ سَوْسَاني
وبين النَّقَا والبدْرِ تَهْتزُّ بَانةٌ لها ثمرٌ من جُلَّنارٍ ، ورُمَّانِ
غزالٌ رخِيمُ الدلِّ يُطْمِعُ أُنْسُهُ وما صِيدَ إلا في حبائِلِ أجفانِي
من التُّركِ في خَدَّيه للحسن جنَّةٌ بمالكها محروسةٌ ، لا برضوانِ
تظُنُّ رياضَ الخدِّ منهُ مباحةً وناظِرُهُ الناطورُ يَجْنِي على الجاني

ومن موضوعاته الحنين والشوق إلى وطنه مصر والفسطاط وأحبائه هناك . يقول :

إن عيناً منكمُ قد ظمِئتْ قد سقاها الدَّمْعُ حتى رَوِيتْ
آه من وجدٍ جديدٍ لم يَزَلْ وعظامٍ ناحلاتٍ بَلِيَتْ
أنا والأظعانُ من شوقٍ لكم نحوكم أعناقُنا قد حُنِيتْ
أنتمُ الأنجم مذ غُيِّبتُمُ بسوَى أنواركُم ما هُدِيَتْ
ساكني الفسطاط لو أبصرتُم جُلِيتْ مرآةُ عينٍ صَدِيتْ
أو أعاد الله شملي بِكُمُ سَعِدتْ آمالُ نفسٍ شقيتْ
إنَّ أرضاً أنتُمُ سُكَّانُها غَنِيَتْ عن أن أقولَ سُقِيَتْ
فوجوهٌ كرياضٍ أزْهَرَتْ ورياضٌ كوجُوهٍ جُلِيتْ
ليَ عُذْرٌ في النَّوى عن أرضِكُمْ فسقَتْهَا أدْمُعي إن رَضيتْ
إنما خدمةُ مُوسَى جنَّةٌ عِندَها أوطانُنا قد نسيتْ

أسلوبه ، صوره ، خيالاته

مر بنا في حديثنا عن موضوعات شعره كلام عن لفظه ، وصوره ومعانيه ، وبعض خيالاته .

وقاموس ابن النبيه اللفظي يجمع ماتداوله أمثاله من كتاب وشعراء العصر والعصر السابق ، وجملته من محفوظهم من القرآن الكريم ، وثقافتهم من محفوظ الشعر والأدب منثورة ، وأخباره ، ولهذا يجيء هذا القاموس خليطاً من لفظ الشعر القديم الجاهلي وصدر الإسلام ، والشعر المحدث من طبقة المولدين ، ومن تبعهم ، ولفظ القرآن الكريم ، وبعض لفظ صحيح الحديث ، ذلك كله إلى بعض ألفاظ الحضارة ، من فارسية وتركية ، إلى بعض مصطلح العلوم كالفلك والحديث وله في وصف الغناء والطرد . يقول[1] ويذكر مجلس خمر :

بحمرتهــا صــحَّ عنــد المجــوسِ ... أن الســجودَ إلى النــار واجــبْ
شــهدنا ومطربنــا خــاطــبٌ ... زواج ابنــة الكــرم بابن السـحائبْ

ويقول في غناء مغن اسمه محمد[2]

غنــاءُ الجمــالِ جمــالُ الغنـــاء ... ونغمتُــه نغمــةٌ مشـــامِلَهْ
تنفَّــسَ مثــل نســيم الصَّبَـــا ... فأغصــانُ جُلّاسِــهِ مائِلَـــةْ

وله في الصيد قصيدة جيدة في صورها وتعبيراتها

ووصف اقتحام الحصون ، وهو من المعاني الجديدة : قوله :

كأني بأبراجهـــا قـــد هـــوتْ[3] ... وصخـرَ المجانيـق فيهـا ضوارِبْ
وقــد زحــفَ البرجُ زحــفَ العرو ... سِ إليهــا يجرُّ ذيولَ الكتــائِبْ
فما لبسُــه غــير نســج الحــديد ... وما حلَيــه غير بيــضٍ قواضِـــبْ
وأضرمــت النــارُ حشــوَ الثقــوب ... وثــار الدخــانُ لجنــح الغياهِـــبْ

ومنها وصف خيمة الأشرف وقد تحلّت بمختلف التصاوير[4]:

يا مَــنْ حَلى الجنَّــةَ في خيمـــةٍ ... بوَّابُهــا المحســـنُ رضـــوانُ
الإنــس والوحــش قيــام بهـــا ... والطيــرُ أجنــاسٌ وألـــوانُ
يا ســيِّد الأمــلاكِ بــيِّن لنـــا ... أأنــت موســى أم سليمـــانُ

(١) الديوان ص ١٨٨ .
(٢) ديوانه ص ٢٩٨ .
(٣) يقصد القسطنطينة عاصمة الروم .
(٤) ديوانه ص ٣٠٠ .

قاموس لفظه :

وطبيعي أن يختار لكل موضوع ما يناسبه من اللفظ

ففي موضوع المديح للخليفة نجد ألفاظاً مثل :

بغداد ، مكة ، أحمد ، حجُّوا ، المناسك ، السجود ، وسجّد ، مذنبون ، أوزار ، تطهروا ، تهجدوا ، النبوة ، الوحي ، جبريل ، النجاة ، العلم ، هَدْي ، سدرة ، سُدَّة ، دست ، نبأ ، الله الكفور ، الملحد ، آدم ، الملائك ، الصراط المستقيم ، زلّ ، الجحيم ، الحوض ، الحمى ، المهدي ، إسلام ، الطور ، ربّه ، موسى ، المعراج ، يوسف ، عبر الرؤيا ، الغيب ، محمد صلى الله عليه وسلم ، دار السلام ، هاشم ، الدين ، الدنيا ، جود ، سبطٌ ، بأسٌ ، النعيم ، السرمد ، النقية ، تعبد ، رماح ، دم الوريد ، صفوف الجيوش ، زمر ، فيلق ، الرعب ، ينصر ، عزم ، لواء ، الخوارج ، القتام ، هارب ، مصفَّد ، الجياد ، طِرفٌ ، عصيان ، طاعة ، يشقى ، البحر ، الصلاة ، القرآن ، جبريل ، ميكال ، البطش ،

ويمكن أن نتمثل في هذا النموذج من قاموس لفظه في مدح الخليفة الناصر مستويات ثلاثةً للألفاظ وفقاً لما دار في المدح من المعاني ، فأمَّا أولاً فما يتعلق منه بالمعنى الديني للخلافة ، وتدور فيه ألفاظ مثل مكة ، وأحمد ، ومحمد ، وحجٍّ ، ومناسك ، وسجود ، ونجاة ، وهدْي ، وسدرة ، وحوض ، وكفور وملحد ، وملائك ، وطود ، وموسى ، ومعراج وهاشم .

وثانياً : ما يتعلق بالحكم ، والسلطة الزمنية ، ومايليق بهما من : بغداد ، سُدَّة ، دست ، صفوف الجيوش ، رماح ، لواء ، دم الوريد ، فيلق ، رعب ، ينصر ، عزم ، خوارج ، قتام ، هارب ، مصفد ، عصيان ، طاعة .

وثالثاً : مايتعلق بالخليفة إنساناً يتصف بالأخلاق المثلى التي تعارف عليها الناس من شجاعة وكرم وما إليهما وترد فيها ألفاظ مثل : بأس ، سبط ، تقية ، عزم ، بحرٌ ... إلخ .

ونجد هذا اللفظ بالضرورة يختلف في مضمونه الأول إذا ما مدح ملكاً أو سلطاناً آخر غير الخليفة ، ويكتفي عندئذ بأمثال ماجاء من اللفظ في ثانياً وثالثاً

إلا إذا كانت هناك خاصية بالممدوح تميزه عن غيره ، فتضاف بعض ألفاظ متصلة بتلك الميزة .

فهو في مديح الأشرف يذكر النصارى ، والكنائس ، والحصون والمجانيق ، وكسرى ، وذا القرنين ، والإسكندر ، والطود ، والعصا وفرعون ، والفرعنة إلى غير ذلك من الألفاظ المتصلة بالمعاني التي تمثلها في الأشرف باعتباره ملكاً أيوبياً جاهد الصليبيين ، وبعض أعدائه من العرب والمسلمين . واشتق من اسمه كما أشرنا ما يناسبه من اللفظ كما جاء في القرآن والحديث متصلاً بموسى النبي وبيوسف في جماله كما ترد في مديحه أسماء بعض من جاهدهم من الشعوب كالكرج – الأرمن – وأسماء المدن التي حاصرها كخلاط ، وميافارقين ، أو ما يرجو حصارها وأخذها كالقسطنطينية عاصمة الروم أعداء المسلمين .

وأما لفظه في الغزل والنسيب والوصف والخمريات ، فمعظمها من صافي اللفظ ، الجاري في مثل هذه المعاني عند المحدثين ، وقد خالطتها بالضرورة من ألفاظ التراث التقليدية نسبة قليلة أشرنا إلى بعضها ، كبعض لفظ الوقوف على الأطلال والرحلة ، وبعض لفظ النسيب والغزل من مثل : مهاة الرمل ، البُرى وادي العقيق ، وادي الغضا ، العذيب وبارق ، وقبا ... وأمثالها .

ونعثر ببعض ألفاظ الحضارة ، ومنها ما هو دخيل كأسماء القماش « اللاذ » وهو الحرير الأبيض والبللور ، والقطب والمدار ، وبعض أسماء النجوم كبهرام اسم المريخ ، وكيوان ، وشارات الملوك مثل الرَّنْكِ ، وبعض أسماء الملابس كالقندلس والشربوش غطاء الرأس في قوله :

ترى قُنْدسَ الشَّربوشِ فوق جبينهِ كأهدابِ أحداقٍ بُهتْنَ إلى البـدرِ

وبعض مصطلح التنجيم والطالع في قوله :

مث على جوِّ زَهْرِ الرأس عاشِـرهُ وبيـتُ أعدائـه في عُقـدة الذَّنـبَ

وبعض مصطلح العلوم كعلم الكيمياء في قوله :

صَحَّتْ له كيمياءُ الحمدِ إذْ سَبكتْ يُمناهُ للبذْلِ إكْسيراً من الذَّهَـبِ

تراكيبُـــــه :

يجري في تراكيبه سلاسةٌ ، وعذوبة وموسيقية ، وهي ما اصطلح نقادنا القدماء على تسميتها الماء والرونق والديباجة وما إلى ذلك ، على عكس كثير من معاصريه ممَّن تعاطوا الشعر ، وعرفوا بقوله ، ولم تكن لأشعارهم تلك الديباجة ، ولا جرى في أوصاله الماءُ والرونق ، فكان جافاً ، كالعودِ اليابس اصفرت أوراقُه ، ويَبِستْ أطرافه ، فلا هو لدن يهفو مع النسيم وإن دلَّ شكله على أنه عودٌ ، له الورق ، وعليه الزَّهَرْ .

فمن جميل التركيب الذي جمع فيه بين سلاسة الصياغة ، وبراعة الصورة قوله :

يهـتز بين وشاحيهـا قضيب نقـا ... حمائمُ الحلي في أفنانـه صدحـت

وقوله في وصف امتزاج ماء المطر بالخمر ، وظهور الحباب على الكأس من المزاج :

بكرٌ إذا ابن سماء مسَّهـا لبسـت ... ثوبَ الحباب حياءً منه واتَّشـحتْ

ثم نلاحظ في هذا التركيب تساوق أبنيه الكلمات ، وتناغم أجراس الحروف ويمزج في أبنيته بين الأساليب ، يراوح بينها .

وللشاعر قدرة في الجمـع بين معنيين في صورة تركيبية ، وقد أغرم بهذا التركيب غراماً واضحاً في صنعته كأن يقول (في وصف فتية من المماليك يصطادون بالنبال)[1]:

بنادقهم في عيـون القســيّ ... كأحداقهـم تحت قسـيّ الحواجب
فتلك لهـا طـائرٌ في السـماء ... وهـذى لها طائرُ القـلب واجـب

ونلاحظ كيف استخدم لفظ طائر في هذا الجناس للربط بين المعنيين .

ويوظف الجناس كثيراً في هذا الرباط ، كما يوظف غيره من فنون البديع كالطّباق في مثل قوله :

---

(١) ديوانه ص ١٩٠ .

يخيفُهم بأس برق الحديد ويطمعُهم سحُّ سحبِ المواهبْ

وفي قوله :[2]

وليٌّ بشعرٍ كالظَّلام إذا دجَا وأتى بوجهٍ كالصباح إذا وضَحْ

ونعجب بصنعة الشاعر في تعبيره المبدع بهذا التركيب الذي استخدم فيه الطباق والمقابلة في التعبير عن الساقي أو الساقية وقد ولت بشعرها المُنسَدل على رأسها وكتفيها ، فبدا كالليل وأقبلَ أو أقبلت بوجهها المضيء المشرق فكأنه الصباح بعد الظلام . هذا التقابل بين صورتي الساقي في الانصراف والإقبال ، والشعر والوجه ، والليل والنهار كلها اجتمعت في هذا النسق التعبيريّ الجميل .

ويدخل في تركيبه أو بنائه للبيت حسن استخدامه للقافية ، أي أن البيت منذ البداية يستهدف القافية ، وينساق إليها .

معانيـــه :

يجيد ابن النبيه توظيف بعض المعاني الدينية في شعره ، وتعجب أن يستخدم معنى الحدّ على الخمر في معنى غزليّ ، كأن يقول :

حَددْتُ لمى فيه ثمانين قُبْلةً لأنّي شممتُ الخمر من عنبريّهِ

يعبر عن معنى تقبيله مراراً .

وقد يهتدم المعاني القديمة ويعيد صياغتها حتى يلتبس على القارىء من مثل قوله :

تؤمُّ الجوارحُ أعلامه تروح بطاناً وتغدو سواغب
كأن السناجق أوكارها فكم عُصب فوق تلك العصائب

وقد تداول هذا المعنى كثير من الشعراء من الجاهلية كالنابغة ، وإلى المحدثين أمثال أبي نواس وأبي تمام والمتنبي .

(١) ديوانه ص ٢١٠ .

ويكثر من قاموسه الإسلامي في القرآن والحديث للتعبير عن بعض معانيه اقتباساً أو تضميناً أو إشارة كأن يقول :

إن جنحوا للسلم فاجنح لها   ما خُدعُ الحرب بتقصير

وكقوله في وصف ساقٍ :

ساقٍ سها رضوان عن حفظه   ففرَّ من جملةِ حُورِ الجنان

وكقوله في القاضي الفاضل ناظماً لإحدى سور القرآن : (المزّمل) .

مَسمَعٌ كلٌ عن كلام عَذُولي   حين ألقى عليه قولاً ثقيلاً
وفؤاد قد كان بين ضلوعي   أخذته الأحداث أخذاً وبيلاً

ولعله عمد إلى هذا اللون من نظم القرآن لولع رآه عند القاضي الفاضل به ولأنه ربما كان في بداياته الشعرية يروض نفسه على هذا اللون الذي شاع في عصره .

ومن معانيه القرآنية في مديح موسى الأشرف :

عليمٌ سهمٌ من الغيبِ صائبٌ   وما كلُّ موسى مستمدٌّ من الخضر

وفيه الإشارة إلى صحبة موسى النبي للعبد الصالح (الخضر) في سورة الكهف ، وتعلمه منه بعض ما خفي عنه من نبأ العلم .

ومن معانيه الإسلامية قوله في وقع السيوف على رءوس الأعداء :
صَلَّتْ ، وصَلَّتْ في رءوس العِدَى   كأنَّ في الآذان منها أذان

وكيف يدخل صنعة الجناس ويوظفها في سياق المعنى .

ويستغل معارف التاريخ الإسلامي في معانيه ، كوقعة صفين في قوله :

لو كان بَيْنَ يَدَيْ أعليّ منهم   صفٌّ لحاز النَّصْرَ في صفين

وحتى هنا لا يغفل الجناس بين صف الجند ، وصفين المعركة .

وتراه يستخدم معنى الركوع والسجود في تصوير حركة السيوف والرماح في المعركة فيقول :

إذا دَجا النَّقعُ وصَلَّتْ بـــه بيضٌ سجودٌ وقَنـاً رُكّـعُ

وقوله :

كم ركعةٍ لقنَاهُ في ثغرِ العِدَا ولِسَيْفِهِ في الهامِ من سَجداتِ

وقوله :

حَمَلتْ أنامِلُه السيوفَ فلم تَزَلْ شكراً لذلك سُجَّدًا أو رُكَّعا

ويركّب خيالاته وصوره من محصوله الشعري ، وجديد رؤيته ومحيطه الحسي والعصري ، وله في ذلك افتنان كقوله في صورة نهرٍ ألقى عليه الشجر بظلاله وقد انعكست أشعة الشمس :

والنهرُ خدٌّ بالشُّعاعِ مورَّدٌ قد دبَّ فيه عِذَارُ غُصْنِ البانِ

والماءُ في سوقِ الغصون خلاخِلٌ من فضَّةٍ ، والزَّهرُ كالتيجانِ

ويكرر المعنى مع بعض التصرف فيقول :

وألقَى الضُّحى في فضَّةِ النهر تبْرَهُ فأثْرى الثَّرى فالنَّوْر من عسجديِّهِ

هو السَّيفُ إن أصْدَاهُ ظِلُّ غصونهِ تولَّى شعاع الشمس صَقْلَ صديِّهِ

ويقول في جزء من المعنى :

وجَلتْ جبينَ النَّهرِ طُرَّةُ ظِلِّهِ مُذْ جعدتْهَا الريحُ فوقَ غصونهِ

وتختلف عناصر صوره باختلافِ موضوعاتها ، ففي الغزل والخمر ووصف الطبيعة تمتزج مفاتن النساء بصور الخمر ، وألوانها ، وكاساتها وحببها ، كذا تتشكل بعض صور المرأة بعناصر الطبيعة من شجر وأعواد ، ورمّان ، وزهر مختلف الألوان وقد يورد بعض عناصر أخرى خارج هذه الثلاثة ، كالقنا ، والسيوف ، وهي وإن بدت مناقضة ، إلّا أن قاموس الشعر العربي قد حفل بها ، فلم يعدل عن سنن الأقدمين ، وإن كانت أدوات القتال والقتل هذه تفقد كثيراً من قتامها ، وما تبعثه من نفرةٍ في سياق الصور الجميلة التي يسوقها الشعراء ، وهو من بينهم بالضرورة ، فتكاد تخرج العناصر القتالية من دلالاتها

المنفرة إلى دلالات محببة مستحسنة ، وذلك بعمل السياق العام ، والخطوط المحيطة والألوان الغالية على الصورة . يقول :

يخادعني الوردُ الجنيُّ وإنني ... بوجنةِ من أهواهُ قد حرتُ في أمري
ويبسمُ عن زهرِ الأقاح بنفسجٌ ... فألثمهُ شوقاً إلى لعس الثغرِ
وبي عاطرُ الأنفاسِ ينسبُ ظلمُه ... وناظِرُه الفتَّانُ للشحْرِ والسِّحرِ [١]

وقال من قصيدته المطربة المرقصة :

أماناً أيها القمرُ المطلُّ ... على جفنيك أسيافٌ تُسَلُّ
يزيد جمالُ وجهك كلَّ يوم ... ولي جسدٌ يذوبُ ويضمحلُّ
وما عرف السقامُ طريقَ جسمي ... ولكنْ دلَّ من أهوى يدُلُّ
يميلُ بطرفهِ التُّركيُّ عنِّي ... صدقتُمْ . إنَّ ضيقَ العينِ بُخْلُ
إذا نشرتْ ذوائِبهُ عليه ... ترى ماءً يرفُّ عليه ظِلُّ

أما ترى كيف ضاعت جهامة السيف ، وانحلَّت شدته في هذا السياق المطرب ؟! والإيقاع المرقص .

وفي الحرب والقتال تختلط صور الموت بصور المتعة والحياة ، ويرى الرماح تشتجر فوق الرءوس وكأنها الغابات لكثافتها ، ومن تحتها فتيان الأتراك في مغافرهم وعلى أفراسهم ، تتغنى سيوفهم ، وترنّ عندما تصطدم بخوذ الأعداء ، وهو يشتق من النجوم والشموس والأفلاك بعض عناصر صور القتال كما يشتق من الأرض والشجر والسباع والطير . وفي مطلع القصيدة يجمع بين لذة الحياة ولذة النصر ، فلا تكون لذة الحياة ولا المتعة بها إلا في ظل النصر . يقول :

للذةِ العيش والإفراح أوقاتُ ... فانشر لواءً له بالنَّصر عاداتُ
أمام جيشك أنَّى سارَ أربعةٌ ... نصلٌ ونصرٌ وآراءٌ وراياتُ
وتحت غيل القَنَا فرسانُ معركةٍ ... لها ثباتٌ دف الهيجاء وثْباتُ
أهلَّةٌ في سماءٍ من مغافرِها ... لها الترائِكُ أفلاكٌ وهالاتُ [١]
تهتز أعطافهم يوم الجلادِ إذا ... غنَّتْ لهم من بنات القين قيناتُ

---

(١) ديوانه ص ٢٢٨ والشحرُ ضربٌ من الريحان يشبه به ظلم الحبيب أي ريقه .
(١) الترائك جمع تريكة وهي البيضة أو الخوذة على الرأس .

صفـائحٌ هي إذ دبَّ الفرندُ بها — صحائِفٌ كتبــتْ فيها المنيَّاتُ
إن مسَّ شمسَ الضحى من لمعها رقد — كَحَلْتَها بالعجـاج الأعوجِيَّاتُ
أين المفر لسرب الروم من أسدٍ — ضارٍ له من رماح الخطِّ غابـاتُ
ومياط طورٌ ونار الحرب موقدةٌ — وأنت مُوسَى وهذا اليومُ ميقاتُ
أنت الصباحُ فمزّق ليل كفرهمُ — واصبر ورابط فللأعمال نيّـاتُ

موســـــيقـاه :

وتأليفه بين الحروف والكلمات فيما يختار من التراكيب تحدث إيقاعاً هادئاً لا صخب فيه ، تتناغم فيه أصوات الحروف مع إيقاع الأوزان وكلماته لا تحدث هذا الضجيج والصخب الذي قد تحسه في بعض الشعر ، وحتى في مواضع الضجيج كوصف المواقع ، أو الحماس ، والفخر ، وتسجيل الانتصارات لا تحس لشعره صخباً واضحاً .

وله صنعة موسيقية خفية داخل الأبيات بما يرصع به الكلام من جناسات ويلائم بين الأحرف المتشابهة ، والمتقاربة المخارجة ، ويخالف بينها وبين المتباعدة ويوفق بين الهامس والصائت حتى لا تشعر بأن فيما يقولَ ما تنفر منه الأذن فلا نشاز ، ولا ما يصدم السمع .

ويختار أوزانه وقوافيه ، ويعمد أحيانـاً إلى الأوزان السهلة الطّبعة وأحياناً إلى السريعة ، وأحياناً الهادئة ، وقد يأتي بمجزوءات ، وقد خرج عن أوزان الشعر وعمد إلى التوشيح في موشحة ، كما نظم زجلاً .

وقوافيه في معظمها طوعُ السياق إلا بعض أبيات تحسُّ بها باعتساف الشفافية ، وله من القوافي ما يقع في السمع مواقع معجبة إذا أنهاها ببعض الرويّ ذي الوقع الخاصّ ، كالياء المشدّدة المكسورة . أو الهاء اللينة الساكنة ، أو اللام الساكنة ، أو المشدّدة .

وقد مرت بنا نماذج من هذا كله فيما عرضنا من شعره .

علي بن ظافر الأزدي المصري
(٥٦٧ - ٦٢٣ هـ)

ولد علي بن ظافر بن الحسين الفقيه في سنة سبع وستين وخمسمائة من الهجرة ولقب بالفقيه لتوليه التدريس بمدرسة المالكية بالقاهرة بعد والده العالم الفقيه ظافر بن الحسين أحد فقهاء المصريين وعلمائهم في أخريات القرن السادس ، عاصر آخر الدولة الفاطمية وأول الدولة الأيوبية .

وتعلم عليٌّ على والده ، وأخذ عنه الفقه والأدب . قال ابن شاكر[1] : « وتفقه على والده » . وقال : « قرأ الأدب وبرع فيه ، وقرأ على والده الأصول ، وبرع في علم التاريخ ، وأخبار الملوك ، وحفظ من ذلك جملةً وافرة » .

ولعله بالضرورة جمع إلى هذا ما درج على تعلمه صبيان المسلمين ، وأبناء الطبقة المستنيرة خاصة من العلوم الإسلامية فحفظ القرآن ، وألم ببعض الحديث كما تعلم النحو واللغة والحساب .

ولعلَّ الفقيه والد عليٍّ كان يرسم له طريقاً في العلم ليخلفه فيه ، لكنَّ الفتى كانت تراود مخيلته أحلامٌ أخرى ، فقد رغب في الكتابة ، واللحاق بركب السلطان ليكون من جملة رجاله لعل الحظ أن يواتيه ، فيصبح من بعض المقربين وينال حظوة ترفع من درجته إلى الصحبة والوزارة .

وأخذ يعدُّ لهذا الأمر عدته ، فعمل على التعمق في درس الأدب ، والعناية بالشعر والشعراء خاصة . وأخذ في معالجة الكتابة والنظم ، وتقرب إلى القاضي الفاضل ، ولعلَّ الأدب كان وسيلته في القربى ، ولعل لوالده أيضاً نصيباً في تمهيد الطريق إلى رحاب القاضي الفاضل ، وكان آنذاك قد لمع اسمه في بداية تملك صلاح الدين للسلطة ومن قبل لم يك خاملاً ، بل كان مذكوراً بين كتاب الخليفة الفاطمي ، ومعروفاً من جلة أصحاب القلم في ديوان الرسائل أو الإنشاء .

ولقى من الفاضل ترحيباً ، وتشجيعاً حين عرض عليه بعض نظمه ونثره ، وما دبجه قلمه أو جادت به قريحته واختطه يراعه . ويحكى لنا عن بعض ذلك فيقول[1] : « كنت فى صدر عمرى وبدء أمرى نشطت لجمع أخبار الشعراء فى البدائة والارتجال ومحاسن أشعارهم فى مضايق الإسراع والإعجال . وسجّعت حكايات لم يرقّصها فى الطرس بنان ، ولم يطمثها قبلى إنسٌ ولا جان ، فأوقفت عليها صدر ذلك الزمان ، وسيد فضلاء ذلك الأوان السيّد الأجلّ الفاضل أبا على عبد الرحيم بن الحسن البيسانىّ ، رحمه الله تعالى ، فحثنى على الازدياد منها ، والتطلب لها والبحث »[2] .

ويبدو أن القاضى الفاضل أعجب بعلى ، فشجعه على الأدب والكتابة ، والتأليف ، فكان أن ألف الشابُّ الأديب الشاعر له أول كتاب له فيما يبدو « وهو بدائع البدائة » . قال على بن ظافر : « فاجتمع لى من ذلك – أخبار الشعراء وبدائههم – جزءٌ أحكمت ترتيبه ، وهديت تبويبه ، وسميته بدائع البدائة ، ورتبت الأخبار فى كل باب منه على ترتيب الأعصار .. فلما رأى ما اجتمع منه سُرَّ به واغتبط ، واكرم نزلته فاغتبط ، وشرفنى على صغر سنىّ ونضارة غصنى بأن انتسخَهُ لخزانته ، وحباهُ بحفظه وصيانته » .

ويغلب أن يكون ذلك قد حدث قبل عام ٥٨٣ هـ أو ٥٨٤ هـ لأن ابن ظافر يذكر أنه قدم فى تلك السنة أو بعدها بقليل كتابه « غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات » إلى الملك الأفضل على بن صلاح الدين وكان صحبة والده على عكا لحرب الصليبيين .

وإذا تحقق هذا الفرض كانت سنّه عند تأليف كتاب البدائة لم تتجاوز العشرين من السنين وهذه سنّ مبكرة للتأليف ، وعليه كذلك يكون ابن ظافر قد صحب جماعة من شعراء مصر وقال الشعر ، وأجاز ، وتنقل مع من صحبهم فيما روى فى البدائة فى بعض بلاد مصر والقاهرة ومنازهها وهو لم يتجاوز العشرين من عمره .

---

(١) راجع مقدمة عجائب التشبيهات ص ٨ .

(٢) من مقدمة بدائع البدائة تحقيق أبو الفضل إبراهيم ص ٤ .

ولكن كتاب « البدائة » مع ذلك يحوى أخباراً عن أحداث ولقاءات تمت بعد هذا التاريخ بكثير وفى حدود أعوام ٦٠٣ حيث صحب الملك الأشرف موسى ببلاد المشرق بميافارقين(١) .

ويذكر فى البدائة أنه خرج للقاء الفاضل ، فلقى الأسعد بن مماتى بن الخطير الشاعر والكاتب المشهور ، ومن أصحاب الفاضل ، وأجازه فى شعر ، وأنه لقى كذلك ابن سناء الملك ، وابن قلاقس .

ويروى فى البدائة عن جماعة من علماء العصر كالفقيه أبى محمد عبد الخالق المكىّ السكندرى والحافظ المحدث أبى الخطّاب عمر بن الحسن بن وجيه الكلبى الذى ولاه الملك الكامل بن العادل تدريس الحديث بالكاملية . ولعل ذلك كان بعد عودته من المشرق .

ومجمل القول أن مابين أيدينا من « بدائع البدائة » ليست النسخة التى قدمها للقاضى الفاضل وهو شابٌ فى مقتبل العمر ، بل إنه عاد إلى نسخة البدائع فأعاد فيها النظر ، وأضاف إلى منقوله ، ومحصوله بعض تجارب عمره فيما قضى من حياته بمصر والشام وبلاد المشرق . فقد أشار إلى ذلك بقوله :

« ولم يزل ذلك الجزء عنّى منسىَّ الذكر ، وعندى خامل القدر حتى مثلتُ بالجناب العالى الملكى الأشرفى – أعز الله سلطانه – فى سنة ثلاث وستمائة ، وذلك قبل أن أتمسك بحبله ، وآوى إلى ظله ، فجرى فى مجلسه ذكرُ هذا الجزء ، فحسن من خاطرِه موضعه وجلَّ عنده موقعه ، فرسم لى بنقله .

وقد كنت زمن فتوتى جمعتُ أخباراً كثيرة قارب حجم الجزء الأول مجموعها ، وفاق على كثير منه مسموعها ، فجمعتُ شمل الطَّارِفِ بالتليد والقديم بالجديد ، وأنفذت به إليه وأوفدته عليه .

ثم إننى بعد ذلك التقطت فرائد لم تظفر بمثلها الأسماط ، ووشائع لم تفز بشبهها الأسقاط ، وبدائع لم يلقْ بقدرها الإغفال ، وغرائب لم يجز بجمعها الإهمال ، فدعتنى النفس الطموح إلى أن أنثر ذلك النظام ، وأهصر ذلك القوام ، وأضم شمل هذه الفرائد الجنية القطاف ، المقومة الثقاف إلى تلك

(١) بدائع البدائة ص ٧٦ .

الفرائد المنتظمة العقود ، المنمنمة البرود . وجعلت أفكر فى ضعف الغرائز البشرية ، والجبلات الإنسانية ، ورغبتها أبداً فى الزيادة وحرصها على بلوغ الغاية ، واغتباطها بالشيء حتى اذا حصلته وظفرت به ، وأنشبت مخالبها فيه مالت إلى الملل ، وخلقت لسآمته العلل ، وطلبت ما يرتفع عنه ، وسخطت ما كانت رضيته منه . ونفسى تهوّن خطب التنقل ، وصعب التبدُّل والتحول ، وترغب فى تتميم الناقص وجمع المتفرق ، وضمّ المنتشر المتبدد ، وتقول : لابد لكل ثانية من ثالثة ، وتعد بأنها لا تعود فى عقد هذه العزيمة نافثة ، وتنشد قول القائل :

ولرُبّما نثر الجمانُ تعمُّدًا ليعودَ أحسنَ فى النظام وأجملا

وتقيم العُذر بأن تلك النسخة وقعت بين سمع الأرض وبصرها ، حيث لم يوقف على أثرها ولم يسمع بخبرها ، وضاعت بين الباب والطاق ولم تظفر بقبول ولا نفاق . ولو كانت حصلت فى الخزائن المولوية السلطانية الملكية الكاملية الناصرية - شرّفها الله - لتوشحت صدور مجالسه بعقودها ، وتَزَيَّنَتْ معاطف مذاكرته ببرودها ، ولدَارَت كؤوسها ، وجُليت عروسُها ولأشرقت زواهرها وعبقت أزاهرها ، ولسارت شواردها ، وطارت أوابدها ، كيف لا ، والفضل بمجلسه قد طنّب خيامه وشقّ كامه ، وأسكب غمامه » .

ثم أشار إلى أنه أعاد جمع الكتاب وتأليفه ليقدمه بهذه الصورة التى انتهى إليها إلى الملك الكامل ابن العادل ونائبه أو ولى عهده على مصر ، ولابد أن يكون ذلك قبل وفاة العادل وسلطنة الكامل على مصر وبعض بلاد الشام ، أى قبل عام ٦١٥ هـ .

وهكذا فإن كتابه « البدائة » يعد مرجعاً هاماً لحياته فى مراحلها المختلفة ، وهو يحوى كثيراً من أخباره وأشعاره ، فضلاً عن نثره ونقده .

ومن خلال هذا الكتاب نعرف أنه عمل مع القاضى بعد أن اتصلت به أسبابه وقدم له كتابه فى تلك السنّ المبكرة ، ولعل الفاضل نفسه هو الذى دفع به إلى مجلس السلطان صلاح الدين وابنه الملك الأفضل على الذى كان والياً على دمشق من قبل والده السلطان . وأشار فى مقدمة كتاب « غرائب

التنبيهات » إلى أنه جمع هذا الكتاب وقدمه إلى الأفضل على وصلاح الدين فى حصار عكا التى احتلها الفرنج الصليبيون فى عام ٥٨٧ هـ بعد قتال شديد ، وحصار صمد فيه المسلمون داخِلها بمعاضدة من صلاح الدين وجيشه خارجها[١] .

يقول ابن ظافر فى غرائب التنبيهات[٢] :

« لم أزل فى كل زمانٍ وأوان أسمع من أوصاف المآثر الملكية الأفضلية ، والمناقب النورية السلطانية ، ما تتأرج بذكره المحاضر ، ويفتتن به البادى والحاضر ، وأشاهد من آثاره ماتثنى عليه الخناصر ، ويعجب من صدوره من شخص تألفت عِليه العناصر ، فأكاد أطير إلى تلك الحضرة من الشوق ، ويهمُّ عمرو للتَّوْقِ أن يشبَّ عن الطوق حتى اتفق لى أن مَثُلْتُ بالحضرة الناصرية[٣] ، خلَّد الله لمالكها المُلْكَ ، وملّكهُ الخُلْد ، وأمدَّهُ العلوّ ، وأعلى له الأمر ، لعزمة كانت من مهماتِ القلب أمضاها ، وحاجة فى نفس يعقوب قضاها ، فحللت بمقامه الأسمى مادحاً ، ونزلْتُ على دوحة فضله الباسقةِ صادِحَا . فرأيت مجداً تقصر دونه مدى بلاغتى النظم والإنشاء ، وجوداً خضرما لا يحتاج وارده إلى تطويل الرشاء ، وحلماً لا تجلجله رياح الغضب ، وعزماً لا تدّعيه على صولتها القُضُبْ ، فاخضرت لما حللتُ بجنابِه سِنِيّ الغُبْر ، ولمَّا التقينَا صَدَّق الخبَر الخبْرُ ، وأهديتُ إلى جنابه الأسْمَى – نصرَ الله عِزَّه وأعزَ نصره ، وقدَّر علوّه وأعلى قدره – تُحفَ مدائحى الغُرَّ ، وقصائدى المزريةَ ببهجة الزَّهْرِ . وغمرتْ النجومَ الزُّهَرَ، وخدمتُ مقامَهُ بهذا الكتاب الذى ما أظنُّ قريحة أتت بمثاله فيما سلف من الزمنْ ، ولا أظنُّ أن أحداً يجمع مثله فيما بعد . وأين من بعد أن قدمتُ قبله هذه القصيدة ، وأودعتها نوعاً من جنس ما أودعتُه فيه من غريب التشبيه ، ورفعتها صحبتُه يوم الأحد لخمسٍ خلونَ من شهر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة بالعسكر المنصور على تلْ الحجل (لعلها تل العجولْ) بمرج عكا . وهى فى صفة العسكر :

---

(١) راجع الكامل لابن الأثير جـ ١٠ فى تلك السنة .

(٢) غرائب التنبيهات ص ١ طبع دار المعارف من سلسلة الذخائر (٤٥) .

(٣) حضرة الناصر صلاح الدين .

طربتُ إلى المعسكرِ بالشآمِ ومَشْيِي بين أطنابِ الخِيامِ
لدى بيضٍ قوادمهنّ تَهْفُو تلوحُ لناظِرِى مثلَ الحمامِ
كأنَّ الأرضَ أُدحيٌّ إذا ما حَلت بخيامها بيض النعامِ
ولاحت خيمة السلطان فيها بحُمْرتها كبرقٍ فى غمامِ
حكتْ وسطى من الياقوتِ لمَّا بَدتْ مثل اللآلىء فى انتظامِ
وتحكى ربوةً سُتِرت بنبت الشـ ـقائق حين لاح من الكُمَامِ
عَجبتُ لها ترى الآساد تبدى الـ خُضُوعَ بها لوافِرةِ السَّنامِ
إذَا اصطفتْ ظباءُ التُّركِ فيها جَفوْتَ لِحُسنِهم كلَّ الأنامِ
وإنْ شبَّهْتَ مالِكها بليثٍ عجبتَ لأنس غزلان قيامِ
وكم بدرٍ بأفقِ قباه يسرى يُجَرّرُ ذَيل شعرٍ كالظلامَ
ويَطْعَنُ كلَّ قلبٍ من هواهُ سنانٌ جاء من رمح القوامِ

* * *

وإن جاءَ القتالُ رأيت يومَ الـ ـرُّكوب من الأعاجيب العظامِ
فكم شمسٍ تجرُّ هِلالَ قوسٍ فترسلُ محرقاً شُهْبَ السهامِ
وكم فى النقع ظبيٍ فوقَ طِرفٍ كبدْرٍ فوقَ برقٍ فى ظلامِ

* * *

وصوتُ الكوسِ لا تَنْساهُ رعدٌ له قطرٌ من النشَّاب هَامِى
ويقطَعُ مرْجَ عَكّا كلُّ طلْب كرضوى حين يُطلُعُ أو شمامِ
ويبدو المرجُ والراياتُ صفرٌ تُحاكى لونَه غبَّ الغمامِ
ترى حمْرَ البيارق فيه تُبْدى عَجَاجاً كالدخانِ على الضرامِ
وإن صفرٌ بدتْ لك فى عجاجٍ رأيت التبر يسكنُ فى الرَّغامِ
ووقت الزحفِ تنظُرُ كلَّ ليثٍ لَدَيْهِ سيفُهُ كالناب دامِى
إذا ما قالَ قد حطَّمْتُ ألفاً فإنَّ القول ما قالت حَذَامِ

* * *

وعكّا قد بدتْ بكراً شموساً تَسُدُّ ففتْحُها صَعبُ المرامِ
وخندقُ عسكرِ الإفرنجِ يحْكِي عليه الخيلُ دُراً فى نظامِ

* * *

وخيلُ الشركِ تركضُ خلفَه في ... ذُيولِ خيامهنَّ على الدوامِ
يُثِرنَ إذا ركضْنَ عليه نَقْعاً ... بلا فعلٍ حكى سُحْبَ الجهامِ
وكم مُسْتأمِنٍ قد فرَّ مِنْهُمْ ... لأجْلِ الجوع أو طول المقَامِ
وكم من فارس منهم قتيلاً ... ولا قَبْرُ له غيرُ القَتامِ
إذا قصَّفُ الرماح عليه لاحتْ ... بدا مثل الحريص على الحُطامِ

وينتهى فيها إلى مديح الأفضل ، والسؤال بالقصيدة والكتاب ، فيقول :

وقدْ سيَّرتُ نحوك بنتَ فكرى ... عروساً ما تُزَفُّ إلى اللئامِ
لقد وشَّحْتُها بحُلى المعانى ... كما ألبستُها حُلَلَ الكلام
وقد أتبعتها أيضاً كتاباً ... بعثتُ به إلى الهِمَمِ السَّوَامِى
أنى ليسوقَ لى سحبَ العَطَايا ... كفِعْلِ الرّيح بالغَيْثِ الرّهامِ

ويقول فى خطبة الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم . عونَك اللهمَّ .

أما بعدُ . حمداً لله العزيز القهَّار ، عالم خفايا الأسرار ، وبوادى الأجْهار ، المنزَّهِ غيبُه عن الإشهارِ والإظهار ، مقدّرِ كل ما يحدث فى سوادِ الليل وبياض النَّهار ، المتكفلِ للإسلام بأعلى المنار ، المؤلِّف بين قلوب أهلِه ، فأصبحوا بنعمته إخوانا بعد أن كانوا على شفا جُرُفٍ من النار .

والصلاة والسلام على محمد نبيه وعبده ، وعلى أصحابه الذين هم أفضل الخلق من بعده .. فإن الأرض لما أخذت زخرفها وازَّينتْ ، وظهرت علامات سعدها وتبيَّنَتْ ، وتسلَّمتْ من الخطوب كتابَ أمانها ، وعاد ربيعاً كلُّ زمانِها ، وتحلَّتْ بعقود من جواهر زهرها النضر ، وطال عمرُ ربيعها الخضِر ، وأصبحت لأهلها بعد أن طالت شراستُها ، ولانت لأربابها لمَّا حَسُنَتْ سياستها ، ووصلت لأرباب الفضائِل وكانت هجرَتْ ، وهبَّ عليهم نسيمُ أصائِلها بعد أن هجرت ، ويَسُرتْ عليهم أمورهم وكانت عَسُرَتْ . وأطلَقتهُمْ من وثاق الفقر بعد أن قسرت وأسرت ، وجبرتهم من صدع النَّوائِب حين حطمت وكسرت ، وسكنت عنهم بحار الخطوب بعد أن طَمتْ ، وأوقفت دونهم رياح الفِتن بعد أن حطمت . وعادت محجتها بيضاء من الحق وكانت سوداء من الباطل ، وأوفت أهل الفضل ديونهم ، وكم أوفت على الغرير المماطل

بما شملها من أيام مولانا السلطان العادل الملك الناصر ، صلاح الدنيا والدين ، منقذ بيت الله المقدَّس من الكفرة المشركين ، أبى المظفر يوسف بن أيوب ، محيى دولة أمير المؤمنين الذى ملكها فماجار ، بل عدل ، وسلكها فما حاد عن طريق الحقّ ولا عدل . وأثارت رياح عزائمه سحاب جودِه ، وسرت الدنيا وسائِرُ أهلها بوجوده ، وأحيى طلل المجد بعد أن كان داثراً وشعر بفضله فأضحى بسيفه ورمحه للبرود والرءوس من الكُماةِ ناظماً وناثِراً . ونجله الملك الأفضلُ العالمُ العادلُ ، المجاهِدُ ، المرابِطُ ، المؤيَّدُ ، المظفَّرُ ، نور الدنيا والدين ، سُلطانُ الإسلام والمسلمين ، محيى العدلِ فى العالمين ، منصف المظلوم من الظالمين ، قامع الكفرةِ والمشركين ، قاهرِ الخوارج والمتمردين ، قسيم الدولةِ ، فخر الأمةِ ، مجير المِلّة . ناصرِ أمير المؤمنين ، الذى سرت مآثره شُهبًا فى ظلماتِ الخطوب ، وظهرت مكارِمه بشْراً فى وجه الزمان بعد كثرة القطوب . وأدْلَجَتْ بناتُ الأفكار فى ليل الغرائب إليه ، فحمدتْ عند الصباح وجه السُّرَى ، وأقسم الزمان بأنَّ نظير مجده مارآه ، ولا يُرى :

وإذا نظَرت إليه قُلْتَ كـأنَّه بَـدْرُ الدُّجى إن لاحَ أو ليثُ الشَّرى

فلله هو من مَلكٍ ما أوسع صدره وأفسحه ، وأعذب لفظهُ وأفصحه ، وأمنع جاهَهُ وأحصَنه ، وأجمل أدبه وأحسنه ، وأسحَّ جوده وأمْطَره ، وأطيب ذكره وأعطره . إن ذكرت الكرم فهو أوْسُهُ وحاتِمهُ ، وإن ذكرت المجد فهو فاتحه وخاتِمُه ، أو وُصِفَ البأسُ فعنترةُ فيه خادِمُه . قد اختالت به الأندية والمحافِلُ ، وزهت به الكتائبُ والجحافِلُ ، وازدانتْ به الطّروسُ والأقلام ، وارتاحت لهُ البنودُ والأعلام . فوجب على من شمِلتْهُ حاشيتا دولته وضمنه حُسْنُ إيالته أن يبذل جهده فى الخدمة بما يصلُ بقدرته إليه ، ويرجو به حسن الزُّلفى لديه .

ولما كان المملوك ممن يَشرُفُ بوطء البساط الكريم ويُمَيَّزُ بانتسابه إلى المقام العظيم تأكَّد الوجوب عليه فى توالى ما يخدم به خِدمةٍ ، وتعين له ذلك لأن يلتحق بمن اشتهر بأولويته فى الخدمة ، وقدمِهِ ، فنظر فيما يخدم به الجنابَ الأسمى – زاده الله سمُّواً وعُلُواً – فوجد فنَّ التشبيه بين الأشعار عالى القدرِ ،

نابه الذكرِ ، لا يمكن جُلَّ الناس سلوك جادَّته ، ولا يقدرُ إلا اليسير منهم على إجادته ، حتى استهولَهُ أكثرُ الشعراء واستصعبهُ ، وأبى بعضهم أن يجهد بأن يروض مُصَعَبه . وقالوا : إذا قال الشاعر « كأنَّ » فقد ظهر فضله أو جهله ، ولم يجد أحداً من المؤلفين اشتغل بتمييز ذهبه عن مدَرِه ، ولا خاض فى بحاره لاستخراج دُرَرِهْ ، ولا انتقى خلاصة من خَبَثِهِ ، ولا فصَلَ جدَّهُ من عبثِه ، فاختار هذا الموضوع – شهد الله – من أكثر من خمس عشرة ألف ورقة ، وجمع فيها جملاً من غرائب أبياته ، ومعجزاتِ آياته ، ليكون أنْساً للمجلس الأسمى فى هذا الوقت وأمثاله ، وطليعةً لما بعدهُ مما يرد عليه الأمرُ باقتفاء مثاله . واختصره غاية الاختصار ، واقتصر على المحاسن أشد الاقتصار ، لمعرفته باشتغال المجلس الأسمى بتدبير الكتائب ، وتجهيز العساكر والمقانب ، وحسن القيام بإيالة الخلائق ، وتعلقه من أمر الحروب بأشدّ العلائقِ .

والمملوك يستعين بالله تعالى ويسأله أن يَرزُقَهَ من المجلسِ موافقة الغرض ، ويقويه من الخدمة على أداء المفترض » .

فهذه القصيدة المنظومة ، والمقدمة المنثورة على ما بينهما من تفاوت فى الصنعة يدلان على تمكنه فى الترسّل دون النظم ، ولعلَّ قريحته فى الشعر آنذاك لم تتوقد ، ولعلها نضجت بعد ذلك وصقلتها التجارب . ويمكننا أن نلاحظ هاهنا تمثّل الكاتب الشاعر لفن القاضى الفاضل ، وتتبعه لخطى صنعته ، فهو يحاول تقليده والأخذ بأسباب من بيانه ، ولا نعدو الحق أن قلنا إنه من مدرسته ومن المعجبين بكتابته ، فهو فى هذه المرحلة من حياته ، لا يستطيع الفكاك من مداره ، وقد كان الفاضل يستقطب كثيرين من ناشئة الكتَّاب ، فيوليهم رعايته ، ويقدم لهم كل عون ويمدهم بمدد من بيانه .

ولم يخرج على بن ظافر عن تأثير القاضى الفاضل طوال هذه المرحلة التى لازم فيها السلطان صلاح الدين فى حياته ، لما كان للقاضى الفاضل من مكانة كبيرة عند السلطان حتى أنابه عن كثير من أعماله ، وأوكل إليه فى مصر رعاية مصالحه ، وتأديب ولده ، والقيام على أمورهم فى غيبته .

وبعد وفاة صلاح الدين ، وتفرّد العزيز عثمان بحكم مصر مدة قصيرة من

بعده لم يبتعد على بن ظافر عن السلطان العزيز ، وأتيحت له فرصة التعرف على وزيره ومعلمه الجديد ابن المجاور . وكان عالماً فقيهاً أديباً مؤدباً . اختاره السلطان صلاح الدين لتأديب ولده عثمان ، فقامت بينهما علاقة قُربى ومحبة ، فلما آل الأمر إلى العزيز عثمان جعل ابن المجاور مستشاراً ووزيراً . وصارت له الكلمة النافذة فى دولته .

وربما تولى بعض المناصب فى ديوان الرسائل أو غيره . قال ابن شاكر[1] : وترسل إلى الديوان العزيز .

وكان اتصاله بابن المجاور[2] أو بابن اخته فى حدود عشر السنوات الأخيرة من القرن السابع أو قبلها بقليل . وكان ابن المجاور على علاقة طيبة بالقاضى الفاضل يذهب اليه أحياناً ليتدارسا الأدب وليتناشدا الشعر على ما روى ابن ظافر فى البدائة[3] .

وجمعت صداقة حميمةٌ بين شهاب الدين يعقوب ابن اخت الوزير نجم الدين ابن المجاور إلى على بن ظافر ، وكان شهاب الدين هذا شاعراً كخاله الوزير ، وكان من جملة شعراء مصر آنذاك ممن جمعتهم صحبة الفاضل وتلامذته أمثال ابن قلاقس والأسعد بن مماتى ، وابن سناء الملك .

ويروى ابن ظافر كثيراً من أخباره مع شهاب الدين أنه صحبه فى زيارة إلى القدس[4] . فسافرا إليه من مصر قال : « واتفقت لى وللقاضى الأجلّ شهاب الدين يعقوب سفرةٌ إلى بيت المقدس للتبرك بما هناك من البقاع المقدسة والمشاهد المعظمة ، وأجداث الأنبياء المباركة الطيبة ، فلما جدَّ بنا المسيرُ ، وسَهُلَ من فراق الأهل والأوطانِ العسير ، وقطعت المطايا بنا الرُّبا والوهاد ، ولم يُسْمَعْ إلا هيد وهاد ، صنع الشهاب :

---

(١) فوات الوفيات ٣ / ٢٦ .

(٢) ترجم له ابن سعيد فى الغصون اليانعة ص ١٩ من سلسلة ذخائر العرب طبع دار المعارف بالقاهرة . وهو أبو الفتح نجم الدين يوسف بن المجاور توفى سنة ٦٠٠ هـ أو سنة ٦٠١ هـ .

(٣) راجع بدائع البدائة ص ٢٧٦ ، ٢٧٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٤١ .

يارُبَّ سيرٍ كالشهاب المحْرِق
قدحْتُه من زنْدِ عُودٍ أوْرَق
يسير فى الخرْق مَسيرَ الأخْرَق
فهل رأت عيناك عَدْوَ النِّقْنَق
حتى إذا ما افترَّ ثغر المشرق

ثم استجازنى فقلت :

ولاحَ فى الجوّ احمرارُ الشفَق
كالخمْر صُبَّتْ فى زجاج أزرقِ
بدا على الآل قطارُ الأيْنُقُ
كمثلِ سطرٍ فى بياض مُهْرَقِ
أو كالمَدَارِى فى مَشيب المفْرِق
كم بازلٍ فى بحره كالزَّوْرَقِ
أو كهلالٍ مشرقٍ فى زِبْرَق

وحضر هو وشهاب الدين هذا عرس أحد أمراء مماليك الأيوبيين وأنشدا شعراً فيما شاهداه . قال ابن ظافر[1] : « ولما أعرس ابن الأمير إياس المصرى الأسدى – نسبة إلى الأسدية مماليك أسد الدين شيركوه – بابنه الأمير سيف الدين أيادكوخ مقدم الأسدية احتفل الأمراء والأجناد وبلغوا فى الحشد غاية الاجتهاد ، وأبرزوا من ضروب آلات الحرب ما يفوق الوصف ويروق الطرف . وظهرت من مُرْدِ المماليك بدور فى سماء الغُبار ، وغصون من زُغْفِهم[2] فى غدران ، ومن سيوفهم بين أنهار . يسبون النواظِر بالقُدودِ النَّواضير ، ويستملكون الخواطر بالثغور العواطِر . فكانت أوقات ذلك الزفاف مشهورة مشهودة ، وأيامه فى أيام الأعياد المعدومة النظير معدودة . فخرجت أنا والشهاب لننظر ذلك الاحتشاد ، ونتأمل تلك الظباء الظاهرة بزىّ الآساد . فقال :

(١) بدائع البداءة ٢٠٨ .
(٢) الزغف الدروع .

نَقَّبُوا بالغبارِ وجْه ذُكاءِ ثم نابوا عن حسنِها بالبهاءِ

فقلتُ :

فأرونا من سِحْرِ أعينهم مِنْـ ـهُمْ شموساً للنَّقْعِ فى ظَلْماءِ

فقال :

طاوَلُوا بالنَّقا السماءَ اقتداراً وتبدَّا من زُغْفِهِمْ فى سماءِ

فقلتُ:

كلُّ بدرٍ يسيرُ تحت ثُريَّا مِغْفَرٍ خَلْفَ كوكبِ السَّمْراءِ

فقال :

ملَّ سكنى البروج فاعتاض عنها بسروجٍ على متونِ ظِباءِ

فقلتُ :

ما تَثَنَّى فى الدِّرعِ إلا أرانا غُصُناً مائِساً بِجَدولِ ماءِ »

وذهب مع الشهاب إلى الاسكندرية صحبة السلطان العزيز عثمان ، وزارا قبر صديقهما الأديب الأعز بن المؤيد[1] . قال ابن ظافر[2] : « واتفق يوماً وقد اجتمعنا بثغر الاسكندرية أيام حلول السلطان الملك العزيز به إلى جزيرة الثغر لزيارة قبر أخينا الأعزّ بن المؤيد – رحمه الله – وقد كان توفى أُغبطَ ما يكون بالحياة ، وأيأسَ ما كان من الوفاةِ ، وغصن شبابه رطيب والزمانُ بالثناءِ على فضله الخطير خطيب . فلما حللنا بفناءِ قبره ، وأرسلنا سيل المدامع لذكره . قال الشهاب :

أيا قبر الأعزّ سقيت غيثاً كجودِ يَدَيْه أو دمْعي عليهِ

وقلتُ :

وحَلَّت جَانبيْكَ مروجُ زَهرٍ تحاكي طيب أوقاتي لَدْيهِ

فقال الشهاب :

لفقد إخائه الصافى وداداً ودِدْتَ الموتَ من شوقٍ إليه

(١) سيرد الحديث عنه بعد قليل .

(٢) بدائع البداءة ص ٢١١ / ص ١١٧ .

وكثيراً ماكان ينشده شهاب الدين هذا شعراً له ، أو يطلب هو أن يصنع له شعراً أو غير ذلك مما يجرى بين الأصحاب من الشعراء .

وكان ثالث الأصدقاء الأعز بن المؤيد[1] ، وكانت تربطهما به صداقة وطيدة ، وكان وطن الأعز الاسكندرية ، لكنه كان يتردد على القاهرة فيلتقى بصاحبيه ، ويسافر الصديقان ، على بن ظافر وشهاب الدين يعقوب إلى الاسكندرية للقاء صديقهما وسواءً أكانا فى القاهرة أم الفسطاط أو الاسكندرية ، فإن الثلاثة كانوا ينعمون بقضاء أوقات سعيدة بين الرياض ، أو فى منازه القاهرة أو الفسطاط أو الاسكندرية أو فى أحد جوامع هذه البلاد ومعهم جمع من الأصدقاء يتبادلون السمر ، ويتناشدون الشعر .

قال ابن ظافر[2] : « بتنا ليلة على المقياس عند مبالغة النيل فى نقصه واحتراقه ، وانفراجه عما لم يَزَل مستوراً من أرضه وانفراقه ، والمراكب قد انتظمت فى لَبَّتِه ، وركدتْ بالإرساءِ فوق لجته ، وأحاطت به إحاطة المحيط بنقطتِه ، وسفهاء الرياح تعبث بها حتى كادت تذهب بوقارها ، وأجسادها قد لبستْ لفقد الماء حدادَ قارها ، وهى فى أوكارها ، من المراسى مزمومة ، وأجنحةُ قلوعها لعارض الليل مضمومة ، فقلتُ بديها :

أوَماترى المقياسَ قد حُفَّتْ به ... ســودُ المراكب فوق ظهر اللجَّةِ
يســمو وقد حُفَّتْ به كقلادةٍ ... سبجيَّةٍ فى لَبَّــةٍ فضِّيَّــةِ

واستجزتُ القاضى الأعزَّ بن المؤيد - رحمه الله - فقال :

وكأنه حصنٌ عليه عسكرٌ ... للزَّنج لفَّ بُنودَهُ للحمْلةِ

وقال : « مضيتُ أنا وشهاب الدين المقدم ذكره ، والقاضى الأعزّ بن المؤيد - رحمه الله - فى جماعة من أصحابنا إلى الدير المعروف بالقصير[3] ، إيثاراً لنظر تلك الآثار ، فلما تنزهنا فى حسن منظره ، وقضينا الوطر من نظره ، تعاطينا القول فيه جرياً على عادة الخلفاء والبلغاء ، وظرفاء الأدباء ،

(١) ذكر اسمه « ابن أبي الحسن علي بن المؤيد » ص ٢٤٥ .
(٢) بدائع البداثة ص ١٢٢ .
(٣) دير مشهور كان أحد منازه مصر والفسطاط وكان يقصده علية القوم ، والشعراء للنزهة . ذكره المقريزى وكثيرون وراجع بدائع البداثة ص ٢٢٧ .

ومجّانِ الشعراء ، الذين نبذوا الوقار بالعراء ، فقطعُوا طريقَ الأعمار بطروق الأغمار ، وضيَّعوا العِينَ والعقَار ، فى تحصيل العين والعُقار ؛ فقال الشهاب :

سَقى الله يومى بدير القصيرِ قصيرَ العزالي طويلَ الذيُولْ
مَحَلٌ إذا لاح لى لم أُقِفْ بصحبى على حوملٍ والدَّخولْ

فقلتُ :

فكم فيه من قمرٍ فى دُجىً على غُصنٍ فى كثيبٍ مَهيلْ
بلحظٍ صحيحٍ وطرفٍ سقيم ورُوحٍ خفيفٍ وردْفٍ ثقيلْ

فقال الأعز :

قطعتُ به العيشَ مع فتيةٍ صِباحِ الوجوهِ كرامِ الأصُولْ
بكلِّ كريمٍ قصيرِ المرا ءِ ، حَازَ المعالِى بباعٍ طويلْ

فقال الشهاب :

إذا فمُه سَلَّ سيفَ المَدامْ فكمْ من سَليبٍ وكم مِنْ قتيلْ

فقال الأعزّ :

وكم من خليعٍ كريم الفعالْ يجدِّدُ بالجودِ غيظَ البخيلْ

فقلتُ :

نوافيه ذا ذهبٍ جامدٍ فيفنيه فى ذائبٍ للشَّمُولْ

وقال علىٌّ بن ظافر[1] : « وجلسنا يوماً فى روضٍ قد ماسَتْ قدودُه واخضرَّت برودُه وخجلَ وَرْدُهُ من عيون نرجسِهِ ، فاحمرَّتْ خدودُه ، والرَّوضُ يهدِى إلى الآفاقِ طيِّبَ عرفِه ، والنسيم يركضُ فى ميادين الأزهار بطرفِهِ فقلتُ :

بعث النسيم إلى الرياضِ رَسُولا يوحِى إليه بُكرةً وأصيلا

فقال الأعز :

يدْعو إلى شرب المُدَامِ فليتنى كُنتُ اتخذْتُ مع الرسولِ سَبيلا

---

(١) بدائع ٢٢٩ .

فقال الشهاب :

يا ويلتا ذهبَ الشباب فليتنى لم اتخذْ فيه العفافَ خليلاً

وقال مرة أخرى[٢] وقد مرَّ مع ابن المؤيد أبى الحسن : وذلك أنا مررنا فى عشية على بستانٍ مجاور للنيل ، فرأينا فيه بئراً عليها دولابان يتجاذبان ، وقد دارت عليهما أفلاكهما بنجوم القواديس ، ولعبتْ بقلوب ناظريهما لعبَ الأمانىّ بالمفاليس ، وهما يئنَّان أنينَ أهل الأشواق ، ويفيضان ماءً أغزر من دموع العشاق ، والروضُ قد جلا للأعين زبرجَدَهُ ، والأصيلُ قد راقه حسنُه فنثر عليه عسجدَه . والزهرُ قد نظمَ جواهِرهُ فى أجياد الغصون ، والسواقى قد أزَالَتْ من سلاسل قضبانها كلَّ مصون ، والنبتُ قد اخضرَّ شاربُه وعارضُه ، وطِرفُ النسيم قد ركضهُ فى ميادين الزهر راكضهُ ، ورضابُ الماءِ قد استتر من الظلِّ فى لمى ، وحيَّاتُ المجارى حائرةٌ تخافُ من زمرُّد النباتِ أن يدركها العَمَى ، والنَّهرُ قد صقل صيقلُ النسيم درعه ، وزعفرانُ العشىِّ قد ألقى فى ذيل الجوّ رَدْعه ، فاستحوذ علينا ذلك الموضع استحواذاً ، وملأ أبصارنا حسناً ، وقلوبنا التذاذاً ، وملنا إلى الدولابين شاكين ، أزَمَرا حين سجعتْ قيان الطير ، وشَدَتْ على عيدانها ؟! ، أم ذكرا أيام نَعِما وطَابَا ، إذ كانا أغصانا رِطابا ، فنفيا عنهما لذّة الهجوع ، ورجَّعَا النَّوح وأفاضا الدموع طلباً للرجوع . وجلسنا نتذاكرُ مافى تركيب الدواليب من الأعاجيب . وتناشدنا ما وصفت به من الأشعار ، الغالية الأسعار ، فأفضى بنا الحديث الذى هو شجون - إلى ذكر الأعمى التطيلى ، وقوله فى أسَدٍ نحاس يقذفُ الماء :

أسَـدٌ ولـو أنـىّ أنـا قِشـهُ الحسابَ لقُلتُ صَخْـرةْ
فكـأنّـهُ أسـدُ السَّمـا ءِ يمجُّ من فيـه المجرَّةْ

فقال لى - رحمه الله - : يتولد من هذا معنى فى الدُّولاب يأخذ بمجامع المسَامِع ، ويُطربُ الرَّائي والسامع ، فتأملْته ، فمُلئتُ إطراباً ، وأوسِعْتُ إغراباً . وأخذ كلٌّ منا ينظم ما جاشَ به غمرُ بحرِه ، وأنبأه به شيطان فكرِه ،

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٥ .

فلم يكن إلا كنقْرِ العصفور ، الخائف من الناطور ، حتى كمل ما أردناه ، من غير أن يقف أحدٌ منّا على ما صنعه الآخر . فكان الذى قال :

حبّذا ساعةُ المجرَّةِ والدُّو … لابِ يُهْـدِى إلى النُّفوسِ مَسرَّهْ
أدهـمٌ لا يـزالُ يَعـدُو ولـكِنْ … ليسَ يعـدُو مكانَه قدرَ ذرَّهْ
ذو عيـون من القَواديس تُبدى … كـلُّ عين من فائِضِ الماءِ عَبْرَهْ
فَلَـكٌ دائـرٌ يُرِينَـا نجومـاً … كـل نجـمٍ منها يرينَا المجرَّهْ

وكان الذى قلتُ :

ودُولابٍ يَئِـنُّ أنيـنَ ثَكْـلَى … ولا فَقْـداً شـكاهُ ولا مَضَـرَّهْ
تَرى الأزهـارَ فى ضـحكٍ إذا ما … بـكى بدُمُـوع عـينٍ منه ثَـرَّهْ
حـكى فلكاً تَدُورُ به نجـومٌ … تؤثّـر فى سـرائِرِنا المسـرَّهْ
يظـلُّ النَّجـمُ يغْربُ بعد نجـمٍ … ويَطلُعُ بعد مـا تجرِى المجرَّهْ

فعَجبنَا من اتفقانا ، وقضى العجبُ منا سائر رفاقنا[1] .

واتصلت صحبة على بن ظافر فى مجالس القاضى الفاضل بالشاعرين الكبيرين ، والعلمين المشهورين فى هذا العصر ، وهما الأسعد بن مماتى ، وابن سناء الملك . وروى عنهما فى البدائع أشياء ، فمما قاله ورواه عن ابن مماتى :

قال[2] : وأخبرنى القاضى أبو المكارم أسعد بن الخطير المقدم ذكره ، قال اجتمعت مع الوجيه على بن الذروى رضى الله عنه ، ومعنا رجل سيء الخلق كثير الضجر والحنق ، ذو صدر يضيق عن مثقال الذرة ، ويتسع عنه اتساع الأفق لسّم الإبرة ، فترافدنا فى ذّمه » .

وقال[3]: « اتفق أن خرجنا للقاءِ القاضى الفاضل ، فرأيت فى الموكب - يعنى موكب القاضى - رجلاً أسود اللون ، وعليه جبة حمراء ، فأنكرتُه ولم أعرفه . ولقيت القاضى الأسعد أبا المكارم أسعد بن الخطير (أطال الله

---

(١) بدائع البدائه ص ٢٤٧ .
(٢) بدائع البدائه ص ١٩٨ .
(٣) بدائع ١١٦ .

بقاءه) . فقلت له : من هذا الأسود الذى كأنه فحمة فى دم حِجامة ؟ .

فقال لى :

كأنَّه ناظِرُ طَرْفٍ أَرْمدِ

فقلت :

يصلحُ أن يكون قبله : « وأسودٍ فى ثوبِه المورَّدِ »

وبعـــدَهُ :

أو مثل خالٍ فوق خدٍّ أَمْـردِ

ثم لقيت بعد ذلك القاضى السَّعيد ابن سناء الملك – رحمه الله تعالى – فأنشدتُه أيامما ، وكتمته الأول وقلت : قد صنعتُ لهما أولاً ، فاصنع أنت أيضاً . وقصدت بذلك اختبار القافية وتمكنها إذ كل خاطر إنما يبادر إليها فقال :

وأســودُ فى مَلْبَسٍ مــورَّدِ

فعجبت من توارد الخاطرين ، لمَّا كانت القافية متمكنة غير مستدعاةٍ ولا مجتلبة ، إلا أن قوله « فى ملبسٍ » أحسنُ من قولى : « فى ثوبه » .

والتقىْ بالأسعد بمعسكر السلطان المنصور العادل أبى بكر بن أيوب عند بلبيس قبل الجفوة التى حدثت بين ابن مماتى والصفى بن شكر وزير العادل ، ومفارقته مصر إلى حلب قال على بن ظافر[1] : « حضرنا يوماً عند الصاحب الصفى بن شكر بمعسكر المنصور على بلبيس عند بروز السلطان لسفرته الثانية – حين حوصرت دمشق الحصار الثانى – فى خيمته بمجلس حفل ، لم يعدم فيه أحد من مشايخ الدولة ووجُوهِهَا ، وهم إذ ذاك متوفرون ، لم ينقص لهم عدد ، ولا فقد منهم أحد . فأنشدنى ابن أبى حفصة قصيدة عاتبته فى بعض أبياتها وارتقى الأمر إلى أن قال أسعد بن الخطير – رحمه الله تعالى – إن هاهنا جماعة كلهم يقول الشعر ، فلو اقترح عليهم أن يصنعوا شيئاً فى بعض ما يقع تعيين الصاحب عليه ، لبان الجرىء الجنان من العاجز الجبان . وفى جملة من

---

(١) البدائه ٣٦٨ .

معنا فى المجلس ممن يقول الشعر : ابن سناء الملك ، والأسعد أبو القاسم عبد الرحيم بن شيث . فاقترح الصاحب أن نعمل فى منجنيق الشمعة . وكان الهواء عاصفاً . فقلت :

أرى شمعةً ضمَّها المنجنيق ... فجاءتْكَ بالمنظر الأعجب

يجول عليها احمرار الغشاءِ ... كما جالَ برقٌ على كوكب

وتبعنى ابن شيث فقال :

وشمْعةٍ فى المنجنيـ ... ـيق ، وهى فيه تشرقُ

كأنها من تحتِه ... شمسٌ علاها شَفَقُ

ولم يفتح على أحد بكلمة . »

وكان عبد الرحيم بن شيث وقتها ناظراً للقدس الشريف فى دولة الملك العادل وابنه الكامل ، وظلّ على بن ظافر - فيما يبدو - بعد وفاة العزيز ملتحقاً بديوان الرسائل فى سلطنة العادل ودخل فى خدمة الوزير الصاحب صفى الدين ابن شكر ، ولزم خدمة العادل وابن شكر ، وبعث به العادل فى سفارة إلى ولده الملك الأشرف موسى فى بلاد المشرق وربما كان ذلك فى سنوات ٦٠١ ، ٦٠٢ هـ - وكانت بعثته إلى المشرق سنة ٦٠٣ هـ .

ويشير ابن ظافر إلى صحبته للعادل وابن شكر وزيره أكثر من مرة ، فقد صحبه إلى الاسكندرية وأنشد بين يديه شعراً[١] . قال : « كنت فى خدمة مولانا الملك العادل خلد الله ملكه بالاسكندرية سنة إحدى وستمائة مع من ضمتّه حاشيةُ العسكر المنصور من الكتاب . ودخلت سنة اثنتين ونحن مقيمون بالخدمة ، مرتضعون لأفاويق النعمة ، فحضرت مع من حضر للهناء من الفقهاء والعلماء ، والمشايخ والكبراء ، وجماعة الديوان والأمراء . فى يوم من أيام الجلوس للأحكام ، والعرض لطوائفِ الأجناد بالتمام . فلم يبق أحد من أهل البلد ، ولا من العسكر إلا حضر مهنئاً ، ومثل شاكراً وداعياً .

ويعود مرة أخرى فيقول إنه وفد على الملك الأشرف موسى وهو على

(١) بدائع البداية ٤٣١ .

ميافارقين ، وذهب إلى الرها والأشرف موسى بها سنة ٦٠٣ هـ يحمل رسالة من العادل أبيه . وذكر ذلك ، فقال[1] : « وكنتُ عند المولى الملك الأشرف - أبقاه الله تعالى - فى سنة ثلاثٍ وستمائة بالرُّها ، وقد وردتُ إليه فى رسالة ، فجعلنى بين سمعه وبصره ، وأنزلنى فى بعض دورِه بالقلعة ، بحيث يقربُ عليه حضورى فى وقت طلبتى ، أو إرادة الحديث معى ، فلم أشعر فى بعض الليالى - وأنا نائمٌ فى فراشى - إلاَّ وهو قائمٌ على رأسى والسكرُ قد غلبَ عليه ، والشموع تزهو بين يديه ، وقد حفَّتْ به مماليكُه ، كأنهم الأقمارُ الزّواهِر ، فى ملابس كرياضٍ ذاتِ أزاهِر . فقُمتُ مُروَّعاً ، فأمسَكنِى ، وبَادَر بالجلوسِ إلى جانبى ، ومنعنى من القيام عن الوساد وأبدى من جميله ما أبدلنى بالنّفاق بعد الكساد ؛ ثم قال : غلبنى الشوقُ إليك ، ولم أُرِدْ بإزعاجِك التثقيل عليك ، ثم استدعى من بمجلسه من المغنين فحضروا ، وأخذوا من الغناءِ فيما يملأُ المسامع التذاذاً ، ويجعل القلوبَ من الوجد جُذاذا . وكان له فى ذلك الوقت مملوكان ، هما نُيرا سماءِ ملكِه ، وواسِطتا درِّ سِلكه ، وقطبا فلَكِ طربِه وزهوِه ، ورُكنا بيت سرورِه ولهوِه . وكانا يتناوبان فى خدمتِه ، فحضر أحدهما فى تلك الليلة ، وغاب الآخر . وكان كثيراً ما يداعبنى فى شأنهما ، ويستدعى مِنىِّ القول فيهما ، والكلام فى التفضيل بينهما ، فصنعتُ فى الوقت :

يا مالِكاً لم يَحْـكِ سيرتَهُ	ماضٍ ولا آتٍ من البشـرِ
اجمع لنا - تفديك أنْفُسُـنَا	فى الليـلِ بين الشمس والقَمرِ

فطربَ ، وأمر فى الحال باستدعاء الغائب منهما ، فحضرَ والنومُ قد زادَ أجفانَهُ تفتيرا ، ومعاطِفه تكسيرا ، فقلتُ بين يديه بديهاً فى صفة المجلس :

سَقَى الله عصراً قد مَضَـى لى	بأكناف الرُّهَـا صَوْبَ الغمامِ
وليـلاً باتـتْ الأنوارُ فيـه	تُعـاونُ فى مدافعةِ الظَّلامِ
فنـورٌ من شمـوعٍ أو ندامَى	ونورٌ من سُقاةٍ أو مُـدامِ
يطوف بأنجـم الكاساتِ فيـهِ	سُقاةٌ مثل أقمـارِ التَّمامِ
تريكَ به الكئُوسُ جمودَ ماءٍ	فتحسبُ راحها ذَوبَ الضِّرامِ

(١) بدائع البدائه ص ٣٢٥ / ٣٢٦ .

يميلُ به غصوناً من قدودٍ ... غناءٌ مثلُ أصواتِ الحمامِ
فكم من موصليٌّ فيه يَشْدُو ... فَيُنسِي النفسَ عَادِيَةَ الحِمامِ
وكم من زُلْزلٍ للضَّرب فيه ... وكم للزَّمْرِ فيه من زَنَامِ
لدى موسى بن أيوب المَرَجَّى ... إذا ما ضنّ غيثٌ بانسجام
ومنْ كمظَفَّرِ الدينِ المليكِ الـ ... أجلِّ الأشرفِ الندب الهمامِ
فما شمسٌ تقاسُ إلى نجومٍ ... تُحاكِي قدرَهُ بينَ الكرامِ
فدامَ مخلَّداً فى الملكِ يَبقَى ... إذا ما ضَنَّ دَهْرٌ بالدَّوامِ

فلما أنشدتُها قام ، فوضَع فَرَّجيَّةً من خاص ملابِسه كانت عليه على كتفِي ، ووضع شربوسَه بيدِهِ على رأسِ مملوكٍ صغير كان لى . »

وقال فى لقاءٍ آخر بعد ذلك بمدينة الموصل[1] :

ومررتُ أيضاً عليه ، وقد أنفَذنِي السلطانُ – خَلَّد الله تعالى ملكه – فى رسالة إلى الموصل فى سنةِ سبعٍ وستمائة ، فلما عُدتُ أمسكنى عنده نحو شهر بالرُّها ، وجرت لى عنده بَدائِعُ كثيرة ، من جملتها أنه غُنِّيَ بين يديه بشعر أعجمى ليس على أوزان العروض ، فأعجبه واقترح على أن أصنع له على وزنه ليُغَنَّى له به ما يفهمه ، وأرسَلَ إلىَّ بذلك ، فعملتُ فى الوقت بالمعنى الذى اقترحه :

ما لـذَّةُ المعنَّى ... إلاَّ مُدَامتُـه
ووصلُ من عليـه ... قـامتْ قيـامتُـه
ظبـىٌ صَـريعُـهُ[2] ... ما تُرْجى سلامَتُهُ
والٍ على غرامى ... دامتْ ولَا يتُـهُ
كالسـيف مقلتـاهُ ... كالرُّمـح قامتـهُ
كالبـدر وجهـه ... والأصـداغ هالتـهُ
كالغصن حين تزهو ... بـه غـلالتُـه
كالليث حين تبدو ... عليـه لامتُـه
وليس مثل قلبى ... تخشـى سآمتُـه

(1) بدائع البدائه ص ٣٢٦ .
(2) لعلها « مصرّعه » حتى يستقيم الوزن .

إن الوفاءَ منه والصّبرَ عادتُه
ولائمي عليه بائتٌ لآمتُه
كالريح لم تؤثر عندى ملامتُه
فقم أدِرْ شراباً لذّتْ مرارتُه
قد جلّتْ الليالى عنّا إنارتُه
فما السرور عندى إلا إدارتُه

وانفذته إليه وهو فى مجلس أنسه مع مملوك لى للوقت ، فعاد مخلوعاً عليه خلعةً خاصة » .

وهكذا طاب مقام على بن ظافر فى رحاب الملك الأشرف زمناً وتولى له بعض الأمور وقدم له كتاباً – وفى مقدمة البدائة[1] يقول إنه قدم له صورة من الكتاب وهى فى هذه السفرة من الملك العادل صاحب مصر وقبل أن يلحق بخدمة الأشرف التى تمت بعد ذلك فى سنة ٦٠٨ هـ . وكان ذلك بمدينة نصيبين . قال على بن ظافر[1] :

واتفق أن مضى السلطان الملك الأشرف – أبقاه الله – فى أوائل خدمتى له وأواخر سنة ثمانٍ وستمائة إلى مدينة نصيبين ، وضرب خيمته على تلّ بين بساتينها يعرفُ بتلّ أبى نواس ، وهو تل مشرفٌ فى غاية العلو ، مستدير الشكل أحسن استدارة ، قد استقبل جريَةَ نهر الهرماس ، حتى إذا وصل النهرُ إليه تفرق حواليه ، وتلوّى تلوّى الحيات من جانبيه ، والبساتين محيطة به قد ملأت أكثر مرمى البصر ، وهو فى نفسه قد تأزّر بالأعشاب ، واكتسى بغرائب الأزهار ، التى أدناها شقائق النعمان ، وباسم الأقحوان . وكنت أنا مقيماً بالبلد – نصيبين – لتدبير أحوالها ، وتزجية وجوه أموالها ، وأنا أتكرر إليه ، وإنما نقطع المسافة إلى الخيام فى جنّاتٍ ذات أنهار ، وظلالٍ تمنع الحرور ، وتأذن للنسيم والأنوار ، فعنّ لى أن قلتُ فى بعض خرجاتنا ونحن سائرون على دوابنا :

---

(١) بدائع البداهة ص ٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٩ .

إجلس بتلّ أبى نواسٍ   ما بين باطيةٍ وكاسٍ
وابْتغْ ســروراً باعــه   مِنْكَ الزمانُ بلا مَكاسٍ
فى ظلّ غيثٍ ذى ارتجا   زٍ بالرّواعِدِ وارتجاسٍ »

ويبدو أن صديقه وزميله فى ديوان الرسائل لزمه فى صحبته للملك الأشرف ، فقد ذكر أنه كان رفيقاً له فى معسكر الأشرف بنصيبين . قال[1] : واستدعَيْتُ من شهاب الدين – المذكور – المساعدة يُسَايُرنى ، فقال :

تَـلٌّ تطلّع مُشْرِفــاً   بينَ المزارع والغِـراسِ
بالنهـر مُنتطِــقٌ على   زهـرٍ كموْشِىِّ اللّبـاس
من قاسَ ربْوة جِلَّقٍ   بذراهُ أخطأ فى القياسِ

فقلـتُ :

أضَربتَهُ بعصـاك يــا   مُوسَى فأصبَح ذا انبجاس
فالماءُ يَفْرى المحل ســ   ـيفٌ منه مكفُوفُ الدّياسِ
والقصْبُ أمثــال القَنَـا   والوَردُ أمثالُ التّراسِ »

قال[1] : ثم شغلنا بالوصول ، واستدعانى السلطانُ فدخلتُ إليه ، فعمل الشهاب تمامها ، – أى الأبيات التى ابتدأها – وأنا عنده ، وكتبها على هذه الصورة وأنفذها إلىَّ » .

وظلَّ علىُّ بن ظافر صحبة الملك الأشرف منذ عام ٦٠٨ هـ يتنقل معه فى بلاد المشرق التى يليها ، ومعه بعض الشعراء والكتاب المصريين كابن النبيه ، وشهاب الدين يعقوب واجتمع مرة بمدينة رأس العين ببعض الشعراء والأدباء هناك . يقول :[2] « حضر عندى ، وأنا برأس العين فى خدمة الملك الأشرف – أدام الله أيامه – الأديب الموفق علىُّ بن محمد البغدادى الساكنُ بها ، والفقيه بهاءُ الدين بن كساء الشاعران ، وعندنا رجلٌ يعرف بالضياء ابن الزرَّاد – مصرى معروف ، وكانوا يمجنون » .

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٠٩ .

(٢) بدائع البدائه ص ١٠٣ .

وقال[1] :

« كان يصحبنى وأنا فى خدمة الأشرف - أبقاه الله - رجل كاتبٌ حسنُ الخط من أهل العلم والخبرة ، هاجر إلى دمشق ، يقال له جمال الدين على بن أبى طالب . فلما ما رأيت ماعليه الأحوال من الاختلال ، وقويت فى نفسى شهوة الانفصال ، كنت ليلى ونهارى مكباً على الدُّعاء بتسهيل ذلك وتعجيله ، وتيسير ما أرجوه منه . وأقمت على هذا مدة طويلة ، بحيث كان الأمر مشهوراً عند كلّ أحد من الحاشية ، فأخبرنى أنه بات مشغول القلب بما يسمعه منى فى ذلك ؛ فرأى كأنه فى جامع دمشق تحت النسر وإلى جانبه شيخ ، وكأنهم ينتظرون الصلاة ، وإذا برجل شاب قد أقبل من الباب الغربى ، فقال له الشاب : يا أبا العباس أجزْ :

إن ابن ظَافِرٍ سوف يظــ ـفرُ بالذى يرجوهُ عـاجِلْ

فقـال :

ظفــرتْ عــداه بخيــبةٍ وغــدا لما قد شاء نائِلْ

فسررت بذلك ، فلم يكن شىءٌ أسرع من عود الملك الأشرف - أبقاه الله من دمشق ، وانفصالى من خدمته على الوجه الجميل ، وكان ذلك والله أعظم ظفرٍ وأرفق قدّر ، ولو لم يكن فيه إلا الرجوع إلى الباب الذى منه درجت ، وفى خدمته تخرجت ، والوطن الذى هو أول أرض مسّ ثراها جلدى ، وعُلّقت فيه تمائمى » .

فقد انفصل إذا على بعد هذا الزمن الذى قضاه مع الأشرف ، وبعد أن شعر بأنه ضاق من كيد بعض الأعداء وتقلب الأحوال بالملك الأشرف وحدوث أحداث بينه وبين أخيه الكامل ، وأخيه وابن أخيه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الناصر داود بن الملك عيسى . وانتقل الملك الأشرف بعدها من ملكه فى المشرق إلى دمشق تحت ضغط أخيه السلطان الكامل صاحب مصر ، واستولى الكامل على الممالك الشرقية .

(١) المصدر نفسه ص ١٠٤ .

وربما كان هذا الانفصال فى حدود سنوات تلك المحن بين ورثة العادل بعد وفاته سنة ٦١٥ هـ ، وربما قبل ذلك .

وهكذا عاد ابن ظافر إلى مصر مرةً أخرى بعد هذه الجولة والحياة فى بلاد المشرق والشام ما يقرب من سبعة أعوام . عاد كما قال إلى بلاط الملك الكامل أو إلى الباب الذى منه درج . وهو ديوان السلطنة بمصر ، فالتحق بخدمة السلطان الكامل ، وعاود حياته بمصر ، وكان يجتمع بصحابته ، ورفاقه ، وكبار رجال الدولة مثل كاتب الدست الشريف القاضى الموفق بهاء الدين أبى على الديباجى[1] . قال ابن شاكر فى ترجمته[2] :

« ولى وزارة الملك الأشرف ، ثم انصرف عنه ، ودخل مصر وولى وكالة بيت المال مدة » .

وقال ابن شاكر : « ومع تعلقه بالدنيا له ميل كثيرٌ إلى أهل الآخرة ، محبٌّ لأهل الدين والصلاح » .

وظل فى مصر والقاهرة يجمع بين الحياتين ، حياة الدنيا واللهو والمتعة ، وحياة الآخرة فى العبادة ، وارتياد المساجد ومجالس العلماء والأفاضل من الفقهاء والقضاة ، وكانت صحبته تجمع أحياناً بين هؤلاء وهؤلاء .

ويكون الاجتماع أحياناً فى أحد مساجد القاهرة بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط وأحياناً بالجامع الأنور بالقاهرة أو بأحد المساجد الأخرى . يقول[3] :

« واتفق إنشاد بعض القطع فى بعض الليالى بالجامع لجماعة من أصحابنا ، فيهم ابن الذروى . قال[4] : وفى هذه الليلة أمطرت السماءُ مطراً خفيفاً صقلَ رخام الصحن حتى لمع وجهُه ، وتعارضت أشعة القناديل عليه فتعاطينا وصفه ، فصنعت :

---

(١) بدائع البدائه ص ١٥٤ .

(٢) فوات الوفيات ٣ / ٢٧ بتحقيق إحسان عباس .

(٣) بدائع البدائه ص ٢٢٦ .

(٤) بدائع البدائه ص ١٨٧ .

أنظر إلى حسن القناديل التى لاحتْ كشهبٍ فى متون سماءِ
والصَّحنُ قد أبدى شهابَ شعاعِه إذْ صارَ مصقولاً بمرِّ الماءِ
فكأنما هى أسطرٌ من عسجدٍ كُتبتْ بظهرِ صحيفةٍ بيضاءِ

ثم صنع ابن الذروى :

أيا حسنَ جامع مصرٍ وقدْ تروَّى من الوابلِ المُغْدِقِ
وضوءُ القناديل من فوقهِ كأسطُرِ تبرٍ على مُهرَقِ

وقال[1] : « ووجدت يوماً بالجامع الأنور بالقاهرة لانتظار الجمعة ، وكان يجلسُ بالقرب من مكاننا صبيٌّ ، نهبَ وجهُهُ وشعرُه من البدرِ نورَه ، ومن الليل ديجُورَه ، واغتصب طرفُه وعطفُه من الظَّبيِ كحلَهُ ، ومن الغُصنِ تميُّله ، ينعتُ بالشمس ، فتأخر حضوره يوماً فتعاطينا القول فى غيبته ، فقلتُ :

أفدى الذى غاب فغابَ السرور

فقال الشهاب (يعقوب) :

واتسع الهمُّ بضيق الصدورْ

فقلتُ :

وأظلمَ الأنورُ من بَعْدِه

فقال الشهاب :

وليس بعد الشمس للأفق نوْر »

وكثيراً ما كان يجتمع وأصحابه بالجامع العتيق عمرو بن العاص فى ليالى رمضان[2] .

ويبدو أن على بن ظافر كان يسكن مصر ، إذ ذكر فى موضع من البدائة أنه كان عائداً من القاهرة إلى الفسطاط (مصر) مع صديقه السكندرىّ ابن المؤيد[2] . قال :

(١) البدائع ص ٢٧٢ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٠٤ .

« وكنت أنا وابن المؤيد يوماً عائدين إلى مصر ، وفى رواية أخرى : « عائدين من القرافة إلى مصر » – فثار قتامٌ شديدٌ ترَّبَ وجه الأرض وأقذى عين الشمس » .

وكان سكن كثير من العلماء والأدباء بالفسطاط ، وكان بعض كبار رجال الدولة ورجال القلم يسكنونها على ما كانت العادة أيام الفاطميين إذ كانت القاهرة سكن الخلفاء والملوك والأمراء والجند رجال السيف .

وتلقى ابن ظافر عن بعض رجالات عصره من العلماء والكتاب والأدباء ، فأجازوه ببعض مؤلفاتهم ورواياتهم ، وذكرنا منهم جملة كالقاضى الفاضل وابن سناء الملك وابن المجاور ، وصفى الدين بن شكر ، والأسعد بن مماتى ، كما روى عن عبد الخالق بن زيدان المسكىّ عن الحافظ أبى طاهر السلفى عالم الاسكندرية . ويقول[1] إنه « نقل عنه إجازة عن الحافظ السلفى »[2] . وغالباً ما يروى عن هذا السند أخبار المغاربة والأندلسيين . كما روى عن أبى اليمن الكندى – تاج الدين – وعن جمال الدين الحرستانى من علماء دمشق عن الحافظ ابن عساكر الدمشقى[3] .

وروى عن أبى الحسن – الفقيه النبيه كما يلقبه – المقدسىّ عن الفقيه أبى القاسم مخلوف بن على القيروانى عن الحميدى بعض أخبار الأندلسيين ، فقد روى خبراً عن ابن جاخ الشاعر الأشبيلى[4] ، وروى عن على بن الفضل المقدسى عن أبى القاسم على بن مهدى ابن قلينا الاسكندرى ، وعنه كذلك عن الحافظ السلفى ، وعنه عن القضاعى عن ابن حمديس الصقلى[5] .

ومن رواته عن أدباء الأندلس والمغرب اليحصبى أبو عبد الله محمد بن على اليحصبى القزمونى الزجال . روى عنه خبراً عن المعتمد بن عباد الشاعر

(١) ص ٣٩ – ٤٨ بدائع .
(٢) وراجع صفحات ٩٤ ، ١٠٩ ، ١٢٦ ، ٢٣١ نفس المصدر .
(٣) المصدر نفسه صفحات ٨١ ، ٩٨ ، ١١١ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٦٠ ، ١٦٨ .
(٤) بدائه ص ٧٦ ، ٨٥ .
(٥) المصدر نفسه ص ٣١٠ .

صاحب أشبيلية[1] ، كما روى خبرا عن ابن جاخ الإشبيلي[2] ، وعن الشاعر أبي بكر اليكيّ بجامع عدوة القرويين بفاس بالمغرب[3] .

وروى كذلك بعض أخبار المغرب وابن عبد المؤمن صاحب المغرب عن أبي عبد الله محمد القرطبي الفقيه الزاهد[4] .

وروى عن ابن دحية الحافظ صاحب المطرب عن الأستاذ المفيد أبي بكر محمد بن خير بقراءته عليه ، عن الحافظ أبي القاسم خلف ابن يوسف الشنتريني - عرف بابن الأبرش - بقراءته على أبي الحسن على بن بسام صاحب الذخيرة[5] .

وعن ابن دحية عن ديوان شعر ابن خفاجة[6] ، وعنه عن الوزير الفقيه الأجل أبي بكر عبد الرحمن بن محمد مغاور السلمي خبراً وهو بمنزله بشاطبة[7] ، وأنشده شعراً له ، وللسميسر[8] .

ولم تقتصر بضاعة على بن ظافر على الشعر والأدب ، كتابةً ، بل تعدتها إلى كثير من العلوم قال ابن شاكر[9] :« أقبل في آخر عمره على مطالعة الأحاديث النبوية ، وأدمن النظر فيها » . ويبدو أنه اعتزل وظيفته في بيت المال بعد مدة قضاها في صحبة السلطان الكامل ، وتفرغ في أخريات حياته للتدريس والتأليف . فتولى تدريس الحديث وعلومه وعلوم الدين بالمدرسة المالكية وله مؤلفات متعددة تجمع بين الأدب والشعر والتاريخ .

فمن مؤلفاته الأدبية :

---

(١) بدائع البدائه ص ٧٣ .

(٢) بدائع البدائه ص ٧٤ .

(٣) بدائع البدائه ص ١٠١ .

(٤) بدائع البدائه ص ١٩٦ .

(٥) بدائع البدائه ص ٣٥٤ ، ٣٥٩ .

(٦) بدائع البدائه ص ٣٧٦ .

(٧) بدائع البدائه ص ٣٧٦ .

(٨) المصدر نفسه .

(٩) فوات ٣ ص ٢٨ .

١ – بدائع البدائة ، والذيل عليه . ونَزَع فيه منزعاً طريفاً تتبع أخبار بعض من قالوا الشعر على البديهة[1] .

٢ – غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات ، أورد فيه جملة مما قيل من التشبيه فى أغراض الشعر[2] .

وفى التاريخ :

٣ – ذيل المناقب النورية ، وقدمه لصلاح الدين[3] .

٤ – الدول المنقطعة – « وهو كتاب مفيد جداً فى بابه »[4] . ويصفه جورجى زيدان بأنه فى أربعة مجلدات ، ويشمل تاريخ الدولة الحمدانية ، والسامانية ، والطولونية ، والإخشيدية ، والفاطمية ، والعباسية إلى سنة ٦٢٢ هـ . ومنه نسخة بالمتحف البريطانى .

٥ – أخبار الملوك السلجوقية .

٦ – أساس السياسة .

ومما يجمع بين التاريخ والأدب :

٧ – أخبار الشجعان .

٨ – كتاب من أصيب ممن اسمه على ، وابتدأ بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه .

٩ – نفائس الذخيرة – لم يكمل .

١٠ – مكرمات الكُتّاب .

وشعر على ابن ظافر كما وقفنا على نماذج منه من حديثنا عن تاريخ حياته يجرى فى بعضه على الارتجال على البديهة ، وقد يصنع بعضه للمديح . وبعضه مقطعات بين بيتين إلى سبعة أبيات ، وبعضه الآخر قصائد مطولة . ولم يصلنا ديوانه . ولم يذكر له ابن شاكر ديواناً مجموعاً . وأورد له ابن شاكر جملةً من

---

(١) حققه محمد أبو الفضل إبراهيم وطبع بمكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة سنة ١٩٧٠ .

(٢) قام بتحقيقه د. محمد زغلول سلام ، و د. مصطفى الجويني وطبع بدار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٧١ .

(٣) منه نسخة خطية بالاسكوريال – راجع تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ٣ / ٦٥ .

(٤) فوات الوفيات ٣ / ٢٧ .

شعره نقلها من كتاب البدائع ، كما يضم كتاب البدائع جملةً وفيرة منه ، وكذا في كتاب « غرائب التنبيهات » .

وشعره فى الدرجة الوسطى ، لا يبلغ مبلغ المجيدين ، ولا ينزل إلى مستوى الغث وهو من طبقة شعر الكتاب عامة ، تغلب عليه الصنعة ، وهو شاعر مُسامِرٌ ، مستعد دائماً لأن ينظم فيما يطلب إليه من موضوعات ، يدل على ذلك مواقف متعددة ، وأخبار منثورة هنا وهناك يرويها فى كتاب البدائة .

سيف الدين المشد

على بن قزل (ت سنة ٦٧٦ هـ)[1]

ذكر اسمه على بن عمر بن سابق الدين قزل - ويقول ابن سعيد إنه من أحد بيوتات العجم بالقاهرة .

ويعتبر على بن قزل من شعراء المصريين المشهورين فى القرن السابع الهجرى ، فى نهاية عصر الأيوبيين فقد عاصر فى مصر الملك الكامل ابن العادل أبى بكر بن أيوب والملك الصالح نجم الدين أيوب ، وعمل بالقاهرة ودمشق ، وتولى شادَّ الدواوين بدمشق للملك الأشرف موسى بن العادل بعد تملكه لدمشق بموافقة الملك الكامل سلطان مصر ، والذى كانت تخضع له معظم بلاد الشام وبعض إمارات الشرق بالموصل وإربل .

وكانت نشأة سيف الدين بمصر ، ولعله من أبناء الصعيد وذكرت المصادر أنه كان ابن عم الأمير ابن يغمور صاحب الجاه والسلطان فى عصر السلطان نجم الدين أيوب ، والذى عرف بحبه للأدب وتقريبه للأدباء والشعراء . وكان من رواد مجلسه الشاعر ابن الجزار وغيره من شعراء المصريين فى القرن السابع . كما كان قريب فخر الدين عثمان استادار السلطان الكامل محمد .

وقضى سيف الدين شطراً من حياته بالقاهرة والفسطاط أو مصر والتقى فيها ببعض الزملاء من الأدباء والعلماء والشعراء . ذكر منهم فى ديوانه جماعة من أشهرهم ابن سعيد المغربى ، صاحب كتاب المغرب ، والتيفاشى صاحب « سرور النفس » ، وابن العديم . كل أولئك التقى بهم فى مجلس ابن عمه أو نسيبه الأمير جمال الدين موسى بن يغمور ؛ ذكر بعض هؤلاء فى ديوانه ، وذكر شيئاً بما دار بينه وبينهم من مراسلات أو مديح ، ومن شوق أو محبة .

ولزم سيف الدين ابن يغمور ، وصاحب السلطان نجم الدين أيوب فى

---

(١) راجع ترجمته فى المغرب لابن سعيد القسم الخاص بالقاهرة « النجوم الزاهرة » بتحقيق الدكتور حسين نصار ص ٢٣٣ — وفوات الوفيات لابن شاكر .

حملاته بين القاهرة وبعض بلاد الشام والمشرق ، ويذكر فى الديوان صحبة السلطان فى تل العجول ، ونزوله بغزة . يقول :

قد ضجرنا من ماء تلّ العجول ... وكرهنا سماع قال وقيل
رَبِّ إمَّا دِمَشْقُ تفرج همّى ... أو إلى مصر فهى تشفى غليلى
ومن المحنة التى نحن فيها ... حرُّ تمُّوز آب فى أيلول

وخَلُصَ المشدّ لنجم الدين الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل عندما تملّك بمصر . وكان نجم الدين محباً للأدباء والشعراء ، يجمعهم إليه ويسامرهم ، واتخذ منهم بعض الكتاب والوزراء أمثال البهاء زهير وابن مطروح ، بل إنه استناب ابن مطروح على دمشق زمناً قبل أن يستولى عليها الملك الناصر يوسف صاحب حلب والشام .

وله فى الصالح نجم الدين قصائد منها قوله :

ما إنْ تذكّر أوطاناً وأوطارا ... مُتَيَّمُ القَلب إلا هامَ أوطارا
عانى الفؤاد طليقُ الدمع ماتركَتْ ... أيدى السقام بنُورِ العين آثارا
يشتاقُ نجداً فتى بالغور مرتهنٌ ... يرعى الكواكب تسهيداً وتذكارا
لا يستفيق هُدُوّاً من صبابته ... ويقطع الليل أشواقاً وأفكاراً
لله ما صنع البينُ المشِتُّ به ... وفى سبيل الهوى ما نال أخطارا

ويستمر فى غزل القصيدة حتى يتخلص منه إلى المديح فيقول :

مُنعَّمٌ لو غَدا مرُّ النسيم به ... لراحَ ألطف مما هبَّ مِعْطَارا
أنفقتُ فيه وفى الراح الذى ملكتْ ... كفَّاىَ من درهم قد كان دينارا
ولن أبالى بدهر جاه معتذراً ... والصالح الملك المنصور قد زارا
هذا محلُّ مليك الأرض قد جَعَلَتْ ... بحارُ كفَّيه للأرزاق تيارا
إن قصر الغيث فى وقت فراحتهُ ... سماؤها لم تزلْ بالجودِ مدرارا
يعطيك فوق المنى من قبل تسأله ... إن الكريم إذا لم يستزر زارا
تعاظمت مصر إذ فازت برؤيته ... على البلاد وكم قد حاز أمصارا
كلُّ الملوك وإن راموا مداه عُلاً ... مقصِّرونَ وما ساروا كما سارا
يا فرع أصلٍ زكىٍّ طاب مغرسُه ... طيبُ الثمار به قد طبن أزهارا

ولاه الصالح بعض أعمال فى دمشق ، ولقى بها الملك الناصر يوسف وتوفى بها سنة٦٥٦ هـ ، وله فى قريبه جمال الدين موسى بن يغمور قصائد يمدحه فيها ، و يراسله ويجاوبه فى أمور دارت بينهما ، كقوله :

كتبتُ ولى قلبٌ من الصبر مملقُ ... ولى من دموع العين جارٍ ومطْلَقُ
وعندىَ من فرط الصبابة لوعةٌ ... كأن ضلوعى نحوها تَتَشقَّقُ
إذا جُنَّ ليلى ظِلْتُ سهرانَ والهاً ... وهل نازحٌ إلا يحنّ ويأْرقُ
كأن الدُّجى لم يخلق الله غيرهُ ... لدىَّ وإن الصُّبح ماليس يخلَقُ
أأحبابنا لا أبعد الله داركم ... وسامح بيناً بيننا يَتَمَلَّقُ
بعدتُم فلا والله ما العيشُ بعدكم ... هنىٌّ ، ولا عصرُ الشبيبة مورقُ
تجرعتُ مُرَّ العيش كرهاً وإننى ... لأذكركم عند البَلاَيا فأشْرَقُ

وقال فيه : (وقد بعث إليه غزالاً رماه مملوك له يُسمى مليحٌ بالنشاب) :

أرأيت أحسن فى الهوى من شادنٍ ... ظهرتْ محاسِنُ خلْقِه فى أنْسِهِ
يسطو بألحاظٍ أحدّ من اسمه ... ويجلُّ عن بدرِ الوجودِ وشمْسِهِ
أهدى إليك مشاكلاً ومداعباً ... ما قد هداهُ إليهِ جَوْدَةُ حسِّهِ
رشأً من الأتراك يقتنص الظبا ... ولكلِّ شيءٍ آفةٌ من جِنْسِهِ

وكان بينه وبين جمال الدين بن مطروح صداقةٌ ، أتاحت لهما التراسل بالشعر ، وشكوى الفراق ، والرغبة فى اللقاء . ومن ذلك ما كتبه الأمير سيف الدين للصاحب جمال الدين بن مطروح ، وقد كانا تواعدا على اللقاء فى غزة فى طريقهما إلى مصر من دمشق أو الشام ، وسبق المشدّ ، وتأخر ابن مطروح ، فكتب إليه سيف الدين يقول بعد وصوله :

شكايةُ مُدْنَفٍ فى أرضِ غَزَّهْ ... إلى مولًى أدام الله عِزَّهْ
كَثيرُ الشَّوقِ مذ عزَّ التدانى ... فأين كثيرٌ منه وَعَزَّه ؟!
يُعلِّلُ نفسه عن أرض مصرٍ ... بحيرة أرض دارايا وَبَرزهْ
وإن ذكر الخليج وسَاكِنِيهِ ... يُعوّض عنهما بَردى ومزّه
فيا لله من أيدى الليالى ... لقد وخزتْ فؤادى أىَّ وخزَهْ
فكم من مهجةٍ فى قيد شوقٍ ... وكم من إصبعٍ فى وسطِ رزّه

ويعرض للغزل فى أبياتٍ يختمها بقوله :

فيا مولىً له فى القلب ودٌّ ... عن الإشراك فيه قد تنزَّهْ
قدمْتَ فَسُرَّ مشتاقٌ كئيبٌ ... سرى طربٌ إليه فاستفزَّهْ
فأنشأ ما تراه بغير فكرٍ ... فلا تظهْر – فدتك النفسُ – عجزه
ودُمْ فى نعمةٍ ما قيل شعرٌ ... وما اتصلت به ألفٌ بهمزهْ

ومن هذه الأبيات وأبيات أخرى فى ديوانه نظنّ بأنه كان يسكن داراً بالقاهرة على الخليج ، وربما جاوره بها ابن مطروح ، فهو يذكره بذلك وقد ابتعدا عن خليج القاهرة ونيلها ومنازهها إلى دمشق وبردى والمزّه ، لكنهما لم يتسليا بمنازه دمشق والشام عن القاهرة والنيل فظلا يذكرانهما ويتشوقان اليهما ، كلما بدت لائحة ، أوهاج اشواقهما خاطرٌ من الوطن .

وفى شعر المشدّ أبياتٌ يذكر فيها بعض إخوانه ومعاصريه من الرؤساء والشعراء ورجال الدين والعلم ، والصوفية ومن إليهم ممن كانوا يرتادون مجالس الأعيان بالقاهرة ودمشق ، وتربطهم به روابط ما ، قد تكون الصداقة والزمالة ، أو المجالسة والمسامرة ، أو رابطة الأدب والعلم وحدها .

وكان من بين هؤلاء جماعة من أهل مصر والشام ، وبعضهم من المغاربة الوافدين . ونذكر ممن نعرف من المغاربة الذين كانت تربطه به رابطة الزمالة والمجالسة فى مجلس ابن يغمور الأديب المغربى شرف الدين التيفاشى . وحدث بينهما سوء تفاهم ، لأن التيفاشى كان قد أُصيب بثقل فى السمع ، وسمع فى مجلسٍ من المجالس ، ربما فى حضرة ابن يغمور من المشدّ كلاماً فهم منه التعريض به وببعض مؤلفاته ، فغضب التيفاشى ، وعرّض بكلام المشد لائماً فنظم المشد هذه الأبيات[1] :

أيُّها العالمُ الذى زَيّنَ العصـ ... ـرَ بما حَازَهُ من الآدابِ
والذى أعجز الأفاضل كالجا ... حظِ فيما أتى به والصَّابي

(١) جاء في الديوان : « وقال أيضاً مما كتبه إلى صديق له يدعي شرف الدين التيفاشي ، وكان قليل السمع والنظر ، وقد صنف كتابين ، أحدهما يُسمى « المسالك » والآخر « فصل الخطاب » وكان خفيفاً بهما فبلغ الأمير (سيف الدين) رحمه الله تعالى – أنه سمع منه كلام تصحف فيه ولم يدر ما تأويله فكتب إليه بهذه الأبيات » .

وإذا ما نحا سبيل انبساطٍ ... جاءَ من ذاك بالعجيب العُجابِ
أذكرتنا أوصافُه وسجايا ... هُ زمانَ الصبّا وعهدَ التصابي
قيل لى : قد سمعتَ منى كلاماً ... لم تكُنْ شيمتى ولا من خِطابى
وقبيحٌ بأن أعنّف شيخاً ... هذَّبتْ ترادفُ الأحقابِ
غير أنى أصوغُ عنك اعتذاراً ... سبكتْهُ نفائسُ الألبابِ
أنت تدرى بأن سمعك – والله المعـ ... ـافى – فى غاية الإضطرابِ
لستَ بالسامع الذى يدرك القوْ ... لَ سراعاً ، فيهتدى للجوابِ
وفسادُ الحواس فى خلل الفهـ ... ـمِ يقيناً من أعظم الأسبابِ
إنّ ذا الناظرَ المعيب – وحاشا ... كَ – يخالُ العُقابَ بعضَ الذُّبابِ
وإذا صحّ ما أقولُ فلا ينْفـ ... ـكُّ أنْ قد فهمتَ ضدَّ الصوابِ
لستُ ممَّنْ يخونُ فى القول والفعـ ... ـلِ ، ولا سيّما مع الأصحابِ
لم أزل فيك مُسْهِباً ولما حُزْتَ ... من الفضل دائمَ الإطنابِ
رجبٌ قد علمتَ وهو بالصُّمِّ ... عظّمتْه أفاضلُ الأعرابِ
وكذاك الرِّماحُ تُوصَفُ الصُّمـ ... ـمِ إذا أصبحتْ صِحاحَ الكعابِ
والحسابُ الأصمُّ أحسنُ شيءٍ ... عجزتْ عنه عامّةُ الحُسّابِ
والصخورُ الصمُّ المنيفاتُ تسمُو ... على غيرها من حجارةٍ وهضابِ
والكميتُ الأصمُّ فى الخيل يُعْرى ... من ظليمٍ يَمُرُّ أَمَرَّ السَّحابِ
إنما أنتَ قد تخيّلتَ ظُلْماً ... وتصنّعتَ فى فنونِ العتابِ
والذى قد أذريه أنا أوْريه ... بلا مريةٍ ولا إرتيابِ
خفتَ أن أملكَ « المسالك » أو ... أنجحَ يوماً لنسْخ «فصل الخطاب»
ثمّ هنيئاً وقرَّ عيْناً بما نِلْـ ... ـتَ اختلاساً من كاتبٍ و كاتبِ
ثم إلا مسافةٌ وبقاعٌ ... وطعامٌ شفعتُهُ بشرابِ
كلُّ هذا ، وجُلُّ ذاك حديثٌ ... درسته أصاغرُ الكُتّابِ
إنما يبخلُ الحكيمُ بعلمٍ ... عجزتْ عنه عامةُ الطُّلابِ

وفى هذه الأبيات إشاراتٌ كثيرة إلى ما كان يحدث فى مجالس العلماء من أقوال ومماحكات ، وتنافس ، ووشايات ، يحفزها التحاسد والتنافس بين العلماء والأدباء ، وقد يُعزى بها الرغبة فى نيل القبول من ذوى السلطان من

الملوك والأمراء ، فيطعن أحدهم فى الآخر ليصنع من مكانته إذا علم فى صاحب السلطان ميلاً إليه ، أو تقريباً له وإعجاباً به ، ويكون الطعن فى أوبه ، وأنه ليس بالمبدع ، بل هو من المكرّر المبذول ، كما يشير هنا سيف الدين إذ ظنَّ أن التيفاشى غضب لسماعه خطأ أنه إنما يريد أن ينسخ كتابيه « المسالك » و « فصل الخطاب » وهو ضنين بهما أن ينسخا ، فيقول المشد ، إن البخل يكون بعلم غير مبذول أو علم غير معروف أما وأنه موجود معروف فالبخل به فى غير موضع يكون . يُعرِّض بأن ما جمعه التيفاشى فى الكتابين إنما هو من أقوال غيره من الكتاب نقله مما وقع عليه من الكتب ، وكلها معروفٌ لدى « أصاغر الكتاب » .

ويجىء الحديث عن التيفاشى مع من وفد من المغاربة فى هذا العصر وممن ظهرت أسماؤهم فى شعره من ذوى الفضل من الرؤساء من اسمه « حافظ الدين » قال : « ومما كتبه إلى بعض الأصدقاء » .

يا حـافِظَ الدين والمودة والعهـــ	ـــد ولـبَّ الأشـعار والسِّير
ومن إذا حُظـيتُ صـحبته	أمهـر لى صَفْوهَـا بلا كـدَر
لفظـه درٌّ وغـيرُهُ صَـدَفٌ	شـتَّانَ بين الأصْدَافِ والدُّرَرِ
يمرُّ نحـو العقـول يسـحرها	كمـا يمـرُّ النسـيمُ فى السَّحرِ

ويبدو أن هذا الرجل كان من رجال القلم ناثراً أو شاعراً ، لأنه يصف ألفاظه بأنها كالدرّ ، وألفاظ غيره كالصدف ، وأنه يسحر العقول بجمالها ورشاقتها ولطف معانيها .

ويكتب إلى صديق آخر من الأدباء يدعى « ابن عدلان » ويلقب عفيف الدين ملغزًا فى جسر النيل ، ولعله كان الجسر الذى يربط بين شاطئه عند الفسطاط أو مصر وجزيرة النيل بالروضة . وكان قد شيد أيام الفاطميين ، وربما على عهد الخليفة الآمر . كتب الشد بهذه الأبيات مُلغزاً فى هذا الجسر ، وكانت قد مرت بهم ليلة طيبة به ، ربما قضياها معاً ، أو شاركهما فيها بعض الأصحاب . يقول سيف الدين :

ما مفـردٌ تجمـعُ أجـزاؤه	غاديـةً فى سـيرها رائحـةً

يحملُ أثقالَ الورى طائعاً ... من سارحٍ في الأرض أو سَارِحةْ
له ضلوعٌ قلّما تنطوى ... على لظىً مع أنها قادِحةْ
يُقْطعُ أحياناً بلا زلّةٍ ... ولا يُرى في جسمِهِ جارِحةْ
قد نال فرعون الذى نالهُ ... ولم تكنْ صفقتُه رَابحةْ
في الشرق والغرب يُرى ظاهراً ... ومثله في الفتح والفاتحةْ[1]
فانعم – فَدتْك النَّفسُ يامن لهُ ... نجُومُ فِكرٍ في الهُدَى لائِحةْ
وأظهرْ معمَّاه في لَيْلةٍ ... ما أشبه الليلةَ بالبارِحَةْ !

وله في رجل آخر ممن عرفهم هو نظام الدين بن المولى :

ما امرؤ القيس ولا قُسـ ... ـسٌّ كما ظَنَّ الإمامْ
بل نظام الدين في النّـ ... ـظْم ، وفي النَّثرِ إمامْ
هو مَوْلى وابن مَوْلى ... حسنٌ هذا النظَامْ

وهذا شاعر خطيب ، قارنه بامرىء القيس وقس بن ساعدة ، وهما من هما في الشهرة في الشعر والبلاغة . وتبادلا كذلك في الديوان اللغز في سمك[1] .

ومن شخصيات عصره الغريبة المشهورة كذلك هذه الشخصية الصوفية التى كان لها شأن غريب ، لغرابتها ، وغرابة معتقدها ، وتصرفاتها ، أعنى الشيخ على الحريرى[2] ، الصوفى الذى ترك بمصر والشام آثاراً ، وتحدث الناس عنه ، وترك بعض التلاميذ على مذهبه كابن سبعين وغيره . يقول في هذا الشيخ الحريرى مخاطباً أحد أعوانه ، أو مريديه فيما يبدو :

---

(١) يعني في شرق النيل وغربه ، والفتح والفاتحة السورتان من القرآن الكريم إشارة إلى قوله تعالى في سورة الفتح : ﴿ ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ آية ٢٠ ، وقوله تعالى في الفاتحة : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ .

(١) ذكر في الديوان أن العفيف ابن عدلان سيَّر له لُغزاً في سمك فعمل سيف الدين تفسيره لغزاً يقول فيه :

لغزُك هذا من بني راسبٍ ... لكنْ لُغزي من بني الطافي
يُقْـلى مع القُربِ على أنه ... يَدْنُو وإنْ أصبح بالجافي

(٢) راجع ترجمته في وفيات الأعيان .

سمعتُ بأن حبرَكُمْ علياً ... حَباهُ الله منه بالحُبورِ
إذا كان السَّماعُ بِهِ عُجْباً ... بما أوتيه من عزم الأمور
فلا تولُوه تعنيفاً ولوماً ... فما تدرونَ أسرارَ الصُّدُورِ
ومن ذا في السَّماعِ له مقامٌ ... إذا سُمِعَتْ مقامات الحريري

ولا يغربُ هذا التلاعب بالتورية فى آخر البيت الرابع ، إلا أن الأبيات تنبيء عن انشغال الناس ، ومن كان من العلماءِ والفقهاءِ فى هذا العصر من لا يستريح لأعمال الصوفية واعتقاداتهم خاصة .

ويقول فى بعض أتباع الحريرىّ من فقراء الصوفية :

وفقيرٌ هو الغنىُّ بما حاز ... من الحُسْنِ والخلالِ الرَّضيَّةْ
يقتدي فى طريقهِ بالحريرِ ... ىِّ ، ويبغى مذاهب الصوفيَّةْ
أعجمىُّ اللسان حلو الثنايا ... عنه نروى الحلاوةُ العجمية

ويورِّى كذلك فى عجز البيت الثالث توريةً خفيفة الظلّ .

على أنه فيما يبدو من هذه الأبيات أنه لم يكن يضمر للصوفية كراهيةً أو بغضاً كما يفعل بعض الفقهاء ، وبخاصة من الحنابلة .

ومن أصدقاء المشدّ من لقيهم فى رحلته الشامية والمشرقية ، وإقامته هنالك زمناً من حياته . فقد لقى فى صرخد الشاعر الشيخ تاج الدين الصَّرخدى[1] وذكره فى بيتين من شعره . قال :

يا فاضلاً خاطرى وخاطِرهُ ... فى حُبِّه شاهِدٌ ومشهودُ
إن غبت عنّا وإن مررت بنا ... فأنت فى الحالتين محمودُ

والصرخدى اسمه محمود بن تاج الدين التميمى ، فحسنت توريته به فى آخر البيتين ويحفظ ديوانه ثلاثة أبيات « مما كتبها إلى برهان الدين وزير صاحب صرخد » . يقول :

يا خليلاً سَعَى إليهِ وشاةٌ ... لعتابى بالزور والبهتانِ
زعمُوا أنّى نويتُ سُلُوًّا ... لستُ ممّنْ يُصغى إلى سُلوانِ

(١) راجع ترجمته فى فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى .

أنت تدري عظيمَ وجْدى وشُغْلى أن أقيم الدليل بالبرهانِ

ويستخدم التورية التى اعتادها فى آخر أبياته باسم صاحبه .

وثقف ابن قزل ثقافة عربية إسلامية ، وكان على علم بالتنجيم والحساب[1] . وتقدم فى فنون الأدب .

والديوان مرآة لحياة الشاعر وعصره ترى فيه صوراً من حياة الناس ، وبعض أحوالهم فى السياسة ، وحياتهم الخاصة بين الأفراح والأتراح ، كما ترى فيه تقلب الزمان والأحوال بالشاعر بين الرضا والغضب ، بين المحبة والكراهية ، بين الاستمتاع بالحياة والتنعم بملاذها من روض وزهر وخمرٍ ونساءٍ وغلمانٍ ، وصحبةٍ من الأدباءِ ، والأصدقاءِ ، ومكانة عند الصدور وأصحاب السلطان ، ومجالسة للرفاق على الطعام أو استدعائهم إليه لمشاركته فيما يطعم ويشرب ، أو هو من جانب آخر يعرض برمه وضيقه بمن يضيق به أو يكرهه ، من ناسٍ ، أو أشياء ، فيهجو ويصبح وقد تجد فى ديوانه الشكوى ، والترقب والخشية من الحدثان ، وتقلب الأزمان ، والحق أن ديوان المشدّ يكشف كثيراً من جوانب حياته ونفسه ، كما يلقى ضوءاً على أحوال عصره وظروف الناس ومعايشهم ، ونعرض من هذا كله بعض ما يمثله لنا حتى لا يتسع بنا المقام ، ويستفيض القول . ويكفى من الحديث ما أصاب الغاية ، ومن القلادة ما أحاط بالعنق ! .

ونبدأ من هذه اللمحات ببعض ما صوَّر به أحوال رجال السياسة والدولة من الوزراء وغيرهم من أوقف أو اعتقل . ومنه قوله فى أحوال الوزراء وتقلبهم وكثرة تغييرهم :

كلّ عامٍ للوَرى منقصةٌ بوزيرٍ من ثقاتِ الخَوَنَهْ
يتولّى ثم يأتى بَعدَهْ أظْلمُ النّاسِ وأقوى فرْعَنهْ
وزراءٌ كالتقاويمِ غَدَوْا ليس يَبْقى حكمُهم غيرَ سَنَهْ

---

(١) النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢٣٣ .

وقال معزيًا من صرف عن منصب ، واعتقل ، ولعله كان صديقاً ، أو تربطه به صلة :

لئنْ صُرِفْتَ وحاشا لَكَ ، فالدَّنانيرُ تُصْرَفُ
وما اعتقلت كريماً ، إلا وأنت مثقّفُ

وبالبيت الثانى ما اعتاده من صنعة التورية :

ويذكر ضيقه بالمشارقة والمشرق فيقول :

إذا شئت أن تلقى دليلاً إلى الهدى لتقفوَ آثار الهداية من كافي
فخلّ بلاد الشرق عنك فإنّها بلادٌ بلا دَالٍ وشرقٌ بلا قافِ

فهو يرى فى بلاد الشرق شرًّا وبلاءً ، وربما كان ذلك لكثرة ما ثار فى عهده وعاصره من نزاعات ، وصراعات ومعارك بين خلفاء صلاح الدين من الملوك والأمراء حكام الأقاليم الشرقية ، وما دار من مؤامرات ودسائس فى بلاطاتهم ، وبينهم وبين بعض السلاجقة الروم ، والخوارزمية ، والفرنج وغيرهم حتى بدت تلك البلاد لا تستقر على حال على غير ما كانت عليه مصر وما نعمت به من استقرار نسبى .

ويصف بعض غلمان الأتراك من المماليك من أكثر منهم السلطانان الكامل والصالح وهم فى زىّ الحرب فرساناً متماثلين . يقول فى فتيَة من هؤلاء تحت سناجق خليفية (أى أعلام سوداء) :

وتحت السناجق أمثالها لطلباتها وسوادِ البُنُودْ
من التركِ غيدٌ طوال الشعور صباحُ الوجوه ، رشاقُ القُدودْ

ويسجل بعض أحداث عصره من غرق بغداد ، وظهور النار بالحجاز يقول :

سبحان من لا تزال قدرته جاريةٌ فى الوَرى بمقدارِ
أغرق بغداد بالمياهِ كما أحرقَ أرض الحجازِ بالنّارِ

ويصف بعض الحروب التى شهدها فيقول :

وإنّا قد لقينا القومَ طُرًّا وطالَ الأمرُ واتصلَ الطرادْ

وقد وقفتْ خيولُهمُ كِلالاً	لمثلِ اليوم تُدَّخرُ الجيادُ

ويقول فى موقعة يبدو أنها كانت فى حصار اعتصم هو ومن معه بأحد الحصون :

كسبنا الثناءَ غداةَ الهيا	ج ، وقد أطلع الشرقُ بيض الرُّبى
بشمس الرماح وبيض الصـ	ـفاح وخضر وحمر الظُّبَا
فَصُنَّا الحصون ببذل المصـ	ـون من النفس والمال والمشتهى
فهذى شعائرُ أسلافنا	علَونَ مناراً لمن أمَّها

وينقد بعض أحوال مجتمعه ، فيرى فيمن يتناول الحشيش وقد انتشر على عهده شبهاً بالبهيمة . يقول فى بعض فقراء الصوفية ممن اتخذوا من تعاطى الحشيش عادة سيئة تعللاً بأنها تساعدهم على الوجْد أو بلوغ رتبة الجذب :

أرى فقراءنا من كلّ علمٍ	ومن دينٍ دواباً فى ثيابِ
يراعُون الحشيشة حيث كانتْ	وهل يرعى الحشيش سوَى الدَّوابِ ؟!

ونخرج من هموم الحياة والناس وعمَّا سجله الشاعر منها فى ديوانه إلى بعض أمزاجه ، ومتعته ، التى تغنى بها فى شعره ، وصوَّر بها زينة الحياة واقباله عليها . وهو يعترف بأنه ممن يقبل على متع الحياة ولا ينفر منها إذ يقول :

إذا أنا لم أشرب مداماً ولم أكُنْ	طروباً ، ولم أفرحْ هناك ولم أصبُ
فما أنا إلاَّ والحجارة واحدٌ	وإن كان فيها التبْرُ واللؤلُؤُ الرَّطبُ

وهكذا غلب على شعره فى الديوان حديثه عن تلك اللذات والمتع التى أباحها لنفسه وصحبه . وكان أولها بالضرورة متعة النساءِ والغلمانِ ، وفى الديوان قصائد ومقطعات تدور حول هذا الموضوع من غزلٍ ، وصبابةٍ ، تبدو فيه رغبة الاستمتاع بالنظر والحسّ . ويرسم صوراً حلوةً للمرأة غانيةً ، وللغلام صبياً فارهاً . جميل الوجه ، ويعجب من صور الجمال الإنسىّ بالوجه من عينين ، وشعر وخدٍّ ، كما يعجب بالقوام والزينة من لباس وحلىٍّ .

ومن غزله قوله :

بأبى الغزالُ الساحرُ الطرف الذى	ولَهُ القلوبِ ووجدها من سِحْرِه

ما مرَّ يخطرُ فى القِباءِ مُمتطقاً ... إلا توارى الغصنُ فيه بزهرِه
رشأ يُعيرُ الخمْرَ حمرةَ خدِّهِ ... حُسْناً ويمنحها الشذَى من نشرِه
متكلمٌ كل الجواهرِ أصبحتْ ... من حسنهِ عرضاً لجوهرِ ثغرِهِ
بهر العقول ملاحةً ورشاقةً ... فالفيلسوفُ مُحيَّرٌ فى أمرِهِ

ويقول :

إلى قدِّك اللَّدْنِ يُعْزَى الهَيَفْ ... فما هَبَّتْ الريحُ إلا انعطَفْ
قوامٌ أرادَ قضيبُ النَّقا ... يحاكيه لمَّا انثنى فانقصَفْ
فيا رامياً قد رمَانى هَوىً ... بنارِ الأسى فى بحارِ الأسَفْ
سهام جفونِك قلبى غدا ... لها غرضاً ، وضلوعى هَدَفْ

ويقول :

لكَ خدٌّ كأنَّه التُّفاحُ ... وثَنايا كأنَّهنَّ الأقَاحُ
وعيونٌ كأنَّها النرجس الغَـ ... ـضُّ ، ووجهٌ كأنه المصباحُ
وقوامٌ كأنه غصنُ البا ... نِ رطيباً تجادبَتْهُ الرِّياحُ

ويقول :

ظبىٌ كحيلُ العيون ذو هيفٍ ... منعَّمُ الرِّدفِ ، ناحلُ الخِصْرْ
أغنُ أحوى ، مدلَّلٌ غنجٌ ... حلوُ اللَّمَى ، والرُّضابِ والثَّغْرِ
كأنما شعرُهُ وطُرَّتُهُ ... لَيلٌ تبدَّى على سَنَا فجْرِ

ويقول :

ولى فتاةٌ مثل شمس الضحى ... لقدِّها ينتسبُ الخيزرانْ
عاينتُ منها الوردُ فى بانةٍ ... يا قوم ، ما أحسنَ هذا العيانْ
كالصبح وجهاً والدُّجى طرةً ... والبدر حسناً والثريَّا بنَانْ
تكاملتْ أوصافُها كلُّها ... كأنَّها من بعض حورِ الجنانْ

وهكذا يجرى فى شعره صفات الجمال الأنثوىّ التى اعتاد إجراءها الشعراء ، والتغنى بها ، وهو بهذا الجمال الأنثوى مغرم صبابةً ، يتعلق به قلبه ، ويسهر الليل ويعذبه الشوق ، وينعم به أحياناً فى القرب ، فيجمع بينه وبين

جمال الروض والزهر ، ويلتذ بهما وبالخمر .

ومن أناشيده فى الصبابة والوجد قوله :

جهـدُ المحبّ دموعُه ... وخشوعُه وخضوعُه
فعلامُ يولعُه الحَبيـ ... ـبُ بصدّه ويروعه
وارحمتاهُ لمدنف ... فرطُ الغرام شفيعُه
يُخفِى هواه عن الرقيـ ... ـب ومقلتاهُ تُذيعُه
لا طرفُه يعصَى السُّها ... دَ ولا الفؤادُ يطيعُهُ
ولـعُ الغرام بقلبِه ... حتّى استمرَ ولُوعُه
دَنِفٌ تقسَّمَهُ الضَّنَى ... حتّى اضمحلَ جميعُه
يرعى النجومَ إلى الصَّبَا ... ح ولا يلمّ هجوعُه
لا تمنعوه من الهَوى ... أخلَى ممنوعُه

ويقول :

لولا الهَوى ماذقْتُ طعم الهَوانْ ... ولا وهَى التعذيبُ عندى وهَانْ
كـلاً ولا بَتُّ حليف الأسى ... مولّه العيش فقيد الجنَانْ

ويقول :

شجانى نوحُ قمرىٍّ طَرُوبِ ... قبيل الصُّبح أو عند الغُروب
وذكّرنى حبيباً بات عنّى ... ولم أكُ ناسياً ذكر الحبيبِ
حبيباً كلما فكرتُ فيهِ ... توالتْ عَبْرتِى وعلا نحيبى
كان البدرَ طلعتُه إذا ما ... تبدّى طَالعاً بعد المغيبِ

ويقول :

رقتْ رُوحى إلى حدّ التراقِي ... فهلْ لى من جنونِ الشوقِ رَاقِ
برَانى حبُّ من حلُّوا فُؤادِى ... وشدُّوا فى مَحبتهم وَثاقِي
أطوُفُ فى الخِيام لعلّ قلبى ... يرى فى حُبِّهم للنفس واقِى
ظباءٌ ما رَعَوْا لى حقَّ ودّى ... ولا رقُّوا لوجْدى واشتياق
جَرى دمعى على خدَّىَّ لمَّا ... ألمُّوا بالرحيل على النِّياقِ
وفى يومِ الفراقِ عدمتُ صبْرى ... وما أدراك ما يومُ الفراقِ

ونلاحظ فى صبابته ترديد معانى الشوق ، والسُّهد وسهر الليل ، وإراقة الدمع والمعاناة فى الفراق ، وعند تذكر الأحباب ، ووله القلب ، وفقدان الجنان . ويستعين بالحمام الورق على الهوى ، وهى تذكره بالحبيب وتهيج فى صدره الأشواق .

وهو يستمتع بالجمال ، ويضمه إلى متعة الخمر ، والغناء ، وجمال الطبيعة بين الروض والزهر والماء . وتراه يستجلى هذا كله فى قصائد تجمع كل هذه المتع واللذات ، يضيف إليها أحياناً لذة الطعام . يقول :

يا صاحبىَّ أقلَّا من ملامِكما ... ولا تزيدا بتذكارِ الأسَى دائي
هَذِى الرِّياضُ عنِ الأزهارِ باسمةٌ ... كما تبسَّم عُجْباً ثَغْرُ لمياءِ
والأرض ناطقةٌ عن صنع بارئِها ... إلى الورى وعجيبٌ نطْقُ خرساءِ
فما يصدُّ كما والحالُ داعيةٌ ... عن شرْبُ داعيةٍ للَّهوِ صَفْراءِ
من كفِّ أغيد يَجْلُوها مشعْشَعةً ... كما تأوَّدَ غُصنٌ نافيةٍ للهَمِّ تحتَ ورقاءِ

وعرض فى شعره لصور الطبيعة بروضاتها ، وأول ماعرض للنيل وبركة الحبش والخليج وجزيرة الجيزة أو جزيرة الروضة . يقول :

وادٍ به أهلُ الحبيب نزولُ ... حيًّا معاهِدهُ الحيا والنيلُ
وادٍ يفوح المسك من جنباته ... ويصحُّ فيه للنسيم عليلُ
يشتاقه ويود لثم ترابه ... شوقاً ، ولكن ما إليه سبيلُ

قالها مشتاقاً إلى النيل ومغانيه بالقاهرة والفسطاط ، ومسارح عيشه فى وطنه قالها فى دمشق وأشار إلى ذلك :

ولقد هفا بى فى دمشق مهفهفٌ ... يَسْبى العُقُولَ رضابُه المعسُولُ

ويصف إحدى الروضات بالقرب من النيل — لعلها بركة الحبش :

يا صاحبى إقَّلا من ملامِكُما ... ولا تَزيدَا بتَذكَارِ الأسَى دَائى
هـذى الرياضُ من الأزهار باسمةٌ ... كما تَبسَّمَ عُجْباً ثغْرُ لمياءِ
والأرض ناطقةٌ عن صُنع بارئها ... إلى الورى وعجيب نطق خرساءِ

. . . .

يا سرحةَ الشاطيء المنسابُ كوثرهُ على اليواقيت فى أشكال حَصْباءِ
حلت عزاليها السحابُ إذا نوءُ الثريَّا استهلّت ذات أنواءِ
وإن تبسَّم فيك النورُ من جذلٍ سقاك من كل غيثٍ كلُّ بكّاءِ

. . . .

يا طيبةً بذواتِ القيظ عالمةً أنتِ الشفاءُ من الرمضاءِ بالداءِ
لا صوَّحَ الدهرُ منك الزَّهرَ وانبجـ ـست عليك كلُّ هتونِ الوَدْقِ بكّاءِ
لظلُّ من فيِّك الفضفاض فى حلل من الغمام يقينا كلُّ ضرَّاءِ
خمائلُ الروض منشاها ومرضَعُها ضرعُ النميرين من نيلٍ وأنواءِ

وقال فى غلام يسبح فى الخليج بالقاهرة :

ولما تبدَّى فى الخليج وقد صفَتْ دوائرهُ والموجُ يُبدى فُتُونَهُ
توهمتُهُ بدراً سَرَى فى مجرَّةٍ أحاطتْ به الهالاتُ والسُحب دونَهُ

ومن عناصر وصف الروض عنده الماء والشجر الظلُّ المتمايل الأفنان مع النسيم ، والحمائم التى تتغنى على الأغصان ، والبلبل الشجىُّ بصوته . والزهر الضاحك بألوانه وأشكاله .

وهو حين يصف الروض لا يخص روضات النيل ، بل يجمع إليها روضات دمشق الغور أو الغوطة ، أو ما حولهما من منازه ، كالمزة .

يقول :

فؤادِى إلى بانَاتِ جلّقَ مائِلٌ ودمْعِى على أنهارها يَتحَدَّرُ
وإنى إلى زهر السفرجلِ شيِّقٌ إذا ما بدا مثل الدراهمِ ينثُرُ
غياض يفيض الماءُ فى عرصاتِها فتزهو جمالاً عند ذاك وتزهرُ
ترى بردى فيها يجول كأنه وحصباؤه سيفٌ صقيلٌ وجوهرُ

ويقول فى الأبيات نفسها ذاكراً النيرب أو النيربين وهو من المنازه القريبة من دمشق :

إذا اشتقتُ وادِى النيربَيْن لحتُه فأنظُرُ مَغْنَاهُ به وهو أنضَرُ

ويقول ذاكراً دمشق وبردى :

[illegible] مهفهف — يسبي العقول رضابه المعسول
يهتز إن مرّ النسيم بقدّه — ومال نحو الصَّبا فأميلُ
أبدى لنا بَرَدَى تبسُّمَ ثغره — وإذا انثنى فقوامه الجدول

ويطوف بزهر الرياض ، فيقطف من كل بستان زهرة ويجمع هذا كله في باقات من شعره . فهو يشبه محاسن محبوبه بألوان الزهور من حماحم وريحان وقرنفل فيقول :

حماحِمُ صدغيه عبيري وعنبري — وريحان مسكيّ العذار قرنفُلي

ويقول في الورد :

ووردةٍ كــأنّهـــــا — خدُّ حبيبٍ مُعْجِب
قد جعلتْ في وسطها — عُشرَى لها من ذَهَبِ

ويشبه حباب الخمر بالأُقحوان وجرمَها بالجُلّنار :

معتقةٌ كالأقحوانِ حبابُها — ولكنها كالجُلّنـارِ كيانُها

ويقول في الجلنار :

وجلنـار قد بـدا — مثل العقيق الأحمرِ
كأنمـا أقمـاعُـه — زُمـرُّدٌ في المنظـرِ

ويقول في الشقيق :

روضة كالسماءِ أشرق فيها — ضـاحكُ الزهرِ إذ بكتْه الغيومُ
فكـأن الشـقيق فيها شـموسٌ — وكـأن الأقـاح فيها نجـومُ

ويمزج بمتع البصر من جمال الوجوه والقدود ، ومناظر الشجر والماء والغصون ، والزهر المختلف الألوان بمتع الذوق ونشوة الخمر والطعام .

وخمرياته في الديوان كثيرة ، وغالباً ما يجلس لتناولها مع صحبة من أهل الأدب في مجلس بين الرياض يجمع بين جمال البصر وسماع الغناء والشراب والطعام .

وقد أشاد بغرامه بالخمر وكرر ذلك فقال :

إذا أنا لم أشرَبْ مداماً ولم أكُنْ طرُوباً ، ولم أفرحْ هناك ولم أصبُ
فما أنا والحجارة واحدٌ وإن كان التبْرُ واللؤلؤ الرَّطْبُ

ويرى أن الخمر من متع الحياة :

ألذُّ العُمرِ أيَّامُ الوِصالِ وخلوُ البالِ من قيلٍ وقالِ
وعيشٌ لا يُكدِّرُه رقيبٌ وودٌّ لا تغيِّرُهُ اللّيالى
ورشف مدامةٍ من كفِّ ساقٍ مليح الوجه محمود الخصالِ
إذا لعبتْ به كأسُ الحُمَيَّا رأيت الشمسَ تلْعبُ بالهلالِ
وصوتُ مغرِّدٍ يشْدو فيشجُو ويصدعُ كلَّ قلبٍ عنه سالي
إذا غنىَّ نشيداً أو بَسيطاً يَغنىّ منه بالسحر الحلالِ
ويوماً بالجزيرةِ أو بمصرٍ وماءُ النيل منحلٌّ العزالي

ويعرض صور الخمر فى الأقداع ، والسقاة ، والندماءَ ، وهو فى هذه المعانى لا يخرج عما درج عليه السابقون من الشعراء المبدعين فى الخمر ، وليأت أبو نواس فى مقدمة هؤلاء . يقول المشدّ :

اسقينها فى الدياجى خندريساً كالسراج
بنتَ كرم نجتليها بسرور وابتهاج
يطلع الصُبح إذا ما جليت والليل داج
قد تجلَّت بحبابٍ كلآلٍ فوق تاج

فلا تلبث أن تذكر أبا نواس وتتداعى معانيه فى ذهنك وكذلك عند قوله :

ألا قم نجتليها يا نديمُ سلافاً خيرَ ما تهدى الكرومُ
تحلُّ بها المسرَّة حيث حلَّتْ وإذا جليت وترتحلُ الهمومُ
كأنَّ كؤوسها والليل داجٍ شموسٌ فى جوانبها نجوم
فخذها واعطينها مستمراً ولا تصغى لمن فيها يلومُ

ويجمع إلى الخمر الغناء والمغنين ، وفى الديوان صورٌ متعددة لهذا وذاك يجمع إليهما غناء الطير من قمرىّ وبلبل ، ويصف آلات الموسيقى من شبابة ورق وعود وما إليها ، يقول فى مليح يلعب بالقانون :

ترى ابن سيناء فى يديه أقــلُّ ملعــوبه الغنــاءُ
فـإنـه المرتضـى شجـاهُ كـلُّ إشـاراتـه شـفـاءُ

ويقول فى عوّاده :

وحاضنة صنمـاً ناطقـاً وتكـرم مثـواهُ مثل الولَـدْ
تدغدغ أحشاءه صالحًا وتعْـرُكُ آذانَـهُ إن فسَـدْ

وقال فى غلام تغنى وهو يضرب على الرق :

أغيدُ وافى وفى كفّـهِ طارٌ بديعُ الشكلِ والحسْنِ
أكسبَهُ لمَّا تغنَّى بـه محاسنـاً تعلَقُ بالنَّفْس
والبـدرُ مازال على تمّـه يكتَسبُ النورَ من الشَّمسِ

وقال فى مغنية تضرب على رقها كذلك :

وجـاريةٍ قرعتْ طـارها وغنَت عليه بصـوتٍ رخيمْ
فعاينْتُ شمسَ الضحى أقبلت وبدر تم يقدمها لا يرِيمْ

ويخاطب مغنياً يطرب على شبَّابة :

يا مطرباً غنى النديم غناءه عن طيب مشموم وعن مشروبِ
شبِّبْ إذا غنيتنا متغزلاً إنَّ الغناء يَطيبُ بالتَّشبيبِ

ويقول فى زامرة سمراء تغنى على مزمارها :

سمراءُ كالعنبـر معجـونةٌ بالمِسْكِ والماوردِ والعودِ
كأنَّما نغمـةُ مزمـارِها لمَّا بـدا مِزْمارُ داوُدِ

وقال فى عوادة :

وعوَّادةٍ تضربُ عُـودَها فَحـنَّ الفؤادُ إلى ذلِكا
كمرضعةٍ لاعبـتْ طِفـلها إذا دغـدغتْه بَدا ضاحِكا

ويجمع إلى الشراب والغناء الطعام ، ومائدته حافلة بأنواعه ، من مشوىّ ومطبوخ من لحوم وحلوى . وهو يستدعى أصحابه إلى مائدته ليشاركوه أطايب شرابه وطعامه ، وليشنفوا أسماعهم بصوت المغنين ونغم آلاتهم . يقول فى دعوة :

أحبابَ قلبى دُمْتُمُ في نعمةٍ وراحَةِ
أقصى مرادى في الهوى بأنْ تحلُّوا ساحتِى

وقال :

دعَانا لِشُرْبِ الرَّاحِ بين الحدائق فقَاقعُ طَلٍّ في كؤوس شقائِق
وغنَّتْ لَنا الأطيارُ فوقَ غُصُونِها فأغْنَيْنَنا عن مَعْبدٍ ومُخارِق
فقمنا إليها نجتليها مدامةً كأن سناها في الدجى لمعُ بارقِ

ويشتهى من الطعام جدياً حنيذاً على رُقاقٍ سميذ يقول :

أريدُ جدْياً حَنيذاً يعلُو رقاقاً سميذا
وروضةً ونديماً وقينةً ونبيذا
وشادناً يتغنى شعراً مليحاً لذيذا

ويعشق من الحلوى القطائف فيقول فيها :

قطايفٌ كالعروسِ حاليةٌ وليس بعد العروس من عِطْرِ
كأنَّها رَوضةٌ مفَوَّفةٌ نباتها من مكرَّر القطرِ

ويحب اللوزينج فيقول :

ولَوْزينج راقت وطابت صفاتُهُ كشعر حبيب أو شعار حبيب
شهيٌ إلى كلِّ القلوبِ وقد حَوى مع السكَّر الغالى شهىَّ قلوب

ونجولَ في الديوان جولةً لنرى بعض ما يعرض علينا سيف الدين من ملامح الحياة في عصره وما يسجله قلمه نظماً مما يشاهده ، فتراه يعرض صوراً من الملاعب والملاهى كخيال الظلّ . وهو اللعبة المعروفة التى اشتهرت منذ عصر الفاطميين وعرفها عصر الأيوبيين والمماليك وظلت مقربة إلى نفوس المصريين حتى بداية القرن العشرين ونظم لها ابن دانيال بابات معروفة . يقول في خيال الظل :

رأيت خيالَ الظلّ أعظم عبرةً لمن كان في أوج الحقائق راق
شخوصٌ وأصواتٌ يخالف بعضها لبعضٍ ، وأفعالٌ بغير وفاقِ
تجيءُ وتمضى آيةٌ بعد آيةٍ وتفنى جميعاً والمدبِّرُ باقِ

ويقول مستغلاً خيال الظل فى السخرية من ملتح :

ألا قل للمكين ولا تبالى وعنّفه – فديتك فى المقال
تجىء بلحيةٍ من بعد أخرى كأنّك بعض صُنّاع الخيال

وكغيره من الشعراء والناس ، فهو لا يرضى دائماً عن كل شىء ، ولا عن كل الناس ، بل هو يكره ، ويبغض ، وينفر من بعض الأشياء وبعض الناس ، فيعرض لهؤلاء وهؤلاء بالهجاء ، وهو يسخر من أصحاب اللحى كما رأينا ، ولعل بعض كرهه ، أو نفر منه ، أو ضايقه كان من هؤلاء ، أصحاب اللحى الطويلة ، لأنه يسخر من واحد منهم فيقول :

لحيةٌ قَلَّ طُولُها من رَقيعٍ يَحُولُها
قال لمّا عَذَلْتُه حين بانت أصولُها
نَفَعَتْ منذ قُصِّرتْ ولكم ضَرَّ طولُها

وقال فى آخر موجهاً الحديث إلى جماعةٍ ، لعلهم من أصحابه :

أياكُمْ أن تصبحُوا فلاناً فما لَهُ خُلّةٌ حميدهْ
كأنه فى الورَى رصَاصٌ فى الثقل والنتْن والبُرودَهْ

وعلى الرغم من أن سيف الدين عاش حياته بطولها وعرضها ، ونعم بالجاه والمال ، وعب من ملاذ الحياة ومتعتها ، إلا أنا نعثر فى ديوانه هنا وهناك أبياتاً مفرقة فى الشكوى ، فيقول على سبيل المثال :

أرى الدهر لا يبقى علىَّ ولا يذر وأحذره جهدى ، وما ينفع الحَذرْ
يباعد عنّى كلَّ شىءٍ أودُّهُ فأصبرُ عن عجزٍ ، وأنصت عن حصَرْ
نظرت إلى الدنيا بعين بصيرةٍ فلم أرَ صفواً قَطُّ ما شابَهُ كدَرْ
وهل رَاحةٌ فى ذى الحياةِ لعاقِلٍ إذا لم يكُنْ للمرءِ عنْ حَيْنه مَفَرْ

ولعل من الغريب كذلك أن نجد ضرباً من التوبة ، أو الإقلاع عن شرب الخمر ، وديوانه يزخر بأوصاف الخمر ، والدعوة للمشاركة فى شربها والتغنى بما تبعثه فى النفس من نشوة . كل هذا كثير فى ديوانه إلا أنا مع هذا كله نراه يقول :

تركتُ المدامَ لشرَّابها وأعرضتُ عن رأى أربابها
جفتُ بها غير ما مرَّةٍ ونلتُ سقاماً بأسبابها
تداويتُ منها بتركى لها وهذى المداواةُ أولى بها
لكى يعلم الناس أنى أمرؤٌ أتيت المروءة من بابها

ولا يخفى أن الأبيات معارضة ، بها مناقضة لأبيات على الوزن نفسه لشاعر سابق ، ولا ندرى إن كان أقلع عن شرب الخمر واللهو لأن حاله قعدت به ، والزمن أرغمه لضعف الجسد ، أم أنها صحوة وتوبة ؟ . وعلى أية حال فإنا نعثر بهذه الأبيات التى يبتهل فيها إلى الله تعالى ! . فيقول :

يا منْ تعالى فقدَرْ ارحم علىَّ بنَ عُمَرْ
واسترهُ فى زلاتِهِ فأنتَ أولى من سَتَرْ
واغفر لمن قالَ أذىً آمين يا ربَّ البشَرْ

صنعتُه الشعرية

يمكن القولُ بعد هذا العرض لشعر سيف الدين المشد فى كثير من الموضوعات التى شغلته ، بأن الرجل لم يكن شاعراً متكسباً ، ولهذا لم يغلب على شعره المديح ، ولا مشابهة من موضوعات الشعراء المتكسبين أو المحترفين بل كان يقول الشعر لنفسه ، يروّج به ، ويتغنى ، ويستدعى أصدقاءه ويزجى فراغه ، ويتراسل مع بعض صحابته وإخوانه . وهو بهذا يشارك غيره من الملوك والأمراء والسادة والوزراء وكبار رجال الدولة ممن كانوا يعانون قول الشعر ، ولا يتكسبون به . وشعره قريب من هؤلاء فى درجته الفنية ، فهو من الوسط الذى لا يبلغ درجة الجودة ، ومعظمه سهل اللفظ والتعبير يعتمد كثيراً فى معانيه على محفوظه من أشعار السابقين ، ويستخدم لفظ القرآن وتعبيراته ، ويشير إلى قصصه كما يفعل كثيرون غيره فى أشعارهم وكتاباتهم ، ولعل هذه كانت من السمات الفنية للعصر عامة ولم تكن مقصورة على شاعر أو جماعة من الشعراء بأعينهم .

معـــانيه :

وإذا ما بدأنا الحديث عن معانيه ، فإنا نرى كما ذكرنا اعتماده على معانى الشعر العربى التقليدية فى موضوعاته المختلفة ، ونأخذ مثالاً من الغزل ، ونعرض لجملة مما ساقه فى الموضوع من المعانى فنراه على سبيل المثال يقول :

وأمْرضتنى جفونٌ منك قد مرضت ... وكان أنجح من طيب الدوا دائى

وهو من قول الشاعر جرير :

إن العيون التى فى طرفها مرضٌ ... قتلننا ثم لم يُحيينَ قَتْلانا

وكان يقول فى تشبيه الخدود والعيون :

يسعى بها من وجنتيه وطرفه ... وردٌ كما شهد الجمالُ ونرجسُ

ساقٍ تهاداه الندامى بينهم ... وكأنه ريحانةٌ فى المجلس

تنبيك طلعته وفاحم شعره ... عن بدر تمٍّ طالعٍ فى الحندس

فتشبيه الخدود بالورد والعيون بالنرجس والوجه بالبدر والشعر بالليل من التشبيهات الجارية المعروفة فى الشعر العربى من قبل .

وفى وصف الزهر والروض غب المطر يأخذ قول الشاعر المشهود :

كل يوم بأقحوان جديد ... تضحك الأرض من بكاء السماء

فيقول :

وإن تبسم فيك النور من جزلٍ ... سقاك من كلِّ غيثٍ كلُّ بكاء

ولكن مشتاق بين الصياغتين .

ويستخدم البديع فى صياغته ، ولا يكثر من الجناس ، بل يستخدمه استخداماً معقولاً ، كأن يقول :

لا صدَّح الدهر منك الزهر وانبجستْ ... عليك كل حقوق الودقِ بكاء

أو كقوله :

سـرُّ المسرَّةِ فى صدور الأكؤُسِ ... تخفيه إلاَّ عن كرام الأنْفُسِ

أو قوله :

لولا الهوى ما ذقتُ طعم الهوان ولا وهَى التعذيب عندى وهان

ويستخدم الطباق والمقابلة كذلك ، كأن يقول :

آمرٌ فى الحبّ ناهٍ عــذَل الصبَّ وولّى
عادلٌ عن عاشقيـــهِ وهو لا يعرف عَذلاً

أو كقوله :

ما ضمنِّي يوم الرحيل هَوىً بل كان يدنينى ليبعدَنِى

ويمزج بين الجناس والطباق فيقول :

لا تعذلونى فإنى غير متهم فى بذلِ مالى على طاس وطاووس
ملأت كأسى ، وكيسى فرغته يَدِى وعُدْتُ أكتالُ من كأسى على كيسى

ويأتى بالتشبيه والاستعارة فى مواضع عندما يميل إلى التصوير وتأكيد الصفة بمعنى من المعانى التقليدية غالباً . وقد يأتى بالصياغة الجارية فى التشبيه تعبيراً عن معناه أو يعدّل فى بعض اللفظ .

والظاهرة الواضحة فى صنعة سيف الدين استخدامه لألفاظ القرآن الكريم ومعانيه كأن يقول :

أقسمْتُ بالفجر ، وحق الضُّحى والنجْـم والليـل إذا يغشَى
لم أخش فى الدهرِ سوى هجركم ولستُ شيئاً غيرَهُ أخشـى

وكقوله مقتبساً من القرآن :

كأنما ثغـرهـا حبـابٌ أطافَ من ريقها بخمْـرِ
مقرُّها فى صـميم قـلبى والشـمسُ تجرى لمستقَـرٍّ

ويحاكى النظم القرآنى فى سورة الغاشية فيقول مستخدماً بعض ألفاظ السورة وآياتها :

يا نديمى عج بنا مسـرعاً فإننـا فى جنـة عاليـه
قطـوفها دانية المجتنـى وكم بها من أعين جاريه
عجل إلينا كى ترى أنعماً حاضرةً ما بيننا ، باديهْ
مقامنا عالٍ بما قد حوَى مجلسُنا من خضرةٍ سامِيهْ

ويستخدم الإشارة إلى المعانى القرآنية ، أو يستخدم اللفظ بإيحاءاته فى السورة أو القصة كقوله :

لاتجزعَـــنَّ لحادثٍ فلربمـــا | أن العسير به يصير يسيراً
بقميص يوسف نال يعقوب العما | ويريحه من بعدِ عاد بصيرا

وكقـوله :

وقائلٍ يُدَّعى فى القلب نارَ هوىً | مِمَّن يحبُّ وهذا غاية العَجَبِ
وكيف ترضَى لمن تهوى سلامتَه | بأن يكون حليف الهلكِ والعطبِ
أجبتـه بلسان الحال مبتدئاً | هو الخليل فما يَخْشَى من اللَّهب

وفى عجز البيت الثالث هذه الاستعانة بقصة الخليل ابراهيم والنار ، وهى تورية كذلك ختم بها هذه المقطوعة لتصبح مُلْحَتها .

ويستعين بالحديث ومصطلحه فيقول :

حديث شوق إليكم عالى السَّنَدِ | يا من همُ جيرةُ العلياء والسَّنَدِ
وللدموع أحـاديث مسلسلةٌ | أتى بها من طريق الدمع والسُّهد
لما تواتر يوم البين مُرْسَلُها | أبان لى أن ما تمليه من كبدى
وعن غرامى حكى فرطُ الضَّنَى خبراً | قد خَرَّجتْه رُواةُ السُّقْم من جَسَدِى

وربما كان هذا المثال ضرباً من التظرف أو الرياضة فى استخدام المصطلح .

ويستخدم مصطلح علوم العربية والاسلامية كالنحو ، وعلوم القرآن ، والكلام والأدب . يقول :

أمالى الشَّوقِ يرويها عن القالى | قلبى المعنَّى وجسمى الناحلُ البالى
وللدموع أحـاديث مسلسلةٌ | عن الصحيحين : تبريحى وبلبالى

وكقــوله :

إلى وان أصـبحتُ سُنيَّها | أحبُّ آل المصطفى الهاشِـمى
فى حـالة السـخطِ أوالى الرِّضَا | وأقتدى فى الغيـظ بالكـاظِمِ

أو يقول ناظماً أسماء الفرق والملل والنحل :

يا مالكي شافِعي ذُلّي فصِلْ كرماً ... ولا تكنْ رافضِي واقصر عن المَلِلِ
وجملة الأمر أني مغرمٌ دنفٌ ... شوقِي إمامي وصبْرى عنك معتزلِى

ويقول :

صحاح ثناياك للجوهرى ... وتهذيب خلقك للأزهرِ
وشعركُ والردفُ من خلفهِ ... شعارُ خطيب على منبرِ

فالصحاح كتاب فى اللغة للجوهرى وكذلك تهذيب الأزهرى .

وترد بين ألفاظه بعض ما يستخدم من قاموس العصر الذى يتداخل فيه اللفظ العامى والفارسى والتركى والرومى أحياناً . من ذلك قوله :

يا أيها المولى الأمير الذى ... يرعدُ قلب الجيش من خاشيَهْ
إن كان مملوكٌ قضى نحبَهُ ... الله يُبقيكَ لخشداشيَهْ

فلفظ « خشداشيه » من الألفاظ التركية التى استخدمت فى عصر الأيوبيين لتدل على وظيفة فى حاشية السلطانِ أو الأمير يتولاها غالباً أحد المماليك المقربين .

ويقول هاجياً أحد معاصريه :

قفاهُ صلبٌ ماسِكْ ... فلتتعبْ اللوالِكُ
ما ذاك مما تشتكى ... من صفعه الشماشِكُ
يقولُ إذ تصفعُه ... لشومه : مجانِكُ
دارِكْ خُطَاك بالرِّضا ... فللرِّضا مدارِكْ

وقال وقد سيَّر له الأمير جمال الدين ابن يغمور سكردان فكتب إليه :

وافى السَكردان وفى ضمنِه ... بَطبخَاتٌ من دراريج
كأنه بدرٌ وقد رصعتْ ... فيه ثرياً من سكاريج

وصياغته الشعرية فى مجملها صياغة عادية أقرب إلى صياغة النثر ، لا تشعر فيها بسبْك أو تركيب معجب ، وليسَ بالصياغة المطربة المرقصة إلا ما استدعاه الوزن ، فلا تلمح فى شعره طلاوة غالباً ، وإن بدت خفة الظلّ فى بعض ما نظم من هجاء أو سخرية

وقد تحس فى بعض صياغاته افتعالاً ، وتحايلاً على التركيب ليبلغ به الموافقة للوزن ، كما تحسُّ فى مواضع غير قليلة بافتعاله للقافية . على أنه قليلاً ما ينظم فى قصائد طويلة ، فعددها محدود فى الديوان ومعظم شعره مقطعات . وأوزانه فى أكثرها من الخفيفة ، وقليلاً ما ينظم على بحر الطويل ، أو البسيط ، وأكثر منها على الوافر ، والخفيف ومخلع البسيط ، والمتقارب ، والمجزوءات من مثل قوله :

وشـــادن كمـالـــهُ حجَّـة من قـد عِشـقَهْ
قـد لطـفت أخـلاقُه سبحان من قد خلقـه

أو مثل قوله :

اسـقيها يا نديمى من ثنيات الكـروم
من يدى ساقٍ غريرٍ خنثِ الدلّ رطيمَ

أو قوله :

ومهفهـف عنـج الشـ ـمائل فى لواحِظِه حَوَرْ
ريان من ماءِ الشـبا بِ ، يكادُ يدميـه النظـرْ

أو قوله :

إذا أصـبحت مخمورا فـداو الخمـر بالخمـر
ولا تصـح من السـكرِ فإن العيش فى السـكرِ
و لاتصـغ إلى زيـد لَحـافيها ولا عمــرو
وعش ما اسطعت سكراناً ومخمــوراً إلى الحشر

وبعد فسيف الدين فى شعره ممثل لعصره فيما يحكيه ، وما ينظمه ، وهو يمثل هذه الطبقة من الشعراء ، بل من الناس الذين يعيشون فى كنف السلاطين والملوك يشتغلون بالعلم ، ويقضون أوقاتهم برياضة النظم ، ويتخذونه تسليه وملهاة أحياناً ، وينفقون من خلاله همومهم ، وأشجانهم أحياناً ، على أنهم فى كل حين لا يخرجون عن طابع تلك الطبقة خاصة ، وطابع عصرهم عامة فى موضوعات الشعر وتعبيراته .

وعلى ما رأيناه فى شعره من هذا القدر الوسط فى الفن الشعرىّ إلا أن ابن

سعيد يرى فيه رأياً آخر إذ يقول[1] : « وهو فى الشعر من أفراد العصر . وقد أقول :ما وجدت مثل غوص فكرته مشرقاً ولا مغرباً » .

(١) النجوم الزاهرة ص ٢٣٤ .

عمر بن الفارض الشاعر الصوفى
توفى سنة ٦٣٢

ويمكن أن نعد عمر بن الفارض من جماعة المصريين الذين عاصروا القاضى الفاضل ومدرسته من الشعراء ، ولكنه لم يختلط بهم ولم يتأثر بطريقتهم الفنية فى الشعر إلا أنه مع ذلك احتفظ بروح العصر عامة ، وإن لم يتجه للبديع اتجاهاً مسرفاً ولم يفرّط فى عمود الشعر التقليدى ، بل حافظ بقدر الإمكان على الطابع القديم ، وروح الشعر الحجازى خاصة فى عصر الأمويين .

وإذا كان عمر بن الفارض قد نهج هذا النهج فى شعره من حيث الشكل إلا أن موضوعه اختلف ، فقد غلب عليه التصوف وإن أُلبست معانيه أثواباً من المعانى التقليدية فى الغزل والنسيب والوصف والخمريات وما شابهها .

ولد ابن الفارض سنة ٥٧٦ هـ وكانت تظله دولة صلاح الدين ، وعاش فى مصر وتفقه على والده وجماعة من علمائها ، واتخذ مذهب الشافعية طريقاً فى علمه وألمّ بكثير من علوم الدين واللغة والأدب ، ونبغ فى عمل الشعر وصبغه بلونه الصوفى بعد أن اتجه للتصوف . قال ابن خلكان : « وله ديوان شعر لطيف ، وأسلوبه فيه رائق ظريف ، ينحو منحى طريقة الفقراء[1] » .

وانتصر له المناوى صاحب « الكواكب الدرية » وفضله على شعراء عصره ، قال : « المعروف بين أهل الخلاف والوفاق بأنه سيد شعراء عصره على الإطلاق ، له النظم الذى يستخف أهل العلوم ، والنثر الذى تغار من النثرة ، بل سائر النجوم » .

وأشار المناوى فى أكثر من موضع من كتاب الكواكب إلى أن ابن الفارض كان كثير التأمل فى مشاهد الطبيعة ، والوقوف أمامها صامتاً يُجيل نظره ويسرح بفكره فى محاسنها . قال : « وكان أمام النيل يتردد إلى المسجد المعروف بالمشتهى فى الروضة ويحب مشاهدة البحر مساء » . ويقول :

(١) وفيات الأعيان ١ / ١٣٦ طبع محيى الدين عبد الحميد سنة ١٩٤٨ .

« وكان عشاقاً يعشق مطلق الجمال وكان عشقه للجمال ، وحبه للفن مغروساً في نفسه حتى إنه كان فناناً بطبعه حساساً لنغمات الموسيقى والرقص وكل ما يوحى بروح الفن حتى إنه ، كما قيل عنه ، كان يذهب إلى جوارٍ له بالبهنسا يغنين له بالدف والشبّابة وهو يرقص ويتواجد » .

والرقص والغناء والإيقاع الموسيقى ليس غريباً على المتصوفة والواجدين وربما مثلت لنا قصيدته اليائية لوناً من هذا الإيقاع الصوفى الراقص إلى جانب ما تحمل من المعانى الصوفية فى الصور التقليدية :

سائق الأظعان يطوى البيد طى ... منعماً عرّج على كثبان طَيّ
وبذات الشيح عنى إن مررت بحـ ... ـىٌّ من عَـريب الجزع حَيّ
وتلطفْ واجرْ ذكرى عِنْدهُم ... عَلَّهُمْ أن ينظروا عطفاً إلىّ
قُلْ تركتُ الصَبُّ فيكم شَبحاً ... ما لهُ مما براهُ الشوقُ رقىّ

وشعر عمر بن الفارض على النسق نفسه الذى جرى عليه شعر عمارة اليمنى وبعض شعراء الشام والعراق ممن عرضنا لهم بين التقليديين . وقد اهتم علماء التصوف بشعر عمر ابن الفارض من وجهة نظر الصوفية وتعاليمهم وما تردد فى هذا الشعر من المعانى الصوفية كالوجد ووحدة الوجود والعشق الإلهى وما إلى ذلك .

وليس مجال هذا البحث التعرض لمثل هذه القضايا فى موضوعات الشعر وتكفى الإشارة ، ويمكن للمستزيد أن يطلب ما يريد فى مصادره المتعددة .

ولكن المهم فى هذا العرض أن نتبين ما فى شعره من السمات الأدبية التى كانت تطبع شعره بطابع العصر ، أو التى كانت تميزه دون غيره من شعر الآخرين وعلى ما بدا فى شعره من اتجاه إلى الأسلوب التقليدى ، والاعتماد على الصور القديمة وخاصة فى التعبير عن مواجده كقوله :

أرج النسيم سرى من الزوراء ... سحراً فأحيا ميت الأحياء
أهدى لنا أرواح نجد عَرْفُه ... بالجوِّ منه معنبرُ الأرجاءِ

ويقول فيها :

ياساكنى البطحاء هل من عودةٍ   أحيا بها يا ساكنى البطحاء
إن ينقضى صبرى فليس بمنقضٍ   وجدى القديمُ بكم ولا برحائى
ولئن جفا الوسمىّ ماحلَ تُربكم   فمدامعى تُربى على الأنواءِ
واحسرتى ضاع الزمان ولم أفز   منكم أهيل مودتى بلقاء

وقد عبر عن هذا الحب والوجد الإلهى بصور شتى من التعبيرات التى استعارها من شعراء الحب العذرى أحياناً . وتمثله وقد ملك عليه الحب كل قلبه ، وغيبه عن كل شيء إلا عن محبوبه الذى لاق فى سبيل الاتصال به والاتحاد معه ما يحتمل ومالا يحتمل من أهوال وتباريح . وقد لقب بسلطان العاشقين لقوله :

يحشر العاشقون تحت لوائى   وجميع الملاح تحت لواكا

وقوله :

نسخت بحبى آية العشق من قبلى   فأهل الهوى ضدى وحكمى على الكلّ
وكل فتى يهوى فإنى إمامهُ   وإنى برىءٌ من فتىً سامع العذلِ
ولى فى الهوى علمٌ تجلُّ صفاتهُ   ومن لم يُفقّهه الهوى فهو فى جهلِ

وحب الشاعر حبٌّ يتخطى دائرة الحسّ ، فهو حب صافٍ من قيود المادة ، قد خلص نفسه من كل شوائبها وأقبل على حبيبه الذى يحليه الجمال المطلق ، فى أسمى صوره المعنوية . ومن أخص خصائص هذا الحبيب كل ما فى الكون من آيات الحق والخير والجمال . ونختار له هذه الأبيات فى وصف حبيبه ، وإن صاغها فى تعبيرات حسيّة اختارها من أوصاف الخمر وكؤوسها ومجالسها ، لكنه يخرج بها إلى المعانى المطلقة فيقول :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة   سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرْمُ
لها البدر كأسٌ وهى شمس يديرها   هلالٌ وكم يبدو إذا مزجت نجمُ
ولولا شذاها ما اهتديت لحانها   ولولا سناها ما تصوّرها الوهمُ
ولم يبق منها الدهر غير حُشاشةٍ   كأن قَدْ خفَاهَا فى صدور النُّهى كتْمُ
فإن ذكرت فى الحىّ أصبحَ أهله   نشاوى ولا عارٌ عليهم ولا إثمُ
وإن خطرت يوماً على خاطر امرىءٍ   أقامت به الأفراح وارتحل الهمُّ

ولو نظر الندمان ختم إنائها لأسكرهم من دونها ذلك الختمُ
ولو عبقت فى الشرق أنفاس طيبها وفى الغرب مزكومٌ لعادَ لهُ الشمُّ
ولو خضبت من كأسها كفُّ لامس لما ضلَّ فى ميل وفى يده النجمُ
تهذب أخلاق النواحى فيهتدى بها لطريق العزم من لا له عزمُ
يقولون لى صفها فأنت بوصفها خبيرٌ أجلْ عندى بأوصافها علمُ
صفاءٌ ولا ماءٌ ولطف ولا هواً ونورٌ ولا نارٌ وروح ولا جسمُ
تقدمَ كلَّ الكائنات حديثُها قديماً ولا شكلٌ هناك ولا رسْمُ
وقامت بها الأشياء ثمَّ لحكمةٍ بها احتجبت عن كل من لا له فهم

وفى هذه الوجدانيات تتردد كثير من معانى الصوفية السابقين ، ففيه عشق رابعة العدوية ، ومعانى الحلاج وغيره ممن آمنوا بالحلول ، ومن نادى بوحدة الوجود ، ومن قال بالإشراق وشبه الحقيقة الأزلية بالأنوار التى تتكشف له بعد رياضة روحية وتخلص من ظلم المادة والحسّ .

كذلك نرى فى بعض معانيه الوجدانية صوراً قريبة من صور الخيام وإن اختلفت فى منحاها ومعانيها ، وقد عاش الخيام فى القرن الخامس الهجرى فى نيسابور ولاشك وقف ابن الفارض على كثير من كتب من سبقوه من الصوفية الكبار أو آراء من عاصروه كابن عربى والسهروردى القتيل ، فتسربت بعض أفكارهم إلى شعره .

ونحسب أننا مددنا بعض الشىء عن مقصدنا ، ونعود مرة أخرى للحديث عن أسلوب ابن الفارض فى شعره فنراه يستخدم كثيراً من المحسنات البديعية على طريقة أهل العصر كقوله :

نعَمْ بالصَّبا قلبى صَبَا لأحبتى فيا حبذا ذاك الشَّذا حين هبَّت
سَرَت فأسرَت للفؤاد غُدَيَّةً أحاديث جيران العذيبِ فسرتِ

وكقوله فى القصيدة نفسها :

أيا زاجراً حُمْرَ الأوراكِ تارك الـ موارِكِ من أكوارها كالأريكةِ
لك الخير إن أوضحتَ توضحُ مضحياً وجُبتَ فيافى خبتَ آرام وجْرَةِ
ونكبت عن كثْبِ العُرَيض مُعارضاً حُزُوناً لحُزْوَى سائقاً لِسُوَيقَةِ

وفيه من الجناس المتكلف حظٌّ غير قليل . وقد كثر هذا اللون من الصنعة فى هذه القصيدة وغيرها من شعره ، وقد مال إليه شعراء القرن السادس كثيراً وخاصة أهل الشام فأسرفوا فيه إسرافاً .

واستخدم ألوانه فجاء به تاماً ومشابهاً ومخالفاً ، ومذيلاً ، ومركباً ومصفحاً . كما جاء بأنواع أخرى من الصنعة اللفظية كالطباق . كقوله :

خير الأُصَيْحاب الذى هو آمرى   بالغىِّ فيه وإن رشدى زاجرى

وقـوله :

غلب الهوى فأطعت أمر صبابتى   من حيث فيه عصيت نهى معنِّفى

والمقابلة فى قوله :

منِّى له ذلّ الخضوع ومنه لى   عِزُّ المُنوع وقوةُ المسْتضْعِف

والترصيع فى قوله :

أُربت لطافته على نشْر الصَّبَا   وأبتْ طرافته التقمص لاذا

ورد العجز على الصدر كقوله :

يا ساكنى البطحاء هل من عودةٍ   أُحيْا بها يا ساكنى البطحاء

أما صنعته المعنوية ، فإنها تدور حول التشبيهات والاستعارات التى عرفت فى شعر الغزل وشعر الخمر فى الأدب العربى القديم ، وخاصة فى غزل العذريين أمثال جميل والمجنون وغيرهما من شعراء الحجاز فى عصر الأمويين .

وقد كان للحجاز فى هذا العصر ، ونجد ، وبعض بقاع الجزيرة العربية صدى خاص فى أشعار عرب هذا العصر ، فهم يجدون من الحنين إليها ، والتشوق لها ولمواقعها ما يصفونه فى صور مختلفة بأشعارهم تعبيراً عما يكنونه بين الجوانح من تعلق بالأرض المقدسة ، ومحبة للنبى فى ذلك المكان الكريم بالحجاز ، وهو دائم لمنزل الوحى فى مكة وجنباتها الطاهرة .

وقد عاش ابن الفارض فى مكة وجاور زمناً ، ولاقى هناك بعض الصحاب وكانت بينها صحبة ومحبة فى الله ، كذلك تعبد ، وتأمل ، وتفرد ، وأخلص

روحه لذكر ربه ، وحب نبيه . ولهذا كان فى أشعاره يكثر من ترديد هذه المعانى ومن التشوق للحجاز وأرضه ، لأنها مكان أحبته سواء كانوا رمزاً لحبه لله ونبيه أم كانوا صحاباً حقيقيين .

ولما كان غالب ديوانه الذى وصلنا فى موضوع واحد هو الحب الإلهى ، أو الغزل الصوفى ، لذلك اختلف الباحثون فيما جاء فى شعره من تشبيهات واستعارات وأسماء محبوبات كمىّ وليلى وغيرهما . أهى تشبيهات يراد بها معان كلية عامة أو تشبيهات لا تعدو معانيها العادية الجارية فى الشعر العربى ؟ ، وإذا صح أن هذه المعانى الكلية فى قصائده التى يظهر فيها الوجد الصوفى كالتائية الكبرى ، أفيصح هذا بالقدر نفسه على كل قصائد الديوان ؟ ، ألا يجوز أن يكون ابن الفارض قد تغزل غزلاً عادياً ، واضطرب المفسرون فى تأويله على مذهبه فى الحب الإلهى ؟! .

ومهما يكن من شىء فإنه قد استخدم ما استخدم الشعراء فى هذا الموضوع من الحديث عن حال المحب من ضنى ، ومحول ، ونُحول ، وتشبيه هذا الضنى فى صور مختلفة ، فالعيون باكية ساهرة نادرة الرقاد تبكى الدمع مخضباً بالدم . كقوله :

يامانعى طيب المنام ومانحى ... ثوب السقام به ووجدى المتلِف
واسأل نجوم الليل هل زار الكرى ... جفنى ؟ وكيف يزور من لم يعرِف
لا غرو أن شحّت بغمض جفونها ... عينى وسحت بالدموع الذُّرَّفِ

أو يقول :

لله أجفانُ عينٍ فيك ساهرةٍ ... شوقاً إليكَ وقلب بالغرام شج
وأضلع نحلت كادت تقوِّمُها ... من الجوى كبدى الحَرَّى من العَوج
وأدمعٌ هملت لولا التنفس من ... نار الهوى لم أكَدْ أنجو من اللُّجَجِ

وقال :

نأيتم فَغَيْرَ الدمع لم أرَ وافياً ... سوى زفرةٍ من حرِّ نار الجوى تغلو
فسهدى حىٌّ فى جفونى مخلَّدٌ ... ونومى بها ميتٌ ودمعى له غُسْلُ
هوى طلَّ مابين الطلول دمى وملْ ... ء جفونى جرى بالسفح من سفحه وبْلُ

وقد أخذ الهوى من هذا المحب مأخذه ، كذلك فعل طول البعد ، والشوق وكثرة ما ذرف من الدمع ، وما عاش من ليالى السهاد يرقب النجوم فعاد جسم المحب نحيلاً يصوره الشاعر صوراً شتى ، فهو قد خفى لضآلة شأن جسمه نحولاً :

خفيتُ ضنىً حتى لقد ضَلَّ عائِدى ... وكيف ترى العوَّادُ من لا له ظلُّ
وما عثرتْ عينٌ على أثرى ولم ... تدع لىَ رسماً فى الهوى الأعين النُّجْل

ومنها الوفاء ، والمحافظة على الوداد من خصال العاشق المتيم ، ويعبر عنها فى صور مختلفة :

جرى حبُّها مجرى دمى فى مفاصلى ... فأصبح لى عن كل شغل بها شغل
فنافسْ ببذل النفس فيها أخا الهوى ... فإن قبلتها منك يا حبذا البـذل
فمن لم يجد فى حـبِّ نُعْم بنفسه ... ولو جاد بالدنيا إليه انتهى البخْل

ويقـول :

وحرمةِ الوصْل والودِّ العتيق وبالعهْـ ... ـدِ الوثيق وما قد كان فى القدم
ما حلـتُ عنهم بسلوان ولا بدل ... ليسَ التبدلُ والسلوان من شِيَمى

ثم يتحدث عن الرسل والعذال ، وأنه قد يسمع أقوال العاذلين أو أنه إذا سمع فإنما يصغى ليطرب لترداد اسم الحبيب ولا يأخذ بما فيها من العذل والملامة لأن قلبه مغلق دونهما .

ويتصل بذكر هذا الوفاء على العهد كثرة التذكر لأيام اللقاء الأول والسعادة الغامرة التى لقيها فيه ، ولقاؤه هنا فى أماكن بعينها كما ذكرنا ، هى الحجاز وأماكنه المقدسة ، مكة والمدينة (الزوراء) ونجد وروابى نجد وشعاب البلاد المقدسة ، وحين يتذكر هذه الأماكن ، فهو يتشوق لرؤية محبوبته نعم أو ليلى أو مىّ ، أو يتشوق لخالقه ، ولرسوله الكريم صراحة أو يتشوق لصحابته وأحبابه دون ذكر أحد ، أو يتشوق لمحبوب مُبْهم يرمز له بغزال أو ظبى أو ما شابهه .

وتعود له الذكرى على جناح نسيم الصباح الرقيق ، أو ريح الصبا الناعمة .

أرجُ النسيم سرى من الزوراء ... سحراً فأحيا ميت الأحياءِ
أهْدَى لنا أرواحَ نجد عَرْفهُ ... فالجوُّ منه معنبر الأرجاءِ

أو بقوله :

يا ساكنى البطحاء هل من عودةِ ... أحيا بها يا ساكنى البطحاءِ

ويقول :

أسْعِدْ أخىَّ وغنّنى بحديث من ... حلَّ الأباطح إن رعيت إخائى
وأعده عند مسامعى فالروح إنْ ... بعُدَ المدى ترتاح للأنْباءِ
وإذا أذى ألمٍ ألمَّ بمهجتى ... فشذا أعيشاب الحجاز دوائى

ويقول :

سقياً لأيام مضت مع جيرةٍ ... كانت ليالينا بهم أفراحا
حيث الحمى وَطنى وسكان الغضا ... سكنى ، ووردى الماءَ فيه مُباحَا
وأهيلهُ أربى وظلُّ نخيله ... طربى ورملةُ واديَيْه مَراحا
واهاً على ذاك الزمان وطيبه ... أيام كنتُ من اللغوب مُراحَا
قسماً بمكةَ والمقامِ ومنْ أتى الـ ... بيتَ الحرامَ ملبياً سياحا
ما رنّحتْ ريحُ الصبا شيحَ الرُبا ... إلا وأهدتْ منكم أرواحا

ويقول :

يا سميرى روّح بمكةَ روحى ... شادياً إن رغبتَ فى إسعادِى

وأما الحبيبة فقد صورها كما قلت فى صورة الجمال الكامل والكمال المطلق ؛ وإن عبر عنها كما اعتاد شعراء الغزل التعبير فى قوالب التشبيهات والاستعارات والمعانى المطروقة للنساء .

فهى فى جمال نور يشع فيملأ الدنيا ضياء كالقمر ، وهى كالظبية فى جمالها تلفت ، وهى لينة القد كقضيب النقا .. فيقول :

لِيَهْنَ ركبٌ سروا ليلاً وأنْت بهم ... بسَيْرهم فى صباح منك مُنْبلج

ويقول :

آه وأشواق لضاحى وجهها ... وظما قلبى لذيَّاك اللَّعَسْ

انحلتْ جسمي نحولا خصرها | منه حال فهو أبهى حُلّتى
إن تثنت فقضيبٌ فى نَقا | مثمرٌ بدرَ دجىً فرعُ ظُلَمْ

. . . .

خرت الأقمارُ طوعاً يقظةً | أن تراءت لا كرؤيا فى كَرَىْ

ويقــول :

وبطرفه سحرٌ لو أبصر فعله | هاروتُ كان له به أُستاذا
تهذى بهذا البدر فى جو السما | خلِّ افتراكَ فذاك خِلّى لاذا
عنت الغزالة والغزالُ لوجهه | مُتلفتاً وبه عياذاً لاذا

ويشبه محاسن هذه المحبوبة فى نظرتها بنظرة الغزالة ، وفى قوة فعلها بالسهام والرماح والسيوف المشحوذة :

احفظ فؤادكَ إن مررت بحاجر | فظباؤه منها الظُّبى بمحاجر
فالقلب فيه واجبٌ من جائزٍ | إن ينجُ كان مخاطراً بالخاطر
وعلى الكثيب الفرد حىٌّ دونه الـ | آسادُ صرعى من عيون جآذر

ووجهها جميل يضيىء بمفاتن الجمال كلها التى يراها البشر فى جمال الابتسامة وطيب الرائحة أو تورد الخدود ، وتحليلها بالخال :

كعرس جُليست فى جبَر | صُنع صَنْعَاءَ وديباج نُجَوَىْ

وهى :

أَرَبَتْ لطافته على نشر الصَّبا | وأبت تراقته التقمُّس لاذا
وشكت بضاضةُ خده من وَرْدِهِ | وحكتْ نطافَةُ قلبه الفولاذا
عَمَّ اشتعالاً خالُ وجنته أخا | شُغُل به وجداً أبى استنقاذا
خَضِرُ اللمى عَذْبُ المُقبَّل بُكرةً | قبل السواك المسكُ سادَ وشاذا
من فيه والألحاظِ سكرى بل أرى | فى كل جارحة به أنبْاذا
نطقت مناطِقُ خصره ختماً إذا | صَمَتُ الخواتِمِ للخناصِر آذى
كالغُصن قداً والصَباحِ صباحةً | والليل فرعاً منه حاذى الحاذا(١)

(١) أي حاذي الظهر والحاذ الظهر وحاذاه وازاه .

وبناء القصيدة عند ابن القارض يشبه البناء التقليدى للشعر العربي ولكنه يكتفى منه بالمطلع أى الجزء الخاص بالنسيب ، ومع ذلك فهو لا يتبعه تماماً ، فلا يقفو أثر التقليديين باستيقاف الصاحب أو الصاحبين والوقوف على الأطلال أو التَّعريج عليها ، ثم التذكر والتشوق ، والدعاء بالسقيا للديار وما إلى ذلك ، بل هو يعرج على هذه المعانى دون ترتيب ، ولا يكاد يذكر استيقاف الصاحب إلا قليلاً ، وهو يطالب الحادى إلى بلاد الحبيب أن يقف :

سائِق الأظعان يطوى البيد طَىْ ... مُنعِماً عرِّج على كثبان طَىّ
وبذات الشيح عنى إن مَرَرْ ... تَ بحىٍّ من عريب الجزع حَىّ

أو يقول وقد رأى نار ليلاه وهو مع الركب ، أو ليس معهم :

أوميض برق بالأبيرق لاحا ... أم فى رُبى نجد أرى مصباحَا
أم تلك ليلى العامرية أسفرتْ ... ليلاً فصيرت المساءَ صباحا
يا راكب الوجناء وُقِّيت الردى ... إن جبتَ حَزْناً أو طويت بطاحا
وسلكت نعمان الأراك فعُجْ إلى ... وادٍ هناك عهدته فياحَا

وكثيراً ما يبدأ قصائده بدءاً لا يتقيد فيه بذكر الركب أو الظعائن وما شابهها ، بل قد يعمد إلى تذكر حبيبه بالنسيم أو ريح الصبا .

لم تكُنْ أمناً من حكم لا ... تقصُص الرؤيا عليهم يابُنَىْ

ومن قوله :

فليَصْنع الركبُ ما شاءُوا بأنفسهم ... هم أهل بدر فلا يخشون من حَرج

ومن الأقوال المأثورة :

وقل لقتيل الحب وفيتَ حقّه ... وللمدعى هيهاتَ ما الكَحَلُ الكُحلُ

وقد جارى ابن الفارض من سبقه من كبار شعراء العربية فى نهج القصيدة ووزنها ورويها أحياناً . وله القصيدة الدالية . جارى فيها المتنبى ، واستخدم كل قوافيها . قال المتنبى :

أمساورٌ أم قرنُ شمس هذا ... أم ليث غاب يقدم الأستاذا

وقال ابن الفارض :

صدُّ حمّى ظمئى لمَاكَ لماذا   وهواك قلبى صارَ منه جُذَاذَا

ويعتمد على قصيدة المتنبى فى مساور بن محمد ، فيضمن بعض معانى أبياته كقوله :

فتكا بنا يزدادُ منه مُصوراً   قَتْلى مساورَ فى بنى يزداذا

قال المتنبى :

هبكَ ابن يزداذٍ حطمت وصحبه   أترى الورَى أضحوا بنى يزداذَا

واختلف موضوعا القصيدتين ، فالمتنبى يمدح وابن الفارض مستغرق فى مواجده . ويعارض البحترى فى قصيدة أخرى ، كما يتعقب أبا نواس .

ومن هنا يتضح لنا فى هذا العرض لشعر ابن الفارض مكانته الشعرية بين أقرانه فهو شاعر ذو طابع خاص فى موهبته الشعرية ، التزم لوناً معيناً ، هو الوجد الروحى والتصوف على طريقة « وحدة الشهود » ، ينظم تجاربه الصوفية فى شعر رقيق غامر بالعاطفة ، فتحس بالتكامل بين بنائه الشعرى ومعانيه ، تكاملاً يرقى به فى ميدان التصوف إلى شعراء الصوفية الفرس الكبار أمثال جلال الدين الرومى ، وفى ميدان الشعر الوجدانى إلى مراتب العاشقين أمثال مجنون ليلى وجميل بثينة والعباس بن الأحنف ، والشريف الرضى ، وفى نصوع البيان وتحكمه فى الصنعة درجة البحترى والمتنبى .

أرج النسيم سرى من الزوراء   سحراً فأحيا ميت الأحياء
أهدى لنا أرواح نجدٍ عرفُه   فالجوُّ منه معنبر الأرجاء

أو يقول :

نعَمْ بالصَّبَا قلبى صَبَا لأحبّتى   فيا حبذا ذاك الشذا حين هبَّت

وقد يصطنع مطالع شعراء الخمر كأبى نواس وغيره فيبدأ بذكر الخمر ، كما بدأوا ، مستعيضين بها عن ذكر الرحلة والراحلة كقوله فى الثانية :

سقتنى حُمَيَّا الحبُّ راحة مقلتى   وكأسى مُحَيّا مَن عن الحسْن جلَّت
فأوهمت صحبى أن شُربَ شرابهم   به سُرَّ سِرِّى فى انتشائى بنظرة

أو قوله :

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً ... سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرمُ
لها البدر كأسٌ وهي شمس يديرها ... هلالٌ وكم يبدو إذا مُزجتْ نجْمُ
ولولا شذاها ما اهتديتُ لحانِها ... ولولا سناها ما تصورها الوَهْمُ

وقد يبدأ في الحديث عن الحب دون مقدمة كقوله :

هو الحبُّ فاسلَمْ بالحشا ماالهوى سهلُ ... فما اختارَهُ مُضْنًى به وله عَقْلُ

ويكثر ابن الفارض الاقتباس من القرآن ، والحديث والأثر ، والأخبار والمأثور من أقوال العرب والشعر القديم .

كقوله مقتبساً الآية الكريمة :

يا سائق الأظعان يطوي البيد معتسفاً ... طيَّ السجل بذات الشيح من إضـمِ

ومن سورة يوسف :

وإذا ولَّتْ تولت مُهجتي ... أو تجلَّتْ صارت الألبَاب فَيْ
وأبي يتلُوَ إلا يوسفاً ... حسنها كالذكر يُتْلَى عن أُبَيْ
خرَّتْ الأقمارُ طوعاً يقظةً ... أن تراءَتْ لا كرؤيا في كُرَىْ

شعراء الطبقة المصرية الثانية

وجاء بعد مدرسة القاضي الفاضل جماعة من شعراء المصريين ممن نبغوا فى المائة السابعة واتبعوا أصول المدرسة الأولى وخصائصها الفنية ، وإن بدت فى هذه المدرسة الثانية خصائص جديدة تميل بالشعر إلى السهولة ، واستخدام اللغة السهلة والتعبيرات الدارجة المستقاة أحياناً من لغة المصريين العامية وتعبيراتهم الشعبية اليومية . هذا مع الميل إلى الظرف وروح الدعابة ، والاهتمام باللغز واللعب أحياناً بالمعانى العقلية ، والقضايا العلمية ، وتضمينها فى أسلوب سهل ممتع كأسلوب البهاء زهير عَلم هذه المدرسة ، وزميله جمال الدين بن مطروح .

البهاء زهير

الشاعر المصرى شعبى الروح خفيف الظل

ويعد البهاء زهير كما قلت عَلم هذه المدرسة الثانية التى ظهرت فى النصف الأول من القرن السابع . وقد ولد البهاء زهير خامس ذى الحجة سنة ٥٨١ هـ وتوفى رابع ذى القعدة سنة ٦٥٥ هـ ، وكانت ولادته بمكة ولكنه انتقل مع والديه صبياً إلى قوص حيث نشأ وتعلم على خيرة علمائها ، والتقى بأدبائها المرموقين فنضجت موهبته واستقى من نبع الثقافة المصرية الزاهرة فى قوص وقتئذ . كما تلقى الروح المصرية وتشربها فجرت فى عروقه مجرى الدم حتى صار كما قال عنه مصطفى عبد الرازق « مصرى المنشأ ، مصرى الروح ، مصرى العاطفة »[1] .

وقد أحب مصر حباً كبيراً ، أحب طبيعتها وأرضها وشرب من نيلها فتيم به ، ولهج لسانه بهذا الحب الكبير ، وترددت أصداؤه فى ديوانه الكبير ، ومما قاله متذكراً مصر فى إحدى رحلاته خارجها :

فرعى الله عهد مصر وحيا ... ما مضى لى بمصر من أوقات
حبذا النيل والمراكب فيه ... مصعدات بنا ومنحدرات
هات زدنى من الحديث عن النيـ ... ـل ودعنى من دجلة والفرات
وليالى فى الجزيرة والجيـ ... ـزة فيما اشتهيت من لذات
بين روض حكى ظهور الطواويـ ... ـس وجوّ حكى بطون البزاة
حيث مجرى الخليج كالحية الرقطـ ... ـاء بين الرياض والجنات

وكقوله فى حب مصر وتفضيلها على غيرها من الأوطان :

ولم أر مصراً مثل مصر تروقنى ... ولا مثل مافيها من العيش والخفض
وبعد بلادى فالبلاد جميعها ... سواء فلا أختار بعضاً على بعض

وقوله :

---

(١) البهاء زهير بحث بقلم مصطفى عبد الرازق طبع دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٠ .

سقى وادياً بين العريش وبرقة ... من الغيث هطال الشآبيب هتان

وحيَّا النسيمُ الرطب عنى إذا سرى ... هنالك أوطاناً إذا قيل أوطان

بلاد متى ما جئتها جئت جنة ... لعينك منها كلّ ما شئت رضوان

تمثل لى الأشواق أن ترابها ... وحصباءَها مسك يفوح وعقيان

فيا ساكنى مصراً تراكم علمتم ... بأنى ما لى عنكم الدهر سلوان

وما فى فؤادى موضعٌ لسواكم ... ومن أين فيه وهو بالشوق ملآن

عسى الله يطوى شقة البعد بيننا ... فتهدأ أحشاءٌ وترقأُ أجفانُ

علىَّ بذاك اليوم صوم نذرته ... وعندى على رأى التصوف شكران

وبعد أن اكتملت أداة البهاء فى الشعر والكتابة وعرف فى قوص بين خاصتها ، وكبار رجالها وأعيانها تردد على مجالس العلماء والتقى بأعلام الشعراء ، وكان بين من التقى بهم الشاعر السيوطى المصرى جمال الدين بن مطروح ، وظلت الصلة بينهما طوال حياتهما لم تفتر ، وقد التقيا فى مجلس الأمير مجد الدين إسماعيل بن اللمطى الذى توفى سنة ٦٠٧ هـ أعمال القوصية أيام الملك الكامل أيوب .

وقد اتصلت أسباب الشاعر بالأمير فى قوص ونظم فيه المدائح ، مع صاحبه ابن مطروح ، ويبدو أن ابن اللمطى كان مقرباً لهما لا يبخل عليهما بمال ، ولا يمتنع عليهما فى شيء . وقد قال فيه البهاء زهير :

به أصبحت قوص إذا هى فاخرت ... أعزَّ قبيل فى الأنام وأنفسا

ويقول فى قصيدة أخرى :

مولى بدا من غير مسألة بما ... جاز المدى كرماً وعاد كما بدا

وأنال جوداً لا السحاب ينيله ... يوماً وإن كان السحاب الأجودا

وقد اشتغل الشاعر كاتباً لابن اللمطى فترة من الزمن قد تربو على خمسة عشر عاماً ، عن له بعدها وقد طمح به الأمل إلى آفاق أوسع وأرحب أن يؤم السلطان ويطرق بابه بالقاهرة . لعله أن يفتح له أبواب المجد والشهرة ، ومن ثم الغنى والعيش الرغد ، ولم تكن هجرة الشاعر من جناب الأمير القوصى إلى القاهرة سهلة على الشاعر أو أميره ، بل لقد تركت هذه الفرقة آثارها فى

الديوان قصائد من العتاب الرقيق ، والتعلل بالآمال والاعتذار عن هذا البعاد الذى فرضته الظروف وفرضه السعى فى سبيل السؤدد دون تنكر لسابق الأيادى ، وحسن الرعاية . يقول :

مولاى مجد الدين عطفاً إن لى ... لمحبةً فى مثلها لا يمترى
يا من عرفتُ الناس حين عرفته ... وجهلتهم لما نبا وتنكرا
خلق كماءِ المزن منك عهدته ... ويعز عندى أن يقال تغيرا
مولاى لم أهجر جنابك عن قلى ... حاشاى من هذا الحديث المفترى
وكفرت بالرحمن إن كنت امرأ ... يرضى لما أوليته أن يكفرا

ولا ينسى البهاء زهير وهو بعيد عن قوص وأميرها أن يشير إلى فضلهما عليه وعلى أدبه .

أسفى على زمن لديك قطعته ... وكأنني للفرقدين نزيل
وإذا انتسبت بخدمتى لك سابقاً ... فكأنها لى معشر وقبيل
هذا هو الأدب الذى أنشأته ... فاهتز منه روضه المطلول

وهكذا تبع البهاء نجمه ، والتحق فى القاهرة بخدمة الملك المسعود بن الكامل ، ثم بالصالح نجم الدين قبل توليه السلطنة ، ومدحهما ، ولكنه اختص بالصالح وظل معه إلى أن تولى الملك بعد أبيه الكامل ، وتولى ديوان الإنشاء وظل عليه فلقب بالصاحب ، وكانت مرتبته تقرب من الوزارة ، وظل كذلك يحظى بتقدير الصالح ورعايته إلى قبيل وفاته حيث غضب عليه فعزله وولى ابن لقمان خلفاً له .

وللبهاء زهير مدائح كثيرة فى الصالح وفى مناسبات شتى ، في الأعياد والمناسبات السعيدة وغيرها ، وفى غزواته ورحلاته خارج مصر للجهاد وعودته إليها سالماً منصوراً .

ونعود إلى شعره وخصائصه التى أسلفناها فنعرض لما امتازت به من السهولة واعتماده الروح الشعبية فى التعبير واستعارة اللفظ والصور ، ونورد هذه المقطوعة خفيفة الوزن التى تحوى كثيراً من تعبيرات الناس الدارجة والتى لاتزال تتناقلها ألسنتهم . يقول :

أرى قوماً بليت بهم | نصيبى منهم نصبى
فمنهم من ينافقنى | فيكذب لى ويحلف لى
ويلزمنى بتصديق الـ | ـذى قد قال من كذب
وذو عجب إذا حدث | ت عنه جئت بالعجب
وما يدرى بحمد اللـ | ـه ما شعبان من رجب
وما أبصرت أحمق منـ | ـه فى عجم ولا عرب
وأحمق قد شقيت به | بلا عقل ولا أدب
فلا ينفك يتبعنى | وإن أمعنت فى الهرب
كأنى قد قتلت له | قتيلاً فهو فى طلبى
لأمر ما صحبتهم | فلا تسأل عن السبب
. . . . | . . . .
وكنا قد ظننا الصفـ | ـر عند النقد كالذهب
فلم نظفر بحاجتنا | وأشفينا على العطب
رجعنا مثلما رحنا | ولم نربح سوى التعب

فتعبيرات : ما يدرى ما شعبان من رجب ، وكأنى قد قتلت له قتيلاً ، ورجعنا مثلما رحنا ، تعبيرات شعبية نقلها بلفظها شعراً . وقوله :

وعائد هو سقم | لكل جسم صحيح
لا بالإشارة يدرى | ولا الكلام الصريح
وليس يخرج حتى | تكاد تخرج روحى

وأما ظرفه وخفة روحه فتبدو سمة غالبة فى شعره ؛ فهى فى صوره البيانية ، كما أنها فى تعبيراته وألفاظه ، وهى مع هذا وذاك لا تخرج عن شعبيتها . يقول :

وليلة ما مثلها قط عُهِدْ | مثل حشا العاشق باتت تتقد
طلبت فيها مؤنساً فلم أجد | بت أقاسيها وحيداً منفرد
طالت فأما صبحها فقد فقِدْ | فتحبل المرأة فيها وتلد

ويقول فى صاحب لحية :

وأحمق ذى لحية | كبيرة منتشرهْ

طلبت فيها وجهه بشدة فلم أره
تبا لها من لحية كبيرة محتقره
مضحكة ما كان قـ ـط مثلها لمسخره
فلو مضى السوق بهـ ـا وزفها بالمزمره
لحصلت له مغـ ـل ضيعة موفره

وقد تثبتُ إلى الذهر صفة ابن الرومى للذقن ، وصورته المعروفة لها كالمخلاة ، ولكن ابن الرومى ربما أجاد البناء الفنى ورسم حدود الصورة وإعطاءها ملامحها الحادة من السخرية المرة ، أما زهير فإنه يريد أن يضحك من الرجل ، ويقفش له ؛ فيورد كل ماقد يخطر على ذهنه من الصور المرتبطة بالذقن مما يثير الضحك ، من مبالغة ومفارقة وغرابة صورة ، وشعبية تعبير .

يقول فى شيخ إمام كان يستثقل مجلسه كلما حضر :

كلما قلت استرحنا جاءنا الشيخ الإمام
فاعترانا كلنا منـ ـه انقباض واحتشام
فهو فى المجلس فدم ولنا فهو فدام
وعلى الجملة فالشيخ ثقيل والسلام

ومنها أبياته المشهورة فى بغلة صاحبه :

لك يا صديقى بغلة ليست تساوى خردله
تمشى فتحسبها العيو ن على الطريق مشكَّلَهْ
وتخال مدبرة إذا ما أقبلت مستعجله
مقدار خطوتها الطو يلة حين تسرع أنمله
تهتز وهى مكانها فكأنما هى زلزله
أشبهتها بل اشبهتـ ـك كأن بينكما صله
تحكى صفاتك فى الثقا لة والمهانة والبله

وقد يحلو له من حين لآخر أن يبارى جماعة الخلعاء من شعراء العصر العباسى فى القرن الثانى أمثال أبى نواس والحسين بن الضحاك فى ضروب الشعر الذى يرتجلونه بين يدى حاجاتهم وفى مجالس لهوهم وشرابهم . فيقول :

سيدى يومك هذا ليس يخفى عنك رسمه
قم بنا قد طلع الفجر وقد أشرق نجمه
عندنا ورد جنى ينعش الميت شمّه
ولدينا ذلك الضيف الذى عندك علمه
ولنا ساق رشيق أحور الطرف أحمّه
وخوان يعبق المسك برِيَّاهُ وطعمه
وأخ يرضيك منه فضله الجم وفهمه
كامل الظرف أديب شامخ الأنف أشمه
حسن العشرة لا يأتيك منه ما تذمه
ومغن زيره أطرب مسموع وبمُّهْ
وسرور ليس شيء غير رؤياك يتمه
فأجب دعوة داع أنت من دنياه سهمه
فإذا جئت وغاب الناس طراً لا يهمه

ويقول :

مولاى يا قلبى العزيز ويا حياتى الغاليه
إنى لأطلب حاجة ليست عليك بخافية
أنعم على بقبلة هبة وإلا عاريه
وأعيدها لك - لاعدمت - بعينها وكما هيه
وإذا أردت زيادة خذها ونفسى راضيه
فعسى يجود لنا الزمان بخلوة فى زاويه
أوليتنى ألقاك وحدك فى طريق خاليه

وهذا اللون من الشعر هو الذي يفترق فيه عن غيره من الشعراء ويعطى لشعره مذاقاً خاصاً عذباً مستحباً ، وليس كما اصطنعه من الشعر التقليدى الذى يجارى فيه سائر الشعراء القدامى من اصطناع ديباجة غير ما يمليها عليه طبعه . ولعلنا حين نجعل هذا الشعر هو المعبر عن شخصية البهاء زهير وعن حقيقة تجديده نذهب إلى ما ذهب إليه طه حسين حين اعتبر شعر أبى نواس وأصحابه مما ذهبوا فيه على طبيعتهم ولم يتكلفوا من شعر السوابق والمعانى التى

ينطقون فيها على حرياتهم ، حين اعتبر ذلك الشعر الذى عرف بالمحدث هو الصورة الحقيقية للقرن الثانى العباسى ، وللحياة العباسية فى ذلك العصر ، لا الشعر المتكلف فى المديح والرثاء والعتاب وغيره من شعر المناسبات والموضوعات التقليدية .

ونذهب كذلك إلى ما ذهب إليه الأستاذ مصطفى عبد الرازق من أن هذه الألوان فى شعر البهاء زهير إنما تدل على عبقرية « ولابد من عبقرية كعبقرية البهاء زهير لتوفق هذا التوفيق فى إنشاء أشعار من الطراز الأول ، يطرب لها الخاصة ، ولا تكون العامة أقل بها طرباً ، بلسان هو لسان التحاور ، ولسان البيوت والأسواق »[1] .

والحق أن كل ما يوصف به شعر البهاء زهير ، من تعبير عن الروح المصرية ، وخفة الظل ، وميل إلى السهولة فى اللفظ والموسيقى إن هى فى الحقيقة إلا سمات ظاهرية ، لا تعطى الصورة الحقيقية لما جاء به ، وكان فى الوقت نفسه ظاهرة فنية أتت على الشعر ، بل مازجته وخالطته ، ونقصد بها الروح الشعبية ، فقد اقترب الشعر المصرى ، فى هذه المرحلة من روح الشعب ، وصار أدباً شعبياً فى روحه ودمه وإن اتخذ مظهراً رسمياً فى لغته وأساليبه أحياناً . أصبح الشعر منذ هذا العصر يقترب شيئاً فشيئاً من وجدان الناس بعد أن كان ردحاً من الزمان يعيش على أبواب الملوك والخاصة ، وربما ساعد على ذلك وشد من أزره ابتعاد الملوك والسلاطين ، وخاصة الأعيان وذوى الجاه وأولى الأمر شيئاً فشيئاً عن الروح العربية ومن ثم عن الأدب الفصيح ، فلم يعد لهذا الأدب الفصيح مجال يفرخ فيه ، أو أن الوسط الذى أصبح يبذر فيه سبخاً لا ينبت نباتاً طيباً ، وهكذا تألبت عليه الظروف فلم يعد أدباً مناسباً للخاصة بعد أن صاروا عجماً ، أكراداً أو تركاً ، أو سلاجقة أو شراكسة ، ومن إليهم ممن لا يفهمون الشعر العربى الفصيح وإن فهموه لا يتذوقونه ، ولم يعد كذلك مناسباً للعامة ممن لم يُتح لهم من الثقافة ما أتيح للخاصة ، فاضطر الشعر لذلك أن يقترب شيئاً فشيئاً من الروح العامية . وهكذا كان شعر البهاء زهير ممثلاً لهذه الظاهرة فى القرن السابع الهجرى .

(١) البهاء زهير لمصطفى عبد الرازق ص ٦٣ .

فهو شعبى فى صورته . ومضمونه وبعض لفظه وإن لبس ثوباً من تقليد مطرزاً بالوزن والقافية . وليس أدل على تغلغل الروح الشعبية فى تلك الصور والتعبيرات التى مثلنا لها ، ومن عدم اهتمامه باتباع قواعد الإعراب وأصول اللغة ، واستخدام الروابط المعهودة فى الأسلوب الفصيح ، بل يعمد إلى استعمال الدارج دون الفصيح مما لا يرضى رجال النحو واللغة . وقد ظهرت هذه الظاهرة فى شعره الرسمى كثيراً ، ونستطيع أن نطلق على اللغة التى كتب بها ذلك الشعر تعبير « العامية المفصحة » .

وقد وقف النقاد والعلماء مواقف متباينة من شعر البهاء زهير فبينما يرى بعض الأقدمين فيه ضعفاً ، فإن بعض المستشرقين مثل بالمر ناشر ديوانه يرى فيه اقتراباً من روح الشعر الأوربى .

وبعد أن تعرضنا لهذا الجانب التجديدى فى شعر البهاء زهير ينبغى ألا نعبر دون التمثيل للون الطابع العصرى ، وإن لم يسرف فيه إسراف غيره من شعراء الصنعة المتكلفين ، ونعنى من حيث المضمون ؛ الغرام الشديد بالجوانب العقلية وقضايا العلم من منطق وفلسفة وطب وعلوم ونحو ، وحشد قضاياها أو اصطلاحاتها حشداً فى الشعر واستخدامها فى فنون التعبير المختلفة كالتشبيه والاستعارة والكناية والاقتباس والتضمين والإشارة والألغاز وما إلى ذلك .

ومنه قوله وقد تلاعب بمصطلح النحو :

ويحك يا قلب أما قلت لك	إياك أن تهلك فيمن هلك
حركت من نار الهوى ساكناً	ما كان أغناك وما أشغلك

وكقوله :

وجاهل يجهل ما يقول	أقواله ليس لها تأويل
لها فصول كلها فضول	كثير ما يقوله قليل
فهى فروع ما لها أصول	كلامه تمجه العقول
أتعبنى حديثه الطويل	فليته كان له محصول
وجملة الأمر ولا أطيل	هو الرصاص بارد ثقيل

ومنه استخدام بعض خصائص الصوفية ، كاقتباسه استخدام الرفاعية لبعض الحيل كقوله :

لعلكم قد صدكم عن زيارتى مخافة أمواه لدمعى وأنواء
فلو صدق الحب الذى تدعونه وأخلصتم فيه مشيتم على الماء
وإن يك أنفاسى خشيتم لهيبها وهالتكم نيران وجد بأحشائى
فكونوا رفاعيين فى الحب مرة وخوضوا لظى نارٍ لشوق حراء

ولم يختلف مضمون شعره عن مضامين الشعراء غيره ممن يرون الشعر متعة وتسلية ، وتذكية للروح والفكر وتعبيراً عن الاقتدار والفطنة وسعة العلم والدراية ، إلى جانب التظرف وحسن المسامرة والمؤانسة . وليس غريباً بعد هذا أن يتخذ لهذه المضمونات شكلاً مناسباً يتضح فى تلك الألوان الشائعة من الصنعة اللفظية والمعنوية ولكنه كما قلت لا يسرف فيها إسراف غيرهِ من الشعراء الذين عاصروه أو سبقوه فى مصر وغيرها . ولا يثقل فيمل ويبغض ، بل هو يلجأ إلى الصنعة الرقيقة الخفيفة التى تروق وتستظرف ، وتقبل ولا تنفرٌ .

فمن استخدامه للتورية على طريقة المصريين قوله :

لما التحى وتبدلت تلك السعود له نحوسا
أبديت لما راح يحـ ـلق خده معنى نفيسا
وأذعت عنه أنه لم يقصد القصد الخسيسا
لكن غدا وعذاره خضر فساق إليه موسى

فالتورية واضحة فى خضر وموسى .

ومن تجنيسه الخفيف اللطيف قوله :

فلكم فىَّ مِنْ مكارم خُلقِى ولكم فِىَّ من حميد صفات
لَسْتُ أرضى سوى الوفَاء لِذِى الوُدْ دِ ولَوْ كانَ فى وفائى وفاتِى
وألوف فلو أفارق بؤساً لتوالت لفقده حسراتِى

وقوله :

وما هنت إلا للصبابة والهوى وما خفت إلا سطوة الهجر والقلى

أروح وأخلاق تذوب صبابة ... وأغدو وأعطاف تسيل تغزلا
أحب من الظبى الغرير تلفتاً ... وأهوى من الغصن النضير تفتلا
فما فاتنى حظى من اللهو والصبا ... وما فاتنى حظى من المجد والعلا

ويعمد البهاء فى شعره إلى الاقتباس من الشعر القديم ، أو التضمين ، ومثالهما قوله :

تعلمت خط الرمل لما هجرتكم ... لعلى أرى شَكْلاً يدل على الوصل
ورغبنى فيه بياض وحمرة ... عَهِدتُهما فى وجنة سلبت عقلى
وقالوا طريق قلت يارب للرضا ... وقالوا اجتماع قلت يارب للشمل
فأصبحت فيكم مثل مجنون عامر ... فلا تنكروا أنى أخط على الرمل

وقد جمع فى هذه الأبيات ضروباً من التضمين والاقتباس ، والتورية ، إذ أنه يشير إلى استخباره الرمل (ضرب الرمل) كى يدله على أسرار هواه ومستقبل حبه ، ويتخذ الرمل رابطاً بين خطه فيه مستخبراً سائلا ، وخط مجنون ليلى متسلياً ساهماً فى البادية وحيداً إلا من ذكر ليلاه . كما يذكر شعره .

وربما كان مناسباً ونحن فى صدد حديثنا عن الشكل فى شعره أن نشير إلى ما ذكره المؤرخون له من محاولة تجديده فى الأوزان الشعرية ، بإدخاله بعضاً مما لا يوافق العروض التقليدى كقوله :

يا من لعبت به شمول ... ما ألطف هذه الشمائل
نشوان يهزه دلال ... كالغصن مع النسيم مائل
لا يمكنه الكلام لكن ... قد حمل طرفه رسائل
ما أطيب وقتنا وأهنا ... والعاذل غائب وغافل
عشق ومسرة وسكر ... والعقل ببعض ذاك ذاهل
والبدر يلوح فى قناع ... والغصن يميل فى غلائل
والورد على الخدود غض ... والنرجس فى العيون ذابل
والعيش كما نحب صاف ... والأنس بما نحب كامل

وإذا كان هذا الشعر قد ابتعد عن موسيقى الشعر التقليدى ، وخالف عروضه فإنه اقترب من موسيقى الشعر الشعبى وتأثر بأوزان الزجل ، وليس

غريباً أن ينظم شاعر كالبهاء زهير فى أوزان شعبية ، وقد اقترب فن الشعر فى روحه كما أشرنا من الشعب ، ولم يكن هو أول من اتجه هذا الاتجاه من شعراء القرنين السادس والسابع ، بل سبقه غيره من شعراء مصر والشام والعراق ، فنظموا فى ضروب الشعر الشعبى كالزجل ، والدوبيت ، والقوما ، والكان كان .. وما إليها .

وننتقل من الحديث عن شعر البهاء إلى لون آخر من أدبه ، إلى كتابته ورسائله وإن لم تشتهر اشتهار شعره ، إلا أنه مع ذلك كان صاحب ديوان الإنشاء فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وكتب له . ومما تتناقله كتب التاريخ رسالته المشهورة فى الرد على ملك فرنسا لويس التاسع إذ بعث برسالة للصالح فيها تهديد ووعيد بالغزو وطلب التسليم ، فكتب البهاء زهير على لسان الصالح :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول ﷺ وآله وصحبه أجمعين . أما بعد ، فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، ونحن أرباب السيوف ، وما قتل منا قرن إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ؛ فلو رأيت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولابد أن تزل بك القدم ، فى يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسىء الظنون (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) فإذا قرأت كتابى هذا فتكون منه على أول سورة النحل (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) ، وتكون أيضاً على آخر صورة ص (ولتعلمن نبأه بعد حين) ، ونعود إلى قوله تعالى وهو أصدق القائلين : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين) وقول الحكماء : إن الباغى له مصرع . وبغيك يصرعك ، وإلى البلاء يسلمك . والسلام » .

وهكذا كان البهاء زهير علماً من أعلام الشعر المصرى فى النصف الأول من القرن السابع ، وكان شعره الذاتى صورة حية لنفسه وشخصه ، منه نستطيع أن نتبين ملامح شخصيته ، شخصية الإنسان العف الكريم ، المرح المتفائل ، الذى يحب الحياة ويبتسم لها ويحافظ على الود والعشرة ، ولا يحقد على الحياة

والناس ، ولا يعلو عليهما بل يعيش إنساناً يألف ويؤلف ويحب ويمرح ، ويأسى أسى رقيقاً ؛ أما أدبه الرسمى فصورةٌ للحياة الرسمية فى القصور ، والحياة السياسية فى العصر ، كما يقفنا على أسرار من طبائع الناس وظروف الحياة والعيش ، والتقاليد والأقوال المأثورة ، فهو وثيقة أدبية فنية اجتماعية .

ابن مطــروح
الشاعر السياسى

هو جمال الدين بن مطروح صديق العمر للبهاء زهير ، وهما وإن اقتربا فى الروح وتلازما فى الود إلا أنهما اختلفا فى الشعر ، فشعر ابن مطروح يختلف عن شعر صاحبه فى موضوعاته ومضموناته ، وفى شكله وبنائه الفنى .

ولد ابن مطروح بمدينة أسيوط سنة ٥٩٢ هـ وتعلم القرآن والحديث وجملة من المعارف الإسلامية والعربية مما كان يدرس فى عصره . وأتم علومه بالأزهر ، والتقى فى صباه بزميله وصديقه الشاعر البهاء زهير بمدينة قوص عاصمة الصعيد وقتذاك . وضمهما بلاط أميرها ردحاً من الزمن ثم انتقلا إلى القاهرة حيث اتصلا بكبار رجال الدولة الأيوبية أيام سلطنة الملك الكامل أيوب وابنه الملك الصالح نجم الدين .

وظهر نجم ابن مطروح رجلاً من رجال الدولة ، لا من رجال القلم فحسب ، بل من رجال السياسة والسيف أيضاً ، وإن كان فيما قام به من أعمال السيف قد أخطأ فأوخذ بشدة . إلا أنه مع ذلك قام بأدوار هامة فى تاريخ هذه الحقبة المليئة بالمؤامرات والدسائس بين أبناء البيت الأيوبى فى مصر وكبار رجال الدولة والقادة .

وقد أشرنا إلى صلته بابن اللمطى أمير قوص ، وغريب أن يحدث بينه وبين الأمير ما حدث بينه وبين صاحبه من جفوة وفراق وتأويل للفراق من جانب الأمير على أنه قلى وتنكر للجميل واعتذار من الشاعرين بأنهما لم ينسيا الود الذى أولاهما ولكنهما سعيا وراء حظهما واتبعا نجمهما . وهاهو ذا ابن مطروح يكرر مقالة البهاء زهير :

لك الله إن العفو أقرب للتقوى ... ومثلك أولى مثلى الصفح والعفوا
أقلنى ما قد كان منى جهالة ... أقالك رب يعلم السر والنجوى

وها أنا من ذنبى الذى كان تائب ... ومن تاب يمحو الذنب توبته محوا
وقد نالنى من سخطك المر ما كفى ... وإنى لأرجو الآن منك الرضى الحلوا

وأحسب أن هذا الذنب هو هجرانه بلاط الأمير ابن اللمطى إلى أمراء آخرين أوسع جاهاً وسلطاناً لعل أحدهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، أو الأمير مسعود ابن الكامل أو الصالح نجم الدين نفسه قبل توليه الملك ، فقد كانت له بكل هؤلاء صلات متينة استمرت طويلاً ودل عليها كثرة مدائحه لهم وما تنم عليه تلك المدائح من الصلات .

ومهما يكن من أمر فإن ابن اللمطى لم يصف للشاعرين تماماً ، وإن لم ينس الشاعر فضله عليهما ، فما زالا يبعثان إليه بالمدائح والتهانى من القاهرة أو غيرها فى كل مناسبة .

وأما صلته بالأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ فلعلها أن تكون أجدر صلاته بكبار رجال الدولة دون الصالح نجم الدين أيوب بالذكر . وقصائده فيه كثيرة عديدة جميلة يبدو عليها طابع الشعر التقليدى ، تجرى فى أعطافه الروح المصرية بقدر ، فتكسبه حلاوة خفية وعذوبة . ومن قصائده فيه تلك القصيدة الجميلة التى أثارت إعجاب أكثر من واحد ممن تعرضوا لترجمته :

هى رامةٌ فخذوا يمين الوادى ... ودعوا السيوف تقر فى الأغماد

يقول فى غزلها الرقيق :

وحذار من لحظات أعين عينها ... فلكم صرعن بها من الأَغْمَادِ
من كان منكم واثقاً بفؤاده ... فهناك ما أنا واثق بفؤادى
يا صاحبى ولى بجرعاء الحمى ... قلب أسير ما له من فادى
سلبته منى يوم بانوا مقلة ... مكحولة أجفانها بسواد

. . . .

قالت لنا ألف العذار بخدِّه ... فى ميم مبسمه شفاءُ الصادى

إلى آخر هذا الغزل الذى وإن كانت معانيه غير جديدة إلا أنه يحاول أن يصوغها على طريقة غيره فى صور من التركيبات والتشبيهات الجديدة . وإن يدخل عليها بعض الصنعة اللفظية والمعنوية .

ومن مديحها فى فخر الدين يقول :

أصبحت ما لى فى الصبابة مشبه	وكذاك فخر الدين فى الأجواد
ملك تملك بالشجاعة والندى	قلب الخميس معاً وصدر النادِى
شرفاً بنى شيخ الشيوخ ومن بهم	مصر غدت تزهو على بغداد
يلقى الكماة فمن نجا من سيفه	غلطاً فما ينجو من الأصفاد
وتراه أثبت ما يرى فى معرك	والخيل تعثر فى القنا المتآدِ
حيث النفوس عن الجسوم بِمعزل	فكأنها غضبى على الأجساد

وصور فى هذه القصيدة كعادته فى كثير من شعره جهاد فخر الدين والمسلمين فى مصر والشام للصليبيين فى الشام أو فى مصر وخاصة فى حملة لويس التاسع التى أصيب فيها فخر الدين بضربة قاتلة ، فى عديد من قصائده .

وجدير بالذكر إشارته إلى ما أولاه من المكرمات . يقول :

يممته فوجدت بحراً زاخراً	فغنيت عن وشل وورد ثماد
وشهدت فيه فى الحقيقة يوسفاً	حسناً وحُسنى فى عُلاً وسداد
أبدت لى الأيام سود مكاره	فلقيت فى نعماهُ بيضَ أيَادى

وقد صحبه فى بعض حربه بالشام ، ودخل معه دمشق سنة ٦٤٥ هـ بعد قتاله الصليبيين .

وتأتى بعد ذلك صلة الشاعر بالملك الصالح نجم الدين ، وكانت كما قلنا قبل توليه الملك ، ثم قويت بعد توليه ، وخاصة بعد ما أداه جمال الدين بن مطروح للصالح من خدمات وما رأى منه من وفاء .

وتولى جمال الدين نظارة الجيوش كما يقول صاحب السلوك[١] . واشترك فى حصار آمد ، وصرخد ، وبعض المعارك الأخرى خارج مصر . يقول فى حصار آمد[٢] :

ولقد ذكرتك والصوارم لمع	من حولنا والسمهرية شرع

(١) راجع السلوك ص ٢٨٤ .

(٢) ديوان ابن مطروح ١٩٥ .

وقال فى وقعة أخرى :

أصدرتها والعوالى فى الطلى ترد ... فى موقف يُنسِّى فيه الوالدَ الولد
وما نسيتك والأرواح سائلة ... على السيوف ونار الحرب تتقد[1]

واشترك اشتراكاً سياسياً فيما قام بين الصالح وأخيه العادل بن الكامل ، والملك الناصر داود صاحب الكرك من صراع ، وقع فيه الصالح أسيراً فى يد الناصر ، وبعث إليه العادل بطلب إرساله إليه فى قفص من حديد فلم يقبل الناصر ، وذلك عندما عزم الصالح على قصد مصر وعليها أخوه العادل سنة ٦٣٦ هـ فلم يرفق وانفض عنه رجاله فى الطريق ، وقبضه الناصر عند الكرك[2].

وكان جمال الدين بن مطروح فى هذا الوقت قد وصل إلى مصر من الشام ، فلما أسر الصالح واتصلت الرسائل بين العادل والناصر لتسليمه أجابه الناصر بأنه لا يرسله إلا بعد أن يبعث إلى دمشق جيشاً لأخذها ، قال المقريزى[3]: « فلما ورد هذا الجواب على الملك العادل أمر بتجهيز العساكر لتخرج إلى الشام » وخرج محيى الدين بن الجوزى من القاهرة ومعه جمال الدين بن مطروح رسول الصالح نجم الدين وكان قد استجار به بعد ما قبض على الصالح نجم الدين وسجن بالكرك» .

وقد تم عند وصول الوفد الذى يضم ابن الجوزى وابن مطروح فتح بيت المقدس مرة ثانية على يد الملك الناصر داود ، فهنأه ابن مطروح ، ومدحه بأبيات يذكر فيها مضاهاته لعمه الملك الناصر صلاح الدين يوسف فى فتح بيت المقدس أولاً . قال :

المسجد الأقصى له عادة ... سارت فصارت مثلاً سائرا
إذا غدا للكفر مستوطناً ... أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولا ... وناصر طهره آخرا

(1) الديوان ص ١٩٦ .
(2) السلوك للمقريزى ٢ - ١ / ٢٨٤ .
(3) السلوك ٢ - ١ / ٢٩٠ .

وما زال ابن مطروح بالشام يسعى لنصرة صاحبه الملك الصالح ، فنزل على صاحب حماة الملك المظفر ، فبعثه فى الرسالة إلى الخوارزمية بالشرق يستحثهم على القيام بنصرة الملك الصالح نجم الدين ، واستصحب معه أيضاً رسالة الناصر داود ومنها « إنى لم أنزل الملك الصالح بالكرك إلا صيانة لحياته ومهجته خوفاً عليه من أخيه الملك العادل ومن عمه الملك الصالح عماد الدين ، وسأخرجه وأملكه البلاد ، فتحركوا على بلاد حلب وبلاد حمص » .

وأدى الرسالة ، ومازال متردداً بين أنصار الصالح نجم الدين من أمراء البيت الأيوبى فى الشام والعراق حتى عاد الصالح إلى سلطانه . قال المقريزى إن ابن مطروح نزل بحماة عند الملك المظفر ، فصارت حماة ملجأ لكل من انتمى إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين ومنها يرد إليه بمصر كل ما يتجدد بالشام والشرق » .

ولما تولى الملك الصالح نجم الدين السلطنة عاد ابن مطروح إلى مصر من حماة ، وفى سنة ٦٤٢ هـ وجهه الصالح مرة أخرى فى رسالة إلى الخوارَزْمية بغزة[١] . وفى سنة ٦٤٣ هـ سيره إلى دمشق وزيراً وأميراً ، وأنعم عليه بسبعين فارساً . ثم جاءه الملك الصالح بدمشق فتصدق وأغدق على الناس[٢] . وفى سنة ٦٤٤ جهزه إلى صلخد ، وبها الأمير عز الدين أيبك فمازال به حتى سلم صلخد ، وسار إلى مصر .

وفى سنة ٦٤٥ هـ دخل مع الأمير فخر الدين يوسف دمشق بعد قتال الصليبيين ولقب ابن مطروح بالأمير بعد توليه أعمالاً من أعمال الإمارة والملك ، ولبس لباس أصحاب السيف . وكتب ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة يقول : « وكان ابن مطروح قد دخل بين الخوارزمية والصالح أيوب ، واستنابه أيوب بالشام ولبس ثياب الجند وما كانت تليق به »[٣] .

وظلت هذه العلاقة القوية قائمة بين الصالح أيوب وابن مطروح إلى

(١) السلوك ٢ - ١ / ٣١٦ وراجع ديوانه ص ٢٠٩ .

(٢) السلوك .

(٣) النجوم الزاهرة ٧ / ٢٧ .

أخريات حياته وقبيل وفاته ، حيث يقول المؤرخون إنه حدثت بينهما جفوة ، كما حدثت الجفوة أيضاً بين السلطان والبهاء زهير ، وعجيب أن يغضب السلطان على الصاحبين معاً فى أخريات حياته .

ولكن هذه الصلات التى ربطت بين ابن مطروح والسلطان ترددت أصداؤها فى شعره كثيراً . ومما قاله ، شكره على إنعامه عليه بدار جميلة . قال[1] :

دار عمــرناها بإنعام من	لم تخــل دار قط من رفده
الملك الصالح رب العــلا	أيوب زاد الله فى مجــده
اليمن والتوفيـق من حظـه	والنصــر والتأييـدُ من جنـده
أغنى وأقنى فالـذى عنـدنا	من نعـم الله ومـن عنـده
فقـل لحسـادى ألا هكـذا	فليصنع الملك مع عبـده

وحدثت الجفوة بين السلطان والشاعر فكتب قصائد الاسترضاء والاعتذار ومنها قصيدة يقول فيها :

من مبلغ عنى المليك الأروعا	عن عبده يحيى مقالاً مقنعا
يا ابن الملوك الأكرمين ومن لهم	همم بها سدوا الفضاء الأوسعا
وإذا النجوم سعت لتدرك مجدهم	رجعت ولم تبلغ نداهم ظلعا
أيجوز أن أبقى ببابك ظامئاً	ونداك قد وسع الخلائق أجمعا
ولو ادعيت بـأن مالك ناصح	مثلى شهدت بصدق ذاك المدعى
ومع النصـيحة فالتخـلق بالوفـا	خلق خلقــت عليه لا متطبعـا
ومحبــة لدمى ولحمــى مازجــت	وهـوى حنيت عليه منى الأضلعا
ولطـالمًا جربـتنى فوجـدتنى	أجـدى من الملاءِ الكثير وأنفعا
وأســد آراء ، وأثقب فكـرة	وأشـد عارضة وألطف موقعاً
ولكـم ليـال بت فى ديجـورها	لله أدعو خاشـعاً متضرعـا
حتى رأيتك فوق كسـرى رفعة	ورأيت دونك فى الجلالة تبعـا
فعلام بعد الاصطفاء نبـذتنى	نبـذ النواة بقول واشٍ قد سعى

(1) ديوان ابن مطروح ١٨١ .

وسمعت فى حقى كلام معاشر أقصى مناهم أن أبيت مضيعاً
حق العذول بأن يقول فيفترى لكن أجلك أن يقول فتسمعا
إن كنت خنتك ظاهراً أو باطنا فخسرت دنياى وآخرتى معا
أودكم فى عنفوان شبيبتى وأحول إذ عهد الشبيبة ودعا

وقد أودع فى هذه القصيدة قصته مع نجم الدين ، قصة طالت وكان فيها من الوفاء والحب وتحمل الصعاب والمشاق ، والمخاطرة فى حياة مليئة بالتآمر ، حتى لكأنه كما يقول كان يحيى فى ليال ذات ديجور يدعو الله أن يفرجها ويخرج صبحها ، ولكن الحاسدين والوشاة ، وساعدهم تسرع وحمق كانا فى خلق نجم الدين أدتْ به إلى جفوة رجله والصاحب الذى أعانه فى الملمات ، ونُحس فى هذه الأبيات صدق الشاعر وعتابه المر وحسْرته على تصرف سلطانه ذاك التصرف بسماعه الواشين الناقمين الحاقدين وتنكره لكل ما كان منه من وفاء وإخلاص وتضحية بالنفس .

ويبدو أن هذا الاستعطاف من الشاعر لم ينتج نتيجة ، فعاش بقية حياته بعيداً عن البلاط ، وكان قد ألف حياة البلاط بعيداً عن السياسة وكان قد قضى حياته يعمل بالسياسة وشئون الدولة ، حتى إنه قضى بقية عمره كما يقول ابن تغرى بردى خاملاً . إلى أن مات .

ولكنه إذا كان قد فقد ثقة السلطان ، فإنه ظَلَّ على صلة ببعض كبار رجال الدولة أمثال الأمير الخطير فخر الدين الذى لعب دوراً كبيراً فى حملة لويس التاسع على مصر ، والتى شاهدها ابن مطروح وشارك فيها غالباً ، وقتل فخر الدين بطعنة فى المعركة . وبعد النصر وأسر لويس التاسع ثم دفع الدية العظيمة والإفراج عنه ، عاد الملك إلى بلاده وتردد فى مصر أن لويس يهدد بالعودة فلم يكن من شاعرنا إلا أن بادر بنظم هذه الأبيات :

قل للفرنسيس إذا جئته مقال صدق من قئول نصوح
آجرك الله على ما مضى من قتل عباد يسوع المسيح
مذ جئت مصراً تبتغى أخذها تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيح

رحت بأصحابك أودعتهم ... بقبح أفعالك بطن الضريح
خمسون ألفاً لا يرى منهم ... إلا قتيل أو أسير جريح
فردك الله إلى مثلها ... لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضياً ... قرب غبن قد أتى من نصيح
فاتخذوه ناصحاً إنه ... أنصح من شق لكم أو سطيح
وقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على عهدها ... والقيد باق والطواشي صبيح

ويسخر فى هذه القصيدة من تشدق الفرنسيين وتهديدهم بالعودة بعد هزيمتهم المنكرة من المصريين ، وبعد بلاء الشعب فى تلك المعركة الخالدة بلاء عظيما ، ويهزأ من دعاية الصليبيين المضللة بأنهم إنما يغزون الشرق وبلاد الإسلام إنقاذاً لقبر المسيح فيقول إن المسيح نفسه عليه السلام لا يرضى عن تلك الحروب الوحشية التى ترتكب باسمه ، ولعلكم إن فكرتم فى عودة تكون آخرتكم ونهايتكم فيستريح منكم المسيح ومن دعاواكم الباطلة ، كذلك يحمل على البابا رجل الدين الذى حرض على القتال ، ولا يرى فيه سوى كاهن من كُهّان الشؤم الذين لا يعيشون إلا على خراب الناس ، ويقرنه بكاهنى الجاهلية شق وسطيح . ثم يهددهم بعد هذا كله بقوة المصريين ، وبأن المصير سيكون كما كان ، فدار ابن لقمان التى أسر بها الملك باقية ، وكذلك القيد والطواشى صبيح بالدار .

ولم يعش ابن مطروح بعد وقعة المنصورة ، سنة ٦٤٧ هـ ، وانقضاء الدولة الأيوبية بموت المعظم توران شاه وشجرة الدر سوى سنتين وبضعة أشهر إذ توفى فى أخريات سنة ٦٤٩ هـ أو سنة ٦٥٠ هـ على قول بعض المؤرخين ، ولم يبلغ الستين من عمره(١) .

وكانت شخصية ابن مطروح فيما يبدو شخصية الرجل الجاد الصريح الذى يمتاز بالصدق والوفاء وإن كانت تميله العصبية للرأى والتشدد وعدم اللين أحياناً قال ابن تغرى بردى : « كان جواداً ذا مروءة ، متعصباً سمحاً حليماً ،

(١) راجع وفيات الأعيان ، وشذرات الذهب ٥ / ٢٤٧ ، النجوم الزاهرة ٧ / ٢٤ .

حسن الظن بالفقراء ، عارفاً فاضلاً »[1]

وكان مخلصاً فى صداقاته وفياً لمن تعلق بهم ، ويذكر لنا التاريخ وديوان شعره نماذج من هذا الإخلاص والوفاء فى صداقته للبهاء زهير ، وللصالح نجم الدين أيوب . وقد تبادل وصديقه البهاء زهير كثيراً من الشعر يدل على المحبة بينهما ، منه وقد كتب إليه متشوقاً :

رحلتم وطلقت المسرات بعدكم ... ثلاثاً وراجعت الهموم على رغمى
وقد كان همى وحده فيه مقنعى ... فجاءَ الذى أبى وزاد على همى
سلام الله على اللذات بعد فراقكم ... إلى أن تعودوا بالسلامة والغنم[2]

وكان البهاء زهير راسله وهو مريض يسأل عنه فكتب إليه :

أيا من راح عن حالى ... يسائل مشفقاً حدبا
ومن أضحى أخاً لى فى الـ ... وداد ، وفى الحنو أبا
وحقك لو نظرت إلىّ ... كنت تشاهد العجبا
جفوناً تشتكى غرقاً ... وقلباً يشتكى لهبا
وجسماً جالت الأسقا ... م فيه فصار منتهبا
تسائل أنفس العوا ... شين عنى أعين الرقبا
فتذكر أنها لحست ... خيالا فى خلال صبا
فواحربا وهل يشفى الـ ... ـمتيم قول واحربا
فبالود الذى أمسى ... وأضحى بيننا نسبا
إذا أنا مت فاندبنى ... فرب أخ أخا ندبا
وقل مات الغريب فأيـ ... ـن من يبكى على الغربا
قضى أسفا كما شاءَ الغـ ... ـرام وما قضى أربا

وتحدث فى شعره بخصاله وفيها يفخر بأنفته وعزة نفسه . يقول :

قالت سل الأيام قلت أنا امرو ... تأبى السؤال خلائقى وتخلقى
وإذا سألت رباً راحماً ... قطعت يد مدت إلى مسترزق

(١) النجوم الزاهرة ٧ / ٢٧ .

(٢) ديوان ابن مطروح ١٩٤ .

لأكلفن الجرْد مالم تستطع صبراً عليه يعملات الأينق

واختلفت موضوعات شعره ، ولكن غلب عليها الموضوعات السياسية التي تتناول بعض مشكلات عصره بين أمراء بنى أيوب وملوكهم أو بين قادة الجند وفئاتهم ، أو فى مديح من اتصل بهم وانتصر لهم ، أو فى وصف معارك المسلمين والمصريين مع الصليبيين .

وليس لابن مطروح كما للبهاء زهير شعر كثير فى اللهو والدعابة ، وربما كان ذلك لعزوف منه على هذه الجوانب ، وهو القائل :

إليك عنى فليس اللهو من شيمى فما خلقت لغير المجد والكرم
إذا مددتُ يداً والكأس مترعة فإن كفى للقرطاس والقلم

ومع هذا فإن له الغزل الرقيق الذى يطرزه بضروب الصنعة المعنوية واللفظية . ويجرى فيه على طريقة شعراء العصر ، ومنه قوله :

سمعتها تشتكى لدايتها شكوى تذيب القلوب والمهجا
تقول يا دايتى بليت به وما أرى من هواه لى فرجا
ومثل ما بى به ولا عجب هوى بقلبى وقلبه امتزجا
فهل سبيل إلى زيارته ولو ركبت البحار واللججا
وإن درى والدى بقصتنا أراق يا دايتى دمى حرجا
فرحت مما سمعت مبتهجاً كشارب الراح راح مبتهجا

وربما يحس القارىء لهذه المقطوعة بمباراته لبشار بن برد فى بعض غزله الصريح ، ولكنه يتخذ أسلوبه ولا يذهب مذهبه فى التصريح الفاضح ، وربما لمسنا مثل هذه المجاراة فى شعره فى الفخر . وقد مر بنا مثال له لكبار الشعراء الذين اشتهروا بالفخر كالمتنبى ، وأبى فراس والشريف الرضى .

ومن غزله الذى تكسوه الصنعة قوله :

وبيضاءَ كالسمراءِ ليناً وقامة ولم أر غيرى شبه البيض بالسمر
ثنى حسنها طرف عن البدر إذا بدا وقبلت فاها فاغتبقت من الخمر
ولم ألتفت للظبى لما تلفتت وملت وقد مالت عن الغصن النضر

على أنّ فى الأغصان منها مشابهاً إذا ما تثنت فى غلائلها الخضر
وقد نسخت لى آية السخط بالرضا ولم أر مثل اليُسْرِ يأتى على العسر
فبت ويهنينى لذيذ عناقها وقد قيدتنى فى قيود من الشعر
وتكسر لى أجفانها عند ضمها فتجبرنى فى ذلك الضم بالكسر
فما شئت من ضم ولثم وغير ذا وقالوا درى الواشى فقلت لهم بدرى

وله مقطوعات فى الهجاء منها فى هجاء الوزير الصاحب شريف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى ، وكان وزيراً للملك العادل أبى بكر بن أيوب :

لعـن الله صـاعـداً وأبـاه فصـاعـدا
وبنيـه فـنـازلا واحـدا ثم واحـدا

ويُنسب البيتان للبهاء زهير كذلك[1]

ومن شعره يهجو بعض المخنثين :

يأتيك كالقينة مكحولة عيناه مخضوب بنان اليد
يسخر بالسمر وما فعله من فعلهم عندى بمستبعد
يا ذا الذى أعنيه من سره يومك فالويل له فى غد

وقال يهجو أهل دمشق – وقد أقام بها زمناً :

تخذتم السبت يوم عيد وهـذه سـنـة اليهود
وكان يكفيكم ضلالا شربكم الماءَ من يزيد

وله شعر فى الخوف من الموت ، والتوبة والضراعة إلى الله ، قاله أثناء مرضه الأخير منه :

تجزع للموت هذا الجزع ورحمة ربك فيها الطمع
ولو بذنوب الورى جئته فرحمته كلَّ شىءٍ تسع

ويقول :

يا من إذا دعاه عبده وجده ولا يخيب لديه قصد من قصده
امدد يديك بإحسان ومغفرة لمذنب مد مضطراً إليك يده

---

(١) النجوم الزاهرة ٧ / ٥٨ .

وقال متضرعاً إلى ربه :

يا أيها الشامخ فى قربه	يا أيها الظاهر فى حجبه
بالباب كلب وجل خائف	من طول ما أسلف من ذنبه
جاءك يستغفر ما قد جنى	ملقى من الذل على جنبه
وهو مع الخوف شديد الرجا	فأنت يا مولاى أولى به
منكس من خجل رأسه	باسط خديه على تربه
فهل له غيرك من راحم	هل يرحم الكلب سوى ربه
وهل له منك طمأنينة	تدخل بالأمن على قلبه

ولا يزال كذلك فى هذا اللون من الشعر الذى قاله فى مرضه وضعفه ، ويذكرنا بشعر أبى نواس كذلك الذى قاله فى مرضه .

ونعود لنعرض ونلخص فنه الشعرى فنقول إنه كان فى موضوعاته يجرى على ما جرى عليه الشعراء ، ولكنه شغل بمشكلات عصره وحياته وحياة ممدوحيه من الرؤساء ، كما قال الشعر الرقيق فى الغزل وتبادله مع بعض معاصريه من الشعراء كما جرى بينه وبين الشاعر ابن الجزار المصرى ، وبين صديقه البهاء زهير[1] .

وكان شعره سهلاً ، وإن عمد أحياناً إلى اللون التقليدى ، وإلى ضروب من الصياغة الرصينة يحاكى بها الشعراء القدامى إلا أن غالبية شعره سهلة اللفظ قريبة المعانى ، ولكن تنقصه خفة الروح التى امتاز بها صديقه البهاء زهير ، وقد عللنا هذا بأنه كان رجل دولة وسياسة ، وجد ، ولم يكن كثير الملل للهو كغيره من شعراء العصر ، لهذا بدت على شعره جهامة .

(١) النجوم الزاهرة ٧ / ٢٩

زكي الدين بن أبي الأصبع

الشاعر الناقد

عاش زكي الدين فى هذه المرحلة التي عاشها البهاء زهير وابن مطروح . أى فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، فقد ولد سنة تسع وثمانين ، أو خمس وتسعين بمصر[1] وتوفى سنة ٦٥٤ هـ .

تلقى علومه على شيوخ عصره ونبغ فى علوم العربية ، وخاصة فى الأدب واللغة والنحو وتفسير القرآن ، وصف بأنه « الشاعر المشهور » ، « الإمام فى الأدب » ، ووصف شعره بأنه رائق . كذلك عرف بأنه فقيه شافعي[2] .

واتصل بجماعة من ملوك وأمراء عصره ، ورافق الملك المعظم عيسى بن العادل ابن أيوب صاحب دمشق . قال صاحب معاهد التنصيص « ومدح الأشرف موسى »[3] ، وكان الأشرف نائباً على الإمارات الشرقية من الدولة الأيوبية . وقد لزمه زماناً .

وأكثر ابن أبي الأصبع من الرحلات فى الشام والعراق ثم عاد إلى مصر . وله شعر فى مديح هؤلاء الملوك ، أشار إلى بعضه فى « تحرير التحبير » واقتبس منه . ومن بين من ذكر من ممدوحيه الملك المعظم عيسى ، والملك الأشرف موسى ، والملك الظاهر الخضر بن صلاح الدين ، والملك محمد بن العادل أبى بكر ، كما مدح كبار الدولة الأيوبية يذكر منهم فخر الدين عثمان بن قزل .

والتقى بجماعة من علماء عصره فأخذ عنهم كالعلامة زكي الدين محمد بن عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى المحدث ، وبالقاضي السعيد بن سناء الملك الشاعر المشهور ، وجماعة من شعراء المصريين كالسراج الوراق ، وعفيف الدين التلمساني ، وأبى الحسين الجزار .

---

(١) راجع مقدمة تحرير التحبير نسخة الأستانة الخطية ترجمت بقلم أحمد زين عبد القادر بن مكتوم .
(٢) السلوك للمقريزي ١ / ٤٠١ .
(٣) معاهد التنصيص ٤ / ١٨٠ ، وتحرير التحبير .

وينقسم شعره قسمين : شعر فى المديح والمناسبات والمطارحات بينه وبين شعراء عصره وفى موضوعات الشعر التقليدية الأخرى كالوصف والهجاء والرثاء وما إليها ، والقسم الثانى فى المديح النبوى سماه « صحائح المدائح »[1] فى مدح النبى والخلفاء الأربعة . ومدائح أهل بيته عليهم السلام .

ومن مديحه الذى استغل فيه فنون البديع قوله يمدح الملك الأشرف موسى :

فضحت الحَيا والبحر جوداً فقد بكى الـ ـحيا من حياءٍ منك والتطم البحر

ويقول من هذه القصيدة :

عيون معانيها صحاح وأعين الـ ـملاح مراض فى لواحظها كسر
هى السحر فاعجب لامرىءٍ جاءَ يبتغى عواطف من موسى وصنعته السحر

ويكثر العلماء من الاستشهاد بشعره فى الغزل والمجون ، وغزله متوسط يكثر فيه من الصنعة ومثاله قوله :

أُعر مقلتى إن كنت خير موافق دموعاً لتبكى فقد حب مفارق
فقد نضبت يوم الوداع مدامعى وشابت لتشتيت الفراق مفارق

ومنه قوله :

تصدق بوصل إن دمعى سائل وزود فؤادى نظرة فهو راحل
إذا جل ليلى أُحيت الوجد أُدمع همت فهى للصبر الجميل قواتل

وقـوله :

فديت التى إذ ودعتنى أُودعت من اللفظ سمعى ساعة البين جوهرا
فلما التقينا رد دمعى لنحرها وديعتها فهى اللآلى التى ترى
بكت ورنت نحوى فجرد لحظها من الجفن سيفاً بالدُّموع مجوهرا

ومنه من التصنع البين على سبيل إبداء البراعة فى استخدام البديع فى النظم :

تبسّم لما أن بكيت من الهجر فقلت ترى دمعى فقال أرى ثغرى
فديتك لما أن بكيت تنظمت بفيك لآلى الدمع عقداً من الدرّ
فلا تدعى يا شاعر الثغر صنعة فكاتب دمعى قال ذا النظم من ثغرى

(١) بديع القرآن .

ومن خمرياته ومجونه قوله على طريقته نفسها فى استخدام البديع :

وساقٍ إذا ما ضاحك الكأس قابلت ... وقائعها من ثغره اللؤلؤ الرطبا
خشيت وقد أغضى ضجيعى على الدجا ... فأسبل دون الصبح من ثغره حجبا
وقسمت شمس الطاس بالكأس أنجما ... ويا طول ليل شمسه قسمت شهبا

وفى بعض هجائه فحش كالذى قاله فى قواد ادعى الفقه :

إن فلاناً أكرم الناس لا ... يمنع ذا الحاجة من فلسه
وهو فقيه ذو اجتهاد وقد ... نص على التقليد فى درسه
فيحسن البحث على وجهه ... ويوجب الدخل على نفسه

ومنه هجاؤه في يهودى طبيب :

رأيت أبا الخير اليهوديَّ ماسكاً ... بقارورة كالورس راق حليبها
وقد رش منها فوق صفحة خده ... وقال لقد أحيا فؤادى طيبها
فقلت له ما هذه قال بولة ... لأسود يشفى الداءَ منى قضيبها
قريبة عهد بالحبيب وإنما ... هو كل نفس أين حل حبيبها

ومنه قوله فى قيم حمام :

وقيم كلمت جسمى أنامله ... بغير ألسنة تكليم خرصان
إن أمسك اليد منى كاد يكسرها ... أو سرَّح الشعر من فوديَّ أدمانى
فليس يمسك إمساكاً بمعرفة ... ولا يسرح تسريحاً بإحسان

وله فى موضوعات أخرى كالحكمة والوعظ مثل أبياته :

من يذمم الدنيا بظلم فإنى ... بطريق الإنصاف أثنى عليها
وعظتنا بكل شيءٍ لو انَّا ... حين جادت بالوعظ من مصطفيها
نصحتنا فلم نر النصح نصحا ... حين أبدت لأهلها ما لديها
أعلمتنا أن المآل يقينــا ... للبلى حين حددت عصريها
كم أرتنا مصارع الأهل والأحبا ... ب لو نفيــق بين يديها
يوم بؤس لها ويوم رخاء ... فتزود ما شئت من يوميها
وتيقن زوال ذاك وهــذا ... تسل عما تراه من حالتيها

دار زاد لمن تزود منها وغرور لمن يميل إليها

هذا وشعره فى المديح النبوى يجرى على سنن المدائح المعروفة فى عصره والعصور التالية . وقد ذكر فى بديع القرآن[1] أن له شعراً فى النبى ﷺ ، منها قصيدة طويلة نظم فيها ما فى الشفا للقاضى عياض من دلائل نبوة رسول الله وخصائصه وعدتها ٣١٥ بيتاً أولها :

بسكر الصبا أعطافها تتأود فألحاظها سكراً علينا تعربد

ثم يقول : « والقصيدة مشهورة ، من أراد الوقوف عليها بجملتها وجدها فى جزء وحده أفردته من شعرى » .

ابن أبى الأصبع المؤلف الناقد :

قال ابن تغرى بردى « وهو صاحب التصانيف المفيدة فى الأدب وغيره »[2] . وقال ابن شاكر « الإمام فى الأدب ، له تصانيف حسنة فى الأدب »[3] . وتذكر المراجع له مجموعة مؤلفات فى القرآن والأدب والنقد ، بديع القرآن ، وبيان البرهان فى إعجاز القرآن ، والجواهر السوانح فى أسرار الفواتح . ويذكر بعض المؤلفين له كتابين فى الإعجاز دون الاشارة إليهما باسمهما أحياناً ويقصد بهما كتابا البديع والبرهان . ولم يصلنا شيء عن البرهان ، فإن معظم من نقلا عنه أخذوا عن كتابى « بديع القرآن » و « تحرير التحبير » ، وأكثر من نقلوا عنه تقى الدين السبكى فى عروس الأفراح ، وابن حجة الحموى فى الخزانة ، والبغدادى فى الخزانة أيضاً .

وقد أشار إلى بيان البرهان فى كتاب البديع . وأما كتاب الجواهر السوانح[4] فقد ذكر فيه ابتداءات السور ، جملتها وتفصيلها ، ومفرداتها ومركباتها ومعجماتها ومعرباتها ، ونظر فى أعداد حروفها وما يوافق أعدادها من العدد

---

(١) بديع القرآن .

(٢) النجوم الزاهرة ٧ / ٣٧ .

(٣) فوات الوفيات ١ / ٢٩٤ .

(٤) وربما كان اسمه الخواطر السوانح ، وقد ذكر معه كتاباً آخر فى بديع القرآن سماه « الكافلة بتأويل تلك عشرة كاملة » .

الحسابى ، وما نسب إليه من المعانى .. الخ .

وله كتاب فى الأمثال جمع فيه الأمثال من شعر أبى تمام والمتنبى ، وما توارد فيه المتنبى مع أبى تمام ، وقدم لذلك بالأمثال من القرآن ، والأمثال من الأشعار السبعة ، والحماسة ، وختم الجميع بأمثال العامة(٢) .

وأجل كتبه بعد البديع « تحرير التحبير » فى البديع عامة ، وقد ذكر فيه أبواب البديع التى عرفت إلى عصره وزاد عليها هو نفسه جملة أبواب .

وقد اهتم العلماء بهذا الكتاب وقرظوه . قال ابن العماد فى « شذرات الذهب » : صنف كتاب « تحرير التحبير » فى البديع ، لم يصنف مثله » .

وله كتاب فى الانتصار لقدامة بن جعفر يرد فيه على من انتقده فى كتاب « نقد الشعر » أمثال الآمدى ، وابن رشيق القيروانى ، وضياء الدين بن الأثير . وسمى هذا الكتاب « الميزان فى الترجيح بين كلام قدامة وخصومه » . وقد أشار إلى هذا الكتاب فى تحرير التحبير فى أكثر من موضع .



المراجــع

أتابكة الموصل لعز الدين بن الأثير – ضمن مجموعة Receilles des Historiens des Crossades; Historiens orientaux Vol. II.

أحسن التقاسيم – للمقدسى

أخبار الدولة السلجوقية

أدب الحروب الصليبية للدكتور عبد اللطيف حمزة – دار الفكر العربى بمصر سنة ١٩٤٩ م .

إرشاد الأريب لمعرفة الأديب « **معجم الأدباء** » لياقوت ط الدكتور فريد الرفاعى وطبعة Gibb Memorial

أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء

بدائع البدائة لابن ظافر

البداية والنهاية لابن كثير – طبع مطبعة السعادة بمصر سنة ١٩٣٢ هـ

تاريخ الشعوب الاسلامية – مترجم – لكارل بروكلمان

تاريخ العرب – مطول – للدكتور فيليب حتى

تاريخ الموصل لسليمان صائغ ط بيروت سنة ١٩٢٨ م

تراجم رجال القرنين السادس والسابع « ذيل الروضتين » – لأبى شامة

ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى – طبع مصر سنة ١٣٠٠ هـ

الجامع المختصر لعنوان التواريخ وعيون السير لعلى بن أنجب بن الساعى

الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى للدكتور عبد اللطيف حمزة طبع فى مصر سنة ١٩٤٧

حسن التوسل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين الحلبى – ط هندية بمصر سنة ١٢١٥ هـ

الحروب الصليبية للدكتور حسن حبشى

الحياة العقلية فى مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك للدكتور أحمد أحمد بدوى مصر سنة ١٩٥٤ م

خطط الشام ودمشق لمحمد كرد على طبع دمشق سنة ١٩٤٥

خطط دمشق لصلاح المنجد

خطط الموصل – لأحمد الصوفى طبع الموصل سنة ١٩٥٣

خريدة القصر لعماد الدين الأصبهانى – قسم شعراء مصر ، وقسم شعراء الشام

خزانة الأدب – لابن حجة الحموى – طبع مصر ١٣٩٤ هـ
دائرة المعارف الإسلامية
درر الحبب فى تاريخ حلب
الدرر النظيم من ترسل عبد الرحيم جمع ابن عبد الظاهر – مخطوط مصور
الدرر الثمين فى سيرة نور الدين – مخطوط بالبلدية بإسكندرية
دمشق الشام لجان سوفاجيه (مترجم)
دمشق فى العصر الأيوبى لمحمد ياسين الحموى ط دمشق سنة ١٩٤٦
الدولة الخوارزمية
ديوان ابن التعاويذى
ديوان ابن النبيه بتحقيق عمر الأسعد
ديوان البهاء زهير
ديوان ابن مطروح
ديوان على بن مقرب الاحسائى – ط حجرية بالهند
ديوان عمر بن الوردى ط حجرية سنة ١٣٠٠ هـ
ديوان عمر بن الفارض
ديوان الأبيوردى
ديوان المشد – مخطوط
ديوان الملك الأمجد
« **الروضتين** » لأبى شامة – طبع مصر سنة ١٢٨٨ هـ
سيرة القاهرة – ستانلى لانبول وترجمة دكتور حسن إبراهيم حسن
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد
الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى – حافظ حمدى
شرح مقامات الحريرى للشريشى
شرح مقامات الحريرى للمطرزى– مخطوط بمكتبة البلدية الإسكندرية
الشعر الأندلسى لجارسيا جوميز (مترجم)
رحلة ابن جبير – ط Gibb Memorial
الرسالة المصرية لابن أبى الصلت – مجموعة نوادر المخطوطات نشر عبد السلام هارون
سرو النفس للتيفاشى تحقيق د. إحسان عباس
عروس الأفراح لتاج الدين السبكى – طبع بولاق بمصر سنة ١٣١٧ هـ
العمدة – لابن رشيق طبع التجارية سنة ١٩٥٥

الفاضل من إنشاء الفاضل – اختيار ابن نباتة المصرى – مخطوط بدار المخطوطات المصرية
الفن ومذاهبه فى النثر العربى – للدكتور شوق ضيف – لجنة التأليف بمصر سنة ١٩٤٦م
فوات الوفيات – لابن شاكر ط محيى الدين طبع بمصر سنة ١٩٥٢
الفنون الإسلامية – م.س ديماند (ترجمة أحمد محمد عيسى) طبع المعارف بمصر سنة ١٩٥٤
فنون الإسلام – زكى محمد حسن – طبع مصر سنة ١٩٤٧ م
الكامل فى التاريخ لعز الدين بن الأثير
الكواكب السائرة فى أخبار مصر والقاهرة
مأمون بنى أيوب – للدكتور أحمد أحمد بدوى
المختصر فى أخبار البشر – لأبى الفداء طبع القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ
مرآة الجنان – لليافعى ط حيدرآباد بالهند سنة ١٣٤٠ هـ
مرآة الزمان – ليوسف قزاوغلى – جـ ٨ ط الهند
المثل السائر – لضياء الدين بن الأثير ط بولاق ، طبع محيى الدين بالتجارية
المسالك والممالك – لابن خرداذبة
المستطرف من كل فن مستظرف – للأبشيهى
مصر فى العصور الوسطى – للدكتور حسن إبراهيم حسن
معجم البلدان – لياقوت
معجم السفر – للسلفى أبو طاهر – مخطوط مصور
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب – بتحقيق الدكتور الشيال
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار – للمقريزى طبع مصر سنة ١٣٢٦ هـ
النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة – لابن تغرى بردى
النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة لابن سعيد د. حسين نصار .
نهاية الأرب للنويرى
النوادر السلطانية – لابن شداد طبع مصر سنة ١٩٠٣ م
نزهة الألباء – لابن الأنبارى – ط مصر سنة ١٢٩٤ هـ
وفيات الأعيان – لابن خلكان ط محيى الدين عبد الحميد – مصر سنة ١٩٥٢ م
الوافى بالوفيات – للصفدى جزء واحد
الوشى المرقوم فى حل المنظوم ونظم المنثور – لضياء الدين بن الأثير

المراجع الأجنبية

Ameer Ali: A Short History of Saracens.

Arnold: The Legacy of Islam.

Arnold: Painting in Islam.

Browne: A Literary History of Persia.

Gibb H.A.R.: Arabic Literature – An Introductione London 1926.

Encyclopaedia Britannica.

Lanepoole: Saladin.

Lanepoole: The Mohammedan Dynasties, London 1975.

Le Strange: The Lands of the Eastern Caliphates. Cambridge 1905.

Nicholson: A Literary History of Arabs. London 1907.

Receilles des Historiens des Crossades; Historiens orientaux Vol. II.

الفهارس



الفهـــارس الفنـــية



أولاً : فهـرس الأعـــلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ح)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض) ، (ط)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

ثانياً : فهـرس القـوافى

التاء

الجيم

الحاء

الزاى

السين

العـــين

الكـــاف

الميم

الهـــــاء

اليـــــاء

ثالثاً : فهرس الآيات القرآنية

الآيـــة	السورة	الآية	الصفحة
١ - أهدنا الصراط المستقيم	الفاتحة	٦	٤٨٣
٢ - فاذكروني أذكركم وأشكروا لي ولا تكفرون	البقرة	١٥٢	٤٢٧
٣ - .... حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ..	البقرة	١٨٧	٢٨٩
٤ - كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله	البقرة	٢٤٩	٥٢٧
٥ - ونزعنا مافي صدورهم من غل	الأعراف	٤٣	٢٩٩
٦ - قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون	الأعراف	١٣٨	٣٠٨
٧ - ولو أن قرآناً سيرت به الجبال	الرعد	٣١	٢٩٨
٨ - لكل أجل كتاب	الرعد	٣٨	٢٤٤
٩ - أتى أمر الله فلا تستعجلوه	النحل	١	٥٢٧
١٠ - وإن يستغيثوا يغاثوا بماءٍ كالمهل يشوي الوجوه	الكهف	٢٩	٢٢٣
١١ - وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم	النور	٢٢	٤٢٨
١٢ - والطير صافات ..	النور	٤١	٢٩١
١٣ - وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون	الشعراء	٢٢٧	٥٢٧
١٤ - إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم	النمل	٣٠	٢٥٨
١٥ - إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد	القصص	٨٥	٨٠
١٦ - وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم	الأحزاب	٢٦	٢٩٢
١٧ - وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون .. وكل في فلك يسبحون	يس	٣٧	٢٨٤
١٨ - والطير محشودة ..	ص	١٩	٢٩١
١٩ - ولتعلمن نبأه بعد حين	ص	٨٨	٥٢٧
٢٠ - حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ..	الزمر	٧٣	٢٩٨

رابعاً : فهرس الكتب

(ج)

أمر الايـــداع ٨٩/٧٢ ٢٣٣

الترقيم الدولى ٩٧٧-١٠٣-٥٠٩-٦

رواى RAWAY للطباعة

١٥ شارع عمر بن عبد العزيز - العصافرة - الاسكندرية